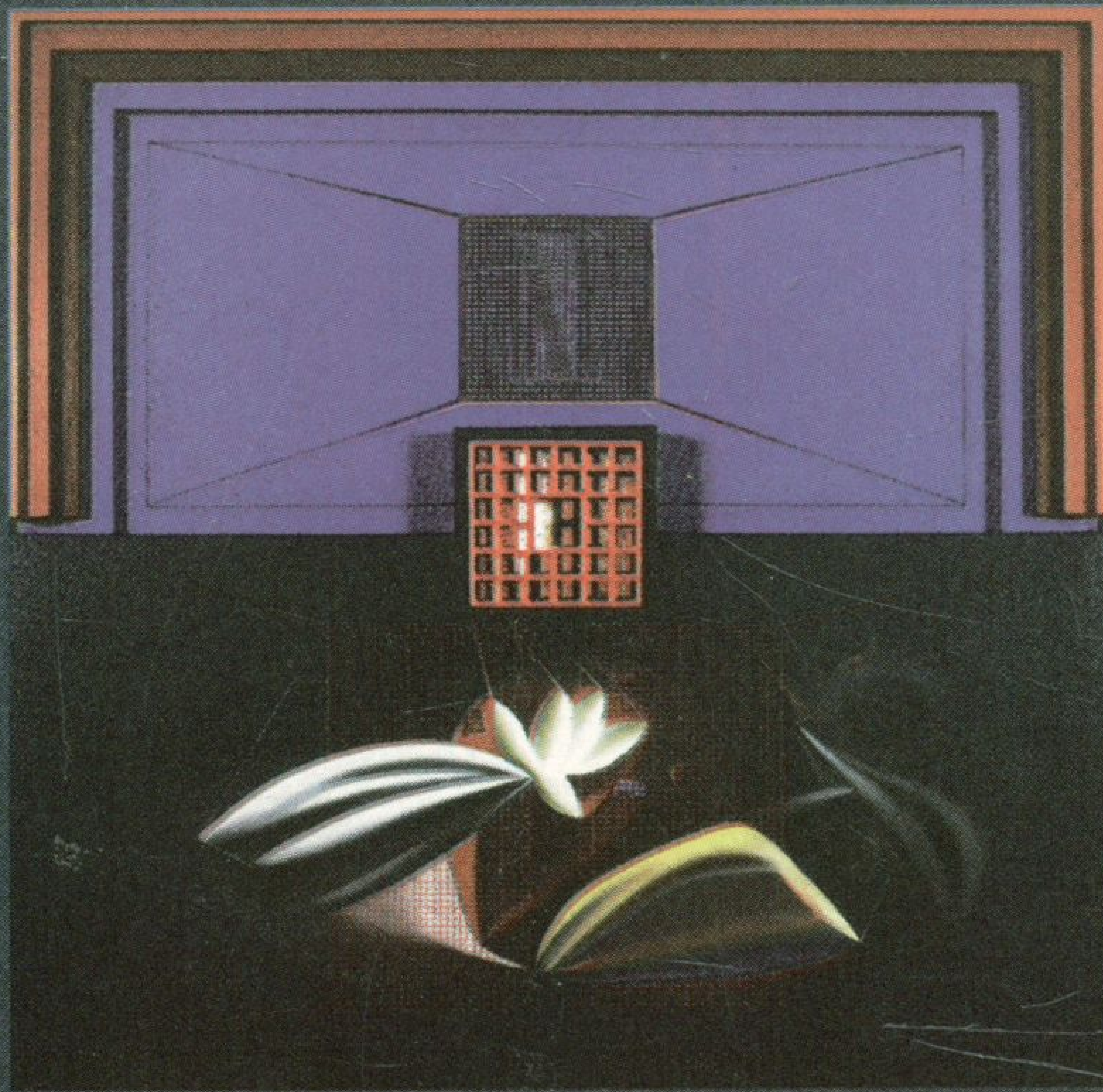
رواية

أحمد إبراهيم الفقيه

الثلاثية الروائية



سأهبك مدينة أخرى
هذه تخوم مملكتي
نفق تضيئه امرأة واحدة



إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس
المملكة العربية السعودية

الثلاثيّة الروائيّة

سأهبك مدينة أخرى
هذه تخوم مملكتي
نفق تضيئه امرأة واحدة

سأهبك مدينة أخرى ؛ هذه تخوم مملكتي ؛ نفق تضيئه امرأة واحدة / ثلاثيّة روائيّة عربيّة
أحمد إبراهيم الفقيه / مؤلّف من ليبيا
الطبعة العربيّة الثالثة ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سيّد®
لوحة الغلاف :
أحمد نوار / مصر
الصفّ الضوئي :
المركز المصريّ العربيّ ، القاهرة

رواية

أحمد إبراهيم الفقيه

الثلاثيّة الروائيّة

سأهبك مدينة أخرى
هذه تخوم مملكتي
نفق تضيئه امرأة واحدة



سأهبك مدينة أخرى

زمن مضى وزمن آخر لا يأتي .

وبين الزمن الهارب والزمن الذي يرفض المجيء ، زمن ثالث ، مفازة من الرمال الحمراء ، تحرقها شمس تقف دون حراك ، وسط سماء لها لون الرصاص . أتمدد نائماً في سريري ، وأنا أسير عبر الأرض المحروقة تائهاً عن الظل والماء . ينبثق فوق رأسي طائر يخفق بجناحيه الأسودين . أركض لاهثاً كي أحتمي بظله ، ولكن الطائر يبسط جناحيه دون حراك ويحوم دائراً في ذات المكان . أدور مع دورته ، ألاحق ظله الهارب . يواصل الطائر حركته الدائرية حول عين الشمس . أتقلب في سريري ، وأدور مع دورة الظل ، راكضاً ، لاهثاً ، ظامئاً ، مسفوعاً بهواء ساخن كأنفاس الجحيم . أحس الإنهاك والدوار . ينضب من جسمي الهواء . أترنح ، أتهالك ، يأكل الطائر قرص الشمس ويطوي الأرض تحت جناحيه . وأسقط أنا فوق رمال الصحراء ميتاً .

توقظني من موتي طرقات على باب البيت . أجلس في سريري وأنا أرشح عرقاً ، ورأسي مازال مليئاً بالدوار . أمد يدي في الظلام أبحث عن كوب ماء وضعته قبل النوم ، بجوار رأسي . أبلل جفاف حلقي ، وأمشي دائخاً أفتح الباب ، فلا أجد خلف الباب أحداً .

زمن مضى وزمن آخر لا يأتي .

وبينهما متاهة لن تنتهي إلا عندما أهتدي إلى نبع الماء المدفون تحت الرمال . يأتي الصباح فأنسى النوم والكوابيس ، والأرض المفروشة بالجمر ، والمسقوفة بالرصاص . أمضي في شوارع المدينة ، أخترق تعليمات المرور وأجتاز الطريق أثناء الإشارة الحمراء . أسير بين الناس كمن يسبح في حوض من الماء .

- كأنك لا تعيش معنا .

عبارة يقولونها ، فتنزلق على سطح الذاكرة دون أن تترك أثراً . لم أعد أهتم بما يقولونه أو يفعلونه . أراهم فلا أرى إلا جزءاً من الفراغ الذي يغلف الكون ، وأسمع كلامهم فلا أسمع إلا ضجيجاً لا أفهمه ولا أتواصل معه . إنني فعلا لا أعيش معهم . بل أصبحت أكره أن أعيش معهم ، وأرى أن حياتي مجرد انتظار لزمن يرفض المجيء ، فأهرب إلى الزمن الذي مضى أبحث فيه عن فسحة شهيق وزفير . لم أهجر عملي بالجامعة ولكنني صرت أغيب كثيراً ولا أعتني بتحضير الدروس ، موقناً بأنه عمل زائد عن الحاجة ، لا نفع منه ولا ضرورة له . وما هذه اللغة الأجنبية التي أتولى تدريسها إلا لغة إضافية ، لا جدوى منها ولا حاجة لأحد بها .

- كأنك لا تعيش معنا .

تمّ كل شيء بحسب ما كنت أبتغي . فزت بالشهادة العالية التي تنتهي عندها أحلام الدارسين ، لأبدأ العمل مدرساً بالجامعة . قررت أن أنسى ومنذ اللحظات الأولى كل شيء عن السنين التي عشتها موفداً للدراسة بأقصى مدن الشمال . أبدلت ريشي كما تفعل الطيور بعد انتهاء الربيع . نزعت عن نفسي وفور وصولي ذلك الجلد القديم الذي لم يكن جلداً وإنما معطفه يلائم طقس تلك البلاد وانتفت الحاجة إليه بعد أن اختلف المناخ وتبدلت مشاهد الطبيعة وسطعت شمس الصحراء بعنفها وقسوتها . أردت أن أكون وفياً للتقاليد التي تحكم الكون وتمنعه من التصدع والانهيار ، فسعيت منذ البداية إلى الدخول راضياً في القوالب الجاهزة التي أعدها المجتمع لأبنائه الصالحين . متماشياً مع شروط البيئة ومجدداً انتسابي إلى الفرقة الناجية . أكملت نصف ديني بالزواج ، وسعيت لإتمام نصفه الآخر بالمداومة على الصلاة ، وعدت فرداً من أفراد القبيلة ، يسلم نفسه دون تحفظ لطقوسها وشرائعها .

- كأنك لا تعيش معنا .

وجدتهم يحتفظون لي بقطعة أرض هي حصتي من إرث الأب الميت .

قايضت الأرض بشقة بالطابق الرابع ، قريبة من الجامعة ولها مطبخ واسع به شرفة تطل على البحر . جئت للشقة بالزوجة التي أسعدها اتساع المطبخ وشرفته التي لا نرى البحر إلا منها ، وتأكدت في الوسط الجامعي مكانة الدكتور خليل الإمام ، الذي يعرف أسرار اللغة الإنجليزية بمثل ما يعرف كيف يحقق انسجاما وتوازناً مع البيئة التي ينتمي إليها . ثم بدأ كل شيء يتقوض وينهار عندما صرت أسمع طرقاً على باب البيت أثناء الليل ، وأقوم مفزوعاً من نومي ، أسأل من وراء الباب؟ فلا أسمع رداً ، وأفتحه فلا أجد أحداً .

- كأنك . .

إنني لا أعيش معهم ، ولا أعيش مع أي أحد آخر . حتى زوجتي صار وجودها بجواري على السرير كل ليلة ، عبئاً لا أقوى على احتماله . إنها لا تسمع طرقاً على الباب ولا تعتقد بجود الطارقين . يهرب مني النوم ، وأكره أن أعود إلى متاهة الحلم ، فأترك السرير وأذهب إلى المطبخ ، حيث أقف في شرفته المطلة من بعيد على البحر ، ألتقط أنفاسي وأسمع هدير الموج . يشرد ذهني لحظة ويعود ، فأجد أن لحظة الذكرى اتسعت لتستوعب جزءاً من العمر بكل ما حفل به من أحداث وصور ووجوه .

- إنه يكتب رسالته عن الليالي العربية .

تسطع في قلب الظلام أضواء مدينة بعيدة . وأستعيد مع تراتيل الموج ذكرى تلك الأيام التي حاولت أن أمحوها من تاريخي . فإذا بها تطفو على سطح الذاكرة ، حلقة من حلقات زمن بهيج تقوض وانتهى . أملأ صدري من هواء البحر وأنا أحس بشيء من الارتياح لأنني منحت ذاكرتي مدينة أخرى تهرب إليها ، من قسوة المدن التي تطاردها رياح الصحراء .

- إنه يكتب رسالته عن الليالي العربية .

يدخلني هذا التقديم دائرة الاهتمام والفضول ، ويحيطني بشيء من وهج الأسطورة العربية وسحرها . وأسمع سؤالاً عن الجانب الذي اخترت دراسته ، فأجيب بصوت يلونه الأداء المسرحي :

- عن العنف والجنس .

لم يكن العنف والجنس إلا موضوع دراسة مقارنة أكتبها عن أثر الأسطورة العربية في أدب اللغة الإنجليزية ، ولكنني أرى الاندهاش يغمر وجهاً أنثوياً مضيئاً ، فأترك النقاش الثقيل عن الأدب المقارن ، وأمضي وراء الإثارة التي يصنعها حديث العنف والجنس . إنه موضوع يليق بعصرنا كما يليق بكتاب الليالي ، أقول لها ، فالليالي ليست فقط سفائن سندباد ، وكنوز علي بابا ، وفضول حلاق بغداد ، ومصباح علاء الدين الذي يسكنه ملوك الجان . ليست فقط بساطاً سحرياً نسافر فوقه إلى جزائر الحلم . إنها العنف والجنس ، والعشق والموت ، والتعامل مع تلك المناطق البعيدة ، العميقة ، الغامضة ، في النفس البشرية . ويأتي السؤال بريئاً ممن لا تعرف من الليالي العربية إلا ما تنقله الرسوم المتحركة وكتب الأطفال :

- يبدو غريباً هذا الحديث عن العنف والجنس في ألف ليلة وليلة .

فأقدم لها الجانب المسكوت عنه ، الذي لا تقوله حصة الأطفال في التلفاز ولا تعترف به مقررات المنهج المدرسي . الملك الذي يعبث كل ليلة بصبية من صبايا مدينته ، يقطف بكارتها ثم يقطع رأسها . وأنقل لها تفاصيل المشهد الافتتاحي للكتاب ، عندما نلتقي بأولى ولائم الجنس والدم . أجساد عارية تتعانق وسط أحواض الماء ، والملك الذي يدخل إلى المشهد شاهراً سيفه ، معلناً نهاية الحب وبداية الموت . عنف وجنس ، وجنس وعنف ، وحديث يتكسر به جليد اللقاءات الأولى ، ليسهل بعد ذلك العبور إلى مخادع النساء المنبهرات بشرق الخرافات .

- وما الذي توصلت إليه حتى الآن؟ .

- ما زلت في بداية البحث ، ولكنني أقول لكم إن ما تسمونه تحرر العلاقات الجنسية ، وتظنونه اكتشافاً حديثاً من اكتشافات بلادكم ، كانت مجتمعاتنا الشرقية قد اهتدت إليه منذ مطلع القرون الوسطى .

كنت أعرف أن القرون الوسطى ما تزال تمارس قمعها الجنسي في تلك المجتمعات الشرقية التي جئت هارباً منها ، ولكن الحديث عن الكبت والانغلاق

لا يخدم قضية التواصل والحوار مع النساء اللاتي يطرحن هذا السؤال .

ومستعيناً بشهرزاد وذاكرتها السحرية ، بلصوص بغداد وشطارها ، بدراويشها وعشاقها وتجارها وقهرماناتها ، بالأميرات الباحثات عن الحب ، والمغامرين الحالمين بالمجد ، بالجواري القابعات خلف الخدور ، يملأن الأرض شجناً ودموعاً ، أو رقصاً وغناءً ، بالأمراء الذين يرتدون ملابسهم التنكرية ، والصعاليك الذين يتنكرون في ملابس الأمراء ، مستعيناً بالطلاسم والتمائم والأدعية والخواتم السحرية ، بالجنيات القادرات على طمس الطبيعة البشرية ، والمردة الطالعين من قماقم الملك سليمان ، ذهبت أبحث عن زمن أكثر بهجة من زمني القديم ، مرتدياً ملابسي التنكرية ، متخذاً مظهر رجل شرقي ، خرج لتوه من كتاب الأسطورة .

- ماهذا الذي تفعله أيها البدوي؟

لم يزعجني السؤال ، بقدر ما أزعجني أن ليندا تقوله وهي تتحاشي النظر إليّ . ظلت تقود السيارة وتضع عينيها على الطريق . أدركت بشكل غامض ما ترمي إليه . ولعلها ما عرضت أن توصلني في طريقها إلا لتقول لي هذا الكلام . فلقد رأتني منذ ليلتين أعود متأخراً إلى البيت ، ومعي امرأة تضع أصباغاً كثيرة على وجهها ، ولا بد أنها حسبتها إحدى النساء المحترفات . أعرف أن ليندا لا تحب أن يحدث ذلك في بيتها ولا أظنها ترتاح كثيراً لهؤلاء الطالبات اللاتي يزرنني . كان السؤال ناقصاً فبقيت صامتاً أنتظر بقيته .

- ألم تستطع الاهتداء إلى صديقة ثابتة؟

لعلها تريدني أن أترك بيتها وأبحث عن سكن جديد . ولكن لهجتها كانت هادئة ، لينة ، تحمل معاني الإشفاق بأكثر مما تحمل معاني الغضب والاستنكار . كان الطريق يمر بمحاذاة البحيرة التي تلثم تلة خضراء ، وكانت شمس الصباح تسقط على الماء وتنعكس على إسفلت الطريق وزجاج السيارات المارّة فترسل شرارات لامعة تلسع القلب وتوقظ أحلامه النائمة . لم أستطع أن أعترف بفشلي في تحقيق هذا الشرط الأساسي من شروط الاستقرار والأمان النفسي ، ولم أقل لها إن هذه العلاقات السريعة لا ترضيني ولا تحقق شوقي للالتقاء بالمرأة التي

تروي عطش القلب وتمنح ملامح واضحة لامرأة الحلم التي لا ملامح لها . تظاهرت بأنني لا أسعى للحصول على هذه الصديقة . وقلت ساخراً : إن صديقة واحدة لا تستطيع أن تملأ فراغ هذه الصحراء التي تمتد بلا حدود تحت أضلعي .

- ولكنك تحاول التعويض بشكل مرضٍ .

أراحني قليلا أن الاستنكار الذي ظهر في كلماتها لم يكن مصحوباً بتعبير مماثل على ملامحها ، فقد ظل يغمر وجهها فيض ابتسامة غامضة . جمال هادئ دون إثارة ، ووجه خلا من التزويق ومستحضرات التجميل ، وعينان عسليتان ، يوحي اتساعهما وغزارة أهدابهما بالألفة والأمان ، ويمنحان وجههاطابعاً شرقياً لولا شقرة الشعر وتورد البشرة وشدة نقائها . كانت قلعة أدنبرة التي تتربع فوق هضبة عالية ، تملأ الأفق وتهيمن على فضاء المدينة ، وقد بدت في هذا النهار الربيعي أكثر جمالاً وأقل تجهماً وكآبة مما هي عليه أيام العتمة والسحب السوداء .

- لا تكن مكتئباً هكذا .

لم يكن لاكتئابي علاقة بكلمات العتاب التي قالتها . إنها الكآبة التي يثيرها في نفسي جمال امرأة بعيدة المنال .

- هل سيجعلونك تنطق في المرة القادمة ، أم أنك ستظل دائماً تحمل الرمح؟

كان سؤالها تعليقاً على دور شاهدتني أقوم به مع فرقة المسرح الجامعي ، في مسرحية عن اجاممنون . حارس يحمل رمحاً ولا ينطق بكلمة واحدة . مما أورثني لقب «حامل الرمح» بين أصدقاء حانة العناقيد . أوضحت لها بأنني لم أشترك في هذه الفرقة بحثاً عن الأدوار الناطقة وإنما سعياً لإغناء حصيلتي اللغوية .

- سوف لن تضيف شيئاً إلى حصيلتك اللغوية بهذه الأدوار الصامتة .

تركتني قريباً من المسرح وواصلت طريقها إلى مركز المدينة .

- لن أبقى صامتاً على الدوام . وسأتكلم . لا بد أن أتكلم يا ليندا .

شيء في هذه المرأة يفتنني ، ولكن متى أجد القدرة على الكلام؟ كنت قد انتقلت قبل أربعة أسابيع للإقامة في هذا البيت الذي تقيم به ليندا وزوجها . أعياني التنقل بين الفنادق الرخيصة ذات الرطوبة العالية التي تحيط بالجامعة

وتعيش على إيواء الطلاب ، فأسعدني أن أجد زوجها يبحث عن مستأجر يستعين به على تسديد أقساط البيت الذي اشتراه حديثاً ولم يكمل تأثيثه بعد . أعجبتني الغرفة التي تستقل بحمامها ومطبخها في الطابق العلوي فاشتريت لها الضروري من الأثاث ، ووضعت وسائد فوق البساط ، مستغنياً بها عن الصالون .

رجعت مع المساء إلى البيت لأجد ليندا ترتدي قفطاناً منزلياً تشاهد بمفردها حلقات . «هنري الثامن» التي يعرضها التلفاز .

- ها هي إحدي شخصياتك المفضلة . ستجد هنا عنفاً وجنساً أكثر مما تحتويه لياليك العربية .

أعددت شاياً عربياً وأحضرت لها كأساً معي . جلست أشاهد شهريار الإنجليز في نوباته العصبية وهو يرسل بزوجته الفرنسية إلى المقصلة . لم يكن هذا الرجل شخصية خيالية كما شهريار الليالي . إن ما يفعله حقائق تاريخية تثير في النفس خوفاً لا تثيره الشخصيات الأسطورية مهما تجاوزت الحد في مجونها ومباذلها . انتهت التمثيلية فصعدت إلى غرفتي ، أرتدي منامتي ، وأتكئ فوق الوسائد أطالع ألف ليلة وليلة ، وأضع خطوطاً تحت المشاهد التي تهم دراستي . أنسى التاريخ وأدخل في الأسطورة . جاءت ليندا تطرق باب الغرفة . انتبهت وأنا أتأمل مسحة الكدر التي غطت ملامحها أن هناك شبهاً بينها وبين الممثلة التي قامت بدور آن بولين في التمثيلية . لا بد أن المصير الفاجع الذي لاقته تلك الفتاة الفرنسية هو الذي أفزع ليندا وزرع في عينيها هذا القلق .

- إنني قلقة من أجل دونالد . تأخر كثيراً هذه الليلة .

ها هو غيابه يأتي متوافقاً مع مشاهد الرعب التي أذاعها التلفاز ، فكيف ستواجه ليندا وحشة هذا الليل بمفردها؟ دعوتها إلى الجلوس فوق وسائدي وأسرعت أقفل كتاب الأسطورة وأطفئ مصباح القراءة ، وأنزع الغطاء عن زجاجة النبيذ .

- ما زال الليل في شبابه الأول ، فلماذا كل هذا القلق؟

- إنه لا يتأخر أثناء الليل ، إلا إذا أخبرني . وعندما فعل شيئاً كهذا منذ عام

مضى ، كان السبب أنه لم يكن لدينا هاتف بعد .

أحضرت من المطبخ أطباق الجبن والزيتون واللوز والفستق ، وضربت كأسي بكأسها قائلاً :

- لنشرب نخب الأزواج الذين لا يتأخرون عن زوجاتهم إلا مرة كل عام .

ليندا ودونالد ، مثال لصفاء العلاقات الزوجية وثباتها ، وسط بيئة تزهو بتناقضاتها ، وحرية العلاقات فيها ، وتمرد أهلها على سلطة المؤسسات بما في ذلك مؤسسة الزواج . وفي حين كان دونالد ، بطبيعته المنطوية نوعاً ما ، يضيق بالتعامل مع واجبات الحياة اليومية ، ويقضي وقته في اقتناء الكتب ومطالعة الأفكار البوذية والاستغراق في الأحلام وتفسيرها ، كانت ليندا تتحمل وحدها عبء تصريف حياتهما اليومية . تركت عملها بالمكتبة وتفرغت لقضاء حوائجه وحوائج البيت . تتولى قيادة السيارة والاعتناء بإصلاحها ، التعامل مع المصرف وجمعية الإسكان . تشتري له ملابسه ، تعتني بهندامه ، تتولى بنفسها قص شعره عندما يحتاج إلى قص . وتتركه ليمارس هواية اقتناء الكتب التي يعشق طبعاتها القديمة ، ويشترك في جمعيات تهتم بها ويسعى للحصول عليها حتى عندما تكون بلغة لا يعرفها . صار وجوده في البيت امتداداً لعمله بمكتبة الجامعة . ملأ ردهة البيت وأركانه بالرفوف ، وما أن يعود حتى يأخذ سلماً صغيراً يتنقل به بين هذه الرفوف وقد تهدل شعره الأشقر فوق عينيه ، يعيد تنسيق الكتب وتبويبها ، وأحياناً يستغرق في قراءتها وهو مازال واقفاً فوق السلم .

قالت وهي تنظر إلى ساعتها :

- سوف لا أتسامح معه هذه المرة .

أردت أن أستخف بهذا الغياب الذي أقلقها ، فقلت مازحاً :

- يكفيه عقاباً أنه لم يكن موجوداً ليرى المقصلة وهي تأكل عنق آن بولين ، لقد كان مشهداً مليئاً بالرعب والإثارة .

كنت قد سمعت منها كيف تعرفت على دونالد أثناء عملها بالمكتبة . كان أكثر العاملين صمتاً ، وأقلهم سعياً لإنشاء علاقة معها . وإذا تحدث فهو لا

يتحدث إلا عن كتبه أو عن أحلامه في الليلة السابقة ، فهو رجل كثير الأحلام ، ويؤمن بأن الأحلام التي نراها ما هي إلا تجارب أولية لأشياء سنراها تتحقق في المستقبل بشكل ما ، أو مشاهد من حياة سابقة عشناها قبل هذه الحياة . والمرة الوحيدة التي أظهر فيها مودة نحوها ، كانت لحظة أن أخبرها ، بأنه اكتشف أربعة حروف تتشابه في اسميهما ، وبدا سعيداً بقدرته على أن يصنع من هذه الحروف كلمة ذات معنى . وعندما توثقت العلاقة بينهما ، حتى صارا يعيشان معاً ، أخبرها بأنه سبق أن رأى كل ذلك في أحلامه ، وأنه كان يعرف منذ بداية لقائه بها ، بأنها ستكون زوجته .

– ما يجعلني أحبه أكثر ، هو أنه بعكس كل الناس الذين يستعجلون اليوم الذي يهجرون فيه طفولتهم ، بقي دونالد محتفظاً بطفولته صافية لا تجرؤ السنون على لمسها .

كانت آثار النبيذ الأحمر تمنح شفتيها لون الكرز الناضج . قلت لها وأنا أعالج غطاء الفلين وأفتح زجاجة نبيذ ثانية :

– أنت هبة منحتها له السماء . لأن الرجل لا يستطيع أن يبقى طفلاً إلا إذا وجد امرأة لا تكتفي بأن تكون زوجة وحبيبة وإنما أمًا أيضاً .

– أعتبر نفسي امرأة محظوظة لأنني اهتديت إلى رجل مثل دونالد .

كانت قد عاودت النظر إلى ساعتها تتساءل مرة أخرى عن سر هذا الغياب ، عندما سمعناه يفتح الباب . تركت كأسها مترعة ، وخرجت لاستقباله . عادت بعد ربع ساعة لتقول إنها أبدت له استياءها ، لأنه نسي أن يخبرها أو يهاتفها ، وأبلغته بلهجة حاسمة أن خصامها معه سوف يستمر إلى الصباح . بدأ النبيذ يؤثر في توازنها . ويضيف لوناً جديداً إلى كلماتها التي صارت تأتي أكثر بطأً بينما تزداد سرعة ارتشافها للشراب . لم أكن أتوقع عودتها ، وعندما عادت كنت أظنها ستكمل كأسها ، وتذهب إلى زوجها . ولكنها اتكأت بمرفقها فوق الوسادة حتى لامس شعرها زندي . رفعت نحوي وجهها لتقول شيئاً . لم أنتبه إلى ما كانت تقوله ، فقد توهج الفم مضيئاً وكأنه استقطب كل ما في الغرفة من أضواء .

وجـدت نفـسي ، دون وعي أو تفكيـر ، أنحني على وردة الفم ، المخـضلة بندى الخمر ، أقبلها . رفعت رأسي نادماً عندما لم أجد استجابة منها ، أو هذا ما تهيأ لي ، وهي تنتزع فمها من فمي . لأن ذلك لم يكن صحيحاً . فقد أدارت جسمها بحيث استلقت في حضني ، ووضعت رأسها فوق حجري ، وشبكت ذراعيها خلف عنقي ، ومدت جمرتين تطبق بهما على فمي ، لأجد نفسي أركض ، دونما حرج ، فوق حقول الرغبة ذات الأعشاب المشتعلة ، وأغتسل عارياً في الينابيع التي تتفجر فرحاً ونشوة . تمددنا فوق البساط وقد تحول الجسد الذي يعانقني إلى عاصفة تكنس النجوم من سمائها . كرة من نار تملأ الغرفة وهجاً واحتراقاً ، وتجرفني معها في لحظة الاشتعال والموجدة . أدهشني أن تتحول ليندا ، ذات المظهر الوديع الذي يقطر صفاء ورقة ، إلى كتلة من الشبق والهيجان والشهوة . جسم يتقن فنون العشق الليلي ، ويختزن في خلاياه صاعقة وبرقاً . حاولت أن أجد فرصة لامتاع النظر برؤية هذا الجسد الأنثوي ، الشهي ، العاري ، الذي تنطلق منه شرارات الرغبة ، ولكنه كان ملتصقاً بي ، مشتبكاً في عراك محموم مع جسدي . يتقلبان فوق أرض الغرفة ، غير عابئين بالصهيل والأنين والشهقات التي تحدث صخباً ، يخترق كثافة الجدران ويثير شبهة الزوج الذي ينتظر زوجته في الغرفة السفلى . لا شيء يستحق العناء في هذه اللحظة المتمردة على كل اللحظات ، الهاربة من كل الخرائط ، والتصميمات الهندسية ، وخطوط العرض والطول . الدماء تغزو الدماء ، والأنفاس تركض ، لافحة ، لاهثة ، لاختراق دوائر المألوف والمقبول ، والوصول إلى تخوم جديدة ، ومدارات جديدة ، ومدينة لا تشبه المدن الأخرى . انتهى العراك الشهي ، وارتمى الجسدان اللذان أثخنتهما جراح الليل وهدهما الاقتتال الجميل ، الواحد بجوار الآخر ، يسربلهما الخدر ، ويحيط بهما جو مفعم بالصمت ورائحة الخطيئة .

قامت ليندا من مضجعها . ظلت جالسة تضع رأسها بين ركبتيها ، عارية يتهدل الشعر الكستنائي أمام وجهها حتى يلامس الأرض . بقيت مستلقياً في مكاني ، أتأمل شامة صغيرة فوق زندها . سمعتها تقول بصوت ، واهن ، ضعيف ،

تخنقه العبرات :

- لم يكن هذا عدلاً في حقه .

عندما ذهبت وبقيت وحدي ، ظل الصدى يتردد في رأسي :

- لم يكن هذا عدلاً في حقه .

ولم يكن لما حدث تبرير إلا تبرير العفوية التي جاء بها . كنت مساقاً بقوة اللحظة وغوايتها . لحظة تواطأت فيها أضواء الغرفة التي أوت إلى فمها ، مع لون النبيذ الذي يصنع من الفم وردة أو جمرة ، مع تأثير النجوم التي تسطع بعد منتصف الليل بأضواء أقل براءة من أضوائها في أول الليل ، والتي تمارس من خلف الأسقف والجدران تأثيراً على قلوب البشر الفانين وتسوقهم إلى الخطيئة بقوة لا يملكون لها رداً . سأكذب على نفسي إذا قلت إنني لم أرغبها وأتمنى الفوز بها ، كنت دائماً أبعث لها بنداء صامت ، لكنه ملح ومثابر ، يدعوها مثل ناقوس معبد وثني ، إلى الإثم والغواية . ثمة شيء أثارني في هذه المرأة منذ أن التقيت بها لأول مرة ، وهي تأتي بصحبة زوجها إلى حانة العناقيد ، أياماً قبل انتقالي إلى بيتهما . كانت ليندا في ذلك اليوم ترتدي قميصاً مفتوح الصدر ، يكشف عن منبت نهديها ، حيث يرقد صليب من الذهب الأحمر . انعكست على الصليب أضواء موقد النار ، فأرسل وهجاً يضيء تناسقاً بهيجاً ، غامضاً ، في تكوينها وملامحها . لم أستطع إدراكه إلا عندما صرت محرجاً أعاود النظر إليها ، كان الطرف الأسفل من الصليب يرسم خطاً مستقيماً ، متصلاً بالخط اللذيذ الذي ظهر بين نهديها ، وبدا طرفه الأعلى ، كأنه جزء من خط يتصل وينقطع . أطلت إليها النظر لأكتشف أن نقرة بطرف ذقنها تصنع خطاً بالغ الرهافة والعذوبة ، يحيل على الفور إلى خط آخر ، صنعته فلقة صغيرة بشفتها السفلي ، وأن هذا الخط لا ينقطع إلا ليتصل بخط يشبه وشماً زال لونه وبقي أثره في أرنبة أنفها ، ليصنع هذا كله تكوينياً مدهشاً ، ويمنح وجهها طابعاً نبيلاً ينتمي إلى عصر أكثر جلالا ومهابة ، وما تمنيت شيئاً تلك اللحظة سوى أن ألثم هذا الخط ، هابطاً من منطقة الجبين وما بين الحاجبين ، إلى منطقة الصدر ومنبت النهدين . وبرغم أنني

حاربت هذه الرغبة بعد أن صار زوجها صاحباً وجاراً له حرمته ، إلا أن هذا الافتتان بليندا ترجم نفسه في سلوكي وتعاملي معها . بل لعله كان دافعاً أساسياً وراء انتقالي للمعيشة تحت سقف واحد معها ، وظل بطريقة لا واعية ينتظر فرصة أو ذريعة تتيح له القفز فوق أسوار المثل والأخلاقيات ، وصولاً إليها . إنني أفهم الآن لماذا كنت أحرضها على الشراب ، حتى أثملها النبيذ وأضعف قدرتها على الرفض والمقاومة . إن هذا الذي حدث دون كلام ، ووسط جو من الصمت والتواطؤ ، كان شيئاً مدبراً . كان تنفيذاً لخطة أتقنتها تلك الإرادة التي تعمل بصمت ودأب خلف الإرادة الواعية . ولذلك فإن القول بأن ما فعلناه لم يكن عدلاً ، لا يكفي للتعبير عن جسامة الإثم الذي ارتكبته في حق هذا الصديق . ولكن من أين جاءت ليندا بهذه الرغبة ، اللاذعة ، الحارقة ، وكأنها تختزن في جسمها نهماً إلى الجنس ظل محبوساً في قمقم منذ عهد الملك سليمان؟ تذكرت حديثها هذا الصباح عن العاطفة التي لا أحسن تصريفها ، والصديقة الثابتة التي يجب أن أكتفي بها ، فهل كان ذلك تلميحاً لشوق لم تبح به؟ وهل ترانا التقينا في منتصف الطريق؟

عندما أفقت في اليوم التالي كان النهار قد انقضى ، وكان الطقس ممطراً ، كثير الرياح ، فآثرت الاحتماء بالبيت . صنعت لنفسي شاياً ، وحمصت بعض شرائح الخبز ، وجلست أذاكر كتاباً عن أثر الليالي العربية في أدب العصر الفيكتوري ، وأتناول هذا الإفطار الذي جاء في موعد العشاء . لم أشأ أن أهبط إلى ردهة البيت لألتقي بليندا ، ورأيت أن أنتظر أخبار الساعة التاسعة في التلفاز لأجعلها ذريعة للخروج من غرفتي . جاء موعد الأخبار ووجدت الزوجين يجلسان قبالة الجهاز وأمامهما زجاجة من نبيذ أبيض كانا يتناولانه مع عشاء السمك . أخذت كأساً قدمتها لي ليندا ووضعت بصري في التلفاز . كنت أخشى أن تكون غاضبة مني ، نادمة لأنها أسلمت لي نفسها في لحظة ضعف وإفراط في الشراب . أدهشني أنني لم أجد أثراً في سلوكها معي ، للغضب والاستياء . تجرأت ونظرت في عينيها وهي تجمع الصحون ، فلم أجد أثراً للخطيئة فيهما . عاملتني بلطف ومودة ،

ورأت كأسي فارغة فملأتها مرة أخرى وأبدى دونالد استغرابه لأنه لم يرني عندما عدت إلى البيت ، فأخبرته بأنني لم أغادره طوال اليوم ، بارك بإشارة من رأسه هذا السلوك وقال يخاطب زوجته :

- ها قد بدأت الدراسة تشد قبضتها على هذا البدوي .

لعله يقول ذلك ساخراً . أتراه حقاً لم ينتبه لما حدث البارحة ، ولم يسمع الأجساد التي ملأت الليل صهيلاً وركضاً؟ . لابد أنه صادق فيما قال . إن دونالد لا يستطيع أن يكون شيئاً آخر غير دونالد . قطعة ثمينة ونادرة من البراءة والطفولة . كيف تواتيني الشجاعة على أن أنظر في عينيه ، وأدعي بعد الآن صداقته؟ . بقيت صامتاً ، متوتراً ، أعلق بصري بشاشة التلفاز مدارياً خجلي ، وأشبك ذراعي على صدري ، وكأنني أريد أن أصنع بهما حاجزاً يخفيني عنه أو يخفيه عني . لم أستطع أن أكمل التمثيلية البوليسية المليئة بالمطاردات التي بدأت عقب النشرة ، فاستأذنت منهما عائداً إلى غرفتي . لم أنتبه إلى مرور الوقت إلا عندما أطفأوا التلفاز .

- حفظ الله الملكة .

سكت نشيد الختام ، وبدا صوت المطر موحشاً كئيباً ، إلى حد أن أشعرني بالبرد ، فأوقدت مدفأة الكهرباء . قضيت النهار كله نائماً ، وستكون مهمة مستحيلة أن أستحضر نوماً هذه الليلة . سمعت خطى تصعد الدرج . فتحت الباب لأجد ليندا تحمل في يدها زجاجة نبيذ .

- اشتريت اليوم نبيذاً ، وجئتك بهذه الزجاجة تستعين بها على النوم . فلا بد أنك استنفدت ما لديك .

رأتني متردداً في أخذها فوضعت الزجاجة في يدي قائلة :

- لا تكن معانداً . إنها بوردو .

بادرت قائلاً وأنا أراها تستدير عائدة :

- ألا تشربين معي كأساً؟

أدركت وأنا أرى طيف ابتسامتها أنها لم تفاجأ بهذه الدعوة . وبشيء من المرح

والدعابة أمسكت يدها أسحبها إلى غرفتي قائلاً :

- إنها بوردو .

شملت ابتسامتها الوجه كله حتى ضاع الخط الجميل في فيض البهاء والابتسام . قلت وأنا أدفع المسمار اللولبي في فلين الزجاجة :

- من كان يشكك في الكرم الاسكتلندي فليأت ليرى بنفسه .

ومشمولا بهذا الكرم جلست فوق الأرض بجوارها ، أقاسمها الأقداح والقبلات . لم نتفوه بكلمة واحدة عن الحب أو الخطيئة أو دونالد . لم نتحدث عما فعلناه البارحة أو نبحث له عن تفسير . أسلم كل واحد منا نفسه إلى الآخر ، وكأن ما نشأ بيننا لم يكن إلا استجابة لقوة لا قدرة لأحد منا على دفعها أو الهروب منها . لا أدري بأي عذر تركت زوجها ، ولا أجدني بحاجة إلى أن أهدر وقتاً ثميناً بسؤالها عن ذلك ، فلابد أنه ذهب إلى النوم منذ وقت مضى . كان ميلاد هذه العلاقة بالأمس مغامرة واكتشافاً . كان اقتحاماً لأرض مجهولة . أما الآن فإن الأرض المجهولة لم تعد كذلك . صارت تفضي إلى آفاق أكثر رحابة واتساعاً وألفة . وما ان رأيتها بجواري حتى بدأت عبور مناطق الوجه والصدر التي فتنتني لأول مرة ، لاثماً جبينها وأنفها وشفتيها وذقنها وعنقها وصدرها ، صاعداً ، هابطاً ، مع هذا الخط المستقيم الذي له امتدادات ، وتجاوره دوائر وقباب وانحناءات ، ترسل هي أيضاً أشهى النداءات وأعذبها . أطوف بها مبهور الأنفاس ، مسلوب الإرادة كالدراويش ، أتزود ببركاتها ، وأغترف من نعيمها ، وأقبل في تبتل وخشوع عتباتها المباركة . كان المطر يضرب النافذة ، وكانت أسياخ الحديد في المدفأة تنفث وهجاً أحمر يطرد البرد . ولأمر ما بدا فعل الحب شيئاً لايحقق كامل نشوته إلا بالنار والمطر . لم تبك ليندا هذه الليلة كما فعلت ليلة البارحة . كانت أكثر مرحاً وانطلاقاً بعد ممارسة الحب . وعندما أبدت اقتراحاً بأن نرتدي ملابس الخروج ، ونأخذ السيارة ، ونقوم بنزهة ليلية عبر شوارع المدينة التي يغسلها المطر ، لم أندهش أو أعترض ، وجدته اقتراحاً يليق بهذه اللحظة المشتعلة نزقاً وجنوناً .

اندفعت بنا السيارة عبر حقول المطر والظلام ، تفر الأشجار هاربة إلى الخلف فتبدو كأنها أشباح تطل علينا وتختفي ، تقول كلاماً سريعاً غامضاً وتمضي . تجاوزنا بسرعة وسط المدينة وانتقلنا إلى الجانب الآخر منها ، حيث أخذنا طريقاً ريفياً خالياً من السيارات والأضواء . كنت قد جئت معي بزجاجات النبيذ لنشرب ماتبقى منها في أثناء النزهة . شربت من الزجاجة مباشرة ، وناولتها إياها . أرادت أن تفعل مثلي فسال النبيذ على ملابسها . انزعجت قليلاً ثم انفجرت ضاحكة وهي تنتبه إلى أنها لم تشرب في حياتها نبيذاً من فم الزجاجة مباشرة ، إلا هذه المرة .

– أنت الذي جعلتني أفعل ذلك . تريدني أن أكون بدوية مثلك ولكنني سأقاوم التصحر .

لم أسألها وهي تقود السيارة إلى أين ستمضي بنا . فقد كنت منتشياً باندفاعنا العشوائي وسط هذه الطبيعة التي تعزف نشيدها العنيف وتقيم أعراسها الوحشية بين الأدغال . تلألأت على البعد أضواء منتجع سياحي فوق تلة يغمرها الظلام . انعرجت السيارة صاعدة مع الطريق الضيق الذي يقود إليه . كانت حانة الفندق قاعة كبيرة يلمع رخامها الأسود تحت ضوء شاحب الاصفرار ، فيما توزعت الموائد في الأركان تاركة مكاناً فسيحاً للرقص ، وكان العامل يقف خلف البار يغسل صحونه وأكوابه . صنع لنا كأسين من مزيج عصير الفاكهة المخلوط بالكحول ، واتجهت ليندا إلى صندوق الاسطوانات ، تنتقي أغنية «ماري هوبكنز» «تلك كانت هي الأيام يا صديقي» ، ثم عادت تمسح عن وجهها وشعرها آثار المطر الذي أمسك بنا أمام الفندق . دارت الأغنية تطرد الصمت والسكون ، وتملأ المكان بالشجن الجميل . انسحب آخر رجل وامرأة من زبائن الحانة ، ورأينا العامل ينظر في ساعته فدعوناه إلى احتساء كأس معنا . تدفق صوت المغنية يوقظ الذكريات العتيقة ويصنع لنا ذكريات جديدة .

في سالف الأيام
كانت هناك حانة

وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو اثنين .

أسبلت ليندا رموش عينيها ، ورفعت رأسها ، ونشرت ذراعيها ، ودارت ببطء مع الغناء الدائر في صندوق الاسطوانات ، تنساب مع انسياب الموسيقى ، وتتحول إلى كائن لا يعيش إلا في حدائق الغناء . انتهت الأغنية ولكن ليندا التي تفتحت شهيتها للرقص واشتبك جسمها مع خيوط الموسيقى ، لم تكن تريد أن تنتهي . أدارت أغنية أخرى ذات إيقاع سريع ، وواصلت الرقص بتدفق وحماسة . جسد ينتفض ويرتعش ويخفق مثل خفق الأجنحة ، يعلن تمرده على جاذبية الأرض ، ويبوح بانتمائه إلى هذا الفضاء ، الذي لا يحده حد . ومسحوراً بانسياب جسمها فوق الرخام الذي يشع بأضواء سوداء ، وحضورها الخافق كفراشة من نار ، وهذه الإيقاعات التي تصدر نداء عاجلاً يدعو إلى الانطلاق والمغامرة ، تقدمت أشاركها الرقص . أحيط خصرها ، وأمد ذراعي بموازاة ذراعها . أشبك اصابعي بأصابعها وأدخل في طقوسها ، ومغمض العينين أسافر معها ، نطوي البراري ، ونجتاز المدن والغابات ، والأنهار والبحار ، وننطلق باتجاه جزيرة مسحورة معلقة بين السماء والأرض ، تمتلئ بأشجار من ضوء ، ثمارها الفرح والعشق . انتهت الموسيقى وتوقف إيقاع الطبول ، فبقينا للحظة متعانقين فوق جزيرة الضوء وكأننا نخشي الارتطام بأرض البشر ، والعودة إلى طبيعتنا الأولى ، بعد أن كنا كائناً واحداً لا يقبل القسمة على اثنين .

في طريق الخروج لاح لنا حوض السباحة المسقوف ، وقد تلألأت مياهه تحت انعكاس الأضواء التي تسللت من أروقة الفندق عبر جدران الزجاج . وقفنا لحظة نتبادل النظرات ، ودون كلام وجدنا أنفسنا نتسلل إلى صالة الحوض التي كانت دافئة معتمة . وكان الماء كلوح الزجاج ، ساكناً وشفافاً ومضيئاً . لم نشأ أن نضيء النور أو نحدث صخباً يلفت الانتباه إلينا . بصمت خلعنا ملابسنا ، وقذفنا بجسدينا في حوض السباحة .

من أين لحوض بارد ، في ليل اسكتلندي عاصف أن يبعث في النفس كل هذه النشوة؟ لعله ليس الماء ، وإنما هذه الأنثى الذهبية التي تقفز عارية في الماء

كعروس من عرائس الأساطير ، والتي تملك روحاً مفتوحة على فضاء المغامرة والجنون الليلي ، هي التي تجعل البدوي في نفسي يبدو مبهوراً ببهاء هذه اللحظة ، منتشياً بها ، لأنه يعرف أنها لحظة نادرة في حياته المجبولة من رمل وقيظ الصحراء . أين قرأت عن ديانة تقول إن أحد طقوسها أن يسبح الإنسان عارياً في مياه الأحواض والبحيرات؟ لعلها مجرد فكرة طرأت على ذهني الآن ، وكأننا بدخولنا إلى الماء نكمل طقساً في ديانة جديدة ، اخترعناها هذه الليلة . صلاة لإله نحن اللذين صنعناه على مقاس رغباتنا . أردت أن أحتفظ بصدرها فوق صدري وأنا أعانقها وأقبلها مستمتعاً بهذه العبادة الجديدة ، ولكنها صارت تنزلق وتنسل من بين أصابعي وكأنها ماء وسط الماء . أعدو خلفها وأحاول الإمساك بها فتهرب مني ، وتبتعد مسافة عني ، وترش وجهي بالماء وهي تضحك وتقفز وتخفق بذراعيها ونهديها وتغوص إلى قاع الحوض وتطفو في مكان غير المكان الذي أوهمتني أنها ذهبت إليه . أردت مجاراتها ، فغامرت بالغوص وراءها ، أطبقت فمي وأمسكت بأنفاسي واندفعت تحت الماء لألحق بها ، وعندما وصلت قريباً منها ، كانت المساحة قد أنهكت قواي . لم أستطع أن أحبس أنفاسي أكثر من ذلك ، ولم أستطع أن أحتفظ بجسمي طافياً . شربت الماء وشرقت . رأتني أسعل وأقاوم الغرق ، فمدت يدها تعينني على الاحتفاظ بجسمي فوق الماء ، وسارت بي حتى أوصلتني إلى حافة الحوض . جلست ألتقط أنفاسي وليندا تنظر باندهاش نحوي .

– ما الذي فعلته بنفسك أيها البدوي؟

– كنت أريد أن أغرق ، لأنني لن أجد لحظة أجمل من هذه اللحظة أختم بها حياتي .

– لعلك فعلاً أردت ذلك ، فهو يتفق مع هوس العنف والجنس الذي يملأ ذهنك .

خطر لي أن أسألها ونحن في طريق العودة عن العذر الذي ستقوله لدونالد وهي تؤوب إليه بعد انقضاء الليل . ولكن من أي ثقب أسود في السماء ، تأتي

هذه الأفكار التي تفتح باباً للكدر ، وتبدد بهجة تترع القلب؟ إنها أدرى بما تفعل ، وواجبي بدلاً من ذلك أن أقول كلاما يسعدها ، وينقل ما أحس به من امتنان نحوها . لم أقل شيئاً ولم أفعل شيئاً أكثر من أن أخذت يدها ألثمها في صمت ودون حاجة إلى أي كلام .

اختفت من سمائي كل النجوم ، عدا نجمة واحدة هي ليندا . تركت كل علاقاتي الأخرى وتفرغت لها . معاً صرنا نعيد اكتشاف الأمكنة ، ونبحث لعلاقة عشقنا عن فضاء جديد تتنفس فيه ، من خلال النزهة والتجوال والمعاشرة المستمرة ، خارج الدائرة المكرورة ، والعلاقات الشرعية ، وصناديق الحديد ، وأبراج الاسمنت ، وعلامات السير الإجباري في شوارع المدينة . لأول مرة في حياتي أحس بهذا الانفعال الطازج ، الساخن ، الذي يحس به الواحد منا تجاه إنسان آخر ، يصبح هو وحده من تملأ صورته ، حاضراً وغائباً ، فضاءات الذاكرة . تنمحي كل الوجوه الأخرى ولا يبقى إلا وجهه ، وتنمحي كل الأماكن إلا المكان الذي يحتويه ، وينمحي ما مضى من تاريخنا ، فتصبح حياتنا السابقة عن لقائنا به ، وكأنها لم تكن حياة ، وإنما شيء سديمي أشبه بالهيولى الذي يسبق نشوء الكون وبداية الحياة . ولأول مرة يصبح فعل الحب بالنسبة إليّ ، تلبية لنداء عميق يصدر عن كياني كله ، وليس مجرد إسكات للغريزة أو اداء لوظيفة بيولوجية ، أو إرضاء لنزوة من نزوات الجسد . لم يعد يقلقني كثيراً ، حقيقة أنها زوجة رجل آخر ، يعيش معنا تحت سقف واحد . فقد رأيته راضياً بما يراه ، لا يبدي كدراً ولا ضيقاً . مضت علاقتنا تصنع شرعيتها الخاصة التي بدت لي أكثر عمقاً من أية شرعية تصنعها وثيقة الزواج ، أو سجلات المكتب البلدي ، أو الاحتفالات الكنائسية . أوجدت لنفسي تبريراً يخلصني من أي احساس بالإثم ، ويطرد هذا الخاطر الذي يقول بأن سر الإثارة في علاقتنا هو أنني أستولي على امرأة رجل آخر ، وأعتدي على حصته في النساء التي حددتها له الشرائع والأعراف والقوانين . لم نتحرج من أن يرانا الآخرون نذهب إلى الحانات معاً ونسهر الليل معاً . وكان دونالد كثيراً ما يرافقنا في سهراتنا وجولات النزهة التي نقوم بها خارج المدينة . لم تبدر منه

أية إشارة تدل على ضيقه بهذه الألفة التي رآها تنشأ بيني وبين زوجته ، بل صار أكثر سعادة لأننا أخرجناه من عالمه المحدود والمحكوم بذلك المثلث الذي يبدأ من مكتبة الجامعة إلى مكتبة البيت مروراً بحانة العناقيد . مكان واحد احتفظنا به لأنفسنا ، ونذهب إليه مرة كل أسبوع بمفردنا ، هو ذلك المنتجع السياحي الذي سبحنا ذات ليلة عاصفة في حوضه البارد .

قالت ليندا ونحن نجلس في قطار الصباح المتجه إلى لندن :

- برغم أنني لم أرها فأنا أعرفها بأكثر مما تعرفها أنت ، وقد جئت لأثبت لك ذلك .

كنت تلقيت دعوة لحضور مؤتمر طلابي يعقد هناك ، فاقترحت على ليندا ، التي لم تشاهد لندن من قبل ، أن نترافق في هذه الرحلة من أجل الانتقال إلى مشهد جديد وتجربة جديدة ، تغني حياتنا بالذكريات المشتركة .

وما أن خرج القطار من عتمة الأنفاق التي تخترق هضاب أدنبره ، حتى انشق الأفق عن تلك السهوب المنبسطة ، والتي تمتد رحابة واتساعاً ، تعانق زرقة السماء ، وتوقظ شوق القلب إلى الانطلاق ، والرحيل عبر مداها الأخضر الذي يبلله ندى الصبح .

جاءت السيدة التي تدفع أمامها عربة الشاي ، فأخذنا قدحين وجلسنا ندردش ونقرأ الصحف . قالت ليندا تعليقاً على غزارة الأخبار التي تتعلق بالوطن العربي :

- - يبدو أن العالم شديد الاهتمام بأخباركم .

- طالما أن الأخبار لاتتغذى إلا على المحن والكوارث ، فسأدعو الله أن ينتهي قريباً اهتمام هذه الصحف بالوطن العربي .

امتنعت عن قراءة أي شيء يتصل بالسياسة ، لكي لا أمنح محرري هذه الصحف فرصة إثارتي ، أو مباغتتي بعبارة تفسد مزاجي هذا الصباح ، واتجهت مباشرة إلى قراءة الأبواب التي تتحدث عن المطاعم ، والحانات ، وأنواع النبيذ ، ومحلات السهر في لندن . وجاء بعد ثلاث ساعات نداء عبر ناقل الصوت ، يدعو الراغبين في تناول وجبة الغداء إلى الانتقال إلى المطعم ، فأخذنا حوائجنا وانتقلنا

إليه . لمحت عدنان يجلس في المطعم بمفرده فقلت لها ونحن نتجه لتحيته :

- إذا أردت حديثاً في السياسة ، فهذه هي فرصتك .

قضى أكثر من تسع سنوات مقيماً بهذه البلاد ، ويعد منذ أربع سنوات أطروحة دكتوراه عن فلسفة هيجل . وفي ذات الوقت فهو نجم سهرات العزف والغناء في الأندية الطلابية ، وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الطلاب العرب ، وسكرتير جمعية اليسار الراديكالي في الجامعة . تزوج امرأة من هذه المدينة ، وأنجب ، وطلق . هكذا قدمته إلى ليندا التي لم تكن قد رأته سوى مرة واحدة عندما شارك في حفل صغير أقمته بمناسبة انتقالي إلى بيتها .

قالت تعليقاً على نشاطه في جمعيات اليسار المتطرف :

- تفزعني كثيراً دعاوى العنف التي تمتلئ بها نشرات هذه الجمعيات .

أوضحت لها كيف أن عدنان شيء آخر . فهو يحمل في المظاهرات صور تروتسكي وجيفارا ومانديلا ويرتدي الكوفية الفلسطينية ويكتب رسالته عن الديالكتيك وصراع الأضداد ، ولكنه في المساء يقضي وقته متنقلاً بين جمعيات تحضير الأرواح وجلسات التمرين على العلاج الروحي .

- وكيف يمكن الجمع بين هذه الأشياء؟

- إنها لا تجتمع إلا في قلب عربي مثل عدنان . يكتب عن صراع الأضداد علناً ، ويتصالح معها سراً .

أبدت ليندا إعجابها بعزفه عندما جاءنا تلك الليلة ، واشتياقها لسماع عوده مرة أخرى ، فقال إنه سيشارك في حفل يقيمه اتحاد الطلاب يوم الغد . وعدناه بالحضور ، ووصل القطار محطته الأخيرة فأخذت ليندا إلى فندق صغير يطل على حديقة الهايد بارك . غرفه ضيقة ، إلاّ أن شباكاً بعرض الحائط ، يطل على بهاء الحديقة ، كان يمنحها جمالاً واتساعاً . عارية جدرانها إلا من صورة لعجوز يضع أمامه قدح البيرة . تتقد عيناه بفرحة طفولية ، وتطفو فوق القدح رغوة مضيئة . قلت لها :

- ها نحن نلتقي الآن فوق أرض محايدة .

لم تكن الأرض حقاً محايدة . أدركت وأنا أمشي بمحاذاتها عبر المناطق التي تحيط بحديقة الهايد بارك ، أن هذه الأرض أرضها ، وأن كل هذه الأماكن التي لا تعني لي إلا ما تعنيه لأي سائح عابر ، ترتبط لديها بركام من الأحداث التاريخية التي صارت جزءاً من تكوينها وثقافتها . وما أن ترى نصباً تذكرياً أو تمثالاً لرجل يركب حصاناً أو تعرف اسم الشارع الذي نجتازه ، حتى تتدفق بحديث الذكريات التي يحملها المكان . فهنا أقيم الاحتفال بعودة ويلنجتون منتصراً من معركة واترلو ، وكانت الفتاة التي وضعت في عنقه طوق الأزهار تبكي لأن والدها مات في تلك المعركة دفاعاً عن الملك والوطن . وكنت أغيظها قائلاً :

– هذه تفاصيل لا يعرفها إلا من حضر الحفل . وأنت فيما يبدو لي أصغر عمراً من ذلك .

– لا تسخر مني ، فقد شاهدت ذلك في تمثيلية تاريخية عن لورد ويلنجتون . وهذا الشارع كان طريقاً يقود إلى مزرعة سير توماس مور ، التي شهدت اللقاء العاصف بينه وبين الملك هنري الثامن . كان الملك غاضباً لأن قدمه غاصت في الوحل وتلطخت ملابسه بالطين وهو يأتي لزيارة مستشاره .

– أنت تصدقين كل ما يقوله كتاب التمثيليات من أكاذيب . لعله أعدمه لهذا السبب .

– مهما كانت الأسباب الأخرى فإن الطين الذي لطخ ملابس الملك دفع بالأحداث في هذا الاتجاه .

– ألا تعلمين أنك تخترعين الآن نظرية جديدة لتفسير التاريخ ، وتجعلين الطين عاملاً أساسياً في تحريك أحداثه؟

– لا تقاطعني أرجوك . فمن أين لبدوي مثلك أن يعرف طبائع الملوك؟

وأخيراً «سوهو» ، الحي الذي عرفته أكثر من أي منطقة أخرى ، عندما أقمت في لندن للدراسة التحضيرية ، فلم أر فيه إلا المسارح والمطاعم وعلب الليل ودكاكين الجنس ، كان هو أيضاً يرتبط لديها بأسماء كتاب وموسيقيين ورسامين صنعوا أمجادهم الفنية في هذا المكان . بحثنا عن مطعم نتناول فيه العشاء ،

فسألت ليندا حارساً ليلياً عن اسم أحد المطاعم وقادتني إليه ، قائلة إنه مطعم نجوم التمثيل والغناء . كان مطعماً صغيراً ، بسيطاً ، لا يوحي بأية نجومية . وقفنا ننتظر أن يجد لنا العامل مكاناً لشدة الزحام ، وما أن جلسنا حتى صارت تهمس لي بأسماء الزبائن الذين يجلسون على الموائد المجاورة من أبطال التمثيليات وأعضاء الفرق الغنائية . كانت سعيدة لأنها تتصل الآن بهذه الأوساط الفنية ، وترى عن قرب هؤلاء الناس الذين كانت تشاهدهم أطيافاً على الشاشة . قلت معتذراً عن جهلي بكل هؤلاء النجوم :

- أعذريني إن كنت لا أعرفهم ، فليس في سمائي إلا نجمة واحدة هي أنت .

كان مسرح «السهم الذهبي» الذي يتخصص في تقديم الاستعراضات العارية ، هو أول ما جذب انتباهنا ونحن نغادر المطعم . وأمامه وقفت حافلة تفرغ مجموعة من السياح . قادنا الفضول إلى واجهاته المضيئة ، نشاهد الصور المعروضة في اللوحات . سألتني ليندا ضاحكة :

- مارأيك؟

أدركت أن ماتقصده هو مشاهدة العرض . لم نكن قد شربنا في أثناء العشاء سوى قدحين من النبيذ ، ولذلك فقد بدت الفكرة غريبة وأنا أتأملها بعقل لم تكسر حدته ضربات الكأس . إذ ما الذي يدعو امرأة مثلها إلى قضاء أكثر من ساعتين تشاهد نساء يتعرين . نقلت إليها رأيي فقالت :

- هناك أكثر من ذلك . إنهم يعتبرونه احتفالاً بالجسد الإنساني ، ويسمون عرضهم هذه الليلة «مهرجان الفاكهة المحرمة» ، ومعنى ذلك أنهم يقدمون فناً مع الإثارة .

كنت قد لاحظت وجود صور مستوحاة من أجواء مشرقية ، فاتجهت إلى شباك التذاكر ، أبحث عن مكان بين المشاركين في وليمة الفاكهة المحرمة .

تناهت إلينا ونحن نشتري شراباً من بار المسرح ، موسيقى العرض وقد اختلطت بالشهقات الجنسية . اجتزنا ستارة حمراء ودخلنا إلى ظلام الصالة ، في حين وقفت تحت أضواء المسرح امرأة سامقة ، انسيابية الجسم ، تخلع آخر

ملابسها . وتنتهي هذه المقدمات التي شاركت فيها امرأة ثانية وثالثة ممن يشبههن السهام الذهبية ، لتبدأ المشاهد الدرامية ، حيث يقدم العري والجنس من خلال مشهد قصصي . اتخذ الديكور الذي هبط في مقدمة المسرح شكل ثقب المفتاح ، لكي يمنح المتفرجين إحساساً بأنهم يدخلون عالماً سرياً ، وظهرت شبكة عنكبوت وامرأة تتلوى عارية بين الخيوط ، تتأوه وتصرخ . يدخل المسرح رجل عار يرسم فوق جسمه خطوطاً عنكبوتية ، يركض إلى المرأة يحتضنها ويضاجعها ، فتتحول صرخات الألم إلى صرخات استمتاع ولذة . كنت أضع يدي في يد ليندا ، ضاغطاً عليها ، محاولاً أن أحتوي التوتر الذي تثيره المشاهد العارية . ثم جاءت أكثر الفقرات إثارة وعنفاً . قاعة في قصر أحد السلاطين ، وخمس نساء من حريمه تغطيهن البراقع والملاحف والأبخرة التي تتصاعد من المجامر . تبدأ الموسيقى وتبدأ كل واحدة منهن ترقص وتطل من الشرفة ، ثم ترمي حبلاً لعشيق ينتظرها أسفل القصر . يقفز العشاق إلى القاعة ، وبحركات إيقاعية يبدؤون في خلع ملابس النساء وخلع ملابسهم ، ليضاجع كل واحد عشيقته متخذاً وضعاً يختلف عن الآخر . ثم جاء السياف ، زنجي قوي البنية ، حليق الرأس ، حاسر الصدر والذراعين ، يلمع جسمه المدهون بالزيوت تحت الأضواء . صرخ صرخة تجمد لهولها المتعانقون . أسند العشاق إلى الجدار وجزّ رؤوسهم بالسيف . وبمعونة الخدع المسرحية ، والأضواء التي تطفأ وتضاء ، تدحرجت فوق المسرح خمسة رؤوس يتدفق منها الدم . أراد قتل النساء ولكنهن ركعن أمامه ، يتعلقن بساقيه ، حتى استجاب لهن وصار يمارس معهن الحب وسط الأجساد والرؤوس المقطوعة . أشاحت ليندا بوجهها عن متابعة المشهد .

– دعنا ننصرف أرجوك .

قالت عندما خرجنا إلى أضواء وهواء الشارع :

– لو كنت مكانك لما استطعت أن أكتب حرفاً واحداً عن الجنس والعنف بعد أن رأيت هذا المشهد .

في ضحى اليوم التالي ، ونحن نجلس على مقعد مشترك بحديقة الهايد بارك ،

قريباً من البحيرة ، سألتها عن دونالد . كانت امرأة عجوز تقف على حرف البحيرة تحمل سلة بها بقايا خبز تطعم منه قطيعاً من البجع ، وكانت تنادي كل بجعة باسم تطلقه عليها . كان نهاراً عامراً ببهاء الربيع ، مفعماً بشذا جنائن الورد ، وفي البعيد كان الأطفال يركضون وراء بالون طار في الهواء ، وقارب يطفو فوق البحيرة يحمل فتىً وفتاة يتعانقان ، وفوق رؤوسنا سحب خفيفة منحت زرقة السماء لوناً فضياً . ولذلك فقد بدا غريباً أن يداهمني طيف دونالد في هذا الجو الذي يعبق سلاماً ، وأجد نفسي دون تفكير في النتائج أفتح هذه الصفحة في دفتر علاقتنا ، والتي ظلت صفحة مهملة لا أحد يقترب منها . تعكر قليلاً صفاء العسل في عينيها ، وظلت تنظر في الفراغ ولا تقول شيئاً . واصلت إثارة الموضوع قائلاً :

- ألم يذكر لك شيئاً عن رأيه في علاقتنا؟
- إنه يعرف كل شيء .

نظرت إليها مندهشاً ، أسألها وكأنني لم أفهم ما قالته :

- هل تقصدين أنه يعرف كل أسرار هذه العلاقة؟

كنت أعرف أنه يعرف شيئاً عن هذه الألفة والحميمية اللتين نشأتا بيني وبين زوجته . أما أن يعرف حتى ما يحدث بيننا في الفراش فهذا ما لم أكن واثقاً منه .

- هل صارحته أنت بذلك ؟
- لم أقل له شيئاً .
- وكيف تراه عرف؟
- رأى في الحلم شيئاً جعله يوقن أن علاقة سوف تنشأ بيني وبينك ، وكان كل ماطلبه مني بعد ذلك هو أن تستمر حياتي معه مثلما كانت قبل أن أعرفك ، فهو لا يريد لعلاقة عابرة أن تكون سبب انفصالنا .

بقدر ما أفزعتني العبارة التي تصف هذا الفيض من الحب بأنه علاقة عابرة ، فقد أذهلني أيضاً موقف زوجها اللامبالي . ليكن قد خامر قلبه الشك . وليكن قد أدرك ما يحدث بيننا وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى مدعياً أنه لا يرى شيئاً ، فكله ممكن وجائز . أما أن يصارح زوجته بأنه لا يجد مانعاً في أن تواصل علاقتها

معي ، شرط أن تبقى زوجة له ، فهذا ما بدا لي سلوكاً يستحق الاندهاش والفزع . كنت أتصوره ما أن يعرف على وجه اليقين حقيقة ما يحدث بيننا ، حتى يطردني ويطردها من بيته . وكنت أفكر في خطة أواجه بها موقفاً كهذا عندما يأتي وقته . اختلف المشهد الآن . ها هو يرضى بأن تصبح ليندا امرأة مشتركة بيننا . ليكن . إنني أحب هذا الوضوح ، وأرى أن ترتيباً كهذا الترتيب يلائمني تماماً . ولكنك سوف ترى وتعرف أيها العزيز دونالد بأنها ليست علاقة عابرة كما كنت تقول وتتمنى .

- إنها ليست علاقة عابرة يا ليندا . أنت لا توافقين على هذا الكلام؟

- لا أدري . عرضت أن أرحل عنه إذا أراد ، فلم . .

أحسست بشيء من الاثم وأنا أرى سحائب الكدر تغطي ملامحها . لم أقل شيئاً بعد أن توقفت هي عن إكمال جملتها .

كانت المرأة العجوز التي تطعم البجع تتعارك هذه المرة مع جوليا لأنها اغتصبت حق مارثا من فتات الخبز .

- هيا تأدبي يا جوليا . لا تكوني فتاة سيئة الطبع . اقتربي قليلاً يا مارثا .

ولكن جوليا منعت مارثا من الاقتراب . تضاحكنا ونحن نرى السيدة العجوز تغضب وتتوعد جوليا بالعقاب وتهددها بأنها ستحرمها من إقامة حفلة بمناسبة عيد ميلادها القادم . تركنا البجع والمرأة العجوز والبحيرة ، وذهبنا نتفرج على خطباء الحديقة ، حيث اتخذ كل خطيب سمت زعيم سياسي يريد تغيير العالم ويملك وصفة سحرية لتحريره من مشاكله . وتعقيباً على خطيب أسود ، يسخر من العائلة المالكة ، ويتهم الملكة بأن لديها عشيقاً تزوره في أفريقيا ، وستلد قريباً أول أمير إنجليزي أسود ، قالت ليندا :

- لا أحد في اسكتلندا يمكن أن يقول هذا الكلام عن الملكة .

- لأنه ليس في اسكتلندا هايد بارك ، تبيع الأوهام والفكاهات .

نسينا دونالد ، ومنحنا أنفسنا للنهار الجميل . وقفنا أمام المصورين المتجولين يلتقطون لنا الصور التذكارية ، واشترينا بطاقات بريدية ، وجلسنا بمطعم الحديقة

ننتظر الطعام ونكتب البطاقات . كنا قد جمعنا بعض الصحف والنشرات الدعائية واخترنا من بريد القراء وأبواب التعارف أسماء وعناوين أناس من القارات الخمس ، وقررنا مخالفة لما هو مألوف أن نرسل إليهم بهذه البطاقات بدل أن نرسل بها إلى أصحابنا . كتبنا للسيد بهارتا صانع القوارب بمدينة بومباي قائلين :« شكراً لكل ما تحيطنا به من كريم رعايتك أيها الصديق الحميم» ، ولمربية أطفال بقرية أسترالية ، كتبنا :« إن دعاءك الدائم لنا بالتوفيق هو الذي فتح أمام علاقتنا آفاقاً جديدة للفرح والانطلاق ، فلك الشكر والتحية أيتها المرأة المباركة» ، وهكذا مع بقية الأسماء . ولا أدري لماذا أعطتني هذه الرسائل التي كتبناها من باب العبث واللعب شعوراً بالأمان ، وجعلتني أحس بأن علاقتي بليندا ازدادت عمقاً ورسوخاً بفضل هؤلاء الأصدقاء الذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا .

حضرنا في المساء الحفل الطلابي ، وشاهدنا عدنان يغني ويعزف العود . جاء أعضاء الجالية العربية يصطحبون صديقاتهم الأجنبيات أو نساءهم العربيات الحوامل ، يرددون الغناء مع مطربي الحفل ويصنعون ضجيجاً مشرقياً محبباً . سألتني ليندا ونحن نعود إلى الفندق عن سر كثرة النساء الحوامل ، فقلت لها :

- إنه دليل إعجاب ببلادكم ، فكل هؤلاء العرب يتبارون في تقديم شهادة ميلاد إنجليزية لأبنائهم ، علها تكون حرزاً ضد عوادي الأزمنة العربية .

امتدت إقامتنا في لندن يوماً ثالثاً قضيناه بين الأسواق . اشتريت لها في أثناء ذلك قارورة عطر شرقي ، بالغ التاجر الهندي في الثناء عليها لأنها تحتوي عطراً نادراً مصنوعاً من خلطة أعشاب صحراوية ، فأضفت إلى القارورة الأولى قارورة ثانية . وبقدر ما كانت هذه الرحلة فرصة لتعميق معرفتي بالمرأة التي رافقتها ، والاقتراب من جوانب في شخصيتها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال ما يتيحه السفر من رفقة تتواصل كل ساعات الليل والنهار . فقد كانت مناسبة أيضاً ، لأن أتعرف على هذا البدوي ، الذي يحمل ميراث مجتمع ، ظل لعصور طويلة ، يخبئ النساء داخل عباءة ثقيلة من التقاليد ، والقيم المستعارة من عصور الحريم والسلاطين ، باعتبارهن مخلوقات هشة ، ضعيفة ، يؤذيها ضوء الشمس .

وأفتش عما تبقى من هذا الميراث في وعي ولا وعي الرجل الذي خلع أرديته البدوية ، وتخلى عن خيمته ، وشياهه ، ونياقه ، واكترى مقعداً في طائرة تحط به في أكثر مناطق العالم تحرراً ، وانعتاقاً ، من سطوة القرون الوسطى . أعرف أنني سعيت إلى المرأة ، تلبية لاحتياج إنساني ، متجاوزٌ أي موقف فكري أو فلسفي أو أخلاقي منها . احتياج إنساني ، تصبح معه المرأة ، شرطاً أساسياً لتحقيق العافية النفسية والجسدية ، وتميمة لطرد أمراض الوحدة والكآبة ، التي تأتي نتيجة الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ومن مناخ إلى مناخ ، ومن أوطان نعرفها وتعرفنا ، إلى أوطان نعرفها ولا تعرفنا . ولكنني سعيت بنفسية تحمل ندوب الجراح القديمة التي تصيبنا بها مجتمعات القبائل الصحراوية التي جاءت تسكن المدن ، وتصنع شكلاً مشوهاً للعلاقات التي تحكمها قوانين الفضاء الصحراوي ، بينما هي تحيا داخل مكعبات الاسمنت . كانت هذه اللعبة التعويضية هي التي تسيطر على سلوكي وأنا أسعى لتحقيق علاقة سريعة تكلفني الكثير من الاستجداء وإذلال الذات ، وما أن أجد استجابة من إحدى النساء ، حتى أكون قد استنفدت قدرتي على التسول ، وجئت أنتقم للحظات الضعف التي بدرت مني . أتحول من شحاذ للحب إلى رجل لا همّ له إلا المكابرة والعناد ، سعياً لترميم الانهيار ، وتعويضاً لمواقف الإذلال ، مما يصل بالعلاقة إلى طريق مسدود . وبرغم أن الخيبات الكثيرة أورثتني شيئاً من الحذر في التعامل مع النساء ، وجعلتني أدرك أن لمثل هذه العلاقات قواعد وتقنيات يجب حفظها واتباعها ، فأنني مع ليندا لم أكن أحتاج إلى شيء كهذا . اكتشفت أن باستطاعتي أن أكون عفوياً وصادقاً ، وأجد مع ذلك من يحبني ويتواصل معي . كنت في علاقاتي السابقة كمن يتعلم السباحة ، ويبذل جهداً مضنياً وهو يتشنج ويعض الماء ويضربه بيديه وقدميه ورأسه وصدره ، دون أن يفلح في البقاء طافياً ، وما أن نسي خوفه وتشنجه ، وأسلم نفسه للماء دون عناء ، حتى صار قادراً على السباحة . وكنت في أعقاب هذه العلاقات السريعة الفاشلة ، أنقم على نفسي لأنني لم أستطع أن أتجاوز التربية التي أورثتني تكويناً نفسياً لا يقوى على إنشاء العلاقات السوية . وما أن جاءت ليندا ، حتى

أذابت هذا الإحساس . كشطت كل الأتربة التي تراكمت فوق الأنسجة والخلايا ، وطردت الأشباح التي تنوح في خرائب الروح . عاطفة ساخنة ، تبخرت معها الهواجس والتحفظات ، وتهاوت تلك الأسوار التي نقيمها حول أنفسنا لكي لا ينتهك الآخرون شيئاً ثميناً نطوي عليه صدورنا ، ونحتفظ به لأنفسنا ، ونقيم حوله المتاريس والتحصينات خوفاً عليه من الأذى . تحررت من ميراث الخوف الغريزي وخرجت من أصدافي إليها . نبع من الماء والضوء تغتسل فيه الروح عارية بمثل ما يغتسل الجسد . معها رأيت لندن في ضوء جديد ، مدينة أخرى غير تلك المدينة التي جئتها غريباً وبقيت خلال إقامتي بها غريباً . أرى وجودي يتلاشى في حضورها الشامخ فأحس نحوها بمشاعر غامضة من الخوف والرهبة والكراهية والإعجاب . مع ليندا صارت لندن أكثر إنسانية ودفئاً ، ومعها تعلمت حكمة صرت أرددها لنفسي وللآخرين «حاذر أن تدخل مدينة كبيرة دون أن تكون مسلحاً بامرأة تحبها» .

عندما وصلنا إلى البيت ، وهرعت ليندا تعانق دونالد ، فتشت عن مشاعر الغيرة في قلبي ، فلم أجد في تعانقهما ، وتبادل القبلات بينهما ، شيئاً يثير غيرتي أو كدري ، ولم أجد أيضاً أي إحساس بتبكيت الضمير لأنني أقتحم حياة زوجية هانئة . بدا واضحاً الآن ، أن كل طرف في هذه اللعبة قد عرف دوره ومكانه فيها . صنعنا مثلثاً تتساوى أضلاعه ، ووقفنا في زواياه نراعي المسافة التي تحفظ له استقامته واتساقه . تقدمت لتحية دونالد ، أبحث في نظراته عن تفسير لموقفه من هذه العلاقة . إنه بلا شك يحب ليندا ، ولم يكن ترحيبه بها الآن زائفاً ، فهو مرتاح لفكرة أن ما بيني وبينها ليس إلا علاقة مؤقتة ، وما أنا إلا رجل عابر في حياتها ، وستعود ليندا بكاملها إليه بعد أن تكون علاقتي بها قد استنفدت زمانها وأغراضها . من حقه أن يصنع وهماً ويسكن فيه هانئاً . إنني لا ألومه ولا أفتعل خصاماً معه . وسأسعى منذ اليوم لتعميق صداقتي به . قررت أن أكون عادلاً في تعاملي معه هذا المساء ، وطالما ارتضى أن تكون ليندا امرأتنا المشتركة ومصدر سعادة نتقاسمها معاً ، فمن حقه أن يستفرد بها اليوم بعد أن

أخذتها منه طوال الأيام الثلاثة الماضية . تركتهما وذهبت أُلبّي موعداً مع عدنان في حانة العناقيد . وجدت في الحانة أحد المنتسبين لفرقة التمثيل يبلغني بأن مخرج الفرقة يبحث عني . لعله أعد لي دوراً أكثر أهمية في مسرحيته الجديدة ، ولكنني سأبقى وفياً لرمحي ولن أتخلى عنه حتى لو كانت المسرحية عن حرب النجوم . دخل عدنان ليسمع طرفاً من الحديث الذي ورد فيه ذكر الرماح ، فمضى يدندن ببيت عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني
وبيض الهند تقطر من دمي

قطعت حديثي مع الممثل وخاطبت عدنان بالعربية :

– لعلك تنبهت إلى ما ينضح به البيت من عنف وجنس لكي تدرك أن الموضوع الذي اخترته لرسالتي لم يكن عبثاً . إنه يدخل في نسيج الأعمال الإبداعية قديمها وحديثها ، وجئت أثبت به أسبقيتنا في هذا المضمار .

– يا له من مجد تضيفه لأمتنا! .

– وبيت عنترة خير دليل على ذلك .

– اختلطت لديك المفاهيم فما عدت تفرق بين الجنس والحب .

– إنك لو تأملت البيت بعيني ناقد يعتمد مدارس التحليل النفسي لوجدت أن للرماح التي تنهل من الجسد والسيوف البيضاء التي تقطر دماً والتي يذكرها الشاعر بتلذذ وهو يتذكر فم معشوقته ، معاني جنسية لا سبيل إلى إنكارها . ولو تأملته بعيني ناقد يعتمد المدارس البنيوية لوجدت أن لكلمات «ذكرتك» و «تقطر» و «دمي» و «نواهل» و «مني» و «بيض» و «رماح» فيضاً من التداعيات الجنسية التي تجعل من رعشة الحرب ورعشة الجنس شيئاً واحداً .

سأل الممثل الذي يقف بجوارنا أن نترجم له ما نقول ، فتطوع عدنان بتقديم ترجمة سريعة لبيت عنترة قضت على جماله وما فيه من حرب وجنس . تطيرت من سوء الترجمة واقترحت أن ننتقل إلى مكان لا نجد فيه من يعاتبنا عندما نتحدث بالعربية . قال عدنان ونحن نحتسي قدحين من البيرة في حانة أخرى :

- إذن فقد صرت تعرف أن هناك فرقاً بين الحب والجنس .

- ما إن اهتديت إلى الحب حتى صارت نفسي تعاف الاقتراب من جنس لا يرافقه الحب .

- كأنك لم تعرف حباً قبل اليوم؟

- ولماذا يجب أن أعرفه؟ أليس الحب هو هذه التجربة الفريدة النادرة التي لا تتكرر كثيراً في حياتنا؟

- ولكن هل وجدتما طريقة آمنة وأكيدة تتخلصان بها من الزوج . إنه عقبة في سبيل هذا الحب . وأنا لا أنصح بالسم فهو وسيلة قديمة ما أسهل أن يكتشفها المحققون .

- ألا تتخلى عن طبيعتك الهازلة؟

- ولماذا تظن أنني أتكلم هازلا؟

أعرف الجرح الذي عانى منه عدنان لمدة طويلة . أحب امرأة من أهل هذه المدينة وتزوجها وأنجب منها طفلاً . وبعد أكثر من أربع سنوات من الزواج ظهر في حياتها رجل آخر ، ذهبت لتعيش معه بعد أن حصلت على طلاقها من عدنان . وبرغم أن ذلك حدث منذ عامين إلا أنه لا يزال يخوض أعتى المعارك أمام المحاكم لاستعادة الطفل الذي أخذته معها . إنه لا يستطيع أن يرى في ليندا إلا نسخة أخرى من زوجته التي هربت مع رجل يسميه رفيقها في الخيانة . لم أكن أوافقه على هذه النعوت . امرأة أحبته ، وارتضت بالزواج منه . ثم لأمر ما انتهى حبها له فجاءت تصارحه بحقيقة مشاعرها وتطلب منه الطلاق . أمر مؤسف في حق الطفل ، ولعله مؤسف في حق عدنان أيضاً ولكنها حقائق الحياة التي ترغمنا على أن نتعامل معها دون حاجة إلى أن نسمي الأشياء بغير أسمائها . وإذا أراد أن يعتبر ما بدر من زوجته غشاً وخيانة ، فإن علاقتي بليندا مبرأة من هذه التهم . إنني صادق في عواطفي نحوها وصدقي شهادة لي بأنني لم أكن شريكاً في مؤامرة تعتمد الغش أو الخداع . أوضحت له موقفي قائلاً إن زوجها لم يكن مرغماً على القبول بهذه العلاقة وطالما ارتضى بها فكيف يسمي ما يحدث غشاً .

- هل تصدق أن هناك رجلاً يرضى بشيء كهذا؟
- المشكلة أنه راض وأنت الذي لا تريد أن ترضى .
- وهل تثق أنت بامرأة تخون زوجها أمام عينيه؟
- ما أسهل أن يتلون كل شيء أمامك بلون الخيانة . إن ما بيني وبينها شيء فوق هذه المعايير التي يقيس بها الناس المشاعر والعواطف والعلاقات كما يقيسون البدل والفساتين ، فوق تعاليم المؤسسات التي تريد أن تمسخ أشواق الإنسان وتطالبه بأن يتنكر لذاته الحقيقية ويرفض الإنصات لأي هاتف يصدر من داخله ، لأن هذه هي الخيانة . خيانة لأنفسنا قبل أن تكون خيانة للآخرين . نتظاهر بما ليس فينا ونسميه شرفاً وبراءة ، ونضع ألْحفة سوداء فوق قلوبنا ونمضي في الحياة بقلوب عمياء يقودها التقليد والأفكار الميتة . ليندا لا تستطيع إلا أن تكون صادقة وشريفة . ولذلك فهي لم تخبئ شيئاً عن زوجها . عرضت عليه أن ترحل فازداد تمسكاً بها . ألم تقتنع يا أخي؟

تنبهت إلى أنني أتكلم بصوت مرتفع . أتكلم غاضباً دون موجب لكل هذا الغضب . كلانا غريب ها هنا . ولعل غربته أكثرفداحة لأنه لا يدري متى تنتهي . سألته أن يزورنا لنسهر بصحبة ليندا التي أعجبها عزفه الشرقي ، وسيعرف على وجه اليقين أنني أحب دونالد ولن أضع له سمًا في طعامه .

تعمدت أن أعود متأخراً تلك الليلة إلى البيت ، وخرجت مبكراً عندما جاء الصباح لكي لا ألتقي بهما . أردت أن أقضي النهار كله في المكتبة أعد أوراقاً حان موعد تقديمها إلى المشرف على رسالتي . قاومت هذه الرغبة التي تطالبني بأن أعود إلى البيت في أثناء النهار لأرى ليندا . يجب أن أكون كريماً مع دونالد ، حريصاً على الوفاء بالتزامات الشراكة التي بيننا والتي تقتضي أن أتركها له أياماً بعدد الأيام التي قضيتها معها . انتهى دوام المكتبة فذهبت إلى الحانة وخرجت مع الخارجين عندما دق ناقوس الختام . كان الطقس بارداً ، وكنت أرتدي (بلوفر) زررته حتى العنق ، واتخذت طريقي سيراً على الأقدام ، مبالغة في الحرص على العودة المتأخرة إلى البيت . مشيت أصفر وأغني بصوت مرتفع أغنيات بدوية لا

يعرفها هؤلاء الناس الذين تقذف بهم الحانات إلى الطرقات في منتصف الليل . انتبهت إلى أن شعري صار طويلاً ويجب أن أقصه غداً أو بعد غد . ولكن ليندا تعرفني بهذا الشعر الذي لم يزر دكاكين الحلاقين منذ أكثر من عام ، وقد يتغير شعورها نحوي لو أنني أزلته وتبدل مظهري . فكرة ساذجة ، ولكن الحب كما بدا لي في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، إنما يتغذى بالأفكار الصغيرة الساذجة . كان الطريق يمر بمنطقة خلاء ، مجرد فضاء من العشب يحاذيه فضاء من الماء ، يتكدس فوقهما الظلام . وكنت فيما مضى من أيام أمرّ بهذه المنطقة ليلاً فتوقظ في ذهني مخزوناً من كلمات التحذير التي سمعتها في طفولتي عندما كان الأهل يمنعونني من مغادرة البيت بعد الغروب خوفاً من أشباح الليل . ولكنني الآن أمتلئ بفرح غامض تبعثه في نفسي الأصوات التي تصدرها جنادب هجعت تحت الأعشاب ، أو ذلك الغناء بكثافته الغريبة ، الذي يصدر من ضفادع البحيرة . لم أقف مع الواقفين أنتظر الحافلة الليلية ، وعندما جاءت وأنا ما زلت قريباً من المحطة لم أعد راكضاً لألحق بها . تركتها تمضي لأنني كنت سعيداً بالليل والظلام وهذا البرد الذي يلفح وجهي . ولم أكن وحيداً . كان يتهيأ لي أنني أحاور ليندا حواراً يتفق مع حضورها الأثيري ، وأخاطبها بكلام صامت كذلك الكلام الذي نخاطب به طائراً جميلاً ، كثير الألوان ، خفق بأجنحته فوق رؤوسنا ساعة الرحيل ، فأشاع في أنفسنا إحساساً بالبهجة والأمان ، أو نخاطب به زهرة لها تويج من نار ، تألقت فجأة في عتمة نهار ممطر ، وأرسلت رعشة الفرح في صدورنا . أو نستحضره لحظة أن تأتي موسيقى الفجر ، وتنداح في يوم ربيعي ، عبر نافذة مشرعة تغطيها ستارة من قماش أبيض شفاف . أو نناجي به أي شيء مدهش جميل تبعث رفقته البعيدة أبخرة دافئة تملأ القلب . دخلت ، عندما وصلت البيت ، على أطراف أصابعي . أضأت النور ووقفت أنتظر حدوث المعجزة . أن تتجسد ليندا أمامي في هذه اللحظة ، أن تظهر فجأة من خلف باب مغلق وتأتي لمعانقتي . تأملت ساخراً من نفسي هذه المفارقة . أتعمد العودة متأخراً لكي لا أراها ، وأدخل على أطراف أصابعي لكي لا أوقظها ، ثم أقف وسط ردهة البيت ،

أمنّي الخاطر بلقياها . ضحكت من سذاجتي . أطفأت النور وتلمست طريقي في الظلام صاعداً إلى غرفتي . ودون أن أتوقف لأسأل من أين جاء هذا العبير الذي تعبق به الغرفة ، أضأت النور أخلع أردية النهار وأدخل في لباس الليل . وقبل أن أرتمي فوق السرير ، انبثقت ليندا من بين الشراشف كأنها تنبثق من مملكة الحلم والأساطير ، تفتح ذراعيها وتعانقني . ارتدت لباس نوم وردي ، ووضعت فوق جسمها عطر الأعشاب الصحراوية ، وجاءت تباغتني . لم أجد وسيلة لتصريف هذه الشحنة من الدهشة والفرح التي أثقلت روحي ، سوى أن أطلق صرخة بدائية ، هاتفاً باسمها :

- ليندا .

- ما رأيك أيها البدوي؟

- إنك تقتلينني بلا شفقة ولا رحمة .

قلتها صادقاً . فقد جاءت هذه المفاجأة تفرغ الهواء من صدري . ولاهثاً صرت أبحث عن هواء أتنفسه فلا أجد سوى عطر أعشاب الصحراء يلفحني . عانقتها وكأنني أعانق نجمة هربت من سمائها وحطت فوق صدري ، تملؤه وهجاً واحتراقاً . احتفظت بها في حضني وكأنني أخاف أن تأتي يد من خلف ظلام الدنيا وتسرقها مني . قبلت جبينها النقي امتناناً ، وعرفاناً بهذه النعمة ، وتأملت مشدوهاً هذا الوجه وهاتين العينين وهذا القميص الوردي الذي احتوى ورداً أكثر بهاءً وحسناً ، وكأنني لا أصدق هذا المشهد ، الذي كان منذ لحظات أمنية وحلماً . فاضت من جبينها وعينيها براءةِ الحقول المغسولة بضوء القمر ولكن الشفاه التي بللها (الروج) الندى لا تتحدث سوى لغة واحدة هي لغة الجمر . مدت يدها تدير جهاز التسجيل ، فانسابت الموسيقى ، هادئة صافية ، تضيف صمتاً إلى صمت الانخطاف والذهول . تصاعدت من الصدر سحابة ثقيلة من الأسي .أحاطتني ليندا بذراعيها فأسندت رأسي على كتفها ، وبكيت دون بكاء . أدركت أنني أختزن حزناً كثيراً في نفسي . لماذا وسط مهرجان الغبطة يباغتني هذا الوجع؟

- تؤلمني كثيراً تلك الأيام التي مضت من عمري قبل أن ألتقي بك .

أقول لها ذلك مدركاً على وجه اليقين أنني لست مهموماً بتلك الأيام وإنما بالأيام القادمات ، لأنني ولأمر ما أحس بأن هذه الأنثى التي أذاقتني من ثمار فردوسها الأرضي ، سوف لن تكون لي غداً ، وأنني كما قال زوجها ، مجرد عابر طريق ، مسافر وجد ظلاً لقيلولته قبل أن يأخذه الطريق مرة أخرى . ولسوف أستيقظ ذات يوم لأجد نفسي مرمياً في الخلاء ، مطروداً من بساتين هذه المرأة ، وأن هذه الغرفة العابقة بالعطر والموسيقى ، وهذه الجدائل المغسولة بماء الذهب ، وهذا الفيض النابع من صفاء العينين ودسامة الجسد ، أشياء طارئة في حياتي وأنا طارئ في حياتها .

وعندما احتوانا الفراش ، واهتدى الجسد إلى الجسد الذي يناديه ، أسلمنا أنفسنا إلى عبقرية الطبيعة تصوغ لحنها ، وتكتب حوارها ، وتؤسس أبجديتها الجديدة . جمر يتقد ويشعل الحرائق في أردية الليل . تشابكنا تشابك الضوء بأغصان الشجر ، وانطلقت الخلايا التي أمضها العشق والضنى ، تعزف مثل طيور الفجر نشيد اللوعة والاشتهاء .

شهدت حياتي اندماجاً كاملاً في حياة العائلة الصغيرة . أصبحت طرفاً ثالثاً يشارك الزوجين وجبات الإفطار والعشاء . أدفع حصتي في مصروف البيت ، وأتناوب معهما على غسل الصحون وشراء الحوائج من السوق ، وأشارك أحياناً في إعداد الطعام عندما أسبقهما إلى البيت ، فأشوي شرائح اللحم أو أقلي فطائر السمك . كما انتظمت وتيرة العلاقة الليلية بيني وبينها . صرنا نكتفي بالنوم معاً ليلتين في الأسبوع . لم نحدد لهما موعداً ثابتاً ، ولم يكن هذا الموعد يقتضي إلا أن تضع ليندا عطرها الصحراوي منذ المساء ليكون علامة تدل عليه . ننتهي من سهرتنا فنودع دونالد إذا لم يكن قد ذهب إلى النوم ، ونصعد إلى غرفتي . كان هذا النظام مفيداً لدراستي . أتاح لي وقتاً أنصرف خلاله إلى كتبي وكراريسي . لم أعد بحاجة إلى أن أطوف المراقص والحانات ، وأرود الأندية الطلابية وجمعيات التمثيل ، أتسول علاقة عابرة مع إحدى النساء ، بعد أن تحققت لي

هذه العلاقة الآمنة المستقرة .

ازددت اقتراباً من دونالد نتيجة حبنا المشترك لامرأة واحدة . صرت أتردد كثيراً على مكتبه وأنتظره أحياناً حتى ينتهي من عمله لنعود معاً إلى البيت ، ونتوقف قليلاً بإحدى الحانات نتحدث عن ليندا . فكلانا مغرم بالحديث عنها . وما جاء ذكر مكان نختاره لنزهتنا ، أو غرض نشتريه لمائدتنا ، إلا وكان الهدف هو إسعاد ليندا . فكل شيء في حياته وحياتي يبدأ بليندا وينتهي بها . ولم أعد مسوقاً بذلك الفضول الذي يبحث عن سبب قبوله بهذه العلاقة . صرت أفهم منطقه ، وأدرك ما يحتويه من تسامح وتجاوز للذات .

أخبرني كيف بدأ بتحضير رسالة عن الديانة البوذية ، ثم أهملها لأنه كان في تلك الأيام مشغولاً مع إحدى الجمعيات الهيبية بالانتقال من مدينة إلى أخرى لحضور حفلات الموسيقي الدارجة ، وأنه عاش أكثر من صيف بإحدى المنتجعات التي يقيمها أبناء الطبيعة ، يعزفون الموسيقى ، ويتقاسمون لفائف الأعشاب المخدرة ، ويستمتعون بمشاع العلاقات الجنسية . وبرغم إهماله لتلك الرسالة ، وانخراطه في العمل مكتبياً بالجامعة ، فإنه لم يتخل عن شوقه لدراسة البوذية . وهو مازال يطالع تعليمات بوذا ، ويمارس بين الحين والآخر تمارين اليوجا ، ويحاول الارتفاع إلى تلك الحالة من الصفاء والشفافية التي تسميها التعاليم البوذية «النيرفانا» ، والتي تتيح للإنسان الاندماج بروح الكون .

– وكيف استطاع الهيبي القديم أن ينتظم في مؤسسة الزواج؟

جاء السؤال عفو الخاطر ، وإن لم يأت مبرأً من الخبث .

– إنني لا أقيم اعتباراً للمؤسسات ، ولكنني أعتبر نفسي محظوظاً لأنني فزت بامرأة مثل ليندا .

لم أقل شيئاً ، فأضاف وكأنه أدرك معنى السؤال :

– وإذا اتسعت دائرة السعادة التي تصنعها ليندا لتشمل إنساناً غيري ، فإن ذلك لن ينقص من سعادتي شيئاً .

سألت ليندا في أثناء لقائنا سؤالاً مفاجئاً :

- هل تحبين دونالد؟

كان السؤال لا معنى له ، سؤالاً زائداً عن الحاجة ، يأتي في وقت ليس وقته ، ويفضح إحساساً بالخوف من شيء مجهول . ولعلها اشتمت فيه راحة الغيرة ، فقد ابتسمت بغموض وهي تعيد إليّ السؤال :

- وكيف تراه أنت؟

- إنه مأثرة للإنسانية .

- إذن فنحن الاثنان نحبه .

- سيكون أكثر جمالاً لو استطعنا أن ننسخ منك نسختين ، واحدة له وواحدة لي .

- ألا تضيع قيمة اللوحة عندما تصبح نسخة؟

- شرطي الوحيد أن أحتفظ بالأصل .

- ها هو الأصل بين يديك ، فلماذا تذهب بعيداً؟

نعم ، نعم . إنه بين يدي الآن . أشمه وأضمه وأستمتع بتقبيله ، أضيع في عطره وأرحل عبر حقوله الذهبية . هذا الأصل الذي لا نسخة ثانية له في الكون ، فلماذا أذهب بعيداً؟ ولماذا ينصرف ذهني للبحث عن حلول لمشاكل لم تنشأ بعد ، ويشقى بهموم وأوهام يصنعها من الهواء؟ لأمتثل إذن لأوامر سيدتي ، ولأمنح نفسي كاملة لدوامة العطر المستحضر من عشب البوادي ، وموائد الجسد المصنوع من حدائق الصبح .

لم نكن نتحرك في دائرة كبيرة من الأصدقاء . وهؤلاء الأصدقاء القليلون لم نعد نلتقي بهم بعد أن جاءت العطلة الصيفية وأفرغت المدينة من أهل الجامعة . صرنا نكتفي بأنفسنا ، ونصنع كلما جاءت عطلة الأسبوع احتفالاً صغيراً لا يشاركنا فيه أحد . نذهب للنزهة خارج المدينة ، أو نحضر مباراة بالمركز الرياضي ، أو نشاهد فيلماً أو مسرحية . ونتناول العشاء أحياناً على صوت الموسيقى في المطاعم التي تخصص حصة ومكاناً للرقص . لم ينقطع هذا البرنامج إلا عندما أرادت ليندا أن تعتني بوالدتها التي كانت تمرّ بأزمة صحية ، والإقامة بجوارها في

البيت الريفي . ذهبت ليندا وتركت ضلعاً مكسوراً في مثلث هذه العلاقة . وجدت نفسي أقضي اليوم الأول وحيداً في مواجهة دونالد ، فاتخذت غيابها عذراً لأن أغيب أنا أيضاً . ذهبت لقضاء أيام من شهر الصوم واحتفالات عيد الفطر مع أهلي في طرابلس ، وعندما عدت بعد أسبوعين كانت ليندا قد عادت إلى بيتها ، فرجعت أتبارى مع دونالد في خدمتها ، واقتراح أماكن للنزهة نذهب كل أسبوع إليها . أتاح لنا الصيف فرصة أن نجوب الأراضي العالية ونبلغ أكثر هضابها ارتفاعاً ، نلتقط الزهور البرية ونصنع بها تاجاً لها . أرادت ليندا في أثناء إحدى الجولات أن نذهب معها لزيارة قصيرة إلى بيت أهلها . كان البيت قريباً من مكان نزهتنا . بيت صغير من طابق واحد ، يتوسط مجموعة بيوت مبنية بالقرميد الأحمر ، فوق تلة تشرف على سهوب خضراء ، وتحيط بها الهضاب العامرة بأشجار السنديان وجداول الماء . لم أكن متحمساً لفكرة الدخول في طقوس عائلية تفرض قيداً على انطلاقنا وحريتنا ، ولكنني وافقت إرضاءً لها . كان الأب رجلاً سبعينياً تفيض عيناه الصغيرتان بالحيوية ، وإن بدتا غير منسجمتين مع بنائه الجسمي العريض . قدمتني له ليندا وما أن عرف اسم بلادي حتى بدأ بالحديث عن ذكرياته عنها أيام الحرب . كانت كلماته تنتمي إلى الماضي ولكنها لأمر غامض لم أستطع إدراكه ، بدت كأنها نذير بما سوف يحدث في أزمنة قادمة . انشغلت ليندا بتحضير الشاي الذي جاءت به مع قطع الجاتوه ، وغاصت الأم في كرسيها تنظر في الفراغ . نحيفة ، عليلة ، رغم أنها أصغر سناً من زوجها . وجلس دونالد صامتاً يدخن غليونه . في حين مضى الأب يقول :

– عشت عامين في بلادكم ، ولم أر منها إلا الرمال . لم أر مدناً أو بشراً ، لم أر جبلاً أو نهراً أو شجرة . لم أر حقلاً أو أبنية أو سوقاً . لم أر من بلادكم إلا الرمال التي كانت تمتد على مدى الأفق ، وتحيط بنا من الجهات الأربع ، تتوهج تحت شمس شديدة السطوع والقسوة ، ساكنة دائماً ولكنك لو أطلت النظر إليها لرأيت أنها تتحرك تحت كثافة الأبخرة التي يصنعها القيظ . ترتفع وتنخفض كأنها لهاث حيوان هائل يرقد خلف الأفق . وكان يسحرني سكونها المتحرك وامتدادها الذي

يوصل الأزل بالأبد . ويشيع في قلبي الأمان وسط أجواء الحرب ومواجهة احتمال الموت . ولذلك فقد كنت أكثر الناس اندهاشاً عندما خذلتنا تلك الرمال وتآمرت ضدنا . جاءت تتحالف مع رومل وتمنحه غطاءً لدباباته وجنوده ، جاء رومل زاحفاً بجيشه علينا . جعل الريح خلف ظهره ، وجاء يشن بمعاونة الرمال هجوماً كاد يفسد علينا الحرب العالمية كلها . كنا حلفاء بلادكم في الحرب ، في حين تحالفت رمالكم مع أعدائنا .

وأضاف وهو يمد بصره عبر النافذة المطلة على السهوب :

- إن رمالكم لا أمان لها . نعم لا أمان لها .

كان يتكلم واقفاً ، ويسرد ذكرياته بانفعال وحماسة وكأنه يؤدي مشهداً مسرحياً . رأيت ليندا تنظر نحوي ، فأشحت ببصري بعيداً ، ولا أدري لماذا أحسست برعشة عندما قال جملته الأخيرة ، وكأنني أخشى أن تكون الرمال قد اعتبرتني ابناً عاقاً نسي ولاءه لها ، وانتماءه لصحرائها ، فادخرت له عقاباً شديداً يوم يعود .

وكنت عندما أذكر كلماته بعد ذلك يتراءى لي كأن برامج النزهة وارتياد المسارح والملاعب ، وما كنا نقوم به من نشاط يومي ، لم يكن إلا ذريعة نختلقها لكي لا نتوقف لحظة لمواجهة أنفسنا ، كأننا نهرب بواسطتها من شيء ، نخشى لو توقفنا لحظة عن الحركة لجاء يهاجمنا ويفسد علينا متعة النسيان . لم يكن ذلك صحيحاً ، فهي مجرد تداعيات أيقظها في ذهني حديث العسكري العتيق الذي ظل لاصقاً بذاكرتي ، وظل مشهده وهو ينظر نحوي بعينيه السنجابيتين المشحوذتين يثير في نفسي إحساساً بالإثم وكأنني أتحمل وحدي مسؤولية الرمال التي غدرت به بعد أن منحته الأمان . وبرامج النزهة ذاتها ، صارت الآن تتضاءل ، بعد أن انتهى الصيف وعاد لأدنبره وجهها القاتم .

لم أعد أرى أحداً من الجيران الذين تعودت أن أراهم يزورون أحياناً ليندا ودونالد للدردشة وتناول الشاي . تصورت أن ذلك جاء نتيجة ضيق الوقت الذي لم يعد يتسع لاستقبال هذه الزيارات . ثم تدريجياً أدركت أن هناك سبباً آخر ،

إنهما عن عمد لا يريدان زواراً في بيتهما خوف أن يشك أحد في هذه العلاقة التي تربطني بليندا وتصبح بالتالي موضوعاً لحديث جلسات الشاي في البيوت المجاورة . ولكن هذه العلاقة التي يجهلها الجيران صارت معروفة لدى عدد من أصدقاء الحانة وزملاء الجامعة . أو هذا ما أنبأني به عدنان . التقيته بمقصف المكتبة ، جالساً بصحبة امرأة هندية قال إن اسمها «انار» جاءت منذ بداية العام الدراسي للعمل بقسم الدراسات الشرقية ، مدرسة للغة السنسكريتية . وما أن عرفت اسمي حتى بادرت بالقول :

– إذن فهو أنت؟

ضحكت دون تعليق ، فقد ذهب في ظني ، أنها تشير إلى رسالتي عن ألف ليلة وليلة ، التي تعودت أن يستقبلها الناس ببعض الاندهاش . جلست أنصت لحديثهما حول الحياة الروحية ، دون أن أسألها عن سبب الاستغراب . وجد عدنان في لقاء امرأة تأتي من بلاد الأساطير والإيمان بالقوى الغيبية الخارقة ، مناسبة للحديث عن هذه الجمعيات الروحية التي تنتشر في كل مكان ، لكي تعيد التوازن إلى هذا المجتمع الذي احتفل بإنجازات العقل ، وتناسى جلال الروح ، كما يقول عدنان . ومضى يدلل للمرأة الهندية على صدق كثير من النبوءات التي يقولها الوسطاء ، وقدرة الطب الروحي على معالجة حالات عجز عنها الطب الحديث ، وأخرج من جيبه نشرة تصدرها هذه الجمعيات ، تتحدث عن وسيط روحي تستعين به الشرطة في حل الجرائم الكبرى . قلت ضاحكاً :

– عهدناك تسعى لتجنيد الناس في جمعيتك السياسية التي تبشر بما بعد اليسار ، فإذا بك اليوم تسعى لإقناعهم بمزايا الحياة الروحية والجمعيات التي تبشر بما بعد الموت ، فما الذي حدث؟

– الآن وقد رأيت النور ، ما عدت أقيم شأناً لغير الروح .

كنت أرقب منذ زمن كيف بدأ عدنان يتخلى شيئاً فشيئاً عن ارتباطه العقائدي بجمعيات اليسار ، ويمنح وقتاً أكثر لاهتماماته الروحية . كنت أتساءل بيني وبين نفسي عن سر هذه الانقلابات التي تحدث في قلوب الرجال . لا شك

أنه تأزم كثيراً نتيجة الزوجة التي هجرته إلى رجل آخر ، ووجد نفسه يعيش فراغاً كبيراً بعد انهيار حياته الزوجية ، ولا بد أن هذا الفراغ هو الذي ذهب به في هذا الاتجاه ، ملتجئاً إلى عالم الأرواح التي تهيم في الفضاء ، باحثاً فيه عن تعويض لفشل العلاقات التي تنشأ بين البشر الذين يعيشون فوق الأرض . قلت متسائلاً :

- وأين ذهب رجل القضايا الكبيرة؟

- إنه لا يزال موجوداً . ولكن ما أسهل أن تصبح القضايا الكبيرة ، قضايا هامشية أمام جلال الروح وعظمتها .

وأضاف متجهاً بالحديث إلى «انار» :

- سألته كثيراً أن يأتي ليرى بنفسه ما يحققه الوسطاء الروحيون من معجزات .

رأيت حماسة المرأة لحديث الأرواح ، فلم أشأ أن أقول كلاماً يستفز إيمانها بها . قلت مجاملاً :

- لست ضد الوسطاء الروحيين ولكنني أخشى الضجر .

- تعال معنا هذا المساء ولسوف تكتشف أن حديث الأرواح أكثر إمتاعاً من أحاديث الناس .

- سأذهب شريطة أن تفي بوعدك لإحياء سهرة في بيتنا .

رأى الصديقة الهندية تبدي رغبتها في الاستماع إلى عزفه ، فلم يماطل كثيراً ، ووافق على هذا الشرط .

في طريقنا سيراً على الأقدام إلى الجمعية الروحية ، عرفت منه أن ما أدهش «انار» وهي تراني لأول مرة ، لم يكن موضوع الرسالة الجامعية التي أكتبها ، وإنما شيئاً سمعته عن طبيعة العلاقة بيني وبين زوجة صاحب البيت الذي أسكنه ، وعرفت أنني أجاهر بهذه العلاقة التي يحيطها الناس في كل المجتمعات بالتكتم الشديد .

- أتمنى ألا تكون أنت الذي أخبرها .

- لا أراك تقيم اعتباراً لما يقوله الناس ، فما الجديد الذي يفاجئك إذا كان

بعض الأصدقاء في حانة العناقيد يتحدثون أحياناً عنك وعنها؟

- أعرف أنك منذ البداية ضد هذا النوع من العلاقات ، فلا تبالغ في وصف الأشياء .

- علمت أن أحد أصحاب دونالد فتح أمامه الموضوع بقوة ، وسأله أن يطردك من بيته .

- هل حدث ذلك فعلاً؟

- هذا ما سمعته من صديق كان شاهداً لما جرى .

عندما وصلنا إلى مقر الجمعية ، كنت حانقاً ، أردد في خاطري قولاً قديماً يهزأ بكلام الناس ، أخفف به وطأة الأسى الذي داهمني . تمنيت لو أن عدنان لم يخبرني عن هذه الأحاديث التي يتناقلونها خلف ظهري . إن أموراً كهذه لا تستطيع أن تنال شيئاً من بهجتنا ، أو تترك أثراً سيئاً في نفوسنا ، طالما ظلت مجهولة لدينا . لعلهم كانوا يتكلمون عن هذه العلاقة من قبل أن تبدأ ، ولكن ذلك لم يضايقني لأنني لم أكن أعرف به . وعندما عرفت اختلف كل شيء حولي . حتى الهواء الذي يدخل رئتي صار الآن أقل نظافة وأكثر ثقلاً . وكأن هذا الحديث يتغذى على الهواء الذي أتنفسه . إنني لا أستطيع أن أكمم أفواه الناس ولا أستطيع في ذات الوقت أن أنسى ما يقولون . ربما لأنني جئت من بيئة تضع اعتباراً كبيراً لكلام الناس ، لأنه يتحول أحياناً إلى خناجر تجز الأعناق ، أو أعيرة نارية تخترق الصدور ، عندما يتصل بالشرف والنساء . أعرف أن الأمر يختلف هنا ، وأن مثل هذه القضايا تصبح شأناً شخصياً لا يهمّ إلا صاحبه ، فلماذا يداهمني هذا القلق الذي لا معنى له؟

كانت القاعة تمتلئ بنساء عجائز يستمعن إلى الوسيطة الروحية التي وقفت على المنصة تتلقي رسائل الموتى وتنقلها إليهن ، وانعكست حالتي النفسية على ما أرى وأسمع ، فبدا كل شيء في هذه الصالة كئيباً يبعث على الضجر . بما في ذلك هذه الوجوه التي هرب منها ماء الحياة ، وغلفها وجوم يشبه الغيبوبة وهي تتلقى الكلمات التي تأتي من عالم الغيب . كنت قد اكتشفت أن هناك امرأة

صغيرة السن ، ذات جمال ونضارة ، تندس بين هؤلاء العجائز . انشغلت بالنظر إليها متسائلاً عما جاء بها إلى هذه القاعة المليئة بالأشباح ، عندما تنبهت إلى أن الرؤوس تستدير فجأة نحوي ، وأن الوسيطة تحدثني وترفع يدها باتجاهي ، نظرت إليها مذعوراً ونظرت حولي بأمل أن تكون الإشارة لا تعنيني ، ولكن المرأة لا تعني أحداً غيري ، فهي على اتصال بسيدة من قريباتي ، انتقلت إلى الدار الآخرة محنية الظهر ، وقد جاءت من تلك البلاد البعيدة تبغي إبلاغ رسالة لي . لم تذكر الوسيطة اسماً بحجة أنه اسم غريب لا تستطيع نطقه ، ومضت تقول كلاماً غريباً عن العاصفة التي أطاحت بالأشجار وهدمت الأبنية ولم يحمني منها إلا معطف رماه على جسدي ولي صالح من أسلافي ، وأن هناك الآن من يناديني نداء ملتاعاً ، يطلب عوني ونجدتي ، وأن أمامي سفراً قريباً إلى هناك ، ولسوف تشهد حياتي تغييراً يجب أن أستعد له وأتقبله برضا وإيمان ، لأن الحياة تمضي وفق إرادة عليا لا يملك البشر الفانون قدرة على ردها . أبلغتني أنني سأقطع طريقاً يهبط بي من هضاب خضراء ، إلى أرض خلاء لا شجر فيها ، وسأجد نفسي أعبر نفقاً طويلاً وأنا أحمل على ظهري كيساً ثقيلاً . سيلوح لي ضوء في آخر النفق ، وسأرى بعد أن أصل إليه قنطرة ، تفضي إلى مشهد لم أكن قد عرفته أو رأيته ، حيث سأنزع الحمل عن ظهري . تنفست بارتياح عندما رأيتها تنصرف عني وتشير بإصبعها إلى جهة أخرى . لم أستطع أن أهتدي في كلامها إلى شيء له معنى إذ ليس في حياتي أنفاق ولا جسور ولا عواصف ولا أكياس ولا معاطف تنتمي لأسلافي الموتى ، ولا أعرف أن هناك أحداً من أهلي يناديني لأنهم يعرفون رقم هاتفي ، فهو أيضاً يتحرك بسرعة الروح . قلت ذلك لعدنان الذي كان واثقاً من صدق أقوال الوسيطة ، محاولاً أن يساعدني في اكتشاف المعاني العميقة لكلماتها . لم أبحث عن هذه المعاني ، ولم أعبأ بعلامات الخيبة التي ارتسمت على جبينه وهو يفشل في تحويلي إلى مريد لجمعيته الروحية . كما لم يستطع هذا الاتصال الغريب بعالم الأرواح أن ينسيني أشباحاً أخرى تنقل كلاماً جارحاً يتناول سيرتي وسيرة ليندا . سحابة من القلق أقامت في صدري لا تغادره ، وكأن

ما يقوله الناس سوف يصبح نهار الغد فرماناً سلطانياً يمنعني من أن أرى ليندا أو أقترب منها .

عدت إلى البيت لأجد ليندا مضمخة بعطر الأعشاب الصحراوية ، علامة على أنها أعدت نفسها لعرس الليلة . قررت أن أصرف ذهني عن التفكير في أي شيء آخر ، عدا هذه المرأة ، وانتظار لحظة الالتقاء بها في غرفة مغلقة . قلت لها بشيء من الاستخفاف إنني ذهبت بصحبة عدنان إلى الجمعية الروحية ، وتلقيت رسالة من عالم الموتى . سألتني بلهفة لم أتوقعها عن فحوى هذه الرسالة ، فأخبرتها بأنه كان كلاماً غامضاً لم أعرف له معنى . جاء دونالد ، وجلسنا لتناول شرائح اللحم التي أعدتها ليندا . كانت تضع الأطباق وتعبر عن رغبتها في أن تحضر جلسة ترضي فضولها لمعرفة هذه العوالم الغريبة الغامضة ، لكنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ، ودونالد لم يكن يرضى أن يأتي معها . لأنه لا ينشغل بغير القوى الكامنة في الإنسان ولا يعبأ بالقوى الأخرى . بقيت في أثناء العشاء أرقب دونالد علني ألمح تغييراً في مشاعره نحوي أو معاملته لي ، بعد أن كان هدفاً لانتقادات ذلك الصديق . كان وجهه يطفح بالمودة وهو يحدثني بحماسة عن كتاب جديد جاءه بالبريد ، يتناول جزءاً مهماً من حياة بوذا . وبعكس الكتب الأخرى التي تصرف اهتمامها لشرح التعاليم البوذية ، فإن هذا الكتاب يتناول تفاصيل حياة بوذا الشخصية ، ويسرد مراحل عمره المبكرة قبل أن تأتيه رسالة التنوير تحت شجرة التين المقدسة . لم أكن أعرف كثيراً عن بوذا أو عن علاقته بالتين المقدس ، ولكن ما عرفته تلك اللحظة هو أن قلب دونالد لم يتغير نحوي ، وأن رسالة التنوير التي حاول أن يبلغها له صديقه تحت سقف حانة العناقيد لم تجد لديه سوى الإهمال والنسيان . أكملنا العشاء وانتقلنا للجلوس أمام التلفاز ، حيث دخن دونالد غليونه ، ثم أخذ كتابه الجديد ، ودخل غرفة نومه . وما أن أوصد الباب خلفه حتى سألتها أن تأتي لإنقاذي . اكتشفت وأنا أصل بها إلى غرفتي أن كل ذلك الضيق قد تبدد الآن . في كل مرة تحتويني معها هذه الغرفة ، أشعر كأنها المرة الأولى ، بدهشة الاكتشاف التي ترافقها ، وعنف الصبوات في

بدء تفجرها . إن كل ظلام العالم الخارجي ، لا يجرؤ على أن يتسلل إلى خلوتنا ، وكل أنواع الفتور وبرود العواطف ، التي تداهم العلاقات عندما تصبح روتيناً مألوفاً وآمناً ، لم تستطع أن تتسرب إلى علاقتنا . ليقل هؤلاء الناس ما يقولون ، فإن ذلك لن يزيدني إلا شوقاً إليها ، ورغبة في الالتصاق بها ، والانصهار معها روحاً وجسداً ، لكي لا يجد الكلام مسافة بيننا يتسرب منها .

سكت هدير الدماء في العروق ، وعاد الكون ينعم بهدوء عميق ، لا تزيده أصوات الأشجار التي يعبث بها الريح إلا سكينة وصمتاً . وأنا أتمدد فوق السرير بجوارها ، أمرر سبابة عاشقة بين نهديها وأهبط بها إلى سرتها ثم أعود صاعداً بها إلى المحطة الأولى ، أداعب حلمتيها . استيقظت في رأسي هواجس النهار ، فقلت أخاطبها وأخاطب نفسي :

- هناك من يتحدث عنا .

وضاحكة قالت ليندا :

- تقول ذلك بلهجة بطل في مسرحية إغريقية يتحدث عن تعليمات أصدرها زيوس ، رب الأرباب . لقد انتهى عصر آلهة الأولمب الذين يقررون مصائر البشر ، وأضحى الإنسان حراً .

- إذن فأنت على علم بما يقولون .

- أعرف أن هناك من هو على استعداد لأن يتحدث منتقداً أي إنسان ، سواء فعل شيئاً أم لم يفعل .

أخبرتها بكل ما قاله عدنان ، وما أحسست به من كدر نتيجة لذلك . انكفأت تضع حلمتيها على صدري ، وتمرر شفتيها على وجهي . انهمر الشعر الكستنائي يغطيني ، ويصنع سقفاً للكون أكثر بهاء وإشراقاً . أغمضنا أعيننا . تبادلنا قبلة أعادت للدماء هديرها . تبدد السكون الذي شمل الكون . تلاشت الهواجس والظنون . دارت الكرة الأرضية دورة سريعة مجنونة . ارتطمت البحار بالبحار ، وتطاير البشر في الفضاء كذرات الغبار . قالت ليندا ونحن في ذروة العناق والانتشاء :

- اطردهم جميعاً من ذهنك ، فإن كلامهم لن ينال من حبي لك ذرة واحدة .

نجحت ليندا في أن تطرد سحابة الأسى من سمائي . وجاءت ليلة الفن الشرقي ، فتحلقنا حول عدنان الذي أحنى رأسه فوق العود يداعب أوتاره . اتكأنا فوق الوسائد نرتشف النبيذ . ونعلق أعيننا بأوتار العود ، ونصنع بجلوسنا فوق الأرض طقساً يكمل شروط هذه الليلة الشرقية . وجاءت «انار» ترتدي سارياً هندياً ، تضيف به لوناً آخر إلى ألوان هذه السهرة .

كان الموشح الأندلسي الذي بدأ به وصلة العزف والغناء ، بطيء الإيقاع غير قادر ، برغم عذوبته ، أن يستولي على انتباه آذان لم تألف هذا اللون التقليدي . أحس عدنان بذلك فانتقل إلى تقديم ما يحفظه من أغاني سيد درويش . وما أن بدأ يعزف «طلعت يا محلى نورها» حتى صاروا يصفقون مع الإيقاع ويتمايلون طرباً . لم يكن صوت عدنان يشبه أصوات المطربين طلاوة ، إلا أن غناءه كان مليئاً بصدق الانفعال وحرارته ، واستطاع بما يتقنه من تلوين في الأداء وتنويع في الطبقات والمقامات أن ينسينا خشونة الصوت ويأخذنا معه في رحلة البهجة التي يصنعها الحضور الحي لفنان العرض .

انطلق يرسم بفنه صورة أخرى لليل اسكتلندا ، يزرع في سماء هذا الليل شمساً عربية ، ويستدعي عالماً أكثر سطوعاً ، ويشملنا جميعاً في لحظة الانعتاق من أسر الواقع إلى فضاءات الحلم والذكرى . أكمل الأغنية ، وارتاح قليلاً يرتشف جرعة من كأسه قائلاً :

- أشعر بأن سيد درويش يحل في بدني ، إنه هو الذي يغني الآن .

ورداً على سؤال المرأة الهندية قدم تعريفاً قصيراً بمكانة سيد درويش في تاريخ الموسيقى العربية . ثم أخذ العود ليعزف «سالمة يا سلامة» بلحنها الإيقاعي الراقص ، الذي فتح شهية ليندا للرقص . أفسحنا لها مكاناً بيننا ، وقمت بالبحث عن قطعة خشب استعملتها آلة إيقاع أنقر عليها ، وأردد مع عدنان مقاطع الغناء :

- سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة .

ولا أدري لماذا أحسست فجأة بوخز مؤلم في صدري . كان قد داهمني هذا

الصباح واعتبرته شيئاً طارئا عندما انتهى سريعاً . لم أشأ أن أتوقف عن ضرب الخشب ، أو إظهار أي شعور بالألم ، يثير قلق الحاضرين . رأيت عدنان ينظر نحوي مستنجداً ، يريدني أن أضع حداً لهذه الفوضى بعد أن صرت أضرب الخشب بعنف وتشنج . جلست صامتاً ، أضع يدي تحت قميصي أدلك بها صدري وأرقب «أنار» التي قامت تشارك في الرقص ، نشرت ذراعيها وصارت تسبح سباحة في الهواء . رقصت برأسها بمثل ما رقصت بأصابع يديها . لم يختف الألم من صدري وإن تناقص قليلاً . أمرته أن يتحول إلى ركبتي أو ساقي أو ذراعي ، فسيكون ذلك أكثر احتمالاً . لم يفعل فقررت إهماله . واصلت متابعة الرقص والغناء دون أن أغفل عن دونالد الذي أبدى اهتماماً بالمرأة الهندية منذ بداية اللقاء ، عندما عرف أنها تتخصص في اللغة السنسكريتية التي كتبت بها التعاليم البوذية . وكنت أتساءل عما إذا كان اهتمامه بها اهتماماً علمياً صرفاً أم أن له غرضاً آخر . انتهت حصة الرقص وعدنا ندس رؤوسنا في عود عدنان . أبقيت يدي موضوعة على صدري حتى بعد أن زال الألم ، خوف أن يعود إذا رفعتها . وكنت أحياناً أهمس للبندا بترجمة الكلمات التي يغنيها عدنان . ضحكت كثيراً عندما ترجمت لها كلمات الأغنية التي انتقل إليها والتي تقول «خفيف الروح بيتعاجب ، برمش العين والحاجب» وصارت تغمز بعينيها وتحرك حاجبيها وتبالغ في إظهار هذا التعبير المضحك الذي أثار انتباه دونالد و«انار» فأعدت عليهما الترجمة . ضحكنا ثم عدنا لمتابعة الغناء ، بينما ظل عدنان مستغرقاً في عوالمه وكأنه لا يغني إلا لنفسه . انتقل من وصلة غنائية إلى أخرى ، ومن «على قد الليل مايطوّل» و«الحلوة قامت بتعجن» إلى «زوروني كل سنة مرة» التي غناها بشجن وأسى ، وجعل الجميع يستمعون بخشوع إليها ، وكأنهم يحضرون قداساً دينياً . حتى إذا ما انتهى وضع العود جانباً ، وأخذ منديلاً يمسح به العرق الذي تفصد غزيراً من وجهه وعنقه ، قائلاً :

– والآن تصبح على خير يا شيخ سيد .

هتفت أناديه لكي يبقى ، ولكن الشيخ سيد غادر الغرفة ، كما أراد له عدنان

الذي أرجع العود إلى جرابه ، وجلس للحديث والشراب . وفي حين مضى يشرح لليندا مقامات الموسيقى العربية والفرق بينها وبين الموسيقى الغربية ، كان دونالد قد انصرف انصرافاً كاملاً إلى الاهتمام بالمرأة الهندية ، مستغرقاً معها في حديث أشبه بالمناجاة ، يتهامسان ويتضاحكان ويكتفيان بنفسيهما عن بقية الحاضرين . لا أدري إذا كان هذا الحديث الهامس قد أقلق ليندا ، فقد رأيتها ترمقهما بنظرة سريعة ثم تعود إلى حديثها مع عدنان . جلست أضع يدي على قلبي وأراقب الموقف من بعيد . لم أشأ أن أنتقل للجلوس بجوارهما وأفسد بالتالي حميمية هذه اللحظة ، ولم أجد في نفسي ميلاً للاعتقاد بأنه يلعب لعبة ماكرة يقلب بها المناضد علينا ، أو يفتعل الإعجاب بهذه المرأة افتعالاً من أجل التعبير عن كبرياء جريح ، أو وسيلة يثأر بها لنفسه . إن بينه وبين هذه المرأة القادمة من الهند شيئاً مشتركاً يجعله ينجذب إليها ، ويحتفي بها . ولعله بطريقة لا واعية يريد أن يحقق توازناً يعوض به اختلال العلاقة مع زوجته . لا أدري إن كنت مصيباً عندما أحضرتها للسهر معنا ، فهي امرأة وحيدة . وجاءت حديثاً إلى هذه المدينة ، ولا بد أنها ستغتبط بهذا الاهتمام الذي يبديه نحوها دونالد بكل ما تعرفه عن أسرار العلاقة التي بيني وبين زوجته . بقيت أتأملها وهي تستند إلى الحائط وتضع مرفقها فوق الوسادة وتحني رأسها نحو دونالد . ارتدت سارياً أزرق يكشف عن جزء من خصرها العاري ، ووضعت في عنقها عقداً من العقيق يضيء بشرتها النحاسية . على مشارف الثلاثين من عمرها . في وجهها امتلاء ونضارة . وفي عينيها جمال هادئ وديع دونما فتنة أو إثارة . لم أجد فيما أرى شيئاً يستفزني لأنه لو صدق حدسي ونشأت علاقة حب بينهما ، فسيكون بإمكانه عندئذ أن يذهب بها إلى حانة العناقيد ويريها لأصحابه . وإذا كانت زوجته تذهب مع رجل آخر ، فها هو يخرج مع امرأة أخرى تحقيقاً للعدالة التي يريدونها . ولكن ماذا عن ليندا؟ ألن تثير هذه العلاقة غيرتها ، فتسعى إلى استرداد زوجها ، ولو على حساب الحب الذي بيننا . كنت قلقاً . وكنت أريد أن أرقب باهتمام تطور هذه العلاقة بين دونالد و«انار» . ولكن طارئاً حدث في اليوم التالي ، صرف ذهني عن هذه القضية ،

وأغرقني في نوع آخر من الأسى ، جاء يداهمني دون إنذار . استيقظت في الصباح مفعماً بحيوية لم أعهدها في نفسي لحظة أن أغادر عالم النوم . وكأن سهرة الليلة الماضية زودتني بفائض من الفرح لا يستنفد نفسه مع اللحظة الهاربة . وقفت أمام النافذة أرقب الصباح وأستنشق عبير الأرض ، عندما جاء صوت ليندا يناديني لأرد على هاتف من طرابلس . ركضت هابطاً الدرج ، سعيداً بهذا الهاتف الذي جاء بعد انقطاع دام أكثر من شهرين . أمسكت بالسماعة لأجد صوتاً يبلغني بعد مقدمات غامضة أن والدي قد مات . انطلق الخنجر من طرابلس ، ومزق السماء في ومضة خاطفة ، ووصل إلى صدري . عاودني على الفور وجع القلب الذي أحسست به البارحة . بقيت ساهماً ، واجماً ، والخنجر مرشوق في صدري . تشنجت أصابعي على مقبض الهاتف وأنا أسمع كلام الرجل دون أن أتبين منه شيئاً . أقفلت السماعة . كنت في حالة ذهول ، غير قادر على الوقوف أو الجلوس أو الحركة أو البكاء أو الكلام . حاولت أن أستعيد ما قاله الرجل من كلمات لم أنصت لها ، فوجدتها ملتصقة بذاكرتي التصاق الكلام بشريط التسجيل . إنه يقول إن والدي مات منذ صباح الأمس . حاولوا الاتصال بي فلم يجدوا أحداً بالبيت . أكملوا دفنه ، وأقاموا له جنازة تليق برجل عاش في سلام مع نفسه ومع الآخرين . وقد ظل يذكرني في لحظاته الأخيرة ويدعو لي بالصلاح . لعل القريب الذي هاتفني كان مازحاً أو كاذباً ، أو لعله كان يتحدث عن رجل آخر غير أبي . صعدت إلى غرفتي وتهالكت بجوار الحائط أبكي وأضرب الجدار بعنف لعلني أجد سبيلاً لتصريف هذه الشحنة من الحزن التي ضاق عن احتوائها صدري . هل حقاً مات؟ كيف أستطيع أن أصدق ذلك؟ وهو الرجل الذي كان يذهب بقدميه إلى الموت ، يصارعه وينتصر عليه . قضى جزءاً من عمره ماشياً فوق حقول الألغام ، يقابل الموت في كل لحظة ، دون أن يجرؤ الموت على الاقتراب منه . كانت حقول الألغام التي تركتها الجيوش المتصارعة في أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، تملأ الصحراء ، حيث كان الناس الذين تضيق بهم مجالات الرزق الأخرى ، يشتغلون بتفجير قنابلها وبيع حديدها لوكالات تجارية ،

تتنافس على شراء الحديد وتصديره إلى الخارج . وما أن ينتهي العمل في حقل من الحقول ، حتى ينتقل بنا إلى مناطق أخرى ، وحقول لم تتفجر بعد . كان سيد نفسه . لم يرض أن يخدم أجيراً لدى أحد . وفي حين كان يعز العمل ، وتضيق فرص الرزق ، فإن رزقه ظل جارياً ، ينتزعه انتزاعاً من بين مخالب الموت . كان زمن بؤس ومجاعات . وكنا ننتقل من بادية إلى أخرى . حيث تنتشر المناحات في كل مكان نذهب إليه ، لأن إنساناً ما ، أكلته الألغام . وكانت أمي تجلس باكية في خيمتها تنتظر خبراً فاجعاً كلما سمعت لغماً يتفجر . . إلى أن جاء الخبر ذات عشية ، وعقب انفجار هز الأرض كالزلزال ، بأن حقلاً يعمل به والدي قد تفجر بكامله ، وأن أشلاء الضحايا تمزقت وتناثرت في كل مكان وبات من المتعذر التعرف على هوية الموتى . توافد على بيتنا المعزون ، وارتفعت عقائر النساء بالنواح ، يمزقن أثوابهن ، وينشبن أظافرهن في وجوههن حتى تنبجس منها الدماء . كنت صغيراً في الخامسة أو السادسة من عمري ، لا أدرك حقيقة ما حدث . ولكن مشهد النساء النائحات ، الداميات الوجوه ، ومن بينهن أمي وأختي ، كان يفزعني ، فانهمر بالبكاء . يظنني بعض الرجال أبكي موت أبي ، فيأخذون بيدي ويبعدونني عن النساء النائحات قائلين إن أبي لن يغيب إلا بضعة أيام ، وسيعود حاملاً معه ، كما يفعل دائماً بعد أن يبيع الحديد ، سلة مليئة بالغلال واللحوم والحلوى ، التي يشتريها من سوق الواحة القريبة . كنت قد ابتعدت عن الخيمة بصحبة أطفال آخرين عندما رأيت أبي قادماً من بعيد . لم يكن يحمل فاكهة ولا غلالاً ، ولكنني فرحت بمجيئه وذهبت راكضاً أخبر أمي . ما أن رأتني ، وسمعت ما أقول ، حتى ازداد عويلها ، وارتمت متشنجة فوق الأرض . أبعدوني عنها ، وهم ينهرونني قائلين بألا أعيد مثل هذا الكلام لأن أبي لن يعود الآن . ولكن أبي عاد فعلاً من موته . ظهر عليهم فجأة حاسر الرأس ، مقطوع القميص ، تغطي الأتربة شعره وثيابه ، وكأنه خرج لتوه من القبر . كانت الدماء تسيل من جراح فوق ذراعيه وهو يقف غاضباً وسط المعزين . تحول نواح النساء إلى خوف ورعب ، في حين تحلق حوله الرجال ينظرون إليه باستغراب

ويسألونه عما حدث . صاح يطرد المعزين ، ويأخذ عصا يضرب بها النساء النائحات ، فيلذن بالفرار ، حافيات الأقدام ، حاسرات الوجوه والرؤوس . وكان ذلك آخر عهد له بالعمل في حقول الألغام . ترك الصحراء ، كما ترك الواحة التي ضمت قبور أجداده ، بعد أن شحت مواردها ولم يعد لديه من أهله القريبين من يشده إلى البقاء فيها . وسافر بنا إلى طرابلس ، حيث اكترى لنا غرفتين في بيت من بيوت المدينة القديمة ، يضم خمس عائلات أخرى . اشترى بما لديه من مدخرات قليلة قطعة أرض بور خارج المدينة ، وظل يقضي بها نهاره كله ، يحرث تلك الأرض ، ويحفر لها بئراً إلى أن صارت بستاناً . وظل هذا البستان مصدر الرزق الذي منه نعيش وبفضله واصلت تعليمي . كما ظل والدي يعمل في تعميره حتى بعد أن حاصرته الأبنية والمنشآت الصناعية ، رافضاً أن يتنازل عنه برغم إغراء المال إلى أن أقاموا بجواره مدبغة للجلود ، كانت رائحتها مصدر كدر دائم له ، وكان يعود كل يوم إلى البيت غاضباً ، ساخطاً ، ويشتبك كل صباح في عراك مع من يلقاه من أصحاب المدبغة وعمالها . وهروباً من تلك الرائحة ، باع البستان ، وظل لمدة طويلة متذمراً من البقاء بلا عمل ، مع أنه لم يعد بحاجة إليه ، بعد أن توفيت والدتي ، وانتقلنا للإقامة مع أخي الأكبر الذي صار مقاولاً .
أتراه حقاً طواه ذلك الموج الأسود الذي نسميه الموت؟ هل تقوض ذلك البناء الذي ظل برغم الشيخوخة ، شامخاً ، ومتيناً كالقلاع القديمة ، وانطفأت تلك الجذوة التي تشتعل في عينين تحيط بهما الظلال والتجاعيد التي تشبه كتابة بالطلاسم السحرية ، وهمدت الدماء التي تجري في تلك العروق النافرة الزرقاء التي تمتد كالحبال فوق يديه وذراعيه؟ لعله لم يمت . لعله سيأتي الآن إلى سرادقات العزاء ، يطرد المعزين ويلاحق بعصاه النساء النادبات فيخرجن إلى الشارع بلا أحذية ولا ملاحف . كان يحبني كثيراً . تيتم صغيراً ، وحرم نعمة التعليم ، فأراد أن أكون وريثاً لأبيه الذي كان معلماً للقرآن ، وجده الذي كان إماماً وقاضياً . اختارني لكي أعيد إلى بيت «الإمام» سمعته الجليلة كبيت للعلماء والفقهاء . ومن ناحية أخرى فقد كان خائفاً أن ينتصر جدي لوالدتي الذي كان

في بداية حياته قاطع طريق ، قبل أن يهتدي على يد جدي الأكبر ، ويشتغل بتجارة القوافل ، إلى أن مات في الصحراء . لا شك أنه ذهب إلى مقره الأخير وفي قلبه حسرة لأنني لم أحقق له حلمه . أراد أن يهبني لرسالة أسلافه ، فألهب ظهري بالسياط يدفعني إلى طريق المدرسة القرآنية التي كنت أهرب منها . لم أكن وأنا أودعه منذ أشهر مضت ، أدرك أن الموت كان قريباً إلى هذا الحد . كان وهو يتجاوز الخامسة والسبعين ، قوي البناء ، يوازيني صحة وعافية . كان يكره المرض . نسأله أن يرتاح ويبقي نائماً في السرير إذا أحس ببرد أو زكام ، فيهزأ بنا قائلاً بأن هذا ما يريده المرض . يريد أن يراك خائفاً متخاذلاً ، لا تقوى على المقاومة ، لكي يأتي ويرتمي فوقك ، ويبقيك طريح الفراش . ومهما أمسى مريضاً ، فإنه ما إن يأتي الفجر ، حتى يذهب لأداء الصلاة بالمسجد ، ثم يمضي من هناك إلى عمله بالمخبز . وها قد جاء طائر الموت ، يلاحق الرجل الذي قاومه طويلاً ، ويطويه أخيراً تحت جناحيه الكبيرين الأسودين .

لم أهبط لتناول وجبة الافطار ، فجاءت ليندا لتعرف السبب . وما أن رأتني حتى أدركت أن المكالمة الهاتفية حملت لي همّا كبيراً . جلست بجواري تواسيني . أسلمت رأسي لأحضانها باكياً ، ثم انتشلته وكأنني أخشى أن يراني والدي من خلف الحجب ، أبكيه بهذه الطريقة ، فيستنكر سلوكي . قالت وهي تراني أفتش عن تذكرة العودة التي أحتفظ بها :

- هل يقتضي الحال أن تسافر؟

- نعم . سأسافر اليوم إذا استطعت .

لم أسافر إلا في اليوم التالي . جاء الليل وانصرف الزملاء الذين جاءوا مع عدنان لمواساتي . وخرجت من مجلدات الكتب الأسطورية أشباح فرسان وسلاطين ينظرون نحوي بعيون مطفأة . انهار الحائط الذي كان يحميني ، ويمنع عني رعب الكائنات الظلامية . أيقنت أن وجع القلب الذي أحسست به بالأمس ، لم يكن وجعاً ، بقدر ما كان إحساساً بالفجيعة جاء يداهمني لحظة موته . تذكرت تنبؤات الوسيطة ، وتساءلت إن كان حديثها عن الإنسان الذي

يناديني ، والسفر القريب إلى وطني ، قد جاء ليتوافق صدفة مع هذه الأحداث . لعل النبوءة لا تنقل الأحداث قبل وقوعها ، وإنما هي التي تصنع الأحداث وتصوغها حسب مشيئة المنجمين .

ما أن وصلت إلى طرابلس حتى سألتهم أن يأخذوني مباشرة إلى قبره ، ويتركونني لحظة معه . توسلت إليه بعيون دامعات أن يسامحني لأنني لم أحضر لتوديعه ، ولم أستطع تلبية ندائه قبل الرحيل ، ولأنني عندما كان ينام ليلته الأولى في قبره ، كنت مشغولاً عنه بالرقص والنبيذ ، والغناء والنساء . أحببته بمثل ماخشيت بأسه وقسوته . كان هوسه أن يرى أحد ولديه عالماً من علماء الدين يدفعه إلى أن يعاملنا بشراسة أحياناً . لجأ مع أخي عثمان الذي يكبرني بتسعة أعوام إلى حيلة أخيرة ظنها ستكون علاجاً نهائياً لإهماله ونفوره من الدراسة الدينية . نصب له مشنقة وسط الغرفة ، ووضع الحبل حول عنقه ، وأراد أن يشنقه عقاباً على هروبه من الدروس . وعندما صار أخي يصرخ رعباً فك الأنشوطة عن عنقه وهدده بأنه سينفذ وعده إذا تكرر إهماله وهروبه . وما أن وجد أخي ، الذي كان صبياً في السادسة عشرة من عمره ، أنه نجا من الشنق ، حتى فر هارباً من البيت ولم يعد إليه ، إلى أن عرفنا فيما بعد ، أنه انضم للعمل بأحد المعسكرات في مدينة أخرى . وبرغم هذا الدرس الذي أتعبه حتى سقط مريضاً ، فإنه ما أن استرد صحته حتى أعاد محاولاته معي . يقودني كل صباح إلى الفقيه ، ويوصيه بأن يستخدم كل الوسائل التي في حوزته لتأديبي ، بما في ذلك فلقته ، وعصاه المصنوعة من أخشاب الجنة . اكتشف والدي بعد مرور أكثر من عام أنني أعيد سيرة أخي ، وخشي أن ألقى مصيراً كمصيره ، فتخلى مرغماً عن أحلامه في استرجاع أمجاد العائلة الدينية ، متجهاً باللوم إلى والدتي ، قائلاً إن أباها قد انتصر على آبائه ، وسرق أولاده منه ومنهم . اكتفى بأن زوّج أختي ، من فقيه أعادها إلى الواحة التي ننحدر منها ، وتركني ألتحق بالمدارس الحديثة . كان يفرح بنجاحي ويقيم وليمة لأصحابه كلما ظهرت النتيجة ويسألني أن أقرأ لهم من كتب المقرر الديني ، ويجد في ذلك تعويضاً عن خيبة أمله في أن يراني فقيهاً .

أسندت رأسي إلى رخام القبر متوهماً أنني أتكئ على كتف الأب الغائب . أخذتني شبه إغفاءة ، رأيته في أثنائها يركب جواداً مصنوعاً من السحب البيضاء ، يطارد به طيف امرأة تركض في حقول السماء ، تصورتها ليندا . صحت به : «كلا ليست هي المذنبة ، وإنما المذنب أنا ، فلا تظلم امرأة بريئة» . كنت أقف وسط مرج أخضر ، مزهر ، له شذاً كالعطر يملأ المكان . رأيته يهبط عن جواده ويسير نحوي كأنه يطفو في الهواء ، عقد ملامحه ورفع يده متوعداً . وضعت ذراعي أمام وجهي ، أتقي ضرباته . ثم تنبهت إلى شهادة دراسية كانت معي . أخرجتها مسرعاً ودفعت بها إليه كي أشتري رضاه . أخذ الشهادة ينشرها أمام وجهه ، وما أن رأى اسمه مقروناً باسمي حتى انبسطت ملامحه المعقودة . طوى الشهادة في يده وعاد باسماً إلى سحابته . أفقت من إغفاءتي فوجدت أن الشمس توشك على الاختفاء ولون الشفق يصبغ عالم الأموات بعتمة ملونة . اندهشت عندما وجدت أن الأريج الذي يشبه العطر والذي كان يضوع من حقول الحلم مازال معلقاً في فضاء المقبرة .

قال أحد المعزين من كبار السن . ممن عرفوا والدي وعاشروه في سنواته الأخيرة :

– كان والدك رجلاً حكيماً ، ولابد أنه ترك لك كلمة تعينك على مواجهة تصاريف الزمان .

ترك والدي كلاماً كثيراً ما زالت أصداؤه تتردد في ذاكرتي ، ولكن من أين لي بصيرة الرجال النابهين ، لكي أهتدي إلى الكلمة الثمنية التي خبأها تحت ركام الكلام؟ علني أهتدي إليها ذات يوم أما الآن فسأواصل البحث عن العنف والجنس في أساطير الليل والنهار ، مسافراً بين مدن الماضي والحاضر ، وبقلب إنسان يطمح أن يصل ذات يوم إلى مدينته الموعودة .

بقيت أسبوعين مع حديث الموت والأحزان وذكريات الرجل الراحل . وعندما بدأت أسمع تلميحاً عن الإرث وتقسيمه ، عافت نفسي هذا الحديث ، وأخذت حقيبتي عائداً إلى شطآن بحر الشمال .

أدنبره مرة أخرى .

القلعة التي تشبه خرافة من الحجارة ، مثقلة بتراثها المصنوع من نشوة الانتصارات ومن أحزان الملوك المهزومين ، معلقة فوق صخور الجبل البركانية ، مهيمنة بقوة على فضاء المدينة ، وكأنها ملامح وجه كائن أسطوري ، يشرب الريح ، ويراقب البشر .

السحب الداكنات التي صنعت سقفاً أسود ، يغطي المدينة ، ويلامس أبراج القلعة ، ونشيج الأمطار التي تتساقط منها دون انقطاع .

الشوارع المغسولة اللامعة ، التي تتحول إلى أودية للريح ، والأشجار التي ترقص في عنف ، ترفع رؤوسها ترتشف حبات الماء ، وتنشئ حواراً صاخباً مع الريح والمطر .

لم ينطفئ الشوق إلى المرأة التي صارت وطناً للقلب ، ولكن الروح مثقلة بأحزان الموت ورحيل الرجال الكبار . وصلت قبل انقضاء موسم العطلات وأعياد الميلاد . فألقيت بنفسي في دوامة الحياة التي تمنحها هذه المدينة لقاطنيها . وألقيت بجسمي بين أحضان المرأة التي بادلتني حباً بحب ، أدفئ القلب بنار عواطفها ، وأجد في عطرها الشرقي بلسماً لأوجاع الليل . صرت أتجنب الانفراد بنفسي ، خوف أن تهاجمني في أثناء بقائي وحيداً ذكرى الرجل الراحل . جددت صلتي بفرقة التمثيل ، وعدت لملاقاة زملاء الجامعة بحانة العناقيد ، حيث نار المدفأة الكبيرة الموقدة بالفحم والحطب . ما إن يأتي المساء ، حتى أترك المكتبة وأهبط زقاقاً ضيقاً يفضي إليها ، فهي تقع عند سفح الهضبة ، في الجزء القديم من المدينة ، الذي كان سوقاً لأعلاف الماشية يحمل حتى الآن اسم «سوق التبن» . لم تكن هذه الحانة سوى خرابة قديمة ، جاء أحد المدرسين بالجامعة واسمه «لاري» ، فرمم خرابها ، ودهن بالطلاء جدرانها ، وابتنى لها سقفاً من الخشب ، وجمع عدداً من براميل النبيذ الفارغة ، اتخذها مناضد ونثر حولها الكراسي ، ثم أقام هذه المدفأة التي لاتنطفئ نارها طوال مواسم البرد . وجعل الحانة منتدى لأصدقائه من طلاب ومدرسي الجامعة حتى أسماها الناس حانة

المثقفين . جاء إليها الزبائن من مختلف المهن والفئات الاجتماعية ، واكتفى أهل الجامعة بزاوية قريباً من المدفأة . جرت في يده النقود ، فهجر «لاري» مهنة التدريس بالجامعة ، وتفرغ للاستمتاع بمباهج الحياة ، يقضي أغلب أشهر السنة متنقلاً مع صديقاته بين إسبانيا وجنوب فرنسا . يعيش عيشة الأثرياء ويفكر في إنشاء حانات أخرى بتلك البلاد .

كان يتخذ مجلسه بجوارنا عندما يكون قد عاد من سياحاته . وكنت أتبادل معه الحديث أحياناً . قال ضاحكاً وهو يراني أدخل الحانة ، أرتعش برداً وأقطر ماءً .

– ما الذي جاء بك من بلاد الشمس الساطعة إلى صقيع هذه المدنية التي تلعنها العواصف؟ دع عنك هذه الشهادات التي لا تجلب نقوداً ، وارجع إلى بلادك وافتح حانة هناك قبل أن يفوت الأوان .

أرادني الأب الراحل فقيهاً ، وهذا الصديق ينصحني بأن أكون خمّاراً ، وأنا ممزق بين الاختيارين ، أبحث عن طريق للمصالحة بينهما . أردُّ ساخراً :

– هذا ما كنت سأفعله لولا أنهم في بلادنا لا يبيحون إنشاء الحانات .

ينظر نحوي مستغرباً كأنه لا يصدق أن هناك بشراً في الدنيا يحتملون الحياة بلا حانات . يسأل إن كان ما أقوله صحيحاً . وعندما يعلم أنني جئت من بلاد تمنع قوانينها تناول الخمر ، تغمر ملامحه علامات الفزع قائلاً :

– ولكن لماذا سمحت لوالديك بأن ينجباك هناك؟

كان يعلق فوق الجدار الذي نجلس بجواره إعلاناً كتب بخط عريض ، يتوجه به إلى مدرسي الجامعة ، يرحب فيه بأي أستاذ يريد أن يتحرر من عبودية وبؤس هذه الوظيفة ، ليعمل ساقياً في حانة العناقيد ، وسيمنحه راتباً يوازي ضعف ما يتقاضاه من الجامعة ، مضافاً إليه الإكراميات التي يتلقاها من زبائن الحانة . وكان أهل الجامعة يردون على استفزازه ساخرين من تحوله الفاجع ، من أستاذ في علم اللغة إلى بائع للخمور ، ويتندرون على الأعوام التي قضاها في التحصيل العلمي لكي ينتهي إلى مهنة لا تحتاج لأية مؤهلات .

- أن يفيق الإنسان متأخراً ويتدارك العمر الضائع ، أفضل من أن يبقى سادراً في غفلته كما تفعلون . لا تتحدثوا أمامي عن الرسالة التي تؤدونها . انظروا إلى «جاك» عامل المراحيض في جامعتكم . إنه يأتي إلى هنا هارباً من إفرازاتكم ، باحثاً مثل هؤلاء الناس عن لحظة سعادة أنا الذي أقدمها له . فأية رسالة في الدنيا تعادل هذه الرسالة .

ثم يتحسر قائلاً :

- لم ينصفني أحد سوى عمر الخيام .

ويرى صديقته الإسبانية التي يسميها «الكاردينال» قادمة نحوه ، وهو يحادث نساء الجامعة ، فيقطع حديثه ملتفتاً إليها :

- ها قد جاءت وريثة محاكم التفتيش الإسبانية .

يحيط خصرها بذراعه ، ويقول مداعباً :

- يبدو أننا جميعاً نحب العبودية ، وإلا ما الذي يجعلني أعشق امرأة تحاصرني مثل جيش الغزو؟

ويلتفت إلى امرأة تجلس في مكان بعيد :

- ماذا لو استجبت لإغراء تلك المرأة البدينة التي تكشف عن نصف صدرها؟

- سأفعل لك هكذا .

وتمرر إصبعها على عنقه .

- وماذا ستفعل أنت لو أنني أحببت الرجل الوسيم الذي بجوارها؟

- سأفعل شيئاً يفوق ما فعله شمشون الجبار .

لن يفعل أي منهما شيئاً من ذلك . ولكن دونالد الذي يجلس قريباً منهما ، يشيح بوجهه بعيداً وكأنهما يقصدانه بهذا الحديث . وبرغم أن المرأة الهندية كانت تأتي للالتقاء به في الحانة . إلا أن العلاقة بينهما لم تتطور إلى أكثر من ذلك . شغلتني فرقة التمثيل عن حضور وجبة العشاء في البيت ، وتوقفت برامج النزهة التي كنا نقوم بها ، وتفككت بالتالي العلاقة التي ربطت بيننا نحن الثلاثة ، إلا أن ما يربطني بليندا ظل موصولاً لا ينقطع . ما إن تحين ليلتي معها ،

حتى أسعى متلهفاً للقائها ، وقد جاءت ترتدي عطرها ، وتحمل عاطفة مشتعلة لا تنطفئ .

عدت متأخراً إلى البيت ، فوجدتها تجلس صامتة ، تضع يدها على خدها ، والتلفاز مطفأ أمامها . أحسست بالإثم لأنني لم أعد أمنحها وقتاً يملأ هذا الفراغ الذي صنعته لها ، عندما انتزعتها من محيطها وعلاقاتها . ردت على تحيتي بفتور ، وقامت تصحبني إلى غرفتي قائلة بأن عطرها الشرقي قد نفد . لم يكن هذا ما يقلقها ، ولكنه دونالد .

– ما الذي حدث له؟

– قضى ليلة البارحة خارج البيت ولم يعد إلا صباحاً .

– هل عرفت منه السبب؟

– جاء ثملاً فنام غير عابئ بالذهاب إلى العمل ، ثم خرج وأنا غائبة فلم يعد حتى الآن . إنها المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك .

ولكن هذه الكآبة التي تنشر ظلالاً على وجهها ، ورنة الحزن التي تغلف كلماتها ، هي أيضاً أشياء جديدة على روحها وطبيعتها . وإذا كنت قد تآلفت مع هذه الحالة التي أجد فيها نفسي أتقاسم حبها مع زوجها ، ولا أرى في غيابه ليلة عن البيت ما يستوجب القلق ، فلعلها تدرك بحس المرأة ، ما لا أستطيع إدراكه ، وترى في هذا السلوك نذيراً بنهاية الأوقات الجميلة .

أردت أن أقول لها كلاماً عن حاجة الإنسان أحياناً إلى أن يهرب من رتابة الشيء المعتاد ، وينفذ من قبضة الروتين الذي يأكل الروح ، فيخرج قليلاً عن أساليبه المألوفة بحثاً عن الجديد ، وكسراً لهذه الأطواق التي لا يكسرها إلا لكي يعود مرة ثانية للاحتماء بها . ولكنني بدلاً من ذلك قلت :

– لعله يحتاج إلى رعاية أكثر من جانبك .

كنت فعلاً أشفق على دونالد ، وأراه جديراً بأن يبقى مشمولاً بما كان يسميه ، دائرة السعادة التي تصنعها ليندا . ولكنها نظرت بفزع نحوي .

– أتقول أنت هذا الكلام؟

ودون أن تنتظر جواباً ، ركضت خارج الغرفة . لم أجد في الجملة التي قلتها ما يستحق هذا الغضب ، ولا أظن أن لتوترها سبباً آخر سوى هذا التغيير الذي طرأ على سلوك زوجها فجاءت تحملني تبعاته . لا أدري ما الذي كانت تريد أن تسمعه مني . لعلها انتظرت مني اقتراحاً بأن نغادر البيت ونترك له حياته يفعل بها ما يشاء . أو لعلها وجدت في كلامي تشابهاً مع ما يقوله أعداء هذه العلاقة ، والاتهامات التي يسوقونها ، وهي تراني ألومها ، وكأنني أتكلم من خارج العلاقة لا من داخلها . وأغضبها أن أنكر عليها شيئاً كانت تعتقد بأنني آخر من يجب أن ينكره عليها . أو لعل السبب شيء لا علاقة له بهذه التخمينات وإنما بهذ العطر الذي نفد منها والذي أصبح شيئاً لا تكتمل طقوس هذه العلاقة إلا به . بقيت جالساً أبحث عن تفسير لنوبتها العصبية المفاجئة . لا شك أنها عانت كثيراً بسبب هذه العلاقة ، ورأت فيما قلته استهتاراً بكل تضحياتها . إنها المرة الأولى التي أرى فيها ليندا تخرج غاضبة مني . هبطت السلالم لاحقاً بها . وجدتها أقفلت غرفة النوم وراءها . وقفت لحظات أمام بابها المغلق ، دون أن أطرق الباب أو أناديها . وبوهن وإعياء ، صعدت السلالم عائداً إلى غرفتي .

قبل هذه الرحلة القصيرة التي أوجبها موت الأب ، لم أكن أقف لأطرح أسئلة على نفسي ، متفحصاً مشاعري ، محاولاً تعميق مداركي حول ما أفعله وأختاره . وجدت نفسي مبعوثاً على حساب الدولة ، بعد أعوام من الانتظار والملاحقة ، فجئت فرحاً بفرصة الانفلات من قبضة الحياة المضغوطة داخل المجتمع الصغير ، المتحصن بأسواره العاليه . لم أسأل عندما جئت ، إذا ما كان العالم حقاً واسعاً ورحباً كما كنت أقرأ عنه في الكتب . لأنني لم أكن أريد سوى جرعة من سوائله السحرية التي تروي جفاف الجسد وتطفىء عطش القلب . وجدت موضوعاً مثيراً ومسلياً عن العنف والجنس والأساطير في كتب الشرق والغرب ، فاتخذته سبيلاً للحصول على الشهادة التي يطالبونني بها ثمناً لأيام الانعتاق القليلة هذه . ارتديت لبرد الشتاء كنزة ثقيلة ، وحذاء ثقيلاً ، وشالاً أحيط به عنقي . وقاومته بأقداح الشراب والتماس الدفء قرب المواقد والنساء . ولكنني الآن ، وأنا أجد

نفسي بمفردي ، فوق سرير واسع ، ووسط غرفة يضرب شباكها المطر ، وتغرد فوق سقوفها الريح المحملة بأملاح بحر الشمال ، تحيط بي كائنات الأساطير التي تهجع داخل النصوص ، ممنوعاً من أحضان المرأة التي عندها تنتهي رحلة القلب . في هذه الليلة التي يشتد في الخارج ظلامها ، تسطع في ذهني انعكاسات شمس الصيف القاسية فوق أرض المدينة القديمة المرصوفة بحجارة ملساء . تنثال على الذاكرة صور ومشاهد من أعوام الطفولة والصبا . أطياف نساء خلف الشبابيك تعشقتهن وتعذبت بحبهن في صمت ، أو وجه صبية ، وقفت أسابيع أنتظره ، ليظهر من بين ظلفتي باب باهت الزرقة ، يرتعش لدى مرآه الجسد حباً وشبقاً . تطل وجوه أب وأم وذوي قربى ، رجال ونساء عاشرتهم زمناً ثم رحلوا عن الدنيا . أكتشف في هذه اللحظات أنهم ما زالوا يقيمون في منازل القلب . وأنني حتى لو ادعيت نسيانهم . فإنني أنقلهم معي ، يسافرون في دمي ويدفعون بأسئلة حارقة إلى حلقي عن معنى الأهل والانتماء والجذور . عن قيم وتقاليد نتربى عليها ثم نثور ضدها . نفكُّ ، في لحظة زهو بأنفسنا ، ارتباطنا بها ونعلن القطيعة معها . ثم نكتشف أن الأمر لا يحتاج إلا إلى مواجهة حقيقية مع النفس ، لندرك أن حبالاً تمتد مثل الكوابل المحفورة في قاع البحر ، تشدنا إليها ، وتعيدنا مهما طوحت بنا الأسفار إلى حقيقة من نحن ومن نكون . قوة لها مفعول أجهزة التحكم الآلي على المدى البعيد ، تستطيع متى تشاء أن توجه حركتنا وتحدد مسارنا ، مهما توهمنا أننا خرجنا عن مجالها المغناطيسي وانتزعنا هامشاً لأنفسنا يتيح لنا أن نمارس حريتنا واختيارنا وتمردنا . لم يكن سهلاً أن أحقق توازناً مع هذه البيئة التي تتباين أساليب الحياة فيها مع الأساليب التي تربيت عليها . وأضعت وقتاً ثميناً قبل أن أبتكر لنفسي شفرتها السرية التي تهتدي بها في سلوكها وتعاملها . جئت أول ما جئت ملفوفاً بقماطي المشرقي ، فوجدت نفسي جسماً غريباً لا يحقق توافقاً مع ما حوله . اجتهدت في أن أشتري قبولاً بالمبالغة في التشبه بهؤلاء الناس وإظهار الولاء لقيمهم وأساليبهم . كنت كمن يأتي من أفريقيا بقشرته السوداء ويضع فوق رأسه باروكة من الشعر الأشقر الناعم الطويل ، ويمضي في

الشارع متباهياً بها ، مدعياً أنها شعره الحقيقي . ثم اهتديت بعد ذلك إلى حل يضمن لي تحقيق هذا المقدار من التواصل الذي أحتاجه لعافيتي النفسية . فصرت لا أرى نفسي إلا حجراً متدحرجاً لا تنبت حوله الأعشاب . لا أطرح أسئلة حول ما يجب أن أفعله أو لا أفعله ، ولا أقيم محاكمات للذات وأبحث عن تبرير أو إدانة لسلوكي . إن عقلي وضميري لا ينكران هذه العلاقة التي تربطني بليندا ، لأنني لا أقيسها بمقاييس المجتمع الذي جئت منه ، فأنا الآن أعيش بعيداً عنه . ولا أقيسها بمقاييس المجتمع الذي أعيش فيه ، لأنني لا أنتمي إليه . إنني أقيسها بمقاييس أبتكرها بنفسي للتعامل مع نفسي ومع الآخرين . مقاييس الحجر المتدحرج فوق هذه الحقول . إنني أعيش الآن حياة مؤقتة ، أعبر خلالها تلك المنطقة الحرة التي تقع بين تخوم دولتين . أرض «اللاأحد» ، التي تمتد بين نقطتي حدود ، حيث لا سيطرة لأي قانون إلا قانوني الشخصي ، ولا ولاء لأية راية إلا الراية التي أصنعها لنفسي . وعندما تداهمني هذه اللحظات التي تريدني أن أمزق رايتي وأعلن الولاء لراياتها ، أدفعها برفق عني ، وأنظر إلى ساعتي قائلاً إنه لم يبق من الوقت إلا بمقدار ما أنتهي من هذه الأوراق .

- أريد أن تجعل من هذا البحث إضاءة لعبقرية الخيال عند العرب ، وكشفاً للحظة الحضارية التي أبدعت هذا النص .

هكذا يقول الدكتور هاورد . يقول ذلك بلهجته الأكسفوردية التي تصدر من قاع الحنجرة ، والتي تذكرني بممثلي المسرحيات الكلاسيكية ، فأتظاهر بالإنصات والاهتمام . إنه الوحيد الذي يأخذ موضوع الرسالة مأخذاً جدياً ويكثر من الحديث عن مسؤولية الباحث في الاهتداء إلى أسرار العمل الفني ، والنفاذ إلى عمق القضايا التي يطرحها . أراجع معه الفصول التمهيدية التي تتناول بالمقارنة جذور هذا الأدب في الثقافتين العربية والغربية ، من أشعار أوفيد إلى معلقة أمرئ القيس ، ومن آثار المركيز دوساد إلى كتب الجنس العربية التي ترجمت إلى الإنجليزية ، وصولاً إلى ما تقوله مدارس علم النفس عن أثر الجنس في نشأة المجتمع والدين والحضارة . أكتب الملاحظات التي يقولها ، والمراجع التي يزودني

بها ، وأذهب عائداً بالأسطر التي كتبتها ، محاولاً أن أبحث عن الدلالات خلف الوقائع ، وعن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلف هذا الأدب ، وأنفذ من سطح الإثارة والتسلية إلى القضايا الجادة التي يريدها الأستاذ .

أتخاصم مع نفسي ، ثم سرعان ما أسعى للتصالح معها ، متيحاً للحياة من حولي فرصة أن تمضي في مسارها ، بعد أن توهمت أنني استوقفتها لحظة قصيرة للمساءلة . أنصت للأصوات المتنازعة بداخلي وكأنني متفرج ينصت لحشد من الشخصيات التي تتجادل داخل عرض مسرحي ، محتفظاً بمسافة بيني وبينها ، ثم أمضي وأنا أحمل تلك المسافة بين نفسي ونفسي . لست أدري إن كان ما أقوله من تفسيرات هو مجرد شكل من أشكال خداع الذات أو أن هذه المصالحة التي وصلت إليها هي حقاً مصالحة أو مجرد هروب من الصراع وتجميد له . ولعل تصالحي في الأيام التالية مع ليندا لم يكن تصالحاً وإنما محاولة أخرى لتجميد الصراع الذي بدأ يصيب حياتنا المشتركة بالتصدع والشقوق . لم يقتض الأمر إلا أن نختار ركناً معتم الإضاءة في مطعم ينزوي بشارع خلفي يتخصص في تقديم الأطعمة البولونية ، حيث لا احتمال لأن نلتقي بأحد من معارفنا . نتناول العشاء ، ونرتشف كؤوس النبيذ ، ونستمع إلى صوت الموسيقى مخلوطاً بإيقاع المطر ، ونستمتع بوهم أن بإمكاننا أن نعيد لحظات البهجة إلى علاقة تنشأ وسط غبار حيطان تتهاوى وتنهار ، نحتفل بعودة الصفاء بيننا ، ونعاود الاختلاء في غرفة نوم مغلقة ، ونتصور في غمرة الفرح الذي جاء بعد هذه الخصومة القصيرة أن حياتنا عادت من جديد قارباً يمضي فوق سطح بحر هادئ ، ولكن للبحر منطقاً لا يعترف بما تريده القوارب أو يشتهيه البشر . إذ سرعان ما أفقنا على الحالة اليائسة التي وصل إليها دونالد . صار الرجل يسرف في شرابه وغيابه عن البيت والعمل . لا أراه إلا غارقاً في صمته ، عائداً مخموراً مع الصباح أو خارجاً عند المساء ليشرب . أرادت ليندا بإصرار ومعاندة أن تخرجه من أزمته . لم يبق في وقتها وقت لعلاقتنا . وإذا وجدت هذا الوقت ، فهو لقاء سريع ، يتم بلا طقوس ولا عطور ، ولا يستمر سوى لحظات قصيرة . تريد أن توهمه بأنها توقفت عن لقائي ،

وأنهت علاقتها بي ، إلى أن تراه يعود طبيعياً كما كان . لم أكن مطمئناً لذلك . أحسست أن ما نفعله الآن هو ما يمكن أن نسميه غشاً ، وما يسميه قاموس العلاقات الشرعية «خيانة» . كانت علاقتنا تكتسب نظافتها من وضوحها . وهي الآن بعد أن صارت وقتاً مسروقاً ، ولقاء يتم في الخفاء ، من وراء ظهر دونالد وخداعاً له ، فإنها تأخذ شكلاً تآمرياً ، عامراً بالتوتر ، ومفرغاً من بهجة وعفوية العلاقة المفتوحة .

كانت فرقة التمثيل تستعد لإحياء ليلة شكسبيرية تضم مشاهد من مسرحيات هاملت وماكبث وعطيل والعاصفة وتاجر البندقية والملك لير وروميو وجولييت . حشد من المشاهد والشخصيات التي اقتبسها مخرج الفرقة من هذه المسرحيات ، وأراد تقديمها في سهرة واحدة عند نهاية العام الدراسي .

لم أكن أملك قامة وبناء شخصية مثل «عطيل» ، ذلك المحارب العظيم الذي يجب أن يظهر فوق المسرح وكأنه قلعة تتحرك . ولكن المخرج عندما رأى أن لي بشرة أكثر سمرة من الآخرين ، وشعراً يشبه في سواده وخشونته شعر الزنوج ، ولَكْنَةً متميزةً لن تكون غريبة عندما ينطق بها مغربي أسود في بلاط الملوك البيض . اختارني لتقديم الدور . حاولت الهروب من دخول هذه المغامرة قائلاً :

– أنت تريد أن تنقلني فجأة من جندي يحمل الرمح إلى قائد لجيوش البندقية ، وهي ترقية تخالف كل التقاليد العسكرية .

أفهمني بأنه مجرد مشهد صغير يدوم لمدة عشرين دقيقة ، وأشعرني وهو يشرح سبب اختياره لي ، بأنه قادر على أن يجعل أي ممثل خامل الموهبة يتألق في الدور الذي يختاره له . أعجبني غروره الذي يعفيني من المسؤولية فقبلت الدور . كان مشهداً يأتي في ختام المسرحية عندما يقوم عطيل بقتل ديدمونة ثم يقتل نفسه ندماً . أعاد المخرج إعداده وأضاف إليه حواراً من مشاهد أخرى بين عطيل وديدمونة ، واحتفظ بجمل قصيرة يقولها بعض الممثلين في نهايته . وكانت الممثلة التي اختارها لتشاركني أداء المشهد ، امرأة صغيرة الحجم ، بحيث أبدو أمامها كبيراً ومهيباً في أعين المتفرجين . كنت أعرف ساندرا من قبل ، فهي إحدى

ممثلات الفرقة الرئيسيات . شاهدتها تقوم بأدوار مختلفة في طبيعتها ، فتتقن القيام بها . امرأة صغيرة ، ولكن التناسق في تكوين جسمها يجعل الناظر إليها لا ينتبه إلى حجمها الصغير . فهي تبدو بشعرها الزعفراني الذي يتهدل بتجاعيده وفوضاه ، حول وجهها ، واخضرار عينيها ، واحمرار بشرتها ، أشبه بدمية بعثت فيها الحياة . كائن رهيف ، جميل ، أود لو أضعه فوق كفي وأتفرج عليه .

قلت لها ونحن نبدأ تمارين القراءة :

– أشعر بالحرج وأنا أقف أمام نجمة كبيرة مثلك .

– أمهلني قليلاً حتى أفوز بالأوسكار ، ثم قل هذا الكلام .

لم تكن هواية التمثيل غريبة عني . مارستها منذ أن كنت طالباً صغيراً ، وأسهمت في تأسيس فرقة بالجامعة شاركت في أعمالها إخراجاً وتمثيلاً . ولكنني جئت إلى هذه الفرقة عارفاً حدودي . جئتها لا بهدف التمثيل وإنما بهدف أن أكون قريباً من هذه البيئة التي أحبها ، ساعياً إلى توسيع دائرة علاقاتي في مدينة لم أكن أعرف بها أحداً ، راضياً بأن أبقى عضواً هامشياً يساعد في إعداد المناظر وسد الفراغات في بعض المشاهد المسرحية . استعدت مع هذا الدور ذلك الإحساس المدهش الذي تبعثه في نفسي لحظة الخروج من شخصيتي والدخول في شخصية أخرى ، أحاول أن أتمثل حياتها ، وظروفها ، وعلاقاتها ، ناسياً حياتي ، وظروفي ، وعلاقاتي . ووجدت في صحبة عطيل ، هذه الصحبة القصيرة العابرة التي لا تستمر سوى دقائق معدودة ، صحبة غنية ممتعة ، لما في هذه الشخصية المركبة من تنوع ، وخصوبة في المشاعر والانفعالات . مشهد صغير ولكنه احتوى جوهر المسرحية وبؤرة الصراع فيها . عطيل مركزاً ومختصراً . قرص الطعام الذي يختزل المأدبة الكبيرة . سأوهم نفسي بأنني فعلاً أقرب إلى عطيل من كل هؤلاء البشر الذين خذلوه . جاءوا به من بلاد المغاربة ليصنع لهم مجداً . فكافؤوه بهذا الموت العبثي المأساوي . واظبت على تمارين القراءة ، والبقاء لحضور التمارين على المشاهد الأخرى . كانت ساندرا تؤدي دورين آخرين في مسرحيتي «هاملت» و «روميو وجولييت» ، فكنت أنتظرها أحياناً حتى تفرغ منهما . صرت

ألجأ إلى هذه الأجواء الخيالية المسرحية ، هروباً من حالة الكآبة داخل البيت . لم يطرأ أي تبدل على حالة دونالد ، ولم يترك أي أثر في نفسه ذلك التحفظ الذي أبدته ليندا في علاقتها معي . تفلح أحياناً في أن تمنعه من الشراب ، أو تدفع به دفعاً إلى معاودة الذهاب إلى المكتبة . ولكن ذلك لا يستمر طويلاً . إذ ما يلبث أن يتمرد على وصايتها ويعود إلى كأسه ، وغيابه عن البيت والعمل . اقترحت ليندا أن نمتنع عن الاختلاء ببعضنا في حضوره وغيابه ، لكي نكون صادقين معه ومع أنفسنا . وافقت على اقتراحها ، وقلت وأنا أرى الأسى يلون كلماتي ، ويمنحها صوتاً لا يشبه صوتي :

- سأصلي لله ليخرج من محنته في أقرب وقت . لأن محنته صارت محنتي .

- ليس ما يعتريه سوى حالة طارئة . سأنتظر أن يبرأ منها ، وسأستقل بحياتي عنه .

كانت تقول ذلك بانكسار وهي تضع عينيها في الأرض ، لعلها تأخرت قليلاً في اتخاذ هذا القرار الذي كان اختياراً متاحاً ومعقولاً قبل أن يحدث لدونالد هذا الانهيار . أما الآن فمن يدري متى تنتهي أزمته . كان يوم «أحد» ، وكان الوقت صباحاً وناقوس كنيسة قريبة يقتحم بدقاته القوية هدوء هذه الجلسة .

ودونالد الذي عاد منذ ساعة مضت ، يهجع الآن في غرفته . ولذلك جاء صوتها خافتاً وهي تحدثني عما استقر عليه رأيها . أبديت خوفاً من المستقبل ، فقالت هامسة :

- يجب أن نفكر معاً فيما يجب أن نفعله .

أدركت ما تقصده . فهي عندما منعت عني جسدها لم تمنع قلبها من أن يبقى وفياً ونابضاً بدفء العاطفة التي جمعتنا . تساءلت بيني وبين نفسي ، عن الوقت الذي سيمضي قبل أن ألتقي بعطر أعشاب الصحراء . تذكرت أنه نفد منذ أيام . هذا العطر الذي لا يشبه العطور الأخرى . سأتدبر قارورة جديدة منه عندما يحين الوقت . أما الآن فأنا منفي عن حديقة هذا الجسد ، ولن أستطيع الاقتراب منه ، حتى يسترد السيد دونالد مداركه الغائبة .

جلست أنظر في بلاهة إليها . كأنني أتأمل حلماً جميلاً يهرب الآن مني . لكن المرارة التي أحسست بها أذابتها حرارة اللهجة التي تكلمت بها ليندا عن مستقبل علاقتنا بعد أن ينتهي ارتباطها بدونالد . قلت مسرعاً :

– سأبحث منذ الآن عن مكان ننتقل إليه .

– لن يكون ذلك صعباً عندما يأتي موعده .

وصامتاً ضممتها إلى صدري . قبلتها قبلة سريعة وخرجت . قبل أن أصل إلى الباب سمعتها تستوقفني :

– لدي فكرة أرجو ألا تسيء تفسيرها .

امتلأ رأسي بدوي صفارات الإنذار وأنا أقف أستمع لفكرتها .

– لو افترضنا لمجرد الافتراض . أن دونالد رآك تذهب إلى حانة العناقيد بصحبة امرأة أخرى . ألن يسرع هذا في إخراجه من أزمته .

– كم مضى من الوقت على قراءتك لأقاصيص عصر الفرسان؟

– ما أقصده مجرد زميلة تتناول كأساً معك في الحانة حيث يستطيع دونالد أن يراك .

خرجت دون أن أوافق على فكرتها . قائلاً بأنني لا أطمئن إلى هذا النوع من اللعب .

أرادت ليندا أن تذهب به لقضاء إجازة خارج البلاد ، تتيح له وقتاً ومجالاً لكي يراجع نفسه ويعود إلى طبيعته . ولأنها لم تكن تملك موارد لمثل هذه الرحلة ، فقد اكتفت بأن ذهبت به إلى الريف ، ليقيم أياماً معها في بيت أسرتها .

سافرت ليندا ، وكان ناتج الطرح كبيراً ، بين وجودها في البيت وغيابها عنه . تحول البيت إلى فراغات ، وأركان معتمة ، وهدوء مخيف يشبه الهدوء الذي نراه في مشهد سينمائي يمهد للجريمة . والغرفة التي يستعملونها مخزناً بجوار غرفتي ، لم أشعر إلا الآن بأنها ظلت دائماً مقفلة وخاوية كأنها مقر للأشباح . خوف لا مبرر له يداهمني أثناء الليل ويجعلني أترك النور مضاء في ردهة البيت وكأنني أخشى أن تهاجمني الأشباح . أصنع ضجيجاً وحركة وأكثر من الدخول إلى

المطبخ والحمام ، والغناء لنفسي بصوت مرتفع ، وكأنني أريد أن أملأ الفراغ الذي تركته ليندا . كان وجودها موازياً لوجود البيت ذاته . حضور يملأ المكان كله . ولذلك جاء غيابها فادحاً . لم تكن ليندا ، فقط عطراً شرقياً ترتديه فيوقظ في دمي شوق الرحيل إلى مدينة أسطورية لها شكل امرأة تشبه ليندا . لم تكن فقط فيضاً من الحنان والأنوثة يقدم لي تعويضاً سخياً لسنوات العمر التي أكلتها رياح وأملاح المدن الصحراوية ، ولم تكن فقط جسداً شهياً ، أجد في معانقته والاستماع إلى غنائه الليلي ، حلاوة تذيب مرارة الغربة ووحشة الليل . وأهرب إليه من الشتاء فأجد لديه شمساً لا تغيب . كانت ليندا خيمة لروحي ، وبيتاً لجسدي في مدينة جئتها مسافراً لا أحمل خيمة ولا متاعاً سوى جسدي . بدا لي أحياناً ، ووسط مناخ التوتر الذي ساد البيت في الأيام الأخيرة ، أن عاطفتي نحوها أصابها ما يصيب عواطف البشر من ضعف وضمور . ولكنني أكتشف الآن إلى أي مدى أنا مسكون بها ، وأدرك أن ما يربطني بها لم يزدد مع الأيام إلا قوة وعمقاً . عرفت قبلها نساء كثيرات . وتعلق قلبي بزميلات في الجامعة ، كنت أراهن من بعيد ، وأحبهن حباً صامتاً قاسياً ، دون أن أجرؤ على البوح بعاطفتي نحوهن . ولهذا فإن ليندا هي المرأة الوحيدة التي منحتني حبها ، وأطعمتني من أشجارها فاكهة لم يطعمها لي أحد سواها . لست أدري إلى متى سيطول غيابها . ليتها حددت وقتاً ولم تتركه زمناً مفتوحاً ، معلقاً بحالة زوجها . لو قالت عاماً كاملاً ، لأمكنني أن أنام هذا العام فلا أستيقظ إلا يوم مجيئها . ولكنها عادت . بعد أربعة أيام فقط عادت . سمعت قبل أن أغادر السرير صوت سيارتها تقف أمام البيت ، فقفزت راكضاً لاستقبالها . وجدتها تقف في مدخل البيت تنزع معطفها .

– الآن وقد عدت فلن أتركك تغيبين عن نظري أبداً .

قالت بعد أن فرغنا من التحية والعناق :

– هل ينقصك شيء؟

– تعرفين أنه بغيابك ينقصني كل شيء . لأنه لا شيء آخر يعنيني في

الدنيا . فهيا أعيدي لي حياتي المؤجلة ، وقولي بأنك عائدة لكي تبقي معي .

– احتجت إلى ملابس جئت آخذها . أو قل هذا هو العذر الذي سوغ لي المجيء . لأنني ما جئت إلا لكي أراك .

تناولت يدها ، ووضعتها في يدي ونحن نجلس متقابلين ، بيننا طاولة الطعام ، وفوق رؤوسنا ساعة الحائط التي توقفت عن العمل ، وتوقف طائرها الذي يصفق بجناحيه عن الحركة .

– إذن ضعي يدك في يدي ودعينا نتعاهد ألا يترك أحدنا الآخر .

أسبلت رموش عينيها وابتسمت في أسى . إنني أحاول أن أقفز فوق الواقع وأهرب منه إلى الأمام . ولكن طريق الهروب ليس سالكاً . فثمة إنسان تضرر من هذه العلاقة ، وواجبي أن أنتبه إلى ذلك ، فأنا لست مبرأ من مسؤولية ما حدث له .

– هل قال شيئاً عن سبب أزمته؟

نعم . هذا هو السؤال الذي كان غائباً . سلمنا منذ البداية بأننا السبب في أزمته ، وتعاملنا مع هذا الافتراض كأنه الحقيقة الوحيدة . فلماذا نستبعد وجود عامل آخر . لعله اكتشف فجأة أنه ابن سفاح ، أو أن أباه الذي ظنه قديساً كان يدير عصابة للقتل . أو لعل بوذا زاره أثناء الحلم وتبرأ منه ، فهرب إلى كأسه حزيناً يائساً .

– إنه لا يتكلم . حاولت ليلة البارحة أن أخرجه عن صمته فقذف بالكأس فوق الأرض . أزعجتني هذه النوبات العصبية التي صارت تنتابه . تركته حيث هو ، وما أن جاء الصباح حتى جئت لكي أراك .

مضت لحظة صمت حبلى بالاحتمالات ، قبل أن تقول :

– أعتقد أنني حامل .

كانت تطرق برأسها ، وترسم بإصبعها إشارات لا معنى لها فوق طاولة الخشب . نظرت إليها صامتاً أحاول أن أستوعب معنى ما قالته .

– لا أدري كيف وقع ذلك . لم أكن أرغب في أن أرى شيئاً كهذا يحدث لي

في هذا الوقت بالذات . لعلني نسيت أن أتناول إحدى تلك الحبوب ، فقد جاء هذا الحمل مفاجأة لي .

- هل هو . .

لم أكمل السؤال ، فقد أدركت ليندا ما أقصده .

- لا أدري إن كنت أنت أباه أم دونالد ، إنني لا أعرف .

غابت داخل غرفتها لإحضار ما تريده من ملابس ، وبقيت بمفردي أتأمل ما قالته . سواء كنت أنا أباه أم لم أكن . فإن أحداً لا يريده الآن . إنه يأتي ليجعل كل شيء أكثر تعقيداً . سألتها عندما عادت :

- هل ستحفظين به؟

كان سؤالاً فجاً ومباشراً . إنني فعلاً أتمنى لو أنها تتخلص منه الآن طالما أنه في أيامه الأولي .

- لم أكن أريده أن يأتي . أما الآن وقد جاء . .

أما الآن وقد جاء فهو يجب أن يبقى . هذا ما تريده ليندا .

لعل الكتب الكثيرة التي تتحدث عن عاطفة الأمومة لم تكن كلها عبثاً . أما عاطفة الأبوة ، فمن أين لي أن أعرف إذا كان هذا الجنين ابن أبيه ، أو ابن سفاح جاء من صلبي . لعلها تعرف من يكون أباه ، ولم تشأ أن تقول . لعله جاء برغبتها وتخطيطها . رأت بيت الزوجية يتقوض فأرادت أن تنتزع من بين الأنقاض طفلاً ، يكون لها وحدها ، وتتولى مسؤوليته بمفردها ، وامتنعت أن تحدد له أباً لكي لا يأتي فيما بعد من يطالب بحقه فيه . ظلت واقفة تحتضن كومة من الألبسة :

- إنك لست ذاهبة بهذه السرعة .

- يجب أن أشتري أغراضاً من مركز المدنية .

- سأرافقك إلى هناك .

قلت لها ونحن نشرب القهوة بمقصف المجمع التجاري :

- هل أخبرت دونالد بأنك حامل .

- لن أستطيع أن أخبره وهو على هذه الحالة .

كنت أتساءل بيني وبين نفسي ، الآن وقد صار بينهما طفل ، حتى لو لم يكن حقاً ابن أبيه ، ألن يحدث هذا تبدلاً في طبيعة العلاقة التي تربط بينهما؟ . تبادلنا كلاماً قليلاً وصمتاً كثيراً ، ثم افترقنا . ما ظل يقلقني بعد ذهابها هو أن هذا الطفل الذي يأتي في هذه الفترة الحرجة ، ودون أن يطلب أحد مجيئه ، والذي يأتي حسب رواية أمه ، عنوة إلى الدنيا ، فارضاً وجوده فرضاً ، مخترقاً موانع الحمل ، وقافزاً كالجنود المظليين في أزمنة الحرب ، فوق كل الحواجز التي تسد عليه الطريق . هذا الطفل الوافد لتوه من العدم ، هو الذي سيأخذ مني المرأة التي أحبها . هو العامل الجديد الذي يدخل على الأحداث ويجعلها تأخذ مساراً لن يكون لصالحي .

لم أتحرر من هذا الخوف القابض على عضلات القلب ، إلا عندما وجدت نفسي أخوض صراعاً كي أخرج من شخصيتي لأدخل شخصية عطيل . أبدل همومه بهمومي ، وأضع ديدمونة مكان ليندا . كنا قد بدأنا تمارين الحركة . وكانت ساندرا تتمدد فوق لوح من الخشب وهي تأخذ مظهر ديدمونة وقد هجعت إلى مخدعها . نشرت شعرها فوق الوسادة وأغمضت عينيها ، وحافظت على انفراجة صغيرة بين شفتيها ، متمثلة تعليمات المخرج الذي أرادها أن تبدو وكأنها تحلم أحلاماً سعيدة ، فهكذا يجب أن يراها عطيل . همدت في جسمها الحياة إلا من حركة النهدين وهما يرتفعان وينخفضان شهيقاً وزفيراً تحت كنزة الصوف . وأدخل أنا مرتدياً شخصية عطيل ، أحمل قنديلي وأقول مناجاتي . وما أن خطوت أولى خطواتي على المسرح حتى استوقفني المخرج لإبداء الملاحظات . قطع انفعالي ، فقلت مدارياً حرجي ، مستغرباً هذا الاعتراض على أدائي :

- إنني لم أبدأ بعد .

قال بلهجته التي تضفي خطورة على كل شيء مهما كان تافهاً :

- هذا هو لب المسألة . تظن أنك لم تبدأ طالما أنك لم تباشر قول الحوار . ولكنني أقول أنك بدأت من قبل أن تخطو خطواتك الأولى على المسرح . إن دخولك معناه أن حياة كاملة تدخل إلى المسرح . إنه عطيل يدخل الآن ويحمل

معه الحروب التي خاضها والطفولة التي عاشها والتجارب التي صنعت منه هذا الرجل . كل هذا يجب أن أراه قبل أن تقول كلمة واحدة . لا أريد أن أرى خليلاً ، طالب الدراسات العليا . أريد أن أرى عطيلاً ، عطيلاً كله يظهر على المسرح الآن . أما أنت يا ساندرا . .

تركته يقول ملاحظاته لساندرا التي يريدها أن تبدو مثل الأميرة النائمة كما تصورها الأساطير الشعبية . وانشغلت بالتفكير في وسيلة لاحتواء هذه الشخصية الكثيرة التعقيد . سأنسى مسألة «الغيرة» التي يجعل منها الدارسون مفتاحاً لشخصيته . سأنسى قصة الصراع بين الأبيض والأسود التي يقول بها آخرون . سأنسى الخديعة والخذلان والحب الذي يحمل بداخله بذور الدمار . وسأبحث عن الولاء الممزق بين عالم قديم هجرناه ، وعالم جديد لم نحقق تواصلاً معه . عن هذه الهوة ، التي سقط فيها عطيل ، بين عالمه وعالمهم ، زمانه وزمانهم ، لونه ولونهم ، رؤيته للحياة ورؤيتهم لها .

اقترح المخرج ، بعد أن انتهى المشهد ، أن نأخذ ملاحظاته ونبحث عن مكان غير هذا المكان لإجراء تمارين إضافية ، لأنه سيكون مشغولاً بإخراج المشاهد الأخرى . وسيلتقي بنا مرة كل أسبوع .

لم تكن غرفة المكياج التي ذهبنا إليها مكاناً ملائماً لإجراء التمارين . فما أن بدأنا حتى جاء من يقاطعنا بحثاً عن مقص أو مرآة أو شريط لاصق . ولم تكن ساندرا تملك غرفة مستقلة ببيت الطلبة يمكن الانتقال إليها . ومن هنا جاءت فكرة أن نذهب لأداء التمارين في غرفتي .

ما أن وصلت ساندرا إلى مدخل الغرفة حتى انهمكت ضاحكة . رأتني أنظر إليها مستغرباً ، فقالت من خلال الضحكات المتتابعة :

– معذرة ، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك .

كانت الكتب التي تتناثر فوق الأرض بجوار الوسائد ،والأطباق العامرة ببقايا جبن وزيتون وبيض فوق طبلية أستعملها للكتابة ومائدة للطعام ، تصنع قدراً من الفوضى أثار شهيتها للضحك . ولم أكن أشعر بالحرج ، فقد صرت أعرف شيئاً

عن طباعها بعد هذه العشرة القصيرة . امرأة تشتعل فضولا وحيوية ، ورغبة في الحوار والمجادلة . لها قدرة على التقاط الجانب المضحك مما تسمعه وتشاهده ، لترمي بعد ذلك بتعليقاتها اللاذعة دون أن توفر أحداً . وببطء دخلت ترفع الكتب من فوق الأرض وتتفحص أغلفتها التي تزينها صور الجواري والسلاطين . رأيتها تلتفت نحوي وتهم بأن تقول شيئاً ، فقطعت عليها فرصة التعليق قائلا بأنها كتب تتصل بموضوع دراستي عن ألف ليلة وليلة . اتجهت إلى النافذه تفتحها وترفع ستائرها قائلة :

- والآن دع النور والهواء يدخلان هذه المغارة .

ثم سألتني وقد جاءت دفعات الهواء تعبث بشعرها :

- وهل لا بد أن يجلس ضيوفك فوق الأرض؟

أوضحت لها وأنا أدعوها للجلوس فوق السرير ، إنني اختصاراً للمصاريف ، لجأت إلى الطريقة التي تعلمتها في مدرسة الجامع ، عندما كنت أكتب وأقرأ لوحي ، جالساً فوق الأرض ، مستغنياً عن المكتب والصالون وقطع أثاث أخرى لا يحتاجها مسافر مثلي .

- لست مقيماً هنا كما تعلمين . ما أنا إلا عابر طريق . وما هذا المكان إلا محطة على الطريق .

ولكن هذه الكلمات التي قلتها لأضع بها حداً لفضولها ، لم تزدها إلا شهية للحديث .

- ليس هناك شيء دائم وشيء مؤقت . ليس هناك إنسان مقيم وآخر زائر . طالما أنك تعيش هذه المرحلة من عمرك هنا ، فأنت مقيم وأنت دائم . لأن هذه الأيام قد تكون هي عمرك كله . إنني امرأة تنتمي إلى هذه البلاد ، فماذا أسمي نفسي وأنا أقيم في غرفة مشتركة ببيت الطلبة . هل أسمي نفسي زائرة وأعتبر أن حياتي في هذه البلاد حياة مؤقتة؟ أليس وجودنا في الحياة كله وجوداً مؤقتاً؟ إذن فلا شيء يدوم سوى المؤقت كما يقول الفرنسيون .

سألتها أن تشرب كأساً مكافأة لها على هذه الأفكار . اعتذرت لأنها لا تشرب

الكحول قبل الفراغ من العمل الذي أمامها . صنعت لها كوباً من الشاي الأخضر المخلوط بالنعناع .

- أنت تحب أن تكون مختلفاً .

- لست صاحب فضل في اختراعه . هكذا نشرب الشاي في بلادنا .

أردت أن أناقشها بمنطق يتفق مع منطقها فقلت لها :

- إنني أحمل بداخلي تقاليد قبائل البدو التي أنحدر منها . يحمل البدوي بيته في قلبه ، لأنه لا بيت له . وكذلك أنا . لقد غيرت مسكني مراراً عديدة ، خلال هذه الفترة القصيرة التي أقمتها معكم .

- لا تخطئ فهمي . فليس خطأ أن تقوم بفعل مهما كان بسيطاً تعلن به هويتك ، وتؤكد به ذاتك وشخصيتك . وتستمد منه إحساساً بالاستقلال . نوع من آليات الدفاع العفوي ، وأنت تعيش بعيداً عن محيطك الطبيعي ، داخل بيئة تحس بأنك غريب عنها . إن هذا الكوب من الشاي يقول ذلك .

- إنك تتحدثين عن غربة لم أشعر بها في يوم من الأيام . فمن أين تجيئين بهذه الأفكار؟

- لن أقول أن اختيارك لألف ليلة وليلة موضوعاً لرسالتك ، يحمل في حد ذاته بعض الدلالات ، وإن كثيرين ممن يفشلون في التعاطي مع الواقع يلجؤون إلى اختيار مواضيع تتصل بالخرافات والميثولوجيا . لن أقول إنك منهم لأن هذا يقتضي أن أعرفك أكثر .

- شكراً كثيراً . إنك لم تدخري شيئاً تقولينه فيما بعد . ماذا لو عرفت الجانب الذي اخترت دراسته؟

- لا تقل إنك ستكتب عن المرأة في ألف ليلة وليلة . فقد صار هذا الموضوع هو تقليعة هذه الأيام . المرأة ، المرأة ، المرأة . كأنهم صدقوا المثل الفرنسي الذي يقول «فتش عن المرأة» ، فصاروا يفتشون عنها في أرفف الكتب ورماد التاريخ وحواشي المخطوطات القديمة ، حتى أصابونا بالضجر . فلا تقل بالله عليك أنك فعلت مثلهم .

- ليس تماماً . فهو موضوع يختلف قليلاً عن المألوف . وها أنا أحذرك منذ البداية . إنه يتصل بالعنف والجنس في هذه الحكايات .

أحنت رأسها تسألني أن أعيد الكلمات التي قلتها . أعدت عليها عنوان الرسالة بصوت أكثر ارتفاعاً ، مبالغة في استفزازها . أرسلت ضحكتها الصاخبة وهي تجلس فوق السرير وترتمي بجسمها إلى الخلف وإلى الأمام وكأنها أحد المجاذيب في حفلة زار .

- يا له من موضوع يتفجر قوة وصخباً وتحدياً ، لا يتصدى له إلا من لديه قدرة على اقتحام أوعر الطرق وأكثرها مشقة وهولاً .

أضافت وهي تطفئ لفافة تبغها الرابعة أو الخامسة ، فهي تدخن بمثل ما تتكلم :

- ما أفلحك في اختيار الواجهات الكبيرة التي تنبئ على الفور أنك تريد أن تخفي وراءها شيئاً تخشى أن يكتشفه الناس عنك . لن أستطيع أن أقول لك ما هو ، ولكن يكفي أن أقول أنك إنسان يخجل من ضعفه . ويحاول أن يظهر بمظهر يوحي بالقوة لكي لا يكتشف الناس هذا الضعف . لعلك نشأت في بيت كان خالياً من الحب . لم تكن أمك تطيق أباك ، ولم يكن أبوك يطيق أمك . أو لعل أمك لم تكن تجد وقتاً للاعتناء بك عندما كنت رضيعاً فلم تمنحك ما يكفي من الحب الذي يزرع الثقة بالنفس . لا أدري كيف لم يقل لك أحد من قبل أن هناك ضعفاً في كل الناس ، وأن لا أحد يخلو من ذلك إلا سوبرمان بشخصيته الأسطورية ، فلماذا الخجل؟

- ماأعظم قدرتك على قراءة العناوين وفناجين الشاي .

- وأستطيع أن أقرأ شيئاً آخر . ستكون عطيلاً ممتازاً لو نسيت عطيلاً وتذكرت نفسك . لا حاجة بك لأن تبحث عما يعانيه عطيل وتحاول تشخيصه ومحاكاته . ابحث عما تعانيه أنت . عن الأبيض والأسود في نفسك أنت ، قبل أن تبحث عنه في شخصية عطيل . وسيأتي تمثيلك رائعاً .

أرهقني أسلوبها الراكض في التحليل والتفسير ، فقررت أن أكسب ودها

ببعض كلمات الجاملة :

- لا شيء يجعلني أستمر في تأدية هذا الدور إلا يقيني بأن ممثلة موهوبة مثلك سوف تنقذ المشهد من السقوط .

- ستجد أنت شيئاً من نفسك في عطيل . أما أنا فلن أجد شيئاً من نفسي في ديدمونة . إن ما أغدقه عليها المؤلف من نقاء وشفافية ، يجعلها كائناً نادر الوجود بين البشر . لقد وضعها شكسبير هناك مثل نجمة بعيدة تضيء لنا جزءاً من الصراع الذي يدور فوق الأرض . سأكون أكثر انسجاماً مع أوفيليا ، لأن جنونها يعجبني .

ظلت الجملة الأخيرة التي قالتها ساندرا تتردد في ذهني . إن بها هي أيضاً شيئاً من الجنون الذي يعجبني . قالت وهي تخلع نعليها ، وتتمدد فوق السرير استعداداً لبدء التمرين :

- دعنا لا نظلم غرفتك . إنها أفضل كثيراً من غرفة المكياج .

أبدت ساندرا اقتراحاً بأن نستفيد من فرصة غياب أهل البيت وننتقل لأداء التمرين في بهو الطابق الأرضي الذي يشبه في اتساعه مسرحاً حقيقياً يتيح مجالاً للحركة ويساعد على إتقان المشهد . لم أجد داعياً للاعتراض . فصرنا نستخدم الردهة للتدريب ، ونذهب في نهاية الأسبوع إلى المخرج ليرى ما وصلنا إليه .

كان المشهد يقتضي أن يقبل عطيل ديدمونة وهي نائمة . وكنت خلال هذه التمارين أقبلها في خدها ، مؤجلاً القبلة الحقيقية إلى ليلة العرض . وفي إحدى هذه الجلسات وجدت نفسي أترك الحذر وأنتقل بالقبلة من خدها إلى شفتيها . لا أدري لماذا فعلت ذلك ، أو كيف واتتني الشجاعة لأن أفعله . ربما جاء ذلك نتيجة ما نشأ بيني وبين ساندرا من ألفة ، وما رأيته في طبعها من استهتار بالتقاليد التي يحافظ عليها الناس في معاملاتهم . أو لعل السبب هو اندماجي في تأدية الدور ورغبتي في أن أعبر تعبيراً صادقاً عما يعتمل من عواطف في صدر عطيل . أو لعل الربيع الذي يجلس الآن في الحدائق المجاورة ، حاملاً إلينا بهاء الشمس وعطر

الأرض ، هو المسؤول عن هذا الانفلات من نظام متفق عليه . رأيتها ممددة فوق الأريكة . ترتدي قميصاً أبيض يكشف عن ذلك الجزء الشهي من صدرها ، والنهدان بشكلهما الدائري يرتفعان وينخفضان تحت ارتعاشة القميص . كائنان صغيران يرسلان دعوة صامتة للغواية . التصق البنطلون الجينز بثنيات الجسد وتعرجاته ، يرسم التفاصيل رسماً دقيقاً ، ويصنع منها أمواجاً زرقاء في لوحة رسام يحتفل باللون والضوء . فاح من جسمها عطر نسائي لم أتبين شذاه المسكر إلا عند اقترابي منها ، وهي تأخذ وضع أميرة الأساطير النائمة في خدرها . وقفت متأملاً تلك المساحة بين العنق والصدر التي صارت تتوهج تحت دائرة الضوء التي صنعتها نافذة بعيدة ، وأنظر إلى ذلك الوجه الغاطس في أسرار صلواته الصامتة . تناثرت من حوله خصلات الشعر صانعة تكويناً فوضوياً وانتشرت زعفرانية اللون مشوبة باحمرار ، كذوائب النار تحرق الأريكة وتحرق صدري . رمت بذراعها الأيسر في كسل واستهتار بعيداً عن الجسد النائم وأسبلت الذراع الآخر بجوارها وأراحت الأصابع النحيلة ذات الأظافر المخضبة بالمنيكيور فوق فخذها الذي يعانق فخذها الثاني عناقاً مهلكاً قاسياً . مستغرقة في أداء دورها . تغمض عينيها في إغفاءة وهمية ، عامرة بالأحلام السعيدة ، لا ترى شيئاً مما يعصف بي من مشاعر وانفعالات . تأملتها بنظرة تحاول أن تحتوي كل هذا البهاء النائم ، ثم أحنيت جسمي فوق جسمها . اقتربت بوجهي من وجهها . امتزجت أنفاسي بأنفاسها . تلقيت عبيرها الذي انسكب رعباً وهلاكاً في شراييني . ولم أعد أرى شيئاً سوى شفتيها . شفتان قرمزيتان ، تتوهجان عنفاً وجنساً . ترتعشان وتتنفسان وتكتسبان وجوداً مستقلاً عن بقية جسمها . حبتا فاكهة ، نضجتا ، وحان زمن قطافهما ، ثم صدر أمر إلهي بتحريم الاقتراب منهما .

– «آه يا أبرع نسق صنعته الطبيعة بروعتها» .

وجدت نفسي أغمض عيني كمن يريد أن يلقي بنفسه إلى التهلكة ، وأطبق بفمي على فمها .

– «يا نفساً عاطراً ، تكاد تغري العدالة بأن تكسر سيفها ، قبلة أخرى

وأخرى» .

أقول ما يقوله عطيل وأقبلها .

- «قبلة أخرى وهي الأخيرة . ما كانت حلاوة قط فاتكة مثل هذه» .

رفعت رأسي ووقفت . بقيت جامداً للحظة ، استمرئ هذه النشوة ، وأنا لا أصدق أنني قطفت هذه الفاكهة المحرمة دون أن ينالني عقاب مريع . أنتبه إلى أن هذا الشعور العذب ، لا يناسب الغضب الدموي الذي يهز كيان عطيل . فأعود لإلقاء خطابه حانقاً ، أتوقع في كل لحظة أن تقوم من رقادها ساخطة على مافعلت . ولكنها لم تقل عندما استيقظت إلا الحوار الذي تقوله ديدمونة . أكملنا التمرين بطقوس القتل التي ينتهي بها المشهد ، فقلت لها بعد أن قمت من موتي وقامت من موتها :

- يبدو أنني اندمجت في التمثيل حتى نسيت نفسي .

هزت كتفيها وكأن مسألة أن أقبلها فوق شفتيها شيء لا يختلف عن طريقتي السابقة في تقبيل خدها . إنني لم أخرج على النص أو أخترع قبلة لا وجود لها . فهذا ما يفعله عطيل وما أمر به كاتب المسرحية . وهي ترى أننا بلغنا مرحلة تقتضي أن نقوم بأداء المشهد كاملاً ، تفادياً لأي ارتباك ليلة العرض . ولا أدري لماذا اعتبرت هذه القبلة مرحلة جديدة في علاقتنا ، وإن حاجزاً تحطم الآن ليفضي بنا إلى علاقة أكثر حميمية . ولكن ساندرا تعاملت معي بأسلوب الممثلة التي أعدت نفسها ليكون التمثيل حرفتها ، ولا تراه خروجاً على أداء هذه المهمة أن تمارس الحب إذا اقتضى دورها ذلك ، دون أن تخلط بين الحياة وبين التمثيل . وصرت فيما تلي ذلك من تمارين أقبل فمها الشهي الجميل دونما حرج . أرتدي قناع عطيل وأقبلها . بحب وشوق أقبلها . بشبق وعنف أقبلها . فلست إلا إنساناً مسخراً لخدمة هذا الدور ، متمثلاً شخصية هذا المحارب القوي العنيف . إذا ما انفعلت فإن عطيلاً هو الذي ينفعل . وإذا ما أبديت حماساً ولهفة وقبلتها بشهية كبيرة قبلة طويلة تزيد شفتيها احمراراً ، فإن عطيلاً هو الذي يريد ذلك . وكان عطيل دائماً يأتي . من خلف حجب التاريخ والأسطورة يأتي . ليكون عوني على

ارتشاف هذه القطرات اللذيذة من شفاه ديدمونة .

ظلت ليندا تهاتفني مرة كل أسبوع . لم يكن في البيت الريفي هاتف حتى أستطيع الاتصال بها ، فلم يعد بإمكاني إلا انتظار هاتفها . كنت أخبرها بشوقي إلى رؤيتها ، وأهدد بأنني سأكتري سيارة وأذهب إليها إذا لم تسرع بالمجيء . تعدني بأن تنتزع وقتاً لزيارتي ، ثم تتأسف في المكالمة التالية لأنها لم تستطع أن تترك دونالد خشية أن تضيع النتائج التي حققتها معه بعد أن بدأ يألف حياة الريف ويبرأ من إدمانه . مضت أسابيع خمسة على غيابها ، وهي تنوي البقاء معه أياماً أخرى حتى تراه قد تماثل للشفاء تماماً . لم أخبرها بما أقوم به من تمارين مع ساندرا ، وتركت ذلك إلى حين عودتها . لم أتوقف عن التفكير بها . وأهجع إلى غرفتي ليلاً فأشتاق إلى صحبتها ، وأنتظر بلهفة يوم رجوعها ، ولا أرى البيت إلا مغارة موحشة وهي غائبة عنه . عدا تلك اللحظات التي أجد فيها ساندرا بجواري ، تمنحني تعويضاً ، يسد للحظات قليلة ، هذا الفراغ الذي تركته ليندا في حياتي .

جاءت هذه الأنثى الصغيرة ، بهمجية شعرها الزعفراني ، واخضرار عينيها ، وتوقد أفكارها ، توقظ في نفسي شهية قديمة للنقاش ، وتعيد إلى الحياة ذلك الجزء من عقلي الذي أحلته على التقاعد منذ أن خبت جذوة الفكر الحارقة التي كانت تدفعني إلى تقليب كل الأحجار ، ومناقشة البديهيات بدل التسليم بها ، وطرح الأسئلة التي تفضي إلى أسئلة أخرى . ونصب المحاكمات للبشر والآلهة على السواء . استسلمت لطمأنينة العقل المستقيل ، ورضيت بمنطق الأشياء المألوفة ، أرهن لها نفسي ، وأدور مع الدائرين في طواحينها . وهاتفاً ، الأمان ، الأمان ، صرت أهادن الصمت ، وأدير وجهي إلى الناحية الأخرى كلما رأيت شيئاً لا يعجبني . تأتي هذه الفتاة الآن لكي تذكرني بتلك المرحلة القديمة ، عندما كنت مثلها في بداية العشرينات من عمري . كسرت قشرة الطفولة والصبا ، وبدأت رحلة اكتشاف الناس والحياة . أناقش وأجادل وامتلئ بالأوهام التي تغذيها كتب تسعى لإعادة صياغة العالم . حاولت أنا أيضاً إعادة صياغته ، وعندما فشلت ،

تركت له نفسي يصيغها كما يشاء . تنازلت مثل نبي لم يجد من يؤمن به ، عن رسالتي ، ورضيت بهزيمتي ، وعدت مسرعاً إلى صفوف الذاهبين إلى المعبد ، ممن أنكرت عليهم دينهم ، أنضم إليهم وأعبد ما يعبدون . كانت ساندرا تختلف قليلاً عني ، فهي لا تأتي محملة برسالة إلى العالم كما كنت أرى نفسي . أو تملك إحساساً بالدور الاجتماعي والتاريخي الذي يجب أن تؤديه . إنها لا تحمل رسالة نحو أحد سوى نفسها . فهي تلميذة مخلصة للأدب الفرنسي الذي تتخصص في دراسته بالجامعة ، تعلمت منه التأكيد على الذات ، والاحتفال بمعنى وجود الإنسان في الحياة . وأطروحات الوعي المقموع الذي يسعى لأن يكسر القشرة التي تسجنه ويعبر عن نفسه بالأسلوب الذي يتفق معه ، كما تقول مرددة أفكار الوجوديين . وصارت مثل متمردي الروايات الوجودية لا ترضى بخبرة الآخرين بديلاً عن الانغماس في التجربة والمغامرة ، ومعرفة الأشياء عن طريق الخبرة الشخصية . وكنت كثيراً ما أفكر فيهما معاً . ساندرا وليندا . محاولاً أن أهتدي إلى شيء جوهري يجمع بينهما ، صار مركز جذب واستقطاب لعاطفتي قبل أن أدركه إدراكاً واعياً . ساندرا ، التي تصغر ليندا سبع سنوات وتصغرني ثلاثة عشر عاماً ، تبدو دائماً أكبر من عمرها وأكثر نضجاً . كتاب أنيق مبهج لا يمل المرء قراءته ، والاستمتاع بما فيه من صور وألوان وأفكار . امرأة مصنوعة من جمر مواقد الفكر ، قادرة على إطلاق الشرارات التي تضيء الذاكرة والوجدان . في حين كانت ليندا ، بأنوثتها ، وثراء عواطفها ، وردة من ورود الحديقة ، تشرب الريح والمطر ، وتستمتع بسقوط ندى الفجر ، أقرب إلى الأشياء الجميلة في الطبيعة وأكثر تمثيلاً لها وتعبيراً عنها . ساندرا ، امرأة تستفز العقل وتوقظ في النفس توقاً إنسانياً إلى التحرر والانعتاق ، واكتشاف المناطق المجهولة خلف مظاهر الأشياء المألوفة . وليندا امرأة اللحظات الحميمة ، التي تجيد لغة القلب ، وتدخر في جسمها فاكهة لكل المواسم ، وشمساً لليل الشتاء . إن قدراً من التورط العاطفي مع ممثلة تشاركني دوراً في مشهد مسرحي ، لهو ضرورة يفرضها أداء المشهد ، حيث ينتهي الأمر عند ذاك الحد ، وستبقى ليندا هي البيت ، الذي ما أن يأتي

المساء ، حتى يأوي إليه القلب . هكذا وجدت نفسي مرة أخرى ، قادراً على إجراء هذه المصالحة بين المرأتين ، يتقاسمان عاطفتي ، ويتجاوران دون صراع في منطقة ما ، على حافة الظل ، بين الحلم والواقع .

كنت أقوم مع ساندرا بتدريبنا المعتاد في بهو البيت ، عندما فتحت ليندا الباب ودخلت إلى البهو . كنت في تلك اللحظة قد وصلت إلى ذروة المشهد ، حيث يباشر عطيل قتل ديدمونة . أخذت الوسادة ووضعتها فوق وجه ساندرا . وبجسم يهتز انفعالاً ، وملامح تمتلئ غضباً ، وذراعين ويدين وأصابع تمتلئ تشنجاً ، صرت أتظاهر بأنني أقتلها ، كاتماً أنفاسها تحت الوسادة . وهي تتظاهر بأنها تتلوى ألماً ومعاناة لسكرات الموت . تطلق صرخاتها المكتومة ، وتحاول المقاومة دون جدوى . كنت مستغرقاً في أداء الدور فلم أنتبه إلى ليندا وهي تدخل البيت ، حتى وجدتها تقف قريباً مني وقد فرت من وجهها الدماء وامتلأت ملامحها رعباً وهي تصيح :

– يا إلهي ما الذي تفعله بحق الشيطان .

أدركت أنها فوجئت بمشهد القتل وحسبتني أقتل هذه الفتاة بالفعل . رميت بالمخدة وهرعت إليها ، أمسك بها قبل أن تتداعى فوق الأرض ، في حين قامت ساندرا من مرقدها لتقول معي في نفس واحد :

– إنه تمثيل . مجرد تمرين على مشهد مسرحي .

أجلسناها فوق الأريكة وهي ما تزال في حالة من الذهول والفزع . أحضرت لها كوباً من الماء تبلل به حلقها . وجلست ساندرا بجوارها تشرح لها ما نقوم به من تدريبات . أمسكت كوب الماء بيد مرتعشة ، تأخذ رشفات منه ، وتقول بأنفاس متقطعة :

– إذن فهو مجرد تمثيل . شكراً للسماء أنه لم يكن حقيقة .

قلت لها بعد أن رأيتها تضع كوب الماء فوق الطاولة بيد أقل ارتعاشاً :

– كيف ذهب بك الظن إلى حد أن حسبتني قاتلاً؟

– وكيف لا أحسبه حقيقة وأنا أراك تقوم بخنقها وعلى وجهك ملامح

وانفعالات القتلة . لا شك أنني لم أكن لأفزع كل هذا الفزع لو أن أحداً أخبرني من قبل ، بأمر هذه التمارين .

كان ما فعلته إثماً كبيراً في حقها . أجلب امرأة إلى بيتها ، وأمثل معها مشاهد الحب والعنف دون أن أخبرها ، وأجعل من غرفة جلوسها مسرحاً دون أن أطلب إذنها ، ثم أختار لحظة القتل لكي تتفق مع موعد مجيئها ، فكيف لا يأتي عتابها قاسياً كحد السكين . قدمت لها ساندرا ، وقلت رداً على عتابها :

- إنه مجرد مشهد صغير لا يستحق أن أقوم له بالإعلان والدعاية .

- ما رأيته لم يكن مشهداً صغيراً . كان حلقة من حلقات الجحيم .

خرجت ساندرا ، وجاءت ليندا تسألني أن أعينها في إدخال الحقيبة التي لا تقوى على حملها . أدركت أنها تضع اعتباراً للجنين الذي في بطنها ، وأنها عادت لكي تبقى .

بدت مرهقة ، تكسو ملامحها علامات أسى ظننته جاء نتيجة المشهد الذي أفزعها . ولكن أثر الأرق في عينيها ، والشحوب الذي طرد الاحمرار من وجنتيها ، وزوجها الذي لم يأت معها ، كل ذلك ينبئ بأن هذه الكآبة ليست طارئة أو جديدة عليها . كآبة لم تفلح في إزالتها هذه الضحكات السريعة التي أطلقتها ، ساخرة من خوفها لحظة دخولها البيت .

- من أين جاءتك هذه القدرة على تقمص دور القاتل؟

قلت مازحاً ، أحاول أن أطرد سحابة البؤس المعلقة فوق رؤوسنا :

- يبدو أنني لم أتحرر من ميراث ذلك الإنسان البدائي ، الذي كان يخوض صراعاً قاسياً من أجل البقاء ، فلا يجد غير القتل واستخدام العنف سبيلاً إلى ذلك . إن هذا الجانب المظلم من نفسي يبقى مقموعاً حتى يجد فرصته للتنفيس عن طريق التمثيل .

لعل كلماتي لم تكن طرداً للبؤس وإنما استدعاء له . ولعل ما أقوله هازلاً يلمس جانباً من الحقيقة . فليس عبثاً أن الممثل غالباً ما يجيد تمثيل نقائضه في الحياة ، لأنه يعبر عن جانب مقموع في نفسه . هل أقول لها الآن ، إن جدي لأمي كان

قاطع طريق يصنع من أمعاء ضحاياه قرباً يحمل بها الماء في الصحراء . كان والدي ينسى أن هذا القاتل هو أيضاً جدي ، فلا يذكر إلا العلماء من أسلافه لكي يعيد سيرتهم إلى الدنيا . ولكن أليس للجد القاتل حصة في حفيده؟ أليس من حقه هو أيضاً أن يجد امتداداً له وإحياء لذكراه؟ .

تركت الرجل العالم والرجل القاتل يتصارعان ، وقلت لأصل بالفكرة إلى نهايتها :

- من يستطيع أن يجزم ، بأن ذلك الرجل البدائي ، قد مات وانتهى وجوده الفاعل في سلوكنا وتفكيرنا؟

اكتشفت أنني أستعير أسلوب ساندرا ، وطريقتها في تحليل المواقف دون أن أدري . تري ماذا تقول ليندا بشأن هذه الفتاة المرسومة بأكثر الألوان إثارة وسطوعاً ، والتي أخفيت عنها علاقة العمل التي جمعتني بها؟ ألا يجعلها ذلك تشك في براءة هذه العلاقة؟ كانت هي التي اقترحت أن أبحث عن امرأة أخرج بها إلى الحانات لكي يشاهدنا دونالد فيتعافى من مرضه . هل ما زالت تؤمن بهذا الأسلوب علاجاً للزوج؟ . لعله لو جاء اليوم ، وشاهدني مثلها ، أخنق امرأة في بيته ، لأعادت له الصدمة عقله الغائب .

أوت مبكراً إلى غرفة نومها ، ولم أعرف منها ، إلا عندما جاء الصباح وجلسنا نتناول إفطارنا ، كيف أن دونالد خرج من بيت أهلها ولم يعد . أخبروها بأنهم رأوه يركب حافلة تتجه إلى مدينة «جلاسكو» . فأخذت سيارتها ، وذهبت وراءه ، تبحث عنه في الحانات والفنادق المجاورة لمحطة الحافلات ، دون أن تلقاه . عادت للبحث عنه في اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث أخذت حقيبتها وعادت إلى بيتها .

- ظننته أصبح أفضل حالاً .

- هذا ماكنت أظنه أنا أيضاً . لكنه فجأة رحل .

- لعل له أهلاً يذهب إليهم .

- لا أهل له سوى أخت هاجرت مع زوجها وانقطعت صلته بها .

ثم أضافت، كأنما تخاطب نفسها:

- لا أدري كيف يعيش الآن. ليس لديه مايكفي لشراء فرشاة أسنان.

صمت ثقيل كالرصاص حل بيننا. لم أكن أنظر إليها عندما تتكلم. وكانت هي تقول كلماتها في جمل قصيرة متقطعة، وتتناول إفطارها ببطء ودون شهية. هي أيضاً تتحاشى أن تنظر نحوي. تمسك بكأس الشاي وتبقيه قريباً من فمها وتطيل النظر إليه. أخذت الإبريق أسكب منه شاياً لنفسي. لم أنتبه إلى أنني نسيت أن أضع السكر. أخذت الرشفة الأولى فأحسست بأمعائي تصعد الى حلقي. قلت طالباً لها ولنفسي استراحة من الحديث عن دونالد:

- وكيف حال الجنين؟

انتقلت من موضوع ثقيل، إلى موضوع أكثر حرجاً.

- إنه بخير. أو هكذا كان عندما أجريت فحصاً منذ أسبوع. لا أدري مدى تأثير مفاجأة الأمس عليه. لعله يجتازها بسلام.

رأتني مرتبكاً، فسألتني بسرعة:

- متى ستقدمون عرضكم؟

- في ختام العام الدراسي.

- تحتاجون إلى شهر آخر تقريباً.

- ستة أسابيع على وجه التحديد.

- تأخذون وقتاً طويلاً. في التدريب أعني.

- ليس طويلاً عندما تعرفين أننا نقوم بتجربة واحدة في الأسبوع، ولأنها لا تكفي، نلجأ للتمارين الإضافية.

كان واضحاً أن التواصل بيننا يعاني مشكلة ما. وأن هناك شيئاً يفسد صفاءه ووضوحه. وما هذه الانقطاعات ولحظات الصمت، والقفز من موضوع إلى آخر، إلا دليل على ذلك. غاب دونالد وبقي ظله يطاردنا. وباحثاً عن سبيل لحسم هذا الموضوع قبل أن يفضي بعلاقتنا إلى الهلاك، قلت لها:

- سأذهب معك للبحث عنه.

- ليس هناك من سبيل إلا انتظاره هنا . فهو لا بد أن يعود .

توالت الأيام دون أن يظهر دونالد أو تأتي منه أية أخبار . كنت قد توقفت عن دعوة ساندرا إلى البيت . مكتفياً بالتمرين الأسبوعي الذي أجريه معها بحضور المخرج . عادت ليندا . ولكن البيت لم يستعد بهجته القديمة . الروح التي ظننت بأنها ستعود بعودتها إليه ، ظلت غائبة . استلمت ليندا عملاً مؤقتاً بوكالة تتولى الإعداد للدورات الصيفية . وذهبت في مشاوير كثيرة إلى مكتبة الجامعة ، تملأ ورقاً تبرر به غياب زوجها ، لكي لا يجد نفسه عاطلاً عندما يعود . لم تكن تسهر خارج البيت ، ولم يكن أحد يزورها أو تزور أحداً ، عدا ممرضة متقدمة في السن تأتي إليها ، تحمل جهازاً لقياس الضغط ، أو شيئاً مما تحتاجه النساء الحوامل من حبوب وأغذية مركزة . وظلت تقوم بزيارة إلى بيت أهلها كل يوم أحد ، أملاً في أن تسمع شيئاً عن دونالد . كنت أحرص ألا أتركها بمفردها . أستيقظ مبكراً لألتقي بها على مائدة الإفطار ، وأعود أحياناً كثيرة في المساء لأبقى بجوارها . لم أجرؤ خلال هذه المدة أن أعانقها أو أقبلها أو أشير إلى ذلك الجانب المؤجل من علاقتنا . كانت الرغبة لا تفارقني ، ولكنها مثل الرغبة التي تراود رجلاً يلتقي بامرأة مثيرة لا يعرفها ، ويدرك أنه لن تضمه معها غرفة نوم واحدة . كنت أكتفي بمتعة أن أكون قريباً منها ، وأنتظر يوماً تزول فيه هذه الغيوم وتعود فيه هذه المدينة المقفلة في وجهي ، مدينة أملك مفاتيحها وأتجول حراً بين أشجارها وفوق أرضها المباركة . ها هو دونالد يحقق انتقامه . وبمثل ما أفسدنا عليه حياته ، جاء هو أيضاً يفسد حياتنا . نعيش بأمل أن يظهر وقد تعافى وعاد إليه عقله ، حيث تستطيع ليندا أن تترك له بيته وتتحرر من زواج أثبتت الأيام فشله ، لنبدأ مرحلة جديدة في علاقتنا ، لا تخالطها أوجاع الضمير الذي يتوق إلى البراءة . ولكن دونالد لا يظهر مريضاً أو معافى ، كأنه أدرك مقصدنا ، وأراد أن يعاقبنا ، فاختفى هذا الاختفاء الغامض ، ليترك حبنا معلقاً بين الأرض والسماء ، لا يجد مساحة أرض صغيرة ، يبني خيمته فوقها .

وبعد غياب امتد لأكثر من شهر ، ظهر دونالد . كان عدنان هو الذي أخبرني

بظهوره عندما ذهبت للقائه ، عشية الأحد ، بحانة العناقيد . كان عائداً لتوه من أحد الملتقيات السياسية . وجدته يضع شارة فوق صدره ، لم أتبين من كتابتها سوى « لجنة التنظيم» .

- ما أكثر الشارات التي ترتديها . لا أراك إلا وأنت تحمل شارة تختلف ألوانها عن الأخرى ، فإلى أي تنظيم تنتمي هذه الشارة الكئيبة الزرقاء؟

- دعك من هذا الآن . إن الطلاب العرب ينتقدونك لأنك لا تحضر لهم اجتماعاً .

- متى أراك دون أن تحمل لي انتقاداً . ألهذا كنت تبحث عني؟

- أعدنا إحياء جمعية أصدقاء القضايا العربية ، وكنت أريدك أن تكون معنا . من العار أن تمتلئ القاعة بالاسكتلنديين ويختفي العرب .

- دعني أصنع لكم الأصدقاء على طريقتي الخاصة . تعرف أنني أترك السياسة لرجالها .

- وعلى أي نوع من الرجال تريدنا أن نحسب السيد خليل الإمام؟

- يمكنك أن تحسبني على رجال الأدب . فهو مجال رحب كريم لا يضيق باللاجئين إليه .

- حتى لو اعتبرناك كبير الأدباء العرب وحامل رايتهم إلى النار . متى كان الأدب ينفصل عن السياسة؟

- انتهى الزمان الذي كان فيه الناس يخلطون بين مختلف المهن . يعزفون الموسيقى ويعالجون الفلسفة ويهتمون بتحضير الأرواح ويشتغلون أيام الآحاد بالخطابة في المهرجانات السياسية . أفق يا عزيزي . نحن نعيش عصر التخصص .

- العنف والجنس . ما أنبل هذه القضية التي اخترت أن تكرس لها حياتك ، ونبذت من أجلها القضايا الأخرى . لا أدري كيف لا تخجل من هذا التخصص؟

- كأنك لم تقرأ فرويد لتعرف أن كل شيء في حياتنا يبدأ بالجنس وينتهي إليه . هل تريد أن أحدثك الآن عن الدافع الجنسي وراء نشاطك السياسي؟

– ولماذا لا تتحدث عن المركيز دو ساد ، طالما أنك أصبحت سادياً مثله . عرفنا الآن ضحيتك الأولى ، فمن سيكون ضحيتك الثانية بعد دونالد . ليتك تراه لتعرف حجم جنايتك .

– لابد أنك رأيته . قل بسرعة ، أين هو؟

– إنه ينام مريضاً في بيت «أنار» .

سألته أن ينتظرني وخرجت أكتري سيارة أجرة تأخذني إلى البيت . لم تكن ليندا قد عادت من زيارة أهلها . انتظرتها قليلاً داخل البيت . لم أطق البقاء فخرجت لأجلس على عتبة الباب أنتظرها . مر الوقت بطيئاً ثقيلاً . وما أن رأيت سيارتها قادمة حتى ركضت إليها وفتحت الباب قبل أن تقف قائلاً :

– هيا بنا إلى دونالد .

– مالذي تقوله؟

– ستجدينه الآن ببيت «أنار» .

أفهمتها أن هناك قسماً بنادي المدرسين يخصصونه لإقامة الأساتذة الزائرين ، وأن «أنار» تقيم مؤقتاً هناك . سألتها أن تتركني قريباً من حانة العناقيد . في حين ذهبت هي للقاء زوجها العائد من غيبته .

عرفت من عدنان أن العلاقة التي نشأت بين دونالد و«أنار» ، لم تكن منذ البداية ، إلا شفقة منها على رجل لم تستطع تعاليم بوذا أن تمنحه أجنحة يرتفع بها فوق مشاكل الواقع . أو لعله ارتفع قليلاً ، ثم ما لبث أن ارتطم بالأرض . حاولت المرأة إسعافه ، ورأته نافراً من بيته فمارست تأثيراً عليه بحيث واصل حياته مع زوجته ، وأفلحت في إقناعه بأن يذهب معها إلى الريف ، وعندما رأته يغيب كل هذه المدة ، ظنت أنه تجاوز أزمته وشفي من أسقامه ، إلى أن فوجئت به منذ يومين ، يدق بابها مع الفجر ، ثملاً ، ومريضاً ، يطلب مأوى .

رجعت مبكراً إلى البيت أنتظر ليندا . رأيتها تعود بمفردها ، وقالت دون أن أسألها ، بأن دونالد رفض أن يأتي معها . انهارت فوق الأريكة بجواري ، تضع رأسها بين كفيها وتبكي بكاءً صامتاً . واحتراماً لحزنها ، جلست صامتاً حتى

أكملت بكاءها . دخلت بعد ذلك إلى غرفتها وأحضرت حقيبة فارغة ، صارت تملؤها بالبدل والقمصان وما يحتاج إليه من أغراض أخرى . رأيتها تعتني اعتناءً كبيراً بوضع كل قطعة في الحقيبة ، وتسرح قليلاً وهي تتأمل القميص أو البدلة أو المنامة التي بين يديها ، عندما كانت تتولى بنفسها انتقاء وشراء كل ملابسه وحاجاته . انتهت من إعداد الحقيبة ، ونقلتها إليه . أدركت وأنا أراها تفعل ذلك ، إن دونالد لن يطأ هذا البيت مرة أخرى .

لم يبق على تقديم العرض المسرحي غير أسبوع واحد . فصرنا يومياً نقوم بتدريب شامل على كل المشاهد وبكل ما يقتضيه العرض من ملابس وديكور وموسيقى وإضاءة ، وبرفقة الممثلين الثانويين الذين يشاركون معنا في أداء المشهد بجملة أو جملتين . كما انشغلت مع الفرقة في أداء مهمات أخرى كان من بينها أن أطوف الكليات والمكتبات لتوزيع نشرات الدعاية . أخرج مبكراً ولا أعود إلى البيت إلا آخر الليل ، فلا أرى ليندا إلا صدفة وللحظات قصيرة جداً . أعطيتها في إحدى هذه المرات بطاقة لحضور الحفل ، وعرفت منها أن دونالد ترك بيت «أنار» ، وذهب ليقيم بفندق للبحارة قريباً من الميناء ، بعد أن أنهى عمله مع المكتبة وأخذ مستحقات نهاية الخدمة ، وقرر أن يستقر هناك . أسعدني أن مرحلة قد انتهت بكل ما رافقها من قلق وانتظار ، وإن مرحلة جديدة أذنت بالمجيء الآن ، وجب أن نستعد لها ونعيد ترتيب الأشياء بما يضمن الاستقرار والأمان لعلاقة الحب التي بيننا . لم نتبادل سوى كلمات قليلة ، مؤجلين الحديث عن المستقبل إلى أن تنتهي مشاغلي مع الفرقة . رأيتها مقبلة نحوي بوجه يضيئه الابتسام . فوقفت صامتاً أنظر إلى وداعة عينيها ، وأنصت إلى كلماتها وهي تتمنى لي حظاً طيباً ، اقتربت مني ، فلم أجد حرجاً في أن أضمها إلى صدري ، وكأنني ألتقي بها ، بعد غياب طويل أمضني وأرهقني .

- حمداً لله ، لقد انتهت الأيام الصعبة .

قبلتها قبلة سريعة على جبينها ، وخرجت عائداً إلى الفرقة .

كان مسرح «الكولوسيوم» الذي استأجرته الفرقة لتقديم العرض لليلة واحدة ،

مسرحاً كبيراً ينتمي إلى الطراز الكلاسيكي بسقوفه العالية ذات النقوش والنمنمات . جاءت ليلة العرض وامتلأت طوابقه الكثيرة ومقصوراته التي تمتد على الجانبين ، بالمشاهدين الذين ارتدوا ملابس السهرة ، وجلسوا يتابعون هذه الجولة عبر عوالم شكسبير . حان موعد المشهد الذي أقوم بتقديمه ، فوقفت وراء الكواليس أستمع إلى دقات قلبي التي اختلطت بالأنين الفاجع لموسيقى العرض . انفرجت الستارة عن غرفة نوم تسبح في نور هادئ ، وديدمونة هاجعة إلى مخدعها ، الذي أضفى عليه الإخراج فخامة تليق بمشهد الموت المأسوي الذي سيكون ميداناً له . وضعت طلاء أضفي سمرة داكنة على الوجه والذراعين والساقين والنصف الأعلى من جسمي الذي بقي عارياً إلا من قطعة قماش كالحزام . وتمنطقت بحزام جلدي عريض ترصعه أزرار بلون الذهب ، وتنورة بيضاء تصل إلى الركبتين . شعري الذي أبقيته طويلاً صار الآن مبعثراً كثير التجعدات بفضل المكياج . في حزامي خنجر له مقبض من فضة ، وسيف له غمد كثير النقوش ، وفي قدمي صندل له خيوط جلدية تلتف على الساقين . جعلته مرتفعاً لكي أبدوا أكثر طولاً من طولي الحقيقي . حان موعد دخولي ، فوقفت لاهث الأنفاس ، متهيباً من الدخول . رأيت زميلاً يتولى إدارة المسرح ، يضع في يدي قنديلاً ويدفع بي إلى الدائرة التي تستقطب عيون كل هؤلاء المشاهدين . لم أكن أريد أن أنظر إليهم أو أشعر بوجودهم ، ولكن عطور كل النساء اللاتي يشاهدن العرض ، تتجمع الآن لتصنع غمامة كثيفة من عطر هجين يغمر المسرح ويغمرني . أحاول أن أنسى العطر والنساء ، فلا أذكر سوى النجوم والقناديل وديدمونة ، التي يخاطبها عطيل في مناجاته :

- «إنه السبب . إنه السبب أيتها النفس .

لا تجعليني أسميه لك أيتها النجوم الطاهرة .

إنه السبب . ولكنني لن أسفك دمها ، ولن أخدش ذلك الإهاب الأبيض كالثلج . الأملس كرخام التماثيل . ولكن يجب أن تموت ، وإلا فإنها ستخون المزيد من الرجال .

أطفئ النور ، ثم أطفئ النور .
إذا أطفأتك أيتها الخادمة اللاهبة ، فإن بوسعي إذا ما ندمت أن أستعيد نورك من جديد .
ولكن إذا أطفأت نورك أنت ، يا أبرع نسق صنعته الطبيعة بروعتها ، فإنني لا أعرف أين تلك النار البروميثية التي بوسعها إشعال نورك من جديد .
إن أنا قطفت الوردة ، لا أستطيع أن أهبها نمو الحياة ثانية ، ولا بد لها من ذبول . . .
سأشمها فوق الشجرة .
يا نفساً عاطراً ، تكاد تغري العدالة بأن تكسر سيفها
قبلة أخرى ، وأخرى
هكذا ، كوني حية تموتين ، فأقتلك وأحبك بعدها .
قبلة أخرى ، وهي الأخيرة . ما كانت حلاوة قط فاتكة كهذه . يغلبني البكاء ، ولكنها دموع قاسية . هذا الحزن علوي . يضرب من يحب ، ها هي تستيقظ» .

تستيقظ ديدمونة لتؤدي معي دورها . ينتهي الحوار ويحين موعد قتلها . أمسك بالوسادة وأضعها فوق وجهها ، خائفاً ، ما تزال تراودني فكرة أن أترك المسرح وأخرج هارباً . فأقهر الخوف بالمبالغة في الانفعال . أخذت أضغط بالوسادة محاولاً أن أنسى نفسي وأنسى خوفي وأنسى الجمهور الذي صار وحشاً له آلاف العيون تراقبني . ولم أنتبه إلا بعد لحظات إلى أنني فعلاً أخنقها ، وأنني أضع كل قوتي في هذين الذراعين المتشنجين وهما يدفعان بالوسادة لكتم أنفاسها . وإن ساندرا وهي تقاوم وتتألم وتتلوى فوق السرير وترفع يدين تشجنت أصابعهما تحاول أن تدفعني عنها ، لا تفعل ذلك تمثيلاً ، وإنما تفعله رعباً ، وخوفاً من أن أقتلها . أدركت فظاعة ما أفعل ، فتركتها وانهرت فوق سريرها أبكي بكاء أكثر حرقة وصدقاً من بكاء التمثيل . تابعت أداء المشهد مع ممثلي الأدوار الثانوية ، وقلت كلماتي الأخيرة ثم غرست السكين في صدري ، وارتميت فوق صدرها ميتاً .

بدأت الستارة تطبق ببطء على مقدمة المسرح ، ودوت القاعة بالتصفيق الذي استمر طويلاً . كنت متلهفاً لأن أرى التصفيق ينتهي ويتم إقفال الستارة ، لكي أتأكد من أن ساندرا لم تصب بأذى . تنفست بارتياح عندما رأيتها ترفع رأسها ، تتحسس عنقها ، وتفرغ سعالاً حبسته في صدرها . وضعت يدي في يديها أساعدها على النهوض ، وسحبتها إلى زاوية وراء الكواليس وبعيداً عن أعضاء الفرقة الذين جاءوا يهنئون بما أصبناه من نجاح ، أعتذر لها عن غشامتي ، وأسألها أن تحتفظ بما حدث سراً بيننا ، لكي لا يتحول الإعجاب إلى سخرية من سذاجة انفعالي . فقد بدا واضحاً أن تلك السذاجة المهلكة هي التي أعطت المشهد صدقه وحرارته ، وألهبت أكف المشاهدين بالتصفيق ، وأبلغتها أن الاعتذار الحقيقي ، سيكون زجاجة شامبانيا أقدمها لها بعد انتهاء الحفل . ذهبت أنزع المكياج وأرتدي ملابسي ، وما أن أكتمل تقديم العرض ، وخرجنا جميعاً لتحية الجمهور ، حتى أخذت ساندرا ، وذهبنا بصحبة امرأتين ورجلين ممن شاركوا في أداء وإعداد المشهد ، إلى مطعم ومرقص بمحاذاة المسرح .

أمرت بإحضار الزجاجة الموعودة ، فجاءت تضفي جواً احتفالياً على جلستنا ، بسبب ما يقام لها من طقوس . أحضرها رئيس الخدم ملفوفة في دثار من قماش أبيض ، وجاء بكؤوس صغيرة من الكريستال لا تستعمل إلا لشربها ، كما جاء بسطل الثلج المفضض والمخصص لحفظها . ثم مضى ينزع الورق المذهب الذي يغطي عنقها ، ويفتحها فتحدث تلك الفرقعة التي قابلناها بالتصفيق وصيحات الابتهاج . تناثر الزبد من فم الزجاجة ، وفاضت رغوتها في الكؤوس ، فدفعنا بالكأس الأولى إلى ساندرا ورفعنا كؤوسنا تحية لها . انتهت الشمبانيا فتحولنا إلى النبيذ ، وجاءت أطباق المأكولات الخفيفة ترافق الشراب ، فقضينا وقتاً في الأكل والشراب والرقص . حانت الساعة التي يقفل فيها المحل أبوابه قبل أن تنتهي رغبتنا في السهر . فاشترينا شراباً ، ذهبنا به إلى غرفتي ، نواصل إحياء هذه الليلة التي كنا نحن نجومها . سعداء بأنفسنا ، مغمورين بتلك اللحظة السحرية التي يصنعها التواصل مع جمهور يتحمس إعجاباً وتصفيقاً لنا . انتهت سهرتنا وكنت

ثملاً ، لا أحفل بمن ذهب أو بقي . نمت حتى منتصف النهار ، وعندما أفقت وجدت يداً يخضب أظافرها الطلاء الأحمر ، ترتمي فوق صدري . تتبعت الذراع فوجدته ينتمي إلى جسد امرأة تلتحف بشراشف غطت جسمها ووجهها . رفعت الغطاء ، فاكتشفت أنها ساندرا ، تتمدد عارية في سريري ، فتشت في ذاكرتي لأتبين ما حدث بيني وبينها في هذا الفراش ، فلم أستطع أن أذكر شيئاً . تركتها نائمة ، وذهبت أضع جسمي تحت الماء . عندما رجعت كانت هي قد استيقظت ، وأخذت منشفة أحاطت بها جسمها ، وخرجت إلى الحمام . في حين انصرفت أنا لإعداد الشاي . كنت مازلت لم أتحرر بعد من تأثير ما شربته من خمور كثيرة ، لكي أستطيع أن أعي وأتدبر معنى أن تنام ساندرا في فراشي . لم أنتبه إلى دلالة ما حدث ، إلا عندما سمعت ساندرا تتبادل التحية مع ليندا وتسألها أن تعيرها شيئاً لم أتبين ما هو ، ثم تهبط إلى الدور الأرضي ، لا ترتدي سوى تلك المنشفة ، لتأخذه منها . خرجت من المطبخ لأراها تصعد الدرج حاملة آلة تجفيف الشعر ، تدندن لحناً راقصاً ، وتحاول أن تضبط إيقاع خطواتها واهتزازات جسمها مع إيقاع اللحن . أردت أن أصرخ في وجهها مستنكراً ما فعلته . ولكنني تمالكت نفسي . من أين لها أن تعرف طبيعة ما يربطني بليندا ، سوى أنها زوجة صاحب البيت الذي أسكنه . رجعت إلى المطبخ لأجد سخان الشاي يغلي فوق الموقد ، احترقت أصابعي وأنا أفرغ الشاي في إبريق الخزف . اندلق الشاي وسقط الإبريق مهشماً فوق الأرض . تركته مرمياً هناك وعدت إلى الغرفة . كان صوت آلة تجفيف الشعر ، يتابعني ويوخز رأسي كالإبر . كيف سأفسر لليندا الالتباس الذي وقع . لن تصدق أن مجيء هذه المرأة الي غرفتي وقضاءها الليل معي ، لم يكن إلا حدثاً عرضياً . بدا الأمر وكأنني أتعمد إهانتها . ولعلها تتساءل لماذا لم أفعل شيئاً كهذا بعيداً عنها؟ ، ولماذا أصر على إحضار هذه العشيقة الجديدة ، الصغيرة السن ، الكثيرة الألوان إلى بيتها؟ . وربما تظن بأنني ما أرسلت إليها ساندرا وهي تغطي عري جسمها بمنشفة الحمام إلا رغبة في استفزازها . جاءت ساندرا لارتداء ملابسها . ارتميت فوق السرير ، وتظاهرت بأنني لا أزال متعباً أريد النوم . خرجت

وبقيت بمفردي أحاول أن أهتدي إلى طريقة أعالج بها الموقف قبل أن يتحول إلى كارثة . يجب أن أذهب إليها الآن ، وأشرح لها ماحدث بكل تفاصيله . إن علاقتنا تبدأ الآن مرحلة جديدة بعد أشهر من العناء والانتظار ، فلا حاجة بنا إلى هموم نصنعها بأنفسنا لإيذاء أنفسنا . كان البيت صامتاً . وعندما هبطت أبحث عنها ، كانت ليندا قد غادرت البيت . بقيت طوال اليوم ملازماً غرفتي . مستلقياً أغلب الوقت فوق السرير . أضع أمام وجهي كتاباً لأقرأه ، فأجد أن بصري ترك الكتاب ومضى يحدق في السقف . انتظرت ليندا فلم تعد ، إلى أن غلبني النعاس وأفقت صباحاً على رنين جرس الباب . تواصل الرنين ، دون أن يقوم أحد بفتح الباب . نهضت متثاقلاً لأفتحه ، وقبل أن أصل إليه ، رأيت ثلاثة رجال وامرأة يفتحونه ويدخلون . قدم لي أحد الرجال بطاقة الزيارة وهو يعتذر :

- أرجو المعذرة . ظننت أن لا أحد بالبيت فاستخدمت المفتاح .

قرأت البطاقة التي تحمل إسم وكالة «كالادونيا» لبيع وشراء العقارات .

- جئت أرافق هذه العائلة لمعاينة البيت . لا بد أنك السيد الذي يقيم بالطابق الأعلى . أخبرتني عنك صاحبة البيت . إنها سيدة محظوظة . ما أن وصلت إلى الوكالة حتى وجدت هؤلاء الناس الذين يبحثون عن بيت بهذه المنطقة . وفي الحقيقة فإن فئة الباحثين عن سكن لا تنتهي من الدنيا . أحزاب كبيرة تنتهي ، وفئات اجتماعية تذوب وتنقرض ، ولكن فئة الباحثين عن سكن باقية . يذهب أناس ويأتي آخرون . ولكن لا يهم . هناك دائماً وكالة «كالادونيا» التي لا تهدف إلا لخدمتهم . إنه بيت ممتاز . بيت حديث البناء جداً . ولكن هذا البهو الفسيح ينتمي إلى عصر أكثر فخامة ، عندما كانت الأرض . . .

إنني لا أفهم ما يثرثر به هذا الرجل . هل قررت ليندا فجأة أن تعرض بيتها للبيع . لا بد أن الأمر كذلك . وهذه العائلة جاءت الآن تتفقد البضاعة . إنها عائلة تليق ببيت كهذا . رجلان وامرأة ، كما كان الحال معنا . لم أستطع أن أحدد من منهما الزوج ومن منهما العشيق . لعل العشيق هو هذا الشاب الصغير الذي يلتصق القميص بصدره مليئاً بنجوم العلم الأمريكي وخطوطه . ولكن المرأة

تتقدمه في العمر حتى لتكون أمه . يبدو أن هذه هي التقليعة الآن . صغيرات يتعشقن كبار السن . وكبيرات يتعشقن الصغار . أعجبتني الابتسامات التي يعلقونها فوق وجوههم وكأنهم يشاهدون معرضاً للرسوم الساخرة . ها هي غرفة نوم ليندا مباحة أمامهم يطوفون بها ، يقيسون طولها وعرضها ، ويشاهدون السرير والوسائد ، وأدوات زينة ليندا ، والمرايا التي لم تعكس فيما مضى إلا صورتها وصورة زوجها . كم هي مهينة هذه الزيارات . تمنيت لو أنني أستطيع أن أمنعهم من معاينة غرفتي ، فهي أيضاً ستكون مباحة أمامهم ، يعاينونها ويضحكون من أثاثها وفوضاها . صعدت أرتدي ملابس الخروج وأترك لهم الغرفة مفتوحة دون أن أعتني بتنظيمها . فوجئت وأنا أغادر البيت بأن مندوب الوكالة علق لوحة كبيرة أمام الباب تحمل عبارة «بيت للبيع» . لا بد أ ن الشيطان نفسه هو الذي استخدم حافره في كتابة هذه الأحرف البشعة . بيت للبيع . ذكريات للبيع . حب للبيع . حجار ة للبيع . علاقات قديمة للبيع . كل شيء خاضع للعرض والطلب . والدنيا كرة تدور ، فلا ثبات لشيء . دورة تنتهي وتعقبها دورة أخرى . زيارة قصيرة إلى وكالة كالادونيا وتنتهي فصول القصة . تأتي اليافطة ويأتي الباحثون عن بيت للشراء ، وتبدأ قصة أخرى . لقوة السوق منطقها الذي لا يعبأ كثيراً بأوهام البشر وعواطفهم . كالادونيا ، كالادونيا . لك التمجيد والسلام أيتها الحقيقة الوحيدة الثابتة في سوق البيع والشراء .

ولكن لماذا؟ لماذا تفرط ليندا في بيت لم تملكه إلا بالشقاء والاستدانة . ليتني أعرف طريقاً إليها هذا الصباح لكي أمنعها من ارتكاب هذه الحماقة . طوفت عبر شوارع المدينة بلا هدف . كنت قلقاً . كارهاً نفسي . لا أعرف سبيلاً أسلكه . أذهب إلى المكتبة فلا أطيق البقاء . وأذهب إلى قسم الدراسات الشرقية وأسمع ثناء على الحفل الذي قدمناه فلا يزيل الثناء شيئاً من تعاستي . يحين موعد الغداء ، فأشتري بحكم الروتين طعاماً ، تعافه نفسي لأن عاملة المطعم كانت تسعل وتتمخط . وجدت عندما عدت مساءً إلى البيت ، ليندا وبصحبتها الممرضة ، كانت الممرضة تقيس لها الضغط ، وتواصل معها حديثاً بدأ قبل

وصولي ، عن ضرورة أن تتجنب المواقف التي تجلب لها الكدر والانفعال الشديد . بقيت واقفاً ، ودون أن أنظر إليها مباشرة ، كنت أستطيع أن أرى وأعرف إلى أي مدى هي مريضة . لم يكن ما بدا على وجهها إجهاداً أو تعباً هذه المرة . كانت ليندا مريضة كأقسى ما يكون المرض . عندما لا يسرق لون بشرتنا أو يسرق الوميض من أعيننا ، وإنما يسرق ملامحنا ويحيلها إلى ملامح أخرى . لم أكن غافلاً عما ارتكبته في حقها . ولكنني الآن أرى بشكل أكثر وضوحاً وقسوة ، بشاعة ما حدث . حتى لو كان ما تعانيه ، مرضاً جاء نتيجة أسباب أخرى . فإنني لا أستطيع إلا أن أفكر في نفسي كمسؤول عن هذا الأذى الذي لحق بها . لا أدري ماذا يكون شعور ذلك الأسير الذي يلقونه في حفرة ثم يطلقون عليه أسداً جائعاً . ولكنني لا أعتقد أنه كان أكثر تعاسة مني وأنا أواجه هذه المشاعر السوداء التي تهاجمني وتنهش جوفي . خرجت الممرضة وتركتني وحيداً معها . فكرت فيما يجب أن أقوله تبريراً لموقفي . ولكن الكلمات ما أن تصل إلى فمي حتى تبدو باهتة لا معنى لها . لا تبرئني وأنما تؤكد إدانتي فأتوقف عن قولها . اخترت لجلوسي كرسياً يحاذيها ، فذلك أقل قسوة من أن أواجهها ، ولكنني لم أستطع أن أتفادى رؤية الأسى الذي يغطي وجهها والذي كان يربكني فلا أعرف كيف أفتح الموضوع . تناهى لي صوتها واهناً ضعيفاً وهي تقول :

- كان لابد أن أعرض البيت للبيع . ولكن من حقك أن تبقى مقيماً به .

صرخت محتجاً ومستنكراً . كان صراخاً صامتاً يمزق صدري دون أن تقوى حنجرتي على نقله . سمعتها تقول :

- سأقيم ببيت أهلي . فلا شك أن دونالد بحاجة إلى أن يستعيد ما دفعه في هذا البيت . طالما أنه لم يعد يريده .

كان البيت قد بدأ ينهار . فلا أرى إلا ركاماً ، وأتربة ، وغباراً يتساقط في صمت وحزن . حاولت أن أرفع رأسي من دوامة الغبار وأقول شيئاً أفسر به ما حدث نهار الأمس ، بدلاً من هذا الصمت . وقبل أن أتمكن من الكلام وقفت ليندا واتجهت صوب غرفتها . قالت قبل أن تختفي خلف الباب :

- يمكنك أن تفتح التلفاز إذا أردت . أما أنا فيجب أن أنام الآن . لا تنس أن تطفئ الأضواء فيما بعد .

في اليوم التالي سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتي . تفاءلت خيراً عندما وجدت أنها ليندا جاءت توقظني من نومي . أفسحت لها الطريق ودعوتها للدخول . قالت وهي ماتزال واقفة أمام الباب :

- لم أشأ أن أسافر دون أن أقول وداعاً .

- ليندا .

- وأتمنى لك التوفيق في دراستك .

- ليندا أرجوك . لا تقولي هذا الكلام وكأننا لن نلتقي بعد اليوم .

- ربما نلتقي ، من يدري .

- دعيني أخبرك بشيء واحد وهو أنني لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنك ، وسأذهب معك إلى أي مكان تشائين . امنحيني فرصة لأشرح لك .

- نسيت أن أهنئك على نجاحك في دور عطيل . ما أشد براعتك في التمثيل .

- لحظة واحدة أرجوك .

- يجب أن أمضي . يمكنك الاحتفاظ بآلة تجفيف الشعر التي استعارتها صديقتك فلا بد أنها ستحتاج إليها في المرات القادمة .

كانت تهبط الدرج وأنا أهبط وراءها .

- يجب أن تعرفي أنني لن ألتقي بها بعد الآن . انتهت علاقة العمل التي جمعت بيننا . لم يكن وجودها هنا إلا استمراراً لسهرة أقمناها احتفالاً بالعرض المسرحي وامتدت حتى غلبني النعاس . صدقيني بأنني فوجئت بوجودها في اليوم التالي كما فوجئت أنت .

- ولماذا أفاجأ . إنها حياتك وأنت حر بها .

أمسكت بذراعها عند عتبة الباب أمنعها من الخروج . إنها ترفض أن تنصت لي وكأنه لا يعنيها أن تعرف صدق ما أقول . اتخذت قراراً بأن تطردني من

حياتها ، وسوف أقاوم هذه القرار الظالم .

- يجب أن أذهب .

- لن أدعك تذهبين .

- أترك ذراعي أرجوك .

قوة تتلبسني وتدفعني لأن أرتكب أية حماقة في حقها الآن . أن أقذف بها فوق الأرض وأدوس بأقدامي كل جزء من جسمها حتى لا تقوى على الوقوف أو الكلام أو الذهاب إلى أي مكان آخر في الدنيا . أن أطوق عنقها بأصابعي وأخنقها ، حتى تسقط كما سقطت ديدمونة جثة بلا حراك . أقتلها وأحبها بعد ذلك . كنت أرتعش كأنني مريض بالحمى . وكنت أقبض بقوة على زندها وهي تتألم وتسألني أن أتركها تمضي . ولكن كيف أستطيع أن أتركها تمضي؟ . حاولت أن تنتزع ذراعها من قبضتي فأمسكت به مستخدماً اليد الأخرى ، قابضاً عليه بتشنج وعصبية ، لكي أمنعها من الخروج . كنت أحس بوجهي ملتهباً كأن جمراً يتقد تحت جلدي ، وأنا أطحن ضرساً بضرس ، محاولاً أن أتمالك أعصابي وأستحظر أقصى ما أستطيع من عقل أمنع به نفسي من تلبية هذه الأفكار المجنونة التي تريدني أن أقتلها وأحرقها وأصنع من رمادها قدحاً أملؤه خمراً أعاقرها مدى الحياة . مرت لحظة بعمر الفاجعة ، كلانا ينتفض ويرتعش ، قبل أن أترك أصابعي المتشنجة حول ذراعها تتراخى وتفك قبضتها . ولا أدري ما الذي رأته ليندا يرتسم من انفعالات على وجهي حتى صارت تبحلق فيه بعينين تمتلئان ذعراً . خرجت راكضة وهي تلتفت كأنها لا تصدق أنها نجت من هذا الشر الذي رأتني أضمره لها . قفزت سيارتها في الهواء . واندفعت بقوة تثير زوبعة من الغبار . أخرج العادم دخاناً كثيفاً غطى وجهي وملأ حلقي بالمرارة والغثيان . راقبت سيارتها وهي تمرق ، تمضي ، يبتلعها الطريق ، ولا تبقي وراءها سوى الدخان والغبار .

ولا أدري كم مر من الوقت وأنا أقف مزروعاً أمام البيت ، قبل أن تأتي سيارة شحن عملاقة ، تقف فجأة أمامي ، وتخرجني من ذهولي . يقفز من صندوقها الرمادي عمال يرتدون عفريتات ذات ألوان قاتمة داكنة ، يدخلون البيت ويباشرون

تقويض الأثاث . راقبتهم قليلاً وهم يتسلقون الأرفف والحيطان كالجراد ، ثم تركت لهم المكان وخرجت . غمامة بلون الأسى الأسود ، تحملني فوق ظهرها ، تلفني بدخانها المازوتي ، وتطوف بي طرقات المدينة . لا أكاد أصدق أن ليندا خرجت هذا الخروج العاصف من حياتي . وإن كل وشيجة كانت تربطني بها تمزقت بهذه السرعة الفجائية . كأن خنجراً لامرئياً انبثق من مكان ما في الفضاء ومزقها . كيف يمكن لهذه العلاقة التي حسبتها محوراً لما مضى من حياتي ، وما سوف يأتي ، أن تلقى مصيراً فاجعاً يحيلها في لحظة خاطفة إلى دخان وغبار . كان حدسي وفي أكثر اللحظات امتلاء بالبهجة والأمان ، ينذرني بأن هذا الفرح لن يدوم . ولكنني لم أكن أتخيل أن تأتي النهاية بهذا الشكل الموجع ، المؤلم كالنزيف في الرأس . وأن يكون أنا الذي يصنع هذه الكارثة بحماقته وجهله . أضرب في الشوارع تائهاً ، هارباً من إنسان لا أعرف كيف أهرب منه . لأنه يقيم في دمي ، ويحتل جانباً مظلماً من نفسي . هذا الكائن المجبول من طين السنين العجاف ، ورماد أزمنة الجفاف والقحط ، وبقايا الجحيم المتفجر في حقول الألغام ، وبكاء النساء النائحات في مآتم الموت الفجائي . هذا الذي يستيقظ بغتة وسط أدغال الروح ، ويفتك بالإنسان الآخر المصنوع من كتب الأدب وأساطير الليل ، وقصائد الشعراء ، وأشجان المغنين ، وطباشير المدارس ، وتذاكر السفر إلى المدن البعيدة . والذي يبقى دائماً ضعيفاً ، وهشاً ، هشاشة المادة الورقية والجيرية التي صنع منها . لا يقوى على الوقوف مدافعاً عن نفسه في مواجهة الرجل البدائي الذي يطل برأسه ليدمر كل علاقة مبهجة يراها تنمو كشجرة ورد في بيداء العمر . يتسلل ملتحفاً بالظلام ليطعن بخناجره المصنوعة من الصوان ، البشر الذين أحبهم ، ويشعل الحرائق في البيوت التي منحتني الأمان . مخاتل ، مخادع ، يباغتني دائماً دون إنذار ، فلا أنتبه لأفعاله وتصرفاته ، إلا عندما تداهمني النتائج مثل حوادث السير القاتلة . وهذا بوق سيارة ينطلق خلفي لأنني أعبر الطريق شارد الذهن . أستحضر صورة ليندا فأرى ملامحها المذعورة وهي تهرب مني ، تندمج مع ملامح آن بولين وهم يضعون رأسها تحت المقصلة . تنبجس المشاهد في رأسي

كالنزيف ، وأرى ليندا مرة أخرى في صورة أوفيليا وهي تطفو فوق البحيرة ، تغمر جسمها الأعشاب والزهور الميتة . وأراها في صورة ديدمونة ، وهي ترتمي مخنوقة فوق سرير حبها . أذكرها فتأتي ساحبة معها صورة دونالد ، متعباً ومريضاً . تمتزج صورته بصورة أجاممنون وهو يعود منتصراً من حروبه في بحر إيجا ، يفتح ذراعيه لاحتضان زوجته ، فيداهمه خنجر العشيق في ظهره . وأرى أن الرجل الآخر الذي يعيش بداخلي هو الذي دفع برأس آن بولين إلى المقصلة وهو الذي رمى بأوفيليا إلى بحيرة الأزهار الميتة وهو الذي ساق ديدمونة إلى حتفها وهو الذي أغمد الخنجر في ظهر الزوج المخدوع . إنه يسير الآن في الشوارع حراً ، طليقاً ، لا أحد يدري بجرائمه ، أو يصدر أمراً بالقبض عليه . إن علم الجينات ليس كله عبثاً . وقاطع الطريق الذي هجر الصحراء ، جاء اليوم يحتمي بهذه المدينة التي لا تعرف شيئاً عن تاريخه الملوث بالدماء . لقد رأيته منذ لحظات يريد أن يخنق ليندا . لم تكفه المهانة التي ألحقها بها قبل ذلك ، فأراد أن يكمل المهمة بقتلها . رأيت والدي يقف غاضباً ، ويعلق حبلاً في سقف الغرفة . ينصب مشنقة لي . لهذا الجد القاتل الذي يلبسني . رأيته يضع وثاقاً في يدي ويعقد الأنشوطة حول عنقي ، ووالده الفقيه يقرأ التسابيح والأوراد ويصدر الفتاوي بأن ينال القاتل جزاءه العادل . أحسست بالإختناق . جلست منهاراً فوق مقعد صادفني في الطريق . أحاول أن أفك القيد عن يدي وأحرر عنقي من الحبل الذي يطوقه . وقفت حافلة أمام المقعد . لم يهبط أحد . فتح السائق باب الركوب . رأيته ينظر نحوي ، ينتظرني ، بقيت جالساً في مكاني لا أتحرك . أطلق السائق شتيمة لم أسمعها وأقفل الباب . لابد أنه لم ير هذه الأنشوطة التي تخنقني ، وهذا القيد الذي في يدي . رأيت ليندا مقبلة نحوي . يداعب شعرها الأشقر نسيم الصباح . استغربت لوجودها في هذا المكان وهي التي ذهبت لبيت أسرتها . رأيتها تفتح ذراعيها لاحتضاني . لا شك أنها أدركت محنتي ، وعرفت صدق عواطفي ، فعادت مسرعة لإنقاذي . مزقت الحبال التي تربطني ، وانتشلت رأسي من مشنقة الأسلاف ، وركضت نحوها أعانقها . أمرغ وجهي في جدائل شعرها ، وأسكب

مهجتي قبلاً تغطي وجهها ، وأمسك بيديها المباركتين ألثمهما وألثم أطراف ثوبها ، وأنا أشكرها على عودتها وأتوسل إليها أن تبقى معي ولا تتركني لأنني بدونها إنسان منذور للهلاك . فهي وحدها من يستطيع إنقاذي من هؤلاء الأسلاف الذين يريدون قتلي . فتحت عيني فلم أجد أحداً ، سوى امرأة تعبر الطريق وتنظر باستغراب نحوي . كنت أعانق الهواء وأكلم نفسي . رحلت ليندا ولن تعود . خرجت من حياتي وتركتني أواجه وحدي حكم الموت الذي أصدره ضدي أسلافي . كيف أستطيع أن أطرد ليندا من ذاكرتي . يجب أن أكرهها . أن أحقد عليها حقداً ينزع الضعف من قلبي . سأكرر أنني أكرهك يا ليندا . مائة مرة . ألف مرة . فلعل هذا القول يريحني . ويحررني من هيمنة ظلها . إنني فعلاً أمقتها . وأردت صادقاً هذا الصباح أن أقتلها وأحرق عظامها حتى تصير رماداً . لماذا أبدو إذن ضعيفاً حين أذكرها . إنني أكرهك يا ليندا . بقيت أكرر هذه العبارة . أكررها أحياناً بصوت مرتفع ، وأقولها بحدة وغضب . غير عابئ بمن يلتفت هازئاً ضاحكاً . أكرهك ، أكرهك ، أكرهك . كان تمريناً فاشلاً ، فما أن رأيت وجهي مهشماً وممسوخاً في زجاج نوافذ الدكاكين ، حتى اكتشفت أنني أكره نفسي ، وأوجه القول إلى صورتي المعكوسة في المرايا . وصلت إلى الطرف الغربي . منطقة الحانات والمراقص . انتصف النهار وبدأ الناس يغادرون مكاتبهم ويزحمون الحانات لقضاء استراحة الغداء . دسست رأسي وسط زحام إحدى الحانات ، وكأنني أحتمي بالزحام من إنسان يطاردني . انقضت ساعة الغداء سريعاً ، وأمست الحانة خاوية . ذهبت إلى صندوق الاسطوانات لأضع صخباً يبدد هذا الصمت . لمحت وأنا أقرأ عناوين الأغاني أغنية «تلك الأيام» .

في سالف الأيام
كانت هناك حانة
وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو اثنين
كانت تلك هي الأيام يا صديقي . تلك كانت الأيام .

أدرت الأغنية مرة ثانية لكي أقنع نفسي بأن ما حدث لي يحدث مثله لأعداد

لا تحصى من البشر كل يوم ، دون أن يتقوض العالم أو ينهار سقف الكون .

عندما عدت ليلاً إلى البيت وأشعلت الضوء ، أدهشني أن أرى البيت وقد عاد إلى عناصره الأولى من أسمنت وحجارة وطلاء . عارياً من ذلك الكساء الذي يمنحه طابعاً إنسانياً . اختفى الأثاث كله ، ولم تبق سوى الجدران البيضاء ، مليئة بالثقوب السوداء التي تركتها المسامير المخلوعة . تلاشى في يوم واحد كل أثر للبشر الذين أقاموا وأحبوا وتخاصموا وفرحوا وغضبوا في هذا المكان . لا شيء سوى الأتربة ، وقشور الطلاء فوق الأرض ، وعنكبوت كبير يزحف ببطء فوق السقف ، وقطرات ماء ترشح من إحدى الحنفيات ، تخترق الصمت ، وتصنع في أذني دوياً يشبه طلقات الرصاص . صعدت هارباً إلى غرفتي . تمنيت لو استطعت البكاء متمثلاً قصائد الشعراء الجاهليين عند وقوفهم على الأطلال ، لكي أخفف من غلواء هذا الحزن . ولكن الدموع لا تواتيني . سأخرج إلى الشارع وأبحث عن ملهى ليلي أحتمي به من مشاعري ، وأجد بين مضيفاته من تعينني على عبور ما تبقى من هذا الليل . أحسست بجسمي منهكاً ، فتركت فكرة الخروج وأسلمت نفسي لنوم مليء بالكوابيس . جثث تطفو فوق الماء ، وأعناق تتدلى من المشانق ، وقاطع طريق يطعن شيخاً ذاهباً لصلاة الفجر . عندما استيقظت كان مندوب الوكالة يواصل ثرثراته مع أناس جدد جاء بهم يعاينون البيت . اعترض طريقي وأنا أهم بالخروج . سمعته ينطق اسمي محرفاً ويسميني السيد «الآلام» بدل «الإمام» فرأيت أنه تحريف يليق بي .

- يهمني أن أعرف الآن ، إن كنت سترحل أم ستبقى .

أردت أن أشاكسه قليلاً ، فقلت له بأنني لم أتخذ قراراً بعد .

- لابد أنك تعرف بأن رحيلك عن البيت يجعل بيعه أكثر يسراً ، وثمنه أكثر ارتفاعاً .

- ولكن القانون يحمي حقي في البقاء .

- إنه يضمن لك أن تبقى مقيماً في هذا البيت إلى أن تموت . أريد فقط أن أعرف ما أقوله لهؤلاء الزبائن .

أعجبتني اللهجة الحانقة التي تكلم بها، ضاغطاً على عبارة «إلى أن تموت» وكأن ذلك سيحدث غداً. وجدت فيما قاله استفزازاً يتفق مع ما أبديته من عناد، فقررت أن أهادنه.

- إذن يمكنك أن تخبر زبائنك بأنني سأترك البيت قبل نهاية الأسبوع.

لم يستطع أن يخفي دهشته برغم أن مهنته لا تسمح عادة بإبداء الدهشة في مثل هذه المواقف. فقد تضيع الصفقة أو يهرب الزبون الغشيم الذي لا يعرف من مضاربات السوق شيئاً إذا ما صار يستغرب لكل ضعف أو عبط. عاد بسرعة لإخفاء دهشته تحت غطاء ابتسامة عريضة باردة، كأن هذا ما يجب أن يفعله كل مؤجر عاقل. كنت أعلم أن العام الدراسي الذي أذن بالانتهاء، سوف يتيح لي سكناً ببيوت الطلبة. ومن بين المساكن المعروضة للكراء، اخترت مكاناً يحاذي المكتبة. غرفة كبيرة بالطابق الأرضي، خالية من الأثاث، تؤجر عادة للمتزوجين لأنها تحتوي على منافع خاصة بها. أدهشني أنهم وافقوا بسرعة على تأجيرها دون اعتبار لحالتي الاجتماعية. كانت غرفة مستطيلة، لها نافذة تطل على زقاق معتم، إلا أنها أكثر اتساعاً من غرفتي الأولى، برغم أن المطبخ صار الآن جزءاً منها. وفي يوم واحد نقلت إليها كتبي وأمتعتي. واشتريت طاولة لاستعمالها مكتباً ومائدة للطعام. كنت سعيداً باختصار هذه المسافة التي تفصل بين البيت والمكتبة، والتي كانت تأكل وقتاً ثميناً صرت الآن بحاجة إليه أكثر من أي زمن مضى. سأكرس كل ما أستطيع من جهد لإنجاز رسالتي. مستفيداً من عطلة الصيف التي تتيح للأستاذ وقتاً أكثر لمتابعتي. سأنسى الإجازة وسأستخدم شهرزاد لمحاربة الفراغ الذي تركته لي ليندا. سأقضي يومي كله بصحبتها، أراقبها وهي تواجه ملكاً مجنوناً يريد قتلها كل ليلة. لن أمنحها وقتي بدافع الدراسة وحدها، أو بدافع البحث عن تعويض للعلاقات الفاشلة، وإنما أيضاً بدافع أن أتعلم منها شيئاً عن كيفية ترويض القتلة. فأنا أواجه مع الشخص الآخر، الراقد أبداً في أحراش الروح همّاً يماثل همّها. سأعرف منها كيف استطاعت بقوة الخيال والحكايات التي تتحدث عن العشق والجن والسحرة والعنف والجنس وعجائب

الدنيا ، أن تنقذ عنقها وتضمن النجاة لبنات جنسها اللاتي يهددهن الفناء ، وتعيد قاتلاً يزهو بسفك دماء الصبايا ، بشراً مرة أخرى . ما أريده الآن هو عزلة أنجز بها عملي . حتى لو كان الهدف ورقة أضمن بها رزقي . فإن هذه الورقة تحتاج إلى وقت وجهد . أدهشني ما استطعت تحقيقه خلال أسبوع واحد من تفرغي للدراسة . كنت خلاله أقضي نهاري كله بالمكتبة ، وأبحث عندما تحين الساعة التاسعة ، وينتهي وقت المكتبة ، عن ساعة للترويح ، فأجدها تحولت ، وبرغم مساءات الصيف المبهجة ، إلى ساعة كدر وضيق . فقد أفرغت العطلة الدراسية ، مدينة أدنبره من كل الأصدقاء ، بما فيهم عدنان الذي سافر دون أن يخبرني . لم أعد ألتقي بأحد في حانة العناقيد التي أطفأت موقدها واستبدلت زبائنها بسواح يأتي بهم الصيف . تهاجمني في لحظات الوحدة ، ذكرياتي مع ليندا . تأتي مغلفة بسحابة عطر شرقي ، فأتمنى لو أقدر على الذهاب إليها في مخبئها الريفي . قررت ذات صباح أن أذهب إليها . كان يوم أحد ، وكنت أعاني إحساساً ثقيلاً بالفراغ . وقفت في المحطة أنتظر الحافلة التي تأخر وصولها . استنفد الانتظار قدرتي على المغامرة ، فصرت أراجع هذا القرار . إنها بالتأكيد لن ترتمي في أحضاني ، بل لعلها تقفل الباب دوني . فكرت في إنسان ما أعرفه ، أستطيع أن أذهب إليه ، وأجد في صحبته عوناً على مقاومة هذا السأم غير ليندا ، فلم أهتد إلى أحد . وفجأة خطر على ذهني دونالد . ها هو إنسان أعرفه وأعرف أن لا مكان آخر لديه يسافر إليه . ماذا لو ذهبت للسؤال عنه في الفنادق المحاذية للميناء . لم أناقش الفكرة أو أبحث عن تبرير لهذه الزيارة . لم أتساءل عما سيكون شعوره وهو يلتقي برجل تطفل على حياته حتى أفسدها . سرت باتجاه الميناء ، يدفعني الفضول لأن أعرف ما حدث لهذا الإنسان الذي تشابهت الآن حظوظه وحظوظي ، بعد أن صرت مثله مطروداً من تلك البساتين المعلقة في سماء الوهم والسراب . لم أجد عناء في العثور على فندقه بين الفنادق القليلة التي هناك . كان قد خرج إلى حانة قريبة دلني العامل على مكانها . لم أجده بين الزبائن الذين خرجوا بشرابهم وكراسيهم إلى الرصيف . ولم يكن موجوداً داخل الحانة . أخذت قدحاً من البيرة ووقفت

أسند ذراعي على البار أنتظر أن يأتي . كنت أحس بالحرج لوجودي بهندام أكثر ترتيباً وأناقة من هندام هؤلاء البحارة وصيادي السمك . لم أنتبه إلى الرجل ذي اللحية الحمراء الذي يجمع الكؤوس الفارغة ويذهب بها إلى حوض خلف البار ، إلا عندما وصل قريباً مني . رآني أتفرس في وجهه ، فترك جمع الكؤوس . ووضع يده فوق كتفي .

- إنه أنت أيها البدوي .

- مرحباً دونالد . كدت لا أعرفك وأنت تختفي خلف هذه اللحية الحمراء .

- أنت أيضاً تغيرت . تعال نجلس خارج الحانة لأعرف ما هو هذا الشيء الذي تغير فيك .

سحبنا مقعدين ، وجلسنا في مواجهة الشمس . برغم رثاثة هندامه ، فقد بدا وجهه من خلف اللحية متورداً يوحي بالصحة والعافية النفسية .

- وأخيراً ذهبت إلى دكان الحلاق . إذن فأنت تهتم بنفسك هذه الأيام . لم تقل لي . ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جئت للسؤال عنك .

- كما ترى . تحررت من كل القيود . لا بيت ولا زوجة ولا وظيفة . وتحررت من الانفعالات الكبيرة التي تجلب أمراض الروح والبدن . لا عشق ولا كراهية ولا خصومات . أعيش صحبة هؤلاء البحارة الذين لم تفسدهم الكتب ، وأخرج معهم أحياناً إلى البحر ، وأجد نفسي قريباً من نفسي مرة أخرى .

- لعلك تعلم أن ليندا عادت لتعيش مع أهلها بعد أن عرضت البيت للبيع .

-جاءت إلى هنا تبلغني بذلك وتقول إن مبلغاً كبيراً سوف يبقى بعد سداد القرض . سألتها أن تحتفظ به فأنا لا أحتاج إلى مال كثير . لقد أعفاني صاحب هذه الحانة من دفع ثمن الشراب مقابل أن أقوم بجمع وتنظيف الأكواب الفارغة .

لم أكن أتوقع أن يستقبلني بكل هذا الود . بدا واضحاً أن «البوذية» قد حققت كامل انتصارها في هذا الرجل ، بعد أن تحرر من ارتباطاته الوظيفية والعائلية . أردت أن أكون مجاملاً فقلت :

– حان الوقت فيما أظن لأن تستأنف حياتك مع ليندا . إنها لا تزال تحبك . وما كانت علاقتي بها إلا حدثاً طارئاً كما قلت أنت ذات مرة . وقد جئت اليوم لكي أعتذر وأطلب الصفح .

– لم تكن تلك الحياة تناسبني . الزوج ورجل البيت والوظيفة وربطة العنق وساعات الدوام ومتابعة المسلسل اليومي عن «شارع التتويج» . كل تلك الأشياء كانت غريبة عني . لم أكن أحتاج إلا إلى دفعة صغيرة لكي أعود إلى طبيعتي . لست نادماً على شيء . هذا ما كنت سأفعله . طال الوقت أم قصر . جئت أنت أو لم تأت . فلا حاجة بك للاعتذار .

– أصبحت الآن والداً لطفل سيأتي بعد أيام . ومن حقه عليك أن تعيد التفكير .

– أنت تعلم بمثل ما أعلم أن هذا الطفل ليس طفلي . مضت سنة وبضعة أشهر قبل الحمل ، لم أكن أعاشرها معاشرة الأزواج ، لأنني ببساطة كنت عاجزاً عن فعل ذلك الشيء . كنت طبيعياً قبل الزواج . ولكن ما أن تحولت العلاقة إلى زواج وطقوس وواجبات ، حتى أحسست بالضعف الذي تحول فيما بعد إلى عجز كامل . ولهذا لم أعارض أن يكون لليندا علاقة جانبية ترضيها وتتيح لها أن تبقى قريبة مني رغم العجز الذي أعانيه . كنت أحبها ولا أطيق فراقها . وجئت أنت لتقدم خدمة لي ولها . كان ترتيباً يناسب الجميع . ولكنني كنت أعرف أن هذا الضعف لم يأت إلا لأنني أمثل دوراً ليس دوري وأرتدي ثياباً ليست ثيابي . حاولت طويلاً أن أرغم نفسي على القبول بتلك الارتباطات البيتية والوظيفية التي لم أخلق لها ، إلى أن جاءت الانهيارات العصبية تطالبني بلغتها القوية أن أحرر روحي من تلك القيود . وما أن فعلت ذلك ، حتى تعافيت من مرضي واستعدت قدرتي على ممارسة الجنس . ويمكنك أن تسأل عاملة البار . فهي المرأة التي أصاحبها وأنام كل ليلة سبت معها .

بقدر ما أحسست بالارتياح لأنني تحررت من إثم هذا الرجل الذي كنت أعتبر نفسي مسؤولاً عن تدمير حياته . بقدر ما أزعجني أن هناك سراً من أسرار

هذه اللعبة أخفياه عني . لم يكن اللعب نظيفاً إذن . ولم تكن تلك العلاقة مبرأة من شبهة الاستغلال . هل تراها كانت طوال الوقت تستخدمني كوسيلة للاحتفاظ بزوجها العاجز؟ هل كنت في حياتها مجرد برشامة الدواء التي تنقذ بها حياة زوجية يبقى فيها دونالد الزوج ، وأنا آلة الإخصاب والجنس؟ هل تراها أرادت طفلاً ، فاستعملتني مثل جواد الاستيلاد ، حتى تحقق لها ما تريد؟ هل كان حبها كذباً توهمته حباً؟ لست واثقاً من شيء . فكل شيء يأخذ الآن طابعاً عبثياً . ومراجعة الأحداث على ضوء ما قاله دونالد لا يزيدها إلا تعقيداً . أردت بعد أن عدت إلى داري ، أن أصرف ذهني عن التفكير في ليندا ودونالد وعلاقات الحب والعبث والخديعة ، وأعتبر أن كل ما مضى صفحة طويت وانتهى زمانها ، لأن هناك أعمالاً أخرى أكثر إلحاحاً وأهمية تنتظرني . لكنني لم أستطع ، صرت أعرف الآن على وجه اليقين أن هذا الطفل الذي أنكرت ليندا نسبته لي ، إنما هو طفلي . بذرة أنا صاحبها وزارعها . فكرت أن أذهب إليها مسلحاً بهذه المعارف الجديدة ، وأسألها لماذا خدعتني ، وأخفت عني حقيقة الدوافع وراء صعودها إلى غرفتي . تصورت حديثاً يدور بيني وبينها ، تشرح فيه موقفها ، فأجدها مبرأة من كل التهم . إنها لم تجزم بأبوتي للطفل لأنها لم تشأ أن تشركني في مسؤولية تعرف أنني لا أقدر ، نتيجة اغترابي وإقامتي المؤقتة في هذه البلاد ، على حملها . أما عجز دونالد ، فكيف أطالبها أن تخبرني به؟ إنها ليست شريرة إلى حد أن تؤذي الرجل وتفضح سره . وهي لم تبادر بالإساءة إلى علاقتنا ، وإنما أنا الذي فعلت ذلك . كانت صادقة في حبها لي . راغبة في أن تستمر علاقتنا بعد أن تحررت من ارتباطها الزوجي . إلى أن رأتني أختار عليها امرأة أخرى . فحملت كرامتها الجريحة وخرجت من حياتي .

أدرك وأنا أتمدد في ظلام الغرفة ، ألتمس لها الأعذار وألوم نفسي ، أنني ما زلت ضعيفاً أمامها ، لا أقوى على تبرئة نفسي مما ارتكبته في حقها . إن ما تصورته من كلام على لسانها لا يقدم تفسيراً كاملاً لما حدث ، ولكنني لا أجد ميلاً لإدانتها . ربما لأنني لا أطيق أن أتصور بأن المرأة الوحيدة التي أحبتني ، من

بين كل من أحببت من نساء، هي أيضاً لم تكن تحبني حباً صافياً. وكأن بي شيئاً ناقصاً في تكويني يجعلني إنساناً منذوراً لصحاري القلب والعاطفة. أريد أن أطرد صورتها من ذهني، فلا أقدر. والسلام الذي كنت أنشده لأكتب بحثي، بددته هذه الزيارة التي لا معنى لها، إلى حي البحارة. صممت على أن أتدبر تذكرة سفر وأنتزع لنفسي إجازة أقضيها بعيداً عن هذه المدينة. ولكن ساندرا اعترضت طريقي. كانت تستعير كتاباً، عندما وصلت إلى بهو المكتبة. رأيتها ولم ترني. وقفت دقيقة أفكر فيما إذا كنت حقاً أريد أن أجدد صلتي بها. إنني غالباً ما أجد نفسي مكتفياً بكتبي أثناء النهار ولا أحس بحاجة إلى مصاحبة أحد إلاعندما تأتي الساعة التاسعة وأخرج إلى الشارع باحثاً عن صاحب أبادله الحديث فلا أجده. ولكي أضمن لنفسي إنساناً أواعده ليلاً ذهبت إليها. ودون أن أبادرها بالكلام، تناولت الكتاب الذي وضعته أمامها وهي بانتظار الانتهاء من إجراءات الإعارة. كان الكتاب رواية جون فاولز «جامع الفراشات». قلت لها وهي تنظر باندهاش إلى اليد التي امتدت تسحب الكتاب:

- ما الذي يعجبك في قصة تتحدث عن رجل غريب الأطوار يختطف امرأة ويسجنها في بيته؟

تفرستني بنظرة استغراب قبل أن ترد ضاحكة:

- إذن فهو أنت. إنك لا تحتاج إلى قراءة هذه القصص. لأن هذا ما تفعلونه في الشرق مع نسائكم كل يوم. ظننتك تقضي عطلة الصيف في بلادك.

- وهل لا بد أن أتعذب هنا بشتائكم اللعين، ثم أذهب إلى بلادي لأتعذب بصيف أكثر لعنة؟ أليس من حقي بعد هذا الشتاء المرعب أن أحصل على صيف أقل رعباً؟ وأنت ما الذي أبقاك؟

- وماذا أفعل إذا كانت أدنبره هي مدينتي؟

- أعرف أنك تسكنين مثل الأغراب، بيوت الطلبة.

- لم أعد طفلة أحتاج إلى الرعاية العائلية.

قالت عندما انتقلنا إلى مقصف المكتبة:

- حاولت الاتصال بك ولكن هاتفك لا يجيب .

- سبق أن أخبرتك بطبيعتي البدوية التي ترفض الإقامة في مكان واحد .

- وأين نصبت خيمتك هذه المرة؟

- أردت أن أكون قريباً من المكتبة فاخترت الإقامة ببيت الطلبة المحاذي لها .

- إنني أيضاً أسكن هناك .

- وكيف لم ألتق بك إلا الآن؟

- لأنني سافرت . وجدت كل الناس الذين أعرفهم يتركون المدينة فذهبت إلى أقرب وكالة سفر وحجزت مكاناً في رحلة جماعية إلى جزيرة يونانية ، حيث أحرقت كل مدخراتي ورجعت .

- إذن فأنت لا تمانعين إذا وجدت رجلاً شهماً يدعوك إلى كأس هذا المساء .

- شكراً للسماء ، لأن عصر الفرسان لم ينته من الدنيا .

- وهل سألت عني بدافع الشوق أم بدافع آخر؟

- بدافع الشوق لعطيل . لأنني فكرت أن نضيف مقاطع أخرى إلى ذلك المشهد ونشترك به في مهرجان أدنبره الذي يقام نهاية الصيف .

- اشكري الله الذي أنجاك من الموت خنقاً في المرة الماضية ، فلا حاجة بك للمجازفة مرة أخرى .

- لقد كان مشهداً ناجحاً .

- ليتني أستطيع ، ولكنني لا أملك وقتاً لذلك .

اتفقنا على لقاء في المساء . انتظرتها في غرفتي ، وذهبنا معاً إلى حانة العناقيد . أبلغتني أن هذه الغرفة كانت مسكناً لرجل عجوز من العاملين بحراسة المكتبة . فاجأه الأجل وهو يقيم بمفرده فلم ينتبه أحد إلى موته إلا بعد أربعة أيام ، وأن رائحة الموت ظلت عالقة بها لأيام بعد ذلك . فكان كل من يستأجرها يهرب منها . حتى بعد أن زالت الرائحة وجاء من يسكنها لم يمكث بها إلا مدة قصيرة وتخلى عنها لأنه كان يرى شبحاً يظهر أثناء الليل .

- هذا يشرح السهولة التي حصلت بها على هذه الغرفة . ورغم أنني لم

أتشرف حتى الآن بمقابلة هذا الشبح ، فإنه لا شك سيزورني ابتداءً من هذه الليلة . سامحك الله . أما كان لك أن تحتفظي بهذه المعلومات لكي أهنأ في نومي؟

– ظننت أن رجلاً يقيم في الخرافة مثلك ، يحب هذه الأشياء .

– إنني لا أقيم في الخرافة وإن كنت أحتفي بالخيال وأحب معاشرة أهله ، فهم أكثر لطفاً من البشر الحقيقيين .

– أنت الذي أعطيتني الانطباع بأن بيتك الحقيقي ينتمي إلى عوالم وعصور شهر زاد .

– الاحتفال بالخيال ليس انتماءً لعصر آخر أو عالم آخر . إنه انتماء لعالمنا ، وما الخيال إلا جزء من وجودنا . ولعله شاعركم وليم بليك ، الذي يقول ، إننا نجد في الخيال حياة حقيقية ، أكثر واقعية ، مما يسميه الناس العالم الحقيقي . فما وجه الغرابة في ذلك؟

– هناك دائماً الصورة التي نريد أن يعرفها الناس عنا ، وهناك الأصل الذي نحتفظ به لأنفسنا . إنك تبالغ أحياناً في وضع الطلاء على الصورة . هذا كل مأخذي عليك .

– ولماذا لا تقولين ، إن هناك الصورة التي يحب الناس رؤيتنا بها . والحكم من خلالها علينا ، كما تفعلين الآن . وهناك الأصل الذي يتوهون عنه . هناك الإنسان الذي رسموه لنا في أذهانهم منذ أول انطباع ، وهناك الإنسان الحقيقي الذي يرفضون التعرف عليه . إنني بمثل ما أريد أن أعرف ساندرا الحقيقية ، فأنا أدعوك صادقاً إلى معرفتي معرفة حقيقية .

– إن كنت واثقاً من معرفتك بنفسك ، فدعني أصارحك بأنني لا أعرف ساندرا الحقيقية . وكثيراً ما أقوم بأفعال أفاجأ بها ، وكأنها صادرة عن إنسان أجهل كل شيء عنه .

– ها أنت تعترفين بأن النفس البشرية أكثر تعقيداً من وضعها في إطار كما نفعل باللوحات والصور الشمسية .

- اعتبرته فألاً طيباً عندما رأيتك تختار مظهراً بسيطاً لغرفتك الجديدة .

- إنها غرفة عارية ، لا تنتمي إلى شيء ولا توحي بأن هناك إنساناً يسكنها . لا شخصية لها ولا لون ولا نكهة . غرفة جديرة بأن تسكنها الأشباح .

- هل صدقت بأن هناك شبحاً في الغرفة .

- ولماذا لا أصدق؟ إنني لا أنكر وجود الأشباح .

- أما أنا فأنكره ، طالما أنني لم أرها .

- تعالي معي هذه الليلة إلى غرفتي وسترينها بإذن الله .

اقترحت عليها أن ننسى حديث الأشباح ، وأن ننتقل إلى تناول العشاء بمطعم صغير افتتح حديثاً لتقديم الأطعمة المصرية . مطعم نظيف ورخيص ويقدم ألوانه الشعبية مصحوبة بأطباق من الدعابة المصرية . حذرتها بأنها ستجد طعاماً يختلف كثيراً عن طعام الاسكتلنديين . وافقت بسرعة على اقتراحي قائلة بأنها ترحب بأي طعام غير الخبز والجبن ، فهي منذ أن ذهبت في هذه الرحلة التي أنهكت مواردها لم تأكل طعاماً ساخناً . وعندما قلت لها بأنها تستطيع أن تجد طعاماً ساخناً في بيت أهلها ، هزت كتفيها باستهتار قائلة بأنها قطعت علاقتها بهم منذ أكثر من عامين . أرادوا معاملتها مثل طفلة قاصرة ، فسعت للحصول على منحة دراسية وتركت لهم البيت . ولكن الطعام الفقير لم ينقص شيئاً من بهجة هذه الملامح وتورد هذه الوجه ، الذي لم تزده شمس اليونان إلا توهجاً واشتعالاً . تكدس الشعر الأرجواني حول الوجه والعنق ، وتناثرت خصلاته بلا ترتيب ، توحي بالفوضى الجميلة ، والتمرد على القوالب الجاهزة لتسريحات الشعر . تمسك كأس النبيذ بالتماعاته الحمراء قريباً من فمها وتتحول إلى كائن صغير مصنوع من ألوان الشفق . فأشتهي ، وقد غزت رأسي نشوة الشراب ، أن تمتد صحبتنا هذا المساء حتى تنتهي إلى معانقة فوق سرير الليل والفرح . ولكن كيف أواجه هذه الحدود التي رسمتها منذ البداية لعلاقتنا ، وهذه المساحة البيضاء ، التي أصرت على أن تبقي بلا غرس ولا عمران ، تفصل بيننا ، إنها هي التي جاءت هذه المرة تبحث عني . ولكن كشريك في العمل وليس كصاحب يهمها حضوره أو غيابه .

إنني لا أعرف شيئاً عن ارتباطاتها العاطفية أكثر مما عرفته في الفرقة ، عندما كانوا يتحدثون عن علاقة جمعتها ذات مرة ، برجل يكبرها كثيراً في السن ، ويعمل أستاذاً بقسم اللغة الفرنسية .

خرجنا من المطعم ليستقبلنا ليل المدينة بأنسامه الرطبة ، عابقاً برائحة الأشجار ، ومفعماً بصوت الموسيقى القادمة من سفح الهضبة ، حيث تنصب شركات البيرة الألمانية سرادقات الدعاية لإنتاجها . قلت لها ، ونحن نقف بجوار السلم الحجري الذي يهبط الي الحديقة والسرادقات :

– أنت تتحملين وزر ما ينتابني من فزع وأنا أعود إلى غرفتي ، إنني أكره الأشباح ، ولا أطيق أن أبقي معها وحيداً للحظة واحدة . ولا شك أن ضميرك لن يرضي بأن تتركيني أقضي الليل بمفردي في الغرفة .

– ولماذا تذهب إلى غرفتك وقد جاء الصيف يمنحك فرصة أن تبقى طوال الليل في هذه الحدائق ترقص وتشرب وتسمع الغناء .

كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما هبطنا الدرج ودخلنا أكبر هذه السرادقات . كان أعضاء الفرقة الموسيقية يرتدون لباس القبائل الجرمانية القديمة ، يغنون ويعزفون ألحانهم الشعبية وقد انتظم الناس في حلقات الرقص . شبكت ساندرا ذراعها في ذراعي ودفعتني للانضمام معها إلى إحدى الحلقات . انتظرت أن يتعب هؤلاء الناس ويتوقفوا عن الرقص ، ولكن الحلقة تواصل طوافها حول نفسها ، يخرج أناس ويدخل آخرون ، وساندرا بجواري ، تضرب الهواء بساقها أعلى من كل السيقان ، وترمي بشعرها في نزق إلى الوراء وإلى الأمام . تضحك ، وتطلق الصيحات بأعلى مما يفعل الآخرون . انتزعتها انتزاعاً من بين الراقصين وسألتها أن نأخذ شراباً ونمضي . وبشهية واستعجال أكملت القدح . وسألتني أن أعود معها إلى الرقص .

– هل سنبقى هنا إلى الصباح؟

– لا تكن كسولاً ، فالليل ما زال في أوله .

لم يكن الليل في أوله . ورأسي لم يعد يطيق هذا الضجيج . قلت لها حانقاً :

- يمكنك البقاء ، أما أنا فسأعود إلى البيت .
- إذن نلتقي غداً .

ببساطة قالت جملتها . تركتني واقفاً ، أنظر إليها ساهماً ، وقدح البيرة في يدي فارغ ، وركضت تنضم إلى حلقة الرقص والصراخ . رجعت إلى غرفتي ، وما أن فتحت الباب حتى رأيت شبح الرجل العجوز واقفاً وسط ظلام الغرفة ينتظرني ، وحوله هالة من الضوء مثل الهالة التي تحيط بالقديسين في التصاوير الدينية . وقفت أنظر إليه ذاهلاً ، ثم أطلقت عليه السلام ، عندما أدركت أنه لم يكن إلا ظلاً صنعه لي مصباح السقيفة . زايلتني الرغبة في النوم . كنت موعوداً هذه الليلة بامرأة لذيذة تشبه تمثالاً من الحلوى . فكيف أباحت لي نفسي أن أتركها بصحبة القبائل الجرمانية ، وأرجع وحيداً ، ومهزوماً ، إلى غرفتي . أردت بغشامة أهل الصحراء ، أن أحرجها ، وأستفزها ، عندما أصدرت قراري بمغادرة المكان . لكي أراها تهرول خلفي ، ناسياً أنها تربت على تقاليد أخرى ، وتغذت بشمس وهواء يختلفان عن شمسي وهوائي . ما الضرر الذي كان سيلحقني لو أنني تأخرت قليلاً للسهر معها ، ثم عدت بها ، لأستبدل بحضورها ، حضور هذا الشبح الذي أحس بأنفاسه تملأ فضاء الغرفة؟ حاولت وأنا أتمدد مؤرقاً أن أتبين عواطفي نحوها . هل تراني أسعى إليها باعتبارها قوتاً جنسياً أم أن عاطفة أرقى تشدني إليها؟ كنت سعيداً وأنا أراها تنبثق فجأة أمامي وسط متاهة الصيف ، ومناخ الغبن الذي أحاط بي ، عقب زيارتي إلى دونالد . وسألتها دون حرج أن تكون امرأتي هذه الليلة ، فتركتني معلقاً بين الامتناع والاستجابة . فهل هي مجرد امرأة أخرى يمكن أن تعينني على مواجهة الأيام الفارغة؟ ولكنني أخدع نفسي عندما أتكلم عن عواطفي بلغة المترفين الذين تعودوا منذ بداية وعيهم ، الجلوس إلى موائد الحب يتخيرون ويتساءلون عما يعجبهم أو لا يعجبهم . كيف لا أسمي علاقة تربطني بامرأة مثل ساندرا أو أية امرأة في بهائها ، حباً يستقطب كل المشاعر ، وأنا الذي تعشقت في صباي صور نساء على أغلفة المجلات وعاشرتهن معاشرة النساء الحقيقيات . ليكن غيثاً ما جادت به السماء بعد ذلك ،

ولكنه لم يكن ليستطيع مهما هطل ، أن يطفىء عطش البيداء التي أحملها معي . لأنه غيث يأتي بعد موعده ويهطل فوق أرض قتل العطش أشجارها حتى صارت أخشاباً ، فما عاد بإمكانه أن يعيدها إلى الحياة . إنني أحب الواحدة منهن وكأنني أكرهها ، وأحقد عليها وأحملها وحدها مسؤولية الأرض المحروقة في صدري ، وما عانيته من إحساسات العار والخجل بعد كل عملية استمناء ، أو مضاجعة وهمية لنساء فوق الورق . ولا بد أن مشاعر النقمة على الزمن الهارب الذي سرق الأشجار من أرضي ، وزرع إحساساً فاجعاً بالخديعة في نفسي ، هذه المشاعر التي تشبه علقاً يأكل الروح ، هي التي أفسدت علاقتي مع ليندا ، وهي التي أرغمتني هذه الليلة ، علي أن أرفض صحبة ساندرا ، وأهرب عائداً إلى غرفة الأشباح .

أردت وأنا ألتقي بساندرا فيما بعد ، أن أكون منتبهاً إلى هذا العلق الذي أنبته ميراث الحرمان . سأضع فوقه ماءً وملحاً ، كما تقول الوصفات الشعبية ، لكي يبقى نائماً في مراقده فلا يتسلل لإفساد هذه العلاقة . لم أكرر عليها الدعوة لقضاء الليل في غرفتي ، ولم أشأ أن أفرض عليها شيئاً لا تريده . تركتها تشعر وكأنني أكثر الناس زهداً في معاشرتها . أذهب للسهر معها أينما ذهبت ، وأبقى معها حتى تأذن بالعودة ، فأذهب إلى غرفتي وتذهب إلى غرفتها . ولم تشأ ساندرا أن تنتقل بهذه العلاقة إلى أكثر من زمالة مسائية ، حتى ذهب في ظني ، أن في حياتها رجلاً غاب عنها خلال إجازة الصيف وأرادت أن تبقى مخلصة له . ثم عرفت في بداية الأسبوع الثالث من خروجنا معاً ، أنها التقت برجل لم تكن تعرفه من قبل ، ونامت في سريره حتى الصباح . كنت أجلس معها في مقصف المكتبة عندما رأيت رجلاً له ملامح الصينيين يتقدم منها ويعتذر بلهجة هامسة عن شيء لم أتبين ما هو . سألته ساندرا بحزم أن ينسى الموضوع . ثم أدارت وجهها عنه ، وكأنها لا تعرفه . لم أسمع مما قاله الرجل سوى إشارة إلى ليلة البارحة . لم أكن قد التقيت بها عشية الأمس أو أعرف ما حدث لها . انتظرتها قليلاً في حانة العناقيد حسب اتفاقنا ، وعندما تأخرت في المجيء ، ذهبت . رأتني صامتاً بعد أن قطع الرجل حديثنا ، فبادرت إلى توضيح ما حدث ، قائلة بأنها

عندما جاءت إلى الحانة بعد انصرافي ، التقت بهذا الفتى الصيني وتبادلت معه بعض الكلمات . انتهى وقت الحانة فذهبت معه إلى بيت يسكنه مع عدد من زملائه وقضت الليل بصحبته . وهو يعتذر الآن لأنه كان مضطراً لأن يغادر البيت وهي لا تزال نائمة . كانت تتحدث ببساطة وعفوية ، وكأنها تروي حكاية امرأة أخرى تلتقط الرجال من الحانات . ولا أدري إذا ما كنت خالياً حقاً من مشاعر الدهشة والغضب . أو أنني نجحت في تمرين نفسي على كبت هذه المشاعر . فقد استمعت إليها ببرود وحياد ، وواصلت حديثاً بدأته قبل أن يقاطعني الرجل ، حول جزء من بحثي سأعرضه اليوم على الأستاذ . وكأنه لا يهمني كثيراً أو قليلاً أن تنام مع عابر سبيل من بلاد الصين أو بلاد الصقالبة . لعلها طلبت منه نقوداً كما تفعل بائعات الهوى ، أو لعلها نامت مع كل رفاقه في البيت . عادت هي إلى الموضوع :

- إنه أول رجل صيني أعاشره في حياتي .

- سوف تحتاجين إلى عمر إضافي ، إذا أردت ممارسة الجنس مع كل الأجناس .

- لا تظن بي سوءاً . إنه حادث استثنائي . كانت مجرد لحظة رأيته فيها خجولاً مرتبكاً ، يضع عينيه في الكأس ، فأحببت وجهه الملون بالخجل . أراد أن يودعني وينصرف ، فأخبرته أنني قادمة معه . إنك لا يمكن أن تتصور الدهشة التي غمرت وجهه .

- يبدو أن لبعض الأجناس حظاً معك أكثر من أجناس أخرى . فلماذا هذه التفرقة العنصرية؟

- أرأيت كيف تظلمني . إنني أعاملك معاملة خاصة وليس بمثل ما عاملت رجلاً راقت لي غوايته فاتخذته رفيقاً لليلة واحدة ثم نسيته .

- عندما رأيت أنك زاهدة في حبي ، ظننت أن لك رجلاً تخبئينه في دولاب ملابسك ولا تخرجينه إلا آخر الليل ، تبادلينه الحب .

- ها قد صنعت لي قصة أكثر إثارة من «جامع الفراشات» . وما كنت أبغي

سوى أن تنضج علاقتي بك فوق نار هادئة لأنها تختلف عن علاقاتي الأخرى .

وعند نهاية النهار شكرت من كل قلبي الولد الصيني ، فقد تأججت النار الهادئة ، تضيء بألوان لهيبها الظلام في غرفتي . لم يحدث ذلك دون تمهيد ضروري . ففي ذات اليوم عدت للقائها مساء وتحدثنا عن الجنس . جاء الحديث بمناسبة الفصل الذي قدمته للأستاذ قبل لقائي بها ، سألتني عن محتواه فأخبرتها بأنه يتحدث عن الجنس الذي يعيد إنتاج نفسه من خلال النص ذاته . من خلال علاقاته الداخلية وبنيته القصصية . فألف ليلة وليلة تستعير في بنائها الفني ، أسلوب التناسل والإخصاب عندما تتوالد الحكايات الواحدة من رحم الأخرى . وهكذا يأتي الجنس الذي تتحدث عنه شهرزاد في حكاياتها وتشهره سلاحاً تدفع به عن نفسها التهديد اليومي بالقتل ، وفي ذلك تأكيد لجوهر الحياة الجنسية كسلاح ضد الموت والفناء . تعمدت أن أبالغ قليلاً ، معطياً لوناً جنسياً لهذا الفصل الذي لم يكن كله تمجيداً للجنس . وعندما وصلنا بعد هذا الحديث إلى مقر إقامتنا ، لم تتجه ساندرا في هذه المرة إلى الدرج الصاعد إلى غرفتها ، وإنما واصلت طريقها معي ، عبر السقيفة التي تقود إلى داري . في صمت ، ودون أن أسألها ، جاءت ساندرا تمنحني حبها هذه الليلة .

هكذا يجب أن تبدأ العلاقات بين المحبين . خالية من الأوهام والأقنعة . يباركها الصدق والوضوح ، وترعاها آلهة الفرحة والمتعة والجنس . علاقة تبدأ الآن . متحررة من كل الالتزامات والتعهدات التي يتورط فيها الرجال والنساء ثم يندمون عليها فيما بعد . إنني أشتهيها . بل أكثر من ذلك قررت أن أحبها ، حباً متمرداً على غريزة الامتلاك التي تطالب أن يكون الحبيب احتكاراً خالصاً لنا ، ومتحرراً من كل القيود التي تمنع شوق القلب لالتقاء بمغامرة جديدة . ها أنذا أحملها بين ذراعي متخطياً بها عتبة الباب كما يفعل العرسان ليلة الدخلة . تضحك مندهشة وتسألني لماذا أفعل ذلك ، فأقول لها بأنني أفعله خوفاً من أن يكون أحد الحساد قد وضع لها سحراً في عتبة الدار ، يجعلها تنكرني فور أن تضمنا الغرفة المغلقة . لكن ساندرا لا تنكرني . إنها تقودني إلى حدائق الدهشة ،

وتضيء ليلي ببروق النشوة والفرح . أعانقها وأفرغ هذه الشحنات من الغبطة قبلاً ، أغطي بها وجهها . ترفع رأسها من بين أحضاني ضاحكة :

- جئت هنا فقط لأرى الشبح الذي وعدتني به .

- لن يجد الشبح ليلة أفضل من هذه ليمارس طقوس انتحاره .

نشرب كأساً ، نخب محبتنا ، قبل أن تتركني لحظات قصيرة ، كي تهتم بزينتها ، وترتدي عطرها ولباس نومها ، وتحضر أشرطة الموسيقى التي تحب سماعها . تعود بعد أن أخذت حمامها ، مبللة الشعر والبدن ، تنضو اللباس عن الجسد الصغير الذي يسيل عذوبة وشهداً ، متورداً كأوراق وردة تستيقظ لحظة بزوغ الشمس وتنفض عن نفسها ندى الفجر . أرقبها باندهاش كأنني أرقب سراً من أسرار الكون يكشف عن نفسه ورقة ورقة . ويظهر الصدر بقبتيه الصغيرتين ، المضيئتين ، المباركتين . نهدان يشتعلان بنار الذهب ، ويمتلآن نزقاً وتمرداً وعنفاً ، أراهما فيرتعش جسدي ويتداعى ارتجافاً وحمى . ثم أرى باقة صغيرة من زهور الزعفران التي استعارت لون الشفق ، تظهر في ذلك المكان الذي به تبدأ دورة الحياة ، فلا أعجب أن يكون للزعفران أسراره ، التي تجعل فقهاء الشرق يدخلونه في تراكيب السحر ، ويجعلونه دواء للمرضى . وها هو عبير الجسد المعجون بمسك الليل ، يملأ المكان ويطرد أنفاس الأشباح التي كانت تسكن هذه الغرفة . وها هو البدوي الذي كان ينام مقموعاً في صدري ، يسرج الآن خيوله ، فينطلق صهيلها ، راكضة باتجاه مدينة القباب والمسك والزعفران . وها هي ساندرا تتحول إلى زهرة من نار ، تشعل الحرائق في دمي ، وتريني من فنون الحب ألواناً لم أعرفها من قبل . إنني لا أسعى في الجنس إلى متعة أكثر من متعة الممارسة الأولى ، حيث أكتفي بما تحدثه في جسدي من خدر لذيذ ، ولذلك فإنه ما أن وصل العناق بين الشراشف ذروته القصوى ، حتى استلقيت بجوارها مثقلاً بالإجهاد والنشوة . أدخن باستمتاع لفافة تبغ أخذتها من علبتها . وجدتها تداعب بأصابعها شعراً قليلاً نابتا على صدري فأخذت يدها أتأمل أصابعها النحيفة المقصوصة الأظافر . لم تكن هذه المرة تضع طلاء فوق أظافرها ، ولكن الدم الذي تدفق في رؤوس

الأصابع ، منح الأظافر لوناً كأنه الطلاء الأحمر . احتفظت بيدي في يدها ، مرتاحاً إلى نعومة ملمسها وقد جاء النعاس يداعب أجفاني . عادت ساندرا إلى إثارتي . وضعت في جهاز التسجيل أغنية من أغاني الجنس كانت قد أحضرتها من غرفتها ، وصارت تغمر صدري بقبلاتها وتحتويني بذراعيها وتداعب عنقي وظهري بأظافرها . تتأوه وتتنهد وتمرغ جسدها بجسدي ، وتطلق شهقات تقلد بها المغنية التي تحترق شبقاً في شريط التسجيل . تهدر في جسمي الدماء التي بردت ، وتنفر العروق التي نامت . تتفتح زهرة الشهوة ، وأعود من جديد ، أحضن الشفق ، وأغيب في مسك الليل وغابة الزعفران .

صارت ساندرا تنام كل ليلة معي ، وتنتشر حديقة ورد وجمر فوق سريري . أبدلت مظهر الغرفة بما يلائم ذوقها . نقلت الأثاث من مكان إلى آخر ، ووضعت ستائر فوق النافذة ، ومفارش من القطيفة الخضراء فوق قطعتي أثاث تحاذيان السرير ، وجعلتني أشتري رسوماً منسوخة عن لوحات سيريالية لشاجال وبيكاسو وسلفادور دالي . تكوينات ودوائر وألوان ، تعطي إحساساً بالتمرد والانطلاق ، وتهرب من سجن المعاني والقوالب . ملأت بها جدران الغرفة ، فصارت غرفة أخرى تليق بساندرا وبهجة حضورها .

اقترحت عليها أن تترك غرفتها التي تكلفها جزءاً من منحتها الضئيلة بعد أن صارت تعيش معي . رفضت أن تتنازل عنها كما رفضت أن تأتي بزميلة جديدة تتقاسم معها الإيجار بدل الطالبة التي أنهت دراستها ورحلت . دخلت ساندرا حياتي ، وتباعدت ذكرى ليندا ، وكأنه مضى على فراقنا عقد من السنين . ونامت في خاطري ذكرى الأهل والوطن فلم أوقظها .غطست مع ساندرا في لجة النزق والعشق والسهر . رأيت سهماً موشوماً على صفحة فخذها ، صغيراً داكن الاخضرار ، يشير إلى باقة الزعفران ، وفوقه أحرف منقوشة وموصولة ببعضها البعض ، تقول كلاماً غامضاً كغموض التعاويذ السحرية . تفاءلت خيراً بهذه التعويذة ، واتفقت معها أن نعيش شهر عسل كما يعيشه العرسان الجدد ، نبقى معاً فلا نفترق خلال هذا الشهر ليلة واحدة . سألتها ألا تخونني قبل مرور ثلاثين

يوماً . وافقت ساندرا على المبدأ ، واعترضت على كلمة «خيانة» لأنه لا مكان لهذه الكلمة في قاموس علاقتنا . ولكنها لم تحافظ على وعدها . قبل نهاية الشهر بأسبوع واحد ، بدأ مهرجان أدنبره للفنون . حصلت ساندرا على بطاقة لحضور حفل الافتتاح ، وذهبت بمفردها إليه . انتظرت أثناء الليل عودتها ، فلم تعد . قلت لها عندما جاءت صباحاً :

- لا تقولي بأنك لم تنقضي العهد الذي بيننا .

- سأعترف لك وستعذرني عندما أخبرك مع من قضيت الليل .

وذكرت اسم مطرب من فرق الموسيقى الدارجة ، تملأ تصاويره حيطان المدينة . كان واحداً من نجوم حفل الافتتاح . ذهبت ساندرا في نهاية الحفل تطلب توقيعه للذكرى . قال يغازلها بأن لها فماً جميلاً ، فقررت أن تتخلى عن الوفاء بوعدها لي ، وتمنحه بدلاً من فمها ، جسمها كله . أكملت قائلة :

- إنه مهووس بي ، ويريدني أن أصحبه في رحلاته حول العالم .

- أسرعي قبل أن تخطفه امرأة أخرى ، ويضيع منك العالم .

- انتهى أمره بالنسبة لي . إنني كماء النهر الذي لا يسبح فيه الإنسان مرتين . فأنا لا أحتفظ بعلاقة ثابتة إلا مع عطيل .

قلت لها بأنها ستكون ملهمتي لكتابة مسرحية جديدة حول عطيل . وبمثل ما فعل الكتاب الذين استعاروا شخصيات شكسبير وأعادوا صياغتها في قالب عصري ، فسأفعل ذات الشيء مع عطيل . سأجعله يتحرق شوقاً للقاء ديدمونة من أجل أن تروي له كل مرة قصتها مع الرجل الذي نامت معه في الليلة الماضية . وسيصبح عطيل الذي كان عنواناً للغيرة ، مثالاً للرجل المتسامح في عصر التحرر وانعتاق النساء . وتتحول المأساة التي أبكت الناس جيلاً وراء جيل ، ملهاة تفرح القلوب .

انتهى شهر العسل . ولكن مهرجان أدنبره جاء يمنح المدينة عرساً يدوم لمدة أسبوعين . جو احتفالي يغمر الشوارع والحدائق والميادين ليلاً ونهاراً . وفرق فنية جاءت من مختلف بلاد الدنيا ومعها توافدت حشود من السواح لا تقوى فنادق

المدنية على استيعابها . واختراقاً لقوانين الجامعة قامت ساندرا بتأجير غرفتها لأعضاء فرقة موسيقية من أمريكا ، لمدة أسبوع . وجاءت تخبرني بأن أعضاء الفرقة يدعوننا لحضور حفل يقدمونه بإحدى الكنائس التي تحولت قاعاتها إلى مسارح . كانوا فرقة من ثلاث نساء وثلاثة رجال ، يتخصصون في تقديم أغاني الريف الأمريكي . أقبل جمهور كبير لرؤيتهم بعد أن صار هذا اللون طعاماً للإذاعات المرئية والمسموعة . انتهى الحفل فعدنا بصحبتهم إلى الغرفة . لم تكن الغرفة تتسع لهم ، فأسندوا السريرين إلى الحائط ، ووضعوا البطاطين والشراشف والوسائد فوق البساط ، وصنعوا مساحة تكفي لنومهم بمثل ما تتسع لآلاتهم الموسيقية . بقينا للسهر معهم ، وجلسنا فوق الأرض متلاصقين وأمامنا زجاجتان من النبيذ . لم يكن في الغرفة ما يكفي من الكؤوس ، فذهبت لإحضار كؤوس من غرفتي . كما أحضرت منها زجاجتي نبيذ ، بعد أن رأيت نبيذهم ضئيلاً لا يكفي لإحياء سهرة تضم ثمانية أشخاص . ولكن أحد أعضاء الفرقة أخرج قالباً من الحشيش بحجم علبة الكبريت ، وجاء بغليون له مبسم طويل . خلط الحشيش بالتبغ ثم ملأ الغليون وأشعله ، وبدأت جلسة التخدير والدخان الأبيض . أدركت عندها السبب في ندرة الشراب ، الذي ترك مكانه هذه الليلة لنوع آخر من أنواع الكيف . كنت أريد أن أحتفظ بولائي للكأس فهو أكثر أماناً . ولكنني لم أشأ أن أكون نشازاً ، فشاركتهم التدخين . جاء دوري لوضع الغليون في فمي . أخذت أنفاساً سريعة متقطعة ، وأجهدت نفسي في ارتشاف الدخان . كادت نار الغليون أن تنطفئ ، فدفعت به إلى ساندرا التي كانت بجواري . ارتشفت جرعة نبيذ أزيل بها الاحتراق الذي أصاب حلقي . فلم يزدني النبيذ إلا احتراقاً . أبدت ساندرا براعة في التدخين . وضعت يدها فوق حجرة النار ، وسحبت نفساً طويلاً وعميقاً حتى عادت النار للاشتعال . أرسلت من فمها دفعة كبيرة من الدخان ، وعادت تغمض عينيها وتطبق شفتيها وهي تمتص الغليون كأنها تمتص ضرعاً مفعماً برحيق الحياة . أخذ قائدهم ، ذو اللحية المدببة والشارب المغولي ، قيثارته ، يعزف عليها لحناً سريع الإيقاع . والآخرون يرددون معه الغناء . امتلأت الغرفة

بسحب الدخان ، والغليون يطوف بيننا ، وأبخرة الحشيش تغمرنا بالخدر والانتشاء . انتهى ما أحسست به من ضيق في بداية الجلسة . وشعرت بجسدي خفيفاً ، قادراً على التحليق في الفضاء ، برغم أني لم أكن أقوى على الوقوف . اقترحت على صاحب القيثارة أن يعزف لنا أغنية «غرباء في الليل» فهي تليق بنا . كنت أحفظ بعض مقاطعها فغنيتها معه وأنا أتمايل فاقد الوعي . رأيت كل واحد منهم يقبل فتاته فأخذت ساندرا إلى حضني ، أتبادل معها القبلات . طال السهر ونفد النبيذ ، في حين بقي الغليون دائراً ، عامراً ، لا ينضب ولا ينفد . ولا أدري لماذا بدأ الجميع يتحررون من ملابسهم وكأنها صارت عبئاً ثقيلاً لا تقوى على حمله الأبدان . كان طقساً جماعياً شاركت فيه وكأنني مساق بقوة منومة . ترك كل واحد منهم فتاته ، وانتقل إلى المرأة التي تجلس بجوار صاحبه ، يعانقها ويقبلها ويتصارع فوق الأرض معها . كان عازف القيثارة قد اختار ساندرا ليرتمي عارياً يعانقها . ظلت فتاته تضع وجهها في وجهي وتنظر لي بعينين أثقلهما الحشيش . زحفت نحوي بنهدين كبيرين ، وفم يتأهب للتقبيل . أطبقت بفمي على فمها واندمجت ملامح وجهي بملامح وجهها . كانت امرأة قوية البناء ، سامقة القامة . صنعنا لجسدينا حيزاً وارتمينا بجوار الآخرين وقد اشتبكت الاذرع والسيقان والشفاه . تحولت الغرفة إلى حقل من الأطراف والأعضاء العارية التي تغطيها أبخرة الحشيش . كتلة معجونة من اللحم البشري ، تصنع مشهداً أشبه بلوحة رسام سيريالي ، وسط عاصفة من الآهات والتنهدات والأنفاس اللاهثة ، وأصوات القبلات ، واحتكاك الأجساد بالأجساد . لم أكن أعرف أن الحشيش يطيل عمر اللحظة الجنسية . فقد استمرت التأوهات تتصاعد وتعزف موسيقى الشبق والاشتهاء . وكنت وأنا أعانق المرأة التي معي ، كثيراً ما أجد ساقاً غير ساقها ارتمى فوقي ، أو نهد امرأة يوخزني ، أو ذراعاً امتد بيني وبينها . أدفع الساق أو الفخذ أو الذراع أو النهد عني ، وأواصل عناقي لاهثاً ، راكضاً ، أرشح عرقاً ، واحترق شبقاً . والغرفة تحولت إلى ساحة لعربات اللذة التي انطلقت جيادها تركض وتلهث وتصهل كأن جيشاً يطاردها . ولحظة الشبق القصوى لا تأتي .

والتأوهات تتحول إلى صراخ . صراخ حقيقي . وكأن فعل الحب صار طعناً بالخناجر . صرخات تنطلق في وقت واحد من كل نساء السهرة . كأنهن أوركسترا تعزف لحناً بلغ مرحلة «الكريشيندو» . ثم تدريجياً ، بدأت الصرخات تخفت وتتراجع ، والأنفاس تتلاحق ، سريعة ، لاهثة ، ملتاعة . ثم خمد كل شيء ، وارتمت الأجساد فوق الأرض كالذبائح .

كنت أريد أن أذهب لأنام في غرفتي . ولكنني لم أستطع أن أرفع جسمي من فوق الأرض . رأيت الآخرين يستغرقون في النوم وهم على أوضاعهم تلك ، فأسلمت نفسي للنوم مثلهم ، غير عابئ بالذراع التي ارتمت فوق صدري ، أو الساق التي ارتمت فوق ساقي ، أو السوائل اللزجة ورائحتها الزنخة التي تملأ المكان .

في المساء الموالي ، جاءت ساندرا تسألني أن نذهب لمشاهدة الحفل الذي يقيمه أعضاء الفرقة ، فربما نعاود السهر معهم .

- كنت أسمع عن مثل هذه الحفلات ، وكان جسمي ينتفض استنكاراً لها ، فإذا بك تجعلينني طرفاً فيها .

- كنت مشاركاً فيها ومستمتعاً بها ، فلا تقل شيئاً يفضح شخصيتك المزدوجة التي توافق على شيء بالليل وتنكره بالنهار .

- إنني لا أنكر أنني استمتعت بها .

- وما وجه الاعتراض إذن؟

- وجه الاعتراض أن هناك نواميس اقتضت الإنسان زمناً يوازي عمره فوق الأرض . حتى وصل إليها . وعندما نعبث بهذه النواميس من أجل المتعة ، فإن التدرج الحضاري كله يصبح أضحوكة .

- ما أكثر استخدامك للكلمات الكبيرة التي تخفي بها زيف منطقك . فليصبح تدرجك الحضاري أضحوكة . إذا كان هذا يمنحنا قدراً أكبر من السعادة .

- السعادة شيء آخر .

- اختف كيفما تشاء خلف العبارات الغامضة . أما أنا فلا أعرف سعادة غير

تلك التي نرتوي منها بحواسنا . وليلة البارحة كانت كل الحواس قد وجدت ارتواءها .

– إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً كهذا وأنا متحكم بقواي العقلية .

– وكم تحتاج إلى دورة من دورات الغليون حتى تتحرر من هذا القيد؟ .

– لنقل إنني لا أستطيع أن أراك أمامي ، تصرخين بين أحضان رجل له ملامح التتار .

– كانت هناك امرأة أشبه بالمحاربات الأمازونيات ، ولها حجم أضعاف حجمي ثلاث مرات ، تصرخ بين يديك .

– كنت غائباً عن الوعي .

– كنت تمارس وعيك الحقيقي المدفون تحت هذه القشرة التي صنعتها العادة . كنت تمارس وعياً أكثر صدقاً من وعيك الذي تتكلم به الآن . فتوقف عن لعبة الخداع التي تلعبها مع نفسك .

كنت صادقاً في التعبير عن نفوري من الدخول في تجربة كهذه مرة أخرى . إن مرة واحدة تكفي لإرضاء فضولي مدى الحياة . فأنا لا أستطيع أن أقفز فوق كل الجسور التي صنعتها قيم ومفاهيم وقناعات ، وأجعل من هذه الحفلة التي كانت صلاة خالصة لإله الجنس ، وكفراً بالآلهة الأخرى ، شيئاً أتشوق إليه . جاءت حفلة البارحة ، بشكلها العفوي وفي لحظة غياب عن الوعي ، ودون سابق تصميم ، فكان طبيعياً بعد ذلك أن أجد مبرراً يعفيني من المسؤولية . أما أن أذهب إليها متعمداً ، كما تريد ساندرا ، فهذا ما لا أقوى عليه . إنها تشتاق إلى ليلة أخرى من الإثارة ، والجنس المغموس في الدخان الأبيض . ذلك سلوك لا يفاجئني ، فقد صرت أعرف شيئاً عن هذا الشوق الذي لا ينضب لاختبار الحياة والارتواء من كل الينابيع . شهية مفتوحة للسهر والرقص والحب والجنس والشراب والطعام والتدخين والنقاش والتمثيل والقراءة . كل المتع مباحة ، وكل شيء تمارسه تقبل عليه باندفاع وحرارة ، تمنحه نفسها كاملة . حتى طبق الفاصولياء في المطعم المصري ، يصبح وهي تتناوله أشهى وأثمن طبق في الدنيا ،

كأنها كانت صائمة عن الطعام شهراً كاملاً . لم أتأمل كيف كان شعوري وأنا أراها البارحة تمارس الجنس مع عازف القيثارة . ظلت وحدها تطلق صرخاتها اللذيذة بعد أن سكتت بقية النساء ، ولم أكن مستفزاً . كانت اللعبة عادلة ، وكنت ثملاً . منتشياً ومبهوراً بثراء ودسامة الجسد الأنثوي الجديد الذي ألتقي به لأول وآخر مرة . الآن فقط أستطيع أن أعرف لماذا لا تنام ساندرا مع عشاقها الطارئين إلا مرة واحدة . إن للمرة الأولى ، لهذا اللقاء الأول ، والحوار الأول بين جسدين ، لذة لايمكن أن تكرر نفسها . لذة الاكتشاف ، ولذة المغامرة والدهشة ، التي ترافق هذا الاكتشاف . وعندما كانت ساندرا تزور جزيرة الدهشة بصحبة الرجل المغولي ، وتنتظر ، مصعوقة ، صارخة ، شبقاً يمتنع عن التحقيق ، كنت أنا مشغولاً بمغالبة تلك المرأة الأمريكية ذات الجسم العارم كالسيل . لا شك أن هذا المغني ، قد اختارها صاحبة له ، من بين آلاف النساء اللاتي يحترفن غواية المطربين والعازفين . وفي حين كانت ساندرا جسداً صغيراً لذيذاً ، يسهل طيه وتطويقه . كانت امرأة الغناء الريفي الأمريكي ، بقامتها الفارهة ، وغزارة شعرها الأسود ، وفخامة صدرها ، واكتناز شفتيها ، أشبه بالموجة التي تداهمني ، فتغرقني وتطويني . أرتفع معها وأنخفض . أغطس حتى أفقد أنفاسي ، وأطفو ثانية فوق اللجة العالية . لم أكن قد تعرفت إلى اسمها ، أو سمعتها تنطق اسمي . لم أكن قد تبادلت معها كلمة واحدة ، قبل أو أثناء أو بعد ممارسة الجنس . كل ما كنت أسمعه منها ، أو كانت تسمعه مني ، أثناء المعانقة ، هو تلك الهمهمات والشهقات التي كانت لغة الإنسان في أول مراحل وجوده ، قبل أن يكتشف اللغة أو يعرف الكلام . غرباء التقينا ، فتبادلنا المتعة ، وغرباء افترقنا . جسدان التقيا ، وسط كتلة من الأجساد العارية الأخرى ، لقاء الغريزة والشهوة ، واختبرا كيف يعود الإنسان إلى عناصره الأولى ، القريبة من الأرض والطبيعة ، حتى يتساوى مع كائنات الغابة وبقية المخلوقات في المملكة الحيوانية . مزقنا الرداء الحضاري ، وعبثنا به للحظة قصيرة ، كانت انفلاتاً من مدارات وخطوط عرض وطول ، عشنا دائماً مشدودين إليها . ثم انتهت اللحظة ، ليعود كل واحد إلى مداره ، يرتدي

ثيابه ويدخل في قشرته الحضارية . أعود أنا إلى كتبي وأوراقي ، وتعود هي إلى غنائها الريفي ، داخل قاعات الكنائس الاسكتلندية . هكذا يجب أن تنتهي اللحظة ، لتبقى بعد ذلك نقطة في الذاكرة ، سوف يفسدها التكرار ويقضي على بكارة البهجة التي تصاحبها .

تركنا فكرة الذهاب إلى الفرقة الأمريكية ، ومضينا نتجول بين معارض الكتب والرسوم والزهور ، ونتنقل بين الفرق الموسيقية وفرق الفنون الشعبية التي اختارت أن تقدم عروضها في الحدائق والميادين . ونتحول إلى جزء من هذا المشهد الذي يضم بشراً أسقطوا من حسابهم كل النشرات التي تبثها الإذاعات عن أخبار الكوارث والحروب والصراعات والمجاعات . أداروا لها ظهورهم ، يستقبلون مهرجان الفنون بأفراحه وألوانه وأضوائه . اختتمنا سهرتنا بمشاهدة مسرحية عن «ميدوزا» التي تنمو فوق شعرها الأفاعي ، ويتحول كل إنسان تنظر إليه إلى حجر . كانت مسرحية فكاهية ، أثارت شهيتي للضحك واللعب ، ورأيت أن لساندرا شعراً يشبه قفة من الأفاعي الحمراء ، فأطلقت عليها اسم «ميدوزا» . اشتعلت غيظاً مني ، ورفعت قبضتها الصغيرة تضربني على صدري ، هربت منها راكضاً ، وهي تركض ورائي ، نضيف فوضى إلى فوضى الشوارع ، ونخترق ليل أدنبره العامر بالساهرين . رأينا شرطياً يلاحقنا بنظراته ، متعجبا من مشهد الرجل الذي يجري والمرأة التي تطارده ، فلم نعبأ به . كانت الساعة تقارب الثانية عندما وصلنا إلى دارنا منهكين . ذهبت ساندرا تتنصت على سكان غرفتها . لم تسمع لهم عزفاً ولم يصدر عنهم صوتاً ، فعادت لتنام . ولا أدري لماذا وأنا بين النوم واليقظة ، رأيت مشهد المدينة القديمة التي عرفتها في طفولتي ، ينبثق في ظلام الغرفة . بيوت تآكلت حيطانها ، وتقشر طلاؤها ، وفقدت الأبواب والشبابيك والجدران انتماءها لأي لون سوى الصدأ والرطوبة . ومع ذلك فهي تكتظ بالعوائل التي تأوي إليها . أطياف ورؤى لأصحاب وأهل وجيران ، يستيقظون في ذاكرتي ، وينظرون من خلال الأبواب والنوافذ نحوي باندهاش واستنكار ، وكأنني اقترفت في حقهم إثماً . تذكرت عندما جلست في السرير أفرك عيني ، وأطرد منهما هذه الرؤى

التي أقلقت نومي ، أن زمناً طويلاً تقضي ، دون أن أهاتف أحداً من أهلي . إنهم لا يعرفون لي هاتفاً أو عنواناً بعد أن تركت البيت القديم . ولا بد أنهم قلقون من أجلي . عرفت عندما جاء الصباح وهاتفت أخي ، أنه انتظر خلال هذا الصيف عودتي ، ولأنه لم يجد سبيلاً للاتصال بي أو يتلقّ خبراً مني ، قرر أن يأتي إلى هذه المدينة ، باحثاً عني . وهو لم يكن ينتظر إلا إكمال شهر الصوم لكي يسافر . لم أكن أعرف أن شهر الصيام قد بدأ وهو يكاد ينتهي . وأن أياماً عشرة هي التي تفصلنا عن العيد . أحسست بالخجل وأنا أقول لأخي مجاملاً بأنني أصوم الشهر دون مشقة . أقفلت السماعة غاضباً من نفسي . لأنني نسيت كل شيء عن هذا الشهر الذي تعودت دائماً أن أصومه . عادة نشأت عليها منذ أن كان والدي يرغمني ، وأنا في العاشرة من عمري ، على أن أصوم مثل الكبار . تقطعت الأسباب بيني وبين شعائر وممارسات دينية ، وبقي الصيام هو الشعيرة الوحيدة التي تصل علاقتي بالسماء . وكنت أقول لمن يراني صائماً في هذه المدن التي لا ترتفع في سماواتها الأهلة والمآذن ، بأن هذا هو الخيط الوحيد ، بعد أن تمزقت كل الخيوط الأخرى ، الذي يصلني بأهلي وأصلي وانتمائي وجذوري ، ولا سبيل إلى التفريط فيه . وها أنا قد مزقت هذا الخيط لأطفو ضائعاً في فضاء لا حدود له . ولكي لا يكون ضياعي نهائياً ، قررت أن أصوم الأيام الباقيات .

– ها هو رجل العنف والجنس يرتدي الآن قلنسوة رجل الدين . يجب أن أزداد اعتزازاً بنفسي لأنني أغويت راهباً .

كيف أستطيع أن أشرح لها ما عانيته من شقاء ، حتى تحررت من سطوة ذلك الشيخ الضرير الذي كان يعلمني الدين بجامع الباشا ، ومن تعاليم الأب الذي كان يحمل سوطاً ويرغم طفلاً دون العاشرة ، على أن يقوم قبل الفجر ليتوضأ ويذهب معه للصلاة ، ومن وصايا الفقهاء والمعلمين وخطباء المساجد الذين كانوا يحملون عصياً مقطوعة من أشجار الجنة ، يسوقونني بها عبر طريق تحوم فوقه الملائكة ويمتلئ بمآذن وقباب المساجد . تحررت بعون الله من سلطتهم ، وهجرت مدينة الملائكة أبحث عن مكان بين البشر . ولم يبق في نفسي شيء من

تعاليمهم ، ولا أعترف لهم بأية مديونية ، سوى هذه الأيام العشرة التي قررت أن أصومها ، وأقدمها نذراً لهم مقابل عتقي . فهل تستكثرين ذلك عليهم؟

- إنك دائماً تريد أن تكون ما هو ليس أنت . تريد أن تكون فاسقاً وأخلاقياً . متديناً ومتحرراً من الدين . تريد أن تعيش في العصور الوسطى والعصر الحديث ، تنتمي إلى الشرق وتنتمي إلى الغرب . تضع قدماً في الواقع ، وقدماً في الأسطورة . وتكون النتيجة أنك لست فاسقاً ولست أخلاقياً . لست متديناً ولست متحرراً من الدين . لا تعيش في القرون الوسطى ولا في العصر الحديث . لا في الواقع ولا في الأسطورة ، ولا تنتمي إلى الشرق ولا إلى الغرب .

- إنها عشرة أيام سرعان ما تنقضي . لن تكون عبئاً على علاقتنا ، ولن تمنعني من أن أشاركك السهر والذهاب إلى عروض المهرجان ، فلماذا تصنعين منها مشكلة؟

- إنني لا أتحدث عن الصوم . إنني أتحدث عن الدلالة التي يحملها هذا الصوم . دعوتني لأن أعرفك ، وها أنا أحاول فلا أجد سوى سديم .

انتهى المهرجان وانحسر عن المدينة ذلك الطوفان البشري ، فعادت ادنبره إلى بياتها الشتوي الذي يبدأ قبل مجيء الشتاء . وانتهى صيامي فصنعت لساندرا عيداً صغيراً مكافأة لها على احتماله معي . دعوتها إلى عشاء راقص ، وأهديتها شالاًحريرياً تغطي به آثار العض في عنقها . كانت قد التقطت في يوم سابق ولداً إيطالياً وجاءت به إلى غرفتها التي أخلاها مؤجروها . كان عاشقاً صغيراً وغشيماً ، ولا يجيد كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية . ما أن رآها عارية حتى ارتمى فوقها ، يعضها في مواقع مختلفة من جسمها حتى أدماها . دفعته عنها ، وسألته أن يرتدي ملابسه ويخرج . لم يفهم كلماتها ، فألقت بملابسه إلى الخارج ، وطردته عارياً من غرفتها .

أرادت أن نذهب لقضاء نزهة صغيرة في الأراضي العالية ، تمتد يومين أو ثلاثة ، نهرب خلالها من رتابة المدينة ، قبل أن تداهمنا السنة الدراسية الجديدة . فاستأجرنا كوخاً من إحدى الوكالات ، وأخذنا خارطة تقود إليه . اشترينا ما

نحتاج إليه من نبيذ ولحوم وفاكهة ، وتزودنا بالماء والشموع ، فهو كوخ بعيد عن الدكاكين والعمران ، خالياً من الماء والكهرباء . اكترينا سيارة أجرة أقلتنا إليه ظهر الجمعة ، واتفقنا مع سائقها أن يأتي لإعادتنا صباح الاثنين . كان الكوخ يتوسط منطقة خلاء فوق هضبة تحيط بها الجبال والغابات . مجرد غرفتين من الخشب إحداهما للنوم والأخرى دورة مياه بدائية . لم نر على البعد كائناً بشرياً ، ولم نسمع سوى حفيف الأشجار وثرثرة الطيور قبل المغيب ، وضجيج السناجب التي تتقافز في كل مكان . طردنا السناجب من الكوخ ، وقمنا بتنظيفه من الأتربة ، ونفضنا الغبار عن السرير الذي كان قطعة الأثاث الوحيدة فيه . غابت الشمس ولم تبق سوى سحب كثيرة حمراء تضيء الغابة بوهجها الأرجواني . جمعنا حطباً ، وأوقدنا ناراً ، وجلسنا أمام الكوخ نشوي أسياخ اللحم ، ونشرب النبيذ . نتحدث ، ونـدير أشرطة الموسيقي ، ونرقب من حولنا الظلام الذي بدأ يحط فوق الأشجار والجبال . يعيدني مشهد البرية ، والبطاح الذائبة في العتمة ، إلى مرحلة مبكرة من العمر ، مرحلة لم أكن لأعيها لو لم تكن مثار أحاديث وذكريات كنت أسمعها من أهلي حتى صارت محفورة في ذاكرتي بتفاصيلها الصغيرة ، عندما كنا نرحل وراء والدي وهو يطارد رزقه ورزقنا بين الألغام . ننصب خيمتنا في البراري ، حيث لا شيء سوى الأرض الصفراء والهضاب البعيدة العارية الجرداء ، وليل لا تضيئه إلا مواقد النار ونجوم السماء . وكانت ساندرا سعيدة بهذه الرحلة التي أعادتنا إلى أمنا الطبيعة ، نعيش بين أحضانها ، ونرتمي فوق أعشابها ، ونملأ صدورنا من هوائها الذي لم تلوثه المداخن . نرفع أبصارنا ، فنرى النجوم كلها ، والسماء كلها ، لا مساحة بحجم الشباك كما يحدث في المدينة . قلت لساندرا بأن هذا النوع من الحياة ليس جديداً بالنسبة لي . لم يكن في ذلك الوقت نزهة عامرة بالنبيذ والشواء كما هي الآن . وإنما كان صراعاً ضارياً من أجل البقاء ، ومشياً يومياً فوق حقول الجوع والموت . ننصب في المتاهة خيمتنا ، ومن حولنا خيام أخرى ، لعائلات جاءت مثلنا ، تبحث ، وسط بيادر النار وبين عروق الألغام ، عن عيشها أو موتها . كنت طفلاً ، ولم أكن أستطيع أن أدرك رعب تلك

الحياة ، إلا بعد أن انتهت وصارت جزءاً من ميراثي الشخصي . ولأن البكاء كان زاداً يومياً يعيش عليه أهل تلك الخيام التي تعاشر الفاجعة ، فقد ذهب في ظني أن البكاء ملازم للحياة . وكانت دهشتي عظيمة عندما انتقلنا للإقامة بالمدينة ووجدت الناس لا يبكون كل يوم . رأيت ذلك شيئاً غريباً لا يتفق مع طبيعة الحياة كما عرفتها . كان الناس فعلاً يموتون . ومن لم يمت بالألغام مات بغيرها . ومن لم تسعفه الأعشاب والأحجبة والكي بالنار ، فإن عليه أن يموت . لا أدري كم عدد الأخوة الذين فقدتهم . كان الواحد منهم يموت بعد أشهر من ولادته . وكان مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يتيح الحياة للأقوى في تلك البيئة الشرسة ، هو البديل لحبوب منع الحمل . حسبوني أكثر من مرة في عداد الأموات . كانت إحداها عندما استعمل الرجل الذي جاء لختاني أدوات ملوثة ، فتورمت تلك القطعة من اللحم وأسلمتني إلى مرض كاد يقتلني . جاءوا بالفقيه يقرأ على رأسي القرآن استعداداً لموتي ، ولعل إنساناً أشار ببتر تلك القطعة إنقاذاً لبقية الجسم من التسمم ، ولكن البادية لم يكن بها أطباء وجراحون يقومون بهذه المهمة . وعندما نجوت من الموت وعدت إلى الحياة ، كانت تلك القطعة لا تزال في مكانها . لم ينقذها إلا جهل الناس وغياب الأطباء . وكانت المرة الأخرى عندما جاء الطبيب الشعبي بسيخ من الحديد المحمي وطبع به رأسي . انتفخ الرأس كله ألماً ومرضاً ، وبدلاً من أن يشفيني هذا الكي من صداعي ، أرسلني إلى موت لم أعد منه إلا بفضل الدعاء والتسابيح التي ظلت أمي تتلوها ، لليال طوال ، بجوار مرقدي . ولا زالت آثار هذا الحرق ، حتى الآن ، في رأسي .

مدت ساندرا يدها تتحسس شعري وتفتش عن ذلك الأثر . أمسكت بإصبعها ، ووضعته في المكان الذي صار الآن بقعة صغيرة ملساء تحت الشعر . قلت معتذراً :

- ما كان ينبغي أن أفسد جمال هذه الليلة ، ببائس الذكريات .

- يجب أن تشكر السماء ، لأنك نجوت صغيراً وكبيراً . فمثل هذه الطفولة لا تصنع إلا مجرماً أو مجنوناً .

تساءلت بيني وبين نفسي :

- ترى ما الذي تبقى من ذلك كله؟

لا شك أنه باق بأكمله معي . يختبئ تحت الجلد مثل ندبة الرأس المخبأة تحت الشعر . إرث أرحل به ويرحل بي . وإذا كانت الأشياء التي تتصل بطبيعتنا وتكويننا ، تبدأ مبكراً ، كما تقول الكتب ، فستظل تلك الأيام الغائبة خلف أبخرة الزمن ، تمارس نفوذها على حياتي بأكثر مما تمارسه أيام الرخاء التي جاءت بعد ذلك .

بدأت النار تخبو فألقمناها مزيداً من الحطب . تعود إلى الاشتعال ونحن نرقبها وننصت لأنين أعوادها المحترقة . كانت الأعراف الخضراء تصدر أنيناً أكثر توجعاً ، فهي تموت الآن قبل موعدها . وفي السماء سحب مضيئة تنعكس عليها أشعة قمر لم نره ، لأنه لم يظهر بعد . في حين انحنى قوس الأفق ، يصنع خيمة للظلام . تتراقص على ضوء النار ظلال أشجار ونباتات قريبة ، فنضحك متوهمين أن الغابة تقدم عرضاً راقصاً ترحيباً بنا . قررنا أن ننام خارج الكوخ . أخرجنا المرتبة وارتمينا فوقها نمارس الحب في العراء . تراقصت ألسنة النار تصنع التماعات تضيء وجه ساندرا ، فتصورت أنني أعيش في إحدى غابات ألف ليلة وليلة ، السحرية ، وأضاجع إحدى جنيات الغابة ، مدفوعاً بقوة الغريزة في حالتها الهمجية ، الفطرية ، الجيدة . قضينا اليوم الثاني نستكشف المناطق التي حولنا ونطوف عبر الغابة وأدغالها . نتأمل الغريب من نباتاتها ، ونخلع أحذيتنا ونتسلق أشجارها ، ونتسابق في الانتقال من شجرة إلى أخرى عندما تتشابك الأغصان وتصنع جسراً يسهل عبوره . ثم نهبط وقد ملأت الخدوش سيقاننا وأذرعنا ، لنجري خلف الفراشات ونحن نطلق صيحات المحاربين حتى نصطادها ، ثم نحررها من الأسر بعد أن نقدم لها أنفسنا ، ونذكر لها أسماءنا ، لكي تحفظ لنا هذا الفضل ، وتشيد بذكرنا بين قومها . كنت مبتهجاً لوجودنا في هذه البقعة الخالية من البشر وكأن العالم صار ملكنا . إلى أن قالت ساندرا :

- إنه مكان مثالي لارتكاب الجريمة .

- لابد أن إدمانك على قراءة روايات مثل «جامع الفراشات» قد أفسدت لديك الروح الرومانسية التي يجب أن نرى بها الغابة باعتبارها وطن البراءة.

لعلها كانت تفكر بمغامر يسكن الغابات مثل روبن هود. ولكن موجة من الذعر داهمتني وأنا أجد نفسي أفكر فيما لو أنني فعلاً وقفت الآن خلفها، وأطبقت بأصابعي بغتة على عنقها، بحيث لا أترك لها فرصة للصراخ أو طلب النجدة. نشوة وحشية غمرتني وأنا أتمثل نفسي أقتل هذه المرأة الصغيرة المبهجة التي أحبها وأشتهيها. لن يعرف أحد بجريمتي، ولن أنظر إلى الوراء متحسراً، عندما أغادر هذه البلاد، لأنني تركتها لرجال آخرين يستمتعون بها بدلاً مني. من أين تنبثق هذه الأفكار الظلامية المعبأة بنشوة الشر والجريمة. إنها ما إن تأتي حتى تختفي، فأنا أعرف أنني لن أفعل ذلك ولكن لماذا تأتي وتقضي على ما كنت أنعم به من سلام مع نفسي. لابد أن ذلك يحدث لأنني فعلاً أحبها، وأغار عليها، وأقمع غيرتي متظاهراً بالمسلك الحضاري، إلى أن تطل هذه الأفكار برأسها، تفضح مشاعري وتمضي. هل أقول لها الآن، إن القشرة الحضارية، هي التي أنقذتها من موت أراده لها الرجل البدائي الذي يسكن بدني. ولكن وحشة المكان، التي أوحت بهذه الأفكار، تبددت عندما ظهر البشر. ما إن تقدمنا قليلاً في الغابة حتى وجدنا أطرافاً منها أعدت للنزهة، ونصبت فيها المراجيح، وجاء إليها المتنزهون بأطفالهم وعائلاتهم وسياراتهم. وجدنا في سفح الجبل أغناماً ومزارع ولافتة معلقة فوق سياج خشبي تعلن عن بيع اللحوم والألبان. دخلنا واشترينا حليباً وجبناً لإفطارنا. وجاء الليل فأوقدنا نارنا ووضعنا أمامنا موائد الشواء والنبيذ. اقترحت ساندرا بعد أن استهلكنا نصف الزجاجة الثانية، أن نستفيد من وجودنا في الخلاء، ونمنح حصة من وقتنا للبكاء. فقد قرأت شيئاً عن قبائل بدائية كانت تخصص يوماً في العام لا تفعل فيه شيئاً سوى البكاء. طرداً لما علق بالروح من أوجاع، وتصريفاً لكل ما عجز الإنسان عن تصريفه من مشاعر الغضب والحزن والاكتئاب. كنت في حالة من الانتشاء، لا أريد إفسادها بافتعال الحزن واستجلاب الدمع الصناعي. ولكن ساندرا لا تمنحني فرصة

للاعتراض ، تحيطني بذراعيها ، وترمي رأسها فوق كتفي ، وتباشر بكاءها . تراني لا أفعل مثلها ، فترفع رأسها قائلة ، بأن البكاء يليق بي أكثر منها ، وأن الذي نشأ وسط المآتم وأحزان النساء النائحات ، هو أنا وليست هي . وهازلاً وضعت رأسي بجوار رأسها وبكيت بكاء مفتعلاً لا يشبه بكاءها النازف حرقة ولوعة . ثم شيئاً فشيئاً تفتحت شهيتي للبكاء . تفجرت في ذاكرتي طاقة هائلة من المواجع . أبخرة صنعتها أزمنة لم تعد تعيها الذاكرة ، تتصاعد من أغوار بعيدة عميقة ، مخبأة في الصدر منذ بدء الخليقة ، تنهمر الآن دمعاً وأسى . إحساس ، غامض ، فاجع ، لا أدري من أين جاء ، ولا كيف جاء ، يدفعني إلى أن أبكي وأبكي . تحول البكاء إلى نواح . ونائحاً نادباً ، كنت أرتعش وأنتفض وأحني رأسي على كتفها وقد بللت الدموع وجهي كله . ونائحة كأنها فقدت هذه اللحظة ، أعز إنسان لديها في حادث فاجع ، مضت هي تلطم بيديها على ظهري وترتجف كشراع في الريح . تنهمر العبرات مني ، وكأن نبعاً خفياً مجهولاً مدفوناً خلف جبيني يرسل هذا الماء المالح الذي يصل إلى فمي ، وتبقى حموضته ، ومرارة طعمه المالح عالقة بلساني . كانت الفواجع تستيقظ كالبراكين بداخلي ، وتتفجر دمعاً وحزناً وانصهاراً . يخفت البكاء حتى يصير نشيجاً ، ثم يعود مرة أخرى ولولة وعويلاً . طال الوقت ولكن رغبتي في ا لبكاء لا تنتهي . بكاء مر ، لاذع ، جميل ، مريح ، مصحوب بإحساس يشتبك فيه الألم باللذة . كأن صخرة وسط القلب تتفتت الآن وتذوب وتصير ماء . توقفت ساندرا عن البكاء ، فتوقفت مثلها . أخذت مناديل الورق أمسح بها الدمع عن وجهي وأهدابي ، وأنا أحس بارتياح عميق لأنني تحررت من عبء ثقيل أرهق روحي . بدا الهواء أكثر صفاء وعذوبة . والليل يشع بشفافية الغناء الصامت الذي ترسله الأشجار .

كان الطقس في اليوم الثالث أقل اعتدالاً . امتلأت السماء منذ الصباح ، بغيوم داكنات ، تحولت أمطاراً فيما بعد ، وألجأتنا للاحتماء بالكوخ إلى أن أشرقت الشمس .

في الغابة فتنة نائمة لا يوقظها إلا المطر . عبير يشبه عبير القلائد المصنوعة من

معجون العنبر والقرنفل والمسك التي ترتديها عرائس الريف ، تنبعث من هذه الأشجار والأعشاب المغسولة بالماء . قلت لساندرا ، ونحن نستمتع بنشوة هذا العبير ، وبهجة الارتحال عبر بكارة الأرض ، بأن روبنسون كروزو ، وحي بن يقظان وأطفال جزيرة الكنز وطرزان وأبطال «روسو» و «كيبلينج» ، وغيرهم من أبناء الطبيعة ومؤسسي فكر العودة إليها ، لم يكونوا خيالاً صرفاً ، وما أحسوه من نشوة الالتحام بالطبيعة لم يكن كذباً . فهذا ما أحس به أنا أيضاً . تصورت أن ساندرا ستعارضني ، وتذكرني بأعمال أدبية أخرى لم تر في الطبيعة إلا وجهها المتوحش بعنفه وشراسته . ولكنها لم تقل شيئاً . حالة من الاستغراق جعلتها زاهدة في الكلام . مسحورة ببهاء الدروب المسقوفة بأقواس الشجر ، والمليئة ببرك الماء ، والتماعات أشعة الشمس عليها كأنها خناجر الضوء . تسبقني وهي تلاحق عصفوراً يتقافز أمامها . طائراً مخضباً جميلاً لا نعرف له اسماً . تمضي وراءه فاتبعها ونحن نتخاصم حول الاسم الذي سنمنحه لهذا الطائر ، الذي اعتبرناه عائلة جديدة من الطيور نحن اكتشفناها . يغيب الطائر بعد أن يقودنا إلى مناطق لا نعرف كيف نعود منها . ولكننا في النهاية نعود . نعود من الغابة إلى الكوخ . ونعود في الصباح التالي إلى المدينة ، ونحن نحس بالرضا عن هذه النزهة ، التي أتاحت لنا أن نكسر طوق الحياة المكرورة المألوفة ، وهيأتنا لدورة جديدة من دورات الدراسة والحياة الجامعية .

كان كل شيء في رحاب الجامعة يوحي بأن هذه الدورة قد بدأت الآن . ازدحمت الساحات بالعائدين من إجازة الصيف ، والملتحقين حديثاً بالجامعة ، يصنعون مشهداً مبهجاً لبداية العام الدراسي الجديد . لم تكن المدرجات والفصول قد بدأت باستيعاب هذه المجاميع ، فهي فترة تحضير وتسجيل وجداول . ولهذا فاضت بهم الأرصفة والباحات والحدائق المحيطة بأبنية الجامعة . يقيمون هذا الاحتفال العفوي العامر بالصخب والمرح . وكان مشهد الصبايا اللاتي أكملن دراستهن الثانوية وجئن ليبدأن حياة النضج والتحصيل الجامعي ، هو أكثر المشاهد تعبيراً عن هذه الروح . نساء صغيرات ، رشيقات ، يعبقن برائحة فجر

حديث الولادة . ضحك وانطلاق ، وشهية للاستمتاع بمناخات الحرية التي تتيحها الحياة الجامعية لفتاة تغادر الآن طفولتها ، كما تغادر بيت أهلها ، وتبحث عن سبيل لتحقيق ذاتها . ينشئن تجمعاتهن الاحتفالية ، ويتبارين في الأناقة وارتداء أكثر الألوان بهجة وفرحاً . أردية كأجنحة الفراشات ، وحديقة زهور ينسكب فوقها الشعاع الأول لشمس عام جديد . ارتعاشات نهود في بدء تفتحها ، وضحكات لذيذة تملأ برنينها الأفنية والساحات . أسمع هذه الضحكات ، وأرى نضارة الوجوه ، ويلفحني عطر حدائق الورد ، وأستحضر عالماً جميلاً خالياً من الآفات والسجون والأسلحة والعصابات والحروب . أدرك أثناء ذلك أن هذا المشهد ليس إلا مظهراً خادعاً للحياة . فما أسرع أن يغمر الهواء الفاسد هذه الكائنات الجميلة ، البريئة ، لتصبح هي الأخرى جزءاً من بيئة مليئة بالعواء والدخان والصراعات .

أتحرر للحظات من شخصيتي المتشائمة وأستعيد الرغبة في الاقتراب من عوالمهن . فاختلق المناسبات لتبادل الأحاديث معهن ، والالتقاء بعبق الحياة ، ودورتها المتجددة الخضراء ، في خفق هذه الصدور وبهجة هذه العيون الضاحكات .

وجدتني ساندرا في مقصف المكتبة أحمل سفرة فوقها فناجين الشاي وقطع الجاتوه .

– لمن تقيم هذه الحفلة الباذخة؟

أجبتها بأنني تعرفت على ثلاث طالبات مستجدات . وأشرت إلى مكان جلوسهن . نظرت ساندرا باتجاه الطالبات قائلة :

– لعلك بدأت تشتاق إلى مغامرة صغيرة مع صبية لم تعاشر في حياتها رجلاً .

أهملت تعليقها وسألتها أن تنضم إلينا . قالت وهي لا تزال تنظر إليهن :

– أشر فقط إلى الفتاة التي تعجبك منهن ، وسأعرف كيف أرتب لك لقاء ليلياً معها ، دون أن تحتاج لصرف مزيد من النقود أو إقامة مزيد من الحفلات .

رأتني أنظر إليها ساهماً ، لا أعرف ما الذي أغاظها ، فأضافت :

- لا تتظاهر بالغباء . إنني أستطيع أن أقدم لك خدمة لن تنساها .

- دعينا نتحرك وإلا فسيبرد هذا الشاي وأنا أستمع إلى دعابتك التي لا معنى لها .

جئت إليهن بساندرا ، فوقفن لتحيتها ، سعيدات بالتعرف عليها ، فقد زارت فرقة الجامعة قريتهن في جولة ريفية لتقديم مسرحية عنوانها «هبط الملاك في بابل» وشاهدن ساندرا في دورها الملائكي .

- هذه هي ابنة السماء ، هبطت من سمائها وجاءت إلى هذا المقصف .

كنت قد تعرفت عليهن تعرفاً سريعاً ، وأخبرتهن بأنني طالب دراسات عليا ، وجاءت ساندرا تضيف تعريفاً آخر .

- هل قال لكن إنه يكتب رسالته عن ألف ليلة وليلة . وهو لا يكتبها عن سندباد والبساط السحري ، وإنما عن العنف والجنس في هذه الأسطورة .

ضحكن وهن يتبادلن النظرات . قلت متحرجاً :

- يكفي هذا ، فلا تفزعيهن أكثر من ذلك .

قالت إحداهن ، واسمها مادلين ، ولها وجه يضيء مثل جمر المواقد :

- صار شائعاً كثيراً استخدام هذه الرؤية العصرية في تفسير الأساطير والنصوص القديمة .

واصلت ساندرا لعبة الغواية والاستدراج .

- وهو الذي مثل أمامي دور عطيل .

- كان مشهداً صغيراً لم يدم سوى دقائق .

- ولكنه كان مشهداً ينضح عنفاً وجنساً . وأثنت عليه صحيفة الجامعة بأكثر مما أثنت على تمثيلي .

أردت تغيير الموضوع فسألت مادلين عن تخصصها . وعندما قالت إنها مسجلة بكلية الاقتصاد ، قلت مجاملاً وأنا أناولها طبق الجاتوه :

- هذا تخصص لا تقبل على دراسته إلا العقول الكبيرة ، وإلا من يستطيع أن يستوعب هذا الصراع بين أفكار آدم سميث وكارل ماركس ، الذي أقحم العلم في

دوامة ، تمضي القرون ولا تنتهي الدوامة .

وتدخلت ساندرا عندما شاهدت اهتمامي بالفتاة :

- إذا كان لها عقل كبير ، فإن لها جمالاً يستحق قصائد الشعر ، أليس كذلك؟

عندما وضعت وجهها في وجهي ، وهمست تسألني ، لحظة انشغال البنات بطبق الجاتوه ، إن كانت فتاة الاقتصاد هي التي تعجبني ، أدركت أن حديثها لم يكن دعابة ، وأن ساندرا تلعب لعبة لا أريد أن أكون طرفاً فيها . لابد أن البراءة البادية على وجوه الصبايا الريفيات ، استفزت روحها التي تستهتر بهذا النوع من البراءة وتعتبره سذاجة وضعفاً ، وأرادت أن تقحمهن منذ الآن في العالم الحقيقي ، عالم القوة والتلوث . أثار سلوكها قلقي ، فاستأذنت عائداً إلى المكتبة ، منسحباً من هذه اللعبة ، تاركاً على مضض هذه الصحبة الجميلة .

كانت أغنية مرحة تلك التي سمعتها قادمة من غرفتي وأنا أعود إليها ليلاً . فتحت الباب فوجدت أن ساندرا جاءت معها بالصبايا إلى الغرفة . أحضرت لهن فطائر السمك ، وفتحت زجاجة النبيذ ، وأدارت جهاز التسجيل على آخره ، تستمع معهن إلى أغنية « ليس هناك من الحب ما يكفي الجميع» .

- دعوتهن إلى حفلة صغيرة هذه الليلة لأبرهن لهن أن ادنبره لا تكره بنات الأراضي العالية ، ولا تعتبر أهلها أجلافاً ، كما يقول المغرضون .

وأمالت رأسها ، تخاطبني بلهجة هامسة ، متآمرة :

- وبعكس ما تقول الأغنية ، فإن هناك هذه الليلة فائضاً من الحب يكفي الجميع .

لعلها حقاً أرادت تقديم خدمة لي . لم تجد مني اعتراضاً وهي تلتقط عشاقها من الطريق ، فأرادت مكافأتي . وجاءت تستخدم خبرتها في التقاط الرجال ، وتطبقها هذه المرة ، على فتاة صغيرة ، تكون قوتاً جنسياً لي . أحسست بالإثم وهي تراني مكتفياً بها عن بقية النساء ، ورأت في ذلك شيئاً يخل بتوازن العلاقة التي بيننا . فاختارت هذه الصبية ، تعدل بها كفة الميزان . ولكن هذا ليس كل شيء .

إنني أستطيع أن أحس بأن دوافعها ليست كلها بريئة . وأن هناك شراً مضمراً يجب أن أنتبه إليه . إنها وهي تعامل البنات بهذا الأسلوب ، تريد أن تثبت لي ، ولنفسها أولاً ، أن سلوكها وهي تلتقط عاشقاً من الحانة ، لا يختلف عن سلوك أية فتاة أخرى عندما تواتيها الظروف ، مهما بدا عليها من براءة وعذوبة . وهي تتيح الآن الفرصة لهؤلاء الفتيات كي يظهرن تلك الرغبة ، التي تغطيها قشرة رقيقة من اللحاء الحضاري ، سرعان ما تتمزق بفعل ضربات الخمر . وما أنا في هذه اللعبة إلا فأر التجربة . ولكنها ستجدني فأراً صعباً . سأرفض أن أضع في فمي قطعة الجبن مهما كانت شهية ، مسيلة للعاب ، مثل هذه الصبية .

تحررت من سترتي وحذائي ، واتكأت على وسادة فوق البساط أتناول طبق السمك ، في حين أدارت ساندرا لحناً راقصاً ودعت الفتيات إلى الرقص معها . على حياء وخجل بدأن الرقص ، ثم اختفى الحياء تحت دقات الطبول وتواتر الموسيقى الزاعقة . تحول الرقص إلى حلقة تشبه حلقات المجاذيب والدراويش ، التي يطردون بها الجن والعفاريت . شعور تتطاير في الهواء . أجساد تتلوى وتتثنى كأنها أعراف شجرة تضربها أكثر العواصف شدة وهولاً . وبنطلونات تلتصق باللحم البشري وترسم انحناءات ودوائر أكثر إثارة وجنساً من عري الجسد . لا شك أنني أخطأت عندما كنت لا أرى إلا ذلك المظهر الوادع البسيط . كأنني نسيت أن أمثالهن من الفتيات القرويات لسن بعيدات عن هستيريا ليالي السبت وصرعات الجيرك ، وثقافة الجنس التي تتسلل إلى بيوتهن مع الضوء والهواء . صار رقصهن الآن اتصالاً بقوى خفية ، تسكن الجسد وتجعله يكتسب طبيعة جديدة ، مرنة وحرة . يخفق كالأشرعة ، ويتطاير كشرارات اللهب التي تلسعني وتحرق صدري . ها هي ساندرا تنجح في إقناعي بأن الجوهر يختلف عن المظهر ، وإن ما ظننته براءة تنتمي إلى السحب المعلقة في السماء ، يكشف الآن عن مهرجان يحتفل بأكثر الغرائز التصاقاً بالأرض . كانت مادلين هي التي جذبت انتباهي . لم تكن أكثرهن جمالاً . ولكن شيئاً عذباً في وجهها الذي يبدو كحقل من الضوء ، هو الذي شدني إليها . ولعل هذا النقاء في ملامحها ، هو الذي جعلني أشفق عليها

من مؤامرة ساندرا ، وأمتنع عن الانسياق في لعبة التغرير بها .

لاحظت منذ أن وصلت أن ساندرا تدفع لها بكميات من الشراب أكثر من غيرها ، وعندما رأتني أعلق بصري بها ، جاءت تغمزني وتسألني أن أقوم وأراقصها . بقيت جالساً لا أستجيب لدعوتها ، أحتسي كأسي وأرقب البنات الراقصات وهن يصارعن الهواء ، وكأن أحداً أوقد ناراً ورمى بهن وسط الأحطاب المشتعلة . انتهت الموسيقى فجاءت تحرض البنات ضدي .

- ليس عدلاً أن نرقص نحن وتبقى أنت جالساً تتفرج . يجب أن تفعل شيئاً . دعنا نراك في مشهد عطيل وهو يخاطب النجوم .

وتحت إلحاحها قمت وقدمت المشهد بطريقة تهريجية أضحكت البنات . أدارت ساندرا لحناً بطيئاً ، وجاءت وأنا مازلت واقفاً ، تأخذ يدي وتضعها في يد مادلين لكي أراقصها . سمعتها تدعو الفتاتين للمبيت معها وتخبرهما بأن لديها غرفة أخرى تتسع لنومهما . أدركت أنها انتهت من إعداد المشهد لمسرحيتها الصغيرة ، واضعة لكل شيء حسابه . إنني سعيد باحتواء هذا الجسد الذي يشاركني الرقص الآن ، نابضاً ، خافقاً ، يضيء بسطوعه قلبي . ولا شك إنني سأندم ذات مساء ، لا أجد فيه أحداً بجواري ، على التفريط في هذه المهرة التي لم تركب . سأكون شهماً هذه الليلة ، وسأرفض هذه الغواية كما يرفضها الرهبان . سأستعين بكل أسلافي من أهل التقوى ، لكي أتغلب على ضعفي وأمضي حاملاً لوعتي معي . قلت وأنا أتجه إلى الباب :

- يمكنكن المبيت جميعاً هنا . لأنني سأغيب ولن أعود إلا صباحاً .

وضعت سترتي فوق كتفي ، وخرجت دون أن ألتفت ورائي . وقفت قليلاً أمام مدخل البناية أنظر إلى الشارع الفارغ وأفكر في مكان أذهب إليه . كان تحدياً لا معنى له ، وتفسيراً خاطئاً وتآمرياً لدعابة جميلة أرادت ساندرا ، تسليتي بها . لست إلا بدوياً غشيماً ومعانداً يرفض مائدة هبطت من السماء . يجب أن أعود إلى ساندرا ، معتذراً عن هذا السلوك ، مرحباً بقبول هديتها الباذخة . كان الوقت قد جاوز منتصف الليل . تذكرت حانة قريبة تسهر إلى ما بعد الساعة الثانية .

ذهبت إليها ، وجلست أتبادل الحديث مع الساقيات حتى انتهى الوقت . وعدت لأجد أن ساندرا ذهبت إلى غرفتها بصحبة مادلين ، وأبقت الفتاتين في غرفتي .

عندما التقينا مساء ، لم تكن ساندرا غاضبة . جاءتني بحانة العناقيد ضاحكة ، قائلة بلهجتها اللذيذة :

- كيف استطعت بكل عنفك وجنسك أن ترفض طبقاً شهياً مثل مادلين؟

- أنت أغرب امرأة رأيتها .

- وأنت أغبى رجل قابلته حتى الآن .

- إذا كان ماتقصدينه هو اختباري ، فها قد عرفت أنني لا أريد امرأة إلا أنت .

- أنك لا تستحق الخير .

- ولماذا لا تقولين إن ما أغضبك فيها هو براءتها؟ فأردت عقابها على ذلك .

- إن من تظنها صغيرة ، بريئة ، تخاف عليها من اللمس ، أبدت براعة في ممارسة الجنس ، تعجز عنها النساء المحترفات .

لم أفهم ما تقوله . نقلت لها حيرتي وسألتها عما إذا كانت قد التقطت لها رجلاً من الشارع ، لتراها تمارس الحب معه . فأوضحت لي ببساطة ، كيف مارست بنفسها الحب مع مادلين قائلة بأنها عندما رأتني أرفض هذه الهبة التي أرسلتها آلهة الحظ والفرح ، قررت فور خروجي أن تفعل شيئاً تتقي به غضب الآلهة . لقد تهيأت الفتاة لقضاء ليلة عشق ، ومن الإثم أن تقضي ليلتها في فراش بارد . ولذلك نذرت ساندرا نفسها ، لإمتاعها ، والدخول معها في مغامرة ، كانت دائماً تتحرق شوقاً لمعرفة أسرارها . هيأت للفتاتين فراشاً في غرفتي ، وأخذت مادلين إلى غرفتها . ساعدتها على تنحية ملابسها وأدخلتها كي تنام في سريرها ، واندست في ذات السرير معها . ثم أخذت تغمر وجه الفتاة بالقبلات السريعة الحارة ، وتخلع الغلالة التي تغطي صدرها . كانت مفاجأة ، أفزعت الفتاة التي رفضت الاستجابة لما تريده ساندرا . وصارت تدفعها عنها وتهرب منها ملتصقة بالحائط . إلا أن ساندرا التي كانت قد تلبستها الفكرة ، صممت على أن تذهب باللعبة إلى آخرها . حاولت تزيين الأمر للفتاة قائلة لها بأن ما يفعلانه ليس إلا

تسليـة عـابرة ، وتمرين على فـعل الحب تقـوم به كل البنات اللاتي في سنهـا . وعادت تطوقها بذراعيهـا وتحاول إيقاظ شهوتهـا بكل ما تتـقنه من فنون الغواية والمداعبة ، إلى أن صارت الفتاة تستجيب لها ، وتشاركها لعبتها . أفاضت ساندرا في شرح تفاصيل هذه المغامرة الشاذة ، وأكملت حديثها قائلة :

– لو رأيتـها وهي تصـارعني بعـد أن انتـقلنا من السـرير إلى الأرض ، وتنشب أظافـرها في ظهـري ، وتصـرخ لذة وشـبقاً ، لما أتيت على ذكـر السـذاجة البـريئة ، وأنت تتحدث عن مثيلاتها من النساء الصغيرات .

إذن فقد حققت ساندرا انتقامها . ظننت غافلاً أنني أفسدت عليها لعبتها . فإذا بها تذهب باللعبة إلى مدى أكثر خطورة وفحشاً . وأسهبت في الشرح لكي تغيظني وتفهمني بأن خروجي المفاجئ ليلة البارحة لم يكن هزيمة لها ، وإنما فرصة نادرة لتحقيق أكثر صبواتها نزقاً وجنوناً . ما أذهلني هو أنها تكلمت عن ذلك كله بلهجة خالية من أي إحساس بالخجل . صبرت على حديثها المليء بالتفاصيل ، ولكن هذه التفاصيل أثارت اشمئزازي بأكثر مما أثاره تغريرها بفتاة قد تتحول منذ الآن إلى امرأة سحاقية . كانت العملية اغتصاباً قبل أن تكون شذوذاً .

– لـم أكن أعرف أنك داعـرة إلى هذا الحد . لست فـقط داعرة وسـحاقيـة وإنما مريضـة . تنقلين الوباء وتنشرين جراثيمه بين فتيـات صغـيرات . تغتصبيهن وتصنعين منهن داعرات وسحاقيات .

تنبهت إلى أن ما أقوله لا يجوز قوله في مكان عام ، ونظرت خلفي لأطمئن إلى أن أحـداً لم يكن ينصت إلى حـديثنا الفضـائحي . أدهشني أن سـاندرا لم تغضب . أخذت رشفة سريعة من كأس النبيذ ، وألقت برأسها إلى الخلف وإلى الأمام وهي تضحك ، لأنني أبدو غراً وساذجاً لا أطيق الاستماع إلى لحظة عبث صغيرة لم تزاولها إلا على سبيل التجربة والفضول ، بينما تزاولها بنات العالم الصغيرات كل يوم على سبيل العادة والإدمان .

– لا أدري لماذا هذا العناد . أراهن أن بلاد الفضيلة التي جئت منها ، لـن تجد بها فتاة لم تمارس هذا الشيء قبل سن البلوغ .

لا أدري حقاً لماذا أبدو غاضباً ، كأنني لم أعاشر ساندرا ولم أعرف طبيعتها المتحررة من كل القيود ، الهاربة من كل الرتاجات ، المتمردة على كل التعاليم . لعل الذي أثار حنقي هو أن ساندرا لم تختر أحداً آخر سوى هذه الفتاة التي يغمر وجهها سلام مضيء . والتي كنت أشتهيها وأتمناها ، ثم حاربت هذه الرغبة في نفسي ، لأرى بعد ذلك أن ساندرا تبطل ما حسبته موقفاً شهماً ، وتفوز بها دوني . أما أن تقوم ساندرا بإحدى مغامراتها الصغيرة ، فهذا ما لا يفاجئني . أعرف هذا السائل السحري الذي يتدفق في عروقها ، نهماً للحياة وجنوناً بها . إن الرغبة التي نقفل عليها صدورنا ، والأمنيات التي تراودنا عندما نسمع في جوف الليل عزفا بعيداً تأتي به الريح ، والأحلام التي تزورنا عندما ننتشي بكؤوس الشراب في ركن معتم الإضاءة ، والتي تتحول إلى أبخرة تضيع عندما يباغتها ضوء النهار . كل ذلك يتحول عند ساندرا إلى سلوك وممارسة ، ولا يزيدها ضوء الصباح إلا قدرة على الفعل والأداء . إنها لا تكبت نزوة تجد سبيلاً إلى تحقيقها ، سواء أرضى ذلك الناس أم أغضبهم ، وهي لا تفعل ما تفعله بحثاً عن التقاليع ، وإنما سجية وفطرة واستجابة لنداء ينبع من ذاتها ولا يأتي من خارجها . ساندرا لا تقود المظاهرات النسائية التي تحمل لافتات المساواة مع الرجل ، ومع ذلك فهي تستطيع أن تذهب بقضية المساواة إلى حدودها القصوى . وإذا كان الرجل يرى أن من حقه أن يلتقط امرأة من الطريق يرضي بها شهوته ، فهي أيضاً تستطيع أن تفعل بالرجال ما يفعلونه بالنساء ، وتبادر بنفسها لالتقاط رجل هي التي تختاره ، تحقق منه رغبتها وتتركه . وهي لم تعاشر مادلين البارحة إلا لأنها ترفض أن تكبت رغبة راودتها ، وعلاقة مثيرة لا تريد أن تبقى جاهلة بأسرارها . سوف لن تعود لممارسة هذه النوع من الحب ، لأن ذلك يتناقض مع شخصية امرأة مثلها ، تعي أنوثتها وتحتفل بها . ليس ما تقوم به ساندرا ، شذوذاً يقتضي الغضب والاشمئزاز ، إنها امرأة لا تخون ذاتها ، ولا تخشى أن تحقن برحيق التجربة والمغامرة ، دورة الدم في عروقها . لا تنتمي لأحد إلا لنفسها ، ولا تسير على هدى أضواء المصابيح العامة ، وإنما على هدي الضوء الذي ينبع من قلبها .

إنني وأنا أنكر سلوكـهـا ، لا أنكره من قلبي ، وإنما أنكره بأقنعـتي التي حـاك سـداها ، ونسج خيوطها ، عنكبوت الزمان . ولكن سـاندرا طردت العنكبوت من فوق وجهها ، وسارت تستقبل الشمس والهواء ، بوجه لا يعرف الأقنعة .

تحرشت بها كثيراً حتى أغضبتها . سألتني أن أذهب إلى الجحيم ، وتركتني جالساً في حانة العناقيد ، وعادت إلى غرفتي ، لنقل أغراضها وملابسها ، بعد أن قررت طردي من أرضها وسمائها . استمر هذا الخصام ثلاثة أيام . وانتهى بليلة عامرة بالمودة والحنان ، وكأننا عاشقان أضناهما فراق طال عدة أعوام . أدركت أني غارق في حب هذه الفتاة العابثة ، التي تكره الارتباطات والالتزام بالنواميس ، والتي أعرف أنها سوف تتركني ذات يوم ، ألعق جراحي ، وتمضي تتسلق الأفق بصحبة رجل جديد . إنني عاجز عن الانعتاق من سحرها ، ولن أجد في يوم من الأيام الشجاعة على المبادرة بهجرها ، ولذلك عدت إليها باسطاً كفي ، أطلب الصفح والمغفرة ، لأنني قمت في أول يوم من أيام الخصام ، بعمل صبياني رغبة في إيذاء مشاعرها ، ندمت عليه كثيراً . لم أبق جالساً في الحانة عندما رمتني بشتائمها وخرجت . انطلقت بعدها ، أسرع الخطى إلى شارع الأمير ، ألتقط من فوق أرصفته ، امرأة من بائعات المتعة . كانت امرأة أربعينية ، ملأت وجهها بالأصباغ والمساحيق ، لتخفي حقيقة عمرها . وكدست كميات هائلة من أحمر الشفاه ، صنعت لها شفتين فوق شفتيها ، وارتدت تنورة من الجلد تلتصق بجسمها ، لها شق طويل يكشف بياض فخذها . ووقفت بجوار إعلان كبير عن فيلم هندي ، تنتظر زبائنها . لم أكن أملك وقتاً للانتقاء ، أو انتظار امرأة أخرى أكثر جمالاً ، وأقل تعبيراً عن مظهر المومس منها . كنت مستعجلاً أريد أن أدرك ساندرا قبل أن تغادر غرفتي ، كي ترى هذه المرأة معي . ثم أن وجودها بهذا الشكل الفاقع يخدم أهدافي بأكثر مما يخدمها شكل أقل إثارة ، فأنا أريد أن أقول لساندرا بأنني أختار عليها أكثر المومسات تلوثاً بالأصباغ ، وأرضى بها بدلاً منها ، وهروباً من قبح ما فعلت .

دخلت بها إلى غرفتي ، فوجدت ساندرا واقفة قرب الموقد تشوي قطع اللحم

وتهيء لنا عشاءنا . انتهت لحظة الغضب ، وبدلاً من جمع أغراضها والعودة إلى غرفتها . أعدت الصحون وسفرة الشراب وهيأت الغرفة لعرس المصالحة . جعلتني المفارقة أبكمَ ، فوقفت ساهماً لا أجد ما أقول .

- ما هذا الشيء؟

- إنها امرأة .

- لعلها كذلك . ولكن ما الذي تفعله هنا؟

قلت مرتبكاً بعض الكلمات التي لا معنى لها . تركت ساندرا الشواء وسفرة الطعام والشراب . صفقت الباب وراءها . ولم أسمع من شتائمها سوى :

- ابن الزانية .

سألت المرأة أن تأخذ حماماً ، وأن تنزع عن وجهها الأصباغ وعن شفتيها أحمر الشفاه . بدت أكثر إنسانية وهي تعود إلى طبيعتها ، وظهرت مسحة جمال باهت أبقت عليه الأيام والأرصفة . ومقارنة ببعض المومسات اللاتي عرفتهن ، ووجدت فيهن رجولة لا تتفق مع طبيعة الأنثى ، كانت هي أكثر أنوثة منهن . فقد ذهب في ظني أن المومس ، امرأة أصيبت باضطراب في الغدد التي تفرز الهرمونات ، بحيث صارت هرمونات الرجولة فيها أكثر مما في الأنثى الطبيعية ، ولهذا فإن المومس كما رأيتها امرأة تكره أنوثتها لأنها جاءت أنوثة ناقصة ، وتحقد على الرجال لأنها لا تستطيع أن تكون منهم . فاختارت هذه المهنة التي تذل بها أنوثتها وتستخدمها أيضاً في إذلال الرجال . سوف لن أنخدع هذه الليلة ، وأنا ألتقي في غرفة مغلقة مع إحدى نساء المهنة ، كما تقوله كتب الأدب . لأن تلك المومس التي صنعها الأدباء ، وأضفوا عليها أردية الفضيلة ، وجعلوها ضحية الظلم الاجتماعي ، مومس نادرة في دنيا الواقع . إنهن يجئن إلى هذه المهنة باختيارهن ، مدفوعات بشيء آخر غير الرزق . مدفوعات بقوة الغريزة وخطأ الطبيعة التي أفرزت في أجسادهن الأنثوية من نسغ الذكورة ما لا يحتمله جسد المرأة ، فتلون الطبع كما تلون الصوت بخشونة الرجال ، ونما الشعر فوق الساقين والذراعين ، وبقيت آثار إزالته من فوق الوجه مساحة بيضاء بلون الشمع ، لا تفلح الدهون والأصباغ

في إخفائها . كنت أعرف أنني أبالغ في أفكاري ، وبحكم أنني أدرس الجنس دراسة منهجية ، أدرك أن هذه النظرية التي ابتكرت حول الدعارة ، تحتاج إلى اختبارات حقلية كثيرة لإثباتها ، لقد جاءت هذه المرأة لتشهد العلاقة التي تتقوض بيني وبين ساندرا ، فلماذا لا أنتشل من بين الأنقاض شيئاً أستفيد به في تأسيس نظريتي ، ويقدم لي تبريراً أكثر وجاهة لإبقائها معي هذه الليلة . اعتبرتها عينة صالحة لإجراء اختبار سريع ، وفاجأتها بسؤال عما دفع بها إلى هذه المهنة . وعندما قالت بأنه الرزق ، كنت مستعداً لنقض هذه الإجابة الباطلة . ما أكثر الموارد المتاحة للرزق ، التي تستطيع امرأة تقطن هذه البلاد أن تجدها خارج مهنة الدعارة . وسردت أمامها لائحة طويلة بكل المهن التي يمكن لامرأة لا تحمل مؤهلاً أن تزاولها ، من عاملة بمصانع النسيج إلى ساقية بإحدى الحانات . فكيف لا تستطيع أن تجد مهنة شريفة لو أرادت؟

لماذا أعذب هذه المرأة التي رمى بها سوء طالعها في طريقي . إن واجبها حسب النظرية التي أسعى لتأسيسها ، أن تتولى هي تعذيبي . أجابت باقتضاب أن هذه المهن جميعها تجلب لها الضجر .

واصلت استجوابها وكأنني محقق جنائي عثر في أقوال المتهمة ، على دليل إدانتها :

- ليس الدافع هو الرزق إذن؟

لم يكن ما قالته رداً على هذه الجملة الاستنكارية ، اعترافاً جاء نتيجة الانهيار ، فهي فيما يبدو فخورة بمهنتها ، ولا ترى فيها تهمة يجب إنكارها .

- من قال أن المهن الأخرى أكثر شرفاً من هذه المهنة؟ .

إنني لا أكذب ولا أسرق ولا أغش أحداً ، وما أقوم به ليس إلا عملاً يجلب رزقاً كأي عمل آخر . اخترته لأنني أحبه أكثر من غيره ، ولأن كل خطوة أخطوها مع زبائن الليل ، إنما هي بداية تجربة جديدة . إنسان جديد ، ومغامرة جديدة . ولذلك فإنني لم أستطع أن أتآلف مع أية حياة أخرى . حتى عندما سافرت إلى بلاك بول ، ذات الملاهي الكثيرة ، بصحبة بحار تزوجني وملأ بيتي بأفخر أنواع

السمك ، فإنني سرعان ما هربت من قفصي وعدت إلى فضاء وهواء شارع الأمير.

أسعدني أنها لم تقتبس من الفيلم الهندي الذي كانت تقف تحت إعلاناته ، قصة تمتلئ بالكوارث والأطفال المرضى والأزواج الذين قتلتهم الحوادث ، ابتزازاً للعواطف وطمعاً في مزيد من النقود . تكلمت عن مهنتها باحترام وحب ، وقدمت لي ما يثبت صحة نظريتي وينقض أطروحات الأدب الذي تأسس على مبدأ المومس الضحية . ومكافأة لها أطعمتها من طعامي ، وسقيتها من شرابي ، ودخلت بها راضياً إلى فراشي . مر زمن طويل لم أعاشر امرأة من نساء مهنتها . وسأسعى أن أستحضر بالنوم معها ذكريات دهشتي الأولى عندما اكتشفت الجنس مع امرأة عامة مثلها ، بأمل أن يقرب ذلك ، المسافة بيني وبينها ، ويجعل مهمتي معها أكثر يسراً . كانت طرابلس في ذلك الوقت الذي وصلت فيه سن البلوغ ، تملك شارعاً تخصصه لبيوت الدعارة العلنية . أو كما كنا نسميها ، «بيوت الدعارة الحكومية» ، لأن الحكومة هي التي كانت تتولى الإشراف عليها . وكما يحدث مع الأولاد الذين في سني ، فإن هناك دائماً صبياً اكتشف هذه العوالم قبلنا ، وجاء مبهوراً يحدثنا عنها . تسري الدماء حارة في عروقنا ، وتستيقظ تلك الرغبة الحارقة في أجسادنا ، فننسى أحاديث الفقهاء ، وخطباء المساجد وكتب الأخلاق الحميدة ، وندس رؤوسنا ، بعضها في بعض ، ننسج خيوط المؤامرة الصغيرة التي ستقودنا إلى ذلك المكان . تدبرت ثلاثين قرشاً ، كانت هي تسعيرة الدخول ، وانتظرت وأنا أحمل في قلبي لهفة الوثوب فوق المرأة العارية ، اليوم الموعود الذي حددناه للزيارة ، وذهبت مع اثنين من صحابي ، نجلس في سقيفة أحد هذه البيوت ننتظر دورنا . لم أكن أظن ، أو أحلم ، أن هناك في الدنيا عالماً يشبه هذا العالم . رأيت نساء البيت عاريات إلا من الغلالة الشفافة المعلقة بالحلمتين والهابطة إلى مستوى الفخذين ، لا تغطي الجسم وإنما تزيده عرياً ، وهن يذهبن ويجئن . يداعبن بتعليق فاحش أحد الزبائن ، أو يتبادلن الحديث مع المرأة العجوز التي جلست فوق كرسيها العالي في نهاية السقيفة تدير العمليات وكأنها

إحدى إلهات المتعة فوق جبل الأولمب . كان الكلام كله يدور حول الجنس الذي يسمى هناك بأكثر أسمائه صراحة ، مليئاً بذكر الأعضاء التناسلية التي لها أيضا أسماء لا تذكرها الكتب . رأيت قبل أن أدخل البيت ، امرأة تخرج إلى الشارع من بيت مجاور ، تطارد رجلاً وتشتمه . استمعت إلى قاموس شتائمها فاستغربت كيف تستطيع امرأة جاهلة من نساء هذه المهنة ، أن تصنع بكلماتها البذيئة المتدنية ، قصيدة هجاء لن يستطيع إلا شاعر ملك قوة الخيال ، أن يصنع صوراً ويبني عالماً مثلها . كانت تشتم الرجل وتعيره بضآلة أداته الجنسية التي تشبه نملة صغيرة حمراء ميتة ، وتأتي في شتائمها على عضو الرجل الذي قذف بجرثومته ، والرحم الذي حمله وأخرجه إلى الدنيا ، وأعضاء المرأة التي ترضى بالزواج منه دون أن تخونه مع أول كائن يحمل عضو الذكورة حتى لو لم يكن رجلاً . كان الصيف قائظاً ، وكانت رائحة اللحم البشري الذي ينز عرقاً تملأ المكان . جلست المرأة العجوز تحمل مروحة ملونة ، مصنوعة من سعف النخيل ، تطرد بها الحر والذباب ، وتستحث صبياً في مكان ما من البيت أن يأتي بطاسة الشاي . وفي وسط السقيفة وقف رجل بهيئة مزرية ، وشعر ذقن لم يعرف الحلاقة ، تفوح منه رائحة الخمر والعرق ، يغني أغنية فاحشة عن رجل عجوز يتذكر صبواته ، وغزواته النسائية ، ويناجي أحليله الذي صار هامداً لا حياة فيه . فتضحك المرأة العجوز بفم يمتلىء بأسنان ذهبية ، وتسأله أن يعيد مقاطع الغناء . كنت أدور بعيني في كل اتجاه حولي ، وأنا أمتلئ اندهاشاً لأن المدينة التي أحيا بها ، وأعرف شوارعها شارعاً ، شارعاً ، تضم مكاناً مثل هذا المكان . أدارت له الشوارع الكبيرة ظهرها ، فاختبأ خلفها دون أن أستطيع الاهتداء إليه . هذا إذن هو ماخور المدينة ، الذي صنع منها أصحاب الرأي والمشورة ، سلة مهملات يقذف فيها الرجال ، الفائض من أوساخ غريزتهم . جلست أرقب هؤلاء الرجال الذين ينتظرون دورهم ، في لهفة وجوع إلى لحظة الجنس ، والآخرين الذين أنهوا مهمتهم وخرجوا وقد اختفت اللهفة من عيونهم ووجوههم . حل مكانها تعبير يحمل معاني القرف والاشمئزاز ، ما إن يصل الواحد منهم عتبة الباب حتى يرمي فوق الأرض بما

تجمع في فمه من بصاق .

دخل رفيقاي وجاء دوري ، فأشارت المدام بمروحة السعف إلى الغرفة التي يجب أن أدخل إليها . وجدت نفسي متردداً ، متهيباً ، واقفاً لا أتحرك ، والمرأة تنظر نحوي بضجر ونفاد صبر . لا شك أنها شاهدت صبيان كثيرين قبلي يداهمهم مثل هذا الرعب .

- ما بك يا روح عيني ، ألا تبغي أن . . .؟

وقالت تلك الكلمة المهولة التي لم أسمع طفلاً يرددها إلا تشتت أهل البيت خجلاً وذعراً ، وجاء أحدهم يوسعه ضرباً ويسأله ألا يعود إلى قولها مرة أخرى . بقيت أتلفت باحثاً عن شيء ينجيني من حصارها . وجدت أن هناك رجلاً جاء قبلي ، فقفزت على هذا العذر وأشرت إلى الرجل قائلاً :

- جاء قبلي .

سألتني أن أدخل فهو ينتظر امرأة أخرى . ولا أدري كيف واتتني الشجاعة لأقول بأنني أنتظرها أنا أيضاً . كنت أبحث عن أية ذريعة تتيح لي تأجيل لحظة المواجهة . لابد أن تكون هذه المرأة التي وجدت رجلاً يعتني بانتظارها ، ولا يرضى بمعاشرة امرأة غيرها ، أكثر نساء البيت جمالاً . نظر الرجل بغيظ نحوي وكأنني جئت أغتصب زوجته . أدرت وجهي عنه ، وجاء دوره سريعاً ، فراقبت الغرفة التي يدخلها ، وما أن أنهى مهمته حتى قفزت من مكاني وذهبت إليها . كان بالغرفة دولاب له مرآة كبيرة ، وسرير مزدوج تغطيه ملاءة حمراء ، وفي إحدى زوايا الغرفة جلست المرأة فوق حوض مثبت بالأرض ، تغسل آثار الرجل الذي انتهى للتو من زيارتها . وبرغم أنها كانت أكثر جمالاً وأصغر عمراً من بقية النساء اللاتي رأيتهن في السقيفة ، إلا أن مشهدها وهي تجلس فاتحة ساقيها فوق الحوض ، كان يتناقض تناقضاً فاجعاً مع تلك الصورة التي رسمتها في خيالي لهذه الزيارة . أطلقت السلام فلم أسمع رداً . جففت المرأة أطرافها ومدت يدها تأخذ النقود . ارتمت فوق السرير والعلكة ما تزال في فمها . فتحت ساقيها تنتظرني وتستحثني أن أنتهي من نزع ملابسي . إنها المرة الأولى التي أرى فيها جسداً أنثوياً عارياً إلا من

الغلالة التي ارتفعت فوق السرة ولم تعد تغطي إلا جزءاً من الصدر ، ملقى أمامي فوق الفراش الأحمر ينتظر فحولتي ، نظرت متهيباً ، إلى الجسد العاري ، ووضعت بصري فوق ذلك الموضع الذي جعلوه موئلاً للعفة والشرف ، والذي ألهم البشرية تراثاً من الأساطير والقصص والأغاني . ها هو الآن أمامي ، مغسولاً بالماء من أجلي ، جاهزاً ومباحاً . رأيت هذا الجسد كثيراً في أحلامي ، وتقلبت محترقاً بجمر الشهوة فوق سريري ، أمني النفس باحتوائه . ورأيت أيضاً هذه المنطقة الظليلة التي تشبه دغلاً يختبئ بين الرمال ، وتشوقت كثيراً لاقتحامها . فما الذي يجعلني الآن خائفاً ، متردداً . أنزع ملابسي ببطء كي أتيح لنفسي وقتاً أطول ، وأنظر إلى ذلك المكان المشتهى ، لأستمد منه العزم والقوة ، فلا يزيدني منظره الموحش ، وشعره الأسود ، الطالع بعد حلاقة ليست بعيدة المدى ، إلا بروداً وارتجافاً . انتهى سريعاً طقس خلع الملابس ، وحانت اللحظة التي سأختبر فيها رجولتي . نظرت إلى صورتي عارياً في المرآة . كان العرق يغسل جسدي ، وتعبير بائس يغطي ملامح وجهي . نفخت متأففاً من شدة الحر ، ولكن قشعريرة لا تصنعها إلا أقسى ليالي الشتاء برداً ، تداهمني وتملأ قلبي ثلجاً ، وتجعل أطرافي تنكمش وتتداخل بما في ذلك السلاح الذي يجب أن أخوض به هذه المعركة . كنت مملوءاً بالحرج والخجل ، نادماً على دخول هذه الغرفة ، لا أرغب في شيء سوى الهروب . ولكن الباب موصد ورائي ، والجسد الأنثوي ملقى فوق الملاءة الحمراء أمامي ، ولم يعد بإمكاني أن أبقى واقفاً أكثر من ذلك ، لأن رجالاً آخرين ينتظرون دورهم . ارتميت فوق السرير بجوارها ، لعل الاتصال بها يبعث شيئاً من الحرارة في أوصالي . حاولت أن أقبلها ، فمنعتني من الوصول إلى فمها ، أو الاقتراب بأصابعي من نهديها ، فهي لا تبيع من جسدها إلا مربعاً صغيراً يجب أن أهتدي إلى وسيلة للتعامل معه . أغمضت عيني واسترجعت صورة المرأة الأخرى التي رأيتها مرسومة فوق أغلفة المجلات وصنعت منها خليلة أعاشرها آخر الليل . نجحت الحيلة ، وسخنت في عروقي الدماء الباردة ، فدخلت بسرعة بين فخذيها ، وأكملت المهمة في دقيقة واحدة .

صرت بعد ذلك أعود إلى المرأة ، كلما ادخرت ما يكفي من القروش لزيارتها ، حتى نشأت ألفة بيني وبينها ، وصارت تسألني أن أهرب من أهلي لكي أتزوجها . فهي لديها من المال ما يكفي لإعالتي حتى أكمل تعليمي . وكنت أستجيب لدعوتها كاذباً ، وأسألها أن تمهلني حتى أجد الفرصة المناسبة للهروب . فتحيطني برعايتها ، وتمنحني فمها أقبله ، وتنزع الغلالة لأرى نهديها ، وتبقيني لديها فترة أطول مما تبقي الآخرين .

وقبل أن ينتهي عام واحد من علاقتي بها ، أصدرت الحكومة قراراً بإلغاء البغاء . طردوا النساء وأقفلوا البيوت وجئت ذات نهار لأزورها ، فوجدت البيت مغلقاً ، والشارع خاليا . اختفت طوابير زبائن المتعة ، وانطفأت الأعراس التي تقيمها نساء الغلالات الحريرية . حزنت لفراقها ، ولم أعرف سبيلاً أقصده للبحث عنها ، أو عن امرأة أخرى تحل مكانها في حياتي . أدركت رعب الفراغ الذي سيطاردني لأعوام كثيرة قادمة . وأرسلت إلى الصحيفة الرسمية ، رسالة ألعن فيها الحكومة ، لأنها أقفلت البيوت العامة ، نفاقاً ، وانتصاراً للدعارة النفسية . وإن القرار بقفل بيوت الدعارة الحكومية ، ألغى البيوت ، وأبقى «الدعارة الحكومية» التي يمارسها رجال ، يغلقون هذه البيوت ، ويفتحون لعشيقاتهم بيوتاً سرية .

عاودني ، وأنا ألتقي بهذه المرأة ، ذلك الذعر القديم الذي داهمني لحظة أن دخلت بيت الدعارة لأول مرة . لم أستطع بكل خبرة العشرين عاماً التي تفصل بين اللحظتين ، أن أفلح في تحقيق اتصال جنسي معها . استعنت عليها بالشراب ، ودعوتها لأن تقاسمني زجاجة ثانية من النبيذ . فلا يزيدني الشراب إلا فتوراً وعجزاً . لو كنت مقيماً ببلاد شرقية لقلت أن ساندرا جلبت لي سحراً يمنعني من الاتصال بامرأة غيرها . ولكن ساندرا لا تعرف الطريق إلى كتاب الأحجبة ومصاحبي ملوك الجان . فمن أين جاءتني هذه العنة؟ والمرأة تستعين بكل فنون الحب التي تتقنها لكي تعيد الحياة إلى قطعة اللحم الميتة ، دون جدوى . ويائساً استسلمت للنوم . وفي الصباح أخذت المرأة أجرتها ، وارتدت أصباغها ، وعادت إلى أرصفة شارع الأمير .

وعندما تصالحنا قلت لساندرا :

- سألتني المرأة عنك ، فقلت لها أنك شقيقتي .

- يجب أن أعاملك منذ اليوم على هذا الأساس .

- لا شك أنها ما تزال مشغولة بحل هذا اللغز الذي يجعل امرأة حمراء كأزهار النار ، شقيقة رجل أسمر كصخر الجبال البركانية .

- ربما لأن الاثنين ينتميان إلى النار .

- كنت أحمق عندما حاولت الإساءة إليك .

- لم أغضب إلا لأنني رأيتك تهين نفسك وتسيء إليها .

اعتبرت أن كلامها شاهد ، على أنه بقدر ما تستفزها البراءة الغشيمة . فإنه أيضاً يستفزها هذا الابتذال الذي يقيم للحب أسواقاً ورقيقاً . فما ساندرا إلا امرأة الإرادة الحرة ، ومهرة الجبال العالية ، التي تركض عبر الطرقات الوعرة ، تشرب من ينابيع الماء والضوء .

بدأت حانة العناقيد تشهد عودة الزملاء الذين غابوا أثناء إجازة الصيف . عرفت ، عندما ذهبت إلى هناك ، أن عدنان جاء إلى الحانة يسأل عني . تذكرت أنني خلال عطلة الصيف لم أتحدث بالعربية مع أحد إلا ما أتبادله من كلمات قليلة مع صاحب المطعم المصري . إنني أشتاق إلى الاستلقاء في حدائق اللغة التي نسميها «الأم» ، تعبيراً عن عمق الوشائج التي تربطنا بها . انتظرت مجيء يوم الأحد ، وذهبت مع المساء إلى شقته ، المحاذية لحديقة الحيوانات . لم يكن بالبيت مصعد ، فتسلقت الدرج حتى وصلت لاهثاً إلى الطابق الرابع . استقبلني عدنان على عتبة الباب بطريقته الاحتفالية معانقاً ومعاتباً لأنه منذ عودته وهو يسأل عني ، ويتصل هاتفياً بالبيت الذي كنت أسكنه ، فيجد أناساً أغراباً لا يعرفونني . قلت له وأنا ما زلت أستلقط أنفاسي ، إنه يأبى بشخصيته الهجومية . إلا أن يبدأ بالعتاب ، مستغلاً عدم قدرتي على النطق بعد صعود هذه السلالم . ناسيا أنه هو الذي اختفى اختفاءً غامضاً يثير الشبهات . دخلت فوجدت المرأة الهندية ترتدي جلباباً منزلياً وتجلس في الصالون تشرب القهوة . أدركت أن فرصة

حديث باللغة العربية أعيد به الاستقامة للساني الذي أعيته الرطانة ، قد ضاع مع وجود هذه المرأة . كنت أتساءل وأنا أراهما يخرجان معاً ، إذا ما كانت هناك علاقة حب بينهما ، وأرى أنهما ولسبب غامض لا أدريه ، يليقان ببعضهما . لعل هذا التشابه الخفيف في ملامح وجهيهما هو الذي أوحى لي بهذا الانطباع . لكن ما حسبته علاقة بين «أنار» ودونالد هو الذي ضللني وجعلني لا أدرك عمق علاقتها بعدنان . إذ لا أرى موجباً لوجودها بهذا الجلباب ، في بيته الذي لا يحتوي سوى غرفة نوم واحدة ، إلا إذا كان ما بينهما ذا طابع خاص وحميمي . انشغلت «أنار» بالتطلع إلى فنجان قهوتها ، فوثبت على الفرصة لأحادث عدنان باللغة العربية وأسأله عن سر اختفائه المفاجئ من هذه المدينة التي صارت وطناً بالنسبة له ، بعد أن جاهر باختلافه مع النظام في بلاده ، وضحى بالمنحة التي كان يتقاضاها ، ليلتقط رزقه بترجمة النشرات الطبية ، وما عاد بإمكانه أن يعود إلى هناك الآن .

- كنت أحتاج إلى بعض المصادر عن تأثير الفلسفة العربية في بعض فلاسفة الغرب ، فذهبت أبحث عنها في مكتبات لبنان .

- وهل ضاقت الدنيا بالمصادر حتى تبحث عنها تحت قذائف الحرب .

- هذا ما قلته للجامعة التي منحتني رسالة تساعد في تسهيل مهمتي . أما ما أقوله لك ، فيجب أن يبقى في هذا المكان . لم أذهب باحثاً عن مراجعي في مكتبة الجامعة الأمريكية هناك ، وإنما ذهبت إلى معسكرات الفدائيين في الجنوب .

كان جنوب لبنان في هذا الوقت يغذي الإذاعات بأخبار المعارك التي تشتعل فوق أرضه . كنت أعرف انه انتمى في سنوات مضت إلى إحدى المنظمات الفدائية اليسارية ، وحارب معها لأكثر من عامين ، ثم ترك العمل الفدائي بعد أن خرجت المقاومة من الأردن ، وجاء لإكمال دراسته العليا .

- لم أذهب هذه المرة محارباً ، وإنما محاضراً في معسكرات الإعداد العقائدي .

لم يشأ أن يتحدث عن تفاصيل الأشهر الثلاثة التي قضاها بين الفدائيين . واكتفى بالكلام عن الشيء الذي رآه يولد وسط النار والرماد ومآتم الشهداء .

والذي لا يستطيع أن يدرك مدى قوته إلا من عايشه معايشة يومية .

– لم أعد أرى النصر احتمالاً ، وإنما حتمية تاريخية يصنعها رجال ونساء عشت معهم ورأيتهم وهم يتزنرون بالنار ويؤسسون أسلوباً جديداً لإدارة الصراع . يقتحمون بأجسادهم المشتعلة الأفق المغلق ، ويكتبون بدم الشهادة واقعاً جديداً يسطع بفجر الوعد والبشارة .

تحدث بتدفق وانفعال ، مستخدماً هذه اللهجة الحماسية التي أعادت لملامحه الومض والاشتعال ، قائلاً أنه ذهب إلى هناك محبطاً حزيناً ، يحاول أن يقاوم عوامل الانهيار في نفسه ، وعاد مشحوناً بالأمل بعد أن اهتدى إلى مراجعه الحقيقية هناك . رأى المرأة تنصت بصمت إلى كلماته التي لا تفهمها ، فترك لغة المعارك ، وتحول إلى الإنجليزية يسألني عن أخباري التي أوجزتها له في جمل قليلة ، وأدرت وجهي أسأل «أنار» عما رأته في الفنجان . ردت بأنها لم تر شيئاً لأنها لا تستطيع قراءته . كانت فقط تتأمل كيف يقدر بعض الناس على تفسير هذه الرموز واكتشاف هذه العوالم التي تختفي في فنجان القهوة . قلت لها بأن قراءة البخت ليست إلا عملاً من أعمال الخيال . ولن يكون غريباً أن تتوافق وقائع حياتنا مع ما يقوله صاحب الخيال من نبوءات ، لأننا ننسى أن للخيال قوة ، وقدرة على النفاذ إلى قلب الأشياء . وقلت لها أيضاً أنني أستطيع الآن بهذه القوة أن أخترع لها وقائع أستوحيها من بقايا قهوتها ستكون مطابقة لوقائع حياتها التي أجهلها . كانت مجرد حيلة لأن أجعلها تتكلم قليلاً عن نفسها . أخذت منها الفنجان واخترعت لها مهراجاً عظيماً يملك المزارع والعقارات وجعلته جدها لأمنحها عراقة النسب . ثم صنعت لها كوارث أضاعت الثروة وقضت على الأب . وجعلتها تهرب من همومها إلى هذه المدينة لتلتقي برجل به أوصاف عدنان ، يكون مصدر سعادة تبدد أحزانها ، وتفتح صفحة مشرقة في حياتها . شهدت لي «أنار» بأنني من عظماء قراء الفناجين ، برغم أن جدها لم يكن مهراجاً ، ووالدها مازال حياً ، ويستعد بعد أن أخذ تقاعده من وظيفته الحكومية ، للهجرة إلى لندن ، للالتحاق بأخيها الذي يملك دكان بقالة هناك . عرفت منها

أنهما فعلاً اتفقا على الزواج ، وإنهما يعيشان معاً بانتظار استكمال الأوراق الرسمية لإتمام مراسيمه . فرحت لهما فرحة صادقة ، وتمنيت لهما السعادة في الحب والزواج ، وخرجت من بيتهما أفكر في المواقف والرجال .

كان الهواء منعشاً ، ومفعماً برائحة أزهار الحديقة القريبة وأشجارها . أحببت العتمة التي تمزقها أحياناً أضواء السيارات المارقة ، والإنصات إلى هسهسة الأوراق التي تتكسر تحت خطاي . فأردت أن أستمتع بوحدتي ، وأن أعود إلى بيتي مشياً على الأقدام .

بعيدة هي المسافة بيني وبين عدنان . بعيدة هي المسافة بين روحي وروحه . من أين يأتي أمثاله من الرجال بهذه الطاقة الهائلة التي تحيل الأقوال إلى أفعال ، وتجعلهم يقتحمون حقول النار ويسافرون باختيارهم إلى أرض المعارك والمواجهات الساخنة . يجاهرون بعدائهم لأكثر أنواع الحكام شراسة وعنفاً ، ، ويحملون فوق صدورهم شاراتهم المتعددة الألوان ، ويطوفون بها بين الناس ، يؤسسون رأياً عاماً للقضايا التي يؤمنون بها ، ويجدون بعد ذلك وقتاً للدراسة ، ووقتاً لالتقاط الرزق وآخر لعلاقات حب هادئة تنتهي بالزواج . أراد عدنان أن أكون نافعاً مثله . رأى قلبي فارغاً ، فأراد أن يحشوه بالوقود الذي ذهب يعبئ به فتيان الثورة في لبنان . لكن قلوب أولئك التلاميذ قلوب خضراء ، وقلبي متيبس أفسده دخان الحانات ودخان الأساطير . رآني مستقيلاً من القضايا العامة ، زاهداً في الدخول إلى ميادين الصراع ، أرفع راياتي البيضاء وأعلن الحياد ، فأهملني كعرف شجرة مقطوع ، تعبث به الرياح والأهواء . كانت كلماته حول أهمية أن يكون للإنسان هدف يمنح حياته معنى ، ويجعل من وجوده إضافة للوجود الإنساني ، تسقط تحت قدمي ، كما تسقط أوراق الشجر الميتة . أتدبرها فلا أجدها تخاطب شيئاً في نفسي ، ولا أرى فيها إلا فراغاً يكسي نفسه بالكلمات الكبيرة التي لا أعرف لها معنى . أتركه وأمضي إلى كأسي وامرأتي ، وجواري ألف ليلة وليلة وعشاقهن ، وقد أدرت وجهي عن عالم عدنان المليء باللافتات والشعارات ، معتذراً له بأنني لم أخلق لهذه الأشياء ، دون أن يفوز مني بجواب عن الأشياء التي خلقت

لأكرس حياتي لها . يبقى السؤال الهارب ، هارباً . وتبقى الذات التي تبحث عن سكن ، تدور في متاهة المرايا المقعرة . كل إنسان يعبر في النهاية عن تلك «الأنا» التي تريد أن تجد مكاناً فارغاً تؤسس فوقه وجودها وتحقق انسجاماً ما بينها وبين عناصر الكون ومظاهره . كلنا نمضي في الحياة مدفوعين برغبة أن نعرض ذواتنا وننتزع اعتراف الآخرين بنا . رغبة نحملها معنا منذ صرختنا الأولى على سرير الولادة . حتى أكثر الناس انطواء ، وانسحاباً من الحياة إنما يقول بهذا الموقف الاحتجاجي ، شيئاً يثير فضول الآخرين . لقد وجد عدنان بيتاً لـ «أناه» التي ترضيها الأهداف الكبيرة والقضايا الساخنة ، فمضى مستمتعاً بنعمة اليقين ، واثقاً من أنه اهتدى إلى نفسه ، وعرف الطريق الذي يرضي الأنا ويحقق رغبتها في الحصول على هذا الاعتراف . وبقيت تائهاً لا أهتدي إلى بيت تستقر فيه ذاتي ، ولا شرفة معلقة في الفضاء أعرض منها نفسي . ذهبت إلى أكثر أنواع الاستعراض مباشرة ووضوحاً ، وهو التمثيل . أبحث عن سوق لذاتي في بهو المرايا . واستحضرت عوالم ألف ليلة وليلة ونقلتها إلى دوري ، وتسكعت بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وبين مدن الشرق ومدن الغرب ، أبحث عن مساحة خالية أقف عليها ، وأضع رايتي فوقها ، وأقول هذه تخوم دولتي ، فلا أجد سوى الخواء . إنني أغبط عدنان على يقينه ، وأنكر على نفسي هذا الضياع الذي أعيشه . وأرجع إلى داري منهكاً ، بعد هذه المسافة الطويلة التي مشيتها في الظلام ، ولكن الصحوة التي داهمتني تمنع عني النوم ، وتمنحني إحساساً بلا جدوى الأشياء . حتى في الأيام التالية وأنا أجلس في المكتبة حانياً رأسي فوق بطاقات البحث التي ملأتها بأخبار المباذل والشذوذ ، أجد هذا الإحساس بالعبث ينسحب على بحثي . ها هي البطاقات تمتلئ بالأزواج الذين ينتقمون من عشاق زوجاتهم بقطع أحاليل العشاق ، والنساء اللاتي يستدرجن رجالاً إلى مضاجعهن ويقتلنهم بعد ليلة حب ومجون ، والرجال الذين يغتصبون المرأة ثم يقتلونها . وغير ذلك من أحداث يختلط فيها العشق والجنس بالعنف والموت ، فأجد أن دائرة العبث قد أحكمت حلقاتها ، وأنني من حيث لا أدري أحقق انسجاماً بين الفكرة

والتطبيق ، وما حياتي بالليل إلا امتداد لما أكتبه بالنهار . ولأمر ما أحسست في تلك اللحظات بأنني وقعت أسيراً في شراك نصبتها لي ألف ليلة وليلة . إنها هي التي تستخدمني ولست أنا الذي يستخدمها لنيل شهادته . وهي التي تكتبني بدلاً من أن أكتبها . تبسط نفوذها على عقلي وقلبي وسلوكي ، وتجعلني أداة في يدها ، لا أتكلم إلا بصوتها ولا أنشغل إلا بقضاياها وهمومها .

- أريدها أن تكون إضاءة لعبقرية الخيال . .

ما أكثر ما نخدع أنفسنا فنحسب الوهم حقيقة . ظننت واهماً أنني اخترت ألف ليلة وليلة ، موضوعاً لرسالتي ، في حين أنها هي التي اختارتني موضوعاً لرسالتها ، وعينتني مندوباً لعصرها ، وصبغت حياتي بألوانها . وأيقنت بأنه لا طريق أمامي لكي أسترد حريتي ، وأعود إلى شخصيتي التي سرقتها الأسطورة ، إلا بأن أنتهي سريعاً من إنجاز أطروحتي . إنني لم أستطع أن أفهم ما يقوله عدنان ، لأنني لا أنصت إليه بمسامعي ، وإنما أسمعه وأتلقاه بمدارك ألف ليلة وليلة ، فأجده خالياً من المعنى ، بعيداً عن عوالمها التي لا تعتني إلا بأعراس القلب العاشق وهمومه ، وأفراح الجسد وصبواته ومباذله . إنني لا أنكر ما ألقاه من متعة في صحبتها . ولكنني لا أريد أن تكون حياتي ارتهاناً كاملاً لها . وأن أظل كائناً لا يقف على الأرض ، ولا يطير في السماء ، معلقاً على الدوام ، بخيوط الحرير العنكبوتية ، التي نسجتها حولي ، وشدتني إليها ، امرأة سرابية ، اسمها شهرزاد .

قررت إنهاء الرسالة بأقصى ما أستطيع . وحددت العطلة الصيفية القادمة موعداً لإنهائها . وصرت أكتبها وأنا مسكون بذعر حقيقي . خائف من أن تهزمني ، فأتركها وأنفض يدي من الدراسة كلها .

انشغلت ساندرا بفرقة التمثيل ، ودعتني لأن أذهب معها فاعتذرت . تحررت من عبء السهر والشراب معها ، فصرت أقضي وقتي كله بين المكتبة والبيت حيث ألتقي بها عندما تعود إليه ليلاً . وأثناء ذلك قابلت ليندا . ذهبت أحضر حفلاً صغيراً أقامه عدنان بمناسبة زواجه ، فوجدتها هناك . تناولنا الغداء وخرجنا نتمشى قليلاً بمحاذاة حديقة الحيوانات . جلسنا فوق مقعد يشرف على منطقة من

الحديقة تمتلئ بألعاب ومراجيح الأطفال . كان يوم أحد ، وبرغم الشمس التي أشرقت ، فقد كان البرد لافحاً . ارتدت معطفاً رمادياً فوق جلباب النساء الحوامل ، وقد بدت استدارة بطنها توحي بأن ميعاد مجيء الصغير ، أضحى قريباً .

- ها نحن نلتقي مرة أخرى .

كان عدنان قد أخبرني بأنه سيدعوها ، فلم يكن وجودها في بيته مفاجأة لي . ظلت ترمق الأطفال وراء سور الحديقة وهم يركبون المراجيح ، ولم تقل شيئاً .

- ظننت واهماً ذات يوم أن علاقتنا لن تنتهي أبداً .

مافائدة الحديث عن ماض لا يثير اهتمامها . انتقلت إلى الحاضر أسألها عن ظروف حياتها وكيف تقضي وقتها في ذلك الخلاء .

- أتسلى بكتابة مذكرات والدي عن سنين خدمته في الهند .

لا أعتقد أن الكتاب سيجد ناشراً ، ولا أظن أن أحداً يهمه ما حدث لوالدي في الهند . ولكنني وجدتها وسيلة مريحة ومسلية لتمضية الوقت .

مرت لحظة سكون وصمت . شردت خلالها ليندا ، فأعدتها من شرودها قائلاً :

- هل تقابلين دونالد ؟

لم يفاجئها السؤال . نظرت نحوي وكأنها أدركت ما أرمي إليه .

- ليس كثيراً . ثلاث أو أربع مرات منذ أن انفصلنا . أخبرني في إحدى هذه المرات إنه التقى بك .

لا بد أنه أخبرها أيضاً بما قاله لي . بكل تلك الأسرار التي أخفتها عني والتي لا يهمني منها الآن ، سوى مسألة واحدة هي أنني والد هذا الطفل الذي سيخرج قريباً إلى الدنيا .

كنت في تلك اللحظة أفتش عن مشاعر الأب في نفسي عندما سمعتها تقول :

- لا أدري ما أهمية أن تعرف أنك والده أو لا تعرف .

قالتها وهي لا تزال تنظر إلى أطفال الحديقة . برغم قسوة عبارتها ، فإنني حقاً

لا أدري ماذا سيتغير في مجرى الأحداث ، إذا عرفت بأن هذا الطفل جاءها عن طريقي . إنه طفلها ، وسيبقى لها ، وسيحمل اسم الرجل الذي كان زوجها . وما حياتي هنا إلا حياة مؤقتة . سطور ضئيلة في كتاب العمر . سأضع لها نقطة النهاية ، مع نهاية هذا العام الدراسي . هامشاً على متن الكتاب . هامشاً صغيراً . ضئيلاً . فلماذا أدعي لنفسي حقاً ليس لي ، أو أبحث عن التزامات أعرف أنه لا سبيل إلى الوفاء بها . من حق ليندا ألا تضع لهذه القضية اعتباراً كبيراً ، وأن ترى نفسها مثل شجرة حملت إليها الريح اللقاح . ولن يغير في الأمر شيئاً من أية شجرة جاء هذا اللقاح . وجدت نفسي أقول :

- إن ذلك يعني لي شيئاً كبيراً .

قلتها دون أن أعرف ما يعنيه لي ، ودون أن أفكر بما سوف أضيفه من عبارات تبرر هذه الجملة . أدارت نحوي وجهها ، ونظرت بعينين تمتلئان فضولاً ، تنتظر بقية الكلام .

- ما جاء هذا الجنين إلا ليؤكد بأن علاقتنا فعلاً لن تنتهي .

مرة أخرى أرى نفسي غير مدرك لما أريده بالتحديد سوى رغبة غامضة ، تطالبني بأن أسعى للفوز بهذه المرأة من جديد . رأيتها تبتسم وكأن ما أقوله شيء لا يستحق سوى الإشفاق والرثاء . إلا أن ابتسامتها أشعلت في نفسي تلك العاطفة الحارقة التي أحملها لها . عدت عاشقاً لا يرى في الدنيا إلا هذا الخط الهابط من حاجبيها إلى صدرها ، الذي سحرني عندما رأيتها لأول مرة . قلت وأنا أتأمل الفلقة الصغيرة في شفتها السفلى :

- يجب أن نتزوج يا ليندا .

قلتها دون تفكير . مستجيباً لإلحاح باطني عبر عن نفسه قبل أن يسأل أو يستشير إرادتي الواعية . لم تبد ليندا اندهاشاً أو اهتماماً . وكأنها تدرك أنه مجرد تعبير عن رغبة طارئة ، أعرف أنا أيضاً أنه لاسبيل إلى تحقيقها . لا شك أنني أعني ما قلته هذه اللحظة . ولكن لحظات أخرى سوف تأتي ، وسوف تجعلني أدرك أن هناك أشياء في الحياة لا يمكن القفز فوقها ، وأن الزواج شيء آخر أكثر تعقيداً

من مجرد رغبة انتقلت من قاع الوعي إلى سطحه الذي يتعامل مع الدنيا . ولكن هل حقاً أستطيع أن أتزوجها؟ . وهل يفلح استخدام المظلات والقفز وراء التخوم والتحصينات في معالجة العلاقات الإنسانية في تبدلها؟ لعلني لا زلت مأخوذاً بالأسلوب الذي عالج به عدنان قصة حبه مع المرأة الهندية ، فجئت أعرض عليها الزواج ، لأختبر قدرتي على أن أكون جاداً وملتزماً ، وأضع نفسي فجأة أمام ارتباط أتجاوز به حياة اللهو التي أعيشها . أدرك الآن أنني ما زلت أحبها . ولم أكن أحتاج إلا أن تظهر أمامي بهذه الأنوثة الهادئة الحنونة ، التي لم يفلح في إخفائها مظهر أم في آخر أيام حملها ، أو هذا الشحوب الطفيف الذي يكسو ملامحها ، لأعرف أنني كنت واهماً عندما ظننت بأني تحررت من سحرها .

لا يهمني كثيراً أن أكون أباً لهذا الطفل الذي يتكور نائماً في أحشائها ، أو لا أكون . ولكنه الآن جاء ، يمنحني سبباً يوصلني بهذه المرأة ، ويفتح لي طريقاً للفوز بها . معذرة أيتها العزيزة ساندرا . إن عاطفتي نحوك لا تقل حرارة . ورجال ألف ليلة ، وأمراؤها ، الذين يعشقون مائة امرأة في وقت واحد يدركون ما أقول . الفرق بينك وبينها . أن ليندا امرأة للبيت ، وأنت امرأة للمدى . ليندا امرأة للأسرة والزواج ودفء العلاقات العائلية ، وأنت امرأة قطعت حبل السرة الذي يشدها إلى أسرتها ، ووهبت نفسها لسهوب الحرية التي تضيئها نار القلب . إنني لا أستطيع أن أتصورك في دور الزوجة ولا أرى أن طبيعتك الحرة ترضى بمصير كهذا المصير أو دور كهذا الدور . ستبقين على الدوام ، فراشة تطوف الحدائق ، وتذوب في اللهب . أو غزالة تشرب الندي وتركض وسط حقول الشمس .

وبصوت بارد ، قالت ليندا :

- إنني لا أفكر في الزواج .

إنها لا تريد أن تغفر ، ولا تريد أن تنسى . لم أشأ أن أستعجل الأشياء . سألتها عندما انتهى اللقاء ، أن تمنح نفسها فسحة للتفكير فيما قلته لها . لا من أجلي وأجلها فقط ، وإنما أيضاً من أجل هذا الطفل الذي لا أريده أن يولد ويتربى كالأيتام . سأمهلها حتى تنتهي من حملها ، وسأزورها بعد ذلك لأرى الطفل

وأعرف رأيها .

ذهبت إلى حانة العناقيد مبكراً ، أشرب كأساً وأنتظر ساندرا . كان الرجل العجوز يوقد المدفأة ، فجلست قريباً منه محاطاً بالدخان ومثقلاً بالخطايا . إنها لا تعرف شيئاً عن ليندا . فماذا لو جئت الآن أعترف لها بما حدث ، وأقول بأنني التقيت بها هذا المساء ، أعبر لها عن حبي ، وأطلب أن تقبل بي زوجاً . منذ أسابيع مضت ، أسمعتها في هذا المكان أكثر الشتائم فحشاً ، لأنني رأيت في سلوكها شيئاً لا ترتضيه الأخلاق . فماذا أسمي اليوم هذا الازدواج وهذه الثنائية في السلوك والتفكير؟ وكأنني كائن مقسوم إلى نصفين . أحبها بنصف وأهب النصف الثاني لامرأة أخرى . أفكر معها بأسلوب وأفكر مع نفسي بأسلوب آخر . أليس غشاً أن أقحم الآخرين في بؤس التناقضات التي أحملها ، وأبحث عن غطاء لدى رجال ألف ليلة وليلة وأسلوب تعاملهم مع حريمهم ، ناسياً أنني أستعير قوانينهم وشروط حياتهم ، لأستخدمها استخداماً مشوهاً ، وأنقلها إلى زمن يختلف عن زمانهم . ولكن ما أحسست به من كدر تبدد سريعاً مع أقداح الشراب ، أدركت أن ما قلته لليندا كان كلاماً لا يعني شيئاً خارج تلك اللحظة . وأنني عبثاً أحاول أن أعيد النبض إلى علاقة حب انقضت وانتهى زمانها . وكطائر ينفض الغبار عن ريشه بعد انتهاء العاصفة ، نفضت ذكرى لقائي بليندا ، ومنحت أجنحتي فرصة التحليق مع ساندرا في عوالمها المدهشة .

كانت أعياد الكريسماس قد بدأت تستقطب اهتمام الناس . وانتصبت في الشوارع وأمام الدكاكين أشجار عيد الميلاد تتدلى منها عراجين الضوء . وامتلأت واجهات المتاجر وشرفاتها ، بتماثيل بابا نويل بطربوشه المضحك ، ولحيته الكبيرة البيضاء ، مثقلة جيوب معطفه الأحمر بالهدايا لمن يملكون مالاً ويقدرون على الشراء . وجاءت ساندرا تحمل كل يوم دعوة للمشاركة في هذه الحفلات التي يقيمها الناس في البيوت . لم تذهب لقضاء يوم العيد مع أهلها ، ولم تأت لهم على ذكر . سألتها عن السبب ، فلم تزد على أن قالت :

- أنت أهلي .

أسعدني قولها . واعتبرت أيام العيد إجازة من القراءة والكتابة ، فانصرفت إلى الحياة التي قادتني إليها ساندرا . نذهب كل ليلة إلى بيت . نأخذ معنا شراباً نضيفه إلى قناني الشراب ، ونغرق مع الغارقين في طوفان الخمر والرقص وموسيقى الصخب . نسهر أغلب ساعات الليل ، ثم ننام النهار كله ، استعداداً لحفلة جديدة . وأقامت ساندرا حفلاً في غرفتي ، أرادته أن يكون ختاماً لموسم الاحتفالات ، متوافقاً مع نهاية العام ، دعت إليه كل من قام بدعوتنا من أعضاء فرقة التمثيل وزملاء الجامعة . أدهشني أن أجد الغرفة تتسع لأكثر من ثلاثين شخصاً يشربون ويرقصون . اقتضانا إعداد الغرفة جهداً كبيراً ، أخرجنا كل محتوياتها إلى سقيفة البيت ، ونقلنا بعضه الآخر إلى غرفة ساندرا . حتى تحولت إلى صالة قادرة على استيعاب هذا العدد . وقمنا بتزيين سقوفها وجدرانها بأشرطة الورق الملون والبالونات والمصابيح . ارتدت ساندرا فستاناً أزرق كثير اللمعان ، يكشف عن كتفيها وجزء من صدرها ويطبق بقوة على خصرها ، وتصنع أطرافه المفضضة دائرة من الوهج تحيط بساقيها . ورقصت فبدت كراقصات الباليه تألقاً ورشاقة . فاجأتني عندما دعت إلى الحفل تلك الصبية التي نامت ذات ليلة معها . وكأنها أرادت أن تقول لي بأن سوء ظني لم يكن صحيحاً ، وأن تلك المغامرة لم تلحق بالصبية ضرراً أو تقدها إلى الانحراف . فقد جاءت مادلين تصحب صديقاً في مثل عمرها . فرحت بمجيئها ، واعتنيت بصرف شراب لها ، وقمت بتقديمها ، وتقديم فتاها ، لمن أعرف من الحاضرين . وما أن امتد بنا السهر قليلاً ، حتى وجدنا أننا بحاجة إلى أن نفتح غرفة ساندرا بالطابق الثاني لرجل وامرأة من أعضاء الفرقة أعياهما الرقص ، ويريدان التقاط أنفاسهما بعيداً عن الصخب . كنا نعرف السبب . وقدمنا لهما المفتاح بكامل الفرح . وما أن عرف بقية المدعوين بأمر هذه الغرفة حتى تكاثر عليها الطلب . وضعنا المفتاح فوق رخامة المطبخ ، قريباً من قناني الشراب ، وصار ما أن ينتهي عاشق من استعماله للقاء رفيقته حتى يعيد المفتاح إلى مكانه كي يأخذه عاشقان آخران . وجاء ضيفان جديدان من أصدقاء ساندرا ، فذهبت أبحث عنها كي تأتي لتحييهما ،

فلم أجدها . أدركت أن ليلة مثل هذه تليق بإحدي مغامراتها الصغيرة اللذيذة . ولكن من يكون الرجل الذي اختارته بطلاً لهذه المغامرة؟ كانت مادلين تراقص ولداً يلتصق بها ويدفن وجهه في شعرها ، ظننته صاحبها . ثم عرفت عندما انتهى الرقص أنه لم يكن هو . فتشت عنه فلم أجده ، إذن فقد اختارته ساندرا ليكون فتاها هذه الليلة المباركة التي تقرع فيها الأجراس وداعاً لعام قديم ، واستقبالاً لعام جديد . تساءلت عن سر هذه المعاملة الغريبة التي تعامل بها مادلين . أستطيع أن أدرك الآن إلى أي مدى عشقت ساندرا هذه الفتاة . عشقتها منذ أن رأتها لأول مرة . منذ أن قالت مبهورة «إن لها جمالاً يستحق قصائد الشعر» . وكرهت عشقها الذي رأت فيه شيئاً لا يتفق مع طبيعتها . وما ساقتها إلى معاشرتي إلا بهدف أن تصنع هذه المعاشرة مساحة تحميها من نفسها ، وتباعد بينها وبين الفتاة . وعندما فشل مشروعها . استجابت لتلك العاطفة المحرجة ، المهينة لأنوثتها ، واستدرجت الفتاة إلى فراشها . وما دعتها اليوم إلا بهدف أن تفوز بلحظة حب معها . رأتها تأتي وتصحب معها فتاها . فأغاظها ما رأت ، وسعت إلى الانتقام بإغواء هذا الفتى والتسلل به إلى غرفتها . إن ساندرا بكل ما تحمله من حب للبشر ، تستطيع أن تكون شريرة إذا أرادت . وأنا أيضاً أستطيع أن أكون شريراً هذه الليلة . لن يقتضي ذلك . إلا أن أجعل مادلين تعرف ما يفعله صاحبها في الغرفة العليا ، وسيكون سهلاً بعد ذلك أن أتدبر ساعة حظ معها . اللعنة ، قلت في خاطري ، لماذا أفسد على الناس متعتهم؟ . ليتناكحوا ، ويتقافزوا فوق بعضهم بعضاً مثل الجنادب ، فما الذي يضير في ذلك؟ . لن تنتهي هذه الليلة دون أن أجد طعاماً لحيوان الغريزة الذي يعوي في دمي مطالباً بحصته . عادت ساندرا يتبعها ذلك الولد . وضعت المفتاح في مكانه ، وركضت ترحب بضيوفها الجدد . هل بقي أحد لم يضاجع أحداً أيها الناس ، فمفتاح الشهوة يتعذب وحيداً فوق الرخام . راودتني فكرة أن أخبئ المفتاح في جيبي لأحرم الآخرين من متعتهم ، إلى أن أحقق متعتي . ولكن يداً امتدت تسحبه وتختفي . أنشأ بعضهم حلبة للرقص ، فاتخذت لنفسي مكاناً يجاور مادلين . وضعت يدي

في يدها ، وسرت في جسمي حرارة الاتصال بها ، وتصاعدت داخل الصدر أبخرة الندم لأنني أضعت ذات مرة ، فرصة أن أرى نهديها دون غطاء ، انتهى الرقص . ففكت يدها من يدي ووثبت إلى صاحبها الذي اختار زاوية في الغرفة يستند إلى جدارها يتقاسم مع رجل آخر سيجارة محشوة بالأعشاب المخدرة . لقد أطعمته ساندرا من حدائقها ، وأخذته في زيارة تدير الرأس إلى كوكبها ، وأرته تلك التعويذة الخضراء الموشومة على صفحة فخذها ، فعاد منهكاً ومنتشياً . بدأ بعض الناس يستأذنون في الذهاب ، بعد أن امتد بنا السهر واستنفدنا ما جاء به الضيوف من قناني الشراب . تعبت أقدام الراقصين من الرقص ، كما تعبت أجسادهم من الصعود والهبوط فوق سرير الحب ، وستنتهي هذه الليلة التي باركها باخوس إله الخمر والمرح ، دون أن أجد لحيوان الغريزة شيئاً يمضغه . رأيت باخوس يدفع في طريقي بامرأة الملابس في فرقة التمثيل . ثملة لا تعي شيئاً ، ولها جسد يميل إلى السمنة ، ولكن لا بأس ، أخذت المفتاح ، سرت أسندها ، حتى وصلت بها إلى الغرفة التي امتلأ مدخلها بالأمتعة المنقولة من غرفتي . تركت المرأة تذهب إلى الحمام ، وتسلقت الكتب والحقائب حتى وصلت إلى السرير الملوث ببقايا الولائم الجنسية ، أنتظرها هناك . سمعتها تتقيأ داخل الحمام ، فعافت نفسي الاقتراب منها . أعدتها إلى الحفل ، وأعدت المفتاح إلى مكانه ، ووقفت أستمع إلى ضحكات باخوس الذي أوقعني في هذا المأزق .

- كانت حفلة رائعة .

ظلت ساندرا تردد هذه الجملة منذ أن صحونا في منتصف النهار ، نزيل آثار الحفلة ونعيد إلى الغرفة نظامها وأثاثها . قلت لها ونحن نجلس قريباً من المدفأة في حانة العناقيد ، بعد أن مشينا مشواراً تحت الثلج :

- كان الفضل في نجاحها لغرفتك ، التي تحولت إلى طاقة سحرية ينفذ منها الناس إلى عالم الحب والمتعة .

- رأيتك وأنت تجهد نفسك في جر تلك الفتاة الثخينة إليها ، فلم يعجبني ذوقك .

- أما أنت فقد كان ذوقك بديعاً وأنت تختارين ولداً له قصة تتدلى فوق عينيه كنجوم أفلام الثلاثينات .

- واحدة بواحدة .

لم أشأ أن أحرجها ، وأسألها عن سر ملاحقتها لمادلين ولم أجد رغبة في أن أعترف لها بخيبتي مع المرأة البدينة . جعلتها تعتقد بأنني أتساوى معها فلا ربح ولا خسارة . اكتفيت بأن ضربت كأسي بكأسها لكي نشرب نخب هذه الروح الرياضية التي نواجه بها الثلوج والعواصف قائلاً :

- بداية طيبة للعام الجديد .

انتهى موسم الاحتفالات فعدت إلى بحثي . أهملت الوعد الذي قطعته على نفسي بزيارة ليندا ، التي أنجبت قبل أيام من نهاية العام ولداً ، كما أخبرني عدنان . إنه يأتي إلى الدنيا مع أعياد ميلاد المسيح . فلتباركه السماء ، وليتربى يتيماً هو الآخر لا أب له إلا الله . سوف لن أضجرها بزيارتي ، ولن أثقل عليها بمزيد من الأسئلة .

ليس هناك في الخارج سوى عواصف الثلج التي أشاهدها من دفء وأمان المكتبة ، فتبعث في نفسي إحساساً مبهجاً ببكارة الأشياء ، أجلس في مواجهة جدار زجاجي يطل على الحديقة . أقرأ وأكتب وأرقب عبقرية الطبيعة وهي ترسم لوحاتها ، عندما تنهمر ندف الثلج من سماء سوداء كالليل ، وتسقط فوق الأشجار ، فتحيلها إلى تكوينات من البياض الذي يسطع كالضوء في حديقة الشتاء . عادت ساندرا إلى تمثيلها . أرضتها تلك المغامرة ، فأمضت الأشهر الأولى من العام الجديد دون مغامرات . سعيدة بأداء دورها في المسرحية الجديدة ، المثيرة ، «أكاديمياً» . التي كتبها أحد أعضاء الفرقة وملأها هجاء للمؤسسة الجامعية ونظامها ، وانتصر لقضية «لاري» الذي رفض الجامعة واشتغل بائعاً للخمور . أثارت المسرحية قبل أن تعرض جدلاً عنيفاً داخل الوسط الجامعي ، ونقلت الصحف الطلابية الجدل الذي يدور حولها . اعترض مجلس الجامعة على تقديمها ووقف اتحاد الطلاب موقفاً حازماً مع الفرقة ومؤلفها . ونشرت صحيفة الاتحاد

تحقيقاً صحفياً مع ساندرا ، دافعت فيه عن رسالة الفرقة وحقها في فضح الممارسات التي تسيء إلى التعليم وتعطل دور الجامعة . ألتقي بها ليلاً وهي تذاكر دورها ، أو تناقش معي فكرة خطرت لها حول أسلوب أدائها للدور . وهو دور طالبة تستخدم جمالها استخداماً عابثاً . تقوم بإغواء المدرسين واستدراجهم للنوم معها ، والحصول منهم على أسئلة الاختبارات التي سيضعونها . ثم تأتي بعد ذلك لتفضح علاقتها الجنسية معهم ، وتسعى للتشهير بهم . كان الدور عامراً بالإثارة والمغامرة . أحبته ساندرا لأنه يعري عالم النفاق الذي تكرهه . وكانت تؤديه بجدية وصرامة ، وتقوم بإلقاء حوارها مثل القساوسة الذين يلقون دروسهم الدينية . يملؤها النقاش الدائر حول المسرحية إيماناً بمضمونها ، فينعكس ذلك على تمثيلها وتفسيرها للدور . كنت أختلف معها حول هذا التفسير الذي يدفعها إلى تزييف شخصية الفتاة ، وإلباسها ثوباً ليس لها . إن الفتاة لاتفعل ماتفعله من أجل فضح التناقض في سلوك المعلمين ، وإنما تفعله لهواً وعبثاً واستهتاراً بمشاعر الآخرين ، وابتزازاً لضعفهم وعواطفهم . وسوف لن تخدم مضمون المسرحية إلا عندما تنسى هذا المضمون فلا تذكر إلا الفتاة العابثة ، الضاحكة ، الشريرة . سألتها أن تؤدي الدور بهذا الفهم فلم تقتنع ، وعندما واصلت إلحاحي ، ووافقت أن تؤديه على سبيل التجربة ، أذهلتها المفاجأة . بدأ الدور يكشف عن إمكانيات كوميدية كانت مخبأة تحت ثقل الأداء الوعظي الكنائسي . وبدأ إيقاع المسرحية البطيء ينقلب إلى إيقاع سريع ، مليء بالحيوية والتدفق والمرح . ولم يكن صعباً بعد ذلك أن يتبنى المخرج هذا التفسير ويسعى إلى تعميقه وتطويره . جاء موعد تقديم المسرحية ، فتزاحم الناس لحجز مقاعدهم . وخصصت الفرقة أسبوعاً لعرضها بالمسرح الجامعي . جلست مع المشاهدين ليلة الافتتاح ، أصفق لساندرا إعجاباً بأدائها المتفوق الفكاهي لدور الشيطانة الصغيرة . وكان الجدل الذي دار حول المسرحية ، حافزاً لأن ترسل الصحف الكبيرة مندوبيها للكتابة عنها . ولقي دور ساندرا ثناءً من النقاد واعترافاً بمواهبها . ولم تنته مدة عرض المسرحية حتى جاءها عقد من المسرح التجاري لأداء الدور الرئيسي في مسرحية تقدم الصيف

القادم . كانت سعيدة بنجاحها ، وبالصحف التي تنشر أحاديثها وتصاويرها ، وبالعقد الذي جاء ومعه مبلغ من المال ، لينقلها من مسرح الهواة إلى مسرح المحترفين . فكانت تأخذ الصحيفة ، ترقص بها وسط الغرفة ، وتتأمل اسمها وصورتها قائلة :

- ساندرا تاور ، اسم يليق بنجمة كبيرة .

- لا أحد يحزنه نجاحك سواي . لأنك سوف تنتقلين إلى سماء النجوم وتتركينني وحيداً في هذه الغرفة ، أعاشر الأشباح .

- إنك أنت صاحب الفضل في هذا النجاح ، ومكافأة لك سأجعلك مدير أعمالي .

اقترحت عليها أن نقضي عطلة عيد الفصح بمدينة لندن التي تشهد مهرجاناً دولياً للسينما . فلابد أن سمعتها قد سبقتها إلى هناك ، وسأكون سعيداً بأن أباشر مهمتي منذ الآن في إدارة أعمالها والاتفاق مع الشركات التي تسعى للتعاقد معها . أبدت حماساً للفكرة وهي تسخر من سخريتي بها ، قائلة بأن العقود ستأتي طال الزمن أو قصر ، واشترت بالعربون الذي جاءها من المسرح التجاري ثلاثة فساتين جديدة تحضر بها العروض . وقبل موعد السفر بيوم واحد اختفت ساندرا . لم تعد ليلاً إلى البيت فأدركت أن الإثم هذه المرة ليس إثمها ، وإنما إثم الربيع الذي جاء بعبيره وألوانه وسهامه الذهبية ، يوقظ في قلبها شهية الحب واللعب ، فذهبت خلف إحدى حكايات عشقها الطارئة ، وستعود في الصباح مع موعد القطار الذي سيقلنا إلى المهرجان . جاء الصباح ولم تعد . مضى اليوم كله ، وجاء اليوم التالي دون أن تأتي . بدأت أقلق عليها ، حائراً لا أدري إذا كان من واجبي إبلاغ الشرطة أو مواصلة الانتظار . فلعلها التقت بقريب لها ، أعادها إلى بيت أهلها بمناسبة الأعياد . إنني لا أعرف من هم أهلها ولا مكان إقامتهم بمدينة أدنبره التي تقول بأنها مدينتها . وأميل إلى الاعتقاد بأنها فتاة لا أسرة لها . عاشت بملجأ للأيتام فكرهت أن تأتي على سيرة أيامها الماضية . آثرت الانتظار ليلة أخرى قبل تقديم بلاغ عنها إلى الشرطة . وما أن جاء منتصف الليل ، حتى

جاءت ساندرا تطرق بابي . لم أستطع أن أتعرف عليها للوهلة الأولى . كانت تتكوم أمام الباب في هيئة غريبة . حسبتها امرأة شقية ممن أشاهدهن نائمات تحت القناطر وأمام حانات الشوارع الخلفية ، جاءت تطلب إسعافاً سريعاً . كانت ترتعش مرضاً وأوجاعاً وحمى . وكان صوتها وهي تستنجد باكية وتناديني باسمي هو الذي هداني إلى أنها ساندرا وليست امرأة أخرى . سحبتها من عتمة السقيفة ، إلى أضواء الغرفة ، أتعرف على ما أصابها . كانت الكدمات والخدوش تملأ وجهها وعنقها وذراعيها . والأتربة وبقايا الأعشاب عالقة بشعرها . تمزقت أطراف فستانها وتلوثت بالوحل والدم . وضعتها فوق السرير ، وسقيتها حليباً ساخناً حتى استعادت هدوءها . أردت أن أذهب بها إلى المستشفى ، فأخذت منديلاً تجفف به الكدمات وتزيل آثار الدم عن وجهها ، قائلة بأنها تفضل الانتظار إلى الصباح . استطعت أن التقط من خلال الشهقات ونوبات البكاء التي تداهمها ، ما كانت تقوله عن محنتها . كانت في طريقها للقائي بالحانة عندما استوقفها وفور خروجها من البيت ، شاب صغير مبدياً إعجابه بدورها في مسرحية «أكاديميا» . كانت سعيدة بهذا المعجب الذي يعاملها معاملة النجوم الكبار ، ويطلب الاحتفاظ بتوقيعها للذكرى . أرادت أن تعرف ما الذي أعجبه في تمثيلها ، فرأته يخلط بين حياتها الخاصة وبين الدور الذي قامت به . أعجبتها سذاجته ، وراق لها أن ترافقه لاحتساء كأس معه ، جاء بصاحب له يقود سيارة أقلتهما . ثم رأتهما يلتقطان أصدقاء آخرين من أحد الأرصفة . وجدت نفسها محشورة في السيارة مع خمسة فتيان ينطلقون بها خارج المدينة . أدركت أنها وقعت في أيدي مجموعة عابثة تريد بها شراً . طلبت من السائق أن يعيدها إلى المدينة فلم تسمع رداً سوى الضحكات . ولجأت إلى الحيلة فادعت أنها ترغب في قضاء الليل معهم وتريد أن تهاتف أهلها من إحدى محطات الوقود لكي لا يشغلهم غيابها . انتعش أملها في النجاة عندما رأتهم يوافقون على فكرتها . ولكن أحدهم أخذ فردة حذائه واستخدمها سماعة للهاتف . اخترع رقماً وأدار قرص الهاتف الوهمي ووضع الحذاء في وجهها ، قائلاً بأن أهلها ينتظرون على الخط .

ازدادت ضحكاتهم صخباً وقبحاً . رأوها تعالج الباب عندما أبطأت السيارة وهي تترك الطريق الرئيسي وتدخل طريقاً جانبياً متربا . فاستل الولد الذي بجوارها سكيناً يهددها به ، ويمنعها من القيام بأية حركة . وصلوا بها إلى منطقة مظلمة داخل الغابة . ألقوا بها فوق الأرض ينزعون عنها ملابسها ويحاولون اغتصابها . أصرت على أن تقاومهم وتكتح التراب في وجوههم وتطلق صرخات النجدة . جاء صاحب الخنجر يضغط به على عنقها حتى أسال منها الدم ، قائلاً بأنه سيكمل ذبحها إذا لم تتوقف عن المقاومة . أبقوا الأضواء الصغيرة بالسيارة مفتوحة ، وتناوبوا على اغتصابها الواحد بعد الآخر . انتهوا منها ولكن محنتها لم تنته . فقد ظلوا يشربون ويهرجون ويعودون إلى اغتصابها ويتبارون حول من يستطيع أن يمارس الجنس معها أكثر من الآخرين . رأتهم في الصباح نائمين ، فأرادت الهروب . لم تستطع أن تمشي إلا مسافة قصيرة بسبب ماألحقوه بها من أوجاع . اكتشفوا هروبها وجاء أحدهم يلاحقها بالسيارة ويهددها بالسحق تحت عجلاتها . احتمت بجذع شجرة ، فظل يطوف بها ويحاصرها ، ويقفز بسيارته نحوها حتى يضرب الشجرة ، وهي مهسترة تبكي وتتقي الموت بهذه الطريقة البشعة . إلى أن جاء بقية أصحابه يعيدونها إلى مكمنهم ويربطونها إلى جذع شجرة لكي لا تهرب منهم . وظلوا يعبثون بها وقد استسلمت لمصيرها وأيقنت أنها ستموت بين أيديهم تحت تلك الشجرة . وفي اليوم الثالث نفد مامعهم من شراب ، فانتظروا هبوط الليل وجاءوا بعد أن نامت المدينة يرمون بها عند المكان الذي أخذوها منه ، ويهددونها بالعقاب إذا أبلغت عنهم .

من أين أجد كلمات تصلح لمواساتها . أرادت أن ترضي معجباً صغيراً وتدخل على قلبه البهجة ، فإذا بها تلتقي وجهاً لوجه بهذا الشر الجاني الذي لا يعرف هدفاً ولا حداً . وتتحول مغامرتها الصغيرة اللذيذة إلى سفر موحش في قلب الغابة البشرية . ستقدم غداً بلاغاً للشرطة . وستحاول أن تعطي أوصافاً لأفراد العصابة . وقد يعثرون عليهم ويسوقونهم إلى السجن . ولكن هل ستعود ساندرا تلك الفراشة الجميلة التي ترتدي ألوانها وتسافر بأجنحة العشق عبر المدى المفتوح

الذي تضيئه شمس القلب .

أرادت أن تذهب إلى الحمام ، فعاودها نزيف الرحم . استهلكت كل ما في البيت من مناديل الورق . ولكن النزيف استمر حتى أغمي عليها . خرجت راكضاً لأهاتف الإسعاف . جاءت السيارة ، ومعها الطبيب الذي قام بفحصها . قدم لها إسعافاً سريعاً وأمر بنقلها إلى المستشفى . لقد تورم الجرح وسوف تحتاج ساندرا إلى عملية عاجلة لإزالة الرحم . رافقتها وهم ينقلونها ممدة في صندوق السيارة ، ورويت أثناء الرحلة قصتها للطبيب . عرفت رقم العنبر ، ومكان السرير الذي خصصوه لها . ثم تركتها لعناية الأطباء ، وعدت مثقلاً بالفجيعة والأسى ، إلى غرفتي . أدركني الصباح دون أن أنام . كنت منهكاً ، فأحكمت إسدال الستارة فوق الشباك المغلق . طردت الضوء من غرفتي ونمت فلم أستيقظ إلا بعد أن انقضى نصف النهار . اشتريت وأنا في طريقي إلى المستشفي باقة ورد . وذهبت إلى عنبر النساء فوجدت امرأة أخرى تنام في سريرها . هل ماتت؟ هذا ما صرت مفجوعاً ومجنوناً أحاول أن أعرفه من الممرضة التي وقفت ساهمة لا تجيب . ولأنها لم تبدأ المناوبة إلا منذ ساعة مضت ، فقد أحالتني إلى ممرضة أخرى تجلس في غرفة التمريض وتنشر أمام وجهها صحيفة المساء . أبلغتني بأن ساندرا نقلت إلى مستشفى خاص . استعدت نبضي الذي توقف لبضع لحظات ، ونظرت إلى الممرضة علها تزيدني شرحاً . لم أستطع أن أفهم لماذا تنتقل من مستشفى حكومي إلى آخر يطلب أموالاً لا قدرة لساندرا على تقديمها له . لمحت في الصحيفة التي تقرؤها صورة ساندرا ، فأخذت منها عنوان المستشفى الذي انتقلت إليه ، وخرجت أشتري الصحيفة وأجلس فوق أول مقعد يصادفني أقرؤها . وجدتها تأتي على ذكر القصة التي وقعت لساندرا . تفرد مساحة كبيرة لها وتضع إشارة للموضوع في الصفحة الأولى . ولأن مثل هذه الحوادث تقع كل يوم فقد استغربت لما أولته الصحيفة من اهتمام كبير بالقصة . لم يكن السبب لأنها نجمة المسرح الجامعي كما ذهب في ظني . فهذه صفة أهملتها الصحيفة . ولم تأت على ذكرها . كان الشيء الذي ألهب حماس المحررين هو أن الفتاة التي

تعرضت لحادث الخطف والاغتصاب ، ليست سوى الابنة الوحيدة للسير ريتشارد تاور ، صاحب الشركة التي تسيطر على صناعة وتصدير الورق ، والرجل الذي لعب أدواراً سياسية عندما كان عضواً في البرلمان وأحدث خروجه العاصف من حزبه ، ضجة كانت حديث الصحف . ولا أدري لماذا ضحكت . كان قلبي مترعاً بالحزن وأنا أرى العنف والجنس الذي أبحث عنه في الأساطير ، يأتي عارياً من أثوابه الخرافية إلى داري ، ويخطف المرأة التي تقاسمني طعامي وشرابي وسريري . ولكن المفارقة هذه المرة كانت مدهشة إلى حد الضحك . لم يخطر ببالي أن تلك الطالبة الفقيرة التي ألفت حياة التشرد حتى حسبتها إحدى بنات الملاجئ ، والتي لم تكن تجد طعاماً غير الخبز والجبن عندما التقيت بها ، أتباهي أمامها بكرمي وأطعمها من حساء الفاصوليا بالمطعم المصري ، يمكن أن تكون الابنة الوحيدة ، والوريثة الوحيدة لأحد أصحاب الملايين .

طويت الصحيفة ، ووضعت باقة الورد بجواري ، أفكر فيما إذا بقي موجب لزيارتها . كنت قد جئت مسرعاً إليها لأنني كنت أظن بأن لا أحد سيهتم بها غيري . وإنها امرأة لا أهل لها ، فكان واجباً أن أكون أهلها في أيام المرض والمحنة . واشتريت لها زهوراً لكي لا تحس بأي فرق بينها وبين من تحظى بالزهور والزيارات من ساكنات عنبرها . كل شيء تغير الآن . وها أنا ألتقي بقصة من تلك القصص التي لا أحد يجيد صنعها غير شهرزاد . وموقفي اليوم يشبه الفران الذي أشفق على صبي مريض ملقى بجوار القمامة ، فأخذه وأعطاه عملاً بالفرن ليكتشف بعد ذلك أنه الوريث الشرعي للعرش . كانت أول مسرحية أرى ساندرا تمثلها ، هي مسرحية دورينمات «هبط الملاك في بابل» ، وها هي المسرحية تعيد نفسها . وما أنا إلا شحات نينوى الذي هبط عليه ملاك في شكل صبية صغيرة ، جميلة ، سماوية الملامح ، ثم سرعان ما اكتشفت طفلة السماء ، شرور الدنيا وآثام البشر ، فعادت إلى سمائها ، تاركة شحات نينوي يقف وحيداً فوق الأرصفة يطلب حسنة لله ، ها قد جاء هذا الرجل البنكنوتي ، الذي يحمل وسام الملكة ، يعيد ابنته إلى أجوائه الملكية ، ويسرق هذا الشعاع الذي أضاء غرفتي ، ليتركني طعاماً

لليالي الصمت والوحدة . سأحمله الآن مسؤولية ما حدث لساندرا . فقد أوردت الصحيفة قصة خصامه مع «أبناء الأرض» الذين يهاجمونه في نشراتهم لأنه يتلف الغابات ويدمرها . ولابد أن الغابة أرادت أن تنتقم لنفسها ، فلم تجد غير ابنته هدفاً سهلاً لانتقامها ، بينما بقي هو محتمياً بألقابه وأمواله وحراسه . لتكن ابنة ملك أو إله ، فأنا لا أعرفها إلا ساندرا التي تقاسمت معي الكأس والرغيف . وهذا ورد اشتريته ليكون هدية لها ، ولن أرمي به في الطريق . ذهبت أحمل وردي إلى مستشفى «الثالوث المقدس» . أرشدني موظف الاستقبال إلى جناحها . وجدت ممرضة تقف بباب الصالون الملحق بغرفتها ، تستقبل الزوار وتأخذ منهم باقات الورد . ذكرت للممرضة اسمي وجلست أنتظر الإذن بالدخول . كان أقاربها يحيطون بسريرها عندما دخلت إليها ، فأفسحوا لي طريقاً لأقف قريباً منها . سألتها باقتضاب عن حالها وتمنيت لها الشفاء العاجل وخرجت . لم تدم زيارتي أكثر من دقيقتين أو ثلاث . أزعجتني النظرات التي كان أهلها يتأملونني بها . كدت أصرخ في وجوههم بأنني أنا الذي يجب أن ينظر باستنكار إليكم ويتعجب من وجودكم في هذا المكان . لأن ساندرا لا تعرفكم بمثل ما تعرفني ، ولا تنتمي إليكم بقدر ما تنتمي لي . وعندما عادت من محنتها تبحث عن صدر تبكي فوقه ، لم تذهب إليكم وإنما جاءت تبكي على صدري . تفرست في وجوههم استفزازاً وتحدياً . تكهنت بأن المرأة الممتلئة التي تجلس بجوارها ، تحمل منديلاً تجفف به عينيها هي أمها . ولم أستطع أن أجد بين الحاضرين من تشبه ملامحه صورة والدها . خرجت مصمماً على أن أزورها كل يوم . لكنني بقيت أياماً متهيباً الالتقاء بذلك الجو الاستفزازي الذي يحيط بها . إلى أن قابلت زميلاً يسأل عنها فجئت به إليها . كانت ساندرا قد استعادت عافيتها ، ونزعت الضمادات التي كانت تغطي جروحها ، وخرجت من سريرها تستقبل زوارها بغرفة الصالون . كان الفزع مقيماً بعينيها . هربت الدماء من وجهها وانطفأت فيه أزهار النار . استقبلتني استقبالاً دافئاً ، وعاتبتني لأنني تغيبت أياما عن زيارتها . شبكت ذراعها في ذراعي ، وقادتني إلى والدها الذي لم أنتبه لوجوده حتى وقف

يصافحني . قصيراً ، ممتلئ الجسم ، يفيض وجهه الشديد الاحمرار بذلك الألق الذي يصنعه الثراء والنجاح . خمنت بأنه سعيد بهذه الكارثة التي أعادت إليه ابنته . أفسح لي مكاناً للجلوس بجواره . يشكرني على اعتنائي بساندرا في وقت محنتها ، ويخرج من جيبه بطاقة الزيارة يسألني ألا أتردد في الاتصال به وقتما أشاء وفي أية حاجة أريد . عرفت من ساندرا وهي تودعني أمام الباب أنها ستغادر المستشفي إلى بيت أهلها بعد ثلاثة أيام . لم أعد إلى زيارتها . ولم أجد رغبة للذهاب إليها في بيت والدها . انشغلت برسالتي ، منهمكاً في كتابتها وكأنني أريد إنهاءها في يوم واحد . يأتي الليل فأتذكر ساندرا عندما أرى عطرها وأدوات زينتها وقميص نوم تركته معلقاً خلف الباب . ثم يدركني الصباح فأعود إلى صحبة شهرزاد ولا أرى أحداً سواها . جاءت ساندرا بعد أسبوعين لإخلاء غرفتها . قائلة بأنها لن تكمل دراستها هذا العام ، لأنها ما زالت بحاجة إلى الراحة والعلاج . أمرت السائق الذي جاء بها أن ينقل حوائجها إلى البيت . ورافقتني إلى المكتبة لتعيد إليها عدداً من الكتب التي استعارتها والتي من بينها كتاب «جامع الفراشات» . تساءلت في سري عن العلاقة بين الكتب التي تقودنا الصدفة لاقتنائها أو قراءتها ، وبين ما يقع لنا من أحداث . وبمثل ما جاءت ألف ليلة وليلة تصبغ حياتي بألوانها العابثة ، فها هو الكتاب الذي أحبته ساندرا ، وكانت تجدد استعارته من المكتبة مرة وأخرى ، يأبى إلا أن يعيد إنتاج نفسه من خلالها . جلسنا في مقصف المكتبة نتذاكر ونشرب الشاي . الآن وقد حدث الذي حدث ، فإنها يجب أن تشكر الأقدار التي أنقذتها من عواقب هذا الشر . إن من ساقها سوء الحظ مثلها . إلى أيدي عصابة من المجانين الجنسيين ، ونجت من القتل ، فهي لن تنجو من البقاء طويلاً في مصحات العلاج النفسي .

– ولأن الله يحبك ، فقد أعادك إلينا سليمة معافاة كما كنت قبل المحنة .

ما أثقل المناسبات التي يتحول فيها كلامنا إلى وعظ وإنشاء . كنت أعرف أن ساندرا لم تعد ساندرا التي عرفتها وعاشرتها . إن شيئاً فيها أصابه الذبول والانطفاء ، ولن يعود إلى الاشتعال مرة أخرى . لو أن ما أصابها جاء نتيجة

حادث من حوادث الطرقات ، فإنه حتى لو أبقاها قعيدة مدى العمر ، لن يصيب بالعطب روحها وإرادتها . ولكن ما حدث لها يحمل دلالة أشد قسوة من الحوادث الأخرى . امرأة تقبل على الدنيا بقلب مفتوح ، تحتضن الكون الشاسع بسمائه ونجومه وكائناته ، تضع ثقتها فيه ، وتمنح نفسها له . تهزأ بما يقيمه الناس من أسوار وتحصينات ، وتأبى إلا أن تتجاوزها ، لكي تنطلق بهدي من نسغ الحرية الذي يجري في عروقها ، فإذا بشيء في قلوب البشر يخونها ، ويخون نظرتها الصافية للحياة . يقول لها بلغة جارحة كحد السكين ، سوداء كقلب الغابة ، بأنه لا يجوز لها أن تتعامل بصدق السريرة ، وعفوية الإرادة الحرة ، أو تهجر السير مع القطيع عبر الدروب التي صنعها التقليد والتكرار ووصايا أسلافنا الموتى .

سألتها مداعباً لماذا أخفت عني انتماءها لأسرة عريقة ، غنية ، مثل أسرتها ، وضللتني بهذه الحياة الفقيرة حتى ظننت أنها ابنة أكثر العائلات فقراً في الدنيا . ضحكت قائلة بأن كل هذا لا يعني لها شيئاً ، ولا تريد أن تحمل قيمة تستعيرها من ثراء أسرتها ، وتكون بديلاً عن قيمتها الحقيقية . إنها ليست نادمة لأنها تخاصمت مع أهلها . وعاشت أكثر من عامين ونصف بعيداً عنهم . فقد كان ذلك ضرورياً لاختبار قدرتها على مواجهة الحياة خارج هذه المظلة .

ظننت أن ظهور ساندرا سوف ينعش روحي ، ويبدد مناخ الوحشة الذي أحاط بي أثناء غيبتها . ولكنني خرجت من لقائها أكثر حزناً وضيقاً بنفسي وبالدنيا . كم هو ضعيف هذا الكائن الذي اسمه الإنسان ، هذه الكتلة من الأعصاب والمشاعر والأوعية الدموية ، والتي تبدو أحياناً قوية تملك مفاتيح الكون . ما أسهل ما يصيبها العطب وتتحول فجأة وبرغم ما فيها من نبض وحياة ، إلى حزمة من الأحطاب الجافة .

أبلغتني أنهم يريدون السفر بها إلى الخارج ويقترحون عليها منتزهات كثيرة تصلح للراحة والاستشفاء ، وهي ما تزال حائرة لم تختر مكاناً تذهب إليه . لم أكن وأنا أسمع هذا الكلام أحس بأي انقباض لأنها ستسافر ولن أراها بعد ذلك . كنت قد وطنت العزم على فراقها ، وأدركت منذ أن قرأت أخبار العائلة

التي تنتمي إليها ، أن طريقي بات يختلف عن طريقها ، حتى وإن لم يختلفا ، فإن علاقتنا لم تكن منذ البداية سوى رحلة لمسافة قصيرة . فما كانت هي امرأة للارتباطات الطويلة ، وما كنت أنا إلا عابر سبيل ، سيواصل المسير بعد أن يستريح قليلاً في ظل هذه القلعة العتيقة . جاء الفراق مبكراً . أكثر تبكيراً مما كنا نريد . وبطريقة عنيفة لم نكن نتوقعها ، ولكن للحياة حقائقها التي لا سبيل إلى الفرار منها ، ولها منطقها الذي لا يتطابق دائماً مع منطق الرغبات الحميمة وأشواق القلوب العاشقة . ما كان يمكن أن توافق ساندرا على هذا الكلام . أما الآن وقد التقت وجهاً لوجه بأكثر حقائق الحياة هولاً ورعباً ، لا أراها تستطيع أن تجادل أو تعارض . ستقبل بهذا القول ، كما قبلت بالعودة إلى أسرتها التي تمردت ذات يوم على سلطتها ، ورفضت بقوة وعناد ، القيم التي تعيش عليها .

خرجت معها نبحث عن سيارة أجرة ، فوجدتها تتلفت في ذعر ، وكأن أحد الذين يعبرون الطريق سوف يهاجمها . تمنيت أن تكون هذه الحالة مجرد خوف طارئ وليست عاهة نفسية تبقى مدى العمر معها . أقلتنا السيارة إلى ضواحي المدينة حيث انتصب قصر والدها فوق أرض مرتفعة ، تحيط به الحدائق . وقفت أمام القصر أعانقها ، وأتبادل في نهاية العناق قبلة سريعة معها . وفي صمت ودون أن تلتفت ، ذهبت ساندرا باتجاه البوابة الحديدية الكبيرة . راقبتها حتى اختفت . واندفعت عائداً إلى السيارة ، أسأل سائقها أن يمضي بأقصى ما يستطيع من سرعة ، لأنني أهملت موعداً شديد الأهمية . لم أكن أهملت شيئاً . ولكنني وجدت أن تقهقر الأبنية والأشجار والأعمدة وجموع الناس الواقفين أمام المحطات ، وتراجع هذه المشاهد ، واختفاءها السريع عند اندفاع السيارة ، يبعث في نفسي خواطر تريحني عندما أقارنها بدورة الزمن والتحولات التي تطرأ على حياة البشر .

ها قد اختفت ساندرا ولا أعتقد أنني سأراها بعد اليوم . لاشك أن العالم لن يكون على صورته الأولى . سوف تغدو النجوم أكثر شحوباً ، والورود أقل أريجاً ، والليل أكثر قسوة ، والشبح الذي خرج باكياً مطروداً من غرفتي ، سوف يعود

لإحياء لياليه الموحشة . ولكن من يصاحب شهر زاد جدير بأن يجد بعض العزاء . لأصرف وقتي كله لها ، ولأرافقها بأكثر مما رافقها شهريار في لياليها . إنني أمنحها ليلي ونهاري . ولا أجلس مثله صامتاً ، وإنما أناقشها وأحاول أن أعرف المعاني الخفية التي تخبئها وراء المعاني الظاهرة . بعد أسابيع قليلة أكون قد أمضيت معها ألف ليلة وليلة ، ولعلني أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه الفكرة المضحكة التي طرأت على ذهني ، وهو أن أضع النقطة الأخيرة في بحثي أثناء اليوم الواحد بعد الألف من مباشرتي العمل في هذه الرسالة . لم يكن ذلك اليوم بعيداً . أو لعلني غالطت في الحساب قليلاً ، فجعلته قريباً . لأنني فعلاً أريد أن أنتهي من هذه المهمة . ولم أكن أحتاج إلا إلى كتابة الخلاصات . وبهمة من أراد أن يزيح من فوق ظهره حملاً ، أرهقه طويلاً ، كتبت الفصل الأخير ، وأقفلته بتلك العبارة التي طالما سمعت الأستاذ يرددها عن عبقرية الخيال عند العرب وتجلياته الباهرة في حكايات ألف ليلة وليلة وما صنعته من تأثير في آداب الأمم الأخرى .

ذهبت إلى الأستاذ الذي وضع نظارة القراءة فوق عينيه ، وقلم الرصاص بين أصابعه ، وقرأ البحث بصوته الجهوري الذي أحس به يمنح أسلوبي فخامة لايستحقها ، مصححاً مايصادفه من أخطاء في اللغة ، واكتفى بعد أن فرغ من القراءة ، بأن وضع إشارة «صح» ، وهي إشارة لايضعها إلا عندما يكون راضياً عما قرأ . وراضياً عن نفسي خرجت من غرفته عائداً إلى داري ، أجمع البحث في إضبارة واحدة ، وأراجع الهوامش ، لأنقل عنها ثبتاً بالمراجع والمصادر . فرغت من إعداد صفحات العناوين والإهداء ، وذهبت في صباح اليوم التالي إلى دكانة الطباعة السريعة ، أحمل إلى صاحبها هذه الكومة من الأوراق ، وأعهد إليه بطباعتها ونسخها وتجليدها . وخرجت من عتمة الدكانة وضجيج آلاتها ورائحة الحبر والأصباغ والنشاء ، أرفع وجهي إلى السماء ، استقبل تدفق الضوء والهواء في صدري الذي كان يختنق ممتلئاً بهذه الأوراق .

إنه اليوم الثاني بعد الألف . أبت شهرزاد أن تعتقني إلا في اليوم الذي حققت فيه انعتاقها .

بدت الشوارع أكثر اتساعاً ، والسماء أكثر صفاء ، والأشجار أكثر شموخاً ونبلاً . عاد العالم مضيئاً ، عامراً بالهواء النظيف . أراه بعيون جديدة ، وكأنني خرجت لتوي من نفق مظلم تحت الأرض . عبء ثقيل أزحته عن صدري . إنه اليوم الأول الذي أرى فيه هذه المدينة ، دون أن تكون هذه الرسالة تطاردني . دائما ورائي . في لحظات النوم واليقظة ، الصحو والسكر ، أتجول في الشوارع أو أتسكع بين الحانات والمراقص . أسمع دقاتها الرتيبة التي تتواتر بانتظام في مكان ما خلف رأسي . تستحثني أن أترك ما أنا فيه وأذهب إليها . قد أهمل الدراسة شهراً أو شهرين ، ولكن موضوع الدراسة لايغادر ذهني لحظة واحدة ، يذكرني بتقصيري في حقه ، ويطالبني بأن أكرس حياتي له وحده . فمن أجل هذا البحث جئت . ومن أجله أقيم في هذه المدينة ، وباسمه أتقاضي منحة كل شهر . فهو سيدي ومولاي ، وصاحب نعمتي الذي يجب أن أنصرف لعبادته آناء الليل وأطراف النهار .

تحررت الآن منه .

أستطيع أن أتسكع في الشوارع كما أشاء . أشرب ما طاب لي الشراب . أعبث وألهو وأرقص وأنام وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف وأتجول في الأسواق ، دون أن أسمع تلك المطرقة تدق خلف رأسي قائلة : الرسالة ، الرسالة ، الرسالة .

لقد انتهت الرسالة .

مشيت في الشوارع دون أن أحدد هدفاً أذهب إليه . مستمتعاً بانعتاقي ، مستجيباً لذلك النداء الذي يطالبني بأن أقف متأملاً كل بناء ، وكل تمثال ، وكل شجرة تصادفني في الطريق ، وكأنني لم أكن عائشاً في هذه المدينة . كأنني لم أصل إليها إلا هذه اللحظة . إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها هذه المعالم متحرراً من تلك العصابة التي تحجب الرؤية ، وإلا كيف لم أكن أعرف أن هذا التمثال للروائي والتر سكوت ، والثاني للشاعر بيرنز . كنت أمر بهما دون أن أراهما ، مثل كل شيء آخر . حتى واجهات المتاجر كنت أخطف النظر إليها خطفاً ، وأدخل لأشتري حاجتي على عجل ، أملاً في توفير ساعة أصرفها لبحث . أستطيع الآن

أن أقف أمام هذه المتاجر، وأتفحص معروضاتها، وأختار أكثرها كساداً لأدخل إليه وأثرثر في مواضيع تافهة مع البائعات وكأنني أملك كل الوقت في الدنيا.

كان شعوراً مثيراً ذلك الشعور الذي صحوت به في اليوم التالي. اختفت تلك الأكوام من الورق التي تتكدس بجوار رأسي، وكأنها رعب يومي يطاردني. لأول مرة أصحو خلال إقامتي في هذه المدينة وأنا أحس ببهجة أن يصحو الإنسان وأمامه يوم خال من أية ارتباطات أو مسؤولية، مستمتعاً بفكرة النهار المفتوح الذي لا يطالبني بشيء. لا بحث يريد رطلاً من لحمي، ولا شهرزاد تناديني كي أفتح كتابها، وأصرف وقتي مع سكان عالمها المصنوعين من الأوهام والخرافات.

صار الدخول إلى المكتبة، هذا الطقس اليومي، الذي فقد مع التكرار بهجته، شيئاً مثيراً هذه المرة. لأنني أدخل المكتبة الآن لإرضاء نفسي لا لإرضاء الرسالة، وأبحث عن الكتب التي أحبها، لا تلك التي تحبها الرسالة. أستطيع أن أقرأ ما أشاء، وأتنقل بين أقسام المكتبة مثلما أريد، دون أن أحس بالحرج لأنني أهدر وقتاً ثميناً ليس من حقي وإنما من حق الرسالة.

انتهت طباعة الرسالة، ودفعت إلى الجامعة بالنسخ التي تريدها، وتم تحديد موعد المناقشة بعد شهر من تسليمها. انحسرت موجة الإثارة التي جاءت تركض مع إنجاز الرسالة، وأطلت تلك الجزر الصخرية الموحشة التي كانت تختفي خلفها. أصبح الوقت أثناء النهار يمضي بطيئاً، والليل في تلك الغرفة التي تغطي جدرانها لوحات العبث، أكثر وجعاً بسبب ما يوقظه من ذكريات. رفعت عني شهرزاد وصايتها، وسحبت الرداء الذي نشرته فوق أيامي، وها أنا أتسكع تحت سماء خالية من ذلك النجم الذي كان يوقد خطاي. تنهمر على قلبي ذكريات أماكن وأحداث وكائنات كانت مغمورة تحت ركام الحكايات والوقائع الأسطورية. يملأ رأسي ضجيج الأصوات المتداخلة المتعددة التي تطالبني بالولاء. ليندا تظهر الآن، يوقظ الفراغ ذكرها، فتفتح شرفة بعيدة، وتنشر كساحرات المعابد القديمة، عبيرها المصنوع من أعشاب الصحراء، تناديني. أنجبت منذ ستة أشهر طفلها الذي يجب أن يكون طفلي أنا أيضاً. فهي الأجدر بأن أمنح ولائي لها ولذكرى

العلاقة التي أثمرت ولداً . ولكن ساندرا تشرق في سمائي كإلهة الأساطير ، تحمل في يدها حفنة من النجوم . امرأة أغنت حياتي بحبها الذي لا يشبه قصص الحب الأخرى ، وأضاءت بعض ليالي العمر بنجومها الساطعات . بسطت لي جناحيها ، وحملتني في سياحات إلى عوالم من الفرح لا أحد يعرفها إلا هي . ولن تستطيع الفواجع التي سرقتها مني ، أن تسرق ما التصق بجسدي من بقايا ضوئها وعبير مسكها الليلي . سأعود بعد أيام إلى بلدي ، ولكن هذه المدينة التي أدفأتني بنار مواقدها ، وأسقتني من جميل شرابها ، وأدخلتني كواحد من صغارها ، إلى دوائر عطفها وحنانها ، ماذا أقول لها الآن ، وقد جاءت ساعة الفراق ، وحان أن أعود إلى وطن يشدني إليه ذلك الحبل السري الذي يمتد بين لحظتي الميلاد والموت .

وبطيئاً مضى الشهر ، وجاء موعد مناقشة الرسالة وانقضى . وأقمنا في ذات اليوم حفل عشاء للممتحنين في بيت عدنان ، حيث استمعت لأول مرة إلى اسمي مقروناً بلقب «الدكتور» ، الذي صار عدنان وزوجته يناديانني به مداعبة ، واحتفالاً بالدرجة العلمية التي نلتها هذا اليوم .

واستيقظت صباحاً لاكتشف أنه لم يبق أمامي إلا أن أحزم كتبي وأمتعتي ، وأحجز مقعداً في الطائرة التي ستعيدني إلى بلدي . أصابني ذعر لا أدري من أين جاء ، أو لماذا يأتي الآن ويهاجمني بهذه المباغتة ، وكأنني لا أعرف أن حياتي هذه ليست إلا جملة اعتراضية بين شرطتين . أو كأنني أكره الرجوع إلى موطن أهلي . فأنا لا أكره ذلك ، بل إنني أشتاق إلى أن أرى كل شجرة نخل تغرس رأسها في الأفق المضيء . إن ما أحس به من ذعر وفجيعة إنما يأتي نتيجة هذه القسوة التي تتقطع بها خيوط الوشائج والعلاقات الحميمة . بطاقة صعود إلى الطائرة ، وإذا بعالم وبشر وعواطف وأشواق ، تغمرها مياه الطوفان ، وتختفي فجأة من فوق الأرض . بسرعة ينتهي كل شيء وكأنه لم يكن إلا وهماً . وكأن هؤلاء البشر الذين عرفناهم ، وتآلفنا معهم ، وأصبحوا جزءاً من حياتنا ، قد داهمهم على حين بغتة ، وفي مرة واحدة ، موت فجائي . وإلا ما هو الموت ، إن لم يكن هذه

الحدة الموجعة التي تقطع ما تواصل بيننا من علاقات . هذا الخاطر الذي يربط الفراق بالموت ، هو الذي أفزعني ، وأيقظ الزوايع السوداء في رأسي . كنت قد صحوت مبكراً على صوت الرجل الذي يأتي بالحليب إلى باب غرفتي . إنه رجل تتحول اللغة على لسانه إلى ألغاز . أجهدت نفسي طويلاً لكي أفهمه ، إلى أن صرت سعيداً بقدرتي على استيعاب كلماته المغموسة في طين وتراب اسكتلندا . إنني أدرك الآن ، إلى أي مدى سيكون محزناً أن أفارقه ، وأفارق هذه العادة الجميلة التي تجعل الحليب يأتي كل صباح إلى باب الدار .

أخذت أول سيارة أجرة تصادفني ، وذهبت إلى عدنان أوقظه من نومه . سألني بلهفة عما جاء بي في هذه الساعة المبكرة ، فقلت بسرعة لكي أمحو القلق المرتسم خطوطاً على جبينه :

- أريد أن تذهب معي ، أنت وزوجتك ، إلى ليندا الآن . لن أترك هذه المدينة إلا وهي بصحبتي .

لأمر ما تصورت بأنني لن أقهر هذا الإحساس بالذعر إلا إذا ذهبت إلى ليندا ، وأقنعتها بأن تقبل بي زوجاً ، وترافقني في رحلة العودة إلى وطني ، متوسلاً بهذا الطفل الذي بيننا ، والذي يمنح لهذا الارتباط مبرراً أكثر قوة من مجرد استرجاع علاقة حب قديمة . سوف يرضي رحيلها معي كل هذه الولاءات التي تتنازعني ، ويطرد من قلبي ذلك الخاطر الذي يربط الفراق بالموت . لن يكون الفراق موتاً عندما تكون ليندا معي ، وإنما رحلة يتجدد بعدها التواصل واللقاء . ستكون ليندا مندوباً عن كل هؤلاء البشر الذين عاشرتهم ، وعن كل هذه الأماكن التي تآلفت معها . إنني ما زلت أحبها . وأعرف على وجه اليقين ، أن الأيام لن تتيح لي بعد الآن امرأة أتزوجها عن حب غيرها .

أبدي عدنان اندهاشه لأنني أعلنت حالة الطوارئ من أجل موضوع لا يستوجب الاستعجال ، بقدر ما يتطلب التأني في التفكير والمعالجة . أقنعني بأن نذهب إليها بعد ترتيب موعد معها وشراء هدية لصغيرها ، واقترحت زوجته ، التي جاءت تشاركنا الحديث ، بأن نرسل لها سطراً نخبرها فيه بأننا سنزورها يوم

الأحد القادم . خرجت من بيتهما فوجدت في دكانة تبيع التحف ، قلادة ذهبية تحمل قرصاً رسمت فوقه صورة ملاك يحمل كتاباً . رأيت أنها تليق بحفيد رجل كان يخدم رسالة السماء ، فاشتريتها له . فكرت كثيراً قبل أن أغادر بيت عدنان فيما إذا كان مفيداً أن أخبره بحقيقة أنني والد الطفل . سأسأله أن يحفظ هذا السر ، الذي لا أقوله له إلا لكي يفهم دوافعي ، فلا يتهاون في معاونتي . تواعدت معه على لقاء في المكتبة ، وعندما جاء قلت له :

– لا تندهش إذا أخبرتك أن ما يربطني بليندا أكثر من مجرد الحب . إنها أم ابني .

– هل أنت واثق من ذلك؟

– هذا ما تعرفه ليندا . ويعرفه أيضاً دونالد الذي سيحمل الطفل اسمه . راجياً ألا تخبر بذلك أحداً .

– هذا إذن ما يدفعك إلى . . .

قلت مقاطعاً :

– ليس هذا فقط . إن أكثر ما يدفعني إلى الارتباط بها ، هو أنني أرغب في الاستقرار مع امرأة أعرفها وأحبها .

قلت ذلك دون أن أتفحص مشاعري ، لأرى إن كان ما أحمله لها حباً ، أم مجرد حنين إلى أيام العشق التي عشتها معها . أدرك جيداً أن فورة العواطف في تأججها واندفاعها قد انحسرت الآن . ومهما كان هذا الحب هادئاً ، خالياً من توقده القديم ، فهو أفضل من مواجهة المصير الذي ينتظرني عندما أعود باحثاً عن زوجة قد لا أستطيع رؤيتها قبل الزواج .

قلت أنقل قلقي لعدنان :

– لا أريد أن أعود إلى طرابلس ، فأرسل عجائز العائلة يبحثن عن امرأة يزوجنها لي .

انتظرت مجيء يوم الأحد ، وخرجت مبكراً ألتقي بعدنان وزوجته عند موقف الحافلة التي أقلتنا إلى بيت ليندا .

ما أن وصلت إلى غرفة الاستقبال ، ورأيت الطفل جالساً في عربته ، حتى اتجهت إليه ، أرفعه بين يدي قائلاً :

- ما أجمل هذا الصغير! .

لم أكن أقول ذلك مبالغة في الإعجاب به ، أو إظهاراً لعواطف أحوز بها رضا الأم . كان الطفل جميلاً . استعار من ليندا لون عينيها . أما الشعر الذي بدا أجعد ، يميل إلى السواد ، فهو شعري . وإن صبغت ليندا سواده بشيء من الاحمرار ، فصار كأنه مدهون بالحناء . أما الجبين واتساع المنطقة بين الحاجبين ، فهما ينتميان لوالدي . أخذ من أمه لون بشرتها الوردية ، وأضاف إليها شيئاً من سمرتي ، فصار كمن سبح في البحر ، ثم استلقى طويلاً يمتص رحيق الشمس . كنت أظن بأنني لن أرى سوى قطعة لحم لن أتعاطف معها ، وها أنا أشهد خطأ ذلك الظن . فقد صنعت الأشهر التي مضت ، من قطعة اللحم ، كائناً بديعاً . وهذا الكائن البديع هو ابني ، الذي أحبه الآن بمثل ما يحب الأب ابنه .

أخرجت من جيبي القلادة وعلقتها في عنقه ، سائلاً جده الإمام أن يباركه ويرعى خطاه . ووضعت «أنار» بين يديه دمية صار يلهو بها . في حين جاءت أمه تحمل الشاي وتبلغنا تحية والديها اللذين ذهبا لحضور قداس الأحد . سألتها عن اسم الطفل فقالت إنه «آدم» . ناديت الطفل بهذا الاسم فأدار وجهه نحوي . لا أعرف اسماً يليق به أفضل من هذا الاسم الذي احتوى كل الأسماء ، وزاوج بين كل الثقافات . تفاءلت خيراً باسم الصغير ، وأيقنت أنها اختارته له ، مراعاة لصلة الدم التي تربطه بي . ولكن التفاؤل الذي أحسست به ، بددته كلمات ليندا التي ردت بها على عرض الزواج . انتقت كلماتها بعناية ، فجاءت قاطعة ، حاسمة ، ترفض الفكرة .

- لا أريد أن أخدعه ، ولا أريد أن أخدع نفسي . لن أعده بسعادة لا أستطيع تحقيقها له ، وليس بإمكانه أن يعدني بسعادة لن أجدها بعيداً عن هؤلاء الأهل وهذه البلاد .

أرادت «أنار» أن تكون نافعة لي ، فقالت :

– تعرفين أن خليلاً يحبك يا ليندا . وحبه مبرر كاف لأن تمنحي الموضوع فرصة أفضل للتفكير .

– إنه يأتي خاطباً ليندا التي كان يعرفها منذ عام مضى . ولكن ليندا تغيرت كثيراً منذ ذلك الوقت . إنني أرحب به صديقاً لا أحمل له إلا الود والاحترام . أما الزواج فإنني لا أفكر فيه الآن .

بقيت صامتاً لا أشارك في الحديث إلا بالاستماع والانتظار . إنني لا أستطيع أن أتوسل إليها باسم الطفل ، أمام هذين الصديقين . ثم لماذا ألجأ إلى الابتزاز العاطفي من أجل علاقة يجب أن تنشأ بدافع الحب والإرادة الحرة . لقد انتهى ذلك الحب الذي كان يسوقها كما تسوق الريح غمامة عطر ، حتى تصعد إلى غرفتي وتهجع في سريري . أعرف أنني لم أفطم نفسي عن حبها ، ولكنني لم أشعر بالغضب وأنا أسمع رفضها . وأحس بالإثم لأنني جئت أسوق عليها أصدقاءها ، أحرجها ، وأضعها في هذا الموقف الذي يجلب الكدر . إنني وأنا أنظر إليها ، متأملاً رقة وصفاء أصابعها الممسكة بفنجان الشاي ، أشعر بالخجل لأنني جئت أسألها أن تحمل عبئاً أعرف أنها لن تطيقه . كنت سأظلمها كثيراً لو اقتلعت هذه النبتة الاسكتلندية من أرضها ومناخها وبيئتها وأخذتها إلى بيئة ومناخ غريبين عنها . إنني ابن الرياح الساخنة ، والشمس الدائمة السطوع والالتهاب ، والصحراء التي تكره النبيذ وقاعات الرقص . ابن تلك الطبيعة وعناصرها ، التي أعدتني لاحتمال قسوتها . ولكن بأي حق أسأل هذه المرأة أن تتخلى عن كل شروط حياتها ، وتلحق بي لتحيا تحت شروط المجتمع الصحراوي وتقاليده .

رأيت عدنان يهم بالكلام ، فسبقته إلى الحديث :

– لا داعي لإطالة عمر هذه اللحظات المحرجة . إنني أحترم رأيها ، وأقبل ردها عن طيب خاطر . سأسافر يوم الأحد القادم ، وأريد أن أسأل ليندا طلباً واحداً قبل رحيلي .

حسبت ليندا بأن ما سأقوله يتعلق بالطفل الذي يجلس فوق حجرها ، فوضعت ذراعيها حوله ، وضمته إلى صدرها .

– كل ما أريده منها الآن هو أن تمنحني وعداً ، بأن تحضر حفل الوداع الذي سأقيمه لأصدقائي يوم السبت القادم .

أطلق عدنان ضحكة صاخبة قبل أن يقول :

– ظننت بأنك ستهدد بإشعال ثورة في هذه البلاد ، فإذا بك تخذلني وتتنازل بهذه السرعة .

تبدد جو التوتر الذي كان يسود جلستنا . كنا جميعاً نجلس على أطراف مقاعدنا ، ونمد رؤوسنا ترقباً وانتظاراً . أسند الجميع ظهورهم إلى المقاعد ، وغمر الارتياح وجههم بعد أن رأوني أشاركهم الضحك وكأنني لم أخذل في مطلب كان منذ لحظات هو أغلى الأمنيات .

قررت بأنه إذا كان الفراق موتاً لم أستطع هزيمته بالزواج من ليندا ، فلأهزمه بأن أحوله إلى فرح . فرح من أجل الفرح ، وحفل لوجه الاحتفال وحده . سأدعو إليه مع الأستاذة والطلاب الذين أعرفهم ، موزع الحليب ، وعامل التنظيفات في بيتنا الطلابي ، والقائمات بإعداد الشاي في مقصف المكتبة ، والرجل العجوز الذي يدمن الشراب ويتعهد الموقد الكبير في حانة العناقيد بالأحطاب . سأكتري قاعة بنادي الطلاب ، وأدعو جميع هؤلاء الناس إلى ليلة رقص وطرب وشراب ، تمتد حتى الصباح ، وفاء لكل اللحظات التي عشتها معهم . وسأخرج مباشرة لألتحق بطائرتي ، حاملاً معي فرحة هذا الحفل ، كآخر ما أحتفظ به في ذاكرتي . ولذلك فإن ليندا لا بد أن تكون هناك ، لكي لا تبقى الصورة ناقصة .

جاء موعد ذهابنا ، وخرجت ليندا أمام البيت لوداعنا ، حاملة «آدم» بين ذراعيها . كان النهار صحواً ، والسهول تمتد فسيحة أمام البيت ، يغسلها الضوء ، وتحف بها أشجار السنديان ، ويشق الأفق الذي خلفها ، سرب من الطيور ، قادماً باتجاهنا . أخذت منها الطفل وتقدمت به عدة خطوات إلى الأمام . رفعته إلى أعلى ، وكأنني أريد للشمس أن تراه ، ولكائنات السماء أن تباركه ، ولهذه السهوب ، ذات الاخضرار المضيء ، أن تمنحه صداقتها ، ولأشجار السنديان ، ذات العراقة والكبرياء ، أن تحيط طفولته بحنانها ، ولهذه الطيور التي تضرب الهواء

بأجنحتها أن تملأ حياته ببهجة غنائها . رأيت فيه صورتي ، فأدركت في تلك اللحظة ، أنني كنت مخطئاً عندما فكرت في الفراق ، أن شيئاً عميقاً في نفسي كان يعلم منذ البداية ، بأنني سأواجه هذه اللحظة . وأراد أن يجنبني هذه المحنة . فسرق ذات ليلة بهيجة ، بعض ملامحي ، وحفنة من دمي ، وقطعة من قلبي ، وصنع منها طفلاً . ولذلك فأنني لن أفارق هذه البلاد . لا لن أفارقها . إنني أسافر بجزء من نفسي ، وأترك لديها الجزء الأجمل والأكثر بهاء ونقاء . ها هو يحمل جبين أبي . كان جبين والدي أجمل ما فيه . جبين لم يلوثه غبار المذلة والسؤال . فلتحفظ أيها الصغير لجدك جبينه مضيئاً ، جميلاً ، ولتجعله سبيلك إلى حياة يزينها الكبرياء ، حياة تليق ببهائك . وها هو الملاك الذي يحمل كتاباً ، فوق صدرك . لقد كان الكتاب الذي احتواه صدر جدي الإمام ، هو الجزء الأجمل منه ، الجزء الذي أشع بالخير والمحبة . فلتكن هذه القلادة المباركة ، تميمة تحفظك وترعاك وأنت تدرج فوق هذه السهوب . وأنت أيتها الوهاد والينابيع والحقول وأشجار السرو والدردار والسنديان ، أنت أيتها المداخن والقباب والطرقات التي تحفر الصخر وتتسلق الجبال . هاهم أسلافي يتركون هذا الطفل ، هذا الجزء الجميل من نفوسهم ، وديعة لديك ، ليتربى وينمو بين ذراعيك . فلتكوني رفيقة له ، حانية عليه . إذا عصفت الرياح شديدة عاتية ، فليكن قرميد بيوتك الحمراء ذرعاً يقيه انهمار سهام الريح . وإذا جاء الشتاء عنيفاً ببرده وثلوجه ، فلتدفئي قلبه الصغير بحنان مواقدك . وإذا أظلم الليل قاسياً ، داكن السواد ، فلتقيه وجع الليل بدثار من الأغاني التي تعيها ذاكرة حقولك ودروبك ، سوف لن أقول وداعاً أيها الأصدقاء والأحبة ، لأنني وأنا أرحل عنكم ، فإن جزءاً حميماً من نفسي ، سيبقى معكم . به تتجدد علاقتنا ، وتتجدد صداقتنا ، على مدى الزمن ، على مدى الزمن .

هذه تخوم مملكتي

زمن مضى وزمن آخر لا يأتي .

وبين الزمن الهارب والزمن الذي يرفض المجيء منطقة صفراء . مفازة صحراوية يغطيها الحصى وتحرقها شمس الظهيرة . وأنا نائم في سريري يلفني الظلام أرقب نفسي أركض وسط الخلاء ألاحقُ ظِلّ طائر أسود يعبر الفضاء فوق رأسي ، أريد أن أحتمي به من شراسة الشمس التي تشتعل في قبة الكون . نائم في غرفة نومي ، ولكن الطائر يقودني إلي حلقات من النساء والرجال الذين يرقصون فوق الرمل . بشر ينصبون خيامهم ويقيمون عرساً في الصحراء . يضربون الطبول ويعزفون موسيقى القرب المصنوعة من جلود سوداء . نساء يزغردن ورجال يطلقون صيحات الابتهاج . أفرح بانبجاسهم المفاجئ وسط العراء . أتقلب في سريري وأركض نحوهم أصافحهم وأعانقهم فاكتشف أنهم جميعاً بشر من دخان . يعود شطري الراكض في الضوء إلى شطري النائم في الظلام . أستيقظ مملوءاً بالفزع وعنف الشمس . أمد يدي أبحث عن كأس الماء ، وأرى أثناء تمددي مسهداً فوق الفراش أن طائر الصحراء قد تطاير ريشه في الهواء وتحول إلى عدد لا يحصى من الطيور السوداء تغطي سقف الغرفة وترف بأجنحتها الموحشة قريباً من وجهي . أطلق صرخة مكتومة لأنني أدرك لحظتها أن المنتحرين من نساء ورجال شاهدوا قبل قتل أنفسهم هذه الطيور السوداء . أحاول أن أدفعها عني وأغمض عيني خوفاً من منظرها ولكنها تأبى أن تختفي . أضع الوسادة فوق وجهي ، أحيط بها أذني ، أتقلب شمالاً ويميناً ، أتوجع وأتألم ، تستيقظ المرأة التي تنام بجواري :

- إنك منذ أسبوع لا تنام .

تقوم من فراشها تبحث عن الدواء . أتناول في صمت الحبة المهدئة التي تأتي

بها ، دون أن أقوى على النوم . أترك السرير وأهرب إلى شرفة المطبخ المطلة على البحر . أجلس خارج الحلم أتأمل دوائر العتمة والفراغ . يضرب وجهي هواء البحر وتلمع فضة زبده تحت ضوء النجوم . أسمع هتافاً عذباً يتصاعد من قلب البحر يناديني ، وتمر لحظة قصيرة أشعر خلالها وكأن كائنات البحر جاءت تطرق بابي . أفتح الباب فأرى أطياف بشر لهم شفافية الماء . أترك البيت غير عابئ بنداء امرأتي وهي تسأل من غرفة نومها لماذا فتحت الباب . إنها لا تسمع طرقاً ولا هتافاً ولا ترى الكائنات التي جاءت تعبر بي الطريق وتصل بي إلى الشاطئ . أقف مبهوراً أرقب البحر . ثمة مدينة لها قباب من ذهب تتلألأ تحت الماء . يدخل البشر الذين لهم شفافية الماء إلى الماء ويشيرون لي أن أتبعهم . مسحوراً بلون الذهب الذائب في ثبج البحر أخوض الماء باتجاه المدينة المضيئة ، أرتعش نشوة وانفعالاً وأنا أرى أمواج ضوئها تسحبني إليها ، وأ سمع غناء كائناتها مبهجاً فاتناً يناديني . أتوغل متحداً بالماء ومغموراً بالفرح ، ولكنْ أياد كثيرة تأتي وتنتزعني من أمواج الضوء والماء والبهجة ، وتمنعني من السفر إلى مدينة القباب الذهبية والطرب الذي يشمل القلب . تختفي المدينة المسحورة ويعود البحر كتلة من المياه السوداء . يأخذونني محمولاً بين الأيادي إلى الفراش . ومثقلاً بالبرد والرطوبة ورائحة أعشاب البحر أندس تحت اللحاف أسعل وأرتجف . أجد أن الطيور السوداء قد اختفت فأحس بالامتنان لهذا المرض العضوي الذي أزال هذه الليلة أسقام الروح . أدفن رأسي في ليونة المخدة وأنا أسمعهم يتبادلون كلاماً عن مرضي وحاجتي إلى العلاج في المستشفيات . أسمع زوجتي تشكر الجيران وتعتذر عن إزعاجهم . تفزعني فكرة أن أجد نفسي ذات يوم ملقى مع المجانين في مصحات الأمراض العقلية وأدرك أن الذهاب إلى البحر كان حماقة وجنوناً . أستيقظ في الصباح أكثر انتعاشاً وعافية . غادرتني حالة الصمت التي رافقتني عدة أيام وأعادت لي محاولة الانتحار شيئاً من عقلي الغائب . وهارباً من المرض واحتمال الحجز في المستشفيات أرتدي بذلتي وأغادر بيتي لأعاود الاتصال بالدنيا . أذهب إلى الجامعة وأتجول في الأسواق وأقابل الناس . أضع شمعاً على وجهي أمنع به ظهور

مشاعر الخوف والاعياء وأسدّ به الثقوب السوداء التي تملأ الروح . أرسم بالشمع وجهاً يضحك ويتكلم ويلقي الدروس . وجهاً جديداً أضلل به أشباح الليل والنهار . ولكن الشمع لا يقاوم طويلاً ضراوة الشمس . تعاودني مشاعر الخوف من الناس عندما أراهم يقتحمونني بنظراتهم المشنوقة لأنهم شاهدوا شمعاً يسيل على وجهي ، فأكره أن أراهم أو ألتقي بعيونهم الأسمنتية . أعتزلهم وأمكث طوال اليوم في داري . تراني فاطمة أمتنع عن الذهاب إلى العمل فتأخذ هي الأخرى إجازة من التدريس وتبقى لتمريضي ، تحاول أن تخرجني من حالة الصمت والشرود فلا أعبأ بالرد عليها . يوقظني أثناء الليل طرق على باب البيت ، وأنهض لأفتح الباب فأجد أنها قد أحكمت إقفاله وخبأت المفتاح لكي لا أمضي مسحوراً خلف كائنات الظلام . يأتي أخي في اليوم التالي ليسألني مرة أخرى أن أذهب معه إلى عيادة الطبيب النفسي فلا أدري ما أقول ، كنت أرفض الاستجابة له ، ولكن حادث النزول إلى البحر أفزعني وجعلني أدرك خطورة حالتي . أذهب معه وأجلس أمام الطبيب الذي يبحث في طفولتي عن شيء يجعله سبباً لمرضي . أعرف أن طفولتي بريئة مما ينسبه إليها ويدينها به ، وأعرف أنه يرتدي معطفه الأبيض متنكراً في ثياب هذه المهنة بينما هو عميل سري لكل أعراف المجتمع وقوانينه الظالمة التي جاء الآن يبرئ ساحتها ، متواطئ مع كل المؤسسات الوحشية التي تدير شؤون الكرة الأرضية . لا أقول شيئاً يغضبه لكي لا يأمر بحجزي داخل أسوار عيادته النفسية . ابتسم له شاكراً وهو يعطيني علاجاً ويسألني أن أعود مرة كل أسبوع إلى زيارته . أتناول العلاج ليوم أو يومين ثم أتركه وأرفض أن أعود إلى عيادته . ويراني أخي نافراً من الأطباء فيقترح هذه المرة الذهاب إلى فقيه ذاع صيته وعالج أناساً كثيرين مثلي ، فهذه أمراض لا يعرف أسرارها إلا أهل الله من أمثال هذا الفقيه . إن كائناً من هذه الكائنات الخفية المجهولة التي تعيش معنا دون أن نراها قد انتقل من شقوق إحدى الخرابات ليسكن جسمي ، وسيكون هذا الفقيه قادراً على إحراقه بالأوراد والأحجبة والطلاسم السليمانية . أرفض أن أذهب معه إلى الفقهاء ولكنني أستسلم بلا مبالاة لما يأتي عن طريقهم من

علاج . تعلق زوجتي حرزاً في عنقي فلا أعترض ، وتسقيني شراباً ممزوجاً بصمغ كتاباتهم فأشربه كارهاً مشمئزاً . أعود طبيعيا لمدة أسبوعين أو أكثر ويرى أخي هذه النتائج فيسرف في إبداء إعجابه ببراعة الفقهاء ، ولكن المرض يعاودني بعد ذلك . أعتزل الناس وأعتصم بالبيت ، يلفني الغمام الأبيض نهاراً وتزورني أثناء الليل الطيور السوداء ، وأجدهم في الجامعة يأخذون مني جدول الحصص ويقطعون علاوة التدريس ويجعلون مني محاضراً احتياطياً لا أهمية لحضوره أو غيابه . أذهب في حالات صحوي إلى هناك فلا أجد عملاً ، وأعود إلى البيت بعد أن تكون فاطمة قد خرجت إلى مدرستها الإبتدائية ، فأفتقدها وهي غائبة بينما أضجر منها عندما ألقاها بجواري . مضى على زواجنا أكثر من ثلاث سنوات دون إنجاب . لم أجد ذلك شيئاً يستحق القلق ، ولم يكن يعنيني كثيراً أن تكون فاطمة عاقراً أو ولوداً ، ولكنها تعتقد بأن طفلاً يملأ فراغ البيت سوف يطرد فور مجيئه الأشباح التي تختبئ في الظلام وتهاجمني أثناء الليل . رأيتها تبكي وتضع اللوم على نفسها فادعيت أمامها بأنني سبب العقم وليست هي .

ما أن أكملت تأثيث هذه الشقة حتى بدأت البحث عن امرأة أكمل بها طقوس انتمائي إلى هذا المجتمع . جاء زميل بقسم اللغة الإنجليزية يقول بأن لزوجته أختاً تأخر بها العمر قليلاً دون زواج ، معلمة بالمدارس الإبتدائية على مشارف الثلاثين ماتت أمها وتزوج والدها بامرأة أخرى فلم يعد لها أهل يزعجونني بتدخلاتهم . ذهبت إلى بيته لألتقي بها . تأملتها وهي تجلس إلى مائدة الطعام قبالتي ، وضعت عينيها في الصحن ولكن بصري لم يغادرها . أعجبني صدرها وفمها فتغاضيت عن قامتها القصيرة وتركت عروض الزواج الأخرى واقترنت بها . لم أنشغل بالبحث عن زواج يأتي عن طريق الحب في مدينة أغلقت شبابيكها دوني وخبأت منذ أعوام الصبا الفتاة التي أحببتها في إحدى الصناديق فما عاد بأمكاني الاهتداء إليها . ولم أفعل ما يفعله هؤلاء الذين يصنعون حباً من نظرة خاطفة ثم يتوهمون كذباً أنهم تزوجوا حبيباتهم ، ويكتشفون بعد أن تتبخر الأوهام أنهم تزوجوا الخيبة والمرارة . أردته منذ البداية زواجاً تقليدياً خالياً من

الأوهام والأكاذيب . ولهذا لم أنتظر من هذه المرأة أن تكون وعداً وبشارة وسحائب عامرة بأمطار الفرح والدهشة . ولم تفاجئني بشيء جديد عندما انتقلت للحياة معي . امرأة وديعة طيبة ، تجيد طهي الأطباق الشعبية وتضع إرادتها تحت إرادة الرجل الذي تزوجها ، وفية للتقاليد العريقة التي عامل بها المجتمع نساءه جيلاً وراء جيل ، راضية بعالمها الصغير الذي لا يتجاوز مجتمع المدرسة التي تذهب إليها وشراء حوائج البيت من متجر قريب وحديث الجارات والزائرات عن أزمة اللحوم وندرة البصل والحمص . تستسلم في الفراش خجولة حيية كأنها تمارس إثماً . مضى العام الثالث دون إنجاب فلجأت إلى تلك الحيلة لأطرد الهم من قلبها وأحمل آثامها بالنيابة عنها . وخلال هذه السنوات الثلاث حاولت أن أحافظ على درجة من التواصل معها ومع الناس الذين حولي . صممت بإرادة واعية أن أستجيب لكل الشروط التي تؤكد انتمائي إلى مجتمع العائلة الكبيرة التي تنتظر من أبنائها الطاعة والولاء . ولا أدري ما الذي حدث بعد ذلك حتى بدأت أقدامي تسوخ في الأرض ، ويتحول النوم إلى مفازة رملية تسكنها الأشباح وتحرقها الشمس . ولا أعرف من أي الشقوق انبثقت هذه الأجنحة السوداء تغطيني وتغطي سقف الكون ، ولماذا تأتي كائنات الليل تطرق بابي دون بقية الأبواب . ولم أعد أريد شيئاً سوى أن أرحل إلى مكان غير هذا المكان وزمان غير هذا الزمان ، أحمل اسماً غير اسمي ووجهاً غير وجهي وأرى وجوهاً غير هذه الوجوه وبشراً غير هؤلاء البشر .

طفت وأنا بمفردي غرف البيت أبحث عن شيء أشغل به نفسي . وقفت متهيباً أمام رف الكتب الذي يحمل مجلدات ألف ليلة وليلة . أضناني الصراع مع هذه الأسطورة وسعيت جاهداً لأن أتحرر من سطوتها ونفوذها فهل ما زلت أتفادى الوقوع في أسرها وأخشى سحرها وتأثيرها على حياتي؟ بدا لي مضحكاً أن أطرح تساؤلاً مثل هذا . فها أنا أحن إلى لحظة من تلك اللحظات التي كنت أهرب منها . ولكن من أين لألف ليلة وليلة أن تحقق لي عالماً يشبه عالمها في هذه البيئة التليدة التي حافظت على عفتها وتحصنت ببؤسها وعقمها ومنحت نفسها عطاء

أبدياً لرياح الصحراء . لقد استفردت بي هذه الأسطورة في غربتي وداهمتني بأجوائها السحرية وسط بيئة تخلت عن حكمة المجتمعات البدوية التي تعادي بهجة الحياة الفانية وانهمكت في مغامرة الاحتفال بالذات ، تفرح وتغني وترقص على أضواء قناديل القلب .

مددت يدي إلى الجزء الأول ضاحكاً كأنني أتحدى كائناته الوهمية أن تفعل معي شيئاً يقهر بيداء الروح والقلب . وخرجت بالكتاب إلى الشرفة لألتقي بشهرزاد في أول حكاياتها عن التاجر الذي أكل تمرة ورمى بالنواة فإذا بعفريت طويل القامة يشهر سيفاً فوق رأسه ويقول :«قم حتى أقتلك كما قتلت ولدي بهذه النواة» . ويتحول عمل بسيط تافه بريء مثل إلقاء نواة في الخلاء إلى جريمة يستحق صاحبها عقوبة الموت . وينبجس بعد ذلك ينبوع الحكايات التي تتوالد من بعضها البعض مثل صندوق العجائب ، ويأتي الشيخ الذي يجر غزالته والآخر الذي يجر بغلته والثالث الذي يجر كلبتيه ، وجميعها كائنات بشرية مسخت بهائم وحيوانات . من قال إن شهرزاد تتحدث عن عالم أسطوري ولا تتحدث عن هذا العالم المعاصر الذي ألتقى كل يوم بكائناته الممسوخة وسيوفه المشهورة ضد كل من تعفف عن أكل النواة ورمى بها إلى الأرض .

- قم حتى أقتلك .

لن أقرأ الكتاب فقط ، بل سأعيد دراسته وكتابة بحث عنه . لن أبحث هذه المرة عن الجنس والعنف وقصص التشويق والإثارة ، لن أبحث عن أخبار العاشقين وأغاني الجواري خلف الخدور . ولن أستحضر شيئاً مبهجاً من عوالم اللعب والمغامرة ، لأنني لا أملك مزاجاً لذلك . سأبحث عن أكثر جوانبها رعباً وأجعلها موضوعاً لمحاضرة أشارك بها في موسم المحاضرات بالنادي الأدبي . سأبحث عن قضايا المسخ والتشويه والموت والانتحار وكيف عالجتها قصص شهرزاد لعلها تضيء شيئاً من محنتي .

- قم حتى أقتلك .

سأكتب عن هذا القتل وهذا السيف الذي ظل معلقاً فوق عنقها يدفعها إلى

سرد الحكايات وتوليدها الواحدة من رحم الأخرى بحثاً عن النجاة والانعتاق من الموت العبثي . وسأكشف عن حيلتها عندما جاء ت في أولى لياليها تهجو شهريار في وجهه وتلبسه أردية هذا العفريت الذي يشهر سيفاً للقتل فتقاومه بقوة الحكاية وسطوتها وتعلن بذلك عن مخططها الذي ستواجه به شهية شهريار إلى القتل ورؤية دم البكارة مختلطاً بدماء الأعناق المقطوعة .

أحضرت أوراقي وصرت أقرأ وأنقل ملاحظاتي . بدأت من خلال فعل الكتابة أتحرر من كآبتي وأستعيد ذكريات الدهشة الأولى عندما التقيت أثناء طفولتي بقصص الأطفال المستوحاة من هذه الأسطورة . تنشر لي الحكايات بساطها السحري فأنتقل من دروس الإملاء والحساب إلى عوالمها الأسطورية . أطوف بمدائنها ، وأتناول الطعام على موائد ملوكها ، وأرافق على باباً إلى مغارة الكنز أملأ منها جيوبي بعقود اللؤلؤ والمرجان والياقوت ، وأستخدم مصباح علاء الدين ليأتي خادمه الجني قائلاً :

- لبيك عبدك بين يديك .

فأصدر له أمري بشنق جميع مدرسي الحساب وقواعد اللغة وإشعال الحرائق في كل المدارس لكي أستيقظ في صباح اليوم التالي فلا أجد مدرسة ولا مدرسين . كان الاستغراق في عوالمها بديلاً لبؤس الواقع وهروباً منه ، وها هي تقدم لي اليوم ما كانت تقدمه لي عندما كنت طفلاً .

رأتني زوجتي أعود إلى العمل والكتابة فأبلغت أهلها وأهلي ، وسمعوا في برنامج إذاعي خبراً عن المحاضرة ، فتوافدوا على البيت لتهنئتي ، حتى الأخت الكبرى التي تزوجت فقيهاً غاب بها في إحدى الواحات ، جاءت لزيارتي يوم تقديم المحاضرة . اكتشفت أن ملامحها صارت الآن تشبه ملامح أمي ، وأيقظت بحضورها حنيناً في نفسي إلى ذلك العالم الذي غمرته مياه الزمان . تمنيت أن تبقى معنا ولكن الفقيه الذي جاء بها أعادها مرة أخرى إلى صحرائه . داهمتني رغبة لأن أزور البيت الذي شهد سنوات التكوين الأولى عندما كانت أمي على قيد الحياة . وهازئاً من منطق الطبيب الذي يقول بأن أمراضي جاءت من تلك

المرحلة قررت الذهاب لزيارة بيتنا القديم . مضت سنوات عديدة لم أذهب خلالها إلى تلك الشوارع والبيوت التي أنطفأت فيها الحياة بعد أن هجرها الناس إلى العمائر الجديدة ومصاعد الكهرباء . لم تكن هناك عاهات نفسية وإنما بحر وسماء وبيوت تتكئ على بعضها البعض وأزقة تتشابك في عناق لا ينتهي . هبطت إلى الشارع أبحث عن سيارتي فتذكرت أن أخي أخفاها عني بحجة إصلاحها ، فهو لا يريدني أن أقودها قبل أن أتعافى من مرضي . أخذتني سيارة الأجرة إلى هناك وما أن وصلت إلى مداخل المدينة القديمة ورأيت البيوت التي تحول بعضها إلى أنقاض وظل بعضها الآخر يمتلئ بالشقوق ، حتى أحسست بالوحشة تحط في صدري وتبدد ما كان يغمرني من إثارة وشوق وحنين . لا أستطيع أن أنسى كيف كانت هذه الأزقة عامرة بدكاكين العطرية ، وصناديق الفاكهة والخضار التي تملأ الأرصفة ، وما تعج به من رجال يرتدون الملابس الوطنية ، و نساء يلتحفن الأردية البيضاء ، وأطفال يركضون ويلعبون ، وباعة متجولين ينادون على بضائعهم ويصنعون صخباً وضجيجاً يتواصل ليلاً ونهاراً . انطفأ الآن ذلك الضجيج وتحولت تلك البيوت والحوانيت والحمامات والكتاتيب إلى خرابات مهجورة لا تسكنها إلا الغيلان . وعندما صادفت في الطريق بيتاً أعادوا ترميمه وطلاء جدرانه وأسكنوا به إحدى العائلات أحسست بالألفة والأمان ، وجاءت رائحة الطعام تزيل شيئاً من وحشة المكان . وصلت إلى الزقاق الذي أعرفه أكثر من أي موقع آخر في هذه المدينة . كان زقاقاً صغيراً مغلقاً يضم صفين من البيوت ، ثلاثة في كل جهة وبيت سابع ينتهي عنده الزقاق ويقع في مواجهة المدخل هو بيتنا . بيت من طابقين وصحن كبير مفتوح لا سقف له إلا السماء . وثمانية غرف تتوزع بين الطابقين تتقاسمها ست عائلات ، منها من اكتفى بغرفة واحدة في حين كان لنا غرفتان . كنت لا أرى الباب إلا مشرعاً على الدوام . يسدلون خلفه ستارة من الخيش ويبقونه مفتوحاً طوال ساعات النهار . كان جيراننا في البيت يتغيرون ، ولكن رجلاً يصنع الجرار اسمه أبو خطوة ظل مرافقاً لنا بأسرته ، يصنع أباريقه وجراره بإحدى الغرف ويجففها فوق السطح . وكانت صاحبة البيت المحاذي لبيتنا

امرأة مسنة اسمها الحاجة وردة ، لم أعرف إلا بعد أن كبرت أنها تزوجت في صباها ضابطاً تركياً هرب أثناء الغزو الإيطالي وتركها وهي ما تزال بخضاب العرس ، وانتقاماً منه فتحت بيته للترفيه عن الإيطاليين . ثم هجرت هذه المهنة وحجت إلى الكعبة واشترت هذا البيت الذي تؤجر غرفه مفروشة للعائلات القادمة من الريف ، وعندها عرفت السر في أنها كانت دائماً تحتفظ بزينتها كاملة وتصبغ شعرها بطلاء أسود وترتدي عطوراً لا تعرفها النساء في حارتنا . أما البيت الذي يلاصق بيتنا من الناحية الأخرى فلم أعد أذكر منه إلا الغرفة الكبيرة التي تقع بمدخل البيت . يقطنها فقيه يكتب الأحجبة ويطرد الجن ويعالج النساء العقيمات هو الشيخ الصادق أبو الخيرات ، وكانوا يسمعونه يتحدث أحياناً مع نفسه فأشاعوا عنه أنه يخاوي إحدى الجنيات وهي التي تساعده على قضاء حوائج الناس الذين يأتونه طلباً للعلاج . وكنت أذهب إلى غرفة الشيخ في المواسم والأعياد ، أحمل له من بيتنا طعاماً لكي لا يبقى محروماً من طعام أهل الإنس الذي لن يلقاه عند امرأته الجنية كما كان يقول أهلي .

وقفت أمام بيتنا واجماً . كان جزء كبير منه تهدم وتكدست حجارته تسد المدخل . أردت أن أتسلق كوم الحجارة لأنفذ إلى داخل البيت وأرى الغرف التي لم تتهدم ولكنني تخليت عن المحاولة بعد أن زلت قدمي منذ أول حجر وطأته . كان الوقت قبل الغروب بقليل . وكان المكان موحشاً خاوياً ، لا أثر لإنسان يعيش أو يمرق من هناك . والبيوت كأنها أطلال مدينة دمرها الزلزال منذ ألف عام . جاءت الكآبة تعصر صدري وتدفعني إلى البكاء . أردت أن أهرب من وطأة هذا المشهد ، حاملاً معي حصاد الخيبة لزيارة البحث عن زمن تقوض وانتهى . ولكن رائحة بخور تتصاعد من مكان قريب أوقفتني ذاهلاً في مكاني . كانت رائحة شذية ذات عبير غريب أحسست به يتدفق في صدري ويملأني برعشة الانتشاء . أغمضت عين رافعاً رأسي ، مستنشقاً هذا العبير الذي لا أذكر أنني شممت عبيراً مثله . اكتشفت أن لرائحة الخور مصدراً هو الخرابة التي كان يسكنها الشيخ الصادق . اندفعت إليها مبهوراً . كان باب الخرابة مخلوعاً فدخلت إلى عتمة

السقيفة المتربة وقد ازدادت الرائحة نفاذاً وقوة . وقفت أمام باب الغرفة التي يسكنها الشيخ . كانت الغرفة تحتفظ ببابها الذي كان موارباً . دفعته قليلاً فأصدر الباب صريراً وكشف عن نور خافت يتسلق بلهاثه الجدران . وقفت للحظة متهيباً . لعلها شمعة أوقدها أحد المؤمنين بكرامات الشيخ وفاء له وإحياء لذكراه . ولكن من أين جاء هذا البخور الذي يغمرني بنشوته المذهلة؟ دفعت الباب ودخلت ، وما أن وضعت قدمي داخل الغرفة حتى تبدى لي الشيخ الصادق أبو الخيرات جالساً فوق سجادته تماماً كما تعودت أن أراه منذ ثلاثين عاماً مضت . لا أردي إذا ما كانت هذه اللحية الكثيفة البيضاء ، بيضاء ذلك الوقت ، ولكن ملامحه ظلت مطابقة للصورة التي أختزنتها الذاكرة . هذه هي جلسته كما أذكرها وسجادته ذات الأهداب الذهبية ومسبحة العقيق مضيئة بين أصابعه وكتب عتيقة سميكة بجواره وموقد النار يضوع بالأبخرة كما أراه الآن . لعلني أحلم أو أتخيل . ولكنه هو بكل الطقوس التي كان يحيط بها نفسه . أطلقت السلام أريد أن أختبر فيما إذا كان الرجل حقيقة وليس مجرد طيف صنعته العتمة والأوهام . سمعت الرجل يرد السلام مشفوعاً برحمة الله وبركاته كما تعودت أن أسمعه أيام الطفولة . ذات الصوت الواهن الضعيف بنبراته الودودة الحنونة . كيف تراه حافظ على البقاء بهذه الهيئة طوال هذه العقود . لعله لم يكن ذلك الوقت شيخاً طاعناً في السن كما تصورته . أذهلتني المفاجأة فلم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول . وقفت صامتاً وسط العتمة المضيئة ، أرتوي بالعبير وأنظر إلى موقد النار . رآني حائراً فدعاني بإشارة من يده إلى الجلوس مفسحاً لي مكاناً بجواره . جلست صامتاً أتابع خيوط الدخان التي تتصاعد من الأعشاب المحترقة .

- كان والدك رجل صلاح وتقوى .

لم أكن أتوقع أن يعرفني ويهتدي إلى الطفل الذي غاب عنه ثلاثين عاماً ، تغيرت خلالها ملامحه وغمرت الظلال وجهه وقلبه . واصل حديثه عن والدي قائلاً :

- إنه يذكرك دائماً ويرعى خطاك .

ها هو يتحدث بلهجة رجل عاد لتوه من العالم الآخر . لعل أفضل شيء أفعله هو أن أهرب من حضرة هذا الرجل الذي يتكلم لغة الأشباح . طمأنت نفسي قائلاً بأن هذه هي اللغة التي يتحدث بها أمثاله من الفقهاء الذين يعاشرون الأرواح ويتصلون بعوالمها الخفية المجهولة ، ولا بد أن الفضل في بقائه محتفظاً بصحته رغم تقدم العمر إنما يعود لأطعمة أهل الجن التي تقدمها له زوجته .

– سوف تنال بعون الله ما جئت من أجله .

ما الذي تراه يظن أنني جئت من أجله؟ ، لعله ظن أنني جئت طالباً الاستعانة بأوراده وأعشابه وأصهاره من أهل الجن على قضاء إحدى الحوائج . هل أقول له أنه ما كان يخطر ببالي أن العمر قد امتد به إلى هذا اليوم؟ . وأنني ما جئت إلى هذا الزقاق إلا لأن قراءاتي في ألف ليلة وليلة أيقظت في ذهني عتيق الذكريات فجئت لألقاء نظرة على هذا العالم القديم المندثر . وعندما جاء عبير أعشابه يقودني إلى باب غرفته لم أكن أتخيل أنني سألقاه جالساً فوق سجادته ، تمثالاً حياً للماضي الذي سحقته أقدام الزمان ، وكأن الجن أعارته أرواحها وأحالت سجادته إلى بساط سحري يرتفع فوق قوانين الفناء والاندثار . كنت قد تحررت من ذهول اللحظات الأولى قائلاً لنفسي بأنه لا غرابة أن أجد شيخاً عاصرته في طفولتي يمتد به العمر حتى الآن ، فما أكثر الذين تتجاوز أعمارهم المئة بعشرات الأعوام . ولكنه جاء يعيدني إلى حالة الذهول مرة أخرى عندما قال :

– سوف تشفى بإذن الله مما تعانيه ، وما أمراض الروح إلا علامة الصدق ونقاء السريرة عندما تخرج للإنسان المريض آثامه وذنوبه وكأنها طيور سوداء . فاتجه بقلبك كله إلى مصدر النور . إلى ذي الجلال والإكرام ، منه الشفاء ومن عباده التوسل والدعاء .

كيف تراه عرف عني كل ذلك؟ لعله أبصر علامات المرض في وجهي وأدرك من خبرته أن الطيور السوداء هي ما يراه مرضى النفوس من أمثالي ، أو لعل أخي كان يعرف بوجوده وأخبره عني وما تلك التمائم التي يزودني بها إلا تمائم كتبها هذا الشيخ . كل ذلك جائز . ثم إنه رجل صاحب أسرار وكرامات وقدرة على رؤية

ومعرفة ما لا يراه ويعرفه الآخرون ، فلأستمع جيداً إلى ما يقول .

- هل نبدأ جلسة العلاج الآن؟

ألقى سؤاله دون أن ينتظر مني رداً ، فقد باشر من فوره قراءة الأدعية والأوراد وإحراق مزيد من البخور . نعم ، لنبدأ جلسة العلاج الآن . هربت دائماً من الذهاب مع أخي إلى فقهائه ، وها أنا أجد نفسي ودون أن أدري في حضرة هذا الفقيه الذي نجا من الطوفان . لماذا لا نبدأ الآن؟ . إذا لم أفز بالعلاج فلن أخسر شيئاً . انتقلت إلى الجلوس في مواجهة الشيخ كما أراد . كان يقرأ الأوراد بلهجة منغومة حاولت أن أتبين شيئاً من كلماتها فلم أفلح . بدا لي أنه يستخدم لغة مهجورة لم يعد يتكلمها البشر . امتلأت الغرفة بدخان الأعشاب المحترقة التي لها رائحة فردوس مفقود . أحسست بالبخور يسري مع الدم في بدني ، وامتلأت عيناي بالدخان فلم أعد أرى شيئاً . سمعت الشيخ يتوقف عن ترتيل أوراده السريانية ويسألني بصوت كأنه قادم من السقف :

- ماذا ترى الآن؟

كان السؤال غريباً . حاولت أن أفتح عيني الممتلئتين بالخدر ولم أقل شيئاً . ماذا يمكنني أن أرى غير الشيخ وموقد ناره وجدران غرفته التي يغلفها الدخان .

- أغمض عينيك جيداً وقل لي ماذا ترى؟

بدت المهمة أكثر يسراً طالما أنه لا يريدني أن أفتح عيني . ولكن ما الذي يمكن أن يراه إنسان مغمض العينين . إنني لا أرى سوى الظلام ولا أحس بشيء سوى هذا الدوار الذي تصيبني به رائحة البخور .

- ما الذي تراه؟

- لا أرى شيئاً .

جاء صوته هذه المرة حاسماً ، زاجراً :

- اصرف ذهنك عن التفكير في أي شيء آخر .

- إنني لا أفكر في شيء .

إذن أغمض عينيك جيداً وحاول أن ترى . مرت لحظة صمت ثقيلة ، صمت

لا تكسره إلا هسهسة الأعشاب التي تحترق في الموقد .

- لعلك ترى بقعة بيضاء .

توهمت مجاراة له وهروباً من إلحاحه أنني أرى نقطة بيضاء وسط الظلام فلم أرد بالنفي .

- سوف ترى كيف تصير البقعة البيضاء دائرة تتسع وتتسع حتى لا ترى شيئاً سوى البياض .

لم أكن قد رأيت شيئاً ولكنني بإيحاء منه صرت أتخيل أنني أرى بقعة بيضاء تتسع حتى يصير الظلام فضاءً ساطعاً بالبياض .

- نعم إنني أرى ذلك .

- انظر الآن جيداً في الخلاء الذي أمامك .

كان الخلاء ينطرح أمامي أرضاً قاحلة جرداء لا نهاية لها .

- حدق جيداً كي ترى قباب مدينة تلوح في الأفق .

- إنني لا أرى شيئاً سوى الخلاء .

- انطلق إذن حتى تراها .

رأيت نفسي أعدو وسط بيداء تحرقها الشمس ويغطيها حصى يلمع تحت مسقط الضوء . بقي الشيخ صامتاً ، وأنا أركض دون أن أرى شيئاً يحد هذا الخلاء . بدأت أحس بالتعب . جسمي يرشح عرقاً وأنا أعدو مقطوع الأنفاس .

- لقد تعبت .

- لا تتوقف عن المسير .

أواصل المسير لاهثاً . العطش يحرق حلقي ، والشمس تمطر حديداً مصهوراً فوق جسمي . أتحرر من سترتي وربطة عنقي وساعة معصمي فقد صار كل شيء أرتديه ثقيلاً لا أقوى على حمله . أخلع القميص وأضعه فوق رأسي لأحتمي به من ضراوة الشمس وأبحث عن طائر ينبثق في الفضاء يحميني بظله ، فلا أرى ظلاً إلا ظلي .

- أريد ماءً .

- ستهتدي بعد قليل إلى الماء .

أردت أن أتوقف لأرتاح قليلاً ولكن الصوت جاء يسألني :

- انظر لكي ترى قباب المدينة وأسوارها .

كنت منهكاً . وكنت أستطيع أن أرى أطياف قباب تلوح في البعيد .

- أظن أنني أراها .

قال هاتفاً :

- أبشر فقد تحقق لمهمتك النجاح .

لا أريد نجاحاً سوى إعفائي من هذه المهمة التي أضنتني بلا معنى . بدت المدينة بعيدة جداً ، والسفر إليها يقتضي جهداً لم أعد قادراً عليه . ولكن أنساماً رطبة جاءت من جهة المدينة أنعشتني وساعدتني على مواصلة المسير .

- إنها بعيدة .

- لا تتهاون وأكمل ما بدأت .

- أريد أن أرتاح قليلاً .

تقطع الحذاء وصارت الأحجار تجرح قدمي .

- واصل المسير وستصل قريباً بإذن الله .

بدا فعلاً أنني أقترب منها أو أن أسوار المدينة هي التي تدنو مني حتى صارت أمامي . رأيت على باب المدينة حشداً كبيراً ، أطياف بشر تغطيهم أبخرة الشمس وتنعكس أشعتها على حليّ يرتدونها . جاء صوت الشيخ الصادق واضحاً ، وقريباً ، كأنه يهمس في أذني .

- هل وصلت؟

قلت لاهثاً

- إنني أقترب .

- هل ترى أهل المدينة الذين يقفون عند الباب؟

- نعم

- اتجه إليهم وبادرهم بالسلام فهم ينتظرون مجيئك .

منهكاً ، متعباً ، أجر جسدي فوق الأرض ، تحاملت على نفسي حتى وصلت إليهم . ألقيت عليهم التحية وارتميت تحت أقدامهم فاقد الأنفاس . جاءوا لإسعافي يرشونني بالماء ويضعون قطرات منه في حلقي . بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد قدرتي على التنفس بانتظام . اختفى صوت الشيخ الصادق ولم أعد أسمع إلا أصوات هؤلاء الناس الذين يصنعون دائرة حولي . ما زالوا أشباحاً لا أستطيع أن أميز ملامحهم لفرط ما عانيت من تعب . كلامهم ما زال غامضاً مضغوماً لا أعي منه شيئاً . أدركني خوف مفاجئ وأنا أنتبه إلى أنني أرتمي وحيداً بين هؤلاء الأشباح . استنجدت بالشيخ الصادق لكي ينقذني فلم يسمعني . ناديته بصوت مرتفع عندما استعدت قدرتي على النطق . لم يأتني الرد ، فعاودت النداء بحرقة وفزع . أريد أن تنتهي هذه اللعبة المضجرة وأن أترك هذا الوجود الكاذب وأعود إلى وجودي الحقيقي . ولكن الشيخ لا يجيب . اختفى وكأنه لم يكن منذ لحظة معي ، كما اختفى وجودي الآخر الحقيقي وصرت الآن جزءاً من هذا العالم الوهمي . تركني في الوهم ومضى . وبعينين أضناهما ضوء الشمس وفكر أعياه القيظ والعطش والسير الطويل في الصحراء ، تأملت الرجال الذين يحيطون بي . أستطيع الآن أن أراهم بوضوح فلا يذكرني منظرهم إلا بالبشر الذين يسكنون عوالم ألف ليلة وليلة . يرتدون عمائمهم وأرديتهم وسراويلهم الواسعة ويتمنطقون بأحزمة مرصعة بالجواهر ويضعون بها خناجر لها مقابض من العاج وأغمدة مزينة بنفيس المعادن وكأنهم هيؤوا أنفسهم لمشهد احتفالي . كيف وصلت إلى هذه المدينة التي تخلفت عن عصرها ، أو كيف خرجت أنا من العصر عائداً إليها ، إنني لا أفهم شيئاً ولا أجد تفسيراً لهذا كله إلا أنني أرى حلماً . أغمضت عيني أطرد الحلم وأعدت فتحهما لأراه قد اختفى . ولكن الحلم لا يختفي وإنما يزداد تأكيداً وحضوراً ، فقد اقتربوا مني عندما رأوني أنهض من رقادي وأستعيد مداركي قائلين :

- نصر الله الأمير .

صاروا جميعاً يرددون هذا الهتاف بفرح وحماس لم أعرف عن أي أمير

يتحدثون ، فلعلهم رأوا أميرهم قادماً لتدشين هذا الحفل ، ولكنهم لا يلتفتون لأحد غيري . لا بد أن الأمر اختلط عليهم وظنوا أنني أمير من أمرائهم كان تائهاً في الصحراء وعاد إليهم بعد سنوات من الغياب تبدلت خلالها صورته ، رأوني ذاهلاً ، أنظر ببلاهة نحوهم غير قادر على استيعاب ما يقولون ، فتقدم أحدهم مني ، وكان شيخاً ذا لحية كبيرة مصبوغة بالحناء ، يرتدي عمامة زرقاء وجبة من الحرير الأبيض يحيطها نطاق مرصع بالمرجان ، وأخبرني بأنه تم تنصيبي منذ هذه اللحظة أميراً على هذه المدينة وحاكماً على رقاب أهلها . قائلاً بأن أعراف المدينة تقضي بأنه إذا مات الأمير خرج الناس إلى البوابة المفضية إلى الصحراء ينتظرون أول رجل يأتي من هذا الطريق ليجعلوه أميراً عليهم . كنت أعرف أن هذا لا يحدث إلا في الحكاية التي تسردها شهرزاد ، فكيف استطعت وفي غفلة من حراس الزمان الذين يديرون الأفلاك بميقات ونظام ، أن أنتقل من خارج الحكاية إلى داخلها . كنت أريد أن أعبر لهذا الشيخ عن دهشتي لهذا التطابق المستحيل بين زمن الأسطورة والزمن الذي أنتمي إليه ، ولكنه دون أن يطلب رأياً أو ينتظر مني رفضاً أو قبولاً أمر بالمحفة التي نضدت فوقها الوسائد والطنافس والرياش فوضعت أمامي ، وجالساً فوق المحفة المحمولة على الأعناق عبروا بي البوابة المفضية إلى شوراع المدينة وقد زينتها الأقواس والرسوم وأكاليل الورد ، ومن حولي أطفال في ثياب مزخرفة يحملون سلالاً مليئة بأوراق الزهور والورود ينثرونها فوقي ، وقد ازدحمت الطرقات بنساء ورجال يرقصون ويغنون ويعزفون الموسيقى ، ويطلقون الهتافات وصيحات الابتهاج . أدخلوني إلى قصر تحف به الحدائق وأحواض الماء ، وأنزلوني من المحفة وقادوني عبر ردهات القصر ذات السقوف العالية وأعمدة الرخام الكثيرة والأبسطة التي تغوص بها الأقدام ، إلى غرفة حمام الأمير حيث قضيت وقتاً بين الأبخرة ومياه الأحواض الساخنة الممزوجة بالمسك والعنبر والمخلوطة بأوراق النرجس والياسمين . تعاونت خمس وصيفات على إلباسي حلة الحكم . قفطان من الحرير وفوقه عباءة مطرزة بخيوط الذهب والفضة ونطاق مرصع باللؤلؤ والياقوت الأحمر وعمامة من قماش مصبوغ بغبار الذهب وسراويل مشغولة

بنقوش تتفق مع نقوش العباءة ومركوب مزين بفصوص المرجان ، وأنا أستسلم لهن دون كلام ، مبهوراً بما أرى ، تملؤني الدهشة وتشل قدرتي على النطق ، متيقناً بأنني أعبر الآن فضاء الحلم وأنتظر في أية لحظة أن أخرج منه لأسقط في غرفة الشيخ الصادق أبو الخيرات . قادوني بعد أن رشوني بالعطور ودلكوا ملابسي بقوالب المسك إلى الديوان . قاعة كبيرة بالغة الاتساع والبهاء تتدلى منها ثريات كبيرة مثقلة بقناديل الفضة ، تزين سقوفها النقوش والتصاوير وتغطي جدرانها المرايا وأغلفة من خشب الأبنوس ، تفنن الرسامون في نقشها وأبدعوا في تصوير الرجال الذين يحملون الرماح والسهام يصطاون بها الوعول والنمور وبقر الوحش . أجلسوني فوق سدة الحكم التي يغطيها الديباج والوسائد ومن حولها صفت الأرائك التي يجلس عليها عدد من شيوخ المدينة وعائلاتهم . وقفوا عندما دخلت ونفخ المنشدون الذين يصطفون أمام باب القاعة في أبواقهم عدة مرات . جلست ذاهلاً لا أدري ماذا يجب أن أفعل وماذا يمكن أن أقول إذا بدؤوا في توجيه الأسئلة إلىّ عن الرحلة التي قطعتها والبلاد التي جئت منها . بدأت مراسيم تنصيبي أميراً ، وجاء رجل بمجمرة يضوع منها عبير يشبه العبير الذي قادني إلى غرفة الشيخ صادق ، وصار يطوف بها حولي ويقرأ الأدعية والأوراد . جاء بعده رجل يحمل إبريقاً مليئاً بالزخارف والنمنمات ، بدأ يرشني بمائه طالباً من هذا الماء المقدس الذي شرب ضوء القمر لمدة سبعين دورة أن يباركني ، وجاء رجل ثالث يحمل طبقاً مفروشاً بالقطيفة الحمراء وفوقه جوهرة كبيرة مرصعة بفصوص الأحجار الكريمة لكي يرشقها في عمامتي . ثم وقف الشيخ ذو اللحية الحمراء الذي عرفت أن اسمه جلال الدين وسألني أن أردد معه هذا القسم :

– أقسم بالله وشموسه وأقماره ونجومه وأرضه وسمائه وما حوت من كائنات أن أكون خادماً مخلصاً لمدينة عقد المرجان ، وفياً لتقاليدها ، وحارساً لنظامها ، وأميناً على تراثها ، وعاملاً على رفعتها ، وإسعاد أهلها ، وحامياً لترابها ، والله على ما أقول شهيد . رددت معه القسم واقفاً . صفق الحاضرون وهتف المنشدون ثلاث مرات :

- نصر الله الأمير .

انتهت مراسم التنصيب فبقي الرجل واقفاً لإلقاء خطاب باسم أهل المدينة . قال كلاماً غامضاً عن الشمس التي تشرب الماء والماء الذي يشرب الضوء والهواء ويتحول إلى رحيق يسري في عروق الأرض ومورد حياة للبشر والشجر والكائنات الأخرى . وعن جوهر الماء وجذور الضوء وأمشاج الأرض وأمواج الهواء التي منها جبل الإنسان . تحدث عن بساتين السماء التي منها جئنا وفيها خلقنا وإليها نعود مرة أخرى ، وعن خيط النور الذي بين السماء والأرض وبين الإنسان وموطنه الأصلي بين النجوم ، وعن معنى سطوع القمر في قلب الليل وما يمارسه من تأثير على عقول وقلوب الكائنات البشرية فإلى هذا المعنى يجب أن تتجه الأنظار . ويسألني إذا ما وعيت كلماته أن أمعن النظر في جوهر الإنسان الذي تزود بخبرة أجيال لا حصر لها سبقته إلى هذا العالم واستفاد من قدرته على تأمل النظام الذي يحكم الكون ، واغترف الحكمة من الطير الذي يعرف منابع النور وحكمة الشجر الذي يعرف أسرار الفصول ، وحكمة الأعشاب والينابع والسحب والنجوم التي تصنع زهو الطبيعة وتمنح عطاءها للإنسان ، فقد احتوى الجوهر الأنساني معنى الوجود وأسرار الطبيعة ونور الله وأمجاد الأرض والسماء ، فإلى استكمال الجمال الداخلي يجب أن يسعى المرء لكي يكون جديراً بهذا الانتماء . ثم توجه بالحمد والشكر إلى الأقدار العليا التي هدتني إلى مدينة عقد المرجان ، بعد رحلة مضنية شاقة وسط الصحراء ، لأكون منذ اليوم الأمير الذي أقسم أن يحافظ على تراثها ، ويرعى النواميس التي تحكمها ، ويكمل المسيرة التي بدأها أمراء قبله ، جاءوا من ذات الطريق ، وتعرضوا إلى نفس الامتحان ، وقطعوا تلك المفازة الصحراوية الموحشة التي لا يقطعها إلا الأولياء من أحباب الله ، فهي مفازة تسكنها جوارح الطير وتمتلي بأودية الجن والعفاريت ومن نجا من الهلاك في أوديتها وأرضها ذات الشقوق والأخاديد وقاوم جوارح الطير التي تأكل الإنسان والحيوان لن ينجو من ثعابين تنفث ناراً ، تسكن إحدى مناطقها ، تقطع الطريق على العابرين بها . فلا يعبرها بعد كل هذه المهالك والأخطار إلا رجل من

أصحاب الحظوة والكرامات . ولقد كافأ الله صبرهم خيراً عندما انتظروا عاماً كاملاً يخرجون فيه كل يوم إلى باب المدينة للقاء هذا الرجل الصالح الذي استطاع بمعجزة النور والإيمان أن يخترق هذا الطريق ليصبح أميراً جديراً بائتمانه على هذه المدينة .

تابعت كلماته بذهول واستغراب لأني قطعت الطريق غافلاً عن كل هذه المهالك . حاولت وأنا أستمع إليه أن أتبين الدين الذي يدينون به وتوسمت من ذكرهم لاسم الله أن ما يعتقدونه قريب الصلة بالإسلام . ثم دعا الشيخ رجلاً فتياً حاسر الرأس تتدلى جدائل شعره الطويل حول عنقه هو ياقوت الشاعر ، الذي نهض من مكانه وجاء يحمل ناياً . عزف عزفاً جميلاً ، شجياً ، أشاع في نفسي شيئاً من الهدؤ والسكينة وجعلني أحس بالألفة مع المكان . ترك بعد ذلك العزف وأنشد بعض التراتيل التي كان يقولها بأسلوب بين الإلقاء والغناء . غنى عن دورة الأفلاك في الكون ودورة النسغ في الشجر ودورة الفصول على مدار العام ودورة الإنسان بين الميلاد والموت ، فلا خلاص إلا بالحب ولا حب يعادل حبه لتلك المرأة التي أوقعته في شباكها وسحرته بجمال عينيها فلم يعد يرى صورة إلا صورتها ولا يرى وجهاً إلا وجهها ولا يعرف نوراً يهتدي به في رحلة العمر إلا النور القادم من ثغرها وجبينها .

وما أن أكمل غناءه حتى أضاء القاعة جمال امرأة وقفت عند مدخلها تحف بها الوصيفات ، وضعت في عنقها عقداً به سبعة أقمار مصنوعة من الزمرد والياقوت ، وفي أذنيها قرطين من اللآلىء التي تشبه الوان العقد ، وأرسلت شعرها الأسود الطويل فوق كتفيها ، مختلطاً بسواد الثوب المرشوش بغبار فضي فوسفوري . وقف الجميع تحية لها ووقفت معهم أعلق بصري بها حتى اقتربت مني . ليس هذا الجمال غريباً عني . لقد رأيته قبل اليوم وعشت معه إلى حد الألفة والحميمية . وما هذه المرأة إلا شهرزاد كما عرفتها ورأيت صورتها معكوسة في مرايا الحلم والمخيلة . بقامتها الفارعة المجيدة ووجهها المستدير المضيء ، وسواد عينيها اللتين تنفثان سحرهما الأسطوري الذي روض الوحش . وبرغم ما قاله

الشيخ جلال الدين عندما قدمها لي ، من أنها الأميرة نرجس القلوب ابنة أمير البلاد الراحل ، التي تولت مهام والدها في فترة الانتظار والخروج اليومي إلى بوابة الصحراء والتي ستتولى مساعدتي في فهم العمل بالديوان الأميري ، فإنني لم أزدد إلا يقيناً بأنها شهرزاد تستخدم اسماً مستعاراً وتأتي لتكون دليلي في هذه الرحلة كما كانت دليلي في أزمنة مضت . سمعت ترحيباً منها وتلقيت نظرة مشعة من عينيها فأحسست بالفرح رحيقاً مثملاً يسري في جسمي . وجاءت بهجة حضورها وهي تجلس بجواري لتذيب كل إحساس بالغربة كان يساورني . ليكن ما أراه حلماً أو خيالاً فأنني لا أريد الآن شيئاً سوى أن أقضي العمر عائشاً في الحلم . تأملت الجالسين في القاعة فرأيتهم جميعاً ينظرون نحوي وينتظرون أن أقول شيئاً بعد أن انتهت مراسم تنصيبي . أغمضت عيني ورفعت رأسي إلى السقف أخاطب في سري الشيخ الصادق أبو الخيرات طالباً أن ينجدني ببعض الكلمات . فتحت عيني فوجدت رسوماً في السقف لنساء ورجال يحملون طاووساً ويضعون فوق وجوههم الأقنعة ، قررت أنا أيضاً أن أرتدي القناع وأندمج في اللعبة ، مستحضراً ما قرأته في ألف ليلة وليلة عن مثل هذه المواقف . ليس الوقت وقت كشف عن هويتي الحقيقية وسرد للوقائع التي مرت بي والتي لم يكن من بينها مقابلة غيلان الصحراء والثعابين التي تنفث النار فهذا حديث لن يقبله الناس مني الآن . تذكرت أن أول ما يفعله الأمير بعد تنصيبه هو إصدار عفو عن المساجين . مبادرة خير يبدأ بها صفحة جديدة مع الناس . وبكلمات مقتضبة شكرت الحاضرين على حسن حفاوتهم وعبرت لهم عن اعتزازي بالثقة التي منحوها لي عندما جعلوني أميراً على مدينتهم دون معرفة سابقة بمن أكون ، وأصدرت أولى قراراتي الأميرية قائلاً :

- ليطلق سراح كل من في المحبوس ابتهاجاً بهذا اليوم الذي نريده أن يكون فاتحة عهد من المودة والصفاء بين الناس .

رأيتهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً كأن ما قلته كلام غريب ليس من حقي أن أقوله . مرت دقيقة صمت ثقيلة استنجدت بعدها بالأميرة لأعرف سر هذا

الوجوم ، فأخبرتني بكلمات هامسة أن ليس في مدينة عقد المرجان سجون ومسجونون . أدهشني أمر هذه المدينة العجيبة التي قادني إليها الشيخ الصادق دون أن يزودني بإرشاداته عن نظامها الذي لا يشبه الحكم في البلاد الأخرى ، وقلت في خاطري لعلهم يقتلون المجرمين أو يقطعون أيديهم فلم تعد هناك حاجة إلى سجن أو سجناء تنفق عليهم الدولة ، أو لعل أميرهم السابق لم يكن يعرف غير السحل عقوبة لأعدائه ومعارضيه ، سأتدبر في المستقبل أمر هذه التقاليد وسأبدأ عهدي بعمل جليل هو بناء السجون . ولكن ماذا أستطيع أن أقول لهم الآن؟ ، استعنت مرة أخرى بما أذكر من حديث ألف ليلة وليلة وقلت بصوت حماسي :

- إذن فلتبطل المكوس لمدة عام كامل .

جازفت بتقديم هذه المكرمة التي قد تفقر خزائن بيت المال فتعجز الدولة عن دفع أجور العاملين بها ، وقلت ما قلته رغبة في تجاوز الحرج وإنقاذ ماء الوجه ، ولكن ماء الوجه ظل مراقاً ، لأنني وجدت القوم مرة أخرى ينظرون بذات الدهشة إلى بعضهم بعضاً . لا يعقل أن تكون هذه البلاد خالية من أنظمة المكوس وما يوازيها من ضرائب وجبايات ، فهي من الأركان التي تقام عليها الدول منذ أن انتهى طور الحياة البدائية ، ولكن الصوت الناعم جاء ليقول بذات اللهجة اللذيذة الهامسة التي يلونها الحرج ، أن المكوس نظام تركته هذه المدينة منذ أحقاب طويلة مضت . وكيف إذن تنفق الدولة على أجهزتها وكيف ينفق الأمير على حفلاته ونسائه ورجال قصره وأركان حكمه وأفراد وضباط جيشه وشرطته . لعلهم سبقوا الفكر الاشتراكي العلماني إلى اكتشاف ملكية الدولة لوسائل الانتاج ، فصار جميع الناس يخدمون لصالح الدولة ، وانتهى بذلك دفع الضرائب والمكوس . وطالما أن جميع الناس يعملون أجراء للدولة فلأصرف لهم معاشاً إضافياً احتفالاً بهذا اليوم .

- ليصرف معاش شهر إضافي لكل العاملين في الدولة .

الصمت مرة أخرى ونظرات الاستغراب ، ألا يتقاضى الناس أجوراً مقابل

مايقدمونه من أعمال للدولة . وإذا كنت أفهم ألا تكون هناك سجون أطلق سراح سجنائها لأنهم يرمون بهم من فوق الأسوار حتى تدق أعناقهم ، وأفهم ألا تكون هناك مكوس لأن جميع الناس صاروا أجراء لدى السلطة فأنني لا أفهم كيف لاتكون هناك معاشات للعاملين وجرايات للضباط ورجال القصر حتى إذا كان العمل يقوم على نظام السخرة فهو نظام يطبق على العبيد وليس على أهل الحكم والدولة . لم يكن هناك وقت لأن أسأل عن تفسير لهذه الأحاجي . إن الدولة هنا لا تعرف نظام المهايا والمرتبات وهذا كل شيء . لن يمضي هذا اليوم دون أن أصدر قراراً يؤكد مكانتي بينهم ويشيع الفرح بين بسطاء الناس الذين استقبلوني بالرقص والغناء ، حتى لو كانوا بشراً وهميين يسكنون مدينة وهمية لا وجود لها إلا في ذاكرة الشيخ الصادق . فلأمنح إذن هؤلاء الناس راحة من أعمالهم لمدة أسبوعين فلا كدح ولا عمل ولا شقاء ابتهاجاً بالعهد الجديد ، ولكن الأميرة تخبرني أن الناس هنا لا يعملون إلا وفق إرادتهم الحرة ، فلا أحد يعمل لحساب أحد ولا يمتثل لأوامر أو رغبات أحد إلا نفسه . قلت لنفسي : لا معنى لهذا كله ، إلا أنهم يعيشون بطالة دائمة ، وطالما أن الأمر كذلك فلينصرف تفكيري إلى الذين يطحنهم الفقر من هؤلاء العاطلين ، ولتمنح الهبات والإعانات لكل البؤساء والمحتاجين . ومرة خامسة أو سادسة تميل نحوي نرجس القلوب لتفهمني أنني أظلم هذه المدينة عندما أتحدث عن البؤساء لأن جميع أهل البلاد يتساوون في الانتفاع بموارد أرضهم . صرت أستشير الأميرة قبل أن أجازف بنقل مكارمي إلى الحاضرين فلا شك أن الحديث عن البؤ س كان سيستفزهم أكثر مما استفزهم حديثي عن الحبوس والمكوس . سألتها مرة أخرى عن رأيها في أن تفتح خزائن بيت المال وتوزع الجرايات من أموال الدولة على كل الناس ، ولكن مدينة عقد المرجان كما أخبرتني الأميرة لا تعرف مالاً ولا يتعامل أهلها بالعملات والليرات الذهبية والفضية كما يفعل أهل البلاد الأخرى . قلت في خاطري لعلها مدينة مسحورة لا يعرف أهلها احتياجاً ولا يتناولون طعاماً ولا شراباً سوى الهواء . أليست هي مجرد وهم وخيال تصورته واقعاً وعاملته على هذا الأساس . كنت لا

أزال غارقاً في حيرتي وحرجي أبحث عن مكرمة تؤسس لي مكانة بينهم وتتفق مع أطوار مدينتهم ، عندما حان موعد الانتقال إلى قاعة السهر والطعام لينقذني من هذا المأزق . انتقلنا إلى قاعة مدت بها أسمطة الأكل والشراب ، وجاءت الخراف المشوية والمحشية باللوز والفستق والبندق والبرغل . كنت جائعاً فأكلت بشراهة ، وكنت ظامئاً فشربت من دنان النبيذ بأكثر مما شرب الآخرون ، رغبة في أن أتجاوز هذا الحرج الذي أحس به وأنا أعاشر قوماً لم أعرفهم إلا منذ لحظات . انتهى الطعام وحان موعد الغناء والموسيقى وحلقات الرقص . اصطف المنشدون وضاربو الدفوف وعازفو المزامير والنايات وآلات العود والبزق استعداداً لبدء الاحتفال . وجاء الحكيم جلال الدين يخبرني بأن تقاليدهم تحبذ أن يتزوج الرجل الغريب الذي ينصبونه أميراً ، إحدى نساء مدينتهم كجزء من تأكيد انتمائه إليهم . لم أسأله إن كان هذا شرطاً من شروط الإمارة أو من الضروري أن يتم هذه الليلة لأنه ترك لي الخيار قائلاً أنهم يعتقدون ببركة هذا اليوم ، وسيكون شيئاً مفرحاً لأهل المدينة أن يتفق الزفاف مع يوم التنصيب ، ويمنحني حق اختيار هذه الزوجة من بين النساء اللاتي يرغبن في الزواج ممن جئن لحضور هذه الحفلة . رآني شارد الذهن ، صامتاً ، فظن أنني متردد في قبول هذا العرض . كنت أحاول أن أستوعب فكرة أنني صرت جزءاً من هذا العالم الذي بدأ يعيد ترتيب حياتي بما يتفق مع نواميسه وغاياته . أبلغته أنني لا أحمل إلا التقدير والإجلال للمدينة وتقاليدها وسأكون سعيد الحظ إذا أتيح لي الاقتران بإحدى نسائها . قلت هذا الكلام وأنا أنظر باتجاه نرجس القلوب التي صارت عوني ومرشدي في مهماتي الأميرية ، فرأيته يبتسم مؤيداً اختياري معبراً عن سعادته بأن تكتمل هذه الصلة التي بيننا بالزواج . فتمنيت عليه أن يسألها قبل أن يسألني فهي الأحق بإبداء الرفض والقبول . قائلاً في سري وأنا أسلم نفسي لحياة جديدة وسط خيمة الحلم ، من أين لرجل مثلي جاء إلى هذه المدينة منذ ساعات ، عارياً ، جائعاً ، حافياً ، مقطوع الصلة بأهله وعصره أن يرفض مثل هذا العرض السخي؟ . إنه حلم يتحقق داخل الحلم . كانت أبخرة النبيذ قد شعشعت في رأسي مرسلة

بروقـهـا الموحـيـة . صـرت الآن قـادراً على الاندماج في هذه الأجـواء الأسطورية مستمتعاً برفقة هؤلاء البشر المصنوعين من وهم ، معتبراً نفسي واحداً منهم .

وضع الرجل يدي في يد نرجس القلوب ومـضى يقـرأ الأدعـيـة والأذكـار وأنا أنظر مفتوناً إلى عينيها ، مدركاً أنها شهرزاد الأسطورة كما عرفتها وعاشرتها ورسمت منذ الطفولة صورتها . هكذا تمنيت دائماً أن ألتقي بها وهكذا شاءت حكمة الشيخ الصادق أن تصل بالعلاقة التي بيننا إلى حدودها القصوى ، وإلى هذا العرس الذي تقيمه لنا مدينة هربت من خرائط العالم ودورة الزمن كي تأتي إلى نجدتي . انتهى الحكيم جلال الدين من مراسيم عقد القران ، فرفعت الأقداح لتحيتنا ، وضج المكان بصوت الموسيقى ترافق سهرتنا . وأخذ الرجال نساءهم إلى حلبة الرقص ، فأخذت أنا أيضاً الأميرة إلى هناك ، أحتوي خصرها ، وأدفن وجهي في غدائر شعرها ، أغيب لحظة منتشياً بعطرها وعبير أنوثتها ، ثم أرفع رأسي فيفاجئني ما أرى وكأنني نسيت ما حدث لي ، وأسأل نفسي حائراً كيف يمكن أن تكون الحقائق المحسوسة والملموسة حلماً ، ويكون هذا الانفعال المتوهج الذي يطربني ويتدفق ساخناً تحت جلدي وهماً ، حتى بعد أن انتهى الحفل ووجدت نفسي في غرفة نوم مبهجة ، ثرية بابسطتها وديباجها وقناديلها الذهبية وتصاوير البشر المجنحين الذين يزينون سقوفها وجدرانها ، وحيداً مع الأميرة التي صارت زوجتي ، كنت ما زلت أسأل نفسي ذات السؤال ، واثقاً من أن ما أعيشه الآن أكثر عمقاً وصدقاً ومتعة من أي شيء آخر عرفته قبل الانتقال إلى هذه المدينة . وسواء كان وجودي الآن حقيقة أم وهماً ، حلماً أم يقظة ، فإنني لا أريد شيئاً أو أتمنى شيئاً إلا أن أبقى بجوار هذه المرأة التي تتألق بوجه له التماع الذهب المصهور وتوهجه . جلست على الأريكة بجوارها وأمامنا كوزان مصنوعان من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر ، يحتويان نبيذاً لذيذ المذاق له رائحة المسك . صارحتها بأنني ما زلت عاجزاً عن تصديق ما أرى وأسمع ، فقالت ضاحكة بأن ما أراه ليس إلا حلماً وما هي إلا المرأة الطيف التي تزور الرجال في أحلامهم ، كدت أصدق ما تقول ولم أكتشف أنها تسخر من أفكاري إلا عندما

وضعت كفها في كفي قائلة :

- ألا ترى أنني مصنوعة من الهواء .

قبلت يدها المباركة ذات النعومة والصفاء ولم أقل شيئاً .

- لن تقول هذا الكلام عندما تنام الليلة وتستيقظ غداً وأنت ما زلت في هذا القصر ، أميراً يبجله الناس جميعاً .

قلت شارد الذهن ، عاجزاً عن تصديق ما قالته :

- سأستيقظ عندما أستيقظ في داري بالمدينة التي جئت منها مواطناً بسيطاً يخاف أن يرمي نواة فوق الأرض .

- الناس لا يتكلمون في الأحلام عن أحلامهم ولا يحددون موعداً لدخولهم إليها أو خروجهم منها .

أردت أن أخبرها بما حدث لي قبل أن أصل مدينتهم وقصة انتقالي إليهم من زمان غير زمانهم لكي تعرف سبب حيرتي وعجزي عن التصديق ، ولكنها أوقفتني بسرعة عن الاستمرار في الكلام ، قائلة بأن طقوسهم تقضي بألا يسألوا الرجل الذي سلك طريق الصحراء إليهم ، من أين جاء وما هو أصله ، فقيراً كان أو غنياً ، عالماً أو جاهلاً ، ينتمي إلى سلالة الملوك أو السلالات الأخرى . يكفي أنه استطاع أن يجتاز ذلك الطريق وينجو من كل تلك المهالك ومعنى هذا أنه صاحب أسرار وكرامات ، ساقته أقدار عليها إلى باب مدينتهم ، فارتضوا به أميراً عليهم لا ينتمي لأحد إلا لهم ولا يعرف مدينة إلا مدينتهم . وفهمت منها أنه صار علي الآن أن أنسى كل شيء عن نفسي ، أنسى اسمي ومدينتي وأهلي ، وأرضى بالأسماء التي يطلقونها على أميرهم فهو سيد القصر وسالك الدرب أمير عقد المرجان .

كانت يدها ما تزال في يدي وكانت النشوة رحيقاً سحرياً يسري في بدني . سأنسى ذلك العالم الذي أورثني أمراض الروح ، سأنسى مكعباته الاسمنتية وهواءه المحروق وضجيج حديده وآلاته وفحيح إذاعاته التي تبشر كل يوم بالكوارث والخراب ، سأنسى رماده المذرور فوق الوجوه وأمنح نفسي إلى أفراح هذا العالم

الذي تتفتح مباهجه كأزهار الربيع تحت خطاي . سأجعل اتصالي به اتصالاً حقيقياً وعميقاً ، لا باعتباره حلماً بل باعتباره بديلاً رائعاً لذلك العالم القديم الذي تقوض وانتهى حتى صار دخاناً من الذكريات ، وأعيشه كواقع أصيل ينبض بجلال الحياة وبهائها كما ينبض جسد هذه الأنثى فاتناً تحت مئزرها الحريري . لا بد أن الأهل هناك سينشغلون لغيابي وسيذهبون إلى مراكز الشرطة بحثاً عني ولعلهم يذهبون غداً أو بعد غد يفتشون عن ملامحي بين مجهولي الهوية من ضحايا حوادث الطرقات . ولعل الشيخ الصادق يكون كريماً معهم فيرسل إليهم من يخبرهم بأنه رآني أنتمي إلى هذه العوالم السحرية التي عشقت أهلها وكتبت عن أحداثها وتواريخها بأكثر مما أنتمي إلى ذلك العصر ، فحررني من سطوة الزمان والمكان وأحالني سهماً مشدوداً إلى وتر وقوس ، ثم أطلقني لأخترق مسيرة مئات الأعوام واجتاز كهوف الجن وثعابين النار وأوكار الطيور الجارحة ، خارجاً من زمن الغربة والمنفى عائداً إلى أهلي الحقيقيين وزمني الحقيقي ومدينتي الحقيقية . ها هي مدينتي الجديدة تبسط لي أرضها وجناحها ، تلبسني من لباسها وتسقيني من شرابها وتطعمني من صحافها وتدخلني في طقوسها ، تضع جوهرة الحكم فوق رأسي وتقدم أجمل أميراتها لمؤانستي . أخذت امرأتي إلى السرير أنضو عنها مئزرها فيتجلى بهاء الجسد كبستان إلهي مثقل بفواكه الجنة . أتجول بين جداولها وأشجارها وأقطف من ثمارها وأشرب من خمر رضابها ، وأنتشي بموسيقى الفجر تعزفها طيور الفرح التي تسكن جسمها . أجدها مهرة لم تركب ودرة لم تثقب فأستمتع ببكارة الجسد الأميري وأنام بعد ذلك نوماً خالياً من الكوابيس التي كانت تعذبني بزياراتها الليلية ، كأنني أغفو فوق بساط الريح المصنوع من أجنحة الملائكة . وأصحو في الصباح على صوت الشحارير والحساسين وعصافير الكناري ، تشدو فوق العرايش التي تتسلق شرفة داري ، وأفتح عيني لأرى السقف الذي تزينه صور الكائنات المجنحة ما زال فوق رأسي ، ونرجس القلوب ممددة كشعاع النور بجواري ، فألوم نفسي لأنني أسمي هذه الحالة التي انتقلت إليها حلماً ، وها قد مضى الليل وجاء النهار ، ودخلت في النوم

وخرجت منه ، دون أن يتلاشى الحلم أو يتبدد . أيقنت بأن ما أعيشه الآن ليس إلا حياة جديدة مباركة تتيحها لي أسرار رجل عارف بالله . بقيت جالساً في سريري ، أتأمل المرأة التي تعري زندها وتسلل من نافذه الشرفة أول شعاع لشمس الصباح وانسكب فوق وجهها ، فبدا مبهجاً بريئاً يوقظ في ذهني ذكرى لوحة رأيتها ذات سفر ، لأميرة أسطورية من أميرات الجمال ، نائمة في خدرها وقد تفنن الرسام في تصوير النور الذي يلثم وجهها . غير مصدق أنني حاورت البارحة هذا الجسد واستمتعت بكشف أسراره والاغتراف من بهائه . مددت يدي أتلمس البشرة التي لها نعومة أوراق الورد وكأنني أتعرف عليها لأول مرة ، سرت دفقة من رحيق اللذة في جسمي حتى ارتعشت أطراف أصابعي نشوة وطرباً ، ومأخوذاً بانسياب جسمها صرت أنصت إلى النفس الذي يتردد وأراقب الصدر الذي يرتفع وينخفض وكأنني في حضرة كائن سماوي مقدس .

كنت مشتاقاً إلى التعرف على معالم هذه المدينة التي صرت أميراً عليها وحاكماً على رقاب أهلها قبل أن أراها وأعرفها . أخذتني نرجس القلوب ، بعد الإفطار ، في جولة عبر حدائق القصر وبساتينه . أرتني جنائن الورد التي يصنعون منها سوراً للقصر ويجعلونها بديلاً للسياجات والجدران وأسياخ الحديد . تجولنا عبر أشجار التفاح والبرتقال والنارينج التي كانت مثقلة بثمارها في حين كانت أشجار اللوز والبرقوق والمشمش والكمثرى والخوخ والتين قد برعمت وفاح عبيرها مختلطاً بشذى الورد والفل والياسمين والنسرين والنرجس والبنفسج والزنابق . كانت الأحواض المليئة بالماء ، والجداول التي تتسلل بين الأشجار عامرة بأسراب البط والإوز والبجع . شاهدنا طيور الدوري والحساسين والكناري والببغاوات ذات الألوان الزاهية وهي تأوي إلى أعشاشها أو تدرج فوق أعشاب الحديقة دون أن يفزعها اقترابنا منها . وقفت بجوار طيور الطاووس أراقبها وهي تبدي فرحتها بمجيء الأميرة ، تقترب منها وتفرش ريشها المتعدد الألوان فيضيف بهاء إلى بهاء الماء والأعشاب والأشجار والزهور . كما تبادلت التحية مع العمال الذين يشتغلون وسط الحقول والمشاتل والمناطق المخصصة لزرع الخضروات والبقول . وعدت بصحبة

نرجس القلوب إلى داخل القصر لأتعرف على محتوياته وأطوف بين ردهاته وقاعاته ، أرتني باب غرفة ظلت مقفلة منذ أن تم بناء القصر . أقفلوها ورموا بالمفاتيح إلى قاع البحيرة التي تقع خارج أسوار المدينة بحيث لا يفكر أحد في فتحها . غرفة اقتضت حكمة الأسلاف أن تبقى مقفلة مدى الدهر . وقفت أمامها طويلاً أتأمل النقوش فوق الباب الخشبي وقد بدت في شكل نيازك ونجوم هاربة من أبراجها ، ولم أفهم من أحرفها المتداخلة سوى العبارة التي تحرم الدخول إليها . سألت نرجس القلوب عما يمكن أن يكون السبب الذي من أجله بنيت هذه الغرفة المغلقة على أسرارها ، فأخبرتني بأن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ما هو هذا السبب ، إلا أن هناك أساطير كثيرة تتواتر عن هذه الغرفة ، من بينها أن أحد الرجال الصالحين جمع كل الأفاعي والعقارب والحشرات السامة التي كانت تفتك بأهل المدينة وسجنها خلف هذا الباب ، ورواية أخرى تقول بأن أحد أمراء المدينة ممن لهم سيطرة على الجان والعفاريت جمع كل الأرواح الشريرة في هذه الغرفة وختم عليها . ورواية ثالثة تنفي ذلك كله وتقول بأن للغرفة معنىً رمزياً يهدف إلى اختبار قدرة أهل البلاد على مقاومة الفضول الذي يجلب الكوارث فإذا فتحوها كان معنى ذلك أنهم يفتحون على أنفسهم باباً للشر والهلاك ، ومهما كان الدافع وراء بنائها فقد احترم الناس جيلاً وراء جيل حكمة الأسلاف الذين أمروا بأن تبقى مغلقة على الدوام . تركت الغرفة السرية بطلاسمها وأساطيرها ، وانتقلت مع الأميرة لمعاينة ما احتواه القصر من تحف وتماثيل وتصاوير على الجدران والسقوف لطيور الطاووس التي عرفت أنها كانت شعاراً قديماً لحكام المدينة ، ورسوم أخرى لفرسان ومشاهد طبيعية لأرض خضراء تفرشها الزهور وتسكنها الوعول والغزلان . وتفقدنا الغرفة التي وضعت بها مناضد مغطاة بمفارش من القطيفة الخضراء ، وفوقها صفت الهدايا التي جاء بها إلينا أهل المدينة بمناسبة الزفاف ، تحف وحلي ومزهريات وقلائد وحقق طيب وقوارير عطر وسجاد مطرز بالنقوش . وجدنا امرأة مسنة جاءت متأخرة تحمل هديتها ، فشكرناها واستضفناها على مشروب من مخلوط الفاكهة . كانت الهدية شالاً لنرجس القلوب اشتغلت

بنفسها في حياكته وتطريزه على شكل قوس قزح . اتفقت مع الأميرة على أن أتفرغ أياماً سبعة للتعرف على جوانب الحياة في المدينة قبل أن أباشر المهمات الرسمية . اندهشت عندما خرجت إلى الشوارع بصحبتها دون أن يرافقنا حراس وحجاب . وجدتها تضحك عندما سألتها عن المرافقين والحراسات والجدار الأمني الذي يجب أن يحمي الأمير والأميرة ، فهذا تقليد لا تعرفه مدينة عقد المرجان ، وتسألني ببراءة عن السبب الذي يدعو إلى ذلك . أيقنت بأنني سأرتكب مزيداً من الأخطاء إذا اتخذت من العالم القديم مرجعاً لفهم هذا العالم ، لأنني عندئذ سوف أسأل عن الإذاعة التي تنقل خطابات الأمير والصحف التي تكتب افتتاحيات التمجيد له والدبابات والمدافع التي تحرس قصره ومختلف مظاهر القوة التي لا يستقيم الحكم هناك بدونها .

كانت المدينة لا تشبه شيئاً إلا ما تمثله في ذهني أبهى وأجمل مدن ألف ليلة وليلة ، ساسان في عهد الملك شهريار أو سمرقند التي يحكمها أخوه ، أو مدينة النحاس عاد إليها أهلها ، يضوع عبيرها كخضاب امرأة ليلة عرسها ، وتجري قنوات الماء تحت أشجارها وتتوهج في مسقط ضوء الشمس قباب مصبوغة بماء الذهب لأبنية تحمل عبق التاريخ هي معابدها القديمة ، هكذا بدت لي منذ اللحظات الأولى وأنا أمرق بصحبة نرجس القلوب مع طرقاتها التي تحفها الأشجار وأعلق البصر بشرفاتها التي تتسلقها الدوالي وأعراف الياسمين وأتأمل أعمدتها وأقواسها وبيوتها البيضاء ذات الطابق الواحد والطابقين ، تحيط بها الحدائق وتزين أبوابها وشبابيكها ومشربياتها الزخارف والنمنمات ، وتزدهي مداخلها ومدارجها ببهاء الجداريات ولوحات الفسيفساء . اجتزنا الأحياء السكنية التي تجاور القصر بمنازلها الغاطسة في أمنها وسلامها ، وعبرنا أكثر من قنطرة فوق القنوات التي تشكل شبكة الطرقات المائية ، حتى وصلنا إلى مركز المدينة بأسواقه وشوارعه التي تضج بالحركة والحياة . شارع للنجارين ، وآخر للحدادين ، وثالث للنساجين ، ورابع للصاغة ، وخامس لصانعي الخزف ، وسادس للوراقين ، وسابع لدكاكين العطرية . تجاورها شوارع أخرى مأهولة بالسكان وعامرة بالمدارس والحمامات . شوارع ذات

نسق معماري متجانس ، تتواصل وتتقاطع ، وتلتقي وتفترق عند باحات كبيرة عرضت بها السلع والبضائع التموينية . ساحة للأقمشة والملابس والأحذية ، وأخرى للمواد الغذائية من حنطة وذرة ودقيق وزيت وعسل وبقول ، وثالثة للأسماك والطيور واللحوم ، ورابعة للفاكهة والخضر والزهور ، وغيرها للأثاث وحاجات البيوت ومواد البناء . كلها أنيقة نظيفة ، صفت فيها البضائع فوق مناضد تحت الأقواس وأخرى تظللها مظلات من القماش مزينة بالعقيق ، حيث تقوم العاملات على تلبية حاجات الناس وصرف البضائع التي يريدونها . كنت سعيداً لأنني أطوف الآن مدينة لا تعرف السيارات وضجيجها وأبواقها وعوادمها ، ولا التفت شمالاً ويميناً خوف أن تدهسني عجلاتها . كانت القوارب هي التي تحمل البضائع داخل المدينة ، بينما يستعينون في الأرياف بالحيوانات على حمل المحاصيل إلى القوارب كما أفهمتني نرجس القلوب . وكانت الشوارع المتعانقة ، والأبنية ذات الأقواس والقباب ، تشيع في نفسي جواً من الألفة والحميمية ، بطابعها المتجانس المترابط وزخارفها ذات التكوينات المكعبة والدوائر المتكررة والألوان المريحة الهادئة . وكنا نتلقي التهنئة ممن نلتقي بهم من نساء المدينة ورجالها . وتألقت نرجس القلوب عروساً من عرائس الأساطير ، ارتدت فستاناً حريرياً مشجراً يلائم مناخ الربيع تزاوجت ألوانه بين البنفسجي والذهبي والفضي ، وتزنرت بحزام مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة ، يظهر بهاء الخصر الدقيق الجيد ، ووضعت مشبك الذهب الأحمر المرصع بالياقوت الأبيض في مفرق الشعر الذي تهدلت كراديسه فوق كتفيها ، وسارت بجواري تنفث عطرها الساحر وتقوم بدور الدليل . تقود خطاي وتشرح لي ما خفي عني من أحوال هذه المدينة . عرفت منها أن للمدينة سوراً يحيط بها من كل الجهات وللسور ثمانية أبواب تبقى مفتوحة دائماً ولا تقفل إلا إذا تعرض أمن المدينة للخطر . وصلنا في جولتنا إلى واحد من هذه الأبواب ، فأدهشني أنه يفضي إلى أرض منبسطة خضراء ، وقد لاح جانب من البحيرة التي تنمو على ضفافها أشجار النخيل والصفصاف . وفي حين كانت الصحراء تمتد جنوباً فإن هذا الجزء الشمالي من

المدينة هو موطن الحقول والمراعي والبساتين التي تحف بها المياه والغابات والهضاب الخضراء . اجتزنا البساط الأخضر الذي يؤدي إلى البحيرة ، نستقبل هواء الحقول التي تعبق بالطمأنينة والهدوء ، وتغتسل بشمس الربيع . وقفنا قرب البحيرة التي يصطادون منها السمك ويتنزهون فوقها بالمراكب ، ولاح في طرفها البعيد شلال ينحدر من إحدى الروابي صانعاً زبداً وأبخرة . قدمتني الأميرة إلى أحد أقاربها ، ابن خال لها يعمل نوتياً ويقود مركباً لصيد السمك . رحب بنا ودعانا إلى نزهة فوق مركبه . كان المركب أنيقاً نظيفاً ولكن الأميرة خشيت على فستانها من البلل ، فأحضر النوتي بساطاً وضعه فوق الدكة الخشبية وقاد المركب ببطء لكي لايتناثر علينا الرذاذ الذي تثيره حركة المجاذيف ، ومضى يعبر بنا سطح البحيرة الهادئ الذي تترقرق فوقه أشعة الشمس . أعطانا الرجل خبزاً صرنا نطعم به طيور البط والبجع التي تسبح قربنا ، ومن خلف الحقول تناهي صوت غناء المزارعين . وبإحساس من يريد أن يختزن هذا الجمال ويحتفظ به ليكون زاداً في أزمنة المسغبة ، أجلت الطرف متأملاً عناصر هذه اللوحة التشكيلية . في مركز اللوحة كانت تجلس امرأة مصنوعة من بهاء النرجس تركب قارباً يمضي برشاقة فوق الماء ، تحف بها قطعان البجع ونضارة الحقول ، ولاحت في البعيد قباب المدينة ذات اللون الذهبي وتناثرت وسط الحقول بيوت بيضاء تضيف لوناً إلى ألوان اللوحة . لا أدري لماذا لم أستطع أن أضع نفسي وسط الصورة وبقيت متفرجاً بعيداً ، كأني لا زلت لا أصدق أنني أصبحت جزءاً أصيلاً من هذا المشهد ، مع أنني ومنذ أن خرجت هذا الصباح متجولاً ، كان يداهمني أحساس غريب بأنني سبق أن رأيت هذا كله ، وأنني بطريقة غامضة لا أجد لها تفسيراً ، أعرف هذه المدينة وكأنني رأيتها في حياة سابقة عن حياتي هذه . كانت نرجس القلوب هي التي أدخلتني في المشهد . رأتني شارداً فوضعت يدها في يدي وهمست تدعوني إلى سماع ما يقوله النوتي . وكان النوتي يتحدث عن المرجان . عرفت منه أن لصيد اللؤلؤ والمرجان موسماً يترك خلاله بعض الصيادين صيد السمك ويهتمون بالغوص لاستخراج اللؤلؤ وجمع المرجان من أعماق البحيرة . وهم يستعملون هذه اللآلئ

في مبادلاتهم التجارية مع البلدان الأخرى ويصنعون منها تحفاً وحلياً لأنفسهم ، ولهذا سميت المدينة عقد المرجان .

أمضيت أيام الأسبوع متجولاً عبر شوارع المدينة وميادينها وأسواقها وحقولها ، متعرفاً على أسلوب معيشة أهلها ، متفرجاً على الأفراح التي يقيمونها كل مساء . اختفت مظاهر الفقر والبؤس ومشاهد العنف وأكداس القبح التي كنت أراها في المدن الأخرى . لم ألتق بمتسول أو محتاج ، ولم أقابل مشهداً يصيبني بالضيق والكدر ، ولم أر عراكاً أو شجاراً أو أسمع أحداً يشتم أحداً أو ألمح أناساً يتزاحمون ويتهافتون على سوق أو بضاعة . كان ما أراه عيداً يفضي إلى عيد آخر ، وأفقاً للفرح ينفتح على أفق أكثر جمالاً ، وبجواري نرجس القلوب ، نجمة هبطت من سمائها وصارت تدرج فوق الأرض ، قطعة من الضوء والبهجة . فأمضي واضعاً يدي في يدها مشمولاً بلذة الاكتشاف ومنتشياً بكل ما يعبق به الجو من سكينة وسلام وبهاء ، وما تنبض به الأشجار والأعشاب والحجارة من أضواء وألوان . حفروا عشر قنوات تشق الحقول والسهوب وتنقل ماء البحيرة إلى المزارع والمراعي والبساتين ، وعشر قنوات أخرى تمرق عبر شوارع المدينة تنقل الماء إلى بيوتها وأشجارها ونوافيرها وتضيف جمالاً إلى جمال شوارعها وأحيائها ، ويتم استخدام بعضها للنقل والمواصلات . وفي المساء يغمر المدينة جو احتفالي ، حيث يتجمع الناس في الميادين والحدائق والساحات التي رفعت منها البضائع ، يتحلقون حول العازفين في عرس يومي ، يستمتعون بمباهج الطرب والرقص والألعاب الجماعية التي يستعملون فيها أحياناً الأقنعة والملابس التنكرية . لم أر مظهراً من مظاهر الحكم والسلطة أو شرطة يطوفون الشوارع يحرسون الأمن والنظام . وكان هذا الجو الاحتفالي يشملني أنا أيضاً فأنسى أنني غريب جاءت به الصدفة ليكون أميراً ، وأمضي متنقلاً بين حلقات الرقص واللعب ، يفعمني فرح لا ينضب ، وبجواري نرجس القلوب تضحك وتصفق وتشارك في الغناء الجماعي وتحظى بمحبة الأطفال الذين يأتون مع أهلهم ، فأنظر إليها متشوقاً إلى اللحظة التي تضمني معها غرفة واحدة لأتلقى منها دفقة الحب والحنان وأستمتع بمباهج الأنوثة في زهوها

وسطوعها . تدلك جسمها بالطيب وزيوت الأعشاب التي تجعل بشرتها تتألق كالمصابيح وتنشر في جو الغرفة عطراً ذكياً مثيراً للشهوة . يتسلل العطر إلى كل خلايا جسمي يشعل جذور الشوق والرغبة ، ويمتد بنا السهر والعناق لساعات طويلة نتسامر ونحتفل بأعياد الروح والبدن . عرفت من حديثها ومما رأيت وسمعت أثناء هذه الجولات لماذا لا توجد حبوس ومكوس ولا يعرف أهل هذه المدينة العوز والفقر ، ولا يتعاملون بالنقود ، ولا يملكون شرطة ولا أجهزة للدولة ، ولا يعمل أحد لحساب أحد ، ولا يحتاجون إلى عطلة أو إجازة يمنحها لهم الأمير ، فقد أوجدوا لأنفسهم نظاماً يعفيهم من هذا كله . يشتركون جميعاً في الإنتاج ويشتركون في الانتفاع به ، حيث يعرض هذا الإنتاج ويأتي كل إنسان ويأخذ ما يكفي حاجته دون مقابل ودون أن يكون العمل إلزاماً أو وظيفة لها جدول ومواعيد ودوام ، فقد تركوه لرغبة الإنسان وإرادته الحرة ، يختار ما يحب من الأعمال ، ويعمل متى راق له العمل ويرتاح منه متى أراد . أما ما تحتاجه المدينة من أعمال عامة مثل بناء التحصينات وترميمها وحراستها فهو عمل تناوبي ، يترك الواحد منهم مهنته ويتفرغ لمدة شهر واحد للقيام بهذا العمل بشكل تطوعي . وانتهى بذلك أي تفاوت في الدخل أو حاجة إلى النقود أو المكوس أو الشرطة أو السجون ، كما انتهى ذلك الصراع على الرزق الذي تنشأ عنه الصراعات الأخرى ، وأصبحت كل الموارد مشاعاً بينهم ، الأرض والزراعة والرعي والمواشي والمحاصيل ، يعيشون جميعاً كما يعيش أفراد عائلة واحدة ، ويستفيدون أيضاً مما يخرجونه من البحيرة في مواسم صيد اللؤلؤ والمرجان ، يرسلون بعضه إلى البلاد الأخرى التي يذهبون إليها عبر الممرات الجبلية في قوافل موسمية ، يقايضونه ببضائع وغلال وخامات لصناعاتهم كما يرسلون منه الهدايا إلى الملوك والأمراء الذين يتعاملون معهم ، عقداً لأواصر الود والصداقة . وبمثل ما شكلت المنطقة الصحراوية ذات الأخاديد والمهالك عازلاً طبيعياً يمنع عبور الجيوش الغازية فإن سلسلة الجبال التي تحيط بالمدينة من الجهات الأخرى سهلت عليهم إقامة التحصينات والحراسات ووسائل الدفاع التي تحميهم من أطماع الدول الأخرى

وتتيح لهم فرصة صد أي هجوم على مدينتهم . وسألت نرجس القلوب عما يفعلونه أثناء نشوب النزاعات وارتكاب الجرائم فأوضحت لي كيف أن أشياء مثل هذه لا تحدث إلا نادراً وعندما تحدث فهي غالباً ما تكون أمراً هيناً ينتهي بالتصالح ، فلدى كل حي من أحياء المدينة والضياع التي تحيط بها مجلس صغير يتكون من أكبر الناس سناً يتولي حل هذه المشاكل وتنقية الأجواء . لقد ضمنت التربية الصوفية التي يلقنونها للصغار في المدارس الارتقاء بمشاعرهم عندما يكبرون ، وتعميق عواطف المحبة بينهم ونزع كل ميل للشر والعدوان . كنت متهيباً من واجبات الإمارة ولكنني تبينت أن منصب الأمير لا يحمل أية مسؤوليات . انتهى شكل الدولة وارتقى البشر إلى مستوى التعامل من خلال الذات العليا وأصبح لا دور للأمير إلا مقابلات المجاملة مع مبعوثي الدول . لم أرهم يستعملون علماً أو نشيداً أو يتخذون لمدينتهم شعاراً فكل هذه الأشكال انتهت بانتهاء الدولة التي تبحث عن رموز تثير بها العصبية الوطنية وتحرك بها حماس الناس في المناسبات القومية . تآلفت مع هذه الحياة الجديدة فلم أعد أفكر في العالم القديم الذي انتهى أو الزمن الذي مضى برغم أنه لم يأت بعد . ولم أعد أخشى أن أستيقظ فأجد نفسي ملقى خارج أسوار هذه المدينة عائداً إلى صحراء القيظ وطيورها السوداء . أصحو كل صباح فأجد أن الأميرة قد استيقظت مثلي لنقوم سوية بالتمرين الروحي اليومي باعتباره تقليداً يمارسه كل أهل المدينة ، نأخذ بعد ذلك حماماً مشتركاً ثم نتناول إفطاراً من الحليب والفطائر والفاكهة ونذهب معاً في جولات التعرف على المدينة التي تفاجئني كل يوم بجانب جديد في شخصيتها ونظامها ، فهذه دار للاستشفاء ونساء يُجدن التطبيب والتمريض وحكيمات وحكماء يصنعون الأدوية من أعشاب ونباتات يزرعونها في حديقة الدار ، وهذه دور فسيحة استوعبت الأطفال الذين ذهبت أمهاتهم إلى العمل ، ومدارس أكثر اتساعاً وبراحاً استوعبت الفتيات والفتيان الأكبر سناً ، يتعلمون القراءة والكتابة والحرف اليدوية والموسيقى وأعمال الري والزراعة والنسيج وفنون الصيد التي يستفيدون منها في تأهيلهم لمهمات الدفاع عن مدينتهم إذا دعت

الضرورة ، كما يعلمونهم بجوار ذلك دروس التصوف والحكمة وأداء التمارين الروحية . وأذهب إلى المزارع فأراها مزرعة واحدة كبيرة باتساع الأفق لا تفصلها الحواجز ولا الأسوار وفي جانب منها حقول لرعي الأغنام والأبقار والخيول ، وأذهب إلى ضفاف البحيرة فألتقي بالصيادين وقد جاءوا بمراكبهم ينزلون شباكهم ويفرغون حمولتها من الأسماك وأسمع الأناشيد يغنيها النوتيون وعمال مقاطع الحجارة في طرف الجبل والبناؤون والمزارعون ، وأعجب كيف أن العمل مهما كان مضنياً وقاسياً يتحول في هذه المدينة إلى لعب ومتعة واحتفال يشارك فيه الناس بالغناء الجماعي ، وأعرف أن لهذا الغناء وظيفة أخرى بالإضافة إلى التسلية والمرح ، فهو يتيح للذهن الانشغال بالغناء عن التركيز في التعب والألم الذي يسببه العمل العضلي ، وأتأمل هؤلاء العاملين الذين يتصدون لأداء أكثر الأعمال صعوبة وأتساءل كيف لا يغريهم النظام الذي يربط العمل بالرغبة الشخصية بنبذ العمل والانصراف إلى اللهو واللعب أو اختيار عمل أكثر يسراً واسترخاء ، فأجد أن نظاماً كهذا النظام الذي وضع الإنسان مباشرة أمام مسؤولياته لا رقيب عليه إلا نفسه ، قد أفلح في رفع درجة حسه بالمسؤولية ، وجعله يقبل التحدي لكي يبرهن على جدارته بالحرية . وعندما جاء اليوم الذي ذهبت فيه إلى ديوان الحكم لم أستغرب لأنني لم أجد عملاً يشغلني لأكثر من دقائق معدودة وهو تلقي تقارير بعض المناوبين على الحراسة والمشرفين على الاستحكامات المقامة بين الجبال والتي تقول بأن كل شيء على ما يرام . كنت أعرف أنني أباشر مهمة في مدينة لا تحتاج إلى حاكم يشرف على جيوشها ومخابراتها أو يهتم بتنصيب وزرائها وقضاتها أو يتحكم من مكانه العالي في إدارة الصراع الذي ينشب بين الفئات المتناحرة على الرزق والنفوذ ويطارد أعداء المجتمع من مخربين ومجرمين وخارجين على القانون وطاعة السلطان ، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يزهد أهل البلاد في هذا المنصب فيوكلونه إلى أول رجل تائه في الصحراء تقذف به الرياح على أبواب مدينتهم . سألت الأميرة إن كان ثمة شيء آخر يمكن أن أفعله بدلاً من هذه البطالة ، فأبلغتني أن الأمير أيضاً يشارك بجهده العضلي في الإنتاج ويباشر عمله

ببساتين القصر في الساعات الأولى من الصباح . استسلمت فيما تلى ذلك من أيام لهذا التقليد الغريب الذي يجعل الأمير عاملاً يدوياً من عمال الزراعة ، وفي حين تذهب نرجس القلوب للاهتمام ببساتين الورد ، أرتدي ملابس العمل وأقضي ساعات الصباح الأولى أحمل رفشاً أو فأساً لعزق الأرض وغرس المشاتل والمشاركة في جني محاصيل البقول ، ثم أعود لآخذ حماماً وأرتدي بدلة الحكم وأجلس لاستقبال زائر أو تبادل الحديث مع المبعوثين الذين يعودون من زيارة البلاد الأخرى . وأجد لديهم تقويماً غريباً لا أعرفه ، ينحدر من العهد البابلي ، فأحاول أن أهتدي إلى الزمن الذي يفصلني عن العصر الذي جئت منه وأكتشف من خلال أحاديث هؤلاء المبعوثين وما يقولونه عن بلاد الفرس وشبه جزيرة العرب وحكم السلاجقة لبعض تلك المناطق أنني في تاريخ لا يبعد إلا بعض العقود عن الألف الأول للميلاد وأن ما يزيد عن تسعة قرون تفصل بيني وبين ذلك العصر ، وأنني الآن أعاصر جداً من أجدادي يفصل بيني وبينه أكثر من ثلاثين جيلاً . تعاودني الحيرة والارتباك وأتذكر من قراءاتي آلة الزمان التي تنقل الإنسان آلاف الأعوام إلى الأمام أو تعيده آلاف الأعوام إلى الوراء فهي لم تكن في حالتي خيالاً وإنما حقيقة أعيشها الآن . ينتهي عملي في الديوان سريعاً فأعود إلى القصر لأرتاح قليلاً أثناء فترة الغداء ، وأرتدي في المساء ثوباً خفيفاً وأتحرر من العمامة التي لم أستطع أن أتعلم كيف أطويها فوق رأسي فصرت لا أرتديها إلا في المهمات الرسمية بعد أن وجدت من أهل المدينة من لا يهتم بارتدائها ، وأذهب مع نرجس القلوب للمشاركة في الاحتفالات أو انتظار زيارة الحكيم جلال الدين الذي غالباً ما يأتي حاملاً كتاباً يتحدث عن تواريخ الممالك القديمة أو يحتوي على أشعار المتصوفين وحكمتهم أو سيرة أحد الأبطال التاريخيين ، فهو يزور القصر كلما أراد أن يرتاح من عمله في صنع الأحذية ، ليواصل مهماته التي كان يقوم بها مع الأمير السابق كمستشار وصاحب رأي وبصيرة . ومنه عرفت كيف اختلط الدين الإسلامي ببعض تقاليدهم القديمة التي لم تضر بجوهره . جاءهم عن طريق أحد الرجال الصالحين من أهل التصوف الذين عبروا الصحراء

إلى مدينتهم . تولى الإمارة واجتهد في هداية الناس إلى الدين الجديد دون إكراه أو عسف ، وانتهت بذلك المعابد التي كان أسلافهم يعبدون فيها القمر دون أن يقيموا معابد بدلاً منها ، فصار الدين توجهاً إلى الله الواحد الأحد ، الرحمن الرحيم ، الذي وسع كرسيه السموات والأرض والذي احتوى كل شيء واحتواه كل شيء ، مصدراً للنور والخير والهداية وكائناً أسمى تعالى عن العالمين ، لا يصورونه في التماثيل أو الرسوم ولا يقيمون له المعابد ولا يتخذون الوسطاء في علاقتهم به . فهو تواصل واتصال بين الإنسان وخالق الكون ، وبين الإنسان وعوالم النور التي زرعها في قلبه . ولذلك فهم لا يعرفون طقوساً ولا شعائر إلا الصلاة التي يتوجهون بها إليه بقلوبهم ، ويستهلون بها يومهم عندما يقرؤون سورة الفاتحة ويقومون بأداء تمرينهم الروحي الذي يحافظون به على جذوة النور متوهجة في نفوسهم فلا تخبو ولا تذبل . توثقت العلاقة بيني وبين هذا الرجل الحكيم فصرت أذهب إليه متى تأخر عن زيارتي وأقضي جزءاً من الوقت في حانوته أستمع منه إلى حكمة أهل هذه المدينة وأسأله كيف اهتدت إلى هذا النظام الذي تاهت عنه أجيال تعاقبت بعدهم ، فكان يسألني مندهشاً كيف أستطيع معرفة الغيب ، أو التنبؤ بأن الأجيال القادمة سوف تهمل هذا التراث ، وتفسد هذا النظام بدل أن تغنيه وتضيف إليه ، فأندم على ما بدر مني وأسكت عن الكلام أو أنتقل بالحديث إلى موضوع آخر ، إلى أن تأتي مناسبة أخرى فأجد أن الإشارة إلى الزمن الذي جئت منه قد أفلتت من لساني ، وأنني أضرب مثلاً أو أسوق حديثاً يعتمد في مرجعيته على ذلك العصر . حدث هذا مرات كثيرة وأنا أحاور الشيخ أو أتسامر مع نرجس القلوب أو أتبادل الحديث مع الآخرين الذين أختلط بهم أثناء العمل ببساتين القصر أو الجلوس في الديوان ، وكنت بسرعة أسألهم أن يغفروا لي هذا الشطط في الخيال ، فلا سبيل إلى شرح مسائل تعجز عقولهم عن استيعابها . وكان لا بد أن يصل الحديث بيني وبين نرجس القلوب خلال ساعات الليل إلى تلك المنطقة المسكوت عنها من تاريخ حياتي ، ولم تكن هي تسألني أن أذكر لها شيئاً يتصل بأهلي ونشأتي ، وإنما كانت تطلب مني أن أحكي

لها عن أعجب ما رأيت أثناء الأسفار التي أوصلتني إلى مدينتهم . وكنت أجد نفسي أحياناً أحكي لها عن مدينة ملاهي مساحتها بحجم الأرض ، تضيء سماءها ألعاب نارية قاتلة ، وأقمار من صنع الإنسان ، شرب أهلها من نهر الجنون والعبقرية فصاروا يتنقلون في صناديق طائرة ، وأخرى تجرى مثل الريح فوق الأرض ، ويرسلون مراكبهم تستطلع أخبار الكواكب والنجوم ، ويتسامرون عبر هواتف تنقل الحديث بين أصدقاء تفصل بينهم سبعة بحار ، ويخترعون عاملاً آلياً ينجز العمل الذي كان يؤديه آلاف البشر ، ويستخدمون مرايا تنقل إلى بيوتهم كل ما يحدث من وقائع وأحداث كبيرة في الدنيا فيرونها ويسمعونها صوتاً وصورة ساعة حدوثها ، وقهروا ظلمة الليل بأشعة تجري عبر الأسلاك ينيرون بها شوارعهم وبيوتهم ، ويستعملون في حروبهم أسلحة بحجم حبات الفاكهة تسقط الواحدة منها فوق مدينة فتهلك جميع أهلها . وكانت نرجس القلوب تندهش لقوة الخيال التي جعلتني أخترع هذه الحكايات ، وأصنع هذه العوالم الأسطورية ، التي لم يرد ذكرها في كل ما يتداوله الناس من أساطير ، بما في ذلك الأحاديث عن الجن وممالكهم السحرية ، وكنت أسكت عن إكمال بقية القصة . أعيش مع الرواية الناقصة لكي لا تلاحقني تهمة الجنون لو أكملتها . لقد تعلمت خلال هذه الأيام أن أهل عقد المرجان لا يعرفون الكذب ، فهو بالنسبة لهم شيء لم يتم اختراعه بعد ، أن الواحد منهم لا يستطيع إلا أن يكون صادقاً لأنه ليس في حياته سبب واحد يدفعه إلى قول الأكاذيب ، وما أنا إلا الاستثناء الوحيد بينهم . إنني بطبيعة وضعي خارج العصر الذي شهد مولدي ونشأتي ، لا أستطيع أن أكون صادقاً معهم ، ولا نجاة لي إلا بالكذب ، فأسكت عن الإفصاح بحقيقتي ، مرتدياً ملابسي التنكرية ، متسائلاً بيني وبين نفسي عن تلك الأسباب الكامنة في طبيعة الإنسان ، التي تجعله يتقن لعبة الفرص الضائعة ، وتجعل الخط البياني للتدرج الحضاري ينكسر ، فينتج الشرخ حروباً وصراعات وبيئة ملوثة وأسلحة فناء وتجعل المجتمعات البشرية وبعد مسيرة ألف عام تنسى المعادلة البسيطة التي صنعت مجد وبهاء الإنسان في مدينة عقد المرجان . تركوا المواطن على

سجيته ،خارج الأطر والنظم وقواعد الحكم والدولة ، فاهتدى بفطرته ومداركه العقلية إلى مسؤولياته ، وأنجز مدنية حلمه ، دون حاجة إلى وصاية المؤسسات التي تدير حياته بالنيابة عنه ، أو سلطة التشريعات التي تأتي من خارج ذاته ، وتفرض عليه أسلوباً في التعامل والسلوك . وبهدي من هذه التربية التي تؤكد انتماءه للكون الكبير ، وموطنه الأصلي بين النجوم ، مضى الإنسان يحقق تواصله مع عناصر الطبيعة ، ويبني وشائج أكثر عمقاً مع الآخرين ، لتكون حياته فوق الأرض انعكاساً لهذا التوافق والتناغم مع حركة الكون ، حيث يصبح كل الناس شركاء في إنجاز الحلم الذي يتخذ شكل خيمة من الضياء والفرح يجلسون تحتها ويبدعون مع مطلع كل نهار حياة تليق بهم . حتى علاقات الحب والجنس بين نسائهم ورجالهم صارت تعبيراً عن هذا السلوك الذي تحرر من قمع الفضائل المفروضة . يصلون إلى سن النضج فيتزوجون ، بإرادتهم الحرة المبرأة من أي غرض غير الحب يتزوجون . انتهت المصالح والتمايزات الطبقية التي تتدخل في عقد الزيجات والمصاهرات ، وصارت المسألة تتم بين رجل وامرأة يحبان بعضهما ويرتبطان بهذا الرباط ، وإذا نضب الحب يفترقان . حتى النسل اهتدوا إلى أسلوب ينظمونه به عن طريق معرفة أيام الإخصاب لدى النساء . لم أر في هذه المدينة إلا عشاقاً ، تقدمت بهم السن أو لم تتقدم ، كلهم يحبون ويعشقون ويمارسون عواطفهم بصدق وعفوية ، فاختفى من قاموسهم شيء اسمه الغش أو الخيانة أو العار . ولا أدري لماذا وجدت نفسي في لحظة بوح ومكاشفة أطلع نرجس القلوب على أسرار الرحلة التي قادتني إلى مدينتهم . لعلني تأثرت بمناخ الصدق الذي يحيط بي ، فلم أستطع أن أخفي حقيقتي . أو لعلني قلت ذلك رغبة في أن أتحرر من هذا العبء الذي أرهقني ، فلم أعد اكترث بما سألاقيه من نتائج . وجدت نفسي ، وأنا أجلس معها أثناء الليل بشرفة مطلة على الحديقة ، نرقب القمر والنجوم التي سكبت ضوءها في أحواض وجداول الماء ، أخبرها بأنني تسللت إلى عصرهم هارباً من عصر آخر يتقدم عنهم قرابة ألف عام ، وأن ما وصفته لها من مخترعات لم تكن أشياء صنعت في ممالك الجن ، أو أخباراً قرأتها في كتب الأساطير وإنما

هي حقائق وصل إليها بشر مثلنا ، كنت في يوم من الأيام التي لم تأت بعد ، أنتمي إليهم . لقد استعملت شخصياً هذه المخترعات ، ركبت الجو وامتلكت السيارة وسكنت في بيوت تضيئها الكهرباء وتزدحم بأجهزة التسجيل والتصوير والمذياع والتلفاز والهاتف . سألتني إن كنت أقول هذا الكلام هازلاً أو مازحاً ، فأكدت لها بأنني لا أقول إلا ما عرفت وشاهدت ، وأنني رأيت أن أكاشفها بحقيقتي لكي لا تكون علاقتي بها تمويهاً وخداعاً . رأيتها تجهش بالبكاء لأن ما قلته لم يكن في ظنها إلا هذيان إنسان مريض بالحمى . بقيت صامتاً وقد أحسست برغم بكائها بشيء من الارتياح وصفاء الذهن . أحضرت لي شراباً مهدئاً من نقيع الأعشاب ، وقادتني من يدي إلى الفراش لكي أنام وأرتاح . عاملتني كطفل عابث يقول هدراً لا معنى له فلم أعترض أو أقاوم . وفي الصباح أرسلت لي الحكيم جلال الدين الذي جاء مبكراً يوقظني من نومي ويأخذني في نزهة بين بساتين القصر قائلاً بأنه طاف بلاداً كثيرة مبعوثاً من أمراء عقد المرجان ، ذهب شرقاً حتى ظن أنه وصل إلى المكان الذي تشرق منه الشمس ، وقطع الصحاري والبحار إلى ممالك بعيدة باتجاه الغرب حتى وصل أقصى أطراف الأرض ، رأى أقواماً من العماليق وأقواماً من الأقزام ، رأى ممالك الأجناس الصفراء والحمراء والسوداء ، ورأى الناس الذين يركبون الفيلة والعربات التي تجرها الكلاب ورأى أناساً يبنون بيوتاً من الثلج وأكواخاً فوق الماء ، وشاهد عجائب المخترعات والمخلوقات ، ولكن ما أخبرت به نرجس القلوب وقلت أنني رأيته وعاينته شيء يفوق الوصف والخيال ، ولم يأت بذكره بشر من قبل . فكرت في أن أعفي نفسي من التورط في حديث لن يستوعبه هذا الرجل مهما بلغت حكمته وفطنته ، وأردت أن أعود إلى طمأنينة الذاكرة المفقودة ، وأقول بأن ذلك لم يكن إلا حلماً رأيته في المنام ، ولكن نفسي لم تطاوعني ، لقد اغتسلت روحي بهوائهم ، وتعفرت بنرجس حقولهم ، فلم يعد الكذب يواتيني . أخبرته بكل ما حققه عالم القرن العشرين من إنجازات علمية وتقنية ، وما وصل إليه الإنسان من اختراعات في مجال الطب والصناعة والزراعة والطباعة والتعليم والنقل والمواصلات

والاتصالات . أخبرته أيضاً بما تحقق من تقدم في مجالات غزو الفضاء وصناعة الحرب . منتهياً إلى تذكير هذا الشيخ بأن العلم لم يحقق برغم ذلك كله مدينته الموعودة ، ولم يفلح في توفير شروط أفضل لحياة الإنسان من الشروط التي يعيشونها ، فالإنسان هناك يعيش مهدداً بالفناء في أية لحظة لأن جزءاً يسيراً مما في مخازن حكامه من أسلحة يكفي لتدمير الكرة الأرضية في غمضة عين . إن معجزة هي التي نقلتني من ذلك العالم وأوصلتني إلى مدينتهم ، وأنا لست نادماً على هذه الرحلة ، بل أنني سعيد بالتجربة المثيرة المبهجة التي أعيشها ، فها أنا ألتقي ببشر تمنيت دائماً أن ألتقي بهم وأعيش مجاوراً لهم ، لأرى عن قرب هذا الإنسان الذي تحرر من الخوف واكتشف الإمكانات الكامنة فيه ، وأيقظ الإله النائم بداخله ، فحقق تواصلاً مع روح الكون أنجاه من أمراض المجتمعات التي تلتصق بالأرض رغم آلاتها التي تدور في السماء ، ورغم أنها تتقدم عنه في الزمان مسافة مقدارها ألف عام . ولا أدري لماذا تطور العالم بهذا الاتجاه المناقض لجوهر الإنسان الإله ، قائلاً للشيخ بأنه لو كان الأمر بيدي لأعدت العالم كله إلى مدينتهم يتعلم منهم المعنى الحقيقي للحياة والأسلوب الأمثل لتمجيدها والاحتفال بها . سألني الشيخ بعد أن أنصت باهتمام واستغراق إلى كلامي ، كيف تأتّى لي أن أطوي الزمان وأعود إليهم محملاً بهذه المعارف والأفكار . فأنبأته بقصتي مع الشيخ الصادق أبو الخيرات ، صاحب الولاية والأسرار الذي استخدم علومه الروحية وأتاح لي هذه المكرمة ، رآني متبرماً بحياتي هناك ، نافراً من وجودي بين أولئك القوم ، يائساً من أحوال الدنيا ، تسحقني الملالة وتثقل بدني وروحي أمراض الاغتراب والكآبة ، شغوفاً بعوالم الفرح والغبطة التي قرأت عنها في أساطير نسميها ألف ليلة وليلة ، فجاء يكشف عني الحجب ويطوي تحت أقدامي الأرض ويفتح لي كوة في جدار الزمن وينقلني بمعجزة الإلهام والقدرة الروحية هذه النقلة المباركة من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان ومن حالة إلى حالة ، ويختار لي هذه المدينة التي اكتملت زينة الإنسان فيها وتحولت حياتها إلى عرس يتجدد مع مطلع كل شمس .

ظننت أن الشيخ سوف يتملكه الذعر بما أفضيت به من أسرار لا تتفق مع منطق الأشياء ، ولكنه ظل صامتاً لا يبدي انزعاجاً ولا يقول كلاماً وإنما يداعب بأصابعه أطراف لحيته مستغرقاً في التفكير والتأمل . كانت طيور الحديقة قد استيقظت من مراقدها وجاءت ترفرف بجوارنا وتواصل عزف أناشيدها ، والأعشاب التي بللها الندى تصدر هسهستها اللذيذة تحت أقدامنا ، وجاء من أقصى المدينة صوت ناي يحمله النسيم ، فبدا الكون جميلاً يعبق سلاماً وسكينة . رأيته صامتاً متأملاً فقلت له بأنني شديد الأسف لأني لم أخبرهم بهويتي منذ أول يوم لوصولي ، ولم يمنعني من ذلك إلا أعرافهم وطقوسهم التي أرادت أن تعفي الأمير الجديد من الكدر والحرج فألزمته بالسكوت عن الماضي ، ولكنني وجدت في قصتي شيئاً لايجوز السكوت عنه وقد تجعلهم يعيدون النظر في هذا المنصب الأميري الذي آثروني به على أنفسهم . وسأكون منذ الآن سعيداً إذا قبلوا بي مواطناً بسيطاً ينتمي إلى مدينتهم ، أما الإمارة فلا أعتقد أن مدينة وصلت إلى هذا التوافق والانسجام في نظامها تحتاج إلى أمير مثلي يأتي من عصر آخر لكي يحكمها .

كنت صادقاً فيما عبرت عنه من زهد في الإمارة التي لم تعد مدينة عقد المرجان بحاجة إليها . كل ما كنت أخشاه هو أن أجدهم يعيدونني إلى الصحراء ، مطروداً من أرضهم ، يقتلني القيظ والعطش ، وتنهش لحمي الطيور والثعابين . فهل تراني كنت أحمق عندما غامرت بقول الحقيقة؟ . ها هي الأميرة تعتبرني مريضاً أو مجنوناً فتأتي بهذا الشيخ الذي أسهم في تربيتها وتعليمها كي يسمع قصتي ويبحث عن علاج لمرضي ، فلماذا يظل صامتاً ينظر في الفراغ بوجه خلا من أي تعبير؟ رأيته يخرج بعد لحظات عن صمته لا ليتحدث عن مرضي ، وإنما ليسألني أن أزيده علماً بهذا العالم الذي شاهدته وعرفته . عن نظم الحكم فيه وقواعد التعامل بين الناس وطبيعة العلاقات بين الدول ، وأن أشرح له ما غمض عليه من كلماتي عندما وصفت الأرض بأنها كرة قابلة للانفجار وعن هذه الأسلحة التي تستطيع تفجيرها . وجدته يأخذ كلامي مأخذاً جاداً ويسألني كأنه

يفتش في روايتي عن أدلة تثبت صحتها . أجبته بحماس لما أراد ، وأخبرته بما يثقل العصر من مذاهب وأنظمة تدعي جميعاً القرب من تحقيق أمل الإنسان في العدل والسعادة والسلام . وعن القطبين الكبيرين اللذين يحتكمان في صراعهما إلى توازن الرعب ، فهذا التكافؤ فيما يمتلكانه من قوة الدمار الناتجة عن استخدام الطاقة الذرية هو الذي يمنع نشوب حرب ستؤدي إلى فناء البشرية . أخبرته أيضاً بما حدث من تطور للعلوم والفنون وأقطاب الفكر والفلسفة والرسم والأدب والموسيقى ، وعن تقدم المعمار والبناء الذي صار يصل إلى مئات الطوابق كي يستوعب ما بلغه العالم من كثافة سكانية ، وعن اكتشاف قانون الجاذبية ، وكروية الأرض وما نتج عن تطور الرياضيات والعلوم والفلك والفيزياء من أفكار جديدة عن الزمان والمكان والحركة والمادة والضوء مما أدى إلى وصول الإنسان إلى إنتاج أكثر الصناعات تقدماً وأكثر الأسلحة فتكاً . ثم أخبرته بالثورات والانتفاضات والحروب الأهلية والدينية وما يهدد الأرض من آفات شح الموارد وتلوث البيئة وتقنية الحرب . كان يسأل كثيراً وكنت أجيبه بما أعرف ، إلى أن انقضى النهار وحان موعد تناول الغداء . فسألته عندما رأيته يعود إلى صمته عما إذا كان يصدق ما أخبرته به . أجابني بأنه وصل مرحلة من العمر تجعله يوقن بأن أي شيء يمكن أن يحدث ، لقد عاش طويلاً وشاهد وسمع وقرأ تاريخ الأمم ، فما عاد يدهشه أمر هذه الخوارق والمعجزات التي تحدث للبشر . إنه لا يجد سبباً يدفعني إلى تلفيق حكايات مثل هذه ، ولا يعتقد بأنني مهووس أو مريض بالحمى ، فما أقوله من كلام لا يقوله إلا من كان واثقاً مما سمع ورأى وعايش معايشة شخصية . إنه يصدق بأن ما رأيته هو فعلاً عالم الغد ، ويعتقد بأن ما حسبته حياة عشتها هناك لم تكن إلا رؤيا من تلك الرؤى التي يشاهدها أصحاب البصيرة النافذة . ومن فرط صدقها ونفاذها إلى قلب الحقيقة ينسى صاحبها كل شيء عرفه وعاشه قبلها . تمتلئ الذاكرة بهذا الفيض وتدفع بكل شيء آخر إلى مناطق النسيان حتى يظن صاحب الرؤيا أن حياته ابتدأت بها . وهو يذكر قصصاً كثيرة عن أصحاب بصيرة وكرامات من أهل الماضي استطاعوا الرحيل إلى الزمن الذي جاء بعدهم

وتنبأوا بأحداثه وكأنهم شهود عليه ، وآخرين رأوا أنفسهم يصعدون إلى السماء وجاءوا ينقلون صورة عما رأوه من برازخ وأنوار وأعراس تقام فوق النجوم وما سمعوه من أناشيد وغناء وما التقوا به من ملائكة وأنبياء . وما أقوله الآن ليس إلا كلام رجل كشفت عنه الحجب ورفعت من أمام عينيه سجف الزمان وظلماته فرأى ما رأى وسمع ما سمع وكأنه واحد من أهل ذلك الزمان . لم أجد سبباً يدعوني إلى أن أجادله في هذا التفسير ، يكفي أنه أمن بما قلت ولم يجده دليل عته وجنون . إنه رجل تربى في رحاب أهل التصوف وعاش مجاوراً لهم وقارئاً نهماً لأشعارهم وأسفارهم إلى الممالك الإلهية ، فلا عجب أن يجد لروايتي مرجعاً في هذه الحصيلة من معارفه الصوفية . ما يهمني الآن هو أنني كاشفتهم بحقيقة ما حدث معي وتحررت من هذا العبء الذي كان يعطل استمتاعي بالحياة الجديدة .

كانت نرجس القلوب عندما عدنا إليها ما تزال مهمومة لم تغادرها حالة الفزع ، سألها الشيخ أن تنهض وتعانقني ، لأن ما قلته ليس إلا بشائر سعد أهلت على المدينة . إن معجزة تحققت على يدي وأقداراً عليا اختارتني للسفر إلى المستقبل عن طريق الكشف والرؤيا ثم قادتني إلى أبواب هذه المدينة لكي تستفيد من المعار ف العجيبة التي تزودت بها .

أفزعتني فكرة أن الشيخ يريد توظيف خبرتي في تطوير هذه المدينة . إنني لا أستطيع أن أختزل خبرة ألف عام من جهود العلماء والمجامع العلمية لكي أصنع له مصباحاً كهربائياً واحداً ، إذا كان هذا ما يقصده ، وفيما يتصل بالنظم والسلوك والمعاملات والقواعد التي تحكم العلاقة بين الناس فإنه لن يجد مدينة في الكون تضاهي مدينته . إنه ليس بحاجة إلى تلك الآلة مهما كان نفعها ، وليس في حياة الناس هنا ضرورة لها أو تحدياً يوجب اختراعها ، وإلا لجاء ذلك نتيجة طبيعية لتوفر الشروط والمعطيات لظهورها . فليصرف النظر عن هذا الفضول الذي لا معنى له ، وليعلم أن اختراع السيارة بكل منافعها لا يساوي عدد الضحايا الذين يموتون بواسطتها كل يوم . كنت وأنا أطوف شوارع المدينة مشمولاً ببهاء النقوش والزينات والزخارف ، وشفافية الماء الذي يحمل البجع والقوارب ، مفتوناً

بحركة الضوء فوق حد ائق الورد وحقول العشب وذوائب الشجر ، غاطساً في أنوار الغبطة الصاعدة من الميادين التي تشرب من نوافيرها الطير ، مأخوذاً بنفحة عطر من شعر امرأة تمرق بجواري أو رفيف أجنحة قبرة أو قطاة تحط دون وجل على طرف المقعد الذي أجلس فوقه ، أختلط بالبشر الذين يختلفون إلى الساحات والحدائق ويملأونها فرحاً وموسيقى ، أو أولئك الذين يعزقون الأرض أو يجنون المحاصيل أو ينسجون أثواب الحرير أو يتجولون في الأسواق ، كنت أحس بتواصل باطني عميق ، مع كل ما ينبض به المكان من حركة وما يفيض به من بهاء ، وكنت على يقين بأن ما يربط بيني وبين مظاهر الحياة في هذه المدينة علاقة تتجاوز علاقة الرائي بما يرى ، أو انفعاله بما تستقبله الحواس وتتلقاه العين من مشاهد قادمة إليها من خارج الذات . وكنت أتساءل كيف لمدينة مهما كان جمالها ، أن تبعث في النفس إحساساً بالبراءة الأولى وتكون مصدراً لهذه الشفافية التي تنتمي إلى مدن السماء لا إلى مدن الأرض ، وأجد راحة عميقة عندما أقول في خاطري بأنني أهتديت إلى مفاتيحها السرية ، وإن هذه المدينة إنما تنبثق من حلم رأيته ، فما علاقتي بها إلا علاقة مبدع بالصورة التي أبدعها خياله ، وما أنا إلا صاحبها الذي أنشأها من خميرة التوق الإنساني إلى الينابيع التي يرتوي منها القلب ، أنا الذي أشاد هذه الشوارع والميادين والأبنية والشرفات التي تضيئها القناديل والأغنيات ، وصنع لها سقفاً من سماء صافية الزرقة عامرة ببهاء الأقمار والنجوم . أنا الذي شق قنوات الماء وغرس الأشجار وعرائش الكروم ، وملأ المدينة برجال أصحاء ونساء متوردات الخدود ، وأنا الذي زرع هذه الفرحة فوق وجوههم وأضاء بقيم الخير والمحبة قلوبهم وصنع لهم هذا النظام الذي ينبع من ذواتهم ويحكم سلوكهم ومعاملاتهم ، أنا الذي رسم هذه النقوش ونسج هذه الأثواب من حرير القلب وزبرجد الروح ، وأنا الذي أفرغ المدينة من الهموم والمشاكل والشره والطمع والغرور والتلوث وأسلحة الفتك والدمار وحصنها بالجبال والبحيرات وأطلق في سمائها عصافير الهناء والأمن والسلام . وإذا كان الإسكافي ذو اللحية المصبوغة بالحناء الذي صنعته ليكون رمزاً لحكمة الأجيال

قد جاء مدفوعاً بشهوة القوة والحمية الوطنية يريد أن يستفيد من معارف العصر الذي تركته خلفي فما ذلك إلا عصيان لسلطة الحلم وخروج على هذا التصميم الذي أردته لعقد المرجان ، وسوف يفسد بفضوله هذه المدينة التي لم تخرج إلى الوجود إلا بعد أن اكتملت عناصرها ونضجت فكرتها في مخيلتي . لقد جئت إلى هذه المدينة هارباً من أسقام الروح وتلوث المدن والصراع المدمر على الرزق والسلطة وتقنية الحروب وتجارة الموت ، ولن أسمح لأية فكرة طارئة ، دخيلة ، هجينة ، أن تفسد هذه الصورة ، وإلا ضاع الحلم الذي تجسد حقيقة فوق الأرض وتبخرت مدينته في الهواء .

ذهبت بصحبة نرجس القلوب إلى مباشرة عمل من أعمال الإمارة وهو استقبال قافلة جاءت من شيراز محملة بأصناف من الأقمشة والسجاد العجمي وقوارير الطيب مع عشرين جارية من أملح نساء الفرس . استقبلت المبعوثين في الديوان وتقبلت هدية أميرهم شاكراً وأبلغته رسالة تقدير وامتنان رداً على رسالته وأجبته إلى طلبه وهو إرسال بلسم اشتهرت به عقد المرجان يزيل المضاعفات الناتجة عن برد العظام . وجاء أحد المناوبين للحراسة بالبلسم كما جاء بطبق مليء بالمرجان هدية لأميرهم . ذهبوا للاستراحة بالخان المخصص لضيوف البلاد ، وسألت نرجس القلوب عما يفعلونه بالجواري فأبلغتني أنهم يبعثون بهن إلى المؤدبين والمعلمين من أجل إعدادهن للعمل مشرفات على دور الحضانة أو مشتغلات بالتمريض أو عاملات في المزارع ومشاغل النسيج . كانت بينهن واحدة فارعة الطول ، معقودة الحاجبين ، حنطية البشرة ، تتفجر بهاء وأنوثة ، تمنيت لو أن تقاليد المدينة تتيح للأمير أن يمتلك جارية مثلها كما يفعل حكام ألف ليلة وليلة ، فهي امرأة مثيرة للرجولة بما تملكه من جاذبية جنسية ، وجسد مكتنز عامر بالثمار الشهية ، ولكنني حاربت هذه الرغبة في نفسي مستمداً من نرجس القلوب عوناً على مغالبة الضعف ، والامتثال لنواميس هذه المدينة التي لا تتيح لأمرائها إلا ما تتيحه لكل فرد من مواطنيها .

كان الإسكافي الشيخ ما زال متحمساً لتوظيف ما نقلته له من معارف

ومعلومات في إنتاج شيء تتميز به عقد المرجان عن بقية الممالك والأمصار . قلت له أنني للأسف البالغ لا أملك معرفة بالهندسة والرياضيات ولا أملك عقلاً يستوعب العلوم الطبيعية . إنني رجل يتعامل بالخرافات والأساطير ، ولا بد أن هذا الخيال هو الذي أفادني في عبور صحراء المهالك وأوصلني إلى مشارف هذه المدينة التي ما كنت لأصل إليها لو أنني أملك عقلاً رياضياً يتعامل بالأرقام والمعادلات والنظريات العلمية الصارمة الدقيقة . ولكن الشيخ جاء يقول بأن في المدينة رجالاً مهنيين يملكون عقولاً رياضية ولن يقتضي الحال إلا أن أحكي لهم عن بعض هذه الاختراعات وأن أبدأ بأكثرها بساطة وأقلها تعقيداً . ما هي السيارة؟ ما هي آلة التصوير؟ ما هو الهاتف؟ ماهو المسدس؟ ماهو المدفع؟ . إن أي شيء أقوله عن هذه الاختراعات سوف يفيدهم وسوف يجتهدون في الوصول إلى كيفية إنجازه . وأن بإمكانهم التقاط فكرة عن إحدى الآلات التي ورد ذكرها في حديثي والوصول إلى نتيجة إذا عرفوا شيئاً عن القوة التي تسيرها ، إنها تروس تدور ، فما الذي يدير هذه التروس ، إنها الطاقة التي تنتج احتراقاً داخلياً ، كيف إذن تتولد الطاقة ، ذكرت شيئاً عن البخار والغاز والمازوت والكهرباء ، كيف يمكن الوصول إلى بعض هذه العناصر التي تخلق هذه التأثير . هذا ما سوف يفكرون به ويصلون إليه بعقولهم المدربة على التفكير التقني والمهني . أوضحت له بأن الوصول إلى اختراع كهذا شيء مستحيل لأنه يسبق عصره ، وحتى إذا لم يكن مستحيلاً فإنني أخشى أن يلحق الأذى بهذه المدينة التي اكتملت ولادتها على هذه الصورة . قلت لنفسي بأنه كان ممكناً للقوى التي ساقتني إليها أن تسوقني إلى مدينة مليئة بالآلات والاختراعات ، وكان يمكن لهذا السفر الذي جاء سفراً إلى الماضي أن يكون سفراً إلى المستقبل وإلى مدينة يعيش أهلها فوق محطات الفضاء ويعاشرون البشر المصنوعين من أسلاك ومعادن وأزرار ، ولكنني هكذا تمنيتها وهكذا جاءت مطابقة لما أتمنى حيث تنبع القيم من نقاء الفطرة لا مما تفرضه آلهة القوة والأدمغة الآلية . ولأنها كذلك فقد التزم الإنسان فيها بهذه القيم وصار قادراً على تطويرها بالاتجاه الصحيح لا الاتجاه الذي يفسدها ويدمرها . فلماذا لا ينسى

الإسكافي هذا المشروع الذي لا يدرك خطورته ولا ينبع من حاجة المدينة وخبرتها ، وينشغل بجلوده ومساميره ونعاله فهي أجدى لهؤلاء الناس من الجري وراء أوهام المجد القادم مع رائحة المازوت . .

وجدته متحمساً فلم أشأ أن أعارضه أو أدخل معه صراعاً لا أعرف نتائجه . أمطرني بأسئلة عن الكيمياء والفيزياء وقوانين الحركة والاحتراق وتكون الغازات فأجبته بما أذكره من معلومات الكتب المدرسية . كنت على يقين من أنهم يحتاجون إلى قرن من الزمان حتى ينشئوا هيكل سيارة لا محركها أو ماسورة مدفع لا ذخيرته . إنني بحكم مجيئي من زمن يتقدم كل هذه المدة عن زمانهم أدرك متى تمت صناعة هذه الآلات ، فلماذا القلق إذن؟ أرادني أن أشرح للحرفيين ما أعرفه فأبلغته بأنني لا أعرف شيئاً أكثر مما قلته له ، وبإمكانه أن ينقله إليهم إذا أراد . ذهب يطوف على الحرفيين ويجندهم لمشروعه ، وذهبت وحيداً أهيم في شوارع المدينة على غير هدى . استأذنت من نرجس القلوب قائلاً بأنني سأغيب بعض الوقت فلا أريدها أن تنشغل أو تقلق . كنت في الحقيقة أخشى أن ينشأ خصام بيني وبين الإسكافي يجعلني أترك له القصر وأعتزل الإمارة ، فاقتطعت وقتاً أقضيه مع نفسي وأتعرف خلاله على أحياء المدينة معرفة تفيدني إذا حدثت مثل هذه القطيعة . ذهبت متحرراً من أثواب الإمارة وطقوسها عازماً على أن أبقى يوماً أو يومين بعيداً عن القصر ومستشاره .

كان أهل المدينة قد بدؤوا يتركون أعمالهم ويخرجون إلى الحدائق والميادين لإقامة الاحتفالات كما يفعلون كل مساء . جلست على مقعد بإحدى الباحات أراقب نساء ورجالاً يضعون الأقنعة فوق وجوههم ويرقصون على صوت الموسيقى رقصة الغابة . يتحولون إلى نمور وأسود وثعالب ، ويتحاورون بالرقص حول إدارة مملكة الغابة . لم أنتبه وأنا أراقب الراقصين إلى المرأة التي أتعبها الرقص فخرجت من الحلقة لتستريح ، ولم أرها إلا عندما نزعت عن وجهها قناع النمر وقد جلست في الطرف الآخر من الدكة الخشبية التي جلست عليها ، تمسح بمنديل أزرق حبات عرق تلألأت على جبينها . أذهلني جمال عينيها فقلت في نفسي لعل

ظهور هذه المرأة المفاجئ وانبثاقها بغتة بجواري لم يكن إلا تجسيداً لرغبة راودتني هذه اللحظة . إنني بحاجة إلى مصاحبة امرأة من أوساط الناس العاديين أتعرف عن طريقها إلى جوانب أخرى من الحياة لا أستطيع أن أعرفها وأنا أرتدي ثياب الأمير وأتجول بصحبة سيدة القصر . صرت الآن أعتقد أنني قادر على اجتراح مثل هذه المعجزات الصغيرة ، وطالما أن المدينة ذاتها ليست إلا تجسيداً لفكرة تخيلتها ، كما ينبئني حدسي ، فلماذا لا تكون هذه المرأة السامقة ، الغزيرة الأهداب ، التي تزين مفرق شعرها قرنفلة حمراء ، كائناً بديعاً أنا الذي صنعته هذه اللحظة . بدت هذه الفكرة رغم استحالتها ، طريفة ومسلية ، سأدعي لنفسي أنني فعلاً أوجدتها من أجل مرافقتي ومؤانستي وتعويضي عن فراق نرجس القلوب ، وسيجعل هذا الإحساس مهمتي في التعرف إليها أكثر يسراً ، إذ كيف أحس بالحرج أو الخجل من الحديث إلى امرأة أنا الذي خلقتها . وازددت تمسكاً بهذه الفكرة عندما رأيت أن ملامحها تتطابق مع ما أحب وأشتهي ، هذا الألق القادم من عينيها المتوهجتين بألوان الفجر وأسراره الغامضة ، وهذه البشرة التي تشف وتضيء وتصبح شفقاً يحتويه إناء من البلور ، وهذه الابتسامة التي تصنع عيداً للقلب وتبرز عند ظهورها سحر الغمازتين المذابتين في صحن الشفق ، وهذا الفم الذي يصنع دائرة للرغبة لا ينفذ منها إلا من شفه الوجد حتى صار شعاعاً ، هاتفاً من خلال انفراجته اللذيذة بنداء ساخن ملح عاجل يبعث الحرقة في شرايين القلب ، وهذا الجيد الأتلع الذي يكاد من صفائه أن يكشف عن سريان الدم في العروق ، وقد انهمرت فوقه جدائل شعر كثيف ناعم يفوح بأريج الياسمين ، وهذا الصدر الناهد الذي يحاصره ثوب حريري تتخلل زرقته نقوش فضية فيبدو كزبد الموج فوق بحر أسطوري . ليس فقط جمالها ما كان يثير في نفسي انفعالات خالق ينسحق ويذوب تحت سحر مخلوقته ، وإنما أيضاً هذا الحضور الساطع المهيمن الذي يصنع دائرة حوله يبسط فوقها نفوذه وسطوته . لعلني لم أكن أملك صورة كاملة عن امرأة القلب ولا أستطيع أن أتصور ملامحها ولكنني الآن وأنا أراها تجلس بجواري أحس بأنني ما حلمت إلا بهذه المرأة ، ولا

هفهفت أشرعة الفؤاد إلا إليها ولا ظهرت في مرايا الماء والسماء التي تنعكس عليها خبايا النفوس إلا صورتها .

جاء الغسق ، وبدأ الليل يرسل غبشاً يزحف على الساحات والأبنية والحدائق ، في حين خرج عمال الإنارة يوقدون المشاعل . سألتها وكأنني أواصل الحديث الصامت الذي بدأته منذ لحظات معها :

- هل تسكنين قريباً من هنا؟
- إنني أسكن في البساتين ، خارج السور .
- هل تستطيعين العودة إلى بيتك في الظلام؟
- وهل ترى أن الجو ينذر بعواصف يتعذر معها الاهتداء إلى الطريق .
- أعني ألا تخافين؟
- من أي شيء تريدني أن أخاف؟

إنني أتحدث بمقاييس عالم يختلف عن عالمها ، عالم أحمله معي إلى مدينة انتهى منها الخوف حتى أصبح كلمة غريبة لا أحد يستخدمها . لماذا تخاف طالما أن أميراً صالحاً قام بسجن كل الأشباح داخل غرفة سرية . إن لهذه المرأة تجربة في الحياة زودتها بخبرة تختلف عن خبرتي ولهذا فقد أضحى صعباً التسليم بأنني أنا الذي خلقتها ، وما تقوله لا يوحي بأنها جاءت إلى الدنيا منذ دقيقة واحدة فقط . سأجري تعديلاً طفيفاً على الفكرة ، وسأعتبر أن إرادتي هي التي استدعتها إلى الحضور وأرغمتها على الخروج من بيتها والمجيء للقائي في هذا الموعد وهذا المكان .

- أقصد ألا تخافين الوحوش؟
- وهل هناك وحوش غير تلك التي تعيش في الأدغال؟

أعرف جيداً أن الوحش الذي يعيش على أبواب طيبة قد انتحر عندما وجد إنساناً يعرف الجواب ، فلماذا طرح الأسئلة التي انتهى منها البشر . قلت قبل أن ينتشر الذعر بين الناس نتيجة كلماتي التي تفضح جهلي بأحوال هذه المدينة :

- فكرت أن نترافق في طريق العودة إلى الحقول .

- هل تستطيع الانتظار؟

- نعم .

عادت إلى ارتداء قناعها تشارك في الرقص وتدخل صراعاً ضارياً نشأ بين الأسود والنمور بسبب الفتنة التي أشعلتها الثعالب . كان الرقص تنفيساً لما يعتمل في النفس البشرية من مشاعر وهواجس . إنها رقصة يطردون بها كل الانفعالات البدائية التي تختفي في طبقات العقل الباطن ، يتحررون منها عن طريق هذه الرقصات لكي يعود الواحد منهم لممارسة حياته أكثر نقاء وصفاء . هكذا أدركت كيف أن اللعب هنا يؤدي أيضاً وظيفة تربوية وتهذيبية . حان موعد عودتها إلى البيت فقمت أرافقها في الطريق الذي يفضي إلى خارج السور . كانت السماء صافية كثيرة النجوم . وهواء الليل مفعم بعطر البساتين ، والمشاعل التي ارتشقت على جانبي الطريق تنثر لهاث ضوئها الذي اختلط بالعتمة وظلال الأشجار . غمرني إحساس بالألفة وأنا أمشي بجوارها فخطر لي أن أسألها إن كانت امرأة متزوجة ، ثم عدلت عن السؤال عندما تذكرت أن النساء في عقد المرجان لا يتزوجن عادة في هذه السن ، إنها مرحلة العلاقات الحرة التي تسبق الارتباطات الزوجية وتربية الأطفال والانشغال بالحمل والرضاعة ولذلك فإنهن يتأخرن في الزواج إلى سن الثلاثين ، بينما هي لا تزال في أوائل العشرينات من عمرها .

- هل تعيشين مع أسرتك؟ .

- نعم ، وأبي وأمي ينتظرانني الآن ولا يتناولان العشاء حتى أعود . إنني ابنتهما الوحيدة .

وأنا الابن الوحيد لزمن لم يأت بعد ، فكيف أقدم لها نفسي؟ .

تناهى إلينا صوت عزف يأتي من وراء أحد الأبواب فأخبرتني بأن هوايتها هي الموسيقى وأنها تترك مشغل الملابس الذي تعمل به وتذهب لأخذ دروس في العزف . ثم فاجأتني بالسؤال عن مهنتي . قلت لها بأنني جئت حديثاً إلى مدينتهم ، وأنني تخلفت عن العودة مع القافلة التي أوصلتني لأنني أحببت أن

أقيم بينهم وأفكر في عمل يتفق مع تجاربي السابقة في البستنة وغرس المشاتل .

- إذن فأنت تقيم بخان المدينة .

- مؤقتاً .

- ولماذا أتعبت نفسك بالمجيء من هذا الطريق؟

- لمجرد النزهة والاستمتاع برفقة لا أجدها في فندق الغرباء .

- ما رأيك أن تبقى معنا هذه الليلة وتكون ضيفنا على العشاء؟

فاجأتني البساطة التي قالت بها كلماتها . رحبت بهذه الدعوة التي جاءت بحسب ما أشتهي وكأنني أنا الذي وضعت الكلمات في فمها . وصلنا إلى بيتها وقدمتني إلى والديها . برغم أنهما يقتربان من سن الشيخوخة إلا أنهما يتدفقان نشاطاً ، كان العشاء لحوماً مقددة أعيد تسخينها ، وأطباقاً من الخضار المسلوق وسلطات الجرجير والخس والبقدونس . شاركتهم العشاء كما شاركتهم الشراب عندما أحضرت الأم زجاجة نبيذ خاتر معتق ، عرفت أنه من مخزون العائلة الذي لا يقدم إلا في المناسبات . كان الفضول لمعرفة تفاصيل حياتهم يدفعني إلى أن أتجه بالحديث نحو هذه الوجهة . عرفت أن الأب والأم أيضاً يعملان ، ترك الرجل العمل بمقالع الحجارة وإعداد الطوب للبناء وتركت الأم العمل بالحصاد وجني المحاصيل ، وتفرغ كل منهما لعمل يتناسب مع سنه وهواياته ، فالأب يربي النحل في حديقة البيت وينتج عسلاً يرسله إلى مراكز التوزيع ، ولأنهما يملكان في الحديقة عدداً من أشجار التوت فقد استعملتها الأم في إطعام دود القز وإنتاج الحرير . طاب لنا السهر وتركوا لي أغلب زجاجة النبيذ . وجاءت نشوة هذا الشراب البالغ الدسامة تنسيني حالة القلق التي أخرجتني من القصر . أحضرت الفتاة عوداً عزفت عليه وغنت غناءً يشبه الموشحات الأندلسية . كنت قد عرفت أن اسمها بدور وأخبرتها بأن اسمي «خليل» لأنني اشتقت لأن أسمع كائناً جميلاً مثلها ينطق هذا الاسم قبل أن يندثر من الوجود . كانت بدور وهي تعزف عودها تسبل رموش عينيها وتحني رأسها فوقه وقد تهدل شعرها الأسود يغطي جانباً من وجهها وتلامس أطرافه الأرض فتبدو الموسيقى وكأنها قادمة لا من

أوتار العود فقط ولكن من شعرها ووجهها وقوامها كله . سألوني أن أنشد لهم شيئاً من محفوظاتي فغنيت المقاطع الأولى التي أذكرها من أغاني سيد درويش . كانت هذه الأغاني غذاء لغربتي في صقيع المدن الشمالية وها هي اليوم تعود إلى الذاكرة في زمن سبق زمن مؤلفها بتسعة قرون . أعجبتهم الأغاني برغم كلماتها التي تختلف عن أسلوب نطقهم لها ، وتأخر بنا الليل فذهب الرجل وزوجته إلى النوم بعد أن رحبا ببقائي في يبتهما هذه الليلة . اصطحبتني بدور إلى غرفة نومها وأعدت لي فراشاً في ركن من أركانها وأحضرت لي جلباباً للنوم . ولم تجد حرجاً في أن تخلع ملابس النهار في حضوري وترتدي قميصاً شفافاً يظهر تورد بشرتها ونقاء جسمها وتفاصيله الأنثوية ، دون أن يعني ذلك ما تبادر إلى ذهني من أنه دعوة إلى المعاشرة وإنشاء علاقة أكثر من علاقة الود بين ضيف ومضيفته ، لأنها تركتني أنام في فراشي وأطفأت القنديل عائدة إلى فراشها . اكتشفت في الصباح أن للغرفة نافذة تطل على الحقول التي تترامى باتساع الأفق والتي تفضي إلى مشهد البحيرة والشلالات المنهمرة من رواب خضر ، ومن خلف الربي انبثقت قمة جبل تغطيه الثلوج . كان المشهد ينبض بجمال الصبح ، وكان المدي يضج بثراء الزهور والعشب ونترات الفضة التي يصنعها الندى ، والهواء يتدفق عبر النافذة مغسولاً بالشذا والعبير . وكانت أنثى الربيع تستيقظ الآن من نومها . لن يضيرني أن أبقى هنا بضعة أيام بصحبة هذه المرأة التي أرسلتها لي آلهة الحلم . سأحاول أن أكون نافعاً لأهل هذا البيت ، جديراً بصحبتهم ، ومستفيداً من خبرتي في العمل بحدائق القصر انهمكت منذ أول يوم في العمل بستانياً معهم ، أشذب أشجار الحديقة وأسقيها وأقتلع الأعشاب الطفيلية من أرضها . وجدت حوضاً للأحياء المائية مقاماً بالحديقة فتوليت تنظيفه والاعتناء بتغذية أسماكه . طلبت أن تتسع قلوبهم لا ستضافتي بضعة أيام حتى أتعلم منهم الحرف التي يجيدونها ، فاستجابوا إلى طلبي ودعوني للمشاركة في إنجاز الأعمال التي يقومون بها ، و نقل إنتاجهم إلى مراكز التوزيع ، والذهاب معهم في ساعات الراحة إلى النزهات التي يقومون بها إلى الحقول القريبة من الروابي وشلالات الماء ، حيث

يقطفون الأزهار البرية ، ويفترشون الأعشاب ، ويتناولون طعامهم بصحبة الطيور التي تدرج بجوارهم . وعرفت أثناء مصاحبتي لهم كيف أنهم يعتبرون تقديس الطبيعة والتمتع بها جزءاً من وجودهم الروحي ، وعافيتهم النفسية والبدنية . يندمجون مع إيقاعها ، ويرقبون حوار ضوئها وظلالها ، وينشئون علاقة حميمة مع زهورها وطيورها وأشجارها ومياهها ، كدليل على هذه الوشائج التي تربط الإنسان بمحيطه وبيئته الطبيعية . أمضي بصحبتهم ، أرقب هذه المشاهد بانفعال طازج ساخن ، وأغترف من هذه العوالم بكل ما تتيحه حواس البصر والسمع والشم والذوق واللمس من متعة واندماج . وجدت مداركي أيضاً تتفتح على فهم مظاهر الطبيعة ، وما يحدثه ذلك من أثر في نفسي ، وما يحققه من انسجام بين الموسيقى الخفية التي يعزفها الكون ، والموسيقى الداخلية التي تعزفها الجوارح والأحاسيس ، فهو لقاء يطرد النغمة النشاز ، ويوقظ ملكات وطاقات حسية وروحية ، ويرتقي بالمشاعر والعواطف لتكون قادرة على مقاومة الانهيار تحت تواتر الأيام ورتابة الأشياء المعتادة . أحمل عبء نشوتي ، وأقف فوق الرابية أتأمل تحولات الضوء وتموجاته فوق اختلاجات الماء والعشب ، وأحتفي بما أراه من نباتات ذات عطر وألوان ، وما يطرأ عليها من غبطة وشجن ، واشراق وشحوب ، وفقاً لكل أقنيم تنتقل إليه الشمس ، ولا أكتفي بالنظر إلى زهورها وبراعمها وأوراقها ، وإنما أتأمل اللحاء الذي يغطي سيقانها وأغصانها ، فهو أيضاً يقول شيئاً عن طبيعتها ، وأنظر بعين جديدة إلى صخور الجبل وما ترسمه فوقها عوامل الريح والتعرية من تكوينات غريبة وأشكال نحت هلامية ، وكأن لهذه الصخور لغة سرية تخاطب بها الكائنات . وأتأمل للحظات طويلة غصناً كسرته الريح ، فتجمعت عند موقع الشرخ أتربة أنبتت زهرة طالعة من قلب الغصن المكسور ، لها تاج بلون الذهب الأحمر ، فأركض إلى بدور أخبرها وأسحبها من يدها لترى هذه المعجزة الصغيرة التي تفتقت عنها حكمة الزهر والشجر ، قائلاً لها بأن هذا هو البرهان على صدق ما ترويه أسطورة الخلق عن انبثاق الأنثى من ضلع الرجل المكسور . كنت أترك البيت أحياناً دون هدف إلا هدف الاستمتاع بالطبيعة في جلالها

الباهر أو الحديث إلى أناس أقابلهم صدفة ، فيقبلون بي ويحتفون بالحديث إلي ، رغم أنهم لا يعرفونني ، مزارعين وحطابين وصيادين في طريقهم إلى الغابة وأصحاب مراكب صيد ، ونساء عاملات بالحقول ، ثم أختار ركناً على ضفة البحيرة تنمو فيه أشجار صفصاف تهدلت شعورها الخضراء تلامس الماء ، يذكرني منظرها بأعراس البادية التي شاهدتها في طفولتي المبكرة ، عندما كنت أرى النساء يرفعن الأغطية عن شعورهن التي تهدلت أمام وجوههن في رقصة «النخيخ» ، يستيقظ المشهد القديم في ذاكرتي ، وأنتبه إلى أنها صارت ذاكرة انتقائية لا تستحضر من الماضي إلا ما كان متفقاً مع بهجة الزمن الجميل الذي أحياه . أجلس هناك فوق العشب أرقب الشمس الغاربة وألوانها الذائبة في مياه البحيرة وأنتظر بدور التي تطورت علاقتي بها فصارت ترافقني في جولاتي عند انتهائها من العمل ، أو تأخذ نصف يوم إجازة نذهب أثناءه في رحلة لتسلق الجبل ، ومشاهدة المدينة من ذروته العالية . كانت تحب زهور الأكاسيا ، فتعود بحزمة منها وحزمة من عراجين الفل والياسيمن تملأ بها مزهريات البيت ، وتزين بها شعرها في الاحتفالات التي تقام أثناء الليل . وجدتها ذات ليلة تضع عطراً في فراشها ، فعرفت أن العلاقة بيني وبينها وصلت إلى مرحلة أكثر عمقاً وحميمية . حدث ذلك بعد أن عدنا من مغامرة تسلقنا خلالها الجبل ووجدنا نبع ماء ساخن يتفجر بين الصخور . لم تكن بدور قد رأت هذا النبع من قبل ففرحت باكتشافه ، ودون أن تقول شيئاً ، نزعت ثوبها وسارت عارية تتلألأ كموجة من الضوء حتى دخلت تحت مياه النبع تغتسل وتضحك وتعبث بالماء وتدلك العنق والصدر والخصر والردفين ، وتسألني أن أدخل الماء مثلها ، وقفت خاشعاً ذاهلاً أرقب الجسد الممجد يؤدي طقوس الاغتسال ، وأملأ بصري من مشهد الماء الذي يترقرق فوق جسد كالنار . كان الطقس في تمام اعتداله وكان المكان خالياً تحف به أشجار تين وزيتون ، أغراني هذا التواطؤ المبارك بالمغامرة ، فخلعت أنا أيضاً ثوبي ودخلت مثلها تحت مياه النبع الساخنة ، وكأنني أدخل طقساً يطهرني ويعيد خلقي ويتولى إعدادي لمهمة جليلة ، ولم أعرف هذه المهمة إلا عندما ضمتنا غرفة

النوم ليلاً وجلست فوق السدة بجوارها فمنحتني بهجة فمها وأغرقتني في لجة الفرح الذي يضج به صدرها وأدخلتني إلى الغرفة التي خبأت بها أسرارها وكنوزها فصرنا بعد تلك اللحظة عاشقين يستخدمان فراشاً واحداً كلما جاء موعد النوم . لم أنس المهمة التي تركتها في القصر ولا المرأة التي تنتظر عودتي ، ولكنني وجدت أن هذه الحياة البعيدة عن طقوس الأمراء تتلاءم مع طبعي وتكويني ، فصرت أرجئ عودتي إلى القصر يوماً بعد يوم ، دون أن أعرف كيف ستطاوعني نفسي على هجر هذه المرأة التي ألقت شباكها على طائر القلب وأخذته أسيراً .

قلت لها ونحن نتجاور في الفراش :

- هل تؤمنين بحب يدوم إلى الأبد؟

- أومن بالحب ، ولكن ما هو الأبد؟

لماذا يجعلني ضعفي أنسى جمال هذه اللحظة وأذهب هائماً أصطاد المشاكل في أودية المجهول . إنها لحظة تستحق أن أقبض عليها جيداً لكي لا تسرقها متاهة الأبد التي لا أحد يعرف لها حداً .

- إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في اليوم الذي نفترق فيه .

- ولماذا تفكر في الفراق؟

هل أقول لها بأنني أخفيت عنها هويتي وأنني الرجل القادم من الصحراء الذي عينوه أميراً وزوجوه الأميرة ، وأن هذه الهوية ذاتها تخفي تحتها هوية أخرى تمتد في المستقبل ألف عام . هل أبدأ بكشف هذه الرقائق من الهويات والانتماءات . ولكنني فعلاً مهموم لفراق هذه المرأة المصنوعة من أزهار الحلم ، وهذه العائلة التي حققت لي تواصلاً أليفاً وحنوناً مع العائلات التي تجاورها ، وعمقت معرفتي بالمدينة التي صرت أنتمي إليها . لم أشاهد احتفالات تقام للزواج ، فالعرس غالباً ما يكون جزءاً من الاحتفالات العامة التي يقيمها الناس كل يوم ، يخترعون لها شتى المناسبات ، ويقيمونها احتفاءً بكل مظهر من مظاهر الطبيعة وعناصرها ، وكل نوع من أنواع الزهور والفاكهة ، وتمتد بعدد أيام العام . عرفت أيضاً أن الموت هنا لا ترافقه مآتم ومناحات ، فهو في عرفهم صعود إلى السماء واتحاد بروح الكون

وانتقال للمعيشة بين النجوم ، ولذلك فهم يغطون موتاهم بالزهور ويدفنونهم في صمت ، حيث يأخذونهم إلى منطقة خضراء يواريها الجيل يودعونهم أرضها . ولأنهم لم يصلوا إلى عصر الفواجع التي تصنعها وسائل النقل الآلية والأسلحة التي تتفجر ناراً . وأنجتهم طبيعة الحياة التي يعيشونها من هول المعارك والأوبئة والمجاعات ، واختفى السباق اليومي من أجل الرزق والنفوذ ، الذي يصيب القلب بالإرهاق ويصيب الروح بالانهيار ، فقد صار الموت الفاجع الذي يفاجئ الإنسان قبل موعد موته شيئاً نادر الحدوث . جاء والدها يسألني إن كنت أريد أن أبعث برسالة إلى أحد الذين انتقلوا إلى رياض السماء من أهلي ، لأن جاراً طاعناً في السن ينام في فراشه استعداداً للرحيل ، وسوف يزودونه برسائل إلى العالم الآخر . تذكرت قصة قرأتها عن وجود امتداد لهذه العادة في بعض مناطق العالم الذي جئت منه ، وفكرت أن أذهب لأبعث برسالة إلى والدي ، ولكنني تذكرت أنني أعيش في عصر سبق ميلاده ، فاعتذرت عن الذهاب لزيارة الرجل المحتضر ، وعدلت عن الاستفادة من خدماته . بقيت لمدة أسبوعين أرجئ العودة إلى القصر ، إلى أن وجدتهم في بداية الأسبوع الثالث يكتشفون مكاني ويعيدونني إليه . كنت خلال هذه المدة أتجنب الذهاب إلى الساحات القريبة من القصر لكي لا ألتقي بأحد الذين يعرفونني ، كما تجنبت المرور قرب دكان الإسكافي جلال الدين ، وبرغم هذه التحوطات وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الشيخ ذي اللحية المصبوغة بالحناء . كنت قد جئت بصحبة بدور لحضور الاحتفال بعيد الماء ، فهو عيد من أعيادهم الكبيرة ، يقيمونه لاحياء ذكرى عادة قديمة عندما كان أسلافهم يأتون كل عام بصبية في ثياب العرس ويقدمونها قرباناً لكائنات البحيرة مقابل ما تتيحه لهم من أسباب الرزق والمعيشة . انقرضت منذ أزمنة مضت هذه العادة ، لكنهم داوموا على إحياء عيد الماء بعد أن أبدلوا الصبية بتمثال لعروس مصنوعة من الزهور . لم أعرف إلا بعد أن وصلت إلى هناك أن الأمير سوف يأتي ليقود طقوس الزفاف ويرمي بالعروس وسط الماء . كان الناس يتجمعون حول التمثال ، وكانت بدور سعيدة لأنها وجدت لنا موقفاً قريباً نستطيع أن نرقب منه مراسم

الاحتفال ونشاهد الأمير عن قرب . كنت محرجاً لا أدري إن كان من واجبي أن أتقدم معرفاً بنفسي ، أم أترك الحفل وأمضي ، أم انتظر لأرى ماذا سيفعلون . بدأ الناس يعبرون عن استغرابهم لغياب الأمير وأردت أن أتلمس طريقاً للخروج هارباً من حرج الموقف ، عندما وجدت يداً تمسك بذراعي ، والإسكافي جلال الدين يسحبني من يدي . ويسألني أن أتولى طقوس إلقاء التمثال في البحيرة . أردت أن أعتذر لأنني لا أرتدي ثياب الإمارة ، ولا أضع فوق رأسي جوهرة الحكم ، ولكنه لم يعبأ باعتذاري ، أو يبالِ بالملابس التي أرتديها . ووسط دهشة الناس الذين يحيطون بي ، واستغراب بدور التي كانت بجواري ترى وتسمع ما يدور من حديث بيني وبينه ، قادني حتى أوقفني بمحاذاة التمثال هاتفاً بصوت جهوري :

- نصر الله الأمير .

ردد الناس من خلفه الهتاف وتعالت صحيات الابتهاج وأعلن الشيخ عن بداية الاحتفال . قام بقراءة الأدعية والأوراد التي تنتهي بمقاطع يرددها معه الحاضرون تمجيداً للماء واعترافاً بفضل البحيرة والينابيع التي تغذيها ، على حياة الناس . ثم امتدت الأيادي تحمل معي التمثال عالياً حتى يراه من وقف في آخر الصفوف . ووسط الغناء والأهازيج وضرب الطبول ألقينا بالتمثال في الماء ليبقى طافياً فوق سطح البحيرة . انتهت مراسم الاحتفال وأراد الشيخ أن يعيدني مباشرة إلى القصر ، فسألته أن يمنحني وقتاً ، لكي أشكر العائلة التي استضافتني ، ثم ألحق به . كنت أحسب أن بدور ستغضب لأنني أخفيت عنها حقيقتي . أدهشني أن أجدها سعيدة بالمفاجأة ، لا تكاد تصدق أن الرجل الذي يمشي بجوارها وأقام كل هذه المدة في صحبتها ، هو الرجل المبارك الذي قطع صحراء الأهوال وكافأته البلاد بتنصيبه أميراً . نقلت الخبر لوالديها بكثير من الإثارة والحماس ، لاهثة تضع يدها على صدرها وكأن قلبها لا يقوى على احتمال هذه المفاجأة ، قائلة لهما بأن الرجل الذي جاءهم غريباً فاستضافوه ، ليس إلا سالك الدرب ، وسيد القصر ، خرج متنكراً للاختلاط الحر بالناس . شكرني الرجل وزوجته على ما منحته لهما من شرف ، واعتذرا عن تقصيرهما في معاملتي معاملة تليق

بصاحب الكرامات . وقفت بدور تلومني لأنني لم أكاشفها بحقيقتي ، فأضعت عليها فرصة أن تنتج علاقتنا طفلاً يأتيها عن طريقي ويرث شيئاً من أسراري . كانت تقول هذا الكلام في حضور والديها . أدركت أن هناك أشياء كثيرة في هذه المدينة لم أتعلمها بعد . شكرت لهم جميل استضافتهم ووعدت بالعودة لزيارتهم ورجعت إلى القصر أعانق نرجس القلوب معتذراً وأجلس صامتاً أنصت لعتابها . لقد ظنت أن مكروهاً لحقني ، وأرسلت المناوبين على الحراسة للبحث عني ، ولكن دون جدوى . ثم جاء الإسكافي الحكيم يستخدم لهجة أكثر غضباً في العتاب ، قائلاً أن غيابي كل هذه المدة كاد أن يهدد أمن البلاد . لم أكن أفهم كيف لأمير لا يعمل شيئاً غير جني محاصيل الفول واللوبياء ، أن يكون لغيابه أو حضوره كل هذه الخطورة . أفهمني أن وفوداً من بلاد أخرى ظلوا لمدة أسبوعين ينتظرون لقائي ، حتى ذهب في ظنهم أن امتناعي عن استقبالهم يحمل دلالة سياسية ، وينبئ بموقف عدائي من أوطانهم . اقتضاه الأمر جهداً كبيراً لكي يمنعهم من السفر غاضبين ، باحثاً عن شتى الأعذار لإبقائهم إلى حين عودتي . لم يشأ أن يفزع أهل المدينة فيدعو إلى انعقاد مجلس شيوخ الأحياء ، الذي لا ينعقد إلا في أوقات الأزمات والشدائد ، أو يبعث بالمنادين يدقون الطبول ويسألون الناس عن الأمير الغائب . لم أكن أحسب أن غيابي سيقلقهم إلى هذا الحد ، وإذا كان ما ارتكبته إثماً فليقبلوا الآن طلب إعفائي من مسؤولية الإمارة لكي يتولاها واحد من أبناء المدينة ، القادرين على فهم ظروفها ، والحفاظ على تراثها وتاريخها أكثر مني . لتتولاها نرجس القلوب ، أو ليتولاها هذا الشيخ الذي عاش عمره يحرس النظام ويحدب على استقراره . أو فليخرجوا مرة أخرى إلى الصحراء بحثاً عن تائه جديد . أما أنا فلست سوى رجل جاء من خارج الزمان وتطفل على عصر ليس عصره وأرض ليست أرضه ولم يتحرر بعد من عاهاته التي جاء بها من ذلك العصر وتلك الأرض فصار ظلماً كبيراً بحق هذه المدينة أن يبقى أميراً عليها . حاولت بلهجة لينة أن أنقل هذه الرغبة إلى الأميرة والشيخ . كنا نجتمع في الديوان وقد تعمدت أن أجلس في مقعد بجوارهما رافضاً الجلوس على مقعد

الأمير . رأيتهما يقفان وينظران نحوي باستنكار وكأنني اخترقت أكثر النواميس تقديساً وإجلالاً . استمعت إلى الشيخ يسألني بلهجة حاسمة ألا أعود لقول هذا الكلام الذي يغضب الله . إن إرادة إلهية هي التي أنجتني من المهالك واختارتني دون غيري لأداء هذه المهمة عندما أرسلتني إلى باب المدينة بعد موت أميرها لأكون أميراً عليها ، والاعتذار عن هذه المهمة أو التنازل عنها إنما هو حنث بالقسم الذي أديته ورفض للمشيئة المقدسة . في جمل حاسمة ، قاطعة ، أفهمني أن تفكيراً كهذا يجب ألا يمرق بخاطري ، وأبلغني أن الرجل الدمشقي الذي جاء موفداً من أمير السلاجقة ينتظر الآن بالباب ، وأنه يجب أن أرتدي حلة الإمارة وجوهرة الحكم استعداداً لاستقباله . كان النهار قد انقضى ، وكانت القاعة تنيرها أضواء القناديل . ليس الموقف مناسباً لاستقبال الضيوف والتبسط معهم في الحديث . مضى الشيخ يقول إنه إجراء استثنائي نتدارك به مزيداً من التأخير ، فقد لا يصبر هؤلاء السفراء نهاراً آخر . أستجيب لما أراد . أرتدي أقنعة الأمير وأدخل في شخصيته وأجلس فوق سدته العالية . يأتي الرجل الدمشقي محملاً بهداياه من السيوف والسروج الفضية والأقمشة الدمشقية ، وأسمعه يلقي رسالة الأمير السلجوقي الذي يحكم دمشق ، فتراودني فكرة عابثة بأن أخبر هذا الدمشقي بما طرأ من أحداث تاريخية على بلاد الشام بعد حكم السلاجقة ، واجتياح المغول للمنطقة ، وحملات الصليبيين عليها ، وما يحاصر ذلك الوطن من أعداء جدد ، وما حدث في فلسطين من احتلال ، وفي جبال لبنان من حروب الطوائف بعد تسعمائة عام من انتهاء حكم السلاجقة ، الذين انتهت دولتهم ، وذهبت ريحهم إلى الأبد . لا شك أنه سيعتبرني أميراً مارقاً ، مجنوناً ، يريد إهانته والسخرية من دولته ، وسيعود إلى دمشق يقرع الطبول وينفخ نفير الحرب . ليهنأ الرجل الدمشقي بجهله ولأمنع نفسي من التفكير في أمر يخرج عن دائرة مهماتي ، كأمير ينتمي إلى هذه المرحلة من التاريخ . استسلمت لمنطق عجلة الزمان ، التي أعادتني إلى هذا العصر السلجوقي ، مشيداً بدمشق وعراقة تاريخها ، ومكانة الأمة التي تنتمي إليها بين الأمم ، والانتصارات التي حققها السلاجقة

على ملوك بيزنطة وأمرائها ، معتذراً عن تأخري في استقباله كل هذه المدة بسبب الاستشفاء في المياه الكبريتية بعيداً عن هذا القصر . مجزياً له العطاء من ثمار المرجان هدية لأميره ومدينته . بقيت في صحبته زمناً ، أستمع منه إلى أخبار تلك البلاد ، وما تنعم به من ازدهار واستقرار ، في عهد ملك شاه الذي يرعى العلوم والفنون .استقبلت بعده مندوباً من بلاد السند ، جاء محملاً بأعواد البخور والتوابل والعطور والتحف والتماثيل العاجية ، واستمعت إلى تقارير المناوبين على الحراسة ، وحضرت مراسم التسليم والتسلم بينهم . أنجزت ما تريده الإمارة من أعمال ، وعدت إلى امرأتي أصالحها مصالحة العشاق ، بعد أن صالحتها مصالحة الأمير للأميرة ، وأعاهدها ، وأنا أحتوي جسمها وأغتسل بشذا عطرها ، بألا أسبب لها كدراً أو ضيقاً . انهمكت مرة ثانية في روتين القصر . حياة بلا أعباء ، وقصر لا يشبه قصور الحكم الأخرى التي قرأت عنها في قصص التاريخ ، والتي تمتلئ بالجواري والخدم ورجال ونساء البلاط ، حيث تحاك المكائد والدسائس وتنشأ الصراعات على الحكم والنفوذ . قصر يسكنه أيضاً عمال الحدائق والبساتين ، الذين يشرفون في المناسبات على حفلاته ، ويتناوبون معنا على صيانته ونظافته والعمل في مطبخه الذي يتولى إعداد الطعام لكل ساكنيه . أصحو مبكراً لأداء التمارين الروحية ، وأنتهي من ساعات العمل في البستان ، فأذهب إلى الديوان ، ويأتي المساء فأخرج متنزهاً مع الأميرة التي اكملت زينتها ، وارتدت أبهى حليها ، واستعدت لاستقبال الحفاوة التي تلقاها من أهل مدينتها . لم أكن قد قررت أن أخبرها بالعلاقة التي أنشأتها مع بدور ، لأنني لا أعرف ما يعنيه ذلك لها ، أو ماذا سيكون ردُّ فعلها ، تعاملت بذات المنطق الذي تعلمته قبل وصولي إلى هذه المدينة . قلت لها كل شيء عن العائلة التي استضافتني ، وما قمت به من نزهات معها ، وما التقيت به من عائلات تجاورها ، مبدياً إعجابي بتلك الروح التي جعلت أناساً لا يعرفونني يفتحون لي بيتهم وكأنني ابن غائب عاد إليهم . قلت لها كل ذلك دون أن أذكر شيئاً عن ابنتهما . أخبرتني نرجس القلوب أن ما فعلته معي هذه العائلة هو ما كانت ستفعله أية عائلة أخرى ، لأن هذه هي تقاليد

المدينة . إن بيوت الناس جميعها مفتوحة لاستقبال الضيوف ، وباستطاعة أي إنسان تأخر به الوقت أثناء العمل بالحقول ، أو مقالع الحجارة ، أو عند ذهابه إلى الغابة ، أو فاجأته الأمطار أثناء النهار ، وأراد سقفاً وطعاماً ، أن يطرق باب أقرب بيت ليجد أهله يرحبون به . لم أقل لها أن ما حصلت عليه من تلك الضيافة كان أكثر من مجرد النوم والطعام والصداقة . وجدت حباً لا أدري إن كان باستطاعتي أن أنساه ، لأن المرأة التي التقيت بها لم تكن امرأة عادية نلتقي بمثلها كل يوم ، أنها المرأة الاستثناء التي جاءت مطابقة لامرأة ترقد صورتها في قاع الذاكرة . لم أقل ذلك لنرجس القلوب ولن أقوله ، ذهبت متجولاً معها أضم إلى قلبي كل ما أراه من مظاهر الحياة في المدينة ومشاهدها . صرت الآن أكثر خبرة بها ، وعرفت خلال الأيام التي قضيتها أتجول متحرراً من كل التزام عبر بيوتها وأزقتها ، كيف يصبح الحب وجوداً مادياً مثل غلالة رقيقة تغطي الناس والبيوت ، حضوراً شفافاً زاهياً ألمسه وأحسه وأستنشقه مع الهواء كالعبير . تحرر القلب من وطأة الحاجة واختفى البغض والطمع ، وبقي الحب الذي يجمع كل الناس ويغلف كل الناس . وما علاقة الحب التي تنشأ بين الرجال والنساء إلا جزء من هذه العلاقة التي تربط بين الإنسان والإنسان ، بمثل ما تربط بينه وبين الطبيعة ، وبصدق وبساطة وعفوية تأتي العلاقة الجنسية باعتبارها استجابة لهذا القانون ، إنها ليست مجرد تحرير للطاقة الغريزية الفاعلة في وعي ولا وعي الإنسان ، ورفع الأغطية عن أبخرتها ذات القدرة التدميرية لو ظلت محبوسة ، مكبوتة ، وإنما مصدر من مصادر السعادة التي يحرص الناس على اغترافها لا بحواسهم الخمس فقط وإنما بحاسة سادسة مصنوعة من الشفافية والتربية الروحية وثراء العوالم الداخلية ، فيصير الجنس شوقاً وعشقاً ومعانقة لمعنى الحياة وسر الوجود . فلماذا أبدو الآن مليئاً بالإثم ، متحرجاً من هذه العلاقة الحميمة المباركة التي ربطتني لأيام قليلة بصبية مصنوعة من رغوة الحلم . سوف لن أخبر نرجس القلوب بما حدث ، ولا أظن أن أحداً من أهل المدينة سيفعل ما فعلت أو يراه بريئاً كما أراه . إنني أحتكم إلى مقاييس تختلف عن مقاييسهم ، ونشأت في بيئة تختلف عن بيئتهم ، وجئت

إليهم أحمل سلوكيات تتباين مع سلوكياتهم ، وأختزن في دمي كبتاً قديماً وجوعاً لم يعرفه رجال مدينتهم ، . ما أدهشني أن بدور لم تشعر بالحرج عندما عرفت من أكون ، ولم تعتبر نومها مع رجل متزوج إثماً . فهل كانت تستند إلى تقليد يبيح هذه العلاقة؟ . أم أنها كانت تفعل ذلك لأنها لم تكن تملك ارتباطاً كارتباطي . وإذا كان ما فعلته إثماً فهو إثمي أنا وليس إثمها . ولكن ما هو ذلك العنصر الغريب لديها الذي يفتنني ويغويني ولا أستطيع أن أنساه حتى وأنا في أحضان امرأة لها جمال نرجس القلوب وثراء عوالمها . جئت إلى هذه المدينة طائراً غريباً خرج يغرد خارج سربه ، فبسطت لي هذه الأميرة كفاً يحمل ماءً وطعاماً وحناناً ، منحتني منذ الليلة الأولى مفاتيح قلبها ، وارتضتني زوجاً استجابة لتقاليد مدينتها ، وأشعت سناء أضاء دروب رحلتي الغريبة . ولكنها قبل كل شيئ الأميرة التي تضع قلبها حيث مصلحة بلادها . تلقت تربية ملكية تتجلى في كل جزء من شخصيتها وسلوكها وحديثها . إنها لا تسطتيع أن تتخلى لحظة واحدة عن هذه الشخصية حتى وهي تحب وتتزوج . وتظل هذه الشخصية الأميرية حاضرة متألقة حتى وهي تختلط بالناس في الأسواق والميادين والاحتفالات التي تقام في الهواء الطلق . تفعل ذلك كله وهي واعية بكونها الأميرة التي ينظر إليها الناس بإعجاب وإكبار ، حريصة على زينتها ، وجمال مظهرها ، مدركة أن الناس وهم يلتقون بها سوف يخبرون أهلهم وأصحابهم بهذا اللقاء ، ويصفون لهم ماذا قالت ، وكيف ابتسمت ، ويتحدثون عن الثوب الذي ترتديه ، والعطور التي تستعملها ، والطريقة التي صففت بها شعرها ، وقد تسعى بعض الفتيات إلى تقليدها ومجاراتها في اللباس وتمشيط الشعر . ولذلك فهي دائماً حريصة على الصورة التي يراها بها الناس . مؤمنة بأنها ترسي بسلوكها مثلاً وقدوة ، وتسهم في تنمية الذوق ، وتعميق الحس الجمالي لدى أهل مدينتها . وهي لا تفعل ذلك تصنعاً وافتعالاً ، وإنما استجابة للجذور التربوية وسنوات التكوين الأولي التي أعدتها لهذا الدور وجعلت إحساسها بالواجب يبلغ هذا الحد . ولا شك أن لذلك كله دخلاً في موافقتها على الزواج بي وإحاطتي بحبها ودفء عواطفها ، فهو

سلوك نابع من داخلها وعمق قناعتها برسالة أميرة مثلها . حتى داخل غرف الجناح الذي يضمنا بعيداً عن أعين الآخرين لا تستطيع إلا أن تكون مثالاً لهذا السلوك الأميري ، تهتم بأناقتها ، وتعتني بتنظيم زهورها وكأنها تقيم معرضاً للزهور ، وتجعل لساعات الطعام والنوم والراحة والعمل مواعيدها وطقوسها . وأنا لا أضيق بذلك كله ، ولا أجد فيه قيداً على حريتي ، فهي تفعل كل ما تفعله بيسر وعفوية ، وتنبهني إلى ما ينبغي القيام به بأسلوب بالغ لرهافة والعذوبة . ومع ذلك كله أحس أحياناً بالحنين إلى حياة الإنطلاق التي جربتها بعيداً عن القصر ، فوجدتها أكثر ملاءمة لطبيعتي التي لم تنشأ نشأة ملكية ، وإنما تربت تربية حرة داخل الأحياء الفقيرة ، فصادفت الحياة التي عشتها مع بدور هوى في نفسي . نحتسي قارورة نبيذ في الخلاء دون أن نستخدم الكؤوس ، ونشوي سمكاً أو ذرة في مواقد النار دون أن نقيم اعتباراً لمواعيد الطعام . نتسلق الجبال حتى تتمزق أرديتنا ونغترف ماء الينابيع بأيدينا ونرتوي منه ، ونتعرى كي نسبح في المياه الجبلية دون إحساس بالحرج . وفي حين كانت بدور تعبيراً عن روح المدينة في انطلاقها وتحررها وحبها للحياة وعشقها للجبال والبحيرات والفراشات والأزهار الوحشية التي تنبت بين الصخور ، فإن نرجس القلوب بعراقتها ونبل مظهرها ومسلكها وتقديسها للتقاليد التي تحفظ للمدينة نظامها ، تبدو وكأنها جوهرة أتقن الصاغة صناعتها وترصيعها بفصوص الأحجار الكريمة . إنني أحب ما ألقاه من بذخ وتوهج وثراء في شخصيتها ، ويجب أن أكون شاكراً لهذه القوى التي أوصلتني إليها ، ولكن شخصاً آخر بداخلي ، لم يستوعب تقاليد القصور ولم يتدفأ صغيراً بأقمطة الأمراء ما زال يملؤه التوق إلى تسلق الروابي بصحبة امرأة رأى فيها تجسيداً لفورة الطبيعة في أكثر دوراتها خصوبة وعنفاً . وزاد من إذكاء هذا التوق إدراكي أن الإمارة قدر لا فكاك منه ولا هروب ، كرهت ذلك أم أحببت ، شئت أم أبيت . لعلني لو لم أكتشف هذه الحقيقة لكنت أكثر استمتاعاً بها ورغبة فيها ولكنني الآن صرت أحس بعبء مسؤوليتها ، وأجد نفسي أحياناً متلبساً باستمراء أفكار وخواطر سرعان ما أطردها من رأسي ، وهي أن أقوم بعمل ينفرهم

مني ، أن أكون سبباً في تأزم علاقتهم مع دولة أخرى ، أن أمارس شيئاً يتنافى مع تقاليد مدينتهم ، ويسيء إلى نظامها ، حتى أجعلهم مرغمين على القبول بإعفائي من هذه المهمة . وكنت أطرد هذه الأفكار خشية أن يتحول هذا اللعب إلى كارثة تدمر المدينة ، وأشعر بالذعر من ذلك الكائن الذي تلوث بهواء القرن العشرين ، واقتات أربعين عاماً على موائده ، وأخشى أن ينتصر في نفسي ، ويفلح في تقويض هذا البناء المصنوع من مادة مخملية بالغة الرهافة والحساسية .

لم أكن قد تجاوزت في جولاتي مركز المدينة وأحوازها وضياعها القريبة ، ولم أكن طوال هذه المدة قد خرجت إلى الغابة التي ترتمي خلف الجبل ، حتى جاءت نرجس القلوب تقترح أن نعيد إحياء تقاليد رحلة الصيد التي يقوم بها الأمير مرة كل أسبوعين إلى الغابة ، فقد تعطل هذا التقليد منذ رحيل الأمير السابق ، ولأنني أجهل هذه الرياضة ، فقد اقتضى الأمر أن أتلقى تدريباً ومراناً ودروساً في الرماية وركوب الخيل على أيدي الرجال المشتغلين بالصيد . وجاء بعد أيام موعد أول رحلة صيد أقوم بها . كان افتتاح الموسم مناسبة للاحتفال والمواكب الرسمية ، احتشد في باحة القصر عدد من راكبي الجياد وحاملي السهام والرماح والحراب الذين جاءوا بكلاب الصيد وصقوره . جلست فوق الجواد انتظر بداية المسير ، وارتدي لباس الصيد المصنوع من جلود الحيوانات ، وأملأ كنانتي بالسهام ، وأحمل على كتفي قوس الرماية ، وبجواري نرجس القلوب تمتطي جواداً تداعب عنقه ، وتربت على كتفيه ، وتبتسم لي مشجعة وهي تراني أتهيب هذه المغامرة . وجاء فريق من ضاربي الطبول ، يتقدمون موكبنا ، ونحن نباشر رحلتنا ، ونجتاز شوارع المدينة ، ثم نمرق عبر الحقول ، حتى نصل إلى بيت عند سفح الجبل ، قريباً من الشلالات ، يستعملونه استراحة ومخزناً لحاجيات الصيد . تزود الموكب بالمؤن وأواني الطبخ وقرب الماء ، وانضم إلى ركبنا عدد آخر من أهل المدينة ممن جاءوا للمشاركة في الرحلة . توقف ضاربو الطبول عن مصاحبتنا ، وانطلقت الجياد تجتاز بنا شعباً وممرات جبلية كثيرة الوعورة ، ترتفع وتنخفض ، تصعد بنا حيناً وتهبط حيناً ، حتى توغلنا في الجزء المنبسط من الغابة الذي اختاروه مكاناً للصيد هذه

المرة . لم تكن الغابة سوى حديقة حيوانات طبيعية بما فيها من غزلان ووعول وأرانب وثعالب ، وما تمتلئ به أشجارها من طيور وأعشاش ، وما يتسلق جذوعها وأغصانها من قرود ، وما يسكن بحيراتها الصغيرة من أفراس البحر ، وما يقفز من حقاف أرضها من سحالي وسناجب وجرذان . لم يكن يهمني كثيراً أن أبدي براعة في الرماية ، ولكن الصيادين الذين يرافقونني ، ويشرفون على تدريبي ، كانوا يبدون حماساً كبيراً لتشجيعي ، وكنت أرى الواحد منهم يراقبني وأنا أرمي سهماً باتجاه أرنب هارب . يذهب السهم طائشاً ولكن الأرنب يسقط مصاباً . أعرف أن سهماً غير سهمي أصابه ، برغم ما بدا للآخرين من أنني أنا الذي أصبته . ولأنها أول رحلة صيد يأخذونني إليها ، فقد اختاروا البقاء في هذا الطرف من الغابة ، ولم يتوغلوا عميقاً في أدغالها البعيدة . إن وحوشاً أكثر شراسة وافتراساً ، مثل النمور والأسود والفهود والضباع والذئاب التي نسمع أحياناً زئيرها وعواءها ، تسكن تلك المناطق الكثيفة التي تتحول فيها الأشجار إلى جدار لا يقدر على اختراقه إلا أهل الحرفة . اعتبرناه يوم نزهة واستمتاع بالطبيعة . أشعلنا ناراً ، وقمنا بطهي وشواء العديد من الفرائس التي اصطدناها . لم أكتف بمتعة الصيد ، وإنما وجدت متعة أخرى في الإنصات إلى هذا النشيد الصاخب الذي تعزفه الطيور ، واكتشاف أنواع منها لها ريش ملون وتيجان مخضبة ومناقير حمراء ، والعثور على نباتات ذات براعم تضيء كالفوسفور ، وزهور تختلط في أوراق الواحدة منها كل ألوان الطيف ، وأنواع متوحشة من الفطريات ذات أحجام بالغة الضخامة ، وكانت أشجار البلوط قد ابتنت لنفسها قصراً في الغابة ، حيث تشابكت أعرافها بمثل ما تشابكت عروقها النافرة فوق الأرض تصنع ردهات وأروقة . عدنا في المساء من رحلتنا ونزلنا عند الاستراحة نتقاسم أقداح النبيذ ، شكرت الصيادين على مابذلوه من جهد في تلقيني أسرار مهنتهم ، وعدت مع الأميرة إلى القصر ، وقد أصبح الذهاب إلى الصيد موعداً أنتظر بلهفة مجيئه ، وأرى أنه أدخل نكهة جديدة على حياتي ، وأضاف إليها شيئاً من الإثارة والمغامرة والانطلاق ، أكسر به رتابة الروتين اليومي . لم تعد رحلة الصيد تقتضي المواكب

والاحتفالات والطبول ، كما هو الحال في المرة الأولى . إنه يوم للراحة والنزهة والرياضة . يأتي موعده فأذهب مع الأميرة إلى الاستراحة ، حيث نحتفظ هناك بعدة الصيد وسلاحه ولباسه ، ونلتقي بعدد من الصيادين الذين يصطحبون الكلاب والصقور وطيور الباز المدربة على مطاردة الفرائس . نمضى معهم سعداء بما يتيحه الرحيل في الغابة من اتصال بالطبيعة في أكثر أطوارها بدائية ، وأكثر مناطقها بكارة ، وقد جاء الصيف ينضج ثمار أشجارها ، ويضيف ألواناً أخرى إلى ألوانها ، وتتحرر بعض الطيور من ريشها القديم ، فيتناثر فوق أرض الغابة وكأنه بديل لزهور الربيع التي انقضى أوانها . وأرى نرجس القلوب لا تتخلى عن سمت الأميرة ومظهرها ، فأسألها أحياناً أن تنسى أنها الأميرة لكي تستطيع أن تنطلق على سجيتها . كنت في الحقيقة أعبر بذلك عن أمنية سرية ، وهي أن أرى بدور قد حلت في شخصية الأميرة ، وأضافت إليها شيئاً من روحها المنطلقة الهازئة بالتقاليد . سيعفيني ذلك من عناء هذه العواطف المتصارعة في صدري نحو المرأتين . ولكن الأميرة تضحك قائلة :

- هكذا خلقت ونشأت ، ولم يعد بإمكاني أن استبدل أبي وأمي .

قلت في خاطري ، ولكن أمي لم تكن إلا امرأة جاهلة فقيرة تحترف البكاء ، وأبي قضى عمره ماشياً فوق حقول الألغام ، فبأي حق أسأل هذه الأميرة أن تكون مثلي .

- معذرة لأنني لم أصنع من القماشة التي صنع منها الأمراء .

تظنني الأميرة أشكو ماضياً لا تعرفه ، فتعيدني إلى بهاء اللحظة التي أعيشها ، وأنا أجلس معها في غرفة نوم تغطيها أجنحة الملائكة ، وتقول بلهجة عتاب حانية وحنونة :

- ألست سعيداً؟

نعم ، هذا هو جوهر القضية . كيف أجرؤ على القول بأنني لست سعيداً وأنا الذي طرحت خلفي عالماً مسقوفاً بالأجنحة السوداء ونفذت إلى مدينة تشبه غمامة من العطر . إنني أكثر سكان هذه المدينة قدره على رؤية النور الذي أشرق

فوق جباه مبانيها ، لأنني عرفت ما يناقضها ، ورأيت مدن الرماد والقصدير التي جئت هارباً منها ، ولذلك فإنني لا أستطيع إلا أن أكون سعيداً ، وما الصحبة التي تقدمها لي أميرة مضيئة ، وشهية مثلها إلا بهجة دائمة ورحيق يرتشف منه القلب ولا يرتوي ، حتى السويعات التي أقضيها عاملاً زراعياً يغرس المشاتل ويجني المحاصيل ، تحولت إلى نزهة أتشوق إليها ، لأنني تعلمت كيف أن الأزهار في بواكير الصباح ، تكون أكثر قدرة على نفح أريجها ، الذي يصنع خيمة من العطر تظللني . وإذا ما مارست عواطفي ترفاً في التخير بين هذه الأميرة الناعمة كأوراق نرجسة مغموسة في الندي ، وبين صبية أخرى لها انطلاق الوعول وحبها للركض في حدائق الفجر ، فما ذلك إلا لأنني أحمل نهماً للاغتراف من ينابيع النور والفتنه التي أضناني الرحيل إليها ، وأجد في الارتواء منها ، تعويضاً لكل سنوات الأمحال والمسغبة . قلت لها بأن الحياة معهم ليست إلا نزهة عبر حقول الفرح . وإذا كانت كتب الحكمة تقول بأنه لا سعيد في مدينة الأشقياء ، فإنني لا أتصور أن يكون الإنسان حزيناً وسط بشر سعداء . إنني سعيد وأريدها أن تكون هي أيضاً سعيدة ، متألقة على الدوام ، مثل نجمة تضيء السماء .

- إذن ما رأيك في أن أمنحك سبباً آخر للسعادة؟ .
- كما أن البحر لا يكره المزيد من الماء ، فالقلب لا يكره المزيد من السعادة .
- ستصير قريباً أباً .
- هل حقاً ما تقولين؟
- نعم فأنا حبلى منذ أسبوع مضى ، ولم أشأ أن أخبرك قبل أن أرى الطبيب حسان ، وأتأكد من ذلك .
- وهل تقضي التقاليد بإرسال المنادين لإخبار الناس؟
- ليس قبل خروج المولود إلى الحياة .

مولود في قصر الأمير . سعيدة هي بالجنين الذي يتكون في بطنها ، ومن واجبي أن أكون سعيداً مثلها . بقيت ساهماً لا أضيف شيئاً . استمعت إليها بمثل ما أستمع إلى أية امرأة أخرى تتحدث عن طفل سوف تنجبه ، وتلقيت الخبر

بمشاعر حيادية ، ليس فيها فرح أو حزن . إنني أحتاج إلى بعض الوقت لكي أستوعب هذا الخبر ، وأبحث في ذاكرتي عما يعنيه أن يكون لي طفل في مدينة عقد المرجان . إنني أعيش هنا بإحساس من يعيش حياة مؤقتة ، حياة رجل طارئ على هذه المدينة . ها أنا أصبح فيها أباً لطفل يسبق ميلاده ميلادي ، ويسبق تاريخه تاريخي ، مفارقة تضاف إلى مفارقات هذه الرحلة . طفل يؤسسني ويصنع لي جذوراً ويجعل انتمائي الطارئ انتماء ثابتاً وأصيلاً . طفل يولد في قصر أميري . لن يقول ما قلته أنا عن أصلي وقماشتي التي لم تصنع من قماشة الأمراء . وبمثل ما جاءني في سنوات العمر الماضية طفل وهبته لوطن ليس وطني ، فها أنذا أجد نفسي مرة أخرى أباً لطفل أهبه لهذا العصر ، وهذه المدينة التي سقطت في جيب من جيوب الزمن فما عادت تعبأ بتقادم العصور ، في حين لم أفلح في إنجاب طفل في وطني وبين من يعتبرهم الناس أهلي حتى اعتقدوا بعقمي فلم يعد أحد ينتظر ذرية تحمل اسمي ، وتصنع لي امتداداً في الزمن الآتي . هل أستطيع أن أفرح الآن بمجيء هذا الطفل؟ وهل تراني سأبقى مقيماً في هذه المدينة حتى أراه يظهر للوجود ، وأستمتع بمراقبته وهو ينمو ويدرج فوق الأرض ، واستمع إلى أولى الكلمات التي يقولها ، وأزهو به يناديني بأبيه . هل ستبقي هذه المدينة حلماً لا يتبخر في الهواء ، ولا يلحقها ما يلحق الأحلام من التلاشي والذوبان؟ علمتني بعض أيام العمر أن الأشياء الجميلة لا تدوم ، فهل حقاً ستدوم أيام هذه النعمة . نظرت إلى نرجس القلوب فرأيت وجهها يطفح بالسعادة ، غارقة في أحلام امرأة تكتشف الآن أمومتها ، مرحلة أخرى لا بد أنها أكثر إثارة من تلك المرحلة الأولى التي تكتشف فيها المرأة أنوثتها . تذكرت أن المواليد في بيوت الأمراء ليسوا كمواليد البيوت الأخرى . إن ألف ليلة وليلة عامرة بالحكايات التي تتحدث عن عذاب الملوك والأمراء الذين يحرمون من الإنجاب فينسون مباهج الحكم ويصرفون وقتهم في البحث عن علاج للقعم والجري وراء السحرة والمنجمين وإرسال المبعوثين إلى أقاصي الأرض طلباً لمعجزة تمنحهم الخصوبة والولد . وها قد تحقق لي هذا المطلب دونما عناء ، وجاءني الطفل الذي

يحفظ في المدينة ذكري ويكون أميراً من بعدي بحسب ما تقتضيه تقاليد الحكم التي تتيح هذا الحق لابن الرجل القادم من الصحراء باعتبار أنه سيرث شيئاً من أسرار وكرامات أبيه ، فإذا انتهى عهده ، سقط هذا الحق عن أبنائه ، وخرج أهل المدينة إلى الصحراء بانتظار رجل من أهل الله ، يجدد تواصلهم مع عالم الأسرار وقوة الروح . فكيف لا أكون سعيداً سعادة أولئك الملوك بأبنائهم . إنها إمارة لم أطلبها ، وحكماً لم أؤسسه بالحروب والفتوحات التي يؤسس بها الملوك حكماً يورثونه لأبنائهم ، ولكن سعادتي بالطفل لا يجب أن تكون لمجرد أنه ولد في قصر الأمير ، إنه ابني ، ومن حقي وواجبي أن أسعد به كما يسعد الآباء بأبنائهم ، بمعزل عن أي اعتبار آخر . رأتني الأميرة غارقاً في التفكير فسألتني عما يشغلني .

– أفكر بالاسم الذي نسمي به طفلنا ، سأقترح له اسماً إن كان ولداً ، وتقترحين أنت الاسم إن كان بنتاً .

– وهل وجدت اسماً مناسباً؟

– سأسميه باسمي الذي ضاع تحت الألقاب الأميرية ، خليل . وماذا عن أسماء البنات؟

– سأختار لها اسماً من أسماء الزهور .

– نعم . اسماً يشبه اسمك ، ويكون لائقاً بها كما كان النرجس لائقاً بك .

عدت مرة أخرى إلى التفكير وعادت هي إلى السؤال .

– انتهينا من الاسم فما الذي يشغل بالك؟

– تشغله هذه المفارقات التي تجعل من رجل عاش فقيراً مثل والدي ينجب سلالة من الأمراء يولدون قبل عصره .

لم يعد الحديث عن العصر الذي جئت منه يفزعها ، بعد أن أقنعها جلال الدين بتفسيراته . وضاحكة من هذا الحديث المتكرر عن أصلي المتواضع ، أخبرتني بأنها أيضاً تنتمي في أصولها إلى أسرة بسيطة أكثر فقراً من أسرتي . وهي وإن ولدت في هذا القصر لأب ورث الإمارة ، إلا أن جدها لم يكن إلا رجلاً صوفياً من فقراء الناس يجوب الآفاق بأسماله البالية ، يتلو تسابيحه ، ويهيم مع

تأملاته ، يبشر برسالة المحبة والتجلي الإلهي وحلول الخالق في المخلوق ووحدة الجوهر المؤسس لكل العقائد الدينية . خرج هارباً ، مطارداً من أمير بلاده ، الذي أرسل وراءه الجلاوزة والسيافين بغية قتله ، ولجأ إلى صحراء الأخاديد السود وطيور الافتراس وثعابين النار . جاءوا يطاردونه في الصحراء ، فكان مصيرهم الهلاك ، ومصيره النجاة ، وبقي عاماً كاملاً تائهاً في تلك البيداء ، يتغذي بحشائش الأرض ، حتى وصل منهكاً ، مريضاً ، إلى أبواب هذه المدينة ، بعد أشهر من وفاة أميرها . كان رافضاً للإمارة ، ولكنه عندما وجد أنها التزام لا مناص منه ولا يتعارض مع ما يريده لنفسه من نسك وزهد وتصوف ، مضى في الإصلاح وهداية الناس . كان أهل المدينة مازالوا في ذلك الوقت يعبدون القمر باعتباره رمزاً للنور والخلاص وتجلياً لجمال إله الكون ومبدعه ، فصرف جهده من أجل هدايتهم إلى الله وإقناعهم بالاتجاه إليه فهو رب القمر والشمس والنجوم وما حوى الكون من ظلمة وضياء وأرض وسماء . وهو الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ، وليس بجسم ولا صورة ولا جوهر ولا عرض . فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، لا يبصر نوره إلا من نظر في نفسه وكان قادراً على استخلاص الحكمة من وجوده والاهتداء إلى الشعلة الإلهية في ذاته . كانوا يقيمون الصلاة للقمر وينشئون الأديرة لعبادته ، فتحولت تلك الأديرة إلى مدارس ومصحات للعلاج . كان رجلاً صاحب كشف وإشراقات وتجليات ، يؤمن بوحدة الوجود وروح الله المبثوثة في كل مظاهر الحياة وعناصر الطبيعة ، ويري أن العبادة ليست إلا حب الذات الإلهية ومعرفة الحقيقة العليا ، وكان مسلماً يؤمن بوحدة الأديان ، فعلّمهم أن الأديان مختلفة في ظاهرها متفقة في جوهرها ، تصدر عن تصور واحد وتتجه إلى إله واحد . وحبب إليهم القيام بتلك الرياضة الروحية التي يؤدونها مع تلاوة سورة الفاتحة كل صباح . آمن به الناس وأحبوه واعتبروه نبياً لكنه حارب هذه الفكرة ، ومنعهم من ذكر اسمه بهذه الصفة ، أو التبرك به ، أو منحه ألقاباً غير اللقب الذي يسمون به كل أمير جاء عن طريق الصحراء وهو «سالك الدرب» . وعندما مات بعد أن عاش طويلاً ، دفن في مكان مجهول حسب وصيته ، لكي لا يبقى قبره

مزاراً يشغل الناس عن الاهتمام بأنفسهم ، والبحث عن الحقيقة في أعماق ذاتهم . انقرضت ديانة القمر وتحولت إلى تراث شعبي ، وظل أهل المدينة يحتفظون بأكبر احتفالاتهم لأعياد القمر ويكثرون من الغناء حوله والقيام بالرقصات الاحتفالية والطقوسية عند اكتمال استدارته ، كما تكثر الأساطير التي تدور حلو عوالمه والكائنات التي تسكنه ، ويتفاءلون بمنظره عندما يقترب من الأرض ويعتبرون ذلك فألاً طيباً ووقتاً ملائماً للإخصاب . لم أقل للأميرة أن القمر ليس كوكباً مضيئاً يضج بالكائنات الجميلة كما يظنون ، وأنني شخصياً شاهدت من خلال الصور المنقولة عبر الأقمار الصناعية بشراً من أبناء عالمنا يسافرون إليه ويمشون فوقه وهم يتنفسون هواء معبأ في علب يحملونها معهم لأن القمر ليس إلا كوكباً منطفئاً مظلماً خالياً من الحياة ، لا هواء فيه ولا ماء وإنما أرض بركانية قاتمة السواد . لم أقل لها ذلك لأنني أعرف أن كلاماً مثل هذا سوف يفزعها ، وقد تخرج هاربة موقنة بجنوني . ثم من قال أن القمر الأسود الذي زارته مراكب الفضاء ، يجب أن يكون نفياً وإلغاءً للقمر الذي نراه من فوق الأرض مضيئاً وجميلاً ، عامراً بالأطياف والرؤى . سوف لن أضيف شيئاً يثري حياتهم بمثل هذا الحديث ، وإذا كان الرجل الصوفي الذي جاء تائهاً مثلي قد استطاع أن يهديهم إلى نور الله ، فلأترك أنا هذا الهذيان عن العصر الذي جئت منه طالما أنني لا أستطيع أن أضيف بهاءً إلى هذا البهاء .

قلت للأميرة متسائلاً :

– ماذا لو حمل الطريق الصحراوي مجرماً أو مجنوناً ، فهل كنت ستقبلون به أميراً؟

– لا أحد يستطيع أن يجتاز تلك الصحراء إلا رجل وصل مرحلة الشفافية نقاءً وصفاءً ، وسرى فوق الأرض مثل الصوت والضوء والهواء .

ولكنني وعاء مثقل بالخطايا ، ومملوء بكثافة زمن عمره ألف عام ، فكيف تحررت من طبيعتي الترابية ونفذت مثل الضوء إلى مدينتهم . إنهم يثقون بحكمة الأقدار ، فلماذا لا أثق أنا أيضاً بحكمتها ، التي طفت بي فوق الأخاديد وأودية

الجن .

صار على نرجس القلوب منذ هذا التاريخ أن تتبع نظاماً يختلف عن نظام حياتها قبل الحمل . تحررت شيئاً فشيئاً من واجب العمل بحدائق الورد ، أو مرافقتي أثناء الزيارات وحضور الاحتفالات والمراسم . وجاءت امرأة تعمل بالتمريض ترافقها طوال الوقت وتعتني بإعداد الطعام الذي يناسبها ، كما جاء الحكيم حسان يعالج بأعشابه ما يلم بها من أمراض الوحم ، ويتابع نمو الجنين تحسباً لأية أعراض طارئة .

توقفت أيضاً رحلات الصيد تجنباً لمستنقعات الغابة وأرضها الرخوة الموحلة ، بعد أن بدأ الخريف يرسل أولى أمطاره التي تصنع غدراناً تملأ الطرق الجبلية المؤدية إليها ، وبذلك حرمت من هذه الرياضة التي كانت تمنح أيامي لوناً جديداً مغايراً . صرت أذهب بمفردي إلى حضور الاحتفالات وملاقاة الناس في أعيادهم المسائية ، وأبحث عن الإسكافي جلال الدين في دكانه لكي يرافقني فأجده غائباً ، وأعرف حينئذ أنه صار يصرف أغلب وقته مع الحرفيين ، سعياً وراء آلة يستعيرها من منجزات القرن العشرين .

قلت له أثناء زيارته إلى القصر ، ونحن نجلس بإحدى الشرفات المطلة على ركن تأوي إليه الطواويس :

– لماذا تخليتم عن شعار له كل هذا الجمال والبهاء؟

– لأن مظاهر الأشياء لا تكون بديلاً عن الجوهر فإلى ذلك الجوهر يجب أن تتجه العقول والقلوب والأبصار .

– إذن فقد كان ذلك جزءاً من التحول عن العبادات والشعائر القديمة .

– كان جزءاً من التحول عن الانشغال بالخارج إلى الانشغال بالداخل . من البحث عن النور والحقيقة والبهاء خارج الإنسان ، إلى البحث عن هذه القيم والمعاني داخل الإنسان .

– أليس الشعار رابطة يتوحد حولها الناس؟

– وما حاجة هؤلاء الناس إلى شعار طالما اهتدوا إلى وشائج أكثر عمقاً ، تكمن

في نفوسهم ، وتربط بينهم .

رأيت أنه وقت مناسب لأن أسأله عن هذه المهنة التي اختارها ، فقد بدا غريباً أن يكون الرجل الذي كرس حياته لإغناء العقول وتقديم المشورة للأمراء وتربية أبنائهم ، صاحب مهنة تهتم بأقدام الناس ونعالهم .

- إنك تعمل بالتوجيه والتربية وشؤون السياسة ، فلماذا صنع الأحذية؟

- إنها حرفة لم أخترها وإنما تعلمتها عن والدي ، الذي تعلمها عن والده ، فصرت أشغل بها وقتي ، وأنتج بها شيئاً ينفع الناس ، وأسدد به ديني لهم ، فاليد العاطلة لا يحبها الله .

نعم ، قلت لنفسي ، إن الإنسان يحتاج إلى حذاء يضع قدمه فيه قبل أن يذهب إلى المدرسة ، فالأولوية للحذاء .

- إنك لم تر المشغل الذي يعمل به الحرفيون .

لا بد أن صنع الأحذية أتعبه وأضناه فأراد أن يصنع للناس وسيلة أخرى يستخدمونها في السير غير نعالهم . إنها ليست المرة الأولى التي يدعونني فيها إلى زيارة المشغل ولكنني لم أشأ أن أسمح له بتوريطي في قضية أعرف مسبقاً أنها لن تثمر شيئاً ذا جدوى .

- إنهم يعملون بهمة عالية . تفشل تجربة فيبدؤون بغيرها دون أن ينال ذلك من عزيمتهم .

لم أقل له أن نتائج عملهم بدأت تظهر واضحة لكل أهل المدينة ، فثمة قناطر تحتاج إلى ترميم لم يعد هناك من يرممها ، وأبنية انتهى البناؤون من إشادتها لم تجد من يصنع لها الشبابيك والأبواب وشبكات الماء ، فظلت ناقصة لا يستطيع أحد أن يسكنها بعد أن تفرغ هؤلاء المهنيون لمشروعه الوهمي .

- تعلم أنني منذ البداية لم أكن متفائلاً .

- لن نخسر شيئاً بالمحاولة .

- ولن نستفيد شيئاً .

رأيته صامتاً ينظر إلى طاووس نفش ذيله وذهب يخاصم طاووساً آخر ،

فأدركت أنه لم يسترح لكلماتي . صار المشروع حلماً لاصقاً بقلبه لصوق الأهداب بالعين ولن يتخلى عنه حتى لو تقوضت كل أبنية المدينة دون أن تجد من يصلحها . بهره العالم الذي أخبرته عنه فصار مهووساً بما يمكن أن يحققه العقل البشري من إنجاز ، وسعي لأن يقدم شيئاً جديداً يضيفه إلى مكتسبات هذه المدينة التي يعمل حارساً لنظامها وحاملاً لتراث العلماء الذين حققوا نهضتها وازدهارها . أعلم جيداً أن ما يلهب حماسه إن هو إلا توق الإنسان إلى المعرفة وطموحه إلى تحقيق المعجزة ورغبته في تقليد الآلهة . إذ من أين لهذا الشيخ الذي لم ير ما رأيت أن يعرف تلك القوة الخفية التي تتلقف إنجازات العلماء فتحولها باتجاه يناقض الحلم الذي كان وراء إنجازها . إنه أنا الذي رأى وعرف وعايش ذلك العصر الذي يبدأ بالعلم وينتهي إليه ، وآمن بالعلم أكثر مما آمن به هذا الشيخ ، من يأتي الآن لتحذيره من هذا كله . صرت أعرف الآن أن هناك كوة في الكون يأتي منها هواء فاسد يلوث الأحلام ويسخر من جهود العلماء . وأعرف أن رجل العلم الذي أسهم في إنجاز المكتشفات التقنية التي صنعت السيارة والطائرة والعقل الآلي ، أو ذلك الذي فلق الذرة واخترق قوانين الجاذبية وتفوق بسرعة الآلة على سرعة الصوت ، لم يكن يفكر أن لاختراعه نتائج أخرى غير تلك النتائج التي حلم بها واعتقد أنها تفتح آفاقاً أمام تطور الإنسان وتدرجه الحضاري وتحقيق سعادته فوق الأرض ، لا أن تكون باباً مفتوحاً على الجحيم . إنني متطير من هذا الحماس الذي يبديه الشيخ ، وأضع يدي فوق قلبي خوفاً على هذه المدينة من نتائج تفكيره ، ولا يريحني سوى شيء واحد وهو يقيني بأنه لن يحقق ما يسعى إليه لأن للثورة الصناعية ميقاتاً تأخر عن هذا الرجل أكثر من سبعمائة عام . تركته يذهب إلى عماله ومضيت متجولاً في الحقول أستمتع بمراقبة ما يحدثه الخريف من تحولات فوق أوراق الشجر وأعواد القصب والخيزران . جلست على ضفاف البحيرة ، فرأيت ياقوتاً الشاعر ينبثق فجأة أمامي وكأنه خرج من ماء البحيرة ، سألته مداعباً إن كان قد جاء إلى هذا المكان ماشياً فوق الماء فلم أنتبه إليه . قال وكأنه أخذ كلامي على محمل الجد :

- تلك مرتبة لم أصل إليها بعد .

- وهل تطمح بالوصول إليها؟

- قريباً بإذن الله ، فأنا موعود بذلك .

- ومن تراه الذي وعدك بتحقيق هذه المعجزة؟

- شيخي وأستاذي ودليلي الذي لم أستطع معه صبراً .

لعله اهتدى إلى سيدنا الخضر الذي لا يهتدي إليه إلا من ولد وقد رسم على قلبه خاتم الأسرار والنبوءات .

- ولماذا لم تستطع معه صبراً؟

- رأيته ينتزع العسل من فم الثعبان ويدعوني لأن أشاركه هذا الطعام فترددت . تركني غاضباً ومضى .

- وهل وعدك قبل أن يمضي بأنك سوف تمشي فوق الماء؟

- وعدني بأن يمنحني كل أسراره عندما يكتمل استعدادي لذلك وها أنا أحاول .

- كيف؟

- بإتقان العزف على الناي واستلهام النغمات الذائبة في الفضاء الكوني ، فبهذا وحده أستطيع أن أقيس ما وصلت إليه من صفاء وما حققته في مدارج الإبداع والإلهام . هذه كانت إرشاداته عندما علمني العزف على الناي .

- أعترف بأن لعزفك سحراً على القلوب .

- هذا وحده لا يكفي .

- وهل هناك ما هو أبعد من ذلك؟

- أريد أن أكون مثله . إنه يعزف للأشجار فتحمل جذورها وتسير وراءه .

- هل رأيته بنفسك يفعل ذلك؟

- رأيته يفعل أكثر من ذلك . رأيته يعزف للصخور فتنبت أزهاراً ترقص وتغني .

- ما أعظم شوقي لأن أرى مثل هذا الرجل .

- إنه لا يظهر لكل الناس ، ولن تراه إلا إذا أرادك هو أن تراه .

بدأت أصدق أن من يتحدث عنه هو سيدنا الخضر ، وأنه اختار هذه المدينة مكاناً لإقامته . فهتفت بالشاعر أن يخبرني ماذا يمكن أن أفعل لأكون جديراً برؤيته . .

- أشياء بسيطة في متناول كل إنسان أن يفعلها . هل فكرت أن تحمي فراشة غشيمه يبهرها اللهب ، من الاحتراق بنار موقدك؟

كنت أريد أن أعرف منه المزيد عن هذا النبي الذي عاش طافياً فوق مياه الزمان ، ولكن ياقوتاً الشاعر قال جملته الأخيرة واختفى خلف أشجار الصفصاف . وجدت نفسي وحيداً في ذات المكان الذي تعودت أن أنتظر فيه بدور وقد رفرف طيفها يملأ الذاكرة . تشوقت دائماً إليها ، وعذبني الحنين لرؤية عينيها ، وكنت أمنع نفسي من التفكير بها وأهرب بمشاعري إلى الأميرة أحتمي بها من هذا الضعف الذي جئت أحمله معي من عالم لم يولد بعد ، فلقد كانت دائماً بجواري تملأ ببهجة حضورها كل الفراغات إلى أن جاء الحمل يمنعها من مرافقتي في هذه الجولات . تذكرت بأنني أعطيت وعداً لوالدي بدور بأن أزورهما . أفرحني هذا الوعد الذي كدت أنساه ، فهو ذريعة مقنعة تتيح لي أن أطفئ شوق البصر إلى رؤيتها . لا بد أن أراها ، وسوف تكفيني دقيقة واحدة ، لا أريد أكثر منها ، لأعود إلى بيتي سعيداً راضياً . إنها تتعشق أن تنجب طفلاً يرث أسراري وكراماتي ، ولكنني سأعمل بنصيحة ياقوت الشاعر وسأحمي هذه الفراشة الغشيمة ، البريئة ، التي يبهرها اللهب الكاذب لمعجزة لا وجود لها ، من الاحتراق في نار موقدي . وسريعاً ولجت الدرب الذي يقود إلى منزلها ، أكاد أركض ركضاً لكي لا ينتصر هذا الخاطر الذي يحذرني من خطورة العودة إليها . لم تكن بدور قد عادت إلى البيت عندما دخلت إليه محفوفاً بحفاوة والديها . أحسست بشيء من الارتياح لأنني لم أجدها . إن لها جمالاً لا أمان له ، وقد يفتك بي هذه المرة أيضاً . جلست قليلاً ثم نظرت في ساعتي تمهيداً لأن أطلب الإذن . لم تكن هناك ساعة في معصم يدي ولكنها عادة لم أستطع أن أتخلص منها حتى ظن عمال

بساتين القصر أنني أملك خاتماً موشوماً بصبغة سرية على ظهر يدي أنظر إليه دائماً وأستعين به على قضاء حوائجي . وما أن وقفت مودعاً حتى رأيتها مقبلة . في الحق أنني رأيتها قبل أن أراها ، وتوتر جسمي كله استعداداً لمجيئها قبل أن تأتي ، كأن هناك تياراً يسبقها ويصنع هذه الارتجافة التي هزت بدني ، أقبلت بدور تعانقني وهي تطلق ضحكتها ذات الرنين ، التي تكشف بهاء الغمازتين المغموستين في دسامة الوجه . أتنسم عبيرها وأرى السحر الهاجع تحت جفونها فأعرف أنها هي اللهب وما أنا إلا أجنحة فراشة تحترق . أسمعها تسألني إن كنت قد أخذت إجازة كما فعلت في المرة الأولى لأعيش أياماً معها . أقول متعجلاً الهروب ، بأنني ما جئت إلا للتحية ، فلا تتركني حتى تتفق معي على موعد في اليوم التالي ، قائلة بأنها أتقنت العزف على العود ، كما أتقنت معرفة المقامات الصوتية ، وسوف تريني ما وصلت إليه من مهار ة في العزف والغناء .

اخترت استراحة الصيد مكاناً للقائنا ، فهو بيت بعيد عن المدينة ، يحتمي بعزلته وأشجاره ، وقد أصبح الآن خالياً إلا من نوتي عجوز يتولى رعايته ، ويتخذ منه مسكناً بعد أن توقف موسم الصيد .

جاء الموعد وذهبت إلى هناك .

بدأ النهار ممطراً فانتظرت حتى توقف المطر واتخذت طريقي إلى ذلك البيت الذي يهجع تحت أقدام الجبل . في السماء شمس حنونة وفي الجو برودة منعشة . مشيت فوق العشب أستقبل الشذا الذي يصنعه الطل وهو يغطي الأرض والشجر ، واقتربت أفتش عن مدخل البيت الذي كان ديراً قديماً لعبادة القمر قبل أن يتحول إلى استراحة صيد . تشابكت حوله السراخس والزنابق والدوالي وأشجار اللبلاب وصنعت له غلافاً أخضر يغطي جدرانه كلها . وجدت النوتي الشيخ منهمكاً في إصلاح أحد الأشرعة وإكسائه بالقماش . سأل عن الخدمة التي يمكن أن يقدمها ، فقلت له بأنني جئت لكي أتأمل الطبيعة من شرفة البيت . أخذت من مخزن التموين قارورة نبيذ وصعدت إلى شرفة بالطابق العلوي . أخرجت مقعدين مصنوعين من سعف النخيل ، وجلست أتأمل

الأعراس التي تقام في سقف الكون . أنعكست أشعة الشمس على السماء التي رشحت دمعاً كثيراً ، فصنعت قوس قزح كثير الإشراق والبهاء . امتص العناصر الملتهبة في ضوء الشمس ، واحتوى كل الألوان وبرز الأخضر والأزرق والبنفسجي ، ومن حوله السحب المرشوشة بمسحوق الفضة وغبار الذهب تصنع بهواً في السماء يليق بجلال الآلهة .

كان المقعد بجواري فارغاً .

وكان المشهد ناقصاً ، حتى جاءت بدور تملأ هذا الفراغ وتصبح محوراً لهذا الجمال والتقاء عناصره حولها . جاءت تحمل حقيبة وضعتها بجوارها وجلست تقاسمني الشراب . رأتني مأخوذاً بمهرجان الألوان الذي يضج به الأفق ، فأخبرتني كيف أن الناس يتفاءلون بظهور هذا القوس المضيء ، ويخرجون لرؤيته ، ويتأملون ألوانه التي تفيد البصر وتمنحه قوة وجلاء . وبصمت وهدوء ، كأنها تؤدي شعيرة دينية ، فتحت الحقيبة ، وأخرجت عوداً مرصعاً بالأصداف ، وضعته بحنان فوق حجرها ، وداعبت أوتاره بريشة من جناح طائر أزرق ، وبدأت ترسل عزفها وغناءها . علقت بصري بمشاهد الطبيعة وأرهفت سمعي للغناء الذي ينثال عذباً شجياً كأنه يأتي منداحاً مع الضوء ، وممزوجاً بألوان الطيف . أحسست بنفسي ثملاً ، منتشياً بنشوة لا تصنعها إلا أقداح مترعة بخمر الآلهة . نظرت إلى جبينها وعينيها وحاجبيها وأنفها وفمها وغمازتيها ، وانثيال غدائر الشعر الفاحم السواد على كتفيها ، أملأ بصري من بهائها وهي تغني باستغراق وانفعال كأنها في رحلة وجد صوفي . أيقنت أنني عاشق لهذه الأنثى التي تلثم وجهها أضواء ذهبية تنسكب من نوافذ السماء . وضعت العود جانباً فصفقت لها ، وقبلت جبينها لاهجاً بالثناء على روح الإبداع التي تجلت في كل مقطع من عزفها وغنائها . جاء النوتي الشيخ مسحوراً بما تناهى إليه من غناء ، يحمل في يده طبقاً من السمك المشوي ، الذي يفوح برائحة الحبق والكمون ، وينظر ساهماً إلى بدور . كان واضحاً أنه ما جاء بهذا الصحن إلا ليكون ذريعة يقتحم بها خلوتنا ، ويشاهد هذه المرأة التي تملك صوتاً يضوع كالعبير . فتحت الرائحة شهيتي للطعام فأخذت منه الطبق

شاكراً . سألتني بدور ونحن نتناول السمك أن أخبرها عن حياتي في القصر ومجالس الحكم وما نفعله في رحلة الصيد ، أفهمتها أن أهم ما أقوم به هو العمل بستانياً ومزارعاً في حدائق القصر ، وسمعتها تذكر اسم نرجس القلوب فقاطعتها قبل أن تكمل السؤال ، أطلب منها وقد انتهى الطعام ، أن تزيدني من هذا الغناء الذي لا ترتوي منه الأذن . رأيتها هذه المرة تعزف لحناً مألوفاً تذكرت بسرعة أنه لحن أغنية شعبية كنت أغنيها في مراحل العمر الأولى مع أطفال المدينة القديمة . بل أن كلماتها التي تخاطب القمر العالي هي ذات الكلمات :

- يا قمر علالي علالي .

سافري وتعالي وتعالي

تعجبت من نفسي كيف نقلت إلى بدور هذا اللحن وهذه الكلمات دون أن أدري ، فقد كنت أثناء جولاتنا في الجبال أدندن أمامها ببعض الألحان من محفوظاتي القديمة ، دون أن أذكر أنني أسمعتها هذا اللحن . نقلت لها حيرتي ، فأجابتني بأنها لم تسمع هذا اللحن مني . إنه من ألحانهم القديمة المتوارثة التي يغنيها الناس ويتجهون بها إلى القمر منذ أن كان كوكباً يعبدونه ويسمونه سيدة السماء . لم تستطع بدور أن تفهم سر الذهول الذي أصابني ، ولم أستطع أن أقول لها بأن هذا اللحن الذي تغنيه الآن يمثل اكتشافاً مذهلاً بالنسبة لرجل قطع مسافة ألف عام عائداً إليهم ، وأنني أعثر الآن ، وفي هذا اللحن ، على وشيجة تربط بين هذه المدينة وبين المدينة التي عرفت مولدي ونشأتي . أما كيف عاش هذا اللحن كل هذه المدة ، وكيف ذهب إلى هناك مسافراً عبر المسافات والعصور ، حاملاً معه آثار ديانة قديمة ، انقرضت الديانة ولم ينقرض اللحن ، فلا أرى فيه إلا تعبيراً عن قوة الفن الذي يقهر الموت والزمن . ولا أرى في هذا اللحن إلا دليلاً على صلة قديمة غامضة تربط بين هذه المدينة ومدينتي الأولى .

قلت وأنا ما زلت مترع القلب بما سمعت :

- لا شك أنه سيكون لك شأن كبير في الغناء عندما يسمعك الناس .

- ما أكثر الدعوات التي جاءتني للغناء في الاحتفالات واعتذرت عن

قبولها .

- أرجوك لا تعتذري وإلا استعملت سلطة سالك الدرب في إرغامك على الغناء .

- ولماذا تريد أن تفعل ذلك ، هل لأنك واثق من موهبتي؟

- لأنني لا أعرف مكرمة أخرى أقدمها لأهل المدينة خيراً من هذه المكرمة .

توارت الشمس خلف الأشجار والحقول ، واتفقنا قبل أن نفترق على موعد للقاء . عدت إلى القصر وذهني ما زال مشغولاً بالأغنية الشعبية التي عبرت مثلي هذه المسافة ، وسكنت حناجر الناس في المدينتين ، تملؤني بوهج الذكريات الذائبة في الزمن الذي مضى وهو لم يأت بعد . صار موعد لقائي مع بدور موعداً ثابتاً من كل أسبوع . أذهب كالسائر في نومه ، تسوقني إليها رياح داخل الصدر لا أستطيع لها دفعاً . أجلس بجوارها ، مسحوراً بغنائها ، مكتفياً باغتراف الفرح البريء من عينيها ، دون أن أنشد متعة أكثر من هذه المتعة ، ومراقبة مشاهد الطبيعة التي تصنع إطاراً يليق بصورتها .

لمدة أسابيع خمسة كان اللقاء ينتهي بانتهاء النهار . وفي الأسبوع السادس تأخر لقاؤنا قليلاً ، لأن بدراً شديد السطوع أشرق بغتة في الجانب المقابل من الأفق . تطلعت إليه بدور قائلة :

- سيكون إساءة لبهاء هذا القمر أن نتركه ونذهب إلى النوم .

قلت في خاطري لعل هذا الإله الذي أحالوه على التقاعد سيعاقبنا لو فعلنا ذلك ، فهو ما زال غافلاً عما حدث له ، يأتي متألقاً ، محفوفاً بمواكبه الباذخة وكأنه فعلاً إله الكون .

- بدأ الناس يخرجون الآن من ديارهم ويحتفلون بظهوره .

كنت أتساءل بيني وبين نفسي عما سيقوله الناس وهم يرونني أتنزه في عيد القمر مع امرأة ليست زوجتي . ولكن بدور التي قرأت أفكاري أسعفتني بالحل عندما قالت :

- ألا تراه ليلاً مناسباً لنزهة فوق مياه البحيرة؟

- نعم . إنه كذلك فعلاً .

ذهبت تركض إلى النوتي تسأله أن يعيرنا قارباً للقيام بنزهة صغيرة . أخذنا نبيذاً وتفاحاً وتيناً مجففاً ، وقادنا النوتي إلى القارب . كان الليل يشبه نهاراً مغسولاً بماء الذهب ، ووجه البحيرة بدا هادئاً ، ساطعاً ، تناثرت فوقه قوارب تنداح فوق الماء كالمراجيح ، ومن بعيد تناهت إلينا أصوات المزامير وأهازيج الناس الذين خرجوا لتحية القمر . لم يستطع النوتي أن يقاوم غواية المشهد ، فجاء يشاركنا هذه النزهة ، ويتولى بنفسه قيادة القارب ، ومضى يحرك مجاذيفه التي تثير فقاقيع تتوهج لحظة تحت مسقط الضوء وتذوب في العتمة الممزوجة بالماء ، في حين أرسلت بدور حنجرتها بغناء تناجي به البدر الذي وقف على حافة السماء ، باسطاً رضاه ورحمته على المياه والأشجار والبشر . غنت له وللليل والأساطير ، وأعلنت انتماءها لشيء واحد في الدنيا هو العشق .

- لا بد أن يكون لي طفل يحمل أسرار سالك الدرب .

وسط الغناء همست بكلماتها في أذني . ارتشفت جرعة من قارورة النبيذ ، وأخذت تفاحة قضمت منها جزءاً وأعادتها إلى فمي ، ثم واصلت الغناء وكأن ما قالته شيء لا يستحق مناقشة أو رفضاً أو قبولاً ، فهذا هو قرارها الواجب النفاذ . كنت في كل مرة ألتقي بها أ قاوم فورة الدم في عروقي ، وأمنع نفسي من السقوط محترقاً في موقد نار الشهوة . ولكن للقمر الإله تأثيراً على الحواس لا سبيل إلى الهروب منه ، ومواسم الإخصاب والحب التي ترافق ظهوره عند اكتمال استداراته ليست إلا دليلاً على هذا التأثير . وجدت نفسي أضمها وسط القارب إلى صدري . ألثم الوجه الذي بلله الرذاذ ، وأشرب من رحيق الورد مثل نحلة عطشى . تأخر بنا الليل قبل أن نعود إلى الشاطئ ، ودونما تفكير في العواقب قررت أن أمضي ما تبقى من هذا الليل في فراشها . ذهبت معها إلى بيتها ، ودخلت ، كفراشة تدخل حدائق النار ، إلى غرفة نومها ، وفي صمت خلعت هي إزارها ، وارتمت عارية فوق شراشف الحرير .

لم أجد صعوبة عندما عدت في الصباح إلى القصر ، في أن أخترع سبباً مقنعاً

لمبيتي خارج البيت . لقد ذهبت أحضر مع الناس أعياد القمر ، وعندما انتهى الاحتفال ، كان الوقت متأخراً ، وكنت ثملاً لا أقوى على المشي ، فطرقت باب أول بيت يصادفني وقضيت الليل هناك .

كنت عاتباً على نفسي ، أعاني لحظة يشتبك فيها الفرح بالأسى . لم تتبخر آثار ليلة الغبطة واكتمال القمر ، ولكن إحساساً بالإثم جاء يلونها وأنا ألتقي بنرجس القلوب . إنني لا أحفظ لهذه الأميرة عهداً ، ولا أعبأ بنواميس المدينة التي تكره الكذب ، ولا تبيح أن يرتبط الرجل بأكثر من امرأة واحدة ، وترتبط المرأة بأكثر من رجل واحد ، في وقت واحد .

حاولت فيما تلى ذلك من أيام أن أمنع نفسي من مقابلة بدور ، وأن أضع حداً لعلاقتي بها ، ولكن ما أن يأتي موعدها حتى أجد نفسي مدفوعاً بقوة كأنها السحر للقائها . أفكر أحياناً أن أعترف لنرجس القلوب بما حدث . أن أجلس معها جلسة صدق ومكاشفة ، وأخبرها صراحة بعشقي للمرأة الأخرى ، وأكتشف أثناء لحظة المواجهة أنني لا أقوي على ذلك ، فأهرب للاحتماء بشخصية الرجل القادم من خارج العصر ، مؤجلاً اتخاذ أي قرار .

ما أن بدأت بدور تغني في الاحتفالات العامة حتى ذاع صيتها بين الناس باعتبارها نسيجاً وحدها بين أهل الغناء . وجاء موعد احتفال تقيمه المدينة بإحدى قاعات القصر إحياء لذكرى مرور ألف عام على إعادة بنائها بعد أن أهلكها إعصار يسمونه الإعصار الأصفر ، فعرفت أنها ستكون ضمن المشاركين في الحفل . أقلقني خبر مجيئها إلى القصر ، وحملت عبء المخاوف التي أثارها في نفسي هذا الخبر ، إلى أن جاء يوم الحفل . وصلت بدور في موعد مبكر . استقبلتها نرجس القلوب بابتسامة ترحيب وحفاوة ، ونقلت إليها ما سمعته من إعجاب الناس بصوتها وعزفها ، وقدمتني إليها فصافحتها مصافحة رجل يقابلها لأول مرة . كنت أضع بصري في الأرض خجلاً وأنا أرى الأميرة تحتفي بضيفتها ، وقد طفح وجهها براءة ، غير مدركة أن هذه المرأة ليست إلا شريكتي في خيانتها . إنه أول لقاء بينهما ، وبيني وبينهما في صورة تتسع لنا نحن الثلاثة . تذكرت كل

الكلمات التي لا أحد هنا يعرفها . الغش والخداع والخيانة . ها قد جئتهم بحمولة كبيرة منها . لبيعها في أسواق مدينتهم التي تجهل هذه البضائع الجديدة ، الغريبة ، المستوردة من عالم آخر وعصر آخر . امتلأت حنقاً من نفسي ، وقطعت عهداً صامتاً بأن أكاشف بدور عند أول لقاء برغبتي في الانفصال عنها ، لا كرهاً لها ، وإنما تضحية وإيثاراً واحتراماً لنواميس وبهاء مدينتها . سمعتها تعبر عن رغبتها في أن تتجول قليلاً في أنحاء القصر الذي تزوره لأول مرة . فعرفت أن مجيئها المبكر لم يكن إلا بهدف أن تراني كيف أعيش وراء حيطان هذا القصر . قادتها نرجس القلوب عبر الأروقة والردهات ، وسرت خلفهما ، محتفظاً بمسافة بيني وبينهما ، أرقب بدور وهي تشتعل فضولاً وأسئلة ودهشة ، وتطلب في ختام الجولة طلباً لم أر زائراً من قبل يطلبه ، وهو أن ترى الغرفة المغلقة على أسرارها التي تقول بأنها سمعت شتى الأحاديث والحكايات عنها . كنت قد نسيت أمر هذه الغرفة كما نسيت الآن موقعها ، لأن أحداً في القصر لا يأتي على ذكرها . كان السؤال مفاجأة لنرجس القلوب التي وقفت لحظة لا تقول شيئاً . ثم في صمت ونبل استدارت ومشت تقودها عبر ممر طويل مهجور إلى باب الغرفة . وقفت بدور أمام الباب المغلق بالأقفال وأسياخ الحديد ، تنظر باندهاش إلى النقوش والتكوينات المرسومة فوقه . تحاول أن تفك رموزها ، وتقرأ الكلمات التي تداخلت حروفها ، وتسأل بفضول إن كان أحد يعرف ما يوجد خلف هذا الباب . أخبرتها نرجس القلوب بأنها غرفة منسية ، لا يهتم أحد بأمرها ولا يعرف ما خلفها . انتهت هذه المهمة الثقيلة ووقفت مع الأميرة على باب القاعة نستقبل الضيوف . مدت أسمطة الطعام والشراب ، وفرغ الناس من العشاء فبدأت حصة الطرب والغناء . استهلها الشاعر ياقوت بتلاوة أشعاره المنغومة . ارتدى عباءة خضراء وأحاط عنقه بشال من الحرير فبدا جميلاً ، بوجهه الفتي وشعره الطويل ، كجمال الصبايا . ألقى أشعاراً تحية لهذه الذكرى ، وتمجيداً للمدينة التي أزهرت بعد الذبول والموت وانبعثت من رمادها بعد كارثة الإعصار الأصفر الذي تدفق من شقوق الجبال ، فأهلك البشر والشجر والطير . ثم عزف على نايه شجي الألحان . وجاءت بدور

تختال في ثوب بنفسجي يجر فوق الأرض لم أنتبه لجماله إلا وهو يسطع تحت قناديل هذه القاعة وقد زينت شعرها بالورود . أخذت عودها الذي تضيئه الأصداف وجلست فوق الأريكة تداعب الأوتار وترسل جميل الغناء . تعالت أصوات الإعجاب والثناء وتدفق الصوت نهراً يسيل رحيقاً يترع النفوس ويشملها ببهجة سماوية . نسيت ما كان يخالجني من اضطراب وحرج ، وتحولت إلى كائن أثيري ، يعانق ذرات الضوء ويقتات من عشب الغناء ، ولا يقيم اعتباراً للمسائل الدنيوية . إلى أن رأيتها تجالس الشاعر ياقوت ، وترقص معه ، وتبادله حديثاً هامساً . استيقظت في قلبي مشاعر الكائنات الطينية ، وأطلت الغيرة نبتة سوداء ، فسحقتها قبل أن تجرحني بأشواكها . إنها لا تليق برجل غيره ، وهو لا يليق إلا بها . جمعت بينهما الوسامة ومهنة الفن وسنوات العمر الخضراء . ويجب أن أكون سعيداً إذا نشأت علاقة حب بينهما تحررني من عنف هذه الغواية وقوة جذبها وتأثيرها . هذا عشق يجب أن أحاربه في نفسي ، وأطرده من عقلي وقلبي ، من دمي وجوارحي وساعات نومي وصحوي ، إذا أردت أن أكون جديراً بالحياة بين هؤلاء الناس ، والانتماء إلى هذه المدينة .

وجاء اليوم المحدد للقائي معها . صحوت مبكراً للقيام بتمارين الصبح الروحية . استلقاء فوق الأرض . اندماج مع روح المكان . عزلة مع النفس . ابتعاد عن العالم الخارجي . طرد لكل الهواجس والأفكار . استغراق في التأمل واستكشاف الأصوات التي لا تصدر إلا من أعماق الذات .

انتهيت من قراءة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . وبدأت التمرين بأن أرهفت السمع إلى كل مايدور حولي من أصوات . سمعت غناء الطيور في الحديقة ، خرير الماء في الجداول ، حفيف أوراق الشجر ، صرير الجنادب . صار سمعي أكثر حدة ورهافة ، استطعت أن أسمع ما لا يمكن سماعه في الحالات العادية ، حفيف أجنحة الطيور ودبيب أقدامها فوق الأغصان ، هفيف أوراق العشب وأزيز حشرات دقيقة لا تراها العين . ثم أغلقت أذني عن الاستماع إلى الأصوات القريبة لأتلقّى

أصواتاً بعيدة تأتي من خارج سور المدينة ، فكرت في الحقول والبحيرة وشلالات الماء والهضاب التي تنطرح خلفها الغابة ، تهيأ لي أنني أسمع هدير الماء في الشلالات ، ضرب المجاذيف في البحيرة ، أصوات طيور وحيوانات تستيقظ في الغابة ، صرير أبواب تفتح وتغلق في الضياع البعيدة ، وقع خطى أناس يعبرون بوابة المدينة ويجوبون طرقاتها . تركت بعد ذلك الأصوات تنهمر في أذني . القادمة من القصر وحدائقه ومن داخل المدينة وخارجها . اندمجت جميعها في نغمة واحدة مثل عزف فرقة موسيقية اختلطت أنغام آلاتها ، فلم يعد ممكناً تمييز واحدة من أخرى . ثم أغلقت سمعي واتجهت إلى نفسي ، تصورت أن هذه الأصوات لم تعد موجودة وحل بدلاً منها الصمت والسكون . انسحبت من الخارج إلى الداخل ، ومن الظاهر إلى الباطن ، لكي لا أنصت إلا إلى نفسي ، إلى حركة الدم في عروقي ، إلى الهواء الذي يدخل ثم يغادر رئتي ، إلى النبض الذي يتردد في صدري ، إلى عناصر الماء والهواء والضوء والتراب وهي تتفاعل في جسدي . انتقلت مما هو معلوم من الأصوات إلى ما هو غير معلوم ولا معروف . استمعت إلى أنين المزامير التي تعزفها أنسام تهب داخل شعاب الروح ، وهديل حمام وغناء طيور فوق أشجارها ، إلى صنجات تدقها خلايا البدن وشعيراته الدموية ، إلى رنين زهور تتعانق على ضفاف الجداول التي يسري عبرها الدم . بقيت هاجعاً ، صامتاً ، مستمتعاً بهذه السكينة الداخلية حتى أحسست بأنني مهيأ لأداء التمارين التي توقظ المدارك الغافية خلف الشعور ، أصدر أمراً واعياً إلى يدي بأن تبقى مسدلة بجواري ، ولكنها ترتفع في حركة تتناقض مع الأمر الذي أصدرته الإرادة الواعية ، استجابة لإرادة أخرى تهجع خلف هذه الإرادة ، ثم أصدر لها أمراً بأن ترتفع حتى تلامس رأسي ، ولكنها تبقى ممددة فوق الأرض لا تتحرك ، رافضة أن تستجيب لغير الإرادة الأخرى . أواصل التمرين عدة مرات ، تدريباً وإيقاظاً لتلك الإرادة الداخلية النابعة من عمق الذات . ثم أجد نفسي غاطساً في سحابة بيضاء ، سديم يغلفني ويحميني من كل الهواجس والأفكار والأصوات . صار ذهني صفحة بيضاء ، وأنا ورقة تسبح في فضاء لانهائي ،

وتتحد بذرات الهواء التي تغلف الكون . أنتهي من التمرين وأقوم من رقادي إنساناً سكنت اضطراباته واختفت أوجاع روحه وتحرر من مشاعر القلق والخوف وانبثق في أعماقه نور يضيء المناطق المعتمة . وبهدي من هذا النور صرت أفكر في الأسلوب الذي أعالج به علاقتي مع بدور . وكان أول ما خطر على ذهني هو أن أمتنع عن الذهاب إليها . سوف تدرك وهي تأتي فلا تلقاني أن العلاقة بيننا قد وصلت إلى نهايتها المرتقبة ، وسوف يغنيني هذا الغياب عن الوقوف أمامها مرتبكاً لا أجد مقالاً يناسب المقام . ولكنه سلوك لا يستقيم مع نبل هذه التضحية وإهانة لا تليق ببهاء هذه المرأة . يجب أن أذهب وأضع الأمر كله أمامها ، وأترك اتخاذ القرار لها . كان الجو غائماً عندما جاء منتصف النهار ، اختفت الشمس وامتلأت السماء بالسحب القاتمة ، المنذرة بأمطار الشتاء . ركبت بمفردي قارباً صغيراً رأيته يعود فارغاً إلى البحيرة ، يقوده نوتي يلتحف بعباءة ثقيلة . وما أن قطع القارب مسافة قليلة حتى بدأ المطر بالهطول . كان مطراً خفيفاً لم أعبأ بالبحث عن وقاية منه . وقفت ممسكاً بعمود وسط القارب أستقبل حباته وهي تسيل فوق وجهي ، وأرقبها وهي ترقص فوق سطح البحيرة فأرى في رقصها تعبيراً عن فرحة التقاء الماء بالماء . لم يكن النوتي الذي أحكم العباءة فوق رأسه يخشى المطر ، ولكنه رحمة بي أراد أن يركن القارب تحت سقف الجسر الذي وصلنا إليه . سألته أن يواصل رحلته ، وأنا أحس بنشوة غريبة يبعثها في نفسي هذا المطر الذي جاء يغسلني ويطهرني من إثم علاقة مبهجة ، جميلة ، آثمة ، سأضع لها حداً هذا اليوم . وصلت إلى الضفة القريبة من الدير القديم ، فتركت القارب وسرت عبر الدروب المعشوشبة ، أقفز فوق الغدران ، وأراقب فرحة الشجر والأعشاب ، وأستمع إلى الأصوات التي تحدثها زخات المطر وكأنها وقع حوافر خيل لا مرئية .

وأتقاطر ماءً وصلت إلى الاستراحة . لم تكن الشرفة مكاناً مناسباً للجلوس في مثل هذا الطقس ، ولم تكن غرف البيت مهيأة لاستقبال الضيوف في مثل هذا الفصل ، فدخلت إلى مخزن يمتلئ بالأشرعة المهشمة ، والقوارب القديمة ، ورائحة الخشب الذي تبلله الرطوبة . افترشت حشية قش ، ورميت عباءتي التي كانت

تنتفخ بماء المطر ، والتحفت بوزرة من الصوف وجدتها بين ملابس الصيد ، وجلست أحتضن موقد النار الذي ساعدني النوتي في إعداده . تأخرت بدور عن المجيء ، فأحضرت نبيذاً وأطباقاً من الفستق والبندق واللوز وجلست أحتسي كأسي ، وألقم النار مزيداً من أحطاب الأشرعة ، وأنصت إلى صوت المطر يقرع الأسقف والجدران بعنف وإلحاح . صرت أملك الآن ساعة داخلية كبديل عن ساعة معصمي ، أقيس بها الوقت . تأخرت بدور أكثر من ساعتين وبدا لي أنها لن تقوى على الخروج في مثل هذا اليوم المطير . فكرت في العودة إلى القصر ولكنني لم أكن مستعداً لمشوار آخر تحت هذه الأمطار التي زرعت في أطرافي ارتعاشة البرد .

وقبل أن تصل بدور سبقتها نفحة من روحها . عرفت أنها قادمة فوقفت أمام باب الدار أنتظرها . كانت ترتدي برنساً فوق قفطانها الحريري . خلعت البرنس ذي القماش الشمعي الذي ينزلق فوقه الماء ، وجلست بجواري فوق حشية القش ، قائلة بأنها انتظرت أن يتوقف المطر لكي تستطيع أن تأتي بعودها معها ، وعندما تأخر الوقت تركت العود وجاءت .

- إنه عود نادر لا يصنعون مثله إلا في بغداد ، ولا أريد لحبة مطر واحدة أن تلمسه . ولكن لا تحزن . إن في حنجرتي ما يكفي من الأوتار التي تعزف وتغني دون حاجة إلى آلات الموسيقى .

ليس غناء الحنجرة وحده الذي يبهجني ، ولكن كل هذا النشيد الذي يترقرق في خاطري ندياً ، صافياً ، يعزفه حضورها المجيد جسداً وروحاً وضوءاً وعطراً . انتبهت إلى أن هذا النشيد هو ما جئت اليوم أسمعه لآخر مرة ، وأنني سأفترق عن هذه الأنثى ولن ألتقي بها في غرفة مغلقة بعد هذه الجلسة . أفزعني هذا الخاطر فالتصقت بها حتى لامس نهدها زندي . أحسست بأنوثة الجسد الباذخ المبلل بالماء تثير ذكورتي وتوقظ الرغبة ساخنة ، حارقة ، في عروقي . إنها اللحظات الأخيرة من عمر علاقة عشق هاربة . سأمنح نفسي كاملة لهذه اللحظات ، وسأعلق داخل صدري جرساً ينبهني إلى ما تبقى من الوقت ، لكي لا تداهمني

الدقيقة الأخيرة بغتة . دندنت بدور بأغنية قصيرة ، مرحة ، سريعة الإيقاع ، وتجلت تلك البحة المبهجة اللذيذة في صوتها أكثر إثارة وإغراء من غنائها بصحبة العود . كان الصوت يأتي الآن عارياً من الكساء الذي تلبسه له الموسيقى ، فيظهر بكل لذاذاته وتفاصيله الأنثوية المثيرة . ليكن حبها إثماً ، أو ضعفاً ، أو نزقاً ، أو نزوة ، أو مرضاً ، أو جنوناً . ليكن تحطيماً لكل النواميس والأعراف ، وخروجاً على تقاليد المدن المرجانية واستهتاراً بها ، فإنني لا أستطيع أن أتوقف عن حبها لحظة واحدة . حاولت وأنا أستمع مبهوراً إلى غنائها ، مغموراً بشفافية الضوء الذي يصنعه وجودها ، أن أنزع نفسي منها ، لأستحضر صورة الأميرة نرجس القلوب بوجهها القمري الإستدارة وصفاء ابتسامتها ورقة شفتيها ، امرأة بالغة البهاء والعذوبة ، ولكن قلبي برغم جمالها كله ، يبقى منذوراً لهذه الأنثى التي لا تشبه أحداً إلا نفسها .

- مارأيك؟ إنها أغنية جديدة مازلت أتمرن عليها .

- هذه أغنية تختلف عن سابق أغانيك ، فلعل شاعراً وعازفاً مثل ياقوت هو من أعطاها لك .

- من أخبرك بذلك؟

إذن فالأغنية من ابتكاره . وهواجسي لم تكن كلها أوهاماً . أدركت أن في اللحن والكلمات شيئاً جديداً لا تصنعه السليقة الشعبية وإنما قريحة مبدع له قدرة على التجديد والابتكار وتجاوز الأفكار والأشكال المسبوقة . ها هي علاقتها به قد توثقت حتى صار يؤلف ويلحن خصيصاً لها .

- رأيتكما تترافقان تلك الليلة فأيقنت بأن الفن في مدينتنا سيحقق ازدهاراً عظيماً .

- كان كل ما كنت أغنيه من المحفوظات القديمة ، إلى أن جاء هو يمنحني خبرته ، ويساعدني في بناء شخصية فنية جديدة متميزة .

أليس هذا ما كنت أريده . أن يثمر اللقاء بينهما علاقة تبعدها عني وتحررني من غوايتها ، فلماذا أبدو مهموماً أتصور وكأن ياقوتاً الشاعر جاء يسرق شجرة

الفرح الوحيدة في حديقة بيتي ، يعزف لها مزاميره ، فتنتزع جذورها من أرضي وترحل وراءه . لا تفسير لهذا الوجع الذي أحس به ، إلا أنني أحبها حباً أقوى من الإرادة الواعية ، وأقوى من مشاعر الامتنان والوفاء نحو تلك المرأة التي رأيتها تستعير ملامح شهرزاد الأسطورة فتعلقت بها واخترتها زوجة منذ أول ليلة . أما الحب ، أما تلك العاطفة التي تشبه شرارات النار التي تقدحها خناجر البرق فوق الماء والأشجار والحجارة ، فإنه لا أحد يثيرها في نفسي ، أو يوقدها تحت أضلعي ، إلا هذه المرأة التي جئت راغباً منذ لحظات في الانسحاب من حياتها . هكذا قالت إرادتي الواعية ، ولكن التمرين الروحي أيقظ في نفسي إرادة أخرى أكثر صدقاً وعمقاً تكمن خلف هذه الإرادة ، وتقول بعكس قولها ، وهي تأتي الآن لتفرض مشيئتها وتبطل الاستجابة لأية إرادة أخرى غير إرادتها .

كانت عاصفة المطر ماتزال تعزف نشيدها الوحشي خارج الدار . وكأنها تريد أن تغرق الدنيا وتصنع أسطورة طوفان جديد ، عندما قالت بدور :

- يبدو مثيراً أمر تلك الغرفة وبابها المغلق بالأسياخ والمحصن بالطلاسم .

لم أقل شيئاً لأن ما يهمني الآن ليس تلك الغرفة وذلك الباب ، وإنما هذا الباب الذي تسلل منه ياقوت الشاعر إليها ، مستخدماً ألحانه وقصائده التي تشبه التعاويذ السحرية ، لكي يأخذها إلى عوالمه .

- يقولون ان الغرفة ليست إلا سجناً قديماً يحتوي على الجماجم والهياكل العظمية لضحايا الظلم الذي كان سائداً في عصور سالفة .

- إنه ماض جدير بالإهمال والنسيان وسط غرفة لا يدخلها الضوء والهواء .

- ولكن هناك من يقول أن وراء ذلك الباب المغلق نبع ماء يعيد الشباب المفقود لكل من يستحم بمائة .

- ها هي الروايات تتناقض وتبطل بعضها بعضاً .

- فما الذي تصدق أنت؟

- وما أهمية أن أصدق أو لا أصدق؟ أنها غرفة مغلقة وستبقى كذلك مدى الدهر .

- ألا تثيرك أسرارها؟

- رأيتك تلك الليلة تتفرسين في النقوش والرموز وكأنك تستطيعين قراءتها .

- ليتني أستطيع ، فلابد أنها تقول شيئاً عما تحتويه الغرفة . كم كان جميلاً أن تستجيب الأميرة لرغبتي وتقودني إليها . أتمنى أن يكون غنائي تلك الليلة أعجبها .

قلت لنفسي لابد أن غناءها أعجب الأميرة ، ولكن هل يعجبها ما نفعله الآن . رأتني صامتاً فواصلت الحديث :

- أحببتها منذ أن كنت أراها من بعيد تحضر الاحتفالات وازددت حباً لها عندما قابلتها وسمعت حديثها .

نظرت إليها مستغرباً وقلت لها أن هذا الكلام لا يستقيم مع حقيقة أن الأميرة التي تتحدثين عنها هي في ذات الوقت المرأة الأخرى التي تقف على الطرف الآخر فوق أرض هذه العلاقة .

- وهل حسبت أن علاقتي بك تغضب الأميرة .

أدهشني ردها ، فبقيت صامتاً ، حائراً ، أنظر إليها وأنتظر توضيحاً لما قالته . عرفت منها أن تقليداً عاشت عليه المدينة منذ العصور السالفة يسمح لنسائها اللاتي يرغبن في إنجاب أطفال من صلب الأمير أن يذهبن إليه ويطلبن ذلك منه . وهو اتصال لا يبيحونه إلا مع الأمير القادم من الصحراء وليس مع من يخلفه ، لأنهم بذلك يحصلون على أبناء يرثون أسراره وكراماته . ولم يتوقف هذا التقليد إلا عندما جاء الرجل الصوفي الذي امتنع عن الانشغال بغير أوراده وتأملاته وصلواته . ولذلك فإن بدور لا تجد في هذه العلاقة إثماً ولا حرجاً ولا سبباً يغضب الأميرة ، وترى أن تقليداً كهذا يجب أن يعاد إحياؤه حرصاً على تحسين الأنساب والسلالات . أما إذا بقي تقليداً منقرضاً فهي سعيدة بأن تكون الاستثناء الوحيد . لقد أخبرت أمها قبل أن تأتي بأنها قادمة لملاقاتي وسألتها ألا تقلق إذا ما اشتد هطول الأمطار وقضت الليل معي . فهي علاقة لا تثير حفيظة أحد ولا يرى فيها أهل المدينة شيئاً خارجاً على المألوف أو مناقضاً للتقاليد .

كان ما قالته كلاماً غريباً يصعب تصديقه . لعلها تقوله من أجل الدعابة والتسلية . تذكرت أنني سمعتها ذات مرة وبحضور أمها وأبيها تتحدث عن رغبتها في طفل يحمل أسرار سالك الدرب . إذن فإن ما قالته لم يكن مزاحاً ، وما أقوم به الآن شيئاً لا يسيء إلى نرجس القلوب ولا يتناقض مع شرائع المدينة وتقاليدها ، بل هو يأتي ترسيخاً وتعزيزاً لهذه التقاليد ، وإذا ما حدث أن جاء أمير زاهد ، ناسك ، لا يقوى على القيام بأعباء هذا الواجب فالذنب ليس ذنبي . عقدت الدهشة لساني فلم أجد كلاماً أعبر به عن الغبطة التي داهمتني . مددت ذراعيّ أضمها بهما وأدخلها في دفء عباءتي . أسلمت فمها إلى فمي ونهديها إلى صدري . اشتبكنا في عناق الارتجاف واللهفة والشهوة والتوتر ، وارتمينا فوق حشية القش ، متلاصقين متلاحمين نتبادل القبلات ، ونتعم بحلاوة الوصل ، وننسى العواصف والأمطار وصوت الريح والرعد ، فلا نذكر إلا هذه العواصف والبروق التي يصنعها جسد يدخل جسداً ، وشوق يداهم شوقاً . ولأول مرة أعانقها وأهصر قدها دون إحساس بالإثم والملامة . ممرغاً وجهي في شعرها ، لاثماً جبينها وعينيها ، فمها وغمازتيها ، عنقها وكتفيها ، سرتها ونهديها ، مستمتعاً بخملية الجسد وعذوبته ، ودفئه وسخونته ، متنقلاً من طقس إلى طقس ، ومن مدار إلى مدار ، ومن فصل إلى فصل ، دون أن أرى ملاك المعاصي والذنوب يقف على كتفي يلومني ويعاتبني ويحمل مهمازاً يوخز به صدري . بهجة تترقرق صافية تحت الضلوع ، يباركها الليل والنبيذ ، والنار والمطر ، وملائكة الضوء والظلام .

قلت لها وأنا مازلت ممدداً فوق حشية القش ، أداعب خصلة من شعرها الذي تهدلت غدائره فوق صدري ، وانسكب عطره ، حقلاً من الزنابق ، ينتشر في دمي .

– وماذا عن ياقوت الشاعر؟

كانت خيول المطر قد توقفت عن الركض ، وأعقب ذلك صمت لا يجرحه إلا أنين الأشجار التي يضاجعها الريح . قالت وهي ماتزال تسند رأسها على صدري :

- وماذا عنه؟
- لن أسمح له بأن يأخذك مني مهما كان عزفه ساحراً .
رفعت رأسها تنظر باندهاش نحوي .
- من أين جئت بهذه الفكرة؟

كانت ألسنة النار قد تحولت إلى جمر . وقنديل الزيت ينشر لهاث ضوئه فوق وجهها فيجعل لأهدابها ظلالاً تزيد إشعاع عينيها ألقا وسواداً . هربت من نظراتها قائلاً :

- ربما لأنني تصورت أنه يليق بك أكثر من أي رجل آخر . إنه أصغر سناً وأكثر وسامة مني ، وهو صاحب شهرة في المجال الذي تحبينه ، وله جمال يغري النساء بحبه .

- لعلك زاهد في صحبتي وأردته أن يكون صاحباً لي بدلاً منك .

استوت جالسة ، فنهضت من رقادي لألثم نجمة مرسومة بالحناء على ظاهر يدها وأمرغ وجهي في مخمل كفها قائلاً :

- لن أطيق فراقك أبداً .

وملتحفاً بوزرة الصوف ذهبت أحمل المصباح أبحث في الغرف المجاورة عن مزيد من الشراب وأطباق الفاكهة المجففة لتكون عشاءنا ، كما جئت بأكلمة وأغطية تتيح لنا أن نحتمي بدفئها من برد هذا الليل .

لم يكن ياقوت الشاعر هو الذي يهدد علاقتنا . مايهددها أنها علاقة تقف فوق أرض قلقة متحركة ، ويجب الآن ، وقبل فوات الأوان ، أن أمنح الأمان لهذه العلاقة ، وأخبر هذه المرأة ، بأنني لا أريد من الدنيا إلا صحبتها ، وأنني سأضع حداً لهذه الازدواجية في الحياة والحب بأن أتحرر من ارتباطي بنرجس القلوب ، وأنصرف انصرافاً كاملاً لها . تعهد واضح صريح يضع العلاقة فوق أرض ثابتة ويضمن بقاءها واستمرارها . كنت مخططاً عندما جئت هذا اليوم بهدف أن أضع نداء الواجب قبل نداء القلب ، وما تريده المدينة قبل ما تريده عواطفي ، وتصورت أن هناك تناقضاً لا حل له إلا بالتضحية بهذه العلاقة وهذه المرأة ، لأن مدينة عقد

المرجان أبهى وأكرم من هذه الصورة التي تصورتها . إنها لا ترضى بمثل هذه التضحيات ولا تجعل نداء الواجب مناقضاً لنداء القلب ، أو ماتريده هي مناقضاً لما يريده الفرد . ولذلك فإنني لن أرغم نفسي على شيء لا يريحني ، ولن أتخلى عن عشق امرأة ، أعرف الآن على وجه اليقين ، إنه لا يلائم مقاس قلبي إلا مقاسها .

كان مريحاً أن أسمع بدور تحدثني عن ياقوت الشاعر بما لا أعرف . فهو يعيش هائماً في أودية الجن ، ويتعشق امرأة أثيرية يقول بأنها لا تتجسد في صورتها الكاملة إلا له ، ولا تظهر جمالها لأحد غيره ، ألقت عليه شباكها وملكت عليه نفسه فلا يغني لأحد إلا لها ، ولا يستلهم الشعر من شيء في الوجود إلا من سحر عينيها وضياء ثغرها . ابتنى لنفسه كوخاً على ضفاف البحيرة ، واختار أن يعيش وحيداً لا ترافقه إلا غزالة تفهم حديثه وتطرب لعزفه وغنائه . عدت من جديد أتأمل كلمات الأغنية التي أعطاها لبدور كي تغنيها . كانت تتحدث عن غفلة الإنسان الذي يظن بأن ما يراه ويسمعه هو كل شيء في الدنيا ، لأن هناك وجوداً آخر للأشياء لن تستقيم لنا الحياة ، ولن نعرف ما فيها من عمق وثراء ، إلا إذا اهتدينا إليه ، وأدركنا أسراره ، ونفذنا إلى رؤية الإشعاع الصادر عنه . لقد رأى ما رأى ، وعرف ماعرف ، فامتلأ قلبه وهجاً أضاء له طريق العبور إلى تلك الأنثى ، التي لا يلحق جمالها الذبول ، ولا يلحق شبابها الهرم أو العجز ، ولا ينضب حبه لها أو حبها له .

قلت لبدور بأن الأغنية تذكرني بحديث ياقوت عن رجل يمشي فوق الماء ، ويأكل العسل من أفواه الثعابين ، ويعزف مزماره فتورق الصخور وتتبعه الأشجار . ومعنى ذلك أن ياقوت لا يرى عشيقته السرية فقط وإنما يرى أيضاً رجالاً أسطوريين لا يظهرون إلا له .

– ليس ياقوت وحده من رأى ذلك الرجل ، فما أكثر الذين رأوه يمشي في قاع البحيرة ويتجول في شعابها المرجانية يعزف مزاميره للأسماك والمحار . إنه سيد الكائنات التي تعيش معنا ولا نراها .

– وهل تصدقين هذا الكلام؟

- نعم ، ولكن الإنسان يحتاج إلى بصيرة الشعراء ليرى ويسمع أبعد مما يرى البصر وتسمع الأذن . ألا تؤمن أنت بذلك؟

- إنني لا أملك بصيرة الشعراء ومع ذلك أستطيع أن أرى الآن أقماراً وحدائق وأنهاراً لا تستطيعين أنت رؤيتها مهما كانت بصيرتك بالغة النفاذ والقوة .

- ولماذا لا أستطيع؟

- لأنها لا تسكن مكاناً آخر إلا عينيك .

- إنك لا ترى إلا ما تحب أن تراه .

وذلك أيضاً ما يفعله ياقوت . إنه يرى ما يحب أن يراه حتى لو لم يكن موجوداً . لعله أراد أن يبقى وفياً للشعراء القدامي الذين يؤمنون بأن للإلهام وادياً اسمه وادي عبقر ، يستعيرون شعرهم من غناء كائناته التي لا يراها ولا يسمعها إلا الشعراء . أو لعل بدور أرادت أن تريحني من عناء التفكير في علاقتها به ، فاخترعت له عشيقة تنتمي إلى عالم الجن . نظرت إليها وهي تستند إلى الأكلمة المرقشة بالأشجار والأزهار والعصافير ، فبدا وجهها وادعاً ، بريئاً ، مثل حقل من الغناء . إنني أظلمها بمثل هذه الأفكار ، وأظلم نفسي عندما أتردد في الاعتراف من جميل عطاياها . طردت من رأسي نساء الجن ، والكائنات المجهولة والمعلومة ، وقررت أن أبدأ منذ الآن تنفيذ قراري بأن أكرس حياتي لها ، وأسكن بها هذا البيت الذي كان ديراً لعبادة القمر . سوف لن أجد قمراً أعبده أجمل منها . وسأجعل من هذا المكان ديراً لعبادتها . لن أنام هذه الليلة وسأعتبرها ليلةعرسنا . سأكون حريصاً على أن أهتبل كل دقيقة أقضيها معها ، وأعتبر أن أية لحظة أنامها إهدار وتبديد لهذا الزمن الفاخر الذي لا يشبه الأزمنة الأخرى . إنني أخاف خديعة الليل ، وأخشى أن أنام وأستيقظ فأجد أن هذا الليل قد سرقها مني . خوف لا تبرير له ، ولكنه يختفي في طوايا الذات المغدورة دائماً ، المثقلة بندوب قديمة صنعتها رماح تخرج من قلب الظلام . عادت الرغبة موجعة ، حارقة ، لافحة ، تسوقني إلى ممارسة الحب معها . وكأن هذه الليلة هي آخر الليالي ، وكأن وليمة الفرح الباذخ هذه ، هي العشاء الأخير . كأنني لن أعيش لأراها غداً .

وفوق حشية القش المحاطة بالأشجار والزنابق والطيور المرسومة فوق الأكلمة ، رحلنا . عاد المطر إلى الهطول . عنيفاً ، قوياً ، صاخباً ، عاد إلى الهطول . تركنا هسيس الأحطاب في موقد النار يتصدى وحيداً لهزيم الرعد وعواء ضباع الريح ، وبكاء الأشجار تحت نوافذ البيت . تحولت حشية القش إلى بساط سحري ، يخترق بنا المطر والضباب ، ويحلق عالياً فوق القمم التي يغطيها الثلج النقي اللامع البياض . ويمضي ليجتاز بنا جبال السحب التي يجلس فوقها ملائكة شداد ، يديرون رحى كبيرة تصنع الرعد ، ويتقاذفون بشهب تصنع البرق . تعبر بنا درباً لبنياً مرصوفاً بالنجوم ومسقوفاً بأجنحة الملائكة الذين يحرسون بوابات السماء ، يفضي إلى مروج مضيئة خضراء ، نتوقف هناك لنحضر الأعراس التي تقيمها الأعشاب والزهور ، ونسمع الأغاني التي تنشدها الأشجار ، ونلتقط أقراص العسل من مناقير العنادل ، ثم نمضي في رحلتنا عبر أفلاك ومجرات ، حتى نرى كوكباً بالغ الصفاء والبهاء ، يخفق بأضواء الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والزمرد والمرجان التي تزين عرش إله الحب ، نخر عند قدميه ساجدين ، نلثم الأرض ونؤدي له صلاة الحمد والشكر .

لم تكن ممارسة الحب معها إثارة وشبقاً ، ولم تكن طقساً جنسياً ينتهي بانطفاء تلك الرغبة . كانت اتحاداً وتلاحماً مع سر الدهشة وجذور الفرح . ينسكب جسمها بين ذراعي لحناً أحتسيه بكل نبض القلب وخفق الروح وعطش الخلايا . أشرب ولا أرتوي . تنتهي المعاشرة فيتجدد الشوق إلى معاشرة أخرى . وتتحول الرغبة إلى نجمة لا تنطفئ حتى تضيء مرة أخرى . فلم نكن سوى جسد مقسوم إلى اثنين يحقق الآن التحامه واكتماله . تجربة جديدة ، ثرية ، مبهرة ، لم أعرف لها مثيلاً فيما سبق من تجارب ، حتى في أول معرفتي بالشهوة وبداية اكتشافي لأسرار الجنس وسطوته . كأنني أختزن في جسمي أجساداً عطشى كلما ارتوى واحد منها ازداد الاخر عطشاً .

ولا أدري إن كان ما أحسست به نوماً في ذلك الهزيع الأخير من الليل ، أو هو مجرد خدر لذيذ أثقل الأجفان والبدن . فقد جاء الصباح سريعاً يوقظني من

غيبوبة الفرح . فتحت بدور شباكاً ، فشعشع النور وامتلأت الغرفة بهدير الحياة الذي نحس به قبل أن يقتحم بضوضائه مداركنا . يأتي ذلك الهدير فيوقظ حواسنا ويرغمنا ، مهما كان حظنا من النوم ، على أن نهجر مخادعنا . رفعت الأغطية متثائباً ، أنشر ذراعي في الهواء وأفتح بجهد عينين يثقلهما النعاس ، حاولت الوقوف فلم أستطع . عدت إلى الاستلقاء ملتحفاً بالأغطية . كانت بدور قد استيقظت قبلي ، اغتسلت وأدت تمرينها الروحي وارتدت برنسها وجاءت تمد يدها ، تعينني على النهوض قائلة :

– قم لتشاهد أجمل صباح رأيته في حياتك .

أعرف أن مشهد شمس تشرق بعد عواصف المطر شيء يبهج القلب والبصر . ولكن رأسي ثقيل وجسمي يمتلئ ارتعاشاً وبرداً . أدركت أن أمطار اليوم السابق التي سخرت منها ومشيت هازئاً أتحدى حوافر خيلها ، قد جاءت اليوم تعاقبني وتزرع بردها في عظامي . سألت بدور أن تبقى بجواري لأنني لا أريد أن أترك هذا المكان ولا أرغب في الانتقال إلى أي مكان أخر ، وإذا كان الأمير المؤسس لديانتهم الجديدة قد عاش زاهداً ، ناسكاً ، فسأقوم منذ اليوم بإحياء سنته ، وسأبقى زاهداً ناسكاً لا أغادر هذا الدير . ولكن بدور أرغمتني على النهوض لأن بقائي نائماً فوق الأرض لن يزيدني إلا مرضاً . لم تستطع بهجة الصباح الجميل أن تمنع عني ارتجافاً مضى يزداد شدة وعنفاً ، مع كل خطوة أخطوها . ركبنا قارباً أوصلنا إلى وسط المدينة حيث افترقنا . وقفت أشيعها وهي تمشي بمحاذاة بناء مسيج بالأشجار ، وقبل أن تغيب خلف انعطافته التفتت وابتسمت ، رفعت يدها مودعة فرفعت لها يدي ، وبخطى واهنة مشيت باتجاه القصر . دخلت إلى غرفة النوم وارتميت فوق السرير . جاءت نرجس القلوب تسألني عما حدث . رأتني أرتعش مرضاً وسعالاً ولا أقوى على الكلام فأحضرت لي مشروباً ساخناً من رحيق الأعشاب . انسكب في جوفي دون أن يسكت الرياح الباردة التي تهب في صدري . أويت إلى الفراش ودخلت في نوم مضطرب تملؤه الكوابيس . نتف من عوالم قديمة تستيقظ في ذاكرة الحلم . نساء عرفتهن في أماكن مختلفة ، وعبر

مراحل متفاوتة من العمر ، يتجمعن الآن حول سريري ويحاصرنني بأعين زجاجية ورؤوس تتدلى منها الأفاعي . أرى أبي وأمي يتعاركان وسط خيمة تضربها الريح ، منصوبة فى الخلاء ، يشتد هجوم الريح ، وتطير بهما الخيمة في الفضاء بينما هما يواصلان العراك . حقل ألغام يتفجر وينشر دخاناً كثيفاً أسود ساخناً يملأ الذاكرة برائحته الكريهة . أستيقظ مذعوراً وأحاول فتح عيني فلا أستطيع ، وكأنهما مختومتان بالشمع . أشعر بيد تتحسس جبيني وأسمع صوتاً يدعوني أن أغمض عيني ، فأظنه الشيخ الصادق يريدني أن أرى البياض ، أرفض أن أرى شيئاً ، ثم أعرف أن الصوت هو صوت نرجس القلوب تسألني أن أواصل النوم لأنني ما زلت بحاجة إلى الراحة . أضع رأسي فوق الوسادة ، و لكن فقيه المدرسة القرآنية يطردني من حدائق النوم ، يأتي حاملاً سيخاً من الحديد المحمي بالنار يتجه به نحوي ، يريد معاقبتي لأنني لم أحفظ سورة الإسراء . أجلس فى سريرى هارباً من عقابه ، ويأتي الصوت الأنثوي يطالبني بالاستلقاء والراحة . أنام قليلاً فيضعون رحى ثقيلة فوق صدري ، تدور وتسحق عظامي ، أرى نفسي تحول إلى دقيق ، فأقوم مذعوراً لأجد أن الطبيب حسان جاء بمراهم يدلك بها جسمي .

أطياف ورؤى كثيرة ، مضطربة ، مشوشة ، كانت تزورني وتلازمني خلال ستة أيام من المرض ، وعندما تعافيت في اليوم السابع أدركت وأنا أحس بالخجل أن اسم بدور كان يتردد طوال الوقت في هذياني . ليس فقط أثناء النوم وإنما في لحظات اليقظة أيضاً . أسأل عنها وأطلب أن يأخذوني إليها . كنت قد ركضت كثيراً فى فضاءات الحلم وراء وجهها وهو يظهر ويختفي ويقترب ويبتعد ويشرق ثم ينطفئ . ولكننى لم أدرك إدراكاً واضحاً أنها زارتني أثناء مرضي ، إلا الآن وأنا أستحضر ما مرّ بى . أذكر كل تفاصيل الزيارة . جاءت إلى هنا وجلست على هذا الكرسي الذى تغطيه القطيفة الزرقاء ، بجوار رأسي ، قائلة بأنها عرفت بمرضي فأتت تحمل لي دواء ممزوجاً بعسل النحل الذي يربيه والدها فى حديقة البيت . سألتها أن تنتظرني حتى أرتدي ملابسى وأذهب معها ، لأنني لم أعد أطيق فراقها ، أو البقاء بعيداً عنها . قلت لها ذلك أمام نرجس القلوب التي كانت تجلس

بمحاذاة السرير ، على الجانب الآخر منه ، وفي يدها كوب ماء ممزوج بالأدوية تريدني أن أشربه ، وبجوارها وقف الطبيب والإسكافي . لم أكن واعياً لحظتها لما أقول ، أو مدركاً لم تحمله كلماتي من مهانة لنرجس القلوب . ولا أدري كيف أقنعتني بدور بالبقاء في سريري حتى أتماثل للشفاء . توقعت بعد أن تعافيت أن أرى الأميرة تأتي غاضبة تطلب تفسيراً لما قلته . أدهشني أنها لم تقل كلمة واحدة حول هذا الموضوع ، ولم أجد في سلوكها ما يوحي بالغضب أو الاحتجاج . كانت تقبل نحوي باسمة الوجه والعينين ، تخطر في مشيتها الأميرية وأثوابها الزاهية الألوان كعرجون من الضياء . تطعمني وتسقيني وتسكب حنانها في مهجتي فأحس بالخجل لما بدر مني . وعندما أردت أن أذهب لأباشر عملي ، أبقتني في السرير لكي لا أصاب بانتكاسة تعيد لي مرضي . استجبت لحدبها وعنايتها ، وبقيت ملازماً غرفة النوم لمدة أيام ثلاثة ، لا أفعل أثناءها شيئاً سوى الاستماع إليها وهي تقرأ لي أشعار المتصوفين ممن اتصلوا بأسرار الكون ، واهتدوا إلى حقائقه ، واكتشفوا بهاءه الكامن في أنفسهم . وكنت وأنا أسمع الأشعار التي تقرأها ، وشذور الحكمة التي تنثال من شفتيها ، أسأل نفسي كيف سأقوى على تنفيذ القرار الذي اتخذته بالانفصال عنها ، والانتقال من هذا القصر إلى الإقامة في الدير القديم بصحبة بدور . لا شك أن نرجس القلوب قد سمعتني طوال هذه المدة أهتف باسم بدور ، ورأتني أتعلق بأهداب ثوبها عندما جاءت لزيارتي ، فهل تراها اعتبرت ذلك كله مرضاً وهذياناً لا يستحق أن توليه اهتماماً . ليتها تأتي الآن غاضبة ، تطردني من هذا القصر ، وتعفيني مما أحس به من كدر وحرج .

انتهت أيام الراحة ، وجاء الإسكافي جلال الدين يرافقني إلى الديوان ، حيث أشرفت على مراسم الاحتفال بإرسال عدد من المبعوثين إلى خارج البلاد ، يحملون لؤلؤاً ومرجاناً يقايضونه ببضائع من البلاد الأخرى . خرجنا أمام القصر لتوديعهم وهم يرحلون برفقة حراس يؤمنون لهم الطرقات ، ورجعنا إلى الديوان لأسمع جلال الدين يقول :

– كنت تردد كثيراً اسم بدور أثناء مرضك .

انتفضت مداركي تعلن حالة استنفار واستعداد لخوض المعركة القادمة . هاهو يفتح الآن باباً لم أكن أجد ما يكفي من الشجاعة لأن أفتحه بنفسي .

- لا بد أنه اسم إنسان عزيز تركته خلفك قبل أن تأتي إلى هذه المدينة .

أتراه يقول ذلك متخابثاً ، متجاهلاً ما رأى وسمع عندما جاءتني بدور . وأراد أن يسلك طريقاً ماكراً لمعرفة حقيقة العلاقة التي تربطني بها . هل أجاريه في أفكاره وأتخابث مثله قائلاً بأنها مجرد ذكرى وفدت على مرضي من عالم قديم . أم تراه صادقاً فيما يقول ، لا يعرف شيئاً عن بدور ولم يحضر زيارتها ، وإنني تحت تأثير الحالة المرضية تصورته موجوداً . رأيت أن أتجاهل ما قال وأبحث عن مدخل آخر للحديث عن هذا الموضوع .

- عرفت أن هناك تقليداً كان سائداً فى المدينة ، يبيح لنسائها الاتصال بالأمير ، التماساً للبركة وطمعاً فى إنجاب أطفال منه .

- إنه تقليد بائد انتهى بانتهاء الديانة القديمة ولا سبيل إلى إحيائه .

أوصد الرجل في وجهي هذا الباب ، وأضاع فرصة هذا التفسير المدهش الجميل الذي هيأت نفسي لأن أقوله لهم ، وهو أن المرأة جاءت ترتجي طفلاً يرث أسرار الرجل الذى قطع صحراء المهالك . أدركت أن المهالك لم تنته من طريقي بعد ، وانه لا أحد سوى نرجس القلوب من لها حق أن يعرف هذا الموضوع . سأذهب حالاً إليها ، وسأكون صادقاً معها ، فأخبرها بكل ماحدث . وجدتها تعاني إحدى نوبات الوحم ، وقد أحاط بها الطبيب والممرضة . تقدم بها الحمل ، وتكورت بطنها ، وصار الجنين عبئاً يصيبها بالإعياء . كان الطبيب يوصي الممرضة بأن تبقى دائماً بجوارها ، فلا تدعها تقوم بأي عمل يتعبها . أدركت وأنا أقف منفعلاً أمامها ، إنني لن أستطيع أن أفاتحها فى مثل هذا الموضوع قبل أن تنتهي من وضع مولودها .

- إذن فأنت تحب اسم بدور .

تظاهرت بأنني لا أفهم ما تعنيه ، فأضافت :

- لم يكن على لسانك إلا هذا الاسم طوال أيام المرض ، تصورت أنك تريد أن

نسمي به المولود إذا كان أنثى .

أدهشني أن تقول هي أيضاً هذا الكلام وكأنها لا تعرف صاحبة الاسم .

- أليس هذا هو اسم المغنية التى جاءت تزورني أثناء مرضي؟

- لم يأت أحد بهذا الاسم لزيارتك .

تنفست بعمق وارتياح وأنا أكتشف أن تلك الزيارة التى تملؤني بإحساسات الحرج والخجل ، لم تكن إلا حلماً ، والعسل الذى جاءتني به ليعيد لى عافيتي ، لم يكن إلا هدية تلقيتها منها أثناء النوم وليس أثناء اليقظة . إنها تعرف كيف تكتم أسرارها وتصون حبها . حاولت بطريقة لا تسيء إلى كبرياء الأميرة ، أن أسألها إن كانت تذكر تلك المغنية التى جاءت إلى القصر لإحياء العيد الألفي لإعادة بناء المدينة . ولم أشأ أن أبدي تعجباً أو ضيقاً عندما قالت بأنها لا تعرف مغنية بهذا الاسم ، ولم ترها تدخل القصر ، أو تغني فى ذلك الحفل . قلت لنفسي بأنها امرأة تقابل بشراً كثيرين ، وتملأ ذهنها بصورة الطفل القادم ، فما عادت تستطيع أن تذكر كل الأسماء وكل الوجوه . تركت القصر وذهبت أتسقط أخبار بدور وأبحث عنها بين المغنين الذين يشاركون فى إحياء الاحتفالات ، لم أجدها ، ولم أعثر على أحد يعرفها . أثار هذا الغموض قلقي ، فذهبت فى عتمة الغروب أطرق باب بيتها . لم أسمع رداً فطرقته بقوة لكي أرغمها على الخروج إذا كانت لسبب لا أدريه تخفي نفسها عني . خرجت من الباب المجاور امرأة لا أعرفها ، تحمل طفلاً رضيعاً فى حضنها ، وتبدي انزعاجاً من سلوكي . ألقيت للمرأة بكلمة اعتذار ، ورجعت أنتظر أن يحين الموعد الأسبوعي للقائنا لكي أعرف على وجه اليقين ما حدث لها . جاء ذلك اليوم فذهبت مبكراً إلى الدَّير القديم . لم أجد أحداً ، فأخذت من مخزنه شراباً وجلست على عتبة الباب أنتظر قدومها . انتظرت طويلاً دون أن تأتي . جاء مع نهاية النهار النوتي الشيخ ، يسوق أمامه العتمة والظلام . سألته إن كان قد رآها فى الأسبوع الماضي عندما أعاقني المرض عن لقائها . قال بأنه لم ير أحداً يأتي إلى الدير أثناء غيابي . أفهمته أن المرأة التي أعنيها هى ذات المرأة التي كان يراها معي كلما جئت إلى هذا المكان .

وعندما قال بأنه لا يتذكرها ، وجدت نفسي لأول مرة فى هذه المدينة أفقد كل سيطرة على أعصابى وأرفع صوتي غاضباً :

– كيف لا تذكرها وأنت الذي جئت إلى الشرفة مبهوتاً تستمع إلى غنائها عندما أحضرت لنا سمكاً فى أول يوم نأتي فيه إلى هذا البيت .

– تخذلني أحياناً ذاكرتي فلا تلمني إن لم أذكرها .

– استحضر عقلك الغائب أرجوك . ألا تذكر نزهتنا فوق القارب ليلة أعياد القمر؟

– نعم ، أذكر أنك كنت سعيداً بتلك النزهة ، مستغرقاً في تأمل ومناجاة الطبيعة .

– ألم تكن هي تجلس بجواري فوق القارب؟

– هناك بشر لا يظهرون إلا أمام أصحاب الأسرار من أمثالك .

تركته وذهبت حانقاً . إنني لا أملك الآن عقلاً أفكر به ، وأهتدي عن طريقه ، إلى تفسير هذه الأحاجي . هل كانت تلك الحياة التى عشتها مع بدور مجرد حالة سرابية ابتكرها ذهن أدمن معاشرة الأساطير والأوهام؟ وهل كنت بحاجة إلى أن أصنع وهماً أهرب إليه من مدينة غفل عنها الزمان وهي راقدة وسط سحائب الفرح؟ أم هل تراها كانت حقاً امرأة أثيرية ، لا تظهر لأحد غيري كما كانت تقول عن امرأة ياقوت الشاعر؟ إنني لا أستبعد أن يكون ما حدث مؤامرة أحكم الشيخ ذو اللحية الحمراء حلقاتها ، يحمي بها المدينة من حماقتي ، ويمنع بها حدوث أزمة فى القصر . عرف ما انتويت عمله ، فذهب إلى بدور يسألها أن تختفي من حياتي ، ويسأل الآخرين أن ينكروا معرفتهم بها . وأيًا كان الذي حدث ، فإن هناك حقيقة واحدة أعرفها تمام المعرفة ، وهي أن بدور لم تكن وهماً ، وإنما وجوداً حقيقياً لا سبيل إلى نقضه ، عاشرتها وامتزجت بها روحاً وبدنا ، ضوءاً وظلاً وعطراً . فكيف يمكن أن يكون وهماً ما شاركت كل الحواس فى الاحتفاء به والارتواء منه . هل هو الجنون؟ . كيف يداهمني الجنون وأنا محصن بعرائش الورد ومسك الأرض الذى يعبق على مدى الفصول الأربعة . لعلني أجد جواباً لدى

ياقوت الشاعر . إنه الرجل الوحيد الذى لا يستطيع أن ينكر معرفته بها وعلاقة الفن التي بينهما . ذهبت إليه حيث يقيم . اختار شريطاً من الأرض يدخل فى ماء البحيرة ، وابتنى فوقه كوخاً ، وزرع مشاتل نعناع وأشجار ورد وقرنفل وحناء ، واعتزل الناس متفرغاً لمغازلة حبيبته المجهولة ، فلا يظهر إلا مغنياً أو عازفاً في الاحتفالات الكبيرة . دعاني إلى الجلوس فوق محراب خشبي يلتصق بحافة البحيرة ، وجاءت غزالته ترتع بجوارنا ، كان الوقت صباحاً ، والهواء منعشاً ، أحببت أن أبقى قليلاً فى هذا الجوار العامر بالسلام والهدوء . سألته عن معنى النجمة الموشومة بالحناء على ظاهر يده ، فقد رأيت وشماً مثلها على ظاهر يد بدور . قال إنها نجمة يضبط بها حركته مع حركة الأفلاك الدائرة فى أبراجها ، ويراها فلا ينسى وهو يمشي فوق الأرض ، انتماءه إلى الموطن الأصلي للبشر . رأيت كأن نجمة الحناء استعارت شيئاً من بهاء النجوم فبدت مشعة متألقة . سألته إن كان يذكر مغنية اسمها بدور ، تحمل فى ظاهر يدها وشماً مثل وشمه . رأيته يرفع رأسه مستحضراً صورتها ، فأعطيته أوصافها ، وقلت له قصتي معها ، وقصة الآخرين الذين أنكروا معرفتهم بها ، وسألته أن يعينني على الاهتداء إليها ، لأنني حائر لا أعرف سبباً لاختفائها ، ولا داعيَ يدعو الناس إلى نكرانها ، تدفقت فى الحديث عنها ، وكأنني أريد بذلك تأجيل الاستماع إلى جوابه الذي أخشى أن يأتي مشابهاً لأجوبة الآخرين . لكنه أبلغني بأنه يعرف تماماً المرأة التى أقصدها ، وأنها تأتي دائما إلى كوخه تستمع لأشعاره وألحانه التي تحبها . جاءت إجابته ترسل فى سمائي أسراباً من طيور الفرح ، التي سرعان ما اختفت عندما أضاف ، إنه يعرف نساء كثيرات مثلها ، لا يظهرن إلا لمن أحببن ، ويمتنعن عن الظهور أمام الآخرين . وهو يرى أن ما حدث لي مناسبة للغبطة والفرح ، لأن من أعطاه الله بصيرة كبصيرتي ، وألهمه حب امرأة لا تكشف عن نفسها إلا أمامه ، يجب أن يكون شاكراً هذه النعمة . وأبلغني فى نهاية اللقاء ، إنه سوف ينقل لها رسالتي عندما تأتي لسماع وحفظ ألحانه ، وسيرفع أي التباس وقع بيني وبينها . مؤكداً بأن اختفاءها ليس إلا دلالاً تختبر به حبي ، وتعرف عن طريقه مقدار

شوقي إليها . لم أجد فى كلماته أي عزاء . إنه يهيم بأودية الجن وظن أنني مثله أريد أن أهيم بها . إنني أعرف يقيناً أن تلك المرأة التى سافر وراءها القلب ولم يعد ، ليست امرأة مثل نسائه الوهميات ، المنتميات إلى عالم الأطياف ، والمصنوعات من ذرات الضوء والهواء . إنها امرأة من عالمنا ، تغني فى الأفراح ، وتعشق الزنابق والورود ، وتحب الاغتسال عارية فى مياه الينابيع أيام الربيع ، لن أتوقف عن البحث حتى ألقاها ، وسأعرف عندئذ القصة التي تكمن وراء اختفائها . لم تفلح زيارتي إلى بيت الشاعر فى أن تسكت مواجعي ، ولم أجد إنساناً آخر يمكن أن يضيء السبيل الذى أظلم أمامي . بقيت فيما تلى ذلك من أيام مشغولاً بهذا اللغز الذى أنبت حسكاً يجرح روحى ، ويعطل قدرتي على الاستمتاع بمظاهر الجمال من حولي ، فما عدت كما كنت سابقاً أتجول مبهوراً بتراقص الأضواء والظلال فوق الواجهات المزينة بالنقوش وعرائش الكروم ، متأملاً جمال الحدائق والحقول ، وبهجة الماء الدائر فى السواقي . صرت أذهب لأشاهد الاحتفالات بقلب غير ذاك القلب الذى كان يركض نحوها ، ويمد يداً لالتقاط الفرح الطالع كالزهر من حلقات الراقصين . لم أعد أرى فرحاً ولا زهراً ، أو أمد لأحد يداً أو قلباً ، وإنما أرفع بصراً يائساً متعباً أبحث عن امرأة تحني غدائر شعرها فوق عود مرصع بالأصداف ، وترسل غناءً يضيء قناديل الفرح داخل الصدور . أعاود مساءلة النوتي الشيخ فلا أفوز بشيء جديد ، وأذهب مرة أخرى إلى بيتها لأجد بيتاً خالياً مهجوراً لا يشبه البيت الذى رعى نبتة حبنا حتى أزهرت ، ولا أرى فى حديقته توتاً ولا عشباً ولا سمكاً ولا حريراً ولا نحلاً ولا عسلاً ، فأنكر أن يكون البيت بيتها . أهرب منه ولا أفكر في العودة إليه . وكنت أرى فى الطرقات نساء يشبهنها ، فأذهب إليهن راكضاً ، باسطاً كف الأمل والرجاء ، لأكتشف عند اقترابي منهن ، أنهن نساء غيرها ، فأعود أواصل بحثاً عبثياً لا طائل منه ولا جدوى .

قالت نرجس القلوب وهى تراني أجلس صامتاً إلى مائدة الإفطار ، لا أكاد أقوى على مضغ الطعام :

- تبدو مهموماً عازفاً عن الأكل ، فما الذى يضايقك؟

كيف أستطيع أن أبوح لها ، بأنني واقع فى أسر امرأة ، أذاقتني أقراصاً من عسل السعادة لم أعد أقوى بعدها على استملاح أي طعام مهما كان دسماً ، شهياً ، كطعامها . كيف أستطيع أن أقول لها أيضاً ، إن هذه المرأة اختفت فجأة من حياتي ، وإنني أتهم كل من فى القصر بأنهم شركاء فى تدبير مؤامرة اختفائها . ظلت هذه الفكرة تسيطر على ذهني ، وأجد فيها تفسيراً وحيداً لما حدث ، وظلت مهمتي هي أن أجد خيطاً يكشف السر ، ويفضح المؤامرة . ثم بدأت يوماً وراء يوم أتخلى عن هذه القراءة التآمرية التي لم أجد دليلاً يؤكدها . وأفكر فيما إذا كانت حقاً مجرد كائن لا ينتمي إلا إلى عوالم الحلم والذاكرة المغموسة فى الأساطير . استعدت اللحظة التى رأيت فيها بدور لأول مرة . وكيف تهيأ لي ، بأن هذه المرأة لا يمكن إلا أن تكون إبداعاً خاصاً من صنع المخيلة ، وكيف أحسست أنني أتلقى نفحة مباركة من الكشف والإلهام ، تجعلني قادراً على اجتراح هذه المعجزة ، وابتكار امرأة لها مواصفات ومقاييس لا تناسب إلا قلب صانعها . امرأة تحمل ملامح امرأة الحلم ، وبهاء عينيها ، وبهجة حضورها ، وثراء أنوثتها ، وكل مظاهر الجمال التي لا يمكن أن تتوفر لامرأة واحدة فى الدنيا ، إلا هي . تذكرت أيضاً أحاديثها ، وأغانيها التي تجعل من أسرار الكون موضوعاً لها ، والأشياء التي تختفي خلف الأشياء التي نراها ونسمعها ، والتى لها وجود حي نابض لا يراه ولا يحس به إلا من ملك شفافية الحلم والرؤيا . فهل كانت تشير بتلك الأحاديث والأغاني إلى نفسها؟ وتكشف بها عن هويتها الأثيرية ومادتها المصنوعة من جوهر الوجود وعناصره التي لا تدركها الحواس؟ وهل كانت رؤيتي لها ، وحياتي معها ، شيئاً من المجازات البصيرة وشفافية الرؤيا؟ وهل معنى اختفائها إنني لم أعد أ ملك موارد روحية تعينني على النفاذ إلى عوالمها ، وتمزيق السحب التى تحجبها؟ .

كنت أجلس وحيداً في الشرفة التى شهدت لقاءاتنا ، أستمع إليه هدير شلالات الماء ، وأرقب الضوء المذاب فى الأفق لحظة الغسق ، وأستقبل هواءً بارداً

منعشاً يهب من ناحية الجبال ، محملاً بعبير أشجار مسك الليل ، مستغرقاً في التفكير بسر احتجابها ، قائلاً فى نفسي بأن الجمال الهارب من هذا المشهد ، لن يعود إليه ، إلا إذا عادت بدور تعزف عودها وتنشر ضوءها ، وتبعث فى هذه اللوحة المتعددة الألوان حياة ومعنى . عندما أحسست بقلبي بغتة يخفق ذلك الخفقان الذي يسبق حضورها ، ويبشر بدنو مجيئها . تهيأت لاستقبالها ، وأنا لا أكاد أصدق حدسي ومشاعري . أقف ذاهلاً أرنو إلى الباب الذي يفضي إلى الشرفة ، وأحس كأن الكون كله توقف عن الحركة وبقي صامتاً ، ينتظر معي ظهور المعجزة . مرت لحظات قبل أن ينبثق فى قلب الصمت والسكون صوتها ، متدفقاً بالغناء ، ومصحوباً بأنغام العود . أرهفت سمعي جيداً لكي لا يكون هذا الغناء مجرد اجترار لذكرى جلساتها معي . تأكدت بأنني لست حالماً ولا واهماً ، وأن بدور موجودة فى هذا المكان تعزف عودها وتغني ذات الأغنية التى تتحدث عن الأشياء الكامنة خلف مظاهر الأشياء . تطلعت شمالاً ويميناً ، داخل الشرفة وخارجها ، دون أن أراها . كان الغناء قريباً فذهبت أطوف غرف البيت ، غرفة غرفة ، وأفتش عنها بين أركانه وزواياه ، وخلف أمتعته وقواربه وصناديقه . لم أجد أحداً فرجعت إلى الشرفة أنصت حائراً إلى غنائها ، محاولاً أن أهتدي إلى مكانها السري . تركت البيت وذهبت أبحث عنها بين الأشجار ، بأمل أن تكون قد افترشت الأعشاب ، وجلست تعزف وتغني تحت هذه العرائش التى تتسلق الجدران . بدأ الغناء يبتعد ويتلاشى . وقفت أمام مدخل البيت أهتف باسمها وأناديها لعلها تسمع النداء . اختفى الصوت واختفت أيضاً بقايا أشعة الشمس التى كانت تلون السماء . هبط الظلام وعاد النوتي إلى البيت مهرولاً يسألني عن سر هذا الصراخ . تركته وذهبت أركض عبر الحقول والظلام . ارتطمت برجل انبثق فجأة واعترض طريقي . كان ياقوت الشاعر يستوقفني قائلاً ، إنه التقى منذ لحظات ببدور وأبلغها رسالتي ، وأخبرها بمدى عشقي لها وعذابي لأنني لم أرها . وهو لم يتركها إلا بعد أن أبلغته بأنها ستأتي هذا المساء لزيارتي . ويسألني إن كنت قد التقيت بها . قلت له بأنني سمعت غناءها دون أن أراها ، وصرت أبحث

عنها فلم أجدها ، حتى تهيأ لي أن ما سمعته لم يكن إلا وهماً وخداعاً للحواس . أفهمني ياقوت بأنها تفعل ذلك لأنها تحبني ، وأرادت أن تمنحني أثمن شيء لديها وهو هذا الصوت الذى احتوى جوهر جمالها وشخصيتها . رأتني مفتوناً بجمال مظهرها ، فأرادت أن تحررني من هذا الافتتان الذى يسلب الإنسان حريته وإرادته . حجبت جسدها عني ، وأخفت مظاهر أنوثتها ، فلا أستطيع أن أرى غير جمالها الحقيقي ، الذى يجعل حبي لها تحرراً وانعتاقاً ، وعلاقتي بها مصدر طمأنينة وسلام . سألته ، ذاهلاً عن الكلمات التي قالها ، موقناً أن غناءها لن يطفئ شوقي لسماع النشيد الذي يعزفه جسمها كله ، إن كنت سأراها في صورتها الكاملة مرة أخرى . أجابني قبل أن يختفي في الظلام بأنني سأراها عندما أحقق أعلى مراتب التواصل الروحي معها .

تعودت بعد ذلك على سماع صوت بدور فى أوقات مختلفة من الليل والنهار ، وفي أماكن غير المكان الذى سمعت فيه الغناء لأول مرة . صرت أسمعه وأنا أعمل بحدائق القصر ، أو أتجول فى شوارع المدينة ، كما أسمعه وأنا أزور الدير القديم . لم يعد قريباً وقوياً كما كان ذلك المساء . صار الآن يأتي وكأنه ينبع من مكان فى السماء ، كأنها اختارت أن تجلس فوق سحابة هائمة فى الفضاء ، تعزف عودها وترسل غناءً لا يسمعه أحد سواي . لم أعد أقفز من مكاني ، أتلفت شمالاً ويميناً ، أفتش عن مصدر الصوت ، ولم أعد أجري عبر الحقول هاتفاً باسمها ، فقد تعودت على سماعها ، وتآلفت مع غنائها وهو يأتي من لا مكان . أيقنت أن طوراً جديداً تشهده علاقتي ببدور ، حيث أصبحت تمثل فى ذهني حضوراً يمتزج بروح المكان ، ويسري مع الهواء الذى أتنفسه . ليكن ما أسمعه مجرد صدى لأفكارى ، أو تجسيداً لرغبة ترقد فى حنايا ذاكرتي . ليكن نابعاً من نقطة فى القلب أو نقطة فى السماء ، فقد صار هذا الصوت ، بغنائه البعيد ، وشفافيته الذائبة فى شفافية الضوء ، جزءاً أصيلاً وحميماً من حياتي ووجودي ، يرافقني أينما ذهبت ، ويسيل فى بدني ممتزجاً بدورة الدم فى الأنسجة والعروق . لم يعد يعنيني أن ألقاها أو لا ألقاها ، لم يعد يهمني أن تظهر أمامي بكامل

صورتها أو لا تظهر . يكفي أن أتواصل معها هذا التواصل اليومي ، المفرح ، العميق ، الذي لا تخالطه لحظة كدر أو جفوة أو خصومة ولا يثير في نفسى قلقاً ، ولا صراعاً بين مايريده الواجب وما يريده القلب ، وأراها تمتزج بمظاهر الوجود وعناصره ، وتصبح مصدراً من مصادر بهجته وجماله .

اختفت سحب الكآبة التي أثقلت صدري ، وأقلقت هناء الناس الذين حولي ، وسببت كدراً لنرجس القلوب التى كانت كثيرة الانشغال بما طرأ من تبدل على حالتي . إنها امرأة لم تعاشر الحزن ولا تعرف لماذا يكون الإنسان حزيناً مثلي . أسعدها الآن أن تراني أقبل على الحياة معها بروح جديدة ، أقرأ لها الكتب التي تحبها ، وأصحبها عند المساء في جولات قصيرة لا ترهقها ، عبر حدائق القصر . كانت تباشير الربيع تلون الأشجار وتتيح للعصافير أن تواصل الغناء طوال النهار . فكنت أقطف لها الأزهار ، وأطعم معها البجع ، وأترنم لها أحياناً بأغنية مما صرت أحفظه من أغاني بدور ، دون أن أذكر اسمها أو أعاود السؤال عنها . صرت أقضي وقتاً طويلاً مع نرجس القلوب ، أستمع إلى أحاديثها عن الطفل القادم ، والبرامج التى أعدتها لتربيته وتعليمه ، وأرنو إلى وجهها وهي ترسم بالإبرة نقوشاً فوق وشاح تنسجه له ، فأراه طافحاً بالسعادة . أقبل على محبتها ، وأجتهد فى التسرية عنها ، وأترقب بشوق مثل شوقها ، الحدث السعيد الذى صار موعده يدنو يوماً فيوماً .

كان جلال الدين قد تفرغ تفرغاً كاملاً لمشروعه مع الحرفيين . يأتي على عجل إلى القصر ثم يذهب مسرعاً ، معتذراً عن المشاركة فى المراسم التي تقام بالديوان ، قائلاً بأن العمل بلغ مرحلة متقدمة تحتاج إلى كل وقته . كان يمتنع عن ذكر التفاصيل مكتفياً بالحديث العام ، والتأكيد على أن هناك نتائج باهرة سوف يصل إليها الحرفيون . وكنت أراه يتكلم بيقين عن نجاح مشروعه ، ويتأبط مخطوطاً مترجماً عن الصينية يضفي أهمية على الأسرار التى يحتويها ، فأتساءل عن النتائج العلمية المبهرة التى يمكن أن يصل إليها بمشغله وحرفييه ومخطوطاته ، وهو على كل هذا البعد من عصر التقنية وثورة العلم . وأحاول أن أبحث فى ذاكرتي

عن اختــراع خطيــر ، تحـقق فى هذا التـاريخ ، فـلا أهتــدي إلى شيء . لعله سيكتشف آلة لقياس الوقت أكثر تقدماً مما توصل إليه علماء بغداد ، أو يدخل عنصراً جديداً فى صناعة القوارب ، أو يقوم بتحسين أدوات النسيج ، أو أي شيء آخر ينتمي إلى هذا الزمان ، وتحكمه شروط الإنتاج العلمي فى هذه البيئة . وكان جلال الدين يراني فاتر الحماس ، لا أبدي اهتماماً كبيراً بما يقول ، فينظر نحوي بعينيه الصغيرتين الماكرتين متحدياً ، ويمضي معلقاً على وجهه ابتسامة غامضة . لم يكن يهمني أن يصل الشيخ إلى تحقيق ما يريد أو لا يصل . كل ما كان يهمني هو أن تبقى هذه المدينة النائية عن ذلك العصر ، بعيدة عن أمراضه أيضاً ، نظيفة من تقنية العنف ، قريبة من منابع الحكمة والبراءة ، كما أراد لها صانعها عندما أسقطها فى جيب كوني مسحور لا يمر به زمن الصخب والرعب .

لم تمض سوى بضعة أسابيع على هذا الانشغال الدائم بالمشروع ، حتى جاء جلال الدين يوقظني عند الفجر من نومي ، ويخرجني على عجل من القصر ، ويقودني عبر بوابة الصحراء إلى ذلك الخلاء ، الذي ستقام فيه التجربة الأولى . جاء مستبشراً ، باسماً ، يطفح وجهه بسعادة من اهتدى إلى جزيرة الكنز . قائلاً بلهجة يلونها الحماس والانفعال بأن المعجزة التي كان يحلم بها ، ودعى الله أن يطيل عمره حتى يراها ، قد تحققت الآن ، وبأسرع مما كان يتصور . كان واضحاً مما بدا في عينيه من تعب وإرهاق ، أنه لم ينم طوال الليل . كنت أريده أن يدعني أكمل نومي . لكنه أرغمني على النهوض ، بحجة أنه يريد إجراء تجربة أولى يتأكد بها من نجاح الاختراع قبل أن يستيقظ الناس ويتوافدوا على المكان . وفي الطريق إلى مشاهدة هذا العرض الأولي ، أخبرني بأنهم أفلحوا في صنع سلاح جديد لم تعهد له الدنيا مثيلاً . قذيفة يقول المهنيون بأن لها قوة تدميرية هائلة ، وسوف تتفجر مثل انفجار الصواعق وتصيب الهدف على بعد عشرة فراسخ . لم أصدق ما كان يقوله بانبهار وإكبار . منعت نفسي من أن أبدى فزعاً أو غضباً . منعت نفسي من أن أصرخ قائلاً لماذا الصواعق وقذائف النار ولماذا لا يكون الاختراع أداة بناء بدلاً من آلات الدمار والتخريب . بقيت صامتاً متحصناً بيقيني

أن اختراعاً كهذا لم يكن ممكناً أن يتحقق قبل تاريخه برغم مما مضى يقوله عن التجارب الأولية التي أثبتت نجاحه والتى كانوا يجرونها أيام العواصف الرعدية لكى لا يفزع دويها أهل المدينة . ذهبت أتبعه وهو يسرع الخطى حتى وصلنا إلى المكان الذى تجمع فيه العمال . كان الوقت قبيل شروق الشمس بقليل ، وكان الحرفيون يصنعون دائرة حول اختراعهم ، يفركون فى قلق أيديهم ، وينتظرون في برد الصباح مجيئنا . كان ما رأيتهم يتحلقون حوله مدفعاً ، بمثل ما وصفته للشيخ فى أحاديثنا ، له ما سورة طويلة وعجلات يسير فوقها ، قاموا بطلائه بمادة فضية ، وزينوه بالأصداف ، ونثروا حوله أزهاراً ووروداً ، جلباً للفأل الحسن ، واحتفالاً بهذه المناسبة التى ستكون تدشيناً لعصر الاختراعات العلمية المذهلة . كان المدفع قطعة فنية تستحق أن تأخذ مكانها فى متاحف الفن . وتصورت أن بناء هيكل مدفع بهذا الإتقان والبراعة ، هو أقصى ما يمكن عمله فى هذه المرحلة . ولكن العامل الذى تولى الشرح ، أشار إلى صندوق الذخيرة الموضوع بجوار المدفع ، قائلاً بأنهم استعانوا بكتاب صيني عن المواد المشتعلة التى يستخدمها الصينيون ، واستطاعوا الاهتداء إلى صنع القذيفة ، كما توصلوا إلى إنجاز آلة الرماية والتحكم فى قوة الدفع وتحديد المسافة . كانوا قد وضعوا كومة كبيرة من الأحطاب فى الخلاء لتكون هدفاً لنيرانهم ، وعبأوا المدفع بالذخيرة استعداداً للإطلاق . تراجعت مسافة إلى الوراء تحسباً لأي طارئ يجعل هذه القذيفة تنفجر داخل مدفعها . أطلقوها فأحدثت دوياً هائلاً عند ارتطامها بالهدف . تعالت الأدخنة وألسنة اللهب وتعالت صيحات الفرح والابتهاج . هرولوا إلى مكان الانفجار يعاينون الهدف الذى أصابته القذيفة وما نتج عنها من دمار . ثم جاءوا لاهثين يهنئونني باعتباري صاحب الفضل فى إرشادهم إلى هذا الاختراع ، ويعانق بعضهم بعضاً . كان ما رأيته أقوى من أن تستوعبه مداركي فى لحظة واحدة . بقيت ذاهلاً ، أردد بصري بين المدفع وبين النار وسحائب الدخان . ما الذي أستطيع أن أقوله أو أفعله الآن؟ . هل أقول لهم أن يوقفوا الاحتفالات ، لأن اختراعهم ليس إلا بداية الحريق الذي سيأكل مدينتهم؟ هذه المدينة التى جئت إليها هارباً من قعقعة الحديد ، ودوي

الانفجارات ، ورائحة البارود ، فى عصر ملتات ، مجنون بتقنيات الحرب وتجارة الموت . ما فائدة ذلك الآن ، وما جدوى أن أكون نادماً على ما أفضيت به للشيخ من أخبار ذلك الزمان . من أين لي أن أعرف أن كلمات الهجاء التى قلتها ساخطاً ، متذمراً من أحوال ذلك العصر ، سوف تشعل فضوله ، وتثير انبهاره ، وتدفعه إلى تقليد ومحاكاة ماسمع ، حتى يصل إلى اختراع مدفع قبل ميقات اختراعه بمئات الأعوام . إنني ضحية كتب التاريخ ، بمثل ما أنا ضحية هذا الفضول الناتج عن رغبة الإنسان فى تدمير الذات . انتهى الزمن الجميل ، لأن هذا المدفع سوف يفرض منذ الآن منطقه الخاص . وله لغة سوف يجبرهم على الحديث بها . وهو يريد منذ اليوم حاكماً يتحكم فى قوته ، ويشرف على استخدامه ، ويأمر متى تنطلق قذائفه أو لا تنطلق ، ومن يملك هذه القوة ، سوف تكون له اليد العليا التى تفرض على الآخرين سلطتها وسطوتها . انتهى التكافؤ الذى يضمن العدل ويتيح لجميع الناس حياة متساوية . فليبشروا بقذائف النار تنفجر تحت حجورهم . أفاق أهل المدينة على صوت الانفجار ، وانتشرت بينهم أخبار الاختراع الجديد ، فتدفقوا عبر بوابة الصحراء يصنعون حشداً هائلاً ، ويطالبون بإجراء تجربة جديدة تتيح لهم مشاهدة المعجزة . راقبوا انفجار قذيفة أخرى فى الصحراء ، وغمرتهم هستيريا الفرح الجنوني . انتهى عصر السيوف والرماح والفرسان الذين يتصدون للمعارك بصدورهم ، وأشرق على الدنيا عصر جديد ، هو عصر المدفع الذي يصنع البراكين والصواعق . عادوا يملؤون الشوارع رقصاً وغناء وعزفاً على الطبول والمزامير . تركوا أعمالهم وتفرغوا للاحتفال . أيقظ هذا الاختراع جذوة الحماس الوطني ، فصاروا ينشدون الأغاني التى تنقل ذكريات المعارك القديمة ، يضربون الطبول وينفخون الأبواق التى تصدر نفير الحرب . أخذت جلال الدين جانباً ، أسأله عن فائدة اختراع شيطاني كهذا ، جاء يوقظ غريزة الاقتتال التى ظلت نائمة لمئات السنين ، وقد كان بإمكانه أن يسعى لإنتاج شيء نافع مثل آلة لكسر الحجارة ، أو طحن الحبوب ، أو صنع الأحذية ، أو حراثة الأرض . تحدث الشيخ بمنطق حاكم من أسياد القرن العشرين ، وأرباب

صناعة الموت ، قائلاً بأنها قضية أولويات ، يأتي على رأسها أمن المدينة وحمايتها من الأعداء .

كنا قد وصلنا إلى القصر ، حيث سيقام حفل على شرف أصحاب المشروع . جاء موعد الحفل وجاءت دنان الخمر وآلات الطرب وانتشرت فى القاعة الكبيرة حلقات الرقص والغناء ابتهاجاً بهذا العيد . انتحيت جانباً أشرب كأسي صامتاً وأستمع إلى نقاش يدور حول أفضل الأساليب لاستخدام هذا السلاح . بدا واضحاً أن الاختراع قد أشعل خيال هؤلاء الناس ، وملأ رؤوسهم بالأحلام الدموية . سمعتهم يقولون بأنه صار بإمكانهم اليوم غزو أكبر ممالك الدنيا ، وإقامة حكم أوسع مما سعى لإقامته الإسكندر المقدونى ، سيقضون إذا أرادوا على الروم والسلاجقة والبيزنطيين وسيبسطون نفوذ دولتهم على الشرق والغرب . وكان الإسكافي أكثرهم ابتهاجاً بهذا الاختراع قائلاً لمن يتحدثون عن الفتوحات بأن ذلك ليس ما تسعى إليه عقد المرجان ، فهي مدينة أمن وسلام ، وستنام نوماً أكثر هناء وسعادة فى ظل هذا المدفع الذي يحرسها . منعت نفسي من الكلام فلم أقل له أن هناء المدينة تبخر فى الهواء مع أعمدة الدخان الصادر من قذيفته النارية . كانت نرجس القلوب فى آخر أيام حملها ، جاءت ترتدي ثوباً وردياً فضفاضاً لم يستطع أن يخفي استدارة بطنها ، سألتني لماذا أبدو صامتاً وكأن هذا الاختراع الذي أسعد الناس لا يسعدني . أردت أن آخذها إلى حضني أبشرها بالدمار القادم وأبكي ، ولكنني رأيت الإسكافي واقفاً بجوارنا ، فكظمت غيظي قائلاً بأنني لا أستطيع أن أتصور نفسي قائداً عظيماً ، يضع فوق رأسه قرني ثور ، ويغزو الأقطار بقذائف النار . وشارك الإسكافى فى الحديث معرباً عن يقينه بأنه خير للإنسان أن يكون قادراً على الغزو ، من أن يكون مهدداً بالغزو من الآخرين . وأبدى إعجابه بمهارة الحرفيين الذين تحولوا من بناء القوارب ، وصناعة القناطر ، وصهر الحديد الذى تصنع منه القدور والصهاريج ، إلى عمل جليل مثل صناعة القذائف ، حيث سيتمكنون من تحضير ألف قذيفة فى عام واحد . وسيواصلون جهودهم العلمية لاكتشاف أسلحة أكثر تفوقاً وفعالية . قلت في خاطري لعلهم

سيفلقون الذرة ويستخدمونها فى تدمير العالم منذ الآن ، فيريحون البشرية من عناء الأزمنة القادمة . كنت قد شربت نبيذاً كثيراً وخشيت أن يدفعني الشراب إلى ارتكاب حماقة تفسد عليهم هذا الحفل . ضاق صدري بما سمعت ورأيت فتركت القاعة متسللاً إلى حدائق القصر . كان الوقت ضحى ، ومناخ الربيع يعبق بشذا الجنائن . ملأت صدري بالهواء النظيف ، ورفعت رأسي إلى السماء الكبيرة الخالية من السحب ، أستمد من صفائها عوناً على تسكين هذه الاضطرابات ، ومشيت متجولاً بين الأشجار وجداول الماء . كان كل الذين يشتغلون بحدائق القصر قد تركوا أعمالهم وذهبوا يشاركون فى الحفل . أدهشني أن العصافير سكتت جيمعها عن الغناء . فتشت عنها فلم أرها ، كانت الحديقة خالية من طيورها التي كانت ترفرف وتصدح طوال النهار . أدركت أن الانفجار الهائل أفزعها فذهبت تبحث عن الأمان في مكان غير هذا المكان . كنت أراقب طاووساً يجر ذيله فى كبرياء وأفكر فى التحولات التي سوف تطرأ على هذه المدينة بعد الآن ، عندما ضجت الحديقة فجأة بالغناء . جاء غناء بدور ينتشلني من أفكاري ويجعلني أقف مبهوراً أنصت إليه . لم يكن الغناء هذه المرة يأتى واهناً ضعيفاً قادماً من السماء كما كنت أسمعه فى الأيام الماضيات . لم يكن هاتفاً ينبع من القلب ، أو يسقط من سقف الكون . كان الغناء هذه المرة يأتي واضحاً قريباً ، كأنها تغني خلف إحدى هذه الأشجار . وكانت تعيد أغنية ياقوت الشاعر عن الإعصار الأصفر الذى خرج من شقوق الجبال يدمر المدينة ويبيد أهلها . بدا غريباً هذا التباين بين ما تثيره الأغنية من مشاعر الحزن والأسى ، وبين هذا الجو الاحتفالي الذى يغمر المدينة . لعل بدور أيضاً تنكر هذا الاختراع كما أنكرته ، وتراه يشبه بوادر إعصار يهلك المدينة ، أو لعل أفكاري هى التي تجسدت فى شكل أغنية حزينة ، ولكن الغناء هذه المرة لا يتبعني أينما ذهبت وكأنه صادر عني ، إنه الآن يبتعد بقدر ما أبتعد عنه ، ويقترب عندما أدنو منه . تهيأ لي أن الغناء يأتي من إحدى النوافذ أو الشرفات القريبة . دخلت القصر ، وسرت عبر رواق طويل أتبع مصدر الصوت ، حتى وجدت نفسي أقف مباشرة أمام الغرفة التي يأتي منها

الغناء . كانت هي ذاتها الغرفة المغلقة على أسرارها والمثقلة بالأقفال وأسياخ الحديد . حبست أنفاسي أنصت إلى الغناء ، كيف تراها استطاعت اقتحام هذه الغرفة التى يغطيها غبار السنين . كان صوت بدور ينسكب من خلال الباب واضحاً جلياً لا لبس فيه . ألصقت أذني بالباب زيادة فى التأكيد . أكاد الآن أسمع حركة الريشة التى تستخدمها فى العزف وهى تنتقل من وتر إلى وتر ، وأستنشق عطرها الذى تستحضره من رحيق الياسمين . بدأت أطرق الباب وأناديها . واصلت بدور الغناء دون انقطاع . لا بد أنها عرفت على وجه اليقين أن النبع الذى يمنح الإنسان شباباً دائماً هو ما يقفلون عليه هذه الغرفة ، فجاءت تستحم بماء النبع وتجلس عارية على ضفافه ، تعزف وتغني . عاد الشوق إلى رؤيتها يحرق صدري . ركضت مسرعاً إلى الحديقة حيث ترك العمال معاولهم ومناجلهم وفؤوسهم ، وعدت بفأس كبير أستطيع أن أحطم به الأقفال . توقفت لحظة أتأمل الطلاسم المنقوشة على الباب ، وأنصت إلى الغناء ، وأفكر فى نتائج هذه المغامرة . لقد ظل أصحاب القصر جيلاً وراء جيل يحترمون الحكمة التى أمرت بإبقاء هذا الباب مقفلاً ، ولكن كيف استطاعت بدور النفاذ إلى داخل هذا المكان . لعل للغرفة نافذة أو كوة صغيرة استطاعت فتحها والتسلل من خلالها . وراكضاً صرت أطوف بالأروقة المجاورة فلم أجد إلا الشبابيك التى تطل على الحديقة . وراكضاً ذهبت خارج القصر أتفحص الجدار الخلفي للغرفة فلم أجد جداراً ، كان القصر فى هذا المكان يتصل مباشرة بالهضبة التى احتوت الجدار حتى صار جزءاً منها . لعلها اكتشفت نفقاً سرياً أو استعانت بالقوى الخارقة للطبيعة على الدخول ، ولا سبيل إلى الوصول إليها ، إلا باقتحام الغرفة وتحطيم أقفالها . وراكضاً رجعت إلى باب الغرفة وبدأت أهوي بالفأس على إقفاله وأسياخه حتى تفككت ، وقفت لاهث الأنفاس انتفض ارتعاشاً ورهبة قبل أن أرفع الأسياخ وأدفع الباب ، فتحت الغرفة فلم أجد أحداً ، ولم أر فى البداية سوى العتمة . هاجمتنى رائحة رطوبة قديمة يحتويها المكان ، اختلطت برائحة العطر الذى تستخدمه بدور ، فى حين صار الغناء يتدفق أكثر حدة ولوعة ، وأكثر غواية وسحراً . كان الضوء الذى تسلل

عبر الباب المفتوح كافياً لأن أرى أن ما ظننته ظلاماً لم يكن إلا جانباً من الهضبة . صخور بركانية سوداء تحيط بها الجدران . ورأيت وسط الصخر باباً دائرياً ، معدنياً ، يغطي ما بدا لي أنه حفرة فى الجبل . أدركت أن الغرفة لم تكن إلا بناءً يحجب الكهف . كانت الكتابة فوق باب الكهف تحمل تحذيراً مكتوباً بطلاء فضي ، بدت حروفه واضحة رغم عتمة المكان ، يطالب الأحمق الذى فتح الباب ، أن يستفيد من هذه الفرصة الثانية ، ويعود من حيث أتى . ولكن الغناء الجميل الذى تدفق مجلجلاً ، مغلفاً بالصدى ، كان قد استولى على كل مشاعري فلم أعبأ بالتحذير . كانت أطرافي ترتعش ، والعرق يتفصد غزيراً من جبيني ، ورجع الصدى يملأ رأسي بالضجيج ، وبدور التى تناديني لم يعد يحجبها عني إلا هذا الباب الصغير ، الذى لا يحمل أقفالاً ولا أسياخاً . استعملت الفأس فى إزاحة دائرة من الجبس والحجارة تحيط بالباب ، ثم أمسكت بإحدى نتوءاته واستعنت بكل قوتي على فتحه . بدأ الباب يتحرك حركة بطيئة ويصدر صريراً موحشاً ، عالياً ، كأنه الصراخ . اختفى الغناء تحت صخب هدير هائل ارتفع من عمق الكهف ، وبدأ الهواء الأصفر الذى كان محتجباً خلف الباب يتسلل عبر الانفراجة الضئيلة . كان هواءً ساخناً ، فاسداً ، كريه الرائحة ، يلفح وجهي ويصيبه بالالتهاب . أدركت هول ماحدث ، فصرت أدفع الباب لكي يعود مقفلاً كما كان . ولكن الهواء الذى تحرك مثل بركان يستيقظ من نومه ، ضرب بدفعاته القوية باب الكهف وقذف بي فوق الأرض . نهضت أعدو ، يملؤنى الرعب ويتقاذفنى الهواء . كانت الرياح الصفراء قد سبقتني تعصف بالقصر . تضرب النوافذ والأبواب ، وتمزق الستائر . رأيت الناس يخرجون فى فزع من قاعة الاحتفال . يتصايحون ويرتطمون ببعضهم بعضاً ، يبحثون عن المدارج التى تقود إلى مخزن المؤونة تحت الأرض للاحتماء بها من عنف الإعصار . لم أكن أدري ماذا أفعل . وجدت نفسى أصرخ منادياً نرجس القلوب علها تغرف طريقة لإغلاق الكهف . سمعتها من خلال الصياح والضجيج وعصف الرياح ترد على ندائي . قاومت اتجاه الريح حتى وصلت إليها . عانقتها ونحن ملتصقين بالجدار قائلاً لها

بأنني أنا الذى فعلت ذلك ، حطمت باب الغرفة السرية ، وأيقظت الجحيم النائم فى الكهف . أتشبث بها وأصرخ بشكل هستيري :

- أنا الذي فعلت ذلك .

وهى تصيح من خلال عصف الرياح :

- لماذا؟ لماذا؟

أمسكت بيدي تسحبني وراءها وهى تهبط الأنفاق . لم أشأ أن أذهب معها . كنت أشعر بكراهية لنفسي ، ورغبة فى الهروب من أمام هذه المرأة . تركت يدها ، وأسلمت نفسى إلى دفعات الريح تسوقني خارج القصر . لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ نرجس القلوب تقولها . الجنين الذى اكتمل نموه فى بطنها يقولها . الأبواب والنوافذ التي تتحطم وهي تضرب الجدران تقولها . لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ . الطيور التي خرجت من مخابئها وصارت تتساقط ميتة فوق الأرض تقولها . أذهب مترنحاً صوب البوابة التي تفضي إلى الصحراء ، منها جئت وإليها أعود مرة أخرى . تتقاذفني الرياح ويملؤني إحساس بالعار والغثيان والندم والخوف من الهلاك . ها قد تحققت الكارثة وضاعت مدينة عقد المرجان . الناس يهرولون عبر الشوارع يتصايحون ويحتمون بالأعمدة والأقواس والجدران . بدأت الأشجار تفقد مقاومتها وتسلم أزهارها وأوراقها وثمارها لأمواج العاصفة تتقاذفها . وجدت نفسي أعبر البوابة وأعدو وسط الصحراء . لم أقو على الالتفاف لإلقاء نظرة أخيرة على المدينة التى يفتك بها الإعصار . أركض ، وأركض ، وأركض . لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ . مدينة اكتملت زينتها وفاض كأس بهائها ، فكان لابد أن تحترق وتموت . تختفي من فوق وجه الأرض بأهلها وأعيادها وأشجارها ، بأغانيها وفراشاتها وطيورها وسواقيها . إنه ذلك الخلل . ذلك العطب الأصيل الذى ظل على مدى التاريخ يشعل الحرائق ويصنع الحروب ويبيد المدن والبشر . كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث . أعرف أنه إرث أتقاسمه مع الناس جميعاً ، وأحمل حصتي معي . قوة غشيمة ، بدائية ، عمياء ، هي التي أفرخت جرائم القتل ، وحفرت أودية الموت والهلاك ، واخترعت المشانق والسجون وغرف التعذيب الوحشي . قوة تنام فى تلافيف الأدمغة ، وما أن

ترى إنجازاً بشرياً حقق اكتماله وجماله ونضجه ، حتى تتحرك بكل قبحها ودمامتها ، تفسد الحياة وتلطخها بالدم والصراخ ، تستيقظ كالأفعى التي اتخذت لها مكاناً سرياً تنام فيه بين ألياف وأغشية المخ ، وتتحرك لتزرع الموت الأسود فى الأنسجة والشرايين . عطب أصيل ، كنت أدرك دائماً وجوده ، وأخاف غدره وخديعته . وٌلدَ معنا ، ونمى بنمونا ، وزرع جرثومته التي تنغل فى دمائنا جميعاً ، بما فى ذلك أهل هذه المدينة الذين حققوا سلوكاً يليق بالأنبياء ، وما أن رأوا قذيفة تتفجر ناراً ودخاناً وموتاً ، حتى نسوا أعراس القلب وخرجوا يتنادون للقتال وينفخون أبواق الحرب . أدرك الآن وأنا أواجه هلاكي ، أنني لم أكن ضحية تلك الغرفة السرية المدفونه فى الجبل ، وإنما ضحية غرفة سرية أخرى مدفونة فى كهوف الذات ، تمتلئ بهواء أصفر ظل ملوثاً منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل . غرفة مهما وضعنا فوقها الأقفال وأسياخ الحديد ، وتظاهرنا بأنه لم يعد لها وجود ، وسمحنا للحياة بأن تمضي في مسارها ، فلا بد أن تكشف ذات يوم عن نفسها ، وتغمر الدنيا بهوائها الملعون .

لم أعد أقوى على الركض ، ولم أعد أستطيع أن أرى شيئاً بعد أن تورمت عيناي ، فصرت أتحسس الهواء كالعميان . كنت قد تقيأت كثيراً وبدأت أشعر بالاختناق . سأموت بعد أن منحتني مدينة عقد المرجان أزهى لحظات العمر ، فكافأتها بأن أطلقت عليها الجحيم الأصفر النائم فى سراديب الجبل وسراديب الذهن . لأمر ما أردت أن أحطم الزمن الأسطوري ، وأدمر المدينة التى كانت أكثر بهاءً مما تطيقه مشاعر إنسان منذور للغناء . لم تكن بدور تغني إلا في ذهني . ولم أكن منساقاً لكسر الباب إلا بإرادتي وإرادة العطب الناغل فى دمي . أنا الذي قتلت هذه المدينة وقتلت نفسي . اكتشفت أنني لا أجد هواء أتنفسه . أدركت أنني هالك لا محالة . مزقت الرداء عن صدري ، وأجهدت نفسى فى التقاط الهواء دون جدوى . ارتميت فوق الأرض أمزق جلدي ، وأحاول أن أفتح ثقباً فى صدري يتسلل منه الهواء . امتلأ صدري بالدم والجروح ، وتهالكت فوق الرمل والحصى ألفظ آخر أنفاسي .

عندما أفقت بعد ذلك ، كنت مندهشاً لأنني لا زلت حيًا . فقد كنت على يقين بأنني عانيت سكرات الموت اختناقاً . لا أدري كم مضى من الوقت منذ أن استيقظت من هذا الإغماء الذي حسبته موتاً ، أو هذا الموت الذي وجد في اللحظات الأخيرة إنقاذاً . لا شك أن وقتاً طويلاً قد مضى . فقد توقف الإعصار ، وتراجع النهار . زايلتني حالة الفزع وعاد لي بصري ، ولكن الظلام جاء يحجب الرؤية ، إلا من ضوء شمعة خافت ينوس فوق صخرة كبيرة . تنبهت إلى أن الأرض التى أرتمي فوقها لم تكن رملاً وحصى ، وإنما أرضاً صلبة صخرية باردة . وما أن ألفت عيناي عتمة المكان ، حتى أدركت أنني أرتمي بين أربعة جدران ، وأن الغرفة تشبه غرفة الشيخ الصادق الذى أوفدني منذ عام مضى فى هذه الرحلة . استويت جالساً وفتشت عنه بنظراتي فلم أجده . الغرفة غرفته ، وموقد النار المصنوع من الفخار موقده ، إلا أن جمراته مطفأة . وكانت الغرفة خاوية ، لا تحتوي عدا الموقد والشمعة إلا على هذا الضريح الذى حسبته حجراً . لابد أن الرجل توفي أثناء غيبتي ، فبنوا له هذا القبر . وصاروا يوقدون له الشموع توسلاً لبركاته . اكتشفت أنني الآن أرتدي ذات الملابس ، وأضع في معصمي ذات الساعة التي رميت بها في الصحراء ، فكيف تراني عثرت عليها فى ذلك الخلاء . وعدت لارتدائها دون أن أدرى . بدا لي الأمر غريباً ، ولكن الجراح ما تزال فى صدري ، وخيوط الدم ما زالت طازجة تسيل على بدني ، وتلوث قميصي . آثار الالتهابات فى عيني ، والهواء الأصفر لاذعاً ، مرًا ، أستشعره على طرف لساني . وبقاياه تغطى شعري وأهدابي . تنبهت وأنا غارق فى حيرتي أنني أحسست منذ لحظات ، وقبل عودتي إلى تمام وعيي ، أن أحداً كان يلبسنى ملابسي ، وأن أعوان الشيخ عندما رأوني أعود عارياً ، ساعدوني على ارتدائها . كنت حائراً مهموماً ، ولا أعرف تفسيراً لكل هذا الذي حدث معي ، وكيف عدت حياً بعد موتي ، وكيف تركت الإعصار الذى أهلك المدينة ، ونجوت وحدي ، لأستأنف حياتي في المدينة التي أنشأتني ، وأجد فى غرفة الشيخ من ينتظرني بملابسي ويضعها فوق جسمي . وقفت مستنداً إلى الجدار ، وخرجت مترنحاً إلى سقيفة البيت . نفضت

الغبار الأصفر الذى كان يغطي وجهي ورأسي ، وعبرت العتبة إلى الزقاق وقد أحكم الظلام حلقاته . مشيت أجر الخطى ، وأتكئ على الجدران ، عبر أزقة مظلمة ، خالية من الناس والحياة . حتى وصلت إلى شوارع مأهولة ، عامرة بالضجيج ، تضيئها مصابيح كهربائية أعشت بصري الذى ألف أضواء القناديل والفوانيس . دخلت ميداناً يزدحم بالحافلات وسيارات الأجرة وعربات الخضار ، هاجمتني رائحة زنخة ، هى رائحة القطران مختلطاً بأدخنة عوادم السيارات ، ورأيت ساعة مضيئة معلقة بإحدى البنايات تشير إلى الساعة الثامنة .مشيت متلفتاً شمالاً ويميناً خشية أن تدهسني إحدى الحافلات الكثيرة التى تتحرك وكأنها جعارين فولاذية كبيرة حمراء تملأ الميدان . وما أن رأيت سيارة أجرة فارغة حتى أوقفتها ، وقفزت بجوار سائقها ، الذى يضرب مزماره ، يضيف ضجيجاً إلى الضجيج ، ويخترق بنا الزحام والدخان ورائحة المازوت والقطران . ها قد عدت إلى مدينة العصر التي ما كنت أحسب أنني سأعود إليها ، وما ندمت لحظة على فراقها ، أو شعرت يوماً بأنني أنتمي إليها . وذاهلاً صرت أنظر إلى واجهات المتاجر والعمائر ، وأتأمل معالم الطريق الذى يقود إلى بيتي ، محاولاً أن أكتشف التغيير الذي طرأ على المدينة ، مستحضراً صورتها قبل سفري ، فأحس بأن تلك الصورة بعيدة ، باهتة فى ذاكرتي ، وكأنني غبت عنها عمراً كاملاً لا مجرد عام واحد . كان رأسي يزدحم بشتى الأفكار والانفعالات ، وكنت حزيناً للمصير الذي تعرضت له عقد المرجان بسبب حماقتي وجهلي ، وحزيناً أيضاً لوفاة الشيخ الصادق أثناء غيبتي ، شديد الأسف والأسى لأنني لن أجد أحداً غيره يفسر لي ما غمض من أسرار رحلتي . ترى ما الذى سيقوله أهلي وزملائي عندما يرونني . لابد أنهم فقدوا الأمل فى عودتي ، واعتبروني ميّتاً بعد غياب عام كامل . ترى ما الذي حدث لفاطمة ، وهل مازالت تنتظرني أم أنها أعادت ترتيب حياتها بما يلائم زوجة فقدت زوجها ، لن ألومها إذا فعلت ذلك ، ولن ألوم أحداً من أهلي إذا تصرف في بيتي بالبيع أو الكراء . وصلت إلى باب الشقة وأردت معالجته بالمفتاح الذى وجدته ملتصقاً بجيب السترة ، ولكنني آثرت أن أطرق الباب تحسباً لأي

ساكن جديد . سمعت حركة تصدر من داخل البيت ، فزررت سترتي وطوقت بها صدري ،لكي لايرى الساكن الجديد آثار الدم والجروح . فتح الباب ، ولم تكن سوى فاطمة التي فتحته . أفرحني وجودها ، ووقفت متباطئاً فى الدخول أنتظر وقع المفاجأة عليها ، ولكنها سألتني أن أدخل بسرعة ، لأنها تركت طنجرة تغلي فوق النار . دخلت في حين ذهبت هي راكضة إلى مطبخها ، اندهشت لهذا الأسلوب الذى استقبلتني به ، ولم أعرف كيف أعود عودة رجل من موته ، فتلقاني بكل هذا البرود وعدم الاكتراث . كان الأثاث داخل بهو البيت مازال في مكانه لم يطرأ عليه أي تغيير ، وقماش النايلون الذي يغطي طاولة الأكل هو ذات القماش الذي تثقبه الحروق ، ولا أدري ما الذي أثارني ، وأرسل موجة عاتية من الكآبة تغمر صدري ، فارتميت فوق الكرسي ، وانكفأت فوق طاولة الأكل أبكي وأبكي . بحرقة ومرارة صرت أبكي فراق تلك المدينة التى أهلكها الإعصار . أتذكر ما كافأتها بها وأبكي ، أتذكر نرجس القلوب وابتسامة عينيها والجنين الذي تحيك له دثاراً للشتاء . أتذكر البشر الذين أكرموا وفادتي ، وأسرفوا في محبتهم لي ، أسكنوني أجمل قصور الدنيا وجعلوني أميراً لأبهى مدينة ، فخذلتهم وأرسلت ريح الكهوف وشياطين الروح تقضي عليهم ، ثم تسللت هارباً إلى الصحراء ، عائداً إلى هذا البيت ، وهذه المدينة ، وهذه المرأة . سمعت فاطمة بكائي ، فجاءت تسألني عن السبب الذي يبكيني . رأت خيوط الدم التي تخضب قميصي ، والخدوش التى تملأ صدري ، فأبدت انزعاجاً مما رأت ، وركضت إلى صندوق الدواء تبحث عن مادة تطهر بها الجروح . سمعتها تسألني إن كنت قد اشتبكت في عراك مع أحد ، وتمد يداً تحمل قطناً لمعالجتي . أهملت سؤالها ، وتناسيت للحظات برود استقبالها ، وسألتها عندما انتهت من مداواتي ، إن كان غيابي كل هذه المدة قد أقلقهم . لم أتلق رداً سوى نظرة حائرة لم أعرف لها تفسيراً . سألتها مرة أخرى عما حدث لها ولأفراد عائلتي أثناء غيابي ، وعما فعلوه عندما اختفيت فجأة دون أن أترك خبراً أو أثراً ، وما إذا كان الشيخ الصادق أبو الخيرات قد أبلغهم قبل وفاته بما حدث لي . رأيتها تنظر باندهاش واستغراب ، وكأنها ارتكبت فعلاً

فاحشاً يجعلها ترتبك ولا تقوى على الكلام . لعل شيئاً خطيراً حدث أثناء غيبتي . لعلها اعتبرتني ميتاً ، وانتزعت حكماً بانتهاء زواجها مني ، واتخذت لنفسها زوجاً غيري ، أسكنته فى بيتي ، وما أن رأتني حتى اختلقت عذراً كي تهرب من مواجهتي . لم أستطع أن أكتم غضبي أكثر من ذلك .

أمسكت بها من كتفيها ، أهزها قائلاً :

- هل أختفي كل هذه المدة وأعود فلا أجد إلا هذا البرود والارتباك . أخبريني بسرعة ماذا حدث .

أشاحت بوجهها باكية ، فى حين واصلت الإمساك بها ، وأنا أتميز غيظاً .

- تكلمي وقولي ما الذى تريدين إخفاءه بهذا البكاء .

- أبكي لأنني أراك تعود مريضاً مرة أخرى .

- إنكم أنتم سبب مرضي وجنوني ، وما أن تركتكم حتى وجدت أناساً عشت معهم عاماً كاملاً لا أعرف إلا بهجة القلب والروح .

- ولكنك لم تغادر البيت إلا منذ ساعة واحدة فقط .

ومصعوقاً صرت أنظر إليها ، لأن ما قالته شيء لا يمكن أن يصدقه العقل . وقعت منهاراً فوق الكرسي وأنا مازلت أحدق فى المرأة التي قالت هذه الجملة الغريبة . هل كان هذا الغياب ساعة فقط . إن هذه المدة لاتكفي لأكثر من الذهاب إلى المدينة القديمة والعودة منها ، فهل كل ماحدث لي حدث فى تلك الدقيقة الفائضة التى تفصل بين رحلتي الذهاب والعودة . هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ هذه المدينة التى أهدتني جواهر قلبها ، وسقتني من رحيق أعنابها وزهورها ، وزوجتني أميرتها ، وعقدت أواصر الحب بيني وبين شعرائها وحكمائها ومزارعيها وصياديها وملاحي مراكبها ، ونسجت لي حكاية عشق مع أجمل مغنياتها . هل كان ذلك كله مجرد وهم . هذا العالم الذى استمتعت بأعياده ، وتسلقت جباله ، واغتسلت بمياه ينابيعه ، وذهبت للصيد فى غاباته ، وغرست الأشجار فى بساتينه ، وشاركت عاماً كاملاً فى مهرجاناته اليومية ، ورأيت فيه تقلب الفصول ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً وربيعاً مرة أخرى ، وتعلمت فيه ركوب

الخيل وفنون الرماية والصيد ، واستوعبت عدداً من أساطيره وحكاياته ، وحفظت عن ظهر قلب بعض أشعاره ، وعدت بحصيلة من أغانيه وألحانه ، هل كان حلماً لم يستغرق سوى دقيقة واحدة؟ أليس ذلك هو المستحيل بعينه؟ هل أصرخ فى وجه هذه المرأة قائلاً بأن كلامها ليس سوى هلوسة وتخريف . هل أسرد لها الآن الأشعار التى أحفظها ، وكلمات الأغاني التي وعتها الذاكرة ، وأخبرها بما سمعت ورأيت وعايشت من تجارب وأحداث يقتضي الحديث عنها أياماً بعدد الأيام التى عشتها هناك ، لأن لكل لحظة عمقها وثراءها وتميزها عن اللحظات الأخرى .

كانت فاطمة ترتدى ثوباً منزلياً يفيض على جسمها ، بدا لي أنه ذات الثوب الذي تركتها ترتديه قبل أن أترك البيت ، وتطوي أكمامه إلى مرفقيها بذات الطريقة . وكان الجزء الأول من ألف ليلة وليلة مفتوحاً ومقلوباً فوق طاولة صغيرة بمدخل الصالون كما تركته منذ عام مضى . فهل دخل العالم فى كبسولة «اللازمن» بحيث توقف الزمان عن سيولته وجريانه ، ليسمح لي بالعبور إلى تلك المدينة الأسطورية ، وينتظرني سنة كاملة حتى أعود ليواصل مساره من جديد . ماذا إذن عن الشيخ الصادق الذي وجدته يستقبلني فوق سجادته ذات الأهداب الذهبية ، ويتيح لي هذه الرحلة ثم أعود فألقاه متوفياً ، نائماً فى ضريحه ، هل كان هو أيضاً وهماً وخداعاً للبصر؟ وهل كانت غرفته التي ذهبت إليها ، وتصورت أنه مازال جالساً بها ، محاطاً بأعشابه وكتبه وأبخرته وموقد ناره ، لاتحتوي إلا قبراً تجسد لي فى تلك اللحظة بشراً سوياً؟ ثم ماذا بشأن هذه الجروح وخيوط الدم التي تملأ صدري ، وآثار الالتهابات فى أجفاني ، وطعم الهواء الأصفر على لساني ، وأكداسه التى كانت تغطينى عندما أفقت . هل يمكن لحلم لم يدم إلا دقيقة واحدة أن يترك آثاراً كهذه؟ إن ماحدث معي أكثر غموضاً وتعقيداً من أن أستطيع تفسيره واستيعابه فى لحظات قصيرة . كانت فاطمة قد تركتني وذهبت إلى غرفة الصالون تهاتف أخي ، تستنجد به كعادتها عندما يداهمني المرض . جاء أخي منزعجاً ، يسأل عن سبب هذه الانتكاسة الجديدة ، بعد أن رآني أتعافى وأتحرر من مرضي . ما أن رأيته يدخل البيت حتى وقفت أريد أن أعانقه ، فقد أحسست

فعلاً بأنه مضى أكثر من عام على فراقنا . ولكنني قاومت هذه الرغبة ،لكي لا أضيف إلى الموقف المتوتر مزيداً من التوتر وسوء الفهم . طمأنته إلى أنني بخير وعافية ، وأن الخدوش التي فى صدري لم تكن إلا بسبب الظلام الذي حجب عني كوم حجارة زلّت فوقه قدمي .

وعندما سألني عن المكان الذى ذهبت إليه هذا المساء قلت باقتضاب :

- ذهبت أزور الشيخ الصادق أبو الخيرات ، جارنا القديم .

وبوجه احتقنت فيه الدماء ، فزعاً ورهبة ، قال :

- ولكن الشيخ الصادق مات منذ أكثر من عشرين عاماً .

قلت بسرعة :

- أقصد أنني ذهبت لزيارة ضريحه .

عاد إلى الوجه ارتياحه ، لاحاجة بي لأن أخبره بشيء مما حدث ، ولن أقول له سوى هذه العبارات الآمنة ، التى تعيده هانئاً إلى بيته ، بعد أن جاء منزعجاً مما نقلته إليه فاطمة . لاداعي لإطالة عمر هذه اللحظات ، فأنا أيضاً أحتاج إلى وقت لإستجلاء هذه التجربة الغريبة التي عشتها .

- ولكن ما هذا الذي تقوله فاطمة عن فقدان إدراكك للزمن .

- لاتشغل بالك بما تقوله فاطمة . إن هو إلا حلم رأيته أثناء زيارتي لضريح الشيخ .

- كان شيخاً عارفاً بالله ، فما الذي رأيته فى مقامه المبارك .

لم أقل شيئاً . نهضت واقفاً وسألته أن يعذرني لأنني أحس بالتعب وأرغب فى النوم . تركته جالساً يشرب قهوته وذهبت لكي أنام .

أبدلت ملابسي وتمددت فوق السرير . كنت فى حالة من الانفعال والتوتر منعت عني النوم برغم الجسد الذي أنهكه الركض في الصحراء ، والصراع مع رياح الموت . أعرف الآن يقيناً أنني كنت شاهداً على تجربة خارقة ، لايمكن أن تقاس بما ألفناه من مقاييس ، عن الزمان والمكان ، والحركة والمسافة ، والحلم واليقظة ، والوهم والحقيقة . لتكن هذه الرحلة المبهرة ، المثيرة ، المباركة ، حلماً أو

رؤيا أولا تكون . لتكن سراً ، أو إلهاماً ، أو معجزة جاءت بفضل صاحب الضريح أو لا تكون . ليكن الزمن توقف خلالها ، أو انطلق هارباً من كل قيد ، عائداً إلى الوراء ألف عام . ليكن ما عشته عاماً تقلص حتى صار دقيقة ، أو دقيقة احتوت فصول العام الأربعة . كما تحتوي النواة المدفونة فى الأرض نخلة الغد المليئة بالعراجين ، أو قطرة العطر حقلاً من الورود ، أو قطرة المطر موجة شربتها الشمس ، أو لا تكون . فقد عرفت أثناء هذه الرحلة أكثر أيام العمر عمقاً وامتلاءً وسطوعاً . إنني أستطيع أن أذكر الآن بوضوح وجلاء كل ما رأيت وسمعت ، وأستحضر كل تلك العلاقات العميقة ، الحميمة ، التي أنشأتها مع أهل المدينة ، وكل الوشائج التي ربطت بيني وبين ما احتوته من أشجار وطيور ومياه وأحجار . لن أنسى نرجس القلوب ، الزهرة الملكية التى أثملتني بأريجها ، وأضاءت بسنائها الجميل سماء القلب ، لن أنسى ما كانت تحمله لي كل صباح من فرح فوق كفيها ، وما استقر فى الذاكرة من أشعار المتصوفين التي كانت تداويني بها . لن أنسى بدور ، عصفورة العشق وقيثارة اللحن القادم من سقف الكون ، لن أنسى ليلة الحب التي عشتها معها فوق حشية قش سحرية ، ولن أنسى أغانيها الموشاة بألوان الفجر التي غنتها بعد أن تحررت من أطر الجسد واتحدت بموجات الضوء والهواء . لن أنسى الإسكافي جلال الدين ، وحكمته التي تعلمها من الطيور التي تعرف منابع النور ، أو الشاعر ياقوت ، الذي يضبط حركته مع حركة النجوم ، وقصائده التي تخاطب كائنات العالم ذات الوجود الأثيري . إن كل ما قالوه سيبقى منقوشاً فوق صحائف القلب . وإذا كان إعصاراً مجنوناً قد دمر تلك المدينة ، فإنني سأختزنها في ذاكرتي مجللة ببهاء الضوء القزحي ، عابقة بعبير أشجار الحب ، كما كانت قبل الإعصار . سأظل وفياً لذكرى تلك الأيام التي عشتها أميراً لمدينة عقد المرجان ، مدركاً أن ذلك كله لايمكن أن يكون قد حدث في يوم ، أو أسبوع ، أو شهر . لقد عشت ذلك العام وكأنه عمر كامل ، وعدت من تلك الرحلة مملوءاً بالدهشة والانبهار ، لأنني استطعت النفاذ إلى المطلق ، وعبرت الزمن المحدود إلى

عوالم الزمن اللانهائي ، مترع القلب بإحساس من ارتوى من الينابيع التي تصنع الفرح الدائم ، الذي لايعرف الإنسان بعده جوعاً أو عطشاً ، ولا يعرف مرضاً أو حزناً .

نفق تضيئة امرأة أخرى

زمن مضى وزمن آخر لا يأتي .

وبين الزمن الذي مضى والزمن الذي لا يأتي ، زمن ثالث استعاد الآن مساره من جديد .

تبخرت الرؤيا التي أضاءت القلب بعجيب أسرارها ، وانتهت الرحلة التي قادني فيها الشيخ الصادق أبو الخيرات ، عبر صحراء القيظ والعطش ، إلى أرض مسحورة ، ومدينة حققت معجزة انسجامها وتناغمها مع موسيقى الكون ، فنجت من تناقضات المدن الأخرى التي تعاني تلوث الروح وانقسام الذات . وها أنا الآن أخرج من تخوم مملكتي ، لأدخل دائرة العادة والروتين . أكابد الحياة داخل مدينة لا تقيم أعياداً للماء والنجوم والقمر والزنابق وزهور أشجار اللوز والمشمش والليمون والبرتقال . وأمشي وسط عالم انطفأت فيه الأنوار التي كانت تشع من الماء والحجارة ، واختفت منه الأناشيد التي كانت تعزفها الغابات والحقول والنوافير . عالم لن ألتقي فيه بنرجس القلوب التي تشبه اسمها ، ولن أسمع فيه غناء بدور ، مضمخاً بشذا البساتين التي في السماء . أو مزامير ياقوت ، التي تعرف لغة الأشجار والصخور . عالم استعاد شكله الكربوني ، واستأنف زمانه ، دورته الروتينية المكرورة ، واختفى منه ذلك العطر الذي على إيقاعه يخفق القلب . سأمشي في الشوارع ، تلفني كثافة الزمن ، مجرداً من أردية الحلم ، ملتصقاً بالحائط كي لا تدهسني السيارات . طاوياً القلب على تفاصيل تلك الأيام التي رأيت فيها ما لا عين رأت ، وسمعت فيها ما لا أذن سمعت . غير قادر على أن أخبر أحداً بهذا السفر ، لأن أحداً لن يصدقني . حتى لو قلت إنه نوع من الرؤيا والمغامرة الروحية ، فسيأخذون كلامي ضدي ، ويستخدمونه دليلاً على خطورة

مرضي . سأكتم سري ، وسأسعى جاهداً لتحقيق تلك المصالحة المستحيلة بين زمن الحلم الذي تجسد واقعاً ، وبين زمن الواقع الذي لا يعترف بالإشراق والتجليات . سأواجه الحياة كما واجه آدم الحياة عندما وجد نفسه ملقى في الخلاء ، مطروداً من بساتين الله ، خارجاً من سماء الزمن المطلق ، اللانهائي ، زمن الجنة والرضا الإلهي ، داخلاً زمن الأرض والخطيئة . سأكون أسعد حظاً منه ، لأنني سأجد في خزانة الملابس بذلة أغطي بها عري الجسد ، وربطة عنق تعفيني من التفكير . سأدخل عنقي في أنشوطتها ، وأدور مع دورة الحياة في سخفها وتفاهتها ، غارقاً مثل بقية الأعناق في روتينها ، مسلماً نفسي لعبودية العادة وسطوتها .

كان أول شيء أفتقده وأنا أصحو في اليوم التالي ، هو تغريد العنادل في شرفة داري ، والذي كنت أسمعه قبل أن أتحرر من نومي . بقيت ذاهلاً بعض الوقت ، قبل أن أدرك أنني نائم في هذه الغرفة التي طالما رأيتها مسقوفة بالأجنحة السوداء . جاءت فاطمة تذكرني بالوقت . وتقول بأنها تركت لي إفطاراً فوق الطاولة ، لأنه حان ميعاد ذهابها إلى العمل . فكرت في تمارين الصبح الروحية ، التي كنت أقوم بها في عقد المرجان . وقررت برغم هوس الوقت الذي جاء يلاحقني ، أن أواصل القيام بها . تمددت فوق البساط أحاول أن أصنع في هذه الغرفة ، فضاء وسماء ، أطير عبرهما بلا أجنحة . أنشد صفاء لا يأتي إلا عندما نطرد من قلوبنا النغمة النشاز . كنت مشغول الخاطر بما سوف يواجهني من متاعب النهار ، فلم أستطع أن أمنح التمرين ما يريده من استغراق . انتهيت من أدائه فكافأني مع ذلك بشيء من الهدوء الداخلي . اغتسلت نافضاً عن جسمي آخر ما التصق به من بقايا الإعصار الأصفر ، وارتديت قميصاً جديداً يخفي آثار الجروح في صدري ، تناولت إفطاري ، وأدخلت رأسي في ربطة العنق ، وقررت أن أضع نفسي تحت تصرف الزمن الآني . ذهبت إلى عملي . واستعدت فيما بعد سيارة «الهوندا» الصغيرة ، التي حجبوها عني خوف أن أقودها أثناء نوباتي العصبية . سلمني أخي مفاتيحها ، قائلاً بأنه تم إصلاح العطب . كنت أعرف أنه

يتحدث عن عطب آخر ، ولكنني أخذت المفاتيح ولم أقل شيئاً . إنها تأتي لتجعل الأفق أكثر اتساعاً ، وتمنحني حرية أكثر في الانتقال والحركة . ثمة طرق زراعية ، مترَبة ، ضيقة ، تحف بها أشجار التين الشوكي ، تتفرع عن الطريق الذي أسلكه إلى الجامعة . طرق تفضي إلى غابات ومزارع وحقول وقرى تحيط بالمدينة ، اندهش الآن من غفلتي ، لأنني لم أفكر خلال الأعوام التي مضت أن أحيد بسيارتي عن الطريق الرئيسي وأذهب إليها . صرت الآن أقتطع ساعة من وقتي كل صباح أقضيها متجولاً بين هذه المناطق ، محاولاً أن أتعرف على هذه التفاعلات التي يحدثها في الطبيعة مجيء الربيع ، وتجليات ذلك كله في الأرض والأشجار والكائنات . أختار طريقاً يشق المزارع التي تتاخم بعضها بعضاً ، ويقود إلى منطقة السد ، الذي شيدوه منذ سنوات لحجز مياه واد منحته الذاكرة الشعبية اسماً يدل على الجنون ، نتيجة عنفه وشراسته . وما أن وصلت أول مرة إلى هناك حتى اعتبرت أن ما أراه اكتشافاً مدهشاً . إذ فجأة ينفتح الفضاء على مساحات شاسعة من أرض منبسطة خضراء تمتد على مدى البصر . حقول من الشعير في أول مراحل نموها ، تحاذيها مناطق للرعي تنوس بأعشابها ونوارها . أضع سيارتي جانباً ، وأقف أتنسم هواءها ، واملأ بصري ببهجة اخضرارها ، وأرقب هذا التباين بينها وبين الجبال البعيدة الحمراء ، بعريها وصخورها . ثم أمشي متجولاً ، أبحث بين أعشابها عن الزهور البرية التي تختلف عن زهور الحدائق والدكاكين التي تبيعها ، أحببت من بينها رائحة النرجس البري ذي الزهرة الصفراء ، فصرت أجمع كلما ذهبت إلى هناك حزمة منها . وأتأمل الكائنات التي تسكن هذه الحقول وأتآلف مع جندب يقفز فوق الأعشاب أو طائر حسون يحط قريباً مني ويتلفت نحوي كأنه يتحدي قدرتي على الإمساك به . أدخل في لعبته ، وأمد نحوه يدي فيسبقها قافزاً إلى الأمام ، دون أن يطير بعيداً أو يتيح لي إدراكه . يهزمني العصفور ، فأتجه إلى خروف صغير يركض في لهفة إلى ضرع أمه ، أراه فأستغرب كيف اهتدى إليها وسط هذه القطعان المتشابهة . وبرغم الأوحال ولسعات الحسك وما قد يلصق بالبدن من أشواك التين الوحشي ، فقد كنت دائماً

أعود وأنا راضٍ عن نفسي ، لأنني لم أعد أتنازل بسهولة عن حصتي في الشمس والهواء ، والالتقاء ببهاء الطبيعة وهداياها اليومية للسمع والبصر والفؤاد . كنت أرقب باندهاش هذه الروح الجديدة التي أستقبل بها ميلاد النهار سعيداً ، لأنني استعدت كامل عافيتي ، فلا اكتئاب ولا أوجاع رأس ومعدة مما يصاحب هذا الداء ، مدركاً أن هناك شيئاً منحته لي عقد المرجان ، شيئاً لم يضع بضياعها ، ولم تأكله الرياح الصفراء التي أجهزت عليها . استعدت فور عودتي الحصص التي انتزعوها مني أثناء المرض ، وحرصت على حضور ما يعقد من حلقات دراسية أو ندوات عامة ، والمشاركة فيها بالتعليق والنقاش . وسط دهشة زملائي الذين لا يعرفونني إلا متفرجاً ساخطاً ، أو رجلاً منطوياً على نفسه ، هارباً من مثل هذه الحلقات ، مريضاً أغلب الوقت بالكآبة وانشطار الذات . شخصاً جديداً يرونه الآن ، تحرر من أمراضه وجاء يتفجر رغبة وحماساً للعمل . رأوني أملأ سيارتي بالزهور البرية ، وعرفوا بأمر هذه الرحلات التي أقوم بها إلى المناطق الزراعية ، فجعلوها سبباً لتكليفي بجمعية النشاط والرحلات ، جمعية يهربون كلهم منها ، لأنها تتطلب عملاً متواصلاً لا يتلقى صاحبه أجراً ، ولا يحسب له في الترقيات والرتب الجامعية . عقدوا اجتماعاً وانتخبوني رئيساً للجمعية ، مهمته أن يتولى منذ الآن إعادة إحيائها . فصار المجيء إلى الجامعة روتيناً يومياً ، إن لم يكن بسبب المحاضرات ، فبسبب هذه الجمعية . نفور غريزي من العمل ، عاش معي عمراً كاملاً ، صار الآن يتراجع ، ويفسح الطريق لهذه الطاقة الجديدة المتحفزة ، المستعدة للكدح طوال ساعات النهار . أكتب محاضر اللجان ، وأتولى نسخ الجداول ، وأداء المهمات الإدارية التافهة بذات الحماس الذي أؤدي به المهمات العلمية . ولا أجد تفسيراً لهذا كله ، سوى أنني ولأمر ما ، أريد أن أهرب من هذا الواقع بالانغماس فيه ، وأن أتداوى بذات الداء الذي أشكو منه . فلا يمكن أن يكون هذا الانهماك المبالغ فيه ، حباً للعمل وإنما كراهية له وخوفاً منه . إنه هروب من الذات ولكن إلى الأمام ، ووسيلة وحيدة لمكافحة الزمن الآني ، المحدود ، الراكد كمياه السباخ . محاولة للإفلات من إحباطاته ، وتجنب عقد مقارنة مفجعة بينه وبين الزمن

الآخر ، الأسطوري ، الذي مضى ولن يعود . وكنت إذا ما وجدت نفسي مشغولاً باستحضار ذلك الزمن ، أو مغموراً بأطياف البشر الذين عاشرتهم فوق أرضه ؛ أهرع إلى سيارتي ، وأذهب في زيارة قصيرة إلى ضريح الشيخ الصادق أبو الخيرات ، حيث أوقد شمعة ، وأجلس عند رأسه أقرأ فاتحة الكتاب . ثم أعود إلى زحمة الطرقات ، أحتمي بها من سطوة الحلم . كنت أخشى أن يتفكك هذا التواصل الذي يتحقق الآن بيني وبين المحيط الذي حولي . أن يتسرب الخلل إلى التوازن النفسي الذي حافظت عليه أثناء تعاملي معه . أخشى أن يختفي الهدوء وينفجر الضجيج داخل رأسي . فأعود مرة أخرى إلى الانسلاخ عن الواقع وإعلان القطيعة معه ، مدفوناً تحت أحاسيس الغربة والإحباط . كنت خائفاً من المرض ، ومن ظهور الطيور الكريهة السوداء في سمائي . أريد بقوة أن أضمن حداً أدنى من الانسجام مع البيئة التي بها أحيا ، كما تفعل أسماك البحر ، وديدان الحقول ، وحيوانات الغابة وحشراتها . سأحاول أن أنسى قصة الرحيل إلى مدينة المرجان ، فلا أذكر إلا حصيلة التجارب والخبرات التي عدت بها من هناك ، ساعياً لاستخدامها في تعميق علاقتي بمظاهر الطبيعة ، وفهم أسرارها . إنني الآن أكثر قدرة على تأمل هذه المظاهر والتحاور معها ، والتقاط اللغة الخفية التي تتكلم بها كائناتها . لم أعد أمر بالأشجار دون أن أعيرها انتباها ، أو أرى السحب في السماء فأصرف نظري عنها كأنها لا تعني لي شيئاً . صارت الآن تثيرني وتحرك في نفسي فضولاً لاستكناه ما تحمله من دلالات وما تنبض به من أفراح . إن مشهد عنكبوت ينسج بلعابه بيتاً ، أو فراشة تحمل فوق جناحيها عبء ألوانها ، أو نملة ضئيلة الحجم تحمل قشة أكبر منها ، وتجر في جهد نصفها الخلفي لكي لا تتأخر عن الطابور ، أو دودة ذات وبر وألوان تلتصق بورقة خضراء تتناول غذاءها . صار يثيرني ، ويدفعني إلى أن أقف أسائل هذه الكائنات وأستمتع ببهجة مصاحبتها والإنصات إلى حديثها . وبمثل ما اهتديت إلى جمال النمل والديدان والجنادب والعناكب والفراشات ، فقد صرت أعتني بقراءة الأشكال التي تتولد في السماء عند التحام السحب وانفصالها ، أو عندما يثير الشفق معارك الضوء والظلام على

حافة الأفق . أنشئ علاقة حميمة مع مشاهد الطبيعة في تحولاتها ، مدركاً عمق الوشائج التي تربط بيني وبينها ، باعتبارها رفيقة عمر الإنسان ، وبيته في الحياة والممات . ملاقياً في صحبتها تعويضاً جميلاً عن الصحف التي لا أقرأها ، والمشاكل التي تنشأ بين الطلاب والمدرسين ولا أدخل طرفاً فيها ، والصراعات الدائرة على المراكز والكراسي ، والأخرى الناشبة بين مختلف الانتماءات السياسية والتي لا أعبأ بها ولا أقترب منها .

وجدت أن التمرين الروحي يشحذ الذهن ويجدد قدرة الحواس على الأداء والتلقي ، فحرصت على القيام به كل صباح ، دون إخفاق . نظمت وقتي تنظيماً دقيقاً بحيث لا أهمل جانباً على حساب جانب آخر . بما في ذلك الحياة الاجتماعية . إنني لا أعرف أحداً من الناس الذين حولي معرفة حقيقية . عشت محتمياً بأسواري ، منسحباً داخل صدفة الذات ، مكتفياً بعزلتي ، متنقلاً بين مدينة الذاكرة ومدينة الحلم ، مشغولاً بالزمن الذي مضى ، باحثاً عن زمن لا يأتي ، عازفاً عن الاقتراب اقتراباً حميماً وحنوناً من عوالمهم ، أو تحقيق تواصل معهم . إنني أشعر بالأسف لأنني حرمت نفسي من دفء عواطفهم ، وبقيت تائهاً عن هذا المصدر الخصب من مصادر الطمأنينة والأمان . لا أدري إن كنت قادراً على بناء الجسور التي تهدمت بيني وبين أصحاب وزملاء وذوي قربى ، بمعاودة التزاور معهم ، والتودد إليهم ، والبقاء بصحبتهم قدر ما أستطيع . حاولت أن أفعل ذلك وأنا أعرف أنني أفعله بجهد إرادي ، يتناقض مع طبيعتي التي تنفر من طقوس الزيارات البيتية . إنه شيء أقوم به إرضاء لنداء الواجب الاجتماعي ، وليس تلبية لنداء داخلي . إنني مهما بذلت من جهد لتأكيد انتمائي لهؤلاء الناس وهذه المدينة ، فإن ولائي الحقيقي يبقى لتلك العوالم التي باحت لي بأسرارها عندما تحررت من قيود الزمان والمكان . حتى لو أنكرت هذا الإحساس ، وحاولت أن أنشغل عنه بانهماك في ممارسة الحياة ، ففي مكان من عقلي ، يظل ذلك العالم يناديني ، وأحس إحساساً غامضاً ، إنني سأجد ذات يوم من الأيام سبيلاً إلى النفاذ إليه . لقد تقوض ذلك العالم . ضاعت مدينته وانتهى زمانه .

ولكنه يظل كامناً في منطقة ما ، من ذاكرتي ووجداني ، يبحث عن ولادة جديدة .

وهارباً من نفسي ، أرتمي في طواحين العمل والواجبات الاجتماعية . نشاط أكاديمي بالنهار وزيارات عائلية بالليل . أكرر نفسي مع اليوم الذي يكرر نفسه . أحاول أن أجعل الشخصيات المتناقضة التي تسكنني تتحد في شخص واحد ، وتتعامل مع الناس بسلوك يلقى الرضا منهم . كما أحاول أن أجمع الأزمنة المتعددة المتناقضة في زمن واحد ، وأن أضبط إيقاع هذا الزمن الداخلي مع الزمن الخارجي . أجمع المحدود باللامحدود . وزمن الحلم بزمن الواقع . وأمضى محافظاً على هذه التوازنات لكي لا يفسد نظام الكون . وبدأت أتعب . بدأ الجهد العصبي الذي أبذله يأتي بنتائج لا تخطئها العين . كانت أولى مظاهر هذا التعب ، حموضة المعدة ، التي عادت أكثر حدة وألماً . إنها ليست إلا إنذاراً بالمرض الذي سوف يأتي . داء خبرته وتعايشت معه في مراحل مختلفة منذ أن عدت من بعثتي الدراسية . واعتبرته مقياساً لعافيتي النفسية . إنه لا يختفي نهائياً ، وإنما يبقى متوارياً لا يظهر إلا إذا كان هناك شيء يهدد بخراب الروح . مرحلة أولى قبل أن تظهر الطيور السوداء وقبل أن تنهمر القبضات تدق باب البيت . ولأمرما تصورت أن أنجع وسيلة لمكافحة هذا التعب ، هي المزيد من التعب . المزيد من الجهد العضلي الذي يجب أن ترتفع وتيرته حتى تصل إلى الجهد العصبي . وإنهاك الجسد لا بالعمل فقط ، وإنما بالركض ومزاولة التمارين الرياضية الشاقة كمرحلة أولى تقود إلى المرحلة الثانية من مراحل العلاج ، وهي النوم ، باعتباره الموت الأصغر . حيث يستطيع الجسم وجهازه العصبي أن ينعما بأكبر قسط من البطالة . ما أن تأتي الساعة العاشرة حتى أدخل منهكاً إلى سريري . وأبقى نائماً عشر ساعات . نظام صارم أرهقني وأراحني ، أفلح في تخفيف نسبة الحموضة ، وإن لم يفلح في إزالتها . أعرف أنني لن أستطيع أن أحافظ على هذا التوازن زمناً طويلاً ، وأنني بحاجة إلى معجزة ، إلى شيء باهر ينبثق في حياتي . ينقذني من هذا العناء ، ويمنعني من السقوط فريسة لضجيج أجنحة الطيور السوداء .

ولا شك إن ما حدث بعد ذلك، كان حدثاً خارقاً بكل المقاييس. حدثاً لم أكن، برغم الحدس الذي كان يدفعني لاستشرافه وانتظار مجيئه، أتصور أن يأتي بهذه الطريقة المذهلة، ويباغتني كما يباغت الجبل الذي ينشق فجأة عن كهف مليء باللؤلؤ والياقوت وعقود الذهب والمرجان، رجلاً فقيراً يبيع الأحطاب.

كنت قد انتهزت فرصة مجيء يومي عطلة، فنظمت لعدد من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، رحلة عن طريق جمعية النشاط، إلى مدينة قورينا. ترافقت عطلة الأسبوع مع عيد وطني، فاتخذت من هذين اليومين مناسبة لتنظيم هذه الرحلة التي لم تكن إلا ذريعة لأن أرى شخصياً هذه المدينة التي تشوقت دائماً لزيارتها. وما أن وصلنا ليلاً إلى الفندق الذي يحتل جزءاً من هضبة تطل على المدينة، حتى أخذت مفتاح غرفتي وذهبت مرهقاً أنشد نوماً أخشى ألا يواتيني، نتيجة ما ألاقيه من صعوبة النوم في الأماكن غير المألوفة. لكن النوم جاء بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة. أخذ الساعات التي يريدها، وصحوت في غرفة مازال يشملها الظلام. فتحت باباً زجاجياً تغطيه الستائر، وخرجت إلى الشرفة. ضربت وجهي أنسام الفجر، باردة، منعشة، كأنها ترشني بماء الزهر. وغمرت الغرفة فرحة الامتلاء بهواء جديد، وارتمى الجبل الأخضر أمامي مملوءاً بأنفاس الفجر ومجللاً بالغموض. نظرت إلى ساعتي، فوجدت أن هناك أكثر من ساعة ونصف تفصلني عن الموعد الذي حددناه للإفطار والانطلاق في جولة جماعية عبر أطلال المدينة الأثرية. ارتديت ملابسي وخرجت للالتقاء بربيع الجبل. تمشيت صاعداً الهضبة متأملاً بهاء النباتات والأعشاب التي بللها الندى، مستشعراً لزوجة النسغ الذي تدره أوراقها وأنا أمشي فوقها، مستمتعاً ببكارة الأرض وشدو الطيور التي أسمع غناءها ولا أراها، فلابد أنها تغني وهي ماتزال في أعشاشها. أثار منظر الجبل مزدانا بقلائده التي يصنعها الربيع، ذكريات اللحظات التي كنت أقضيها متنقلاً عبر الدروب الجبلية بصحبة امرأة اسمها بدور، عندما كنت أميراً في مدينة أخرى، وزمن لا يشبه هذا الزمان. تذوي الأحلام وتتغير الدنيا، ولكن مشاهد الطبيعة تبقى بمعزل عن كل هذه

التحولات . وعلى مرمى البصر كان الأفق يتفجر بألوانه التي تسبق مواكب الشمس . كنت أريد أن أواصل المسير ، ولكن إحساساً مبهجاً أثملني ، وجعلني أبقى جالساً مكاني فوق إحدى الصخور ، أرقب الأفق ، وأعب رائحة البطم والصنوبر ونبات الزعتر البري ، وأتنسم هذا الهواء المضمخ بأنفاس الغابة . مأخوذاً بهذا الجلال الذي ينبض به المكان والزمان ، متسائلاً عن السبب الذي يجعلني لا أصحو كل يوم لأرى الشمس لحظة ميلادها . سأجعل ذلك عادة يومية لا أتخلى عنها ، وسأنتظرها الآن ، في هذا المكان ، حتى أراها تظهر ببهائها وضيائها . يملأ ذهني يقين لا أدري من أين جاء ، بأن شمس هذا اليوم ستكون بداية زمن جديد ، وأن الزمن الذي كان دائماً يرفض المجيء سوف يأتي الآن ، مع بزوغ هذه الشمس . حالة إشراقية غمرت روحي ، ولم أجد لها تفسيراً إلا عندما تنبهت إلى وقع أقدام خلفي ، وإلى صوت نسائي جميل ، أعرفه تمام المعرفة ، يرتفع بين الصخور والأشجار قائلاً :

- صباح الخير دكتور خليل .

أدركت أن إحدى الطالبات اللاتي يرافقننا في الرحلة قد استيقظت مبكرة ، وخرجت قبل شروق الشمس إلى الجبل . وقفت ، واستدرت لكي أرد التحية . وما أن رأيتها . . حتى تسمرت أنظر إليها مصاباً بصعقة الاندهاش والذهول . سقط فكي الأسفل فوق صدري ، وأنا أدير عيني في وجهها غير مصدق ما أرى . لا أدري كم مر من الوقت حتى استعدت وعيي وقدرتي على الحركة . فأغمضت عيني ونفضت رأسي كأنني أنفض عنها حلماً غريباً من أحلام اليقظة . إذ لا يمكن لهذا المشهد إلا أن يكون حلماً . فتحت عيني وأنا على يقين بأن الحلم قد اختفى ، وان المرأة التي قالت صباح الخير ، قد تبخرت لأنها لم تكن إلا وهماً . ولكن المرأة كانت هناك ، تحتضن فوق صدرها حزمة من الأغصان والأزهار ، تماماً كما كنت أراها ونحن نتجول فوق جبال عقد المرجان . وقد وقفت ببهاء قامتها السامقة ، وجمال عينيها المضيئتين ، تنظر في وداعة نحوي . هل يمكن أن يكون ما أراه حقيقة؟ ساءلت نفسي . وساءلت الجبل ، والأشجار والصخور والطيور التي

حولي . أم أنها بوادر حالة نفسية بدأت تعاودني وترسم لي أطيافاً لبشر لا وجود لهم إلا في ذاكرتي . هل يمكن أن تكون بدور قد جاءت من عالمها الأسطوري ، وانبثقت فجأة بين هذه الصخور والأعشاب أمامي؟ بدور التي لم تكن إلا خيالاً وسراباً . حتى وإن لم تكن كذلك ، فقد تركتها في عالم تقوض ، وتحول إلى رماد ودخان . سمعتها تعيد تحية الصباح ، فحركت فمي بالتحية . انثالت ضربات القلب عنيفة مدوية ، كأنها زلزال يهز الجبل . دار الدم في عروقي دورة سريعة أحسست بها كالهدير . كأن الكون يشهد انفجاراً هائلاً . اقتربت خطوات منها ، متفحصاً ملامحها ، فلعلني ظننتها تحت وقع المفاجأة تشبه بدور وهي لا تشبهها . ولكنها لم تكن تشبهها . كانت هي بدور . الوجه الشفاف الذي ازداد توردا وصفاء بفعل برد الصباح . الشعر ، غزيراً ، ناعماً ، فاحم السواد ، تتطاير منه شرارات الضوء ، بفعل أشعة الشمس التي بدأت الآن شروقها ، متزامناً مع ظهور هذه المرأة . وعندما ابتسمت كانت ذات الابتسامة التي تنتج غمازتين تزينان صفحتى خديها . لا اختلاف سوى أنها لا ترتدي الآن جبة الحرير ، وإنما رداء عصرياً . سترة من الجلد بلون دم الغزال ، أكملت تزريرها فوق الصدر ، وبنطلون من القطيفة الشهباء يضغط على ثراء الجسد ، وحذاء رياضياً يصلح لوعورة الأرض الجبلية . رأيتها تمد لي زهرة حمراء من حزمة الأزهار التي معها ، وتسألني إن كنت قد تنسمت عبيراً قبل هذا اليوم ، مثل العبير الذي يضوع منها . كنت لا أزال غارقاً في ذهولي ، غير قادر على استيعاب هذه المفاجأة ، أو العثور على تفسير لها . وساهما أخذت منها الزهرة ، وساهماً مددت يدي أصافحها لأعرف إن كانت حقاً امرأة من لحم ودم وليست امرأة مصنوعة من أبخرة الحلم . كان عبير تلك الزهرة ، ذات الساق الوبري الطويل ، والتويج الذي له لون الذهب الأحمر ، عبيراً غريباً ، نفاذاً ، له نشوة تدير الرأس ، وكان رأسي قد بدأ يدور ، منتشياً بفكرة أن هذه المرأة التي أقف الآن قبالتها ، ويهاجمني عطر أزهارها ، كما يهاجمني عبير الذكريات التي عشتها معها ، إنما هي امرأة تخرج الآن من كتاب الحلم والأسطورة . فمن قال إن عصر المعجزات قد انتهى من دنياي؟ .

سألتها وأنا أرى الكون يعيد تكوين نفسه من جديد ، إن كانت هي أيضاً إحدى المشاركات في الرحلة . كان سؤالاً لا معنى له . ولكنني كيف لم أرها ، ولم أهتد إليها إلا الآن؟ . أعرف أننا التحقنا بالطائرة دون انتظام ، وإننا عندما اجتمعنا في الحافلة التي أقلتنا إلى الفندق كان الوقت ليلاً ، ولم يحدث تعارف بين المشاركين في الرحلة بعد ، ولكن كيف لم ألتق بها في الجامعة؟ . أفهمتني أنها تعمل معيدة بكلية الصيدلة ، وأن المجيء إلى «الجبل الأخضر» كان أمنية أرادت تحقيقها منذ أن عرفت أنه المكان الوحيد الذي نبتت به عشبة شاع استعمالها في عصور ما قبل التاريخ باعتبارها دواء لكل الأمراض اسمها «السلفيوم» ، وأنها لم تستطع أن تنتظر حتى موعد الإفطار فخرجت قبل شروق الشمس تبحث عن الأعشاب الطبية التي اشتهرت بها هذه المنطقة .

- هل ستعرفين عشبة السلفيوم لو عثرت عليها؟

- أعرف شكلها الذي كانوا يرسمونه فوق العملة المعدنية . ولكن أحداً لم يستطع الاهتداء إليها ، لأنها عشبة انقرضت منذ ذلك الوقت .

- لو كنت مكانك لواصلت البحث عنها . فالأرض التي أنبتتها لن تعقم عن إنجابها مرة أخرى .

- ولكن ذلك مستحيل .

ولماذا يكون مستحيلاً؟ . ألا تدرك هذه الفتاة أنها تنتمي هي الأخرى إلى عالم مضى على انقراضه ألف عام؟ . فكيف تسللت من ذلك المكان وذلك الزمان وتظاهرت بأنها معيدة بكلية الصيدلة وإحدى المشاركات في هذه الرحلة؟ . وكيف خلعت ثوبها الأسطوري وارتدت سترة الجلد وبنطلون القطيفة؟ . كنت أجهد نفسي في البحث عن تفسير واع لمعجزة ظهورها . لابد من تفسير يقبله العقل . فهل كانت هذه المرأة وجهاً رأيته رؤية عابرة في إحدى المناسبات الجامعية ، ومسحوراً بجماله اختزنته في ذاكرتي ثم استحضرته أثناء تلك المغامرة الروحية الإشراقية وصنعت منه وجهاً لامرأة أحبها وأعيش أياماً معها في زمن خارج هذا الزمان . لا أستطيع أن أعثر على تفسير غير هذا التفسير . ولكن كيف يمكن أن

أنسى ذلك؟ كيف أرى امرأة كهذه فأنسى أنني رأيتها وسمعت صوتها واختزنت جميع ملامحها لتكون زادي ومؤونتي في مملكة الحلم . إنني لا أستطيع أن أذكر كيف ولا متى ولا أين رأيتها . سألتها بصوت مازال ملوناً بالانفعال والدهشة ، ومصحوباً بارتعاشة القلب ، إن كانت تذكر أننا التقينا قبل الآن . لأن وجهها وصوتها مألوفان إلفة شديدة لدي . سألتها دون أن أفضي لها بعلاقة الحب التي ربطت بيننا ذات يوم . أخبرتني بأنها كانت ممن حضروا محاضرتي عن ألف ليلة وليلة ، وأنها سألتني عقب المحاضرة إذا كان التعبير الحر عن العواطف كما تصفه ألف ليلة وليلة يعكس قيمة سلوكية في الحياة العربية القديمة وتقليداً من تقاليد الثقافة الشعبية ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاء إلى حياتنا هذا التطرف في قهر العواطف وكبتها حتى أصبح التنكر لعواطفنا عرفاً سائداً في الفكر والسلوك .أذكر أنني قدمت تلك المحاضرة قبل يومين من زيارتي إلى الشيخ الصادق وسفري إلى مدينة الرؤيا . صار الآن يقيناً ، أنني حملت هذا الوجه معي في تلك الرحلة . لم أنقل الوجه فقط ، أو القامة أو الصوت وإنما نقلت ثورة الروح وتوهج المشاعر واشتعالها ، التي دفعتها إلى أن تسأل سؤالاً يستنكر تقاليد التزمت ويبحث عن زمن جديد يعيد الإنسان إلى عصر البراءة الأولى . قلت لها وأنا أفتش عما تبقى في ذاكرتي من تلك المحاضرة :

– إذن فهي قضية تشغلك؟

– بمثل ما تشغل أي إنسان آخر ، يكره أن يمسخ عواطفه ويتنكر لنداءاته الداخلية ويمضي في الحياة يرتدي أقنعته وينسى وجهه الحقيقي كما يريدنا هذا المجتمع أن نفعل . وكان جوابك متفقاً مع ما كنت أحس به .

تفجر المشهد في ذاكرتي كما تتفجر كرة الألعاب النارية ، تنير الأفق بأضواء عراجينها الملونة .

– أذكر الآن كل شيء . أذكر أنني قلت لك ، بأن أكثر المجتمعات تخلفاً وبداثية ، تهتدي بفطرتها إلى هذه الحاجة الإنسانية للتعبير عن العواطف . ومعنى ذلك أن تقاليد التزمت والفصل التعسفي بين النساء والرجال إنما هي تقاليد

مفروضة من خارجنا . إرث ثقيل جاء من عصور الغزو والانحطاط والتراجع الحضاري .

كانت الأسئلة كثيرة . وكانت القاعة صغيرة ذات سقف منخفض وإضاءة شحيحة . تزدحم بأنفاس الحاضرين ودخان سجائرهم . كنت متهيباً من مواجهة جمهور خارج البيئة الجامعية . أدفن رأسي في أوراقي متجنباً النظر إلى وجوه الناس . كنت قد بدأت أحس بالضيق والرغبة في الهروب ، عندما سمعت صوتها كأنه قادم من زمن آخر . تكلمت بحرقة وإحساس بالفجيعة والضياع . كانت المحاضرة عن الموت . فتكلمت هي عن قوة الحياة التي يجب أن نواجه بها الموت . فاجأتني جرأتها ونبرات الصوت التي تكلمت بها . رفعت رأسي أبحث عنها . ولا أدري لماذا أحسست حين رأيتها بأنها المرأة التي تصورت أنني عشت عمراً أنتظر ظهورها ، وأهيئ نفسي لاستقبالها ، وأزرع حقولاً من العشب في قلبي لتكون منتزهاً لها . طال غيابها ، وانقضى الجزء الجميل من العمر دون إشارة منها ، أو علامة توحي بقدومها . تيبست أعشاب القلب وأنا أنتظر زمناً لا يأتي ، وأغلق بصري بشرفات ونوافذ ظلت مغلقة لا تغد بأية مسرات . فأعدت ترتيب حياتي ، وحددت علاقتي بالكون على أساس أنها امرأة لا وجود لها . رأيتها فارتعشت . جاء الألم كماشة تعصر صدري . ها هي تظهر بعد أن فات الأوان . أمطار تأتي بعد موعدها . مات الزرع وانتهت مواسمه ، فلن تنتج إلا العوسج والصبار والحنظل . وغاضباً منفعلاً ، أجبت على سؤالها ، وكأنني ألومها لأنها تأخرت كل هذا الوقت . وقررت في تلك اللحظة ، أن الاختيار الوحيد الذي تبقى لي ، هو أن أطوي أوراقي ، وأغادر القاعة ، وأنسى أنني رأيتها . أواصل حياتي وكأنني لم أسمع صوتها ، أو أتلقى إشارة منها .

وها أنا أكتشف اليوم . أن ما ظننته محواً لصورتها من ذاكرتي لم يكن إلا بداية استيلاء هذه المرأة على كل فضاءات الذاكرة ، التي لم تعد تتسع إلا لصورتها . وابتنت لها مدينة في الحلم تليق بجمالها ، وتكون بديلاً سحرياً لمدينة الواقع التي أخفتها بين جدرانها . ثم صنعت لي قصة حب معها ، تعويضاً عن خيبة قلب لم

يستطع الوصول إليها .

سرت أتبعها وهي تثب فوق الصخور بحثاً عن الأعشاب والنباتات الطبية ، وتبدي فرحة واندهاشاً لكل عشبة تلقاها . رأيتها لا تقيم اعتباراً للموعد الذي حددناه لزيارة الآثار ، فأسعدني هذا الإهمال لبرنامج الرحلة . لم أشأ أن أذكرها به ، لكي أتيح لنفسي فرصة البقاء معها بعيداً عن الآخرين . توغلنا في الغابة ، وانحدرنا مع إحدى الشعاب ، فاختفى الفندق ، وباختفائه غاب عن أعيننا الأثر الوحيد الذي ينتمي إلى هذا العصر . لم تبق إلا أطلال المدينة الأثرية ، ومظاهر الطبيعة فوق هذا الجبل الذي لا يولي انتباهاً لتبدل العصور . غارقاً في الزمن الثابت الذي لا يتحول . جئنا إليه ننتمي إلى زمانه ، ونطفو لحظات فوق أزمنة البرامج والجداول ومواعيد الحضور والانصراف .

مضت تحدثني عن الخصائص الطبية لأعشاب الجبل وتذكر أسماءها العلمية التي لا أعرفها فأجتهد في تذكيرها بالأسماء الشعبية لنبتات الحرمل والعرعار والزعتر والخبيز عندما أراها . عثرنا على نوع من الشيح تنفع أزهاره الصفراء لعلاج الالتهابات والحموضة ، فجمعت أضمومة منها لكي أتداوى بها . جاء الضحي سريعاً وفقدت الشمس وداعتها . خلعت المرأة سترة الجلد وبقيت في قميص أبيض مطرزة حوافه بخيوط حمراء ، وله أزرار بيضاء شديدة التوهج ، جلسنا فوق العشب ، بجوار شجرة بطم تزدهي بوفرة أوراقها وتيجانها الحمراء المصنوعة من ثمار لم تنضج بعد . هذه إذن هي المرأة التي رهنت لديها قلبي منذ ألف عام ، ولم أستطع أن أسترده بعد . كنت لا أزال غارقاً في ذهولي وأنا أرى المادة التي صنعت منها أحلامي ترتدي هذا اللباس وتحمل هذه الأزهار ، وتصير امرأة ، مفعمة الأنوثة تجلس بجواري . أرقبها وهي مشغولة بتنسيق أعشابها وأزهارها ونفض الأتربة عنها ، وأسمعها وهي تتحدث عن كيف تحول اهتمامها بالنباتات الطبية إلى متعة وهواية ، بعد أن كان مجرد واجب من واجبات العمل والدراسة . فتنثال على الذاكرة مشاهد من تاريخ علاقتي بها . العناق فوق فراش واحد والسهر حتى الصباح تحت سقف بيت تضربه الأمطار والعواصف . نشوة النبيذ وهسهسة موقد

النار ولهاث الجسد الراكض فوق حشية القش . الاحتفال بأعياد القمر والارتماء متعانقين داخل قوارب الصيد . الاغتسال الطقسي في مياه الينابيع والجسد الذي انبري عارياً فوق الجبل تباركه أشجار التين والزيتون . الحنجرة التي تسكب بهاءها كالضياء ، والعزف الذي ينشر شذاه كحقل من الزهور . ها هو الحلم يعيد إنتاج نفسه ، ويرجعني مرة أخرى إلى نقطة البدء . وها أنا الآن مطالب بأن أمثل دور الرجل الذي لم يتعرف عليها إلا هذا الصباح . وهي تجلس أمامي ، بعيدة ، وصامتة . تنفث سحرها في حياد ولا مبالاة . كأنها استيقظت لتوها من نوم دام ألف عام داخل كهف الأسطورة .

- يبدو غريباً أن نعمل في جامعة واحدة دون أن نلتقي ونتعارف .

كنت أريد أن أعرف إلى أي مدى تستطيع هذه المرأة أن تستعيد ذكريات العلاقة التي جمعتنا منذ ألف عام . لقد كانت هي أيضاً هناك ، تلاقيني وتعانقني . تبادلني العشق وتسمعني الألحان والأغنيات التي كان من بينها أغنية شعبية من مدينتنا القديمة . حتى وإن لم تر حلماً كحلمي ، ولم ترحل إلى تلك الأرض مثلي . فإن شيئاً ينتمي إليها كان هناك . ولا بد أنها في منطقة ما ، من تلك المناطق العميقة في نفوسنا ، البعيدة عن مداركنا الواعية ، تعرف أنها عاشرتني وعاشت أياماً في صحبتي في أرض غير هذه الأرض وزمن غير هذا الزمان . إنها تعاملني بألفة ومودة ، وجاءت هذا الصباح تبادرني بالتحية وتقدم لي زهرة حمراء كأنها تستأنف معي علاقة قديمة . أفلا يعني هذا شيئاً؟

- أردت فعلاً أن ألتقي بك بعد تلك المحاضرة التي أثارت فضولي وأرغمتني على أن أبحث عن ألف ليلة وليلة وأقرأها كاملة ، بعد أن كنت أكتفي بالاقتباسات التي تنشرها الكتب المدرسية . أردت أن أشكرك لأنك هديتني لقراءة عمل قصصي أسعدني .

إنها لا تذكر شيئاً عن علاقتنا القديمة لأنها تتحدث الآن عما يعيه سطح الذاكرة ، وليس عما تعيه الأعماق .

- هل حقاً كتبت أطروحتك عن ألف ليلة وليلة؟

يمنعها الحياء من أن تذكر العنف والجنس، ولكن لا يهم، سأتولى المهمة بالنيابة عنها، وسأقول ذلك بأقصى قدر من اللياقة.

- إنها دراسة في الأدب المقارن، ومحاولة لرصد تأثيرات ألف ليلة وليلة فيما نراه من حديث عن العنف والجنس في أدب الغرب.

- هل أجد نسخة منها في المكتبة؟

- سأعيرك نسخة عندما نعود. احرصي جيداً ألا يراها والدك. فهي تستثير حفيظة أي أب تقليدي.

- اطمئن. ليس في حياتي مثل هذا الأب.

لست في الحقيقة قلقاً من ناحية الأب، فلتترك أمره معلقاً وغامضاً كما تشاء. لا يقلقني إلا يقيني بأن هذا الجمال لا يمكن أن يبقى بلا أتباع ومريدين. إنني بالغ الامتنان لأنها جاملتني هذا الصباح ومنحتني شرف هذه الضيافة المبهجة القصيرة على موائد جمالها. ولكن هل أستطيع أن أمد بصري وقلبي إلى أكثر من ذلك. هل أحلم بعلاقة، تستأنف تاريخاً قديماً، وتعيد لأيامنا هذه، نضارة وبهاء تلك الأيام. أعرف أنني كنت هناك في مدينة أنا الذي أسسها، وأقام نفسه أميراً عليها، وجعل الحب شعاراً لها. فهل يتحقق بعث ذلك الحب وسط مدينة منحوتة من صخر التقاليد، ومع هذه المرأة التي انتظرت مجيئها وأنا في العشرين من عمري، وأخلفت موعدها فلم تأتني إلا وأنا على مشارف الأربعين.

كانت العصافير قد توقفت عن الغناء. تركت أعشاشها وذهبت في سياحاتها اليومية، وجاء أحدها يلتقط غذاءه قريباً منا. كان يبدو وادعاً ومطمئناً، كأنه لم يغادر عش طفولته إلا منذ لحظات مضت. كنت أريد أن أكسر هذا الصمت الذي حل بيننا، ولكن ما يريحني هو أن الصمت هذه المرة لم يكن صمت الفراغ وانقطاع التواصل، وإنما صمت الدهشة والتأمل العميق، الذي جاء هذا العصفور يضيف إليه سلاماً يليق بهذه الجلسة. تساءلت وأنا أراقب العصفور الذي كان بريئاً، إلى حد أن جاء ينقر الأعشاب التي بين يديها، عن هذه القوة التي شيدت

لي مدينة وأسكنت بها هذه المرأة ، وصنعت لي قصة عشق معها ، ثم عادت بعد أن انتهى الحلم وتقوضت مدينته ، تضع ذات المرأة في طريقي . أستيقظ فألقاها تنتظرني بين أحراش الجبل وأشجاره . إنها لا يمكن أن تكون قوة عابثة ، لاهية ، تعمل دونما هدف . إنها قوة تسعى للخير وتعطف على المحبين الضائعين ، وسأضع ثقتي بها ، لأنها أكثر مني حكمة وفهماً لمصلحتي . كانت الشمس تتسلل عبر أوراق الشجر ، تصنع خيوطاً من الضوء تسيل فوق الأرض وتخضب وجه المرأة . علقت بها بصري أنظر إلى الظل والضوء يعانقان وجهها ويملآنه مرحاً ورقصاً . رأتني أطيل النظر إلى عينيها فرفعتهما نحوي . لم يكن كُحلاً هو الذي صنع سوادهما العميق . إنها امرأة تكحلت بكحل الملائكة من قبل أن تولد ، فما عادت بحاجة إلى زينة تبيعها بوتيكات الجمال الصناعي . هربت بنظراتي إلى العصفور ، وكأنني أخشي صداماً مع عينيها لا أقوى على احتماله . لابد أنها قرأت شيئاً في نظراتي التي تشبه صلاة صامتة . إن امرأة لها كل هذه الشفافية ، لن تكون عاجزة عن التقاط الإشارات الخفية التي تصدر عن رجل أحبها منذ ألف عام . قلت لها وأنا أفتش عما إذا كانت تحمل اهتماماً بي خارج نطاق الفضول الذي أثاره في نفسها حديثي عن ألف ليلة وليلة :

– لم أكن أظن أن من نساء بلادنا من لها كل هذا الجمال .

ترددت كثيراً قبل أن أقول هذه الجملة . فأنا لا أريد أن أفسد بهاء هذه اللحظة بحديث يحرجها . إنها جملة بريئة وصادقة . ولكنني أعرف المتاريس التي تقيم خلفها امرأة تنتمي إلى مدن الصحراء . وأعرف أن العبور إليها لن يكون سهلاً كما هو الحال مع نساء المجتمعات المفتوحة . إن على الرجل أن يتحسس طريقه بحذر ، قلت لنفسي ، لكي لا تدميه الأسلاك الشائكة التي حولها . أجابت وبلغة إنجليزية هذه المرة .

– الجمال في عين الرائي . (Beauty is in the eye of the beholder) .

لعل في هذه الكلمات اعترافاً بأنني أراها بطريقة مختلفة ، واستخدمت تعبيراً إنجليزياً ، تفادياً للحرج الذي يبعثه هذا القول باللغة العربية . قلت مجازفاً بالقفز

فوق الأسلاك الشائكة :

- كل شيء نسبي إلا جمالك .

نهضت تنفض عن بنطالها ما علق به من أعشاب يابسة . رأت حجراً أثرياً ملقى بعيداً عنا ، فركضت إليه وكأنها عثرت على اكتشاف . كان الحجر جزءاً من عمود أثري ، وكانت الكتابة التي فوقه ، رموزاً تنتمي إلى لغة عصر قديم . جعلنا نتأمل النقوش دون أن نعرف ما تعنيه ، أو نعرف ما الذي جاء بهذا العمود إلى هذا الجزء من الغابة . لعله كان حجراً في معبد من المعابد ، وما هذه الكتابة إلا صلاة وثنية .

- ليس لهذا الحجر قيمة كبيرة وإلا ما تركوه مرمياً في الخلاء .

ولكنها كانت مستغرقة في تأمل النقوش ، تسألني وتسأل نفسها ، عما يمكن أن تقوله هذه الكلمات إذا كانت حقاً صلاة . تذكرت أن مدينة قورينا عبدت الإلهة إيزيس ، وأقامت لها المعابد والتماثيل . استحضرت مقطعاً من غناء ياقوت الشاعر في مدينة عقد المرجان . أعدت صياغته وأضفت إليه ، وقد نسيت كل شيء عن عمود الآثار ، فلم أر إلا المرأة التي أمامي . ترجمت لها النقوش قائلاً :

إليك أيتها الملكة التي تبسط نفوذها على عصافير الفجر وأشجار الحلم وكائنات الليل والنهار ، أرفع صلاتي .

لقوامك الأهيف الرشيق الذي يلثمه الضوء
وجيدك الأتلع الذي شف شفافية الندى
ووجهك الذي يشبه تسابيح الملائكة
وشعرك المصنوع من ولائم الليل
وصدرك المجبول من فاكهة الفصول الأربعة ، أرفع صلاتي .
إليك أنت ، أيتها المرأة المقدسة ، التي ببهائها يزدهي
الكون ، أصلّي .

قالت ضاحكة :

- هذه ليست صلاة وإنما قصيدة غزل حسي . فمن أين جئت بها؟

تركنا الحجر وأخذنا طريقنا إلى الفندق . لم أكن قد عرفت لها اسماً غير اسم الحلم . وعندما سألتها قالت إن اسمها «سناء» . تحولت كل خلايا جسمي إلى عصافير تحسو هذا السناء قطرة قطرة . أسعدني التقارب بين اسمها الحقيقي واسمها في الحلم . قلت لها في سري ، كلمة لم يتحرك بها لساني . قلت لها خاشعاً ، ساكناً ، صامتاً : «أحبك» .

وصلنا إلى الفندق واحتوتنا الضجة التي كان يصنعها رفاق الرحلة العائدين من جولتهم بين الآثار . انتهت تلك اللحظات النادرة الاستثنائية ، التي استفردت فيها بالمرأة التي تبسط نفوذها على كائنات الليل والنهار . ولكن السناء الذي سكبته في روحي ظل يملؤني بالانتشاء ، فأحس بأنني أريد أن أعانق كل الناس وأشاركهم هذا الفرح الذي فاض به صدري . ذهبنا جميعاً بعد استراحة الغداء إلى متحف المدينة . أراحني كثيراً أنه لم يكن في أصابعها خاتم خطوبة أو زواج ولكنني كنت قلقاً وأنا أتابعها من بعيد لأعرف إن كان لها صديق جاء معها في هذه الرحلة . تبدد قلقي عندما وجدتها تتبسط في الحديث مع الجميع ، وتجلس أثناء الغداء مع بقية النساء المشاركات في الحفلة . رأيتها أثناء وصولنا إلى المتحف ترافق طالباً يصغرها سناً وتطوف معه القاعات والأروقة ، فلم ألاحظ شيئاً بينهما يعيد لي قلقي . تعمدت أن أتخلف عن بقية أعضاء الفريق الذين يتحلقون حول المرشد السياحي ، ورأتني أقف بمفردي أمام تمثال إيزيس ، فجاءت تشاهد التمثال معي . كان تمثالاً بالحجم الطبيعي ، بدت فيه إيزيس ترتدي ثوباً مزيناً بخطوط حمراء . احتفظ الثوب بألوانه رغم تقادم العصور . كانت ابنة السماء واقفة وحول جبهتها تلتوي الأفعى التي كانت رمزاً لها . احتفظت بملامحها سليمة عدا أرنبة الأنف التي تهشمت تحت وطأة السنين ، وأنقصت شيئاً من كبريائها .

– إنها إيزيس جاءت تقلد موضة هذه الأيام وترتدي قميصاً تزينه الخيوط الحمراء ، مثل قميصك .

– رأيتك تقف مبهوراً أمامها فقلت إن الدكتور عاد وثنياً يعبد التماثيل .

كان النحات قد وضع شيئاً من إيمانه في التمثال ، وصنع لإيزيس خطوطاً حادة

يعبر بها عن ملامح الوجه ، وجعل الأفعى تنام هانئة فوق رأسها ، فأضفى عليها كل ذلك جلالاً يليق بامرأة أسطورية مثلها .

– كنت فقط أتبادل معها حديثاً قصيراً وأسألها عن شعورها وهي تقف وحيدة بعد أن تخلى عنها البشر ، ولم يعد أحد يعبدها .

– يجب أن نكبر قوة احتمالها . كيف لا تسأم وهي تقف هذه الوقفة منذ أكثر من ألفي عام . إنني على يقين بأنني كنت سأسأم الوقوف بعد ألف عام فقط .

– إنها لا تسأم لأنها تلتقي بحبيبها أوزوريس الذي يعود إلى الحياة مع فصل الربيع ، فتخضر بعودته الأرض ، وتمتلئ العيون بالماء ، وحواصل الطير بالغذاء .

– لعلها أدركت الآن إنه لا أمان لقلوب البشر .

لم أقل لها ما فعلته هذه المرأة عندما مات أوزوريس ، وخشيت ألا يبعث من جديد ، فذهبت تبحث بين أعضائه التي تناثرت في أرجاء الأرض عن تلك القطعة من جسمه التي تقوم بمهمة الإخصاب ، حتى وجدتها وأخصبت بها نفسها ، وأنجبت ابنها حورس الذي يولد كل صباح مع ميلاد الشمس . لم أقل لها ذلك ، لأن امرأة مثلها ، تخرج كما فعلت هذا الصباح لمشاهدة الشمس قبل شروقها ، لابد أنها التقت بهذا الكائن الإلهي .

رأتني أقف صامتاً ، أتأمل التمثال ، فلكزتني بمرفقها قائلة :

– هيا ، لقد بقينا وحدنا في الغرفة معها . لا تنس أنه الربيع ، وقد يأتي زوجها أوزوريس فلا يعجبه أن يراها تحادث الغرباء .

سوف لا يعجبه ذلك ، لأنه سوف يأتي هذه المرة ، مرتدياً عباءة شهباء من الصوف ، وغطاء رأس له زر طويل ، تماماً كوجهاء القبائل البدوية التي تسكن خلف هذا الجبل .

تركنا إيزيس تنتظر بصحبة الأفعى ، زوجها العائد ، وانتقلنا إلى ربات الحسن الثلاث ، وهن يقفن عاريات ، اشتبكت أذرعهن وكأنهن يقمن برقصة تمجد بهاء الجسد الأنثوي ، ويصنعن تمثالاً واحداً يمتلئ بجمال يتبدى من كل الجهات . وصيفات لأفروديت ورفيقات لربات الفنون . مثال للجمال الذي لا يذوي

ولا يذبل ، وتجسيد لحلم فنان ينتمي إلى عصر قديم . انتهى ذلك العصر ولكن الحلم ظل باقياً رغم تواتر العصور ، كنت أحاول أن أجد صيغة للتعامل مع هذا الجمال الذي ينبض به الحجر . أن أعيد تمثل تلك اللحظة التي قبض عليها الفنان وأبقاها هاربة من سطوة وشراسة الزمن . وأهتدي إلى تلك الوشائج التي تربط بين هذا العرس الحجري والأعراس التي يقيمها القلب في أرض الحلم . رأتني سناء أحرك فمي بكلمات إعجاب لم تسمعها ، فسألتني :

- هل قلت شيئاً؟

أجبتها ضاحكاً ، وقد أحسست بأن علاقتي بها صارت تسمح بأن أتبسط معها قليلاً في الحديث ، أو أن وجود هذه التماثيل النسائية العارية أفلح في أن يحررني من ذلك الخجل الموروث :

- كنت أقول إن الذي صنع الملابس للنساء ، ما كان ليفعل ذلك لو أنه شاهد هذه التماثيل الثلاثة .

- ما أعظم طموحك . لعله من الأيسر عليك أن تبدأ بالدعوة لرفع البراقع عن أوجه النساء قبل المطالبة بتعريتهن .

التحقنا بالآخرين الذين تحلقوا حول تمثال أفروديات ، ربة الحب والجمال ، وقفت تعرض حسنها العاري للمتفرجين وتضع تحت قدميها جرة . لابد أنها هدية من ديونسيوس ، رب الخمرة والمرح ، الذي وقف في الجهة المقابلة يشاركها الإقامة في ذات الغرفة ، ويستحضر ذكريات عشقه لها ذات يوم . على رأسه تاج من ورق الكروم ، وبين يديه عناقيد العنب . بدا وجهه حزيناً لا مرح فيه ، وكأنه يحس بغربته في بلد لا يحتفل بكرومه وأعنابه . كان المرشد يسرد تاريخ حياته عندما خرج مطروداً من سماء أبيه زيوس وعاش مشرداً في الأرض ، رمزاً للاندفاع والجنون والمتعة ، يعلم الناس نعمة الاهتداء إلى نسغ الحياة ، وممارسة الشبق والشعر والفن ، تصريفاً للطاقات المحبوسة في الجسد ، إلى أن صار إلهاً للمرح والخمر والحدائق والغابات ، وملهماً للإبداع والفنون الجميلة . ذكرتني سناء بأن علينا أن نشاهد الأماكن الأخرى خارج المتحف ، التي فاتنا أن نشاهدها مع

الآخرين أثناء الصباح . تركنا القاعة ومررنا مروراً عابراً بزيوس كبير آلهة الأولمب ، فطلبنا منه البركة ، وبوسايدون إله البحر ، فقدمنا له التحية ، ووقفنا قليلاً أمام جدارية تمثل الربة قورينا وهي تعانق أسداً ، بينما وقفت الربة «ليبيا» ، تضع فوق رأسها تاجاً من الزهور . ومن حولنا أروقة تمتلئ بآلهة من الشرق والغرب ، تخلت عنهم البشرية ، فتخلوا هم أيضاً عن عالم البشر ، أداروا ظهورهم له ، غير عابئين بهمومه وصراعاته . قالت سناء ونحن نترك هؤلاء الآلهة يسبحون في زمانهم المطلق ونتجه إلى الأطلال :

– أرأيت كيف كان أسلافنا يصنعون من النساء آلهة؟

– سأكون أول من يطالب بالعودة إلى هذه التقاليد القديمة ، وسأبحث عن امرأة أجعل منها آلهة أتعبد كل صباح في محرابها . فهل توافقين على تسهيل مهمتي والقيام بهذا الدور؟

– لست مؤهلة لذلك ، فأنا لا أجيد ترويض الأسود .

ذهبنا إلى الأطلال الغارقة في ضوء الشمس . حيث الساحات والأسواق والمسارح والمعابد التي صارت مجرد أعمدة تنتصب في الفضاء كأنها أذرع تتضرع بصلاة صامتة . والقبور التي بنيت كما تبنى القصور ، احتفالاً بالموت ، وتمجيداً له . مدينة انتهى عصرها ، وغمر ظلام الأبدية سكانها ، وتحولت إلى غابة من الحجارة . والشمس في قبة الكون ترسل ضوءاً باهراً ، ينعكس على رخام الأعمدة ويشع من طرقات المدينة المبلطة ، وقد أطبق الصمت ، ثقيلاً ، غامضاً ، كأنه لغة مكتوبة بالحبر الأبيض . دخلنا متهيبين إلى أطلال المدينة ، وكأننا ندخل في طقوس زمن آخر . رفعنا أبصارنا نتأمل أحد الأقواس التي شيدها ملك فخور بانتصاراته ، وقد جاء جلال الحجارة يبعث في النفس ، منذ الوهلة الأولى ، إحساساً بالضآلة . لم نطلب دليلاً يرافقنا . وإنما أسلمنا أنفسنا إلى المدينة وكأننا نريد إعادة اكتشافها . لم أر أحداً على مدى البصر يتحرك بين الأطلال غيرنا ، فنذرت نفسي لإعادة بناء هذه المدينة الموحشة ، الخاوية ، التي لم يعد أحد بحاجة إليها . سأبنيها الآن ، وسأقيم بها مجتمعاً يضاهي في بهائه مجتمع المدينة

التي غنى لها بندار قائلاً : «هذه هي حديقة زيوس المفضلة ، فخذ عروسك إليها ، حيث ستلقاك الربة ليبيا ، وسط بهاء المروج الخضراء ، مرحبة بضيافة عروسك الجيدة ، في قصرها الذهبي» . سأعيد الأشجار إلى حدائقها ، والمياه إلى النوافير والأحواض التي جف ماؤها ، وأقيم الصلاة في المعابد التي هجرها مصلوها ، وسأهتم بالمسارح التي تحمل ذكرى البشر الذين يصارعون النمور والأسود فأعيد إليها مصارعيها ونمورها . سأبني القلاع التي تهدمت والقصور التي تحولت إلى أنقاض . سأملؤها بشراً ورقصاً وغناء وموسيقى . وسأعتبر أن الشاعر بندار كان يخاطبني بهذا القصيد ، لأنني جئت أحمل هذه العروس لتكون ضيفة على الربة ليبيا ومليكة على هذه المدينة . كنت أريد أن أبدأ مراسيم تنصيبها ، عندما رأيتها لاهية عني ، مشغولة بتأمل الثور الذي يحمل قرص الشمس فوق قرنيه ، منقوشاً فوق الحجر . رفعت رأسها إلى أعلى ، فأذهلني هذا التباين بين الشعر الذي تهدل متألقاً ، داكن السواد والتوهج ، وبين صفاء العنق وشفافيته المضيئة . وتبدت لي سناء ، رمزاً لخصوبة الحياة ، مقابل الصمت والحجارة والعدم . قلت لها :

– في مكان ما من هذا الميدان ، كان الشاعر بندار ، يلقي أشعاره التي تمجد الحب والبطولة منذ ألفين وخمسمائة عام . ذهب كل شيء وبقيت قصائد بندار .

– ذلك دليل على صدق التعبير الذي يقول بأنه لايقهر الموت إلا الكلمة والحجر .

– والحب . لا شيء نستطيع أن نقهر به الموت الذي ينصب فخاخه في أجسادنا سوى الحب .

– لا أعرف كلمة أخرى عبثنا بها كثيراً حتى لحقها العطب ، مثل هذه الكلمة .

– إنني أتحدث عن الحب الذي يكون بعثاً للنفوس .

– إنه مثل طائر العنقاء . شيء لا وجود له .

– إنه هو بذاته طائر العنقاء الذي يحل في نفوسنا ويبعثنا من رمادنا .

لماذا لا أقول لها الآن بأنني عشت أبهى أيام العمر بصحبتها ، وإنني مازلت

أحتفظ بالوهج الشهي الذي التصق بقلبي منذ أن عرفتها في تلك الأرض المسحورة ، واحترقت معها بذلك العشق الذي كان يصهرنا ويعيد خلقنا مرة أخرى .

كنا قد وقفنا تحت أعمدة قبر ملكي ، نحتمي بظله من وهج الشمس ، ورفعت هي رأسها تتأمل نقشاً يشبه موج البحر . ترى ما الذي يوحي به إليها هذا الجو المشبع بالأساطير . وهذا الدخان الأبيض الذي جاء من عصور سحيقة وتجمد حتى صار ضوءاً .

«ليست هناك رقصة إلهية أكثر تقديساً .

ولا مدينة أخرى أغدق عليها أبوللو بركاته الكثيرة ، مثل قورينا» .

هكذا كان يقول ابنها وشاعرها كاليماخوس . وها أنا أشهد ببركة هذه المدينة التي أحبتها الآلهة ، والتي لها فضل اهتدائي إلى هذه المرأة . لقد دعتني منذ لحظات إلى أن أتجول معها بين هذه الأطلال بعيداً عن الآخرين . فهل كان ذلك يعني شيئاً؟ . ها نحن نتنقل بمفردنا وسط طرقات اختفى منها البشر والعسس ولم تبق إلا الآلهة تواصل في هذه الباحات ، رقصتها الأولى . فلماذا لا أستفيد من اختفاء البشر وتواطؤ الآلهة ، وأبوح لها بما في خاطري . ولماذا أخشى كلما فكرت بالحديث ، بأنها سوف تجفل مني وتركض مذعورة وسط الخلاء كغزالة ظهرت أمامها فجأة بندقية الصياد . مرة أخرى وجدت نفسي أعيد تلك الكلمة ، التي لم أقو على أن أحرك بها فمي . في صمت قلت لها «أحبك» . أطبقت عليها صدري . ومنعت لساني من أن يتحرك بها . وقلتها بصوت لا تسمعه إلا هذه الأرواح النائمة في ظل الحجر . نعم ، قلت في خاطري ، ماذا يكون الحب إن لم يكن هذه الدماء التي تركض في بدني ، تريد أن تغادرني وتفر إليها . هذه الرغبة الحارقة لأن أسند رأسي فوق نهديها وأبكي . أغسل يدي في موج شعرها وأغني . ألثم وجهها وأرتشف الندى من فوق شفتيها وأعانق في عينيها المدى ، وأصلي للشموس التي تشرق فيهما . أذهلني أن أكتشف بأن سناء ، سمعت الكلمة التي لم أنطق بها إلا في صدري . وأثملني رحيق الفرح ، وهي ترد قائلة بأنها تحبني

بمثل ما أحبها ، ولم تكن تنتظر إلا إشارة مني لتبوح لي بأسرار تلك الرؤيا التي أوصلتها إلى مدينة أسطورية أقامت بها ، وأحبت فيها أميراً تركته هناك ، ثم رأته اليوم يرتدي لباساً عصرياً ويأتي قبل شروق الشمس ، ينتظر فوق الجبل مجيئها . كنت أعرف أنها لم تقل هذا الكلام . وإنني أنا الذي قلته في صمت نيابة عنها ، لكي أخلق لنفسي وهماً يمنحني نشوة الاستماع لكلمات أتمنى أن أسمعها . كان القبر الذي وقفنا تحت ظله كبيراً ، ومهيباً . بنوا فوقه نصباً يمتلئ بالنقوش التي تصور موائد تكدست فوقها صحون الأطعمة والفاكهة ، تحيط بها زخارف وكتابات تشبه التعاويذ . ليكن حبنا تميمة نكافح بها خواء الزمن ، ونطرد بها الموت الذي يريد أن يحيلنا إلى طعام على موائده . وصامتة وقفت سناء ، تمسح حبات العرق التي نبتت فوق جبينها ، مستغرقة فيما ترى ، كأنها مدينة تمتلئ بالأسرار والوعود الجميلة . أتأمل الوجه الذي يفيء سلاماً ، وملامحه التي ينعكس فوقها صفاء السماء ، فأحس بإيقاع مرح يغمر روحي ، وينقلني إلى عوالم أخرى ، أرى فيها نفسي وقد أنجزت وعدي ببناء هذه المدينة . جاء الشاعر بندار يلقي أشعاره التي تمجد انتصارات ملوك قورينا ، وسط حشود تملأ الساحات فرحاً . وهبط ديونسيوس من فوق غيمته ، وجاء يملأ الجرار برحيقه الكريم . وضج المكان بالرقص والغناء ، صلاة للآلهة ، واحتفالاً بهذا العيد . دقت النواقيس في المعابد ، وامتلأت المسارح برجال أقوياء يصارعون الوحوش وينتصرون عليها . كنا قد وصلنا في جولتنا إلى معبد آمون . فرفعت رأسي لأرى عربات الشمس تهبط من السماء تحمل الإله آمون الذي جاء يبارك هؤلاء البشر ويقيم لي عرساً مع سناء . أردت أن أضع يدي في يدها امتثالاً لتعليمات الإله ، فلم أجدها . ومذعوراً صرت ألتفت حولي أبحث عنها . عادت المدينة إلى صمتها وخوائها . وأنا تائه بين الأنقاض والخرائب بعد أن تخلت عني الآلهة ، وحيداً لا أجد أحداً بجواري . لعل وجودها لم يكن إلا وهماً ، ولم تكن سناء التي جاءت معي إلى هذا المكان إلا طيفاً صنعته من دخان الأحلام التي انطفأ جمرها . فها هي تختفي من حياتي كما اختفت في المرة الأولى . صرت أرتعش فزعاً ، خشية أن تكون الأمراض العصبية قد عاودتني

وجعلتني أتصور أن بدور الحلم تجسدت كائناً حياً ، وجاءت معي في هذه النزهة . وملهوفاً صرت أطوف حول المعبد أبحث عنها . ثم صرخت أناديها . رددت بقايا المقابر والمعابد والأسوار والقصور ، اسمها معي . فجاءت تركض من خلف أطلال المعبد تسألني :

- ما الذي حدث؟

غمرني إحساس جارح بالخجل . كانت أطرافي ماتزال ترتعش . لا أعرف الآن لماذا أصابني هذا الرعب ، ولماذا ناديتها بكل هذه الفجيعة والحرقة .

- ظننت أن أشباحاً خرجت إليك من بين هذه الأنقاض .

أضافت وهي تراني أتهالك إعياءً ، وأرتمي جالساً فوق عتبات المعبد :

- أرجو ألا تكون مريضاً .

- إنني بخير . كل ما في الأمر أن هذه الشمس . .

لم أكمل الجملة . لأنه لا شمس تسفعني بضوئها الحارق غير هذه الشمس التي ترافق بزوغها مع ميلاد شمس اليوم . ها هي ترى بنفسها كيف هاجمتني الأشباح عندما غابت عني لحظة قصيرة . إنني الآن وقد وجدتها فلن أتركها ترحل عني أبداً . لم تكن هذه المرأة وهماً . وأنا لم أكن مريضاً أتخيل أشياء لا وجود لها . إنها هنا بجواري . أستطيع أن أضع يدي في يدها مستعيناً بها على النهوض ، وأتأكد من حضورها المفعم حياة ونبضاً .

- هل نعود إلى الفندق؟

لا أرغب في شيء إلا أن أبقى معها . رأيتها تسير باتجاه الفندق فسرت بجوارها . مضينا نعبر الأطلال دون اهتمام هذه المرة . طرحنا من وعينا ذلك الإحساس بالانتماء إلى عالم آخر ومدينة أخرى ، فتباطأ الزمن عائداً إلى روتينه المليء بالمواعيد والجداول وأوقات النوم واليقظة . وفي صمت بدأنا نصعد الهضبة . تحركت نسمة هواء منعشة ، جاءت من جهة الغابة ، وتمررت عبر أشجارها ، فوصلت إلى وجوهنا ندية رطبة . وعبر سرب من طيور القطا فوق رؤوسنا ، فتتبعناه بأبصارنا حتى توارى في الأفق . التقت نظراتنا لقاء سريعاً لا يبوح بشيء . وعدنا

نواصل سيرنا البطيء باتجاه الفندق .

ما أن وصلت إلى غرفتي وانفردت بنفسي ، حتى أحسست بحزن مضن ، قابض ، يفترسني . حزن لقيط لا أب له ولا أم . لا أدري من أين جاء ، ولا كيف جاء يباغتني على حين غفلة . لقد جاء هذا اليوم خافقاً ببهاء فجر جديد ، وزمن جديد ، تحققت لي فيه أشهى الوعود ، والتقيت فيه بسناء الحلم التي سكبت سناءها في روحي حتى الثمالة . فلماذا يزورني الآن ، هذا الأسى الفاجع؟ . وكيف تبخر فجأة ذلك الفرح الذي كان منذ لحظات يقيم أعراسه في دمي ، ليترك لي هذه اللوعة المزروعة كهشيم الزجاج داخل صدري . حاولت الحصول على إغفاءة قصيرة ، يتبدل أثناءها مزاجي ، وتذوب في متاهة النوم قسوة هذا الوجع ، فأستيقظ أكثر استعداداً للسهرة التي ستقام هذه الليلة . لم أستطع أن أنام ولكنني بكيت . بكاء صامتاً ، سكبت خلاله دمعاً كثيراً ، وأحسست بعده بالارتياح . جاء وقت السمر فتشابكت أيدينا في رقصة يشترك فيها النساء والرجال . أوقدنا ناراً وسط الغابة ، وتحولنا إلى قبيلة بدائية ترقص حول النار . الغابة من حولنا تمتلئ بالظلام والأسرار ، والموسيقى تنبعث صاخبة ، من مسجلة معلقة بعرف شجرة ، فوق رؤوسنا . وسناء في الصف المقابل من الحلقة ترقص فترقص معها ألسنة النار التي انعكست على مرايا وجهها . استحضرت في ذهني صورة لمعابد النار ، وجعلتها إلهة تضيء الكون بنارها المقدسة ، وما أنا إلا راهب مجوسي يصلي خاشعاً لها . أرقب في وله هذا النور الذي يدور راقصاً فوق جبينها وخديها ، وأتابع ارتجاجات نهديها وهما يتقافزان كطائرين من طيور النار يحرقان قميصها . أضيع في بيادر ضوئها ، وأنتشي بأقداح عشقها ، فأحس بأن ما مضى من العمر لم يكن إلا رحلة حج إلى مجد بهائها ، وأن عناصر النار والماء والهواء والتراب تتفاعل الآن في بدني وتضج بفرحة البعث والميلاد الجديد . تركت مكاني وانتقلت لأقف بمحاذاتها . أضع يدي في يدها ، وأشبك أصابعي بأصابعها ، أريد لناري ومائي وهوائي وترابي ، أن تتبارك بنارها ومائها وهوائها وترابها ، تتحد بها ، وتصنع لنا وجوداً واحداً ، يلتحم في كيان واحد فلا يقدر

الزمن على تفريقنا . أرقص معها ، وأضبط إيقاع جسدي على إيقاع نهديها . وألثم شعرها الذي يضرب أحياناً وجهي ، وأستحضر أثناء ذلك كله ، ما يقوله شعراء هذه المدينة ، عن رقص الآلهة ، وتراتيل أبوللو ، وحديقة زيوس المفضلة .

انتهى الرقص ، وخمدت النار في الموقد ، وعدت إلى غرفتي ، وإلى نوم عذب يمتلئ بأحلام رأيت فيها الكون يعود إلى براءته الأولى . خالياً من كل الناس إلا من سناء ومني . نجلس متعانقين تحت أشجار الغابة ، ونعاشر في سلام ساكنيها من نمور وأسود وفيلة وقردة وغزلان . يصبحون جميعاً أصحابنا . يأتمرون بأمرنا ، ويضحكون ويلعبون معنا .

كان اليوم الثاني من أيام الرحلة يوماً عادياً . اكتفينا فيه بجولة جماعية عبر أحد المشاريع الزراعية ، حيث استضافنا رئيس المشروع وقدم لنا غداء من الخراف المشوية ، تقاضى ثمنه إنصاتاً لخطاباته الحماسية حول النهضة الزراعية . وسريعاً انتهت الرحلة ووجدت نفسي عائداً إلى بيتي ، أنام في سرير واحد مع امرأة غريبة عني . وأتساءل لماذا ظلمت هذه المرأة وظلمت نفسي عندما جئت بها لتشاركني حياتي . ها هي أعراف المجتمع وشرائعه تعتبر أن علاقتي بها هي العلاقة الشرعية الصحيحة التي تباركها ملائكة الله . وما عداها خطيئة ، تستحق اللعنة والرجم بالحجارة . وها هي أطرافنا تشتبك تحت الأغطية في عناق كاذب ، لأن المسافة بيني وبينها رغم العناق ورغم الملائكة ، لا تزداد إلا اتساعاً . قضيت الليل أفكر بسناء واستعجل مجيء الصباح ، بأمل أن ألتقي بها . وذهبت عندما حان الوقت ومعي نسخة من الأطروحة التي وعدت بإعارتها لها . جلست في الغرفة التي يشاركني في استخدامها عدد من مدرسي القسم ، أنتظر قدومها . لم يكن بالغرفة سوى الأستاذ شعبان الذي جمع أوراقه وأقفل عليها الدرج استعداداً للذهاب إلى المحكمة . فهو بجوار عمله مدرساً للغة الإنجليزية ، يتولى الترجمة في المحاكم سعياً وراء رزق إضافي . قائلاً من خلال السعال المزمن الذي لا يفارقه صيفاً وشتاءً ، بأنه سيلتحق بصلاة الظهر بعد مشوار المحكمة ، فلن يستطيع العودة إلى الجامعة هذا اليوم . ويطلب مني أن أبلغ ذلك لمن يسأل عنه . وما أن وقف

ليغادر الغرفة ، حتى وصلت سناء . جاءت ترتدي كنزة رقيقة من الصوف مشغولة باليد كما بدا لي ، وبنطالاً من قماش أسود ، وحذاء رياضياً أبيض بلون الكنزة ، وقد جمعت شعرها في أضمومة واحدة تتهدل فوق صدرها ، وثبت فرحاً لاستقبالها . سحبت لها مقعداً ووضعته أمام مكتبي ، وذهبت مسرعاً أحضر لها القهوة . تركتها للحظات قصيرة وعدت لأجد رفيقي في الغرفة ، مازال واقفاً بجوارها ، يضع يده فوق مسند مقعدها ، ويبالغ في عبارات الترحيب والثناء ، وكأنها ما جاءت إلا لزيارته . عاد الرجل إلى مكتبه ، وأعطيت نسخة من الأطروحة إلى سناء التي صارت تقلبها وتقرأ عناوين فصولها . انتظرت أن يذهب الأستاذ شعبان إلى محاكمه وصلاته ، لكنه أعاد فتح الأدراج التي أقفلها ، وأخرج كتاباً ومضى ينشغل بقراءته . قلت لها بصوت أردته أن يكون هامساً لكي لا يصل إلى أسماع الرجل ، بأن تعبير العنف والجنس الذي ورد في عنوان الرسالة ، قد يعطي انطباعاً خاطئاً عن محتواها ، فهي بحث أكاديمي يمتلئ بالهوامش والحواشي ، وفيه ثقل البحوث العلمية وجفافها . ولذلك أريدها أن تصبر على قراءته وتخبرني برأيها . أحببت أن تكون هذه الكلمات مدخلاً لحديث أكثر حميمية . ولكنني عندما رفعت رأسي لأرى الرجل ، وجدت أن نظراته تسمرت فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته ، وتحول إلى أذنين كبيرتين تلتقطان ما يدور من حديث هامس بيننا . لم أستطع أن أواصل الكلام ، لأنني أعرف أن أي حديث شخصي ، سوف يتحول على لسان هذا الرجل إلى دعابة يستعملها أعضاء هيئة التدريس في قتل الوقت . أحسست أن سناء أكثر حرجاً مني . شتمته في سري شتيمة مقذعة . وامتد بيننا الصمت حتى وقفت سناء تستأذن في الذهاب قبل أن تكمل قهوتها . خرجت أمام الباب أودعها . قالت وهي تحتضن البحث :

- سأقرؤه بأسرع ما أستطيع .

- لست مستعجلاً على البحث . وإنما على الالتقاء بك . فمتى أراك؟

قالت قبل أن تهبط الدرج :

- حالما أنتهي من قراءته .

امتلأ قلبي بالشجن الذي تتركه لنا الشمس الغاربة . استقبلني الرجل بضحكة باردة ، وقد وقف تتقدمه بطنه ، التي جعلت الناس يحرفون اسمه من شعبان إلى شبعان .

- مازال الجنس بضاعة رائجة تجذب النساء الجميلات .

قلت بلهجة حانقة :

- تعرف أنه بحث علمي لا علاقة له بما يدور في رأسك .

- لكنك تبخل بهذا البحث العلمي على زملائك ، وترفض أن تضع نسخة منه في المكتبة .

- إنها النسخة الوحيدة التي تبقت معي .

لم يكن هذا هو السبب . ولكنني آثرت أن أحتفظ بأطروحتي بعيداً عنهم لكي لا تصبح مادة لحديث المدرسين . أعرف حساسية الموضوع الذي تتناوله الأطروحة . كما أعرف إلى أي مدى تظل هذه البيئة الجامعية وبرغم القشرة الحضارية ، مشدودة إلى أكثر تقاليد المجتمع تزمتاً . ولا أريد أن يحدث معي ، ما حدث لزميل كتب أطروحته عن أغاني الأعراس ، وجاء فرحاً يعرضها على زملاء الجامعة ، فإذا بها تتحول إلى مادة للاستهزاء والسخرية . اعتبرت هذه الأطروحة جزءاً من تلك المرحلة التي طويتها ، فلم أشأ أن أترجمها أو أسعى لنشرها ، مقتنعاً بأنها استنفدت الغرض الذي من أجله كتبتها . لقد انتهى أمرها بالنسبة لي .

- ولكن هذه النسخة الوحيدة لم تصمد أمام سحر عيون المرأة التي جاءت تطلبها .

انشغلت بتقليب الأوراق التي فوق مكتبي ولم أقل شيئاً . ظننت أن هذا يكفي لأن يقفل الموضوع . لكنه لم يقفله .

- يسمونها في كلية الصيدلة «الحورية» ، لأن لها جمالاً يشبه حوريات الجنة .

قلت وأنا مازلت منشغلاً بأوراقي :

- ألم تكن تريد اللحاق بالصلاة ، فما الذي تنتظره . اذهب قبل أن تضيع

حصتك في الحوريات .

- ولكن المؤسف هو أن المسكينة تنتمي إلى بيت سيئ السمعة .

ها قد بدأ يعزف النشيد الخالد لمجتمعات الفضيلة الكاذبة . لم أشأ أن أرد عليه ، فواصل العزف :

- مات والدها مفجوعاً ، عندما اكتشف أن لأمها عشاقاً يزورونها وتزورهم ، رغم أنه التقطها من إحدى الحانات وتزوجها ضد إرادة أهله .

- ومتى استطعت وأنت المشغول بالتدريس والمحاكم والبحث عن الدواء في الصيدليات ، أن تفتش عن كل هذه الأشياء في حياتها .

- وهي مخلصة للمبادئ التي سارت عليها أمها . كنت عضواً في مجلس الجامعة عندما أصدرنا قراراً ، وهي لاتزال طالبة ، بطردها من الجامعة عقاباً على الفضائح الأخلاقية التي ارتكبتها .

أعرف أنني لو أطعت غضبي وذهبت أصفعه الآن ، لتحول العراك إلى قصة تتحدث بها الجامعة . مارست أكبر قدر من ضبط الأعصاب ، وقلت من تحت الضرس :

- كيف يستقيم هذا الكلام يارجل ، والمرأة التي تتحدث عنها هي الآن أستاذة في الجامعة؟

- لا تسألني أرجوك ، وإنما اسأل الدوائر العليا التي أبطلت قرار الجامعة وأرغمت الإدارة على إعادتها ، وفرضت بعد ذلك تعيينها معيدة برغم سلوكها المشين .

وأضاف ضاحكاً :

- وهي لا تزال تتمتع بحماية هذه الدوائر ورعايتها . ولا شك . .

قلت مقاطعاً :

- عن أي دوائر تتكلم يا أستاذ؟

- كأنك لا تعلم بأننا كأي مجتمع في الدنيا لدينا رجال كبار في الحكومة يحبون هم أيضاً الجمال ويتطوعون لخدمته .

– منذ متى نبتت لك أنياب الثعابين ، تنهش بها لحوم البشر ، وقد كنت منذ دقائق تتحدث عن الصلاة؟

– لا تغضب يا دكتور خليل ، لست إلا زميلاً يعرف حسن نواياك ، ويريد تحذيرك . أنت تمشي فوق أرض مليئة بالألغام ، وعليك أن تحترس ، فهؤلاء الناس لا يحبون العبث بألعابهم الجميلة .

رميت بالأوراق فوق المكتب وخرجت حانقاً . لاشك أن ميراثاً ثقيلاً من تقاليد القمع الجنسي والعاطفي ، هو الذي صنع هذه النفسية المشوهة التي تحولت إلى رتيلاء كبيرة ، تخرج لعاباً كريهاً لزجاً ، وتنسج به هذه الشباك للإيقاع بضحاياها . لعله سعى ذات يوم إلى كسب ودها ، وعندما رفضته ، بلزوجته وسعاله وسماجة حديثه ، تحول إلى مخيلة مريضة تخترع الأكاذيب وتنسج حول سناء الشائعات . تركت المكتب وذهبت إلى فضاء الساحة . كان لعاب الاشمئزاز يملأ فمي فأخرجت منديلاً تخيلته وجه الأستاذ شعبان وبصقت فيه . وقفت أملأ صدري بالهواء بحثاً عن سبيل لإزاحة هذا الضيق . رأيت موقف السيارات قريباً فاتجهت إليه . سآخذ سيارتي إلى الطريق الساحلي ، أقودها فيه بسرعة وعنف حتى أفرغ هذه الشحنات التي يضيق بها صدري . تذكرت أن في جدولي حصة يحين موعدها بعد دقائق قليلة . تركت السيارة ودخلت إلى المكتبة . تعلمت منذ أن عدت من مدينة «عقد المرجان» ، كيف أستطيع أن أحارب حالات الغضب ، بشعر المتصوفين . استعرت كتاباً يضم مختارات من القصائد الصوفية ورجعت به إلى قاعة التدريس . لم أكن في حالة نفسية تسمح بإلقاء الدرس فاقترحت على الطلاب موضوعاً ينشغلون بكتابته وتفرغت لقراءة أشعار ابن الفارض والحلاج ومحي الدين بن عربي . عندما انتهت الحصة وذهبت إلى سيارتي ، كنت لا أزال حانقاً . لكنه حنق لا يمنع العقل من التأمل والتحليل . لم أكن بالتأكيد أقبل ما قاله الرجل . وإن كنت أستطيع الآن أن أبحث عن تفسير أكثر موضوعية لما قاله . لا يمكن لامرأة مثل سناء ، التي تجلت رمزاً لكل ما هو جميل ومبهر في الحياة ، أن تكون الشيء ونقيضه في ذات الوقت . لا يمكن لهذا الجمال ، الملهم لأنبل

المشاعر ، إلا أن يكون خيراً وبهجة وفضيلة . لاشك أن هذا الرجل الذي جاء يبدي معرفة بها ، واطلاعاً على أسرار حياتها ، باعتباره صاحب أقدمية في التدريس بالجامعة ، لا يعرف عمق الروابط التي بيني وبينها . إنها امرأة تكره أن تبدي سلوكاً يناقض حقيقتها ، إرضاء لحراس الفضيلة من أمثال هذا الأستاذ . وهذا الصدق في طبيعتها ، هو الذي استنفر كل أجهزة الدفاع في نفوس تكلست حتى صارت تتماهى مع المؤسسة الاجتماعية وطقوسها التي استعارتها من ظلام الكهوف . فجاء أصحاب هذه النفوس يلفقون ضدها التهم ، ويكتحون في وجهها التراب . إن سناء هي الضوء الذي يكشف ما يطويه الآخرون . إن كان خيراً فاح كالمسك ، وإن كان شراً ظهر عارياً بأنيابه الزرقاء . ترى هل تعرف سناء ما يقولونه عنها؟ هل تعلم بأن هذا الرجل الذي كان يدلق نفسه عليها ، ويطريها بكلمات التملق والمداهنة ، هو الذي أطلق وراءها أكاذيبه السوداء؟ . عدت إلى البيت والوحشة التي أطبقت على قلبي لاتريد أن تفارقه .

فاطمة مرة أخرى . امرأة البيت وتقديس الحياة الزوجية . القالب الجاهز الذي ينفع زوجة لكل العصور وكل الظروف . تمر بها الأحداث وهي ثابتة ثبات الحقائق الأزلية في الحياة . ترهل الجسم قليلاً ، وانطفأ في عينيها الألق القديم الذي رأيته عندما التقيت بها لأول مرة . كانت مهمته أن يجذب العرسان ، وانتهى بعد أن تحقق الغرض وتمت الصفقة . احتفظ الوجه بوداعته . وطبيعته الهادئة المسالمة ، كأنه أعلام قبيلة أعلنت استسلامها . لم أرها تغضب أو تثور . حتى إذا غضبت فهو غضب مكتوم لا أسمع له صوتاً ولا أرى له أثراً في سلوكها . صبرت زمناً طويلاً على مرضي . وها هي تصبر أيضاً على ما أبلغتها به من أنني رجل عقيم لا قدرة له على منحها أطفالاً يملؤون خواء العمر . أغيب عنها النهار كله ، فلا تسألني سبباً أو تفسيراً ، ولا تبدي تذمراً أو ضيقاً . تنتابني أحياناً هذه التفجرات البركانية ، فتتركني وتذهب للاحتماء بمطبخها . تجيد الطهي بمثل ما تجيده امرأة صار الطهي حرفتها . تحتفظ بالبيت نظيفاً ، مشعاً ، كأن فريقاً من العاملات يخدمن معها . نضال يومي ، لا هدنة فيه ولا راحة . يبدأ بإعداد الإفطار ، ثم

الذهاب إلى عمل في التعليم حتى منتصف النهار، من أجل مرتب تضيفه إلى مرتبي. تعود بعده إلى دورة أخرى من الطهي والغسيل حتى يحين موعد النوم، فتتبدى نظيفة، جاهزة، إذا ما طالبت غريزة الزوج بحقوقها. دون أن يكون لغريزتها حق أن تسأل أو تطلب، بعد أن أجادت حفظها وتعليبها. لم تسألني يوماً مساعدة في تنظيف البيت أو غسل الصحون أو حتى إعداد القهوة أو رتق أزرار القمصان. تتولى كل الخدمات داخل البيت وكأنها ليست امرأة تذهب إلى عمل أكثر إرهاقاً من عملي. بل كثيراً ما أسمعها تستنكر ما تقوله بعض المدرسات، من أنهن لا يجدن حرجاً في سؤال أزواجهن المساعدة في أعمال البيت وإعداد الطعام، وترى في ذلك استهتاراً بوظيفة الزوجة وخروجاً على الأصول. امرأة فصلت تفصيلاً مثالياً، يناسب مقاس زوج ينتمي إلى هذا المجتمع. إنني برغم الجهد الذي أبذله لإثبات انتمائي له، وولائي لنواميسه، مازلت فاشلاً في تحقيق هذه المصالحة معه. إنها بالتأكيد لم تخلق لمعاشرة إنسان مثلي، وإنما خلقت لرجل آخر أكثر اتزاناً وعقلاً، ممن عقدوا صلحهم الأبدي مع الناس والحياة. يعترف بمهارتها، ويقدس الحياة الزوجية مثلها، ويحقق معها وبها، التوافق الذي يرضيهما. لماذا تلقي الأقدار بامرأة لها كل هذه الكفاءة في طريق رجل مسكون بالهواجس والكوابيس. لا يقيم اعتباراً لخصالها، ولا يبحث عن سبيل ينفذ من خلاله إلى المناطق الدافئة في قلبها. إنني أعرف الميراث الذي يشكل شخصيتها وقناعاتها، وأحاول قدر جهدي أن أكون رفيقاً بها، وأن أحترم هذا العقد الذي يجمع بيني وبينها. إنني لا أكرهها. ولكنني أيضاً لا أستطيع أن أحبها. وها هي امرأة لها مقاس يناسب المساحة الفارغة في قلبي، تأتي اليوم لتملأها، وترغمني على أن أعيد ترتيب حياتي. جاءت متأخرة كثيراً عن موعدها، ولكنها لا تأتي لتأخذني من فاطمة، لأنني لم أكن في يوم من الأيام لها. إننا نعيش تحت سقف واحد، وننام في فراش واحد، وتنشأ بيننا إلفة مثل التي تنشأ بين كائنين من كائنات الدنيا يعيشان حياة مشتركة. ولكن المساحة التي تفصل بيننا ظلت باقية. مارسنا حياتنا وكأننا غريبان تحطمت بهما سفينة في عرض البحر، ووجدا

نفسيهما معاً في قارب يرتفع بهما وينخفض ، مع ارتفاع الأمواج وانخفاضها . وكانت الأمواج التي تهدر في صدري ، تدعوني لأن أستفزها . كانت قد وضعت صحون الخس واللحم والمعكرونة فوق الطاولة ودعتني إلى الانتقال إليها . قلت بلهجة خالية من الود :

- لا أريد أن أتغدى .

- إذن فقد تناولت غداءك في الجامعة .

- لم أتناول شيئاً ولكنني سئمت هذه الوجبة المتكررة .

أسألك دائماً ماذا تريد فلا تبدي اهتماماً .

- لا أجد الآن شهية للطعام .

رأيت الكدر يغطي ملامحها وهي تعود بالصحون إلى المطبخ فأحسست بشيء من الندم . انتظرتها حتى عادت ، وقلت بلهجة لينة :

- لماذا لا تتناولين غداءك .

- أنطفأت شهيتي أنا أيضاً .

كان هذا أقصى قدر من الاحتجاج تستطيع أن تقوم به . لقد بدأت إضرابها عن الطعام . قلت بلهجة ساخرة :

- ليتنا انتويناه صياماً منذ الفجر ، فنابنا بذلك الأجر والثواب .

جاء المساء وصالحتها . جلسنا نتناول الطعام الذي أضربنا عنه في الظهيرة ، وأدرنا جهاز التلفاز نحونا ، نراقبه ونمضغ طعامنا . كانت مطربة التلفاز تقف وسط غابة من الآلات الموسيقية ، تمثالاً للإثارة والرغبات اللذيذة . الشعر كثيف ومصبوغ بصبغة حمراء . والفستان ملتصق بالجسم ومطرز بخيوط تلمع كالفسفور ، والنهدان كبيران ، منتفخان ، كأنها شقت الكرة الأرضية إلى نصفين ووضعت كل نصف على جزء من صدرها . كانت تغني أغنية بدوية عن حب بريء لا ينسجم مع مظهرها الحسي وإثارة ألوانها وملابسها . وتسأل حبيبها أن يأتي ليخطفها فوق جواده ، وينطلق بها في صحراء يضيئها القمر . كنت أتناول طعامي بإبطاء ، وأراقب الأغنية دون انتباه ، وأفكر فيما إذا كان الوقت مناسباً لأن أناقش مع

فاطمة ، هذه الحياة الزوجية التي لم تنج هي الأخرى من المتناقضات . مجرد وقفة تأمل وتقييم بعد أكثر من سنوات ثلاث ، عشناها معاً . كانت هي تجلس قبالتي في جلبابها الرمادي الفضفاض . تأخذ ملعقة من الطعام ثم تدير رأسها إلى التلفاز . ماذا لو أنني الآن ، وفي حضور هذه المطربة الفاقعة الألوان ، اقترحت على فاطمة أن نفترق . هكذا ، في هدوء ودونما ضجة . كما يفترق صديقان ، سافرا معاً في رحلة واحدة ، ثم آن لكل منهما أن يأخذ طريقاً آخر . لا شك أنها ستعتبرني مجنوناً . وستجن هي الأخرى لجنوني . رجل وامرأة . زوج وزوجة . لا مشاكل بينهما ولا خلافات . تعاشرا على الود والصفاء كل هذه السنوات . ثم هكذا ودونما سبب يفترقان . إن أمراً كهذا يخرج على نطاق المعقول الذي تفهمه فاطمة . كيف أستطيع أن أقول لها أننا نحتاج أحياناً إلى لحظة جنون . وإن العالم كله يحتاج أن يجن أحياناً . لماذا ، قلت لنفسي ، لماذا لا نتفق على يوم واحد في العام ، نسميه اليوم العالمي للجنون . نرتكب فيه كل الحماقات الجميلة اللذيذة ، التي يمنعنا الخجل أو الحياء أو العقل أو العرف أو القانون أو التقاليد ، من ارتكابها . نصحح فيه الأخطاء التي اقترفناها في لحظة صحو ، غاب فيها الخيال والحلم ، وصرنا ندفع العمر ثمناً لها . يوم عالمي للجنون . نهدم فيه كل علاقة ظالمة ، بنيناها مرغمين ، استجابة لتعاليم ربة الحكمة وكبير الآلهة ، وننشئ علاقة جديدة يباركها ديونسيوس أو باخوس أو فينوس أو أي إله من آلهة الحظ والمتعة والمرح والحب والانطلاق والجنون . نحطم القوالب الجاهزة ، ونقفز خارج الأطواق والأسوار . نتمرد على دوائر الطباشير التي رسمناها حول مواقع أقدامنا ، وقطعنا عهداً للسيد زيوس بأن نبقى مدى العمر في إطارها . نمزق العهد ، ونطرد الغبار من فوق وجوهنا وأرواحنا . نعيث فساداً بقواعد اللعبة التي أورثها لنا أسلافنا الموتى ، ونمنح أنفسنا أسماء جديدة غير تلك التي اختارها شيوخ وعجائز بالنيابة عنا . اليوم العالمي للجنون ، الذي سيكون يوم الاندفاع الحيوي لإحياء العقل الحقيقي الذي تكدس فوقه رماد السنين ، وطمسته تقاليد وأعراف خلقت لزمان غير زماننا ، ولعصور غير عصرنا ، ولأناس تختلف حياتهم عن حياتنا . حتى أصبح ما

نسميه حكمة وعقلاً ، ليس إلا مزحة كبرى . نعيشها دون أن نعرف ما تحتويه من عبث وسخرية . الزواج ذاته . هذه المؤسسة الاجتماعية المهولة ، التي عاشت عبر عشرات آلاف السنين محاطة بالإكبار والإجلال . كيف جاءت؟ ومن أين جاءت؟ وما الذي أوجب ظهورها؟ ولماذا بقيت معنا حتى الآن؟ ليكن ذلك الذي أنشأها في عصور غابرة ، أراد أن يحقق بها غرضاً أو غاية . ولكن أي غرض هذا الذي يبقى ثابتاً لا يلحقه التغيير رغم مرور مئات القرون؟ . إنه العبث في أكثر أشكاله عبثاً . لماذا إذن نمنحها قدسية لاتستحقها؟ . وما الذي سيحدث لو أننا اتفقنا جميعاً على إلغائها؟ . مزقنا كل القوانين الشخصية ، وأحرقنا كل عقود الزواج ، وأقفلنا مكاتب المأذونين . لكي تنتهي إلى الأبد هذه المؤسسة كما انتهى الرق وأسواق النخاسة والعبيد . ويحيا الناس أحراراً . نساء ورجالاً يختلطون اختلاطاً حراً . يتحابون ويتعشقون ، بلا قيود ولا مواثيق إلا المواثيق التي يرتضونها لأنفسهم ، ويهتدون إليها بطبيعتهم الحرة . ونتيح للأطفال أن يتربوا مع أقرانهم في رياض نشيدها لهم ، بعيداً عن السيطرة الأبوية ، العائلية ، التي تخنق الروح ، وتقتل الإبداع .

اختفت المطربة الملونة ، وجاء مذيع النشرة . انتهى التناقض الجميل بين المرأة المثيرة مثل سلة مليئة بتفاح الخطيئة ، وبين ضوء القمر الذي تخاطبه الأغنية . وحان موعد الانتقال من كارثة إلى كارثة أخرى كما جاء على لسان المذيع الذي يقرأ الأخبار . عدت أنظر إلى فاطمة . ما ذنب امرأة لم تر حلماً كالذي رأيته ، ولم تغتسل عارية في مياه الينابيع المقدسة . ها أنا أصنع من زواجي منها مشكلة كونية ، وأدعو الجنس البشري كله لأن يبحث معي عن حل لهذا الخطأ الذي ارتكبته في لحظة غاب فيها الجنون . ذهبت فاطمة لإحضار الشاي .

قالت وهي تملأ الطاسة :

- إنك صامت لا تتكلم .

إنني صامت لأنني لا أستطيع أن أفضي إليك بهذا الكلام الذي يملأ فمي . كلام لو قلته لتحركت الزلازل تدك الأرض التي تقفين عليها ، ولقامت في

وجهك القيامة قبل موعدها . هل أقول لك بأنني أحب امرأة أخرى اسمها سناء ، رأيتها في حدائق الحلم قبل أن ألتقي بها في الحياة . وإنني لا أرى لوجودي معنى إلا بوجودها ، ولا أفكر في شيء إلا في الكون الجميل الذي يسكن عينيها . ثم ماذا لو أنني استخدمت باباً آخر ينطلق منه الجحيم . وأخبرتها بحقيقة أن العقم الذي أفرغ بيتنا من الأطفال ، ليس عقمي أنا ، وإنما عقمها هي . ولكن لماذا أبحث عن أسباب لإيذاء امرأة طيبة لم أر منها شراً . لا شك أنني ما كنت سأضيق بحياتي معها ، كل هذا الضيق ، لو لم تظهر سناء . كنت قد اعتبرت حبها تبخر وانتهى . وأردت بصدق أن أربي في نفسي شعوراً بالانتماء إلى فاطمة وبيئتها . أدس رأسي بين الرؤوس وأمشي في الطريق كواحد من أفراد القبيلة . يغطيني الغبار الذي يغطيهم ، وأشغل نفسي بمشاغلهم ، وأدور مع السواقي التي يدورون بها . إلى أن أشرق وجه سناء . يضيء هذا الخواء الذي حولي ، ويوقظ في نفسي هذه القوى البركانية التي تريد تحطيم كل الأبنية والأسوار والانطلاق إلى عوالم مسقوفة ببهاء السماء ، لا يحدها إلا الأفق المفتوح على آفاق لا حد لها . لا شيء يملأ ذاكرتي سوى سناء . والكلام البذيء الذي قاله عنها الرجل لم يزدني إلا حباً لها ، وإدراكاً لمدى الغربة التي يعانيها هذا الجمال ، وسط بيئة قاسية ، نذرت نفسها لتقديس القبح ، وجعلت من الشراسة عرفاً ودستوراً . ولكي لا أبدو أنا الآخر شرساً في مواجهة المرأة التي تشاركني العشاء ، قلت ألاطفها :

- ما رأيك أن نهجر التدريس ونفتح مطعماً . إن من يذق طعامك مرة ، لن يهنأ بأي طعام آخر .

أعرف إلى أي مدى يطربها الثناء على طعامها . إنه في ذات الوقت يعفيني من التورط في الحديث على جوانب أخرى ، سيكون التراجع صعباً عندما أمدحها .

- قد لا تصدق أن عاملة التنظيفات التي افتتحت مقصفاً لبيع السندوتشات بالمدرسة ، صارت تكسب مالاً يساوي ما تتقاضاه كل المدرسات .

ها قد وجدت امرأتي موضوعاً محبباً للحديث . وها هي تواصل إلحاحها بأن

أقبل العروض التي تأتيني لترجمة المعاملات التجارية كما يفعل زميلي الدكتور، زوج السيدة أختها . فهي لا تفهم لماذا أعرض عن مصدر سخي من مصادر الرزق .

– لماذا ترفض هذه النعمة؟ . بضعة أوراق تترجمها في يوم واحد ، تكسبك مالاً يساوي مرتب الجامعة لشهر كامل . قد لا تعلم أن أختي وزوجها يبحثان عن مزرعة لشرائها ، بعد أن أكملا بناء البيت من أموال الترجمة التي يقوم بها محمود .

ها أنذا أتورط في الحديث عن المقاصف والمزارع والأموال التي يتقاضاها المترجمون وعاملات التنظيف . قلت لها وأنا أبحث عن سبيل للنفاذ إلى حديث أقل ثقلاً :

– وماذا نفعل بالنقود؟

تذكرت وأنا أقول هذا السؤال عالماً عشت عاماً بين أهله دون أن أرى نقوداً ، أو بشراً يتعاملون بها . اختفى هذا الشيء ، وباختفائه اختفت الفوارق بين طبقة الفقراء من مدرسين ومدرسات ، وطبقة الأغنياء من عاملات التنظيف وعماله . إنني بحق أريد أن أعرف ماذا يمكن أن تفعل فاطمة بهذه النقود الإضافية التي تريدني أن أعيش في سبيلها مرتهناً لدى السماسرة وأصحاب الوكالات التجارية . لدينا من النقود أكثر من كفايتنا . والشقة التي نعيش بها تتسع لثلاث عائلات أخرى . وكانت بيوتنا في المدينة القديمة تتسع لعشر عائلات في بيت كهذا ، ولم تكن الحياة أكثر بؤساً ، أو أقل بهجة مما هي الآن .

– ما أكثر ما نستطيع أن نفعله بالنقود . نشتري نحن أيضاً مزرعة نتنزه بها . إن النقود خير وأمان .

ولكنني أستطيع أن أتنزه كل يوم في حقول ومزارع دون أن أشتريها . قلت :

– وهي أيضاً شر ولعنة . ألا تسمعين بالمثل الذي يحذر الزوجات من ثراء الأزواج . قائلاً بأن الرجل إذا كثر ماله ضاق ببيته ونبذ امرأته .

قالت فاطمة بلهجة ذات معنى :

- الرجال يفعلون ذلك حتى بلا مال .

رمقتني بنظرة ، أحسست معها ، أنها تعرف على وجه اليقين ما أضمره لها . وتدرك أن قلبي شرد وراء امرأة أخرى . إنها ليست خاملة الروح كما يوحي مظهرها . أعرف جيداً طبيعة امرأة مثلها ، تمثلت ميراث القمع وتقاليده ، واستسلمت له ، وأعرف أن هذه التقاليد التي منحتها دوراً وأعدتها له ، لم تتركها عزلاء بلا سلاح . فهي لديها سلاح يفل الأسلحة الأخرى التي لا تستند إلى ميراث وتاريخ . إنها ما إن ترى خطراً ، حتى تجري هاربة تحتمي بكهوفها . تكبت انفعالها وتمنعه من أن ينطلق ، وتتفادى بذلك تفجير صراع تعرف أنه ليس لصالحها . تستخدم لعبة الوقت وتعتمد عليها ، تمتص بها التوتر وتتقي بها الخطر ، وتنتظر أن يذوب الصراع ويتلاشى بفعل كيمياء الزمن . لحظات كثيرة تصورت فيها أن كل شيء بيننا قد بدأ ينهار ، ولكنها بطريقة ما ، وبأسلوب غامض لم أهتد إلى أسراره ، أجد أن فاطمة أفلحت في تجاوز الأزمة ، وطردت من فوق رأسها العاصفة ، وأعادت الحياة إلى روتينها الآمن .

تفاءلت خيراً عندما ذهبت إلى الجامعة ولم أجد الأستاذ شعبان . مضى اليوم دون أن أراه . وجدت فسحة من الوقت وذهبت أثناءها أحوم حول كلية الصيدلة ، علني أرى سناء تدخل الكلية أو تخرج منها ، دون أن أجرؤ على الدخول للسؤال عنها . وكان الإحساس بأنني قريب منها ، ومع ذلك لا أقدر على رؤيتها ، يجعلني تعيساً . يجب أن أكون عملياً في حديثي معها عندما تأتي ، فلا أتركها تمضي قبل أن نهتدي إلى وسيلة نتمكن بها من الالتقاء كل يوم .

مضت ثلاثة أيام دون أن تأتي سناء . كنت أثناءها قد وقفت في الشمس كثيراً . أتمشى وحيداً في ساحات الجامعة . وأعود إلى القسم ، وقبل أن أصل غرفة المدرسين ، أقف متنصتاً ، حتى إذا ما تناهي لي سعال الأستاذ شعبان ، امتنعت عن الدخول ، متجنباً أي صدام معه .

جئت في اليوم الرابع مبكراً ، لأكون في انتظارها إذا ما أكملت قراءة البحث . جلست أشرب قهوتي ، وأثرثر في حديث عائلي مع عديلي محمود ، أسأله عن

أخبار المزرعة التي أبلغتني فاطمة بأنه عازم على شرائها ، وأعاتبه لأنه يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان ، وينتقل بشكل سري من مواقع البؤساء أمثالنا إلى مواقع أصحاب المزارع والقصور . قال بأن الأمر مجرد إشاعة تطلقها زوجته في الأعراس وأمام نساء الرجال الأغنياء ، متظاهرة بأنها أصبحت واحدة منهن . وأنه لكي يحقق لزوجته حلم المزرعة سيحتاج إلى أن يترجم أوراقاً بعدد أوراق الموسوعة البريطانية . ثم دخل إذ ذاك الأستاذ شعبان . جاء لاهثاً يسبقه سعاله . تبادل التحية مع محمود وعندما أراد تحيتي وضعت رأسي في الأوراق دون أن ألتفت إليه .

خاطب محمود قائلاً :

- إنه يخاصمني لأنني حذرته من الانغماس في علاقة مع امرأة سيئة السمعة ، سوف تصنع له أعداء لا يعرف مدى سطوتهم وجبروتهم .

ها قد جاء يصنع لي علاقة لم أذق شيئاً من نعيمها إلا في الأحلام ، ويخبر بها رجلاً تربطني به علاقة المصاهرة ، لكي يصبح الموضوع طعاماً لأحاديث نساء العائلة . لعنت في سري الأرض التي أنبتته ، كما لعنت الأعداء الذين لا يعرف سطوتهم إلا هو . تساءل محمود عمن تكون هذه المرأة فذكر له اسمها وعملها بين نوبتين من السعال . وتطوع بإبداء ما يعرفه عن حياتها قائلاً :

- إنني أعرفها جيداً . فهي إحدى بنات الجامعة ممن يعتبرن العهر تحرراً وسلوكاً عصرياً . الفرق الوحيد بينها وبين الأخريات من مثيلاتها ، إنهن يكتفين بحالة إجهاض واحدة . .

ثم أكمل بعد أن أفرغ شحنة من الضحك المزوج بالسعال :

- في حين أنها ضربت الرقم القياسي في حالات الإجهاض التي قامت بها .

عندما وجدت أمعائي تصعد إلى حلقي ، ووجدت حلقي يفرز لعاباً مرّاً يملأ فمي ، لم أبحث هذه المرة عن منديل أبصق فيه . تركت مقعدي وذهبت بخطوات ثابتة حتى وصلت إليه . وقفت أمامه . وبصقت كل ما كان في فمي من لعاب فوق وجهه . تركته يمسح البصاق ويبحث عن شيء يقذفني به وعدت إلى

مكاني . جاء هاجماً فتصدى له محمود ووقف يحول بينه وبيني . تركت الغرفة وذهبت مسرعاً إلى كلية الصيدلة أبحث عن سناء .

قادني أحد الطلاب عبر الأروقة ، حتى أوصلني إلى المختبر الذي تعمل به . كانت هناك لافتة تمنع الدخول على غير العاملين ، فطرقت الباب بإلحاح . جاءت سناء تسألني بوجه يمتلئ دهشة وفضولاً ، عما حدث . كانت ترتدي معطفاً طبياً ، وتضع في يديها قفازين أبيضين . قلت ورأسي مازال يمتلئ بهدير العواصف :

– لابد أن أراك بضع دقائق على انفراد .

– إنني مشغولة كما ترى .

– بعد انتهاء الشغل سأنتظر في المكتبة . لا . ليس المكتبة جمعية النشاط حال انتهاء الدوام .

تركتها دون أن أسمع ردها . لم أذهب إلى المكتبة أو الجمعية وإنما بقيت أتنقل بين ساحات الجامعة وبقايا الغابة التي تحيط بها . قلقاً ، مأزوماً . والوقت يمر بطيئاً ، ثقيلاً . لعلها لن تأتي . وإذا جاءت فما الذي سأقوله لها . إنني لا أدري لماذا جئت . ولم أفكر وأنا أخرج حانقاً من غرفة المدرسين إلى معملها ، ما الذي أريده منها . جئت إليها ، لأنه لا أحد يهمه ما حدث سواها . كنت أريد أن أحتمي بها أكثر مما أريد حمايتها . لابد أن تعرف ما يقوله ذلك الرجل عنها . لعل هناك آخرين مثله يقولون الكلام ذاته . ومعنى ذلك أن هناك خطراً يتهددها ، وعليها أن تحترس . فالعالم ليس بريئاً مثلها . ومجتمع الغابة لم ينقرض تماماً من الدنيا . إنه مازال يعيش في عقل الأستاذ شعبان ، الذي لا أعرف لماذا يسمونه أستاذاً ، مع أنه لا يحمل مؤهلاً سوى شهادة خبرة من معسكرات الجيش الإنجليزي . لم أجد ما أفعله بنفسي ، فذهبت إلى الغرفة التي اتخذناها مقراً لجمعية النشاط . لا أدري إذا كان المكان مناسباً لمثل هذا اللقاء . ولكن أين هي الأماكن الأخرى . كل الأماكن فوق أرض هذا المجتمع تصبح مشبوهة متى استقبلت رجلاً وامرأة . لازال المبنى جديداً ، ينضح برائحة الطلاء . غرفة مستطيلة ، لها ثلاث نوافذ تدير ظهرها للشمس ، لم يكن بالغرفة سوى طالب يرسم صحيفته الحائطية . تركته مستغرقاً

في عمله ، وصرت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، أنظر في ساعتي فأرى الوقت لا يتحرك . لم أدر ماذا أفعل بيدي . عقدتهما فوق صدري . وضعتهما خلف ظهري . جلست . شبكتهما وأسندت فوقهما ذقني . قمت واقفاً وهما تتدليان بجواري . تأملت زبد الأمواج في صورة معلقة . استطعت أن أسمع هدير الموج وأشم رائحة البحر . أدرت رأسي إلى حيث يجلس الولد . لم يكن موجوداً . ترك الصحيفة وغادر الغرفة . تنفست بارتياح . ذهبت لأرى الشيء الذي كان يرسمه . وجه امرأة في مقتبل العمر . نصف الوجه يغمره الضوء ، والنصف الآخر يغمره الظلام . فكرة غريبة على عقل ولد صغير ، مازالت أمامه سنوات كثيرة قبل أن يكتشف المناطق المظلمة في النفوس . جوانب كثيرة في حياة سناء لا أعرفها . مناطق مجهولة يغمرها الظلام . حتى اسمها لا أعرفه كاملاً . لا أعرف سوى سناء . إن هذا كل ما أريده منها . يكفي أنني أحملها هاجساً يملأ ذاكرتي ، وغزالة تأكل أعشاب القلب وتركض فوق حقوله . فأية معرفة أريد ، بعد أن عشت معها قصة عشق تسبق هذا الزمان بألف عام .

جاءت سناء ، تحمل في وجهها سماء من البراءة والفرح . رفرفت عشرات الأجنحة في جسمي تريد أن تحطم أقفاصها وتطير إليها . لم تكن تستطيع البقاء طويلاً لكي لا تتأخر عن زميلتها التي تقلها عادة إلى البيت بسيارتها .

– تعرفين الأستاذ شعبان؟

– طبعاً أعرفه ، منذ أن كان يأتي إلى كلية الصيدلة لتقديم حصص اللغة الإنجليزية .

– إنه يحقد عليك . يحقد عليك كثيراً . ويقول كلاماً فظيعاً .

– ماذا يقول؟

– ليس المهم ماذا يقول ، أو لماذا يقول ما يقول . المهم كيف نجد طريقة لإيقافه عن إطلاق هذه الأكاذيب . إنه حشرة كبيرة تزحف بين حيطان الجامعة . يجب أن يفضح ويطرد .

ولدهشتي الشديدة وجدتها تضحك بنزق واستهتار . يمكنها أن تسخر مما أقوله ،

وتهزأ به . أما أن تضحك ضحكاً عالياً يندفع من بين أسنانها وشفتيها كرنين أجراس العيد . فهذا ما بدا لي غريباً . إن ما أقوله ليس عيداً ، وما يطلقه الرجل من شائعات عنها ليس دعابة ، فمن أين جاء هذا الضحك؟

– لو أن كل من قال كلمة عني طردوه من الجامعة ، لما بقي بها أحد .

– إذن فهو ليس وحده من يقول هذا الكلام .

– يجب أن أعرف أولاً ما الذي قاله؟

بقدر ما أغاظني ضحكها ، فقد أغاظني : أيضاً إصرارها على أن تعرف تفاصيل ما قاله عنها . ما الذي يمكن أن يقوله رجل يريد أن يرمي امرأة بسوء . قررت أن أقول لها كل شيء اندفعت بغيظ أعيد عليها كل ما سمعته من أقوال جارحة عنها ، وأعيده بلهجة صارمة قوية . أردت أن أستفزها وأستثير كل مشاعر الغضب لديها لكي تعرف أن للهزل أوقاتاً أخرى غير هذا الوقت .

– إنه يصنع لك علاقات فاجرة مع الرجال النافذين في الحكومة ، الذين كانوا وراء نجاحك وتعيينك معيدة في الجامعة . إنه يقول إن هؤلاء الرجال هم الذين أعادوك بعد أن طردتك الجامعة بسبب الفضائح الأخلاقية التي ترتكبينها . ويذهب أبعد من ذلك لينال من شرف أسرتك ويعتبر بيتكم بيت فسق ودعارة ، ويقول أنك قمت بحالات إجهاض بلغت رقماً قياسياً .

نظرت إليّ بعينين تمتلآن رعباً ووجه انسحبت منه كل الدماء التي كانت تمنحه التوهج والفرح . أبقت بصرها مسمراً فوقي . كأنني لا أنقل هذا الكلام عن مصدر آخر وإنما أنا الذي اخترعته وجئت أرمي به إليها . ارتعشت ملامح وجهها ، دون أن تقوى على الكلام . انهارت فوق المقعد ورمت رأسها فوق الطاولة . أحاطته بذراعيها وأجهشت بالبكاء ، وقفت بجوارها ألوم نفسي لأنني كنت غشيماً وقليل الحيلة عندما أفرغت أمامها كل ما سمعته من أقوال كريهة ، كمن يفرغ كيساً مليئاً بالفئران الميتة . لاشك أنها لم تتوقع أن تأتي التهم قبيحة ، جارحة ، لا تبقي على خصلة من خصالها ، ولا توفر أحداً من أهلها . ظلت لفترة قصيرة تنتفض باكية . ثم خف بكاؤها حتى صار نشيجاً . لم أكن أعرف ماذا أقول لتهوين

الصدمة . كان مشهداً مؤلماً ، ولم يزدني منظر شعرها ، متكدساً أمامها فوق الطاولة ، إلا مقتاً لهذا الرجل الذي صنع لي ولها هذا الموقف . قلت لها أن رجلاً تافهاً مثله لا يستحق أن تبكي بسببه . ولا بد أن نهتدي إلى طريقة لتأديبه . لقد اشتبكت في عراك معه . بصقت في وجهه وتركته ذليلاً مهاناً . رفعت سناء وجهها الذي لم يكن وجهاً ، وإنما قطعة من شفق أحمر . بللته الدموع ، واكتساه تعبير حزين ، وعادت إليه الدماء أكثر وفرة وتدفقاً . أخرجت من حقيبة يدها منديلاً ورقياً تمسح به الدموع . احتفظت به في يدها وهي تقبض عليه بتشنج وعصبية . إنها تقاوم الآن ضعفها ، وتحاول أن تحتويه بين أصابعها كما تحتوي الورقة المبللة بالدمع . نهضت واقفة وهي ترفع رأسها وتمرر أصابعها بخصلات الشعر التي تناثرت ، تعيد إليها ترتيبها . أغمضت عينيها وتنفست بعمق كأنها تريد أن تسحب في شهقة واحدة كل ما يملأ الغرفة من هواء .

- شكراً على أية حال .

كان وجهها وهي تقول جملتها ، مازالت تغطيه السحب الحمراء . سألتها أن تنتظر ولكنها اندفعت باتجاه الباب . إنها غاضبة مني . لعلها اعتقدت أنني أصدق ما سمعته عنها . إنني لا أصدقه ، وكل ما أردته هو أن نهتدي إلى طريقة نواجه بها الحملات السوداء التي تتغذى من لحمها . ذهبت سناء وتركت كلاماً كثيراً يختنق به حلقي .

لم أشأ أن أركض وراءها وأصنع في ساحة الجامعة مشهداً يتحدث به الناس . بقيت واقفاً وسط الغرفة المستطيلة التي تخيلتها قبراً يليق برجل عملاق من عصر الأساطير . وناقماً على نفسي صرت أتطلع إلى وجه الفتاة الذي يغمر نصفه الظلام . انتشر الظلام يأكل الضوء حتى صار وجه الفتاة كتلة من الظلام . وحانقاً ذهبت إلى سيارتي أحاول إخراجها من بين السيارات التي تحاصرها . اصطدمت بسيارة تقف أمامي . تهشم زجاج المصابيح وتساقط فوق الأرض . أحسست بنشوة غريبة وأنا أرى القطع الحمراء تلمع فوق الأسفلت الأسود المضيء . عدت مسرعاً إلى البيت . افتعلت شجاراً مع فاطمة . بلا سبب ودون مقدمات قلت لها إنني لا

أطيق الحياة في هذا البيت . كانت دفقة من الشجاعة لا أدري كيف وأتتني . خرجت أطوف بسيارتي شوارع المدينة الفارغة التي تتوهج تحت شمس الظهيرة . أوقفت سيارتي فوق الهضبة التي تطل منها المدينة القديمة على البحر . أحسست بتآلف غريب مع قسوة الشمس . وقفت لحظة أرقب البحر . كان البحر متاهة زرقاء . رقعة لا متناهية من الحزن الأزرق . والبواخر جاثمة وسط الميناء كأنها خيام قبيلة قتل أهلها الطاعون . لا حياة حولها ولا حركة . أدرت ظهري إلى البحر . وسلكت زقاقاً خالياً مهجوراً يقود إلى ضريح الشيخ الصادق أبي الخيرات .

من كوة صغيرة في أعلى الجدار ، كان يأتي بصيص من النور ، يضيء عتمة الغرفة ويحيلها إلى رقائق من ضباب شفاف . ومن مجمرة صغيرة كان يتصاعد دخان البخور بأريجه العذب . رأيت وجه الشيخ من خلف الأبخرة ، بعيداً وحنوناً ، يحمل سيماء رجل جاء من عالم أكثر بهجة من هذا العالم . وبصوت أثقله اليأس قلت له :

- إنني حزين أيها الشيخ القادم من خلف ضباب الزمان .
- الحزن قدر الإنسان في هذه الدنيا الفانية .

ولكن حزني هذا المساء ينتمي إلى عالمنا لا إلى عوالم ما وراء الغيب . صنعته أحداث دنيوية طالما أشقت الأبرياء بتقلباتها . قلت بذات الصوت الذي أوهنه الانكسار :

- ما أكثر الناس السعداء .
- لا يسعد في هذه الدار إلا الغافلون .
- إنني ناقم على نفسي .
- النقمة على النفس طريق الإنسان إلى الهداية .

إنها نقمة لا تقود إلا إلى مزيد من الضياع . وأنا تائه لا أعرف الطريق ، ولا أدري متى يتحقق لروحي الخلاص . الشجرة التي فقدت أوراقها ، تعرف دائماً أن ربيعاً سوف يأتي ، يكسيها بالأوراق والبراعم والزهور . الحقول الظامئة إلى الماء ، تدرك أن للغيث مواسمه التي تأتي لتمنحها الخصوبة والارتواء . الطيور التي

يسكتها الليل عن الإنشاد ، تعرف أن فجراً سوف يأتي ، يملأ حناجرها بالغناء . ولكن قلبي مثقل بكآبة لا تنتهي . ظامئ إلى حب لا يجد إليه سبيلاً . والشمعة الوحيدة التي أبهجه سناؤها ، جاءت الأفواه تحاصرها وتصنع بأنفاسها عاصفة تطفئ نورها .

- إنني مريض أيها الشيخ القادم من خارج هذا الزمان ، مريض بمرض لا اسم له .

جلست جاثياً أمام القبر . والغرفة عامرة بأطياف خفية أحس بها تحف بي وتملأ من حولي المكان . توقعت أن أسمع صوتاً يسألني أن أغمض عيني لأرى . وما أن تلوح قباب تلك المدينة حتى يسألني أن أرحل إليها . ولكن صرير الباب ، وحفيف ثوب يجتاز العتبة ، أخرجاني من حالة الاستغراق . أدرت رأسي فرأيت امرأة ترتدي لحافاً شعبياً ، وتقف قريباً من الباب تنتظر أن تألف عيناها عتمة المكان . لم تجفل أو تتراجع عندما التقت نظراتي بنظراتها . ألقت السلام وذهبت إلى الجهة المقابلة من الضريح تشعل عود ثقاب وتضيء به شمعة . وضعت الشمعة فوق رخام القبر وجلست تتمتم بالأدعية ، وترفع اللفائف عن وجه الطفل . توهج لهب الشمعة ، ينثر نوراً يمتزج بالعتمة ويضيع فيها . كانت المرأة تضع يدها فوق رخام القبر ثم ترفعها وتمسح بها وجه الطفل الذي يضيئه الوهج . بدا لي كوجه المسيح في لوحات الرسامين الذين صوروه ينام وادعاً في حضن أمه . أيقظ المشهد في ذهني حنيناً إلى طفلي الذي لم يعد طفلي ، لأنه لا يحمل اسمي ولا يعرف له والداً غير والده الوهمي . لابد أنه صار قادراً على المشي والكلام . وانتسب إلى روضة أطفال تعلمه أناشيد الولاء لتلك البلاد . مقطوع الصلة بأي نسب يربطه بي ، أو بخط الأسلاف من أهلي الذين أورثوه شيئاً من ضيائهم وظلالهم .

تركت الأم وطفلها بصحبة الشيخ النائم في ضريحه . وخرجت إلى ضوء الشارع . رأيت أنقاض الحجارة تسد مداخل بيتنا القديم ، فأدرت ظهري له ، وأسرعت الخطى ، خشية أن تهاجمني الأشباح التي تسكنه . أحسست وأنا أعود

إلى سيارتي أنني تحررت من تلك الكآبة القاسية . حل مكانها حزن خفيف الوطأة ، لا يثير فزعي . فقد تآلفت معه وعاشرته طويلاً في الرحلات التي يشرد فيها ذهني ، كما شرد منذ لحظات في حوار مع الشيخ الصادق ، متأملاً صيرورة الحياة ودورة الزمن ومصير المخلوقات الفانية .

تساءلت وأنا أدخل البيت وأرى فاطمة وهي تشيح بوجهها عني ، مضربة عن الحديث معي :

– لماذا تزوجت امرأة عقيمة؟

لعلها كانت ستخصب مع رجل آخر ، لا يمكن لامرأة مثلها ، وهبتها الطبيعة كل هذه الخصال ، أن تكون عاطلة عن الإنجاب . إن العقم الذي أدعيه إنما هو عقم حقيقي أصاب روحي قبل أن يصيب الماء اللزج الذي يفرزه الجسد . حتى شهيتي لممارسة الجنس معها ، انطفأت منذ أن رأيت سناء وأدركت أنها الجزء الضائع مني .

وجدت وأنا أدخل القسم في الصباح التالي ، بلاغاً من عميد الكلية يطالبني بالحضور إلى مكتبه . كان العميد مدرساً حديث التعيين ، جاء إلى هذا المنصب مع المجلس الجديد الذي استلم مسؤولية الجامعة منذ أسابيع قليلة . لم أكن أعرفه ، ولم ألتق به من قبل . ما أن دخلت مكتبه حتى وجدت الأستاذ شعبان قد سبقني مصطحباً معه محمود كشاهد لما حدث . بادرني العميد قائلاً :

– تعلم أن ما فعلته كان شيئاً لا يتفق مع مكانة أستاذ في الجامعة .

– لم يكن ما فعلته إلا رداً على فعل أكثر فظاعة وقبحاً .

– هل أساء إليك الأستاذ شعبان بكلمة واحدة؟

– لم يسئ لي شخصياً .

– لعله انتقد طالبة لم يعجبه سلوكها ، فما الذي أثار غضبك؟

أدركت أن هناك فخاً ينصبونه لي . تركت الفخ مفتوحاً ، وقفزت فوقه قائلاً :

– لست معنياً بأمر أحد سوى الجامعة . كان كلامه إساءة للجامعة ، وتحقيراً لكل من ينتسب إليها .

- ما الذي تعنيه؟

- إنه يقول بأن الجامعة أسلمت مقاليدها لأكثر العناصر فساداً في المجتمع ، ممن يمارسون عليها نفوذاً من خارجها . يعيدون المطرودين ، ويقومون بإنجاح الساقطين ، ويتولون تعيين الفاشلين والمنحرفين أساتذة بها . ويمارسون الدعارة مع العاملات والدارسات بها . فهل يرضيك مثل هذا الكلام؟ هل أصبحنا جميعاً أعضاء في شبكة للدعارة السرية ونحن لا ندري؟

انتفض الأستاذ شعبان قائلاً من خلال موجة السعال التي هاجمته :

- إنه تحريف واضح لكلامي . وما قلته عن الفتاة لا يحتاج إلا إلى فتح الملفات القديمة ، لتعرفوا صدق ما أقول .

ظل محمود صامتاً ، ينقل بصره بيني وبين الأستاذ شعبان ، الذي مضى هائجاً يطالبه بأن يعيد ما سمعه من حوار بيننا . تدخل العميد لحسم الصراع .

- انتهى زمن العبث بتقاليد الجامعة ، ولن يسمح المجلس الجديد لأي إنسان من خارج الجامعة مهما كان شأنه أن يتدخل في أمورها ، وسيطرد أي عنصر يثبت انحرافه ، طرداً نهائياً منها .

ثم أضاف بلهجة أكثر هدوءاً :

- تقدم الأستاذ شعبان بشكوى إلى الإدارة يطالب فيها بتقديمك إلى المحاكمة التأديبية . وكنت أحاول مع الدكتور محمود إقناعه بالعدول عنها ، والاكتفاء هذه المرة بقبول اعتذارك الواضح عن هذه الإساءة .

ولكن الأستاذ شعبان لم يكن راضياً . إنه يطالب بمحاكمتي ومحاكمة الفتاة التي لم يقل عنها شيئاً يخالف الحقيقة . فهي أول من يجب أن يطرد من الجامعة ، تصحيحاً للمسار ، وتطهيراً للجامعة من المنحرفين . رد العميد بأنه لا يمكن لأحد أن يطرد معيدة بالجامعة ما لم يتوفر الدليل الذي يدينها . وبادرني محمود قائلاً :

- هيا قم صافح الأستاذ واطلب منه العفو .

ترددت قليلاً . فقد رأيته منذ لحظات يغطي فمه بكلتا يديه عندما يسعل .

ولاشك أن الجراثيم قد انتقلت إلى اليد التي سأصافحها . لكزني محمود بمرفقه لكي أسرع قبل أن يتراجع الرجل عن قبول المصالحة . مددت له يدي متأسفاً . ثم مسحت بمنديل الورق ما علق بيدي من جراثيم لاتراها العين . قال العميد وهو يقف مودعاً :

- أرجو أن ينتهي الأمر عند هذا الحد .

خرجت من مكتبه مدركاً أن الأمر لن ينتهي عند ذلك الحد . وأن الدليل القاطع الذي تريده الجامعة لإدانة سناء ، سوف يكون منذ اليوم المهمة الأولى التي يكرس لها الأستاذ شعبان جهده ووقته . رجل اشتغل بالمحاكم وعاشر الدجالين والمزورين واللصوص ، وسوف لن يعدم وسيلة يزوّر بها حادثة ضدها ، حتى يراها مطرودة من الجامعة . كنت أتساءل وأنا أراه يتحدث عنها هائجاً ، يطالب بطردها ، من أين تستمد هذه النفوس قدرتها على ممارسة الشر؟ هذا الشر المجاني الذي لا ينتظر صاحبه نفعاً من ورائه . شر لمجرد الشر . وصلاة لإله وثني . من آلهة الظلام ، يقوم بها ناسك في محرابه ، وسادن من سدنته .

قال محمود عندما جاء إلى زيارة بيتنا في المساء ، مصطحباً أسرته معه :

- هل صحيح ما يقوله الرجل عن علاقتك بهذه المرأة .

كنا نجلس في غرفة مكتبي ، التي أقفلنا بابها واحتمينا بها من صخب أطفال ونساء يأتون إلى بيتنا من بيوت الجيران ، كلما زارتنا أسرة من أقاربنا .

- أرجو ألا تكون قد نقلت لزوجتك شيئاً من ذلك الحديث .

- إنني أكثر عقلاً من أن أفعل ذلك .

- تعرف أنه رجل لا يقول إلا الأكاذيب .

ارتشف جرعة من طاسة الشاي ، ووضع في فمه قطعة من الكعك . وقال بصوت اختلط بصوت ما يمضغه :

- على كل حال فهي امرأة تستحق أن يدخل الرجل المعارك من أجل عينيها .

- ما هذا الذي تقوله؟

- أقول إنها فعلاً امرأة لا مثيل لجمالها .

– وكيف عرفت ذلك وأنت لم ترها؟

– كنت بالصدفة أزور زميلاً في كلية الصيدلة ، وما إن رأيتها هناك حتى أدركت أنه لا حورية فوق الأرض غيرها .

قلت غاضباً :

– إذن فقد ذهبت تفتش عن أسرار هذه العلاقة التي سمعت رجلاً أحمق يتحدث عنها .

– اهدأ وسأعترف لك بكل شيء . لنقل أن ذهابي إلى كلية الصيدلة لم يكن صدفة . فقد سعيت بدافع الفضول إلى رؤيتها . ذهبت إلى زميل يعمل رئيساً لقسم المختبرات ، والتقيت بها في مكتبه . وما أن رأيت جمالها حتى التمست لك العذر .

– ليس هذا كل شيء .

– لنقل أنني أردت أن أحمي بيتاً ساعدت في إنشائه .

– عن أي بيت تتكلم؟ أنت لم تذهب إلى هناك إلا بقصد أن تبعدها عني . أليس هذا ما حدث؟

– تعرف أن الكلام الذي قاله الرجل كان كلاماً قاسياً . أدركت معه أن خطراً يتهدد حياتك البيتية والعملية معاً . فهل كنت تريدني أن أقف مكتوف الأيدي؟ . إنه يقول إن العلاقة نشأت بينكما أثناء الرحلة إلى قورينا . وإن جميع الذين ذهبوا معك يتحدثون عن كيف كنتما تترافقان طوال الرحلة ، وتغيبان عنهم وسط الغابة نهاراً كاملاً ، وتختليان ببعضكما بين أطلال المعابد القديمة . ولا حاجة بي لأذكر لك ما استنتجه الأستاذ شعبان من ذلك . وما يمكن أن يكتبه في تقاريره . فهو رجل لا يخفي صلته بالأجهزة الأمنية .

– ما هذا؟ هل كنا نتحرك تحت رصد العدسات السرية؟ أتحداهم أن يجدوا في هذه النزهة شيئاً يخرج عن الأدب واللياقة .

– يحملك الأستاذ شعبان مسؤولية الحفل الماجن الذي أقمته لأعضاء الرحلة عندما حولت الغابة إلى ملهى ليلي من أجل أن تجد فرصة لمراقصة ومعانقة تلك

المرأة . اسمح لي بأن أقول لك . إنك كنت غائباً عن المجتمع وبقيت غائباً عنه ، حتى بعد أن عدت . ولم أفعل ما فعلت إلا لكي أحاصر الحريق الذي ينشب في ملابسك وأنت غافل عنه .

قلت وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي :

- هل يمكن أن أعرف ما الذي قلته لها؟

- جاء اسمك عرضاً أثناء الكلام فأثنى الزميل عليك وسألني عن صحتك فقلت له إنه تعافى من أمراضه ، وإنه ينعم بحياة هانئة بفضل الرعاية التي توفرها له زوجته .

قلت مستنكراً ، ومسكوناً بغضب لم أعد أعرف كيف أسيطر عليه :

- وكان ذلك في حضور سناء .

- نعم .

- قلت لها بأنني رجل مجنون لكي تنفرها مني .

- لم أقل لها ذلك .

- وإنني رجل له زوجة تحبه وتحملت التضحيات من أجله فأبعدي عن طريقها وطريقه .

- لماذا تصر على تحريف أقوالي . إنني محمود ، ولست الأستاذ شعبان .

- وما الفرق بينكما . كلاكما يريد إفساد العلاقة الوحيدة المبهجة وسط كل هذا الخراب .

- كنت تنكر منذ دقائق وجود علاقة بينكما .

- إنك لست هنا لتحاكمني .

- لست إلا صديقاً يريد لك الخير .

- وهذا أيضاً ما يقوله صاحبك شعبان .

- لعله يعني ما يقول .

- تماماً بمثل ما تعنيه أنت .

أمضيت أياماً كثيرة بعد ذلك أنتظرها . أذهب إلى الجامعة وأجلس قبل بدء

المحاضرات وبعد انتهائها في غرفة المدرسين أتوقع في كل لحظة أن تأتي وتزيل بظهورها هذا الكدر الذي يلازمني . ولكن سناء لا تأتي . وأنا لا أجد شيئاً آخر أفعله سوى الانتظار والاحتراق . أتعذب في صمت وأبحث عن تفسير لهذا المنطق العبثي الذي تسير به الحياة عندما تجعل إلهاً مجنوناً من آلهة الأولمب ، يضع في طريقي امرأة كنت أراها في الأحلام ، يصنع لها وجوداً حقيقياً ويزرع في قلبي شوقاً باتساع الأفق لرؤية عينيها . ثم يقف في قبته العالية ساخراً ، ضاحكاً ، يرمي الأشواك في طريقي كي لا أصل إليها ، وما أن أتخطى الأشواك حتى ينشئ أخدوداً يشق به الأرض بيننا . وأتساءل لماذا إذن أرسلها من عالم الحلم إلى هذا العالم ، ولماذا أنشأ لها في قلبي كل هذا الحب ثم تفنن في تعذيبي؟ إنه العبث أولاً وأخيراً .

تأتي أو لا تأتي . لعلها لن تأتي . ليتني أستطيع أن أنساها . أن أنشغل بأي شيء آخر يشغلني عن الانشغال الدائم بها . ولكن كل شيء آخر صار باهتاً ، شاحباً ، فقد لونه ومذاقه ورائحته . كل شيء أضحى لا معنى له . الأبحاث والمدرجات والكتب . غابت سناء فجاء الفراغ الموحش يفترسني ويسلمني لمخاوف المرض الذي سوف يأتي .

لابد أن تظهر سناء . فلا شيء يملأ ذهني إلا صورتها ، ولا اسم يتردد على لساني ويخفق به صدري إلا اسمها . أريد في كل لحظة أن أخرج إلى الساحات هاتفاً بهذا الاسم ثم امنع نفسي . إنني لا أخشي كلام أحد ولا أخافه ، ولكنني أعرف أن الأستاذ شعبان يبحث الآن عن بذرة يصنع منها الغابة التي سيتحرك بها ضدنا . ولعله اهتدى إلى تهمة يلفقها لسناء ، فهو يطالب هذه الأيام بإعادة فتح التحقيق حول علبة أعشاب مخدرة ، اختفت منذ عام مضى من كلية الصيدلة ، وأدين أحد العمال بسرقتها .

وأخيراً ظهرت سناء .

كنت في تلك اللحظة أتبادل الحديث مع عدد من أساتذة القسم الذين جاءوا يزحمون هذه الغرفة . ذهب الطلاب للمشاركة في اجتماع طلابي وظل الأساتذة

يتأبطون حافظات الأوراق وينتظرون الطلاب . وبرغم ما أحسست به من حرج وهي تفاجئني بالمجيء إلى غرفة اجتمع بها كل هؤلاء الناس ، فقد وثبت فرحاً لاستقبالها . لكن سناء تركتني واقفاً عند الباب ، واتجهت مباشرة إلى حيث كان يجلس الأستاذ شعبان . لعلها جاءت غاضبة لكي تصفعه ، وتهينه أمام كل هؤلاء الأساتذة ، جزاء ما يسوقه من إشاعات عنها . ولكنها بدلاً من ذلك ، مدت له يدها تصافحه ، وتبتسم له . كنت منذ لقائنا في مكتب العميد لا أتبادل معه الكلام . أدهشني أن أراها تقبل دعوته للجلوس بمحاذاته ، وأنها ما جاءت هذا اليوم إلا لملاقاته . ثم أوضحت لهؤلاء الأساتذة الذين كانوا شهوداً على ما حدث ، سبب هذه الزيارة ، قائلة :

- إنني أتعاون مع الأستاذ شعبان في ترجمة كتاب أصدرته منظمة الصحة العالمية عن القواعد الدولية الواجب اتباعها في تحضير الأدوية . إن بالكتاب جانباً قانونياً لا أقدر على فهم مصطلحاته ، ولا أعرف أحداً في الجامعة أكثر قدرة من الأستاذ شعبان على ترجمته .

ما الذي حدث في الدنيا . وإذا كانت الكرة الأرضية حقاً تدور ، فلماذا لم أشعر بدورانها إلا هذه اللحظة . لا أدري إذا كان أحد الحاضرين قد انتبه إلى ما أصابني من دوار . استندت بيدي على الطاولة حتى وصلت إلى مقعدي . كانت أنفاسي تخرج لاهثة ، والعرق يتفصد من جبيني . تناولت ورقة أختبئ خلفها ، وعندما صارت ترتعش في يدي ، استبدلتها بقاموس أقل ارتعاشاً ، أخفيت به وجهي . كنت مستعداً أن أتصور أي شيء آخر إلا أن أرى سناء تختار هذا الرجل من بين كل الرجال في الدنيا ، لتمنحه صحبتها ، وتأتي له بكتاب يترجمه معها ، ويكون غطاء علمياً لعلاقة تنشئها معه . ما الذي يرغمها على ذلك؟ هل ثمة ما يعجبها في رجل تجاوز سن الكهولة وتدحرجت بطنه منطاداً مملوءاً بالهواء أمامه . ينضح سفالة وحقداً ضدها . هرب الحب من قلبه ، وملأ السعال صدره ، فصار منبوذاً من كل الناس . أهكذا تكافئ سناء الرجل الذي لم يترك تهمة رخيصة في الدنيا إلا وألصقها بها . هل تراها أدركت أن الرجل خطر يهدد

حياتها . فلم تجد وسيلة أخرى تتقي بها الخطر سوى أن تسترضيه وتهادنه . لعل ما قاله لم يكن إشاعات وأكاذيب ، وإنه اهتدى فعلاً إلى أسرار البيت المشبوه الذي تنتمي إليه ، وأوجد دليلاً جديداً في قضية المخدرات التي اختفت من كليتها ، وجاء مسلحاً بعلاقاته الأمنية ، ومستخدماً هذه المعلومات لابتزازها ، يطالب مثل تاجر البندقية برطل من لحمها . وخوفاً من المحاكمة والفضيحة ، لم تجد خيراً من أن تعطيه حصة من لحمها الذي صار مباحاً لكل طير . كنت أريد أن أهرب من هذا المشهد الكابوسي ، ولكنني أرغمت نفسي على البقاء قليلاً ، وأنا أستمع إليهما يتحدثان عن أنسب الأماكن للقاء ، حيث يمكن أن يتوفر لهما الهدوء والاختلاء ببعضهما لإنجاز الترجمة . هكذا ودونما حرج أعطاهما هذا الكتاب الوهمي ، ذريعة لضرب المواعيد والاتفاق على الأماكن الخالية للقاء ، على مشهد ومسمع من حراس العفة والفضيلة .

لم أطق صبراً فخرجت . هذه امرأة يجب أن تعافها نفسي . يجب أن أحارب هذه العاطفة التي أحملها لها ، وأقتلها في قلبي . ها قد تبينت الآن ، وبما لا يقبل الشك ، سقوط هذه المرأة التي أوقدت لها ناراً ، وصنعت منها إلهة لكل شيء مضيء في الحياة . ها قد أظلم الكون ، وتبدد الوهج الذي أضفى على ملامح هذه المرأة بهاء الكائنات التي تنتمي إلى عالم الإشراق والتجليات . وعادت سناء إلى عناصرها الأولى كإحدى المخلوقات الفانية ، المصنوعة من طين وتراب وماء مهين . وأسرعت تعلن انتماءها إلى العالم السفلي . عالم الأستاذ شعبان ، الملوث بالسقوط البشري . كنت للحظات قليلة مضت أحسب أنني أعرف هذه المرأة ، أكثر مما أعرف نفسي . حتى إذا كانت جذور هذه المعرفة تمتد في زمن الحلم ، فإن الحلم أكثر صدقاً من الواقع ، وأكثر شفافية وكشفاً . فوق أرضه تسقط الأقنعة وتختفي السياجات التي نقيمها حول أنفسنا ولا يبقى إلا جوهرنا الحقيقي . ولذلك فإن سناء التي عرفتها في الحلم لم تكن مجرد صورة خادعة لامرأة الواقع . وعندما التقيت بها بعد ذلك ، لم أحبها لأنها تحمل وجهاً يشبه ملامح تلك المرأة ، وإنما أحببتها لأنني كنت أعرفها وأعرف أن هذا الجمال ليس إلا مرآة لجمال

روحها ، وأن كل همسة ، أو اختلاجة ، أو رمشة عين ، إنما هي إشارات تنبئ بثراء عوالمها الداخلية . أحببتها لأنني كنت أعرف من هي سناء ، ذاتاً وموضوعاً ، مظهراً وجوهراً ، سناء الرؤيا مسكوبة في سناء الواقع . إذ كيف يأتي الحب ، ومن أين يأتي ويغمر طبقات الوعي واللاوعي ، إن لم يكن هذه القدرة على استكناه عوالم الإنسان الذي نحبه ، ونحمله كالروح التي تدور مع النسغ فتمنح الأغصان خضرتها ، وتدور مع الشمس فتمنح الكون ضياءه ، وتدور مع الدم فيتأجج المحبوب لظى في العروق ، ويمتزج كيانه بكياننا ، ويذوب فيه ، ويصير جزءاً منه . كيف خذلتني حواسي ، كل هذا الخذلان؟ كيف تصورت أنني تجاوزت في علاقتي بها العتبات التي تفصل بين الأنا والآخر ، وحققت معها هذا التلاحم الذي لا يتحقق إلا لاثنين أحبهما الله ، وحباهما بكل هذا الخير . هل كان ذلك كله باطلاً من أباطيل الدنيا؟ إنه لم يكن باطلاً . لأنه وسط هذه الأعوام من القبح والأكاذيب كان حبي لسناء هو الشيء الوحيد الصادق والحقيقي . ليس هناك غير تفسير واحد ، وهو إنني عندما التقيت بها فوق مشارف الجبل الأخضر ، لم تكن سناء قد سقطت بعد . كانت ماتزال تحتفظ بنقائها . ولكن بيئة من حولها . بيئة لاتستطيع أن تهرب منها . أو تتنفس هواء غير هوائها ، أو تأكل من صحاف غير صحافها . بيئة قاسية تشبه مستوطنة للجراثيم والمستنقعات والحشرات الزاحفة ، هي التي تسللت بهوائها الملوث إلى روحها ، وحققت انتصارها عليها . لابد إنها قاومت طويلاً من أجل الاحتفاظ بالسماء والنجوم والحقول التي تسكن عينيها ، ولكنها أخيراً ومع شدة الحملة التي يقودها الأستاذ شعبان مستخدماً مثل ملك الكهوف حشراته الخسيسة ضدها ، هزمت سناء . وجاء سقوطها مثل سقوط إنسان من أحد الأبراج العالية ، مؤلماً وفاجعاً .

وجدت طريقاً رئيسياً فقدت السيارة بأقصى ما يتيحه محركها من سرعة . تفر الأشياء هاربة إلى الخلف . الناس والأشجار والأبنية ، المثل والعواطف والنواميس التي تحكم الكون ، حطام الذكريات وأطياف البشر الذين عرفتهم ، الأحداث والأحلام والكوابيس والأعوام التي مضت من العمر . كل شيء يفر هارباً ،

متراجعاً إلى الوراء ، تاركاً في نفسي فراغاً باتساع الفضاء الذي يغلف الكون . أحس معه وكأن الأسباب التي تصل بيني وبين كائنات هذا العالم وأشيائه الأخرى ، قد تقطعت . جميعها تمزقت ولم أعد أستطيع أن أهتدي إلى سبب واحد يمكن أن يجدد صلتي بهذا الواقع الذي يشبه حلقات الجحيم السفلي . فمدينة الحلم لم تكن إلا هذياناً ، وسناء لم تكن إلا خداعاً وسقوطاً . وبأصابع تشنجت على عجلة القيادة ، وقدم تضغط على الوقود بأقصى قوتها ، قدت السيارة . كنت أريد أن أحقق تجانساً بين سرعتها وبين قوة الدماء التي تندفع في الرأس . لم أعبأ بالسيارة الأخرى التي تلاحقني . تشعل أضواءها ، وتطلق بوقها خلفي . ولم أنتبه إلى أنني كنت أتسابق مع سيارة الشرطة إلا عندما أفلح الشرطي في محاذاتي بسيارته وأخرج ذراعه يطلب مني الوقوف . فتشت عن عذر أقوله له وأبرر به هذه السرعة التي حطمت قوانين المرور ، فلم أجد . اكتشفت وأنا أبحث للشرطي عن رخصة القيادة ، أنني أصبحت فجأة مريضاً . عاد الدوار إلى رأسي ، وتفصد العرق غزيراً من جبيني ، وصار بدني كله يختلج اختلاجة الحمى ، والشرطي الذي أراد مصادرة الرخصة ، أعادها لي بعد أن رأى حالتي ، وهو يتساءل مندهشاً كيف أمكنني أن أقود السيارة وأنا على هذه الحالة ، ويقترح أن أترك السيارة حيث هي لكي يأخذني إلى المستشفى . كنت كمثل إنسان أصابته رصاصة أثناء إحدى المطاردات ؛ وناجياً بعمره نسي الجرح وواصل ركضه . حتى إذا ما توقف قليلاً اكتشف الرصاصة التي اخترقت قلبه ، وسقط في مكانه . هكذا كان إحساسي وأنا أحاول أن أقود السيارة مرة أخرى ، عائداً إلى البيت . مؤكداً للشرطي أنها حالة طارئة سرعان ما تختفي . انتظرت قليلاً كي أستعيد أنفاسي الهاربة . ومنهكاً ، مريضاً ، اتكأت على عجلة القيادة . كانت السيارة تمضي ببطء شديد ، ومن خلفها سيارة الشرطة .

مر أسبوع وأنا ملازم الفراش . جاء الطبيب وجاءت الأدوية . اعتدلت درجة الحرارة ، وغادرني الكابوس الذي ظل كل ليلة يجثم على صدري . كنت أرى نفسي خلاله ، أقود سيارة تعطلت فراملها ، تهبط بسرعة طريقاً جبلياً . يجتاحني

الرعب وأنا أرى الهوة المظلمة التي تتجه إليها السيارة . أصحو وأقوم من نومي مذعوراً ، أبحث عن ماء أبلل به حلقي . توقف الحلم وانتهت الحمى واستعدت عافيتي . ولكنني مع ذلك بقيت ملازماً السرير . لأمر ما أحسست بأنه ما أن أغادره حتى يعاودني المرض . كنت أحتمي به من غدر العالم الخارجي . لقد ظل حنين العودة إلى رحم الأم الذي نحمله في طبقات عقلنا الباطن ، موضوعاً مغرياً لدارسي علم النفس ، ولكنني لأول مرة أحس بهذا الحنين ينتقل من عقلي الباطن إلى عقلي الواعي . وأرى أن تشبثي بالسرير تراجع لهذه الرغبة . فما الذي ينتظرني خارج هذا السرير غير الخواء والفراغ . حتى إذا كان البقاء في السرير خواء وفراغاً ، فهو أكثر أمناً ، وأقل وطأة وثقلاً من فراغ الحياة بالخارج . هكذا كنت أخاطب نفسي ، باحثاً عن تبرير لهذه الرغبة . ليكن عجزاً عن مواجهة العالم . أو موقفاً لا أعرف موقفاً غيره ، أعبر به عن احتجاجي عما يحدث في الدنيا . إنني هنا في مأمن من أن أرى الوجوه التي يصيبني منظرها بالدوار . الوجه الوحيد الذي يصاحبني في هذا المخبأ هو وجه فاطمة . وجه تآلفت معه ، وتعودت على رؤيته مطروحاً فوق الوسادة بجوار وجهي ، غارقاً في النوم . فالنوم يأتي سريعاً إلى فاطمة . كأن في كيمياء بدنها حبوباً منومة لا تحتاج معها إلى انتظار أو قلق أو تقلب في السرير لكي تنام . ما إن تضع رأسها فوق الوسادة حتى تدخل في نوم ثقيل كأنه الموت . وما إن تنام حتى تفر الدماء من وجهها ، ويصبح الوجه قطعة من القماش الأصفر ، وتظل العينان نصف مغمضتين وقد غاب الجزء الحي منهما ، فلم يبق إلا البياض . ويأخذ الفم شكلاً منحرفاً ، ويغطي سحنتها شحوب الموت . أتساءل بيني وبين نفسي إن كان هذا ما يحدث أثناء النوم لكل الناس . ولكنني عاشرت بعض النساء وشاركتهن النوم في فراش واحد ، وكان النظر إليهن وهن نائمات قراءة في كتاب الفتنة التي لعن الأنبياء من يوقظها . فلماذا يختلف نوم فاطمة عن بقية النساء؟ ولماذا تطرأ على وجهها كل هذه التحولات؟ . كنت أظن أن ذلك يحدث لأنها ترى أحلاماً مزعجة أثناء النوم . وعندما سألتها إن كانت تري تلك الأحلام ، أجابت باستنكار أنها لاترى أحلاماً

كالأحلام التي أتحدث عنها ، لأنها منذ سنوات طويلة لاتذكر أنها شاهدت في نومها حلماً . لعل نومها الذي خلا من الأحلام هو الذي يمنحها هذه الصورة . صرت أتجنب النظر إلى وجهها وهي نائمة . أدير وجهي عنها أغلب الأحيان . وإذا أدرته نحوها أسرع وأسدل فوق وجهها الغطاء ، متجهاً باللوم كله إلى ذلك الصانع الذي اخترع للزوجين سريراً كبيراً واحداً ينامان عليه . كأنه لا يكفي أن يأتي عبقري قبله ويبتدع للإنسان أغلالاً اسمها الزواج ، حتى يأتي هو ويضيف إلى الأغلال سريراً مزدوجاً يربط إليه الزوجين ، بحجة تسهيل اللقاء بينهما لحظة المعاشرة الجنسية . وكأن تلك اللحظة ليست إلا لحظة عابرة ، سرعان ما تتحول إلى لحظة نادرة ، بعد أن يتآخى اللحم ويطرد التكرار عناصر الرغبة والإثارة . لا أدري ماذا سيكون رد فاطمة لو أفصحت لها عن رغبتي في أن أستقل بالنوم عنها . أنتقل منذ الآن إلى غرفة أخرى ، أو أتخذ سريراً فردياً لنومي . سوف تعتبر ذلك انفصالاً أو طلاقاً ، بعد أن أصبح هذا السرير شرطاً لا يكتمل الزواج إلا به . لقد غادرتني منذ مدة الرغبة في الاتصال الجنسي بها . ومع ذلك واصلت معاشرتها بشكل وظيفي ، روتيني . على عجل ودون متعة حقيقية إلا المتعة التي تشبه الاستمناء . أما الآن وبعد عودتي مريضاً إلى البيت فقد تحولت هذه الرغبة الغائبة ، إلى عجز كامل . اكتشفت ذلك عندما تعافيت وأردت الاتصال بها . حاولت مرة دون جدوى . ومدفوعاً بالرغبة في إرضائها كررت المحاولة ليلتين متتاليتين فلم أستطع . لم يكن ما أصابني مرضاً أو عنة . كنت سليماً أستجيب للاستثارة وما أن أقترب منها ويلامس جسمي جسمها حتى تنطفئ الرغبة ويسكت اصطخاب الدم . لم أتبادل كلمة واحدة معها ، حول هذا الموضوع . تركته عند هذا الحد وتوقفت عن المحاولة .

الرجل الوحيد من بين زملاء العمل ، الذي كان يزورني هو محمود . ينقل لي نتفاً مما يدور في الوسط الجامعي ، وما يحدث بين سناء وصديقها الجديد . وبرغم ما يحدثه ذلك من ضيق لي . فقد كنت متلهفاً لسماع أي خبر عنها . حتى لو كان موجعاً مثل هذه الأخبار التي يسوقها . كان يبدو متحرجاً من هذا الحديث ،

نادماً لأنه ارتكب خطأً في حقي عندما سعى للتفريق بيني وبينها ، ليفوز بها هذا الرجل الذي لم يكن يهاجمها إلا نفاقاً وابتزازاً . وكنت ألح عليه بالسؤال حتى يتكلم . تطورت العلاقة بينهما ، وصار أهل الجامعة لا يرونهما إلا معاً . يدخلان إلى الجامعة معاً ، ويغادرانها معاً ، ويبحثان عن غرفة خالية يجتمعان بها لترجمة الكتاب . لم أكن أظن أن الجامعة قادرة على أن تتيح كل هذه الحرية لرجل وامرأة من أوساطها ، ولكن لأنها علاقة مشوهة ، ذميمة ، تقوم على التهديد والابتزاز ، والتقاء المتناقضات ، فإن الجميع يرحبون بها . إنها علاقة تنسجم وتتجانس مع كل مظاهر القبح الأخرى فلا يرى فيها الناس نشازاً ، أو خروجاً على مألوفهم . صار الأستاذ شعبان هو الذي ينقلها بسيارته إلى بيتها ، ويأتي بها صباحاً إلى الجامعة . ويمشي بها مختالاً كأنه وضع السماء بكل نجومها في جيبه . وكان هذا الكلام الذي أسمعه من محمود ، يزيدني إحساساً بالفجيعة ، ويقيناً بأن الثور الأسطوري الذي يحمل الكرة الأرضية فوق قرنيه قد شرب من نهر الجنون . وإن زمن إقامتي في السرير سوف يمتد بي إلى آخر العمر . كان عديلي يلح إلحاحاً شديداً ، على ضرورة أن أعود إلى العمل بعد أن شفيت من مرضي ، ويرى أن غيابي خلال هذه الأسابيع الحاسمة ، التي تسبق الامتحانات ليس عدلاً في حق الطلاب . كيف يريدني هذا الرجل أن أعود لأرى مشهداً كهذا المشهد؟ وعن أي عدل يتكلم؟ هل كان عدلاً ما حدث لي؟ وهل سقوط سناء كالذبابة في شباك رتيلاء كبيرة اسمها الأستاذ شعبان ، هو العدل؟ ليرسب الطلاب جميعاً ، ولتتقوض الجامعة على رؤوس من فيها ، وليلحق الدمار مكتباتها ومدرجاتها ومعاملها . فذلك أكثر عدلاً من بقائها رمزاً كاذباً لتقدم الإنسان وتدرجه الحضاري .

ولا أدري لماذا ، برغم هذا الأسى وما أصابني من عناء ، بسبب سقوطها ، ظلت عاطفتي نحو سناء ، متوهجة ، حارقة لا يلحقها التبدل ، وظلت لهفتي لتسقّط أخبارها لا تزداد إلا قوة واشتعالاً . أردت بعزيمة صادقة أن أطردها من ذاكرتي ، وأن أحرر جسدي وعقلي من هيمنة صوتها وصورتها ، ولكن دون فائدة .

ظلت هاجساً يسكنني ويعذبني . طيفاً يطاردني . ظلاً يتسكع في حدائق ليلي ونهاري . إنني برغم سقوطها أحبها . داعرة ملوثة بأصباغ الغدر والخيانة أحبها . امرأة منحت نفسها عطاءً سمحاً لجراثيم الفسق والفساد أحبها ، عارضة جسمها في أسواق اللحم البشري أحبها . ليكن حبها مذلة ومهانة وسبباً لأمراضي وتشردي في الشوارع بلا عمل ولا رزق ، أحبها . أبحث عن صكوك الغفران وأمنحها لها . أصدر حكماً ببراءتها وأضع اللوم كله على البيئة التي أفسدتها . فهي ليست إلا ضحية لا تستحق العقاب القاسي الذي يريده لها الرجل الآخر في نفسي ، والذي يقف شاهراً سيفه مطالباً برأسها . لأنه يري أن النتيجة واحدة في كلا الحالتين . وإذا كنت قد أحببت سناء التي تنتمي إلى زمن الحلم والبراءة ، فإنني يجب أن أكره سناء الأخرى ، سناء السقوط والتلوث والأستاذ شعبان . يجب أن أعتصر جراحي وأنزفها دماً . أمرض بالحمى وأرشحها عرقاً . أبكي كبكاء النائحات في المآتم وأسكبها دمعاً حامضاً مراً . أنبذها وأعافها ، وأوصد أبواب القلب في وجهها . ولكن قلبي احتفظ بإرادة مستقلة عن إرادتي ، ورفض أن يكون سبورة أكتب فوقها ما أشاء ، متى أشاء ، وأمسح ما أريد ، متى أريد . ظل يعمل بمعزل عن إرادتي ، يواصل حبه ، متناقضاً مع رغبتي الواعية . عميل مستقل . لا يعمل إلا لنفسه ، ولا يبحر إلا تحت رايته ، ولا يتلقى أوامره إلا من عزف أوتاره .

كانت قد مرت أيام كثيرة على احتجابي في البيت ، لعلها عشرون يوماً ، عندما جاء محمود يحمل أخباراً جديدة ، قائلاً وهو يحاول أن يضفي على أخباره شيئاً من الإثارة :

- حزّر ما الذي حدث في الجامعة؟

ما الذي يمكن أن يحدث أكثر مما حدث . لم تعد أخبار الجامعة تعنيني ، أو أنتظر منها خيراً . وأحاديث فاطمة عن المقاصف تغريني بأن أترك الحياة الجامعية وأفتح دكاناً لبيع الساندويتشات . قلت في لا مبالاة :

- ما الذي حدث؟ هل تحول كل الأساتذة إلى سناجب؟

- إنني أتحدث جاداً ، وأنقل أخباراً سوف تبهجك .
- وهل تظنني أتحدث هازلاً . إنني فعلاً أستغرب كيف لا يتحول الناس إلى سناجب وقطط وفئران لكي ينسجم سلوكهم مع ذيولهم وأنوفهم وأنيابهم .
- سوف لن تصدق إذا عرفت أن الأستاذ شعبان قد فصل من الجامعة .
- إنك أنت الذي يتحدث هازلاً .
- إنها الحقيقة . فقد صدر اليوم قرار رئيس الجامعة بطرده من العمل .

ماذا يقول هذا الرجل؟ إن الأستاذ شعبان هو الجامعة . هو وجهها الحقيقي الخالي من الطلاء وخداع الواجهات . فهل انقلبت الجامعة على نفسها ، وأدارت ظهرها لتقاليد الرياء التي صار هذا الرجل تجسيداً عملياً لها؟ . هل تراه بالغ في تمثيل هذه الخصال والتقاليد حتى صار سلوكه يهدد الأسس المغشوشة التي تقوم عليها الجامعة فقررت أن تتخلص منه ، وتستبدله بمندوب جديد أكثر قدرة على التمويه والخداع؟ إنه رجل عاش على الكذب والوشاية ، وكتابة التقارير المغشوشة ضد الزملاء ، فهل جاء اليوم من يطعمه من ذات الصحون التي يقدمها للآخرين؟ لن أستغرب إذا كان هذا الطرد يتعلق بفضيحة جمعته مع سناء ، فقد كنت شاهداً على تأسيسهما لهذه الشركة ، التي أنشئت من أجل استثمار التلوث الذي ينتشر في الهواء ، ولابد أن خطأ يشبه الخطأ الذي يحدث في معامل الأسلحة الجرثومية ، ويصيب أصحابه قبل أن يصيب الآخرين هو الذي أدى إلى هذه النتيجة . ولكن ماذا بشأن سناء . إنه لا يذكر شيئاً عنها . فما الذي تراه حدث لها؟ .

- ولعلك لن تصدق أيضاً ، أن سناء هي التي أرغمت الجامعة على طرده .

لم أستطع أن أستوعب المفارقة ، فضحكت .

- لماذا؟ هل تخاصم الشركاء عند تقاسم الأرباح فتحولوا إلى أعداء؟ .
- هذا ما يسمونه بالإنجليزية سؤال المليون دولار .

اكتشفت بعد دهشة اللحظات الأولى ، إنه لم يعد يعنيني أن يطرد الأستاذ شعبان أو لا يطرد . وسواء كانت سناء هي السبب أو لم تكن ، فهي قد سقطت

وانتهى الأمر ، وخصامها معه ، لن يعيدها نقية ، بريئة ، كما كانت .

– سأعفيك من هذا المبلغ تصفية للدين الذي لك عندي ، يوم أن حاولت إبعادها عنك .

لم أقل له أنه يبالغ في تقدير ما حدث ، لأنه حتى لو لم يحاول التفريق بيننا ، فإن زمناً مدبوغ الجلد بكيمياء القبح والسقوط ، كان سيأتي ويأخذها مني .

أضاف وهو يرى يداً تضع صحناً مليئاً بالكعك مع طاستي الشاي :

– نشرب الشاي أولاً .

سمعته يوجه الشكر لفاطمة على إحضارها الشاي ، فاستغربت لأنني لم أنتبه لوجودها ، ولم أرها عندما دخلت وعندما خرجت . تساءلت إن كان ذلك يعني أن حضورها بالنسبة لي صار مساوياً لغيابها . أدركت أن شيئاً في نفسي صار يتعامل معها باعتبارها كائناً لا وجود له . جاء صوت محمود يعيدني إلى الموضوع الذي أراد أن يدهشني به ، فلم يجد عندي سوى البرود . كان حماسه هو الذي جعلني أنصت إليه وهو يسرد الأحداث التي أدت إلى طرد الأستاذ شعبان . بفتور استمعت إليه . ثم شيئاً فشيئاً صرت أنتبه إلى الحقائق الجديدة التي لم أكن أتوقعها . كان قرار الفصل مفاجأة أثارت فضول محمود وشكوكه ، فذهب إلى مكتب رئيس الجامعة يبحث عن السبب ، مدركاً أن لسناء التي لم تكن تفارق الأستاذ ، علاقة بهذا القرار ، مدعياً أمام رئيس الجامعة أنه يعرف الدوافع التي أدت إليه .

– لم أكن أعرف شيئاً ، ولكني لم أشأ أن أترك له مجالاً للتكتم .

– ما أفلحك . ولماذا هذا العناء؟

– لم أفعل ذلك إلا خدمة لك .

لم يعبأ بضحكتي التي تسخر من أسلوبه في تقديم الخدمات ، ومضى يشرح بذات الحماس كيف عرف أن سناء جاءت إليه منذ ثلاثة أسابيع تطالبه بإنصافها من هذا الرجل الذي صبرت على مطارداته منذ أن كانت طالبة . رفضت ملاحقاته وابتزازه فأسرف في ترويج الإشاعات التي تستهدف سمعتها وسمعة

عائلتها . وذكرت لرئيس الجامعة كل ما يقوله عنها . وعندما سمعته يتحدث عن البراهين التي يحتاجها قبل أن يدين أستاذاً مثله ، تركته غاضبة ، قائلة بأنها ستأتي إليه بالدليل . ولم ينته الأسبوع الثالث حتى جاءت تحمل إليه جهاز تسجيل وتسأله أن يتفضل بالاستماع إليه .

لم أشأ أن أقاطع محموداً وأنا أستمع إلى هذه التفاصيل التي لم أتكهن بها . جلست صامتاً . ألتقط كل كلمة يقولها . كان الشريط يحتوي على تسجيل لما حدث بين سناء والأستاذ شعبان في جلسة من جلسات العمل لترجمة الكتاب . حيث استغل الرجل وجوده مع سناء بغرفة خلف كواليس المسرح الجامعي . كان البناء المسرحي مهجوراً ، وكان المسجل الذي أعدته وخبأته بدرج المكتب الذي يجلسان إليه ، جاهزاً للتسجيل ، وما أن ضمتهما الغرفة ، حتى أبدى الأستاذ إعجابه بهذا المكان الآمن ، الذي يتيح لهما فرصة الاستمتاع بحبهما بعيداً عن الرقباء . ويبدو من وقائع التسجيل أنه أحاطها بذراعيه محاولاً تقبيلها ، لأنها سألته أن يرفع يده عنها وأن يحترم علاقة العمل التي تجمع بينهما . أغاظه امتناعها فصار يهددها بأنه سيتدبر مكيدة لتدمير حياتها إذا لم تستجب هذه المرة لرغباته ، قائلاً بأنه انتظر طويلاً هذه الفرصة وصبر عليها كل هذه المدة ، ولن يدع لها مجالاً للهروب . جاء يهاجمها فدفعته بقوة وهي ترميه بشتائمها . خرجت هاربة وما أن رأته يغادر المكان ، حتى عادت لأخذ جهاز التسجيل الذي وضعته بعد ذلك فوق مكتب رئيس الجامعة . لم يكن بإمكان الأستاذ شعبان أن ينكر فعلته . كان خائفاً من المحاكمة والسجن والفضيحة . استعطف واسترحم طالباً التستر عليه . وبدلاً من المحاكمة اكتفت الجامعة بإعفائه من عمله . وتم كل شيء بتكتم شديد لكي لايصبح حديث الناس في الجامعة .

بانبهار تابعته وهو يروي القصة . أكملها فبقيت صامتاً . أنظر إليه وكأنني عاجز عن تصديق ما قاله . غير قادر على استيعابه دفعة واحدة . كانت كلماته تفتح أفقاً مغلقاً ، وكانت سناء تشرق من جديد نجمة تضيء سماء القلب . كيف أستطيع أن أغفر لنفسي ما ارتكبته من إثم في حقها عندما تصورتها امرأة ساقطة

ملوثة . إنه أنا الذي كان ضعيفاً وهشاً ، قابلاً للعطب والانكسار ، وليست سناء التي تجلت قوية ، قادرة على مواجهة الغيلان التي تطلع من قلب الظلام . انتزعت نفسي من حالة الذهول . وقلت كلاماً أعبر به عن امتناني لمحمود ، وامتناني لسناء ، وامتناني أيضاً للأستاذ شعبان الذي كان سبباً في إظهار معدنها النادر الذي ينتمي إلى أكثر عناصر الكون بهاءً وشرفاً .

قال محمود مبتسماً :

- ما أن سمعت طالباً يسأل عنك ، حتى قلت بأنك ستعود منذ الغد لإلقاء محاضراتك . فهل أخطأت فيما قلت؟

- أبداً . كأنك تقرأ الغيب .

- سألني رئيس الجامعة أن أتولى ترجمة الكتاب الذي اعتذرت سناء عن إتمامه . شرحت له ارتباطاتي ورشحتك أنت .

- تعلم أنني لا أحب مثل هذا العمل .

- قلت له بأنك ستوافق . خاصة بعد أن أقنعنا سناء بأن تعينك فيما يخص المصطلحات الطبية . فلا تقل أنني لا أتنبأ بالغيب هذه المرة .

ظل صامتاً للحظة ، ثم سألني سؤالاً مفاجئاً ، وكأن ضميره الذي ارتاح لأنه سعى لإصلاح ما ارتكبه من خطأ في حقي ، قد استفزه لأن هذه العلاقة ، إنما تنشأ على حساب علاقة أخرى لا تزال قائمة .

- ولكن ماذا بشأن فاطمة؟

صرت أنا أيضاً أقلب السؤال في ذهني . ماذا بشأن فاطمة؟ سألت نفسي هذا السؤال كثيراً فيما مضى . وكنت أراه قضية محسومة . ولكن هل حقاً جاء الوقت الذي أضع فيه فاطمة مقابل سناء . وكأن الطريق إلى سناء أصبح سالكاً . قررت أن أطرد هذه المشكلة من ذهني . فهي لحظة للاحتفال وليست لحظة للتأسي . مرت دقيقة صمت قبل أن أقول :

- دعك من هذا الآن . إن زمناً طويلاً سوف يمضي قبل أن تحتاج إلى أن تسألني مثل هذا السؤال .

لأمر ما لم يكن فرحي كاملاً وأنا أقود السيارة في الطريق إلى الجامعة بعد هذه الفترة من الغياب . كان المذياع يترنم بأغنية مرحة من أغاني الصباح . وكنت أحس بشيء من الإثارة ، يبعثه في نفسي الذهاب إلى جامعة خلت من ذلك الرجل . ولكن شيئاً في سلوك سناء ظل يقلقني . إنني أفهم دوافعها ، وأعرف أنه لم يكن هناك طريق آخر تسلكه معه غير استدراجه إلى الكمين الذي نصبته له . ولكنني الآن وأنا أتأمل ما حدث ، وحيداً في سيارتي التي أوقفتها الإشارة الحمراء . أحس بأن شيئاً في ذلك السلوك لم يكن يتفق مع الصورة التي أحملها لها . فلقد تعاملت مع الرجل بمنطقه ، وحاربته بسلاح يشبه أسلحته واقتحمت عليه أرضه ومتاريسه المصنوعة من وحل السنين ، حتى انتصرت عليه . من أين جاءت سناء بكل هذه الشراسة التي تبدو غريبة على طبعها ورقة ملامحها . لا أدري إذا كان ذلك الجزء من نفسي الذي مازال لم يتحرر تحرراً كاملاً من ميراث قديم يفرق بين النساء والرجال ، ويرسم للمرأة دائرة لا يجب أن يراها تخرج عنها ، قد أزعجه الآن أن يرى سناء تتمرد على تلك الدائرة . تخلع ملابس أميرة الحلم وترتدي دروع الفرسان الذين يذهبون إلى الحرب .

ما أن أكملت الإجراءات الإدارية وتقديم الأوراق التي تبرر غيابي ، حتى استعدت جدول المحاضرات وذهبت إلى غرفة المدرسين . وجدت شبابيكها لاتزال مغلقة ، فاكتفيت بفتح نافذة واحدة خلف مكتبي . وقبل أن أبدأ فتح أظرف النشرات والدوريات التي وصلت أثناء غيابي ، جاءت سناء . بدا واضحاً أنها كانت تنتظرني وما أن رأتني أدخل القسم حتى جاءت . لا أدري بالضبط ما الذي يحدث في البدن من تفاعلات أثناء هذه اللحظة . إن عملية كبيرة ، بالغة التعقيد تتم خلال الثانية التي تمد فيها يدها للمصافحة . دم متخثر قديم يتم إفراغه ، ودم طازج جديد يزرع في الشرايين ويندفع متدفقاً بشحناته القوية ، الحارة ، اللاسعة فيتوهج البدن وتسرع خفقات القلب ، ويتلون الصوت كما تتلون الملامح بلون الانفعال الساخن الطازج . ويغمر الدنيا التي كانت ساكنة ، إيقاع راقص مبهج . أجلستها أمامي ، احتضنها بقلبي ، وألثم بنظراتي كل جزء من

جسمها ، الشعر والجبين والخدين والعينين والفم والعنق والصدر . وأبحث في ملامحها عن آثار المعاناة التي عاشتها ، فلا أجد غير وجه مترع بالصفاء ، يشرق بابتسامة تغمر الوجه كله . وضعت سناء البحث فوق المكتب قائلة :

– لم تكن قراءته مهمة سهلة . إنك تستعمل لغة أكثر تعقيداً مما كنت أتوقع . فاعذرني إن تأخرت في قراءته .

قلت وأنا مازلت مأخوذاً بحضورها السخي . أحاول أن أسيطر على رقصة الأعصاب التي أطربها هذا الحضور :

– موضوع البحث أكثر تعقيداً من لغته . إنه أيضاً يحتاج إلى قوة احتمال لقراءته . فلعله لم يضجرك .

لم يكن يهمني البحث ، بقدر ما يهمني أنها جاءت الآن . وصلتها أخبار المرض الذي أصابني ، وعرفت أسبابه ، فبادرت تفاجئني بهذه الزيارة وتصنع لي عيداً .

– ما أن قرأته حتى تجلت لي شهرزاد في ضوء جديد . توقفت كثيراً عند تلك الصفحات التي تشرح فيها كيف أن شهريار بدأ مع بداية القصة كبيراً شامخاً له حضوره الطاغي ، بينما بدأت شهرزاد صغيرة ، ضئيلة ، تساق ضعيفة ، ومسكينة إلى عرس موتها . ثم سرعان ما صرنا نشاهد تبادل المواقع بينهما إذ بدأت شهرزاد تكبر وتتسامق ، بينما يتضاءل شهريار ويتلاشى إلى أن يصير مجرد نقطة ضائعة في هذا الفضاء الذي سيطرت عليه شهرزاد .

بعث حديثها في نفسي شيئاً من الزهو لم يبعثه أي ثناء سمعته قبل اليوم . لعل هذه الصفحات التي قرأتها قد أسهمت في دفعها إلى اقتحام ميادين الصراع كما فعلت شهرزاد . فقد تحقق معها شيء يشبه ما تتحدث عنه الآن .

كان الشعر المربوط بمشبك ذهبي ، يتهدل في حزمة واحدة مغطياً نهدها الذي يجاورني ، في حين ظل النهد الآخر قديساً يبني قبته الصغيرة في بياض الرداء . كان المشبك على شكل فراشة من ذهب . تأملت الفراشة وهي تسطع تحت الضوء القادم من الشباك ، وتمنيت لو أن للبشر أجنحة الطيور ، لكي أفرد لهذه المرأة

أجنحتي وأنطلق بها بعيداً عن هذا المكان الذي شهد معاناتها . لاشك أنها تحملت كثيراً من العناء حتى جاءت بذلك البرهان الذي طلبته الجامعة . وكان لابد أن يأتي في حديثنا ذكر الأستاذ شعبان وما ناله من عقاب . أخبرتها بأنني عرفت كل شيء ، فاكتفت بأن قالت :

- ولكن الكتاب مازال بحاجة إلى ترجمة .

كان واضحاً أنها قررت أن تطرد هذه الحادثة من ذهنها . أضافت قائلة :

- وقد اختارتك الإدارة لأن تتولى أنت هذه المهمة .

- أنت من بدأ هذا العمل ، وأنت من يصلح لإتمامه .

- لم أكن أريد أن أرى هذا الكتاب مرة أخرى . ولكن الجامعة التي اشترت حقوقه وتعهدت بنشره ، تريد إنجازه في الأيام القادمة وتطالبني بأن أفي بالتزامات المساهمة في الترجمة .

لم أكن واثقاً مما قاله محمود عن ترشيحي لهذا العمل . لكن سناء جاءت تضع أمامي تكليفاً رسمياً من رئيس الجامعة يطالبني أن أترجم الكتاب بمساعدة المعيدة سناء عامر . عجزت عن وجود كلمات تفصح عن مشاعري فلجأت إلى الضحك ، أطرد به كل الترسبات العالقة بنفسي من آثار الأسابيع الثلاثة الماضية . قلت لسناء أفسر هذا الضحك الذي جاء في غير وقته :

- لا أدري لماذا أضحك . ربما حدث ذلك لأنني لم أضحك منذ زمن طويل .

كانت رسالة رئيس الجامعة ، تطلب إنجاز الكتاب قبل حلول عطلة الصيف ، وتضع تحت تصرفنا غرفة بالمكتبة المركزية مكاناً للعمل . اتفقنا أن نبدأ العمل منذ الغد ، وفي وقت مبكر لا يتعارض مع محاضراتي التي يأتي موعدها فيما بعد .

كانت الغرفة التي خصصوها لنا بالطابق الثالث من مبنى المكتبة ، غرفة صغيرة ، بها طاولة تحتل المساحة كلها ونافذة كبيرة بحجم نصف الجدار . أبقينا باب الغرفة مفتوحاً كما وجدناه ، وجلسنا متقابلين حول الطاولة ، بيننا الكتاب والأوراق البيضاء ومعاجم اللغة ، وبدأنا العمل بمراجعة وصياغة ما تم إنجازه من الترجمة .

- ها أنت تنتقل من عوالم الأدب وخيالاته ، إلى جفاف العلم ومعادلاته .
قلت وأنا أتناول الأوراق وأراجع معها الترجمة :
- سيكون هذا الكتاب هو أجمل كتاب أقرؤه في حياتي .
ولا أدري لماذا قلت لها أثناء استراحة أخذناها لتناول القهوة :
- كان غناؤك جميلاً عندما رأيتك في مدينة أخرى وزمن آخر .

لم أكن قد قررت أن أكاشفها بقصة لقائي معها في زمن الرؤيا . أو أخبرها بحقيقة أن لقاءنا اليوم ليس إلا استئنافاً للقاء بدأناه منذ أكثر من تسعة قرون مضت . كانت هذه هي أول مرة أشير فيها إلى ذلك الحلم . رأيت للحظة كأن هذا القول فاجأها ، فرمقتني باندهاش ، ثم اختفى الاندهاش عندما قالت :

- لعلك عرفت أنني غنيت ذات مرة في إحدى حفلات الجامعة .

كانت هذه أول مرة أعرف فيها أن سناء تغني أيضاً بمثل ما كانت تغني امرأة الحلم . أكدت لها أن كل ما أقوله من معلومات إنما استقيتها من سفر روحي قمت به إلى مدينة تأخرت عن هذا العصر قرابة ألف عام ، حيث التقيت بها هناك . وسأعتبر كلامها الآن دليلاً على أن الأحلام لا تكذب أبداً . ظنت سناء بأنه حلم رأيته في الأيام الأخيرة بعد أن خرجت مريضاً من غرفة المدرسين . لقد لاحظت أثناء تلك الزيارة ما اعتراني من اضطراب ، وما عانيته بعد ذلك من مرض ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً . كانت تخشى أن تفشل في مهمة فضح وتأديب الرجل الذي عذبها بمطارداته . وتهديداته ، واثقة من أنني سأعرف الحقيقة في وقت قريب . قلت لها بأن هذه الأسابيع لم تجلب لي سوى الكوابيس والحمى . وأن الحلم الذي رأيتها فيه ، حدث قبل أن ألتقي بها في قورينا ، ولعل هذا يفسر لها الذهول الذي أصابني عندما رأيتها . لم أشرح لها تفاصيل الحلم . اكتفيت بأن قلت أنني فعلاً عرفتها هناك ، وأنه تهيأ لي أنني عشت أياماً معها . ونشأت أثناء ذلك علاقة حميمة بيننا واستمعت منها إلى غناء لم أسمع له مثيلاً في جماله وعذوبته . قلت لها أيضاً إنني قرأت قصة لبورجيس الأرجنتيني ، يتحدث فيها عن رجل رأى طيف إنسان في الحلم ثم

اكتشف بعد ذلك أنه هو أيضاً كان طيفاً في حلم ذلك الشخص . لم تكن سناء قد رأت الحلم الذي رأيته . واعتبرت أن هذا المقدار من البوح يكفي لجلسة عمل واحدة ، فنحن لدينا عمل آخر يجب أن ننتبه إليه قبل أن يسرقنا الوقت . عدنا إلى الكتاب . كانت هي تقرأ الترجمة في حين أمسكت أنا بالنص الأصلي لأقارن بينه وبين ما أسمع . سرحت قليلاً فوجدتها ترفع عينيها الواسعتين الباسمتين قائلة :

- هل أنت تقرأ الكتاب ، أم تقرأ وجهي؟ .

فاجأتني أعلق بصري بها . هذا الصفاء في بشرة الوجه ، بهو يضج بالمرايا والقناديل . فما حيلتي إذا أغفلت لحظة عن المطهرات الطبية الواجب استخدامها عند تعبئة وتعليب الحقن .

كانت سناء تأخذ مجلسها أمامي . من خلفها النافذة ، كبيرة ومضيئة ، كأنها بحيرة ضوء معلقة في الفضاء . وذوائب الأشجار ، تطل من خلف النافذة ، أذرع خضراء ترفع صلاتها لإله الشمس . في حين ترامت السماء ، فسيحة زرقاء . في هذا الإطار كنت أتأملها ، يملؤني إحساس بأنني أدخل الآن كهفاً مسحوراً ، أجمل ما فيه أنه ليس حلماً ، أو وهماً ، وإنما واقع انفصل عن الواقع وأعلن القطيعة معه . فما عادت تعنيني في شيء هذه الأصوات التي أسمعها خارج الغرفة . الأقدام التي تصعد السلالم ، الأحاديث التي تتناهي من داخل المكتبة ، السيارات التي تمرق وتحدث ضجيجاً . الحشود التي تملأ ساحات الجامعة ومدرجاتها ومعاملها ومكاتبها . كل هذا صار شيئاً فائضاً ، وزائداً عن الحاجة ، لايعنيني ولا أنصت أو أنتبه إليه . مايعنيني الآن هو هذا المدى من الزرقة والضياء . وهذا الوجه المثقل بالوعد والبشارة ، وهذه المرأة التي جاءت من زمن الإشراق والرؤيا ، لتضيء بحضورها عوالم داخل نفسي ، فأراها زاخرة باحتمالات الفرح والانعتاق .

قالت سناء وهي تضم أوراقها :

- لنكتف اليوم بهذا القدر من تعذيبك .

رأتني أعترض على هذا الوصف فأضافت :

- كيف لا يكون هذا تعذيباً ، لمن تعود أن يعيش محلقاً في أجواء ألف ليلة وليلة .

عندما انتهت حصة العمل الأولى وفارقت سناء عائداً إلى قاعة الدرس ، كنت كمن عاد لتوه من جولة فوق قارب مصنوع من السحب . كان كل همي بعد ذلك هو أن أنتظر الحصة التالية ، وأستبق الزمن نحو تلك اللحظة التي ألتقي فيها بسناء ، وسط غرفة تضيئها نافذة كبيرة . ومع كل لقاء كنت أزداد اقتراباً منها ، واقتراباً من نفسي . كنت أجد راحة في أن أخبرها بهمومي وذكرياتي ، وأفتح في حضورها عقلي وقلبي وذاكرتي . أفضي لها بأشياء ما كنت أظن أنها تهم أحداً غيري . بل ما كنت أظن أنني قادر على استحضارها إلا الآن وأنا أذكرها لها . أخبرتني في إحدى هذه اللقاءات بأنها عرفت أنني أملك حظوة لدى الطلاب الذين يدرسون معي ، تؤهلني لتحقيق زعامة في الأوساط الطلابية ، وهو هدف يسعى إليه أساتذة كثيرون ، بعد أن صار الطلاب يتولون تعيين اللجان التي تدير الجامعة . لعلها حظوة جاءت نتيجة غيابي المتكرر عنهم ، قلت لها ، فلا شك أنهم يكرهون الأساتذة الذين يرهقونهم بالدروس . لم أكن أعرف ما يقوله عني الطلاب . كل ما أعرفه أنني لا ألتزم بروتين معين في أسلوب التدريس . وإنني بخلاف الأساتذة الآخرين الذين يتعاملون مع المحاضرات بمثل ما يتعامل الإنسان مع مأكولات معلبة يشتريها جاهزة من السوق . كنت أجعل الدرس شبيهاً بالمغامرة ، وأجعل الطلاب شركاء في هذه المغامرة . كانت مهمتي أن أقدم اللغة من خلال الأدب ، فكنت أترك الطلاب يقترحون النماذج التي يدرسونها . وبقدر ما أبهجني الثناء ، فقد أفزعني أن أرى نفسي زعيماً . ذكرت لها كيف وجدت نفسي زعيماً ذات يوم بعيد من أيام الطفولة . وكيف أنني عشت منذ ذلك التاريخ أمقت هذه الصفة . أحمل خوفاً منها وكراهية لها ولا أثق مطلقاً في صحتها . بدأت القصة بمواجهة بيني وبين صبي كان يفزع الأولاد الأصغر منه سناً ، من أبناء شارعنا . رآني أخرج من بيتنا وفي يدي قطعة نقود أرسلوني بها إلى الدكان ، فجاء يريد أن ينتزعها مني . حاولت الهروب عائداً للاحتماء بسقيفة البيت ،

فلحق بي وأمسك بقميصي عند الباب . كنت خائفاً منه ، وخائفاً من العقاب الذي ينتظرني لو تنازلت له عن النقود . دفعته عني . دفعته بيأس ورعب ، دفعة قوية أسقطته فوق العتبة حتى أدمت رأسه . انسحب ذلك الصبي من شارعنا وأصبحت في نظر بقية الأطفال بطلاً . لم يكن أحد منهم قد رأى هروبي ، ولا كيف دفعته عني وأنا أرتعش . لم أستطع أن أعترف أمامهم بحقيقة ما حدث ، ولم أكن أقوى على تحمل مسؤولية الزعامة التي جاءوا يلبسونها لي . فاعتزلت اللعب ، محتمياً بالبيت ، خوف أن يرمي بي هذا الوهم في مغامرة جديدة ، تتكشف فيها حقيقتي . ومنذ ذلك اليوم صار كل شيء له علاقة بالبطولة والزعامة يثير في نفسي مشاعر الشك والخوف .

لم يكن الحديث مع سناء مجرد سفر إلى الماضي . كنت أيضاً أحاول أن ألملم الأشياء المبعثرة من نفسي وأعيد تركيبها وترتيبها مرة أخرى . وكأنني أهتدي ، بصحبة هذه المرأة ، إلى معرفة نفسي ، وأعيد ، بفضلها ، اكتشاف العناصر التي أسهمت في تكويني . وعندما كنت أقدم لها نفسي من خلال هذه التداعيات ، كنت كثيراً ما أفاجأ بظهور تلك الدوافع القديمة ، لأفعال أقوم بها الآن وأحسب أنها جاءت نتيجة قناعات جديدة تولد مع النضج والتجربة ، بينما هي تستمد حياتها من تلك الجذور المدفونة في أرض الطفولة وسديمها . حتى هذه العاطفة التي تجعلني أسهد وأمرض ، إنما هي داء قديم نشأ معي منذ سنوات العمر الأولى . ذكرت لها وهي تستعيد معي ذكريات المدينة القديمة التي شهدت جزءاً من طفولتها ، كيف أنني وأنا في العاشرة من عمري تقريباً ، تعشقت امرأة من نساء البحارة اليونان . الذين كانوا يسكنون منطقة تجاورنا هي باب البحر . كنت أجلس بالساعات أمام بيتها من أجل أن أراها لحظة أن تطل من خلف الباب ، تبحث عن صبي يجلب لها شيئاً من السوق . لم أكن أعرف كنه العاطفة التي أحملها لها . كنت منجذباً إليها بقوة سحرية لا أستطيع تفسيرها ، وكنت أرتعش سعادة وأنا أتلقى ابتسامة منها مكافأة على خدمتي لها . وعندما رحلت مع أهلها بكيت . لم أبك فقط ، وإنما رقدت في الفراش مريضاً ، دون أن يعثر أهلي على علة تستوجب

رقادي في الفراش ، وامتناعي عن الأكل ، وبكائي الصامت دونما سبب . كنت أطوي هذا العشق الساذج في صدري ، دون أن أخبر به أحداً . وأجلس حزيناً أمام بيتها المغلق ، أنتظر أن أراها تفتح الباب وتسألني أن أشتري لها ملحاً أو خبزاً أو كبريتاً أو صابونة من السوق . وصرت كلما سمعت نداء باخرة في الميناء اعترتني رعشة ، ورغبت في البكاء .

كانت المدينة القديمة بالنسبة لسناء مجرد ذكرى غامضة ، وصدى لأحاديث الأهل عن حياتهم بها قبل انتقالهم منها وهي في عامها الثالث أو الرابع ، إلى منطقة المنشية التي تحولت من مزارع إلى بنايات ، عدا مناطق قليلة خضراء ، لاتزال تحيط بالبيت الذي تسكنه سناء الآن بصحبة أمها ، وأخ صغير أكمل الدراسة الإعدادية وانتسب إلى معهد الموسيقى . توفي والدها قبل أن تدخل الجامعة وترك لأمها عقاراً يدر بعض المال . كنت أصغي بانتباه إلى حديثها ، محاولاً أن ألتقط أية إشارة تنبئ بوجود رجل في حياتها . لم يكن هذا الخوف مبرراً . فما رأيته منها حتى الآن يجزم بأن لي حظاً معها أكثر من غيري . ما كان يقلقني هو أنني لا أستطيع أن أتصور أن تبقى امرأة ، أكملت تعليمها الجامعي ، وامتلكت كل هذا الجمال ، دون ارتباط وكأنها لم تخلق إلا لكي تنتظرني . ثم أطرد هذا القلق قائلاً أن رجلاً مثلي ، يعرفها منذ ألف عام ، حري بأن يحظى بهذه المعاملة الخاصة .

ولا أدري كيف وصلت أخبار علاقتي بسناء إلى زوجتي . كانت حياتنا الجنسية قد توقفت تماماً بعد المحاولات الكثيرة التي باءت بالفشل . وكنت أدرك أن ارتباطي بها قد وصل إلى نقطة النهاية . وأن الأمر لم يعد يحتاج إلا إلى كلمة صغيرة أقولها لتفهم فاطمة أن طريقي بات يختلف عن طريقها . ولكنني كلما فكرت كيف أقولها ومتى أقولها اعترتني حالة من الإحساس بالحرج ، فأرجئ قولها إلى وقت آخر . متمنياً أن أصحو ذات يوم فأجد أنها أخذت حوائجها وغادرت البيت . هجرتني وأعفتني من عبء هذا القرار . كانت حالة التبرم والضيق قد أصبحت حالة دائمة تلازم فاطمة خلال الأيام الأخيرة . فهي

مكتئبة ، صامتة ، تؤدي عمل البيت بطريقة آلية ، فاترة . وكنت أقابل صمتها بصمت مثله . غير قادر على أن أنظر في عينيها أو أجد كلاماً أقوله لها . كنت أعرف أن هذا الشيء الذي يأبي أن يحدث في الفراش هو الذي يصيبها بالاكتئاب . وإذا كان الموضوع لايزعجني كثيراً لأنني أعرف أسبابه وأدرك أنه عجز لا ينتابني إلا معها ، فهو بالنسبة لها كارثة . إنه إهانة لأنوثتها ، وإشارة أكيدة إلى تبدل مشاعر الزوج نحوها . وهو بعد كل شيء يهدد الوظيفة التي نذرت نفسها لها كزوجة وربة بيت . إن هذا الشيء الذي لا يحدث في الفراش ، هو بذاته ما سيكون حجتي لحظة أن تجيء الفرصة لإقناعها باستحالة حياتنا الزوجية . لابد أن تأتي هذه الفرصة سريعاً ، لأن حسم علاقتي بسناء يتوقف أيضاً على حسم علاقتي مع هذه المرأة أولاً . وإذا كانت سناء قد وجدت هذه الأيام عذراً للقاءاتنا ، فإنه ما أن ينتهي الكتاب حتى ينتهي العذر ويصبح مستحيلاً أن تحافظ على علاقتها برجل متزوج لا تربطها به أمام المجتمع أية رابطة . الوقت يمضي ، وواجبي أن أقدم لسناء هذه الرابطة التي يريدها المجتمع قبل أن يفوت الأوان . لا أدري إذا كان ذلك الإحساس الشخصي بالعدل هو الذي يجعلني أحجم عن الإساءة لامرأة لم أر منها خلال هذه السنين إلا الطاعة والإذعان . أو لعل شخصيتها المهادنة ، اللينة ، الضعيفة ، المسالمة ، هي التي تملؤني إشفاقاً عليها ، وخوفاً من أن أواجهها بقرار يحمل هذا المقدار من القسوة . ووجدت أنني لن أستطيع أن أفاتحها في موضوع كهذا إلا في حالة واحدة ، وهي أن أنتظر نزاعاً ينشب بيننا تكون هي التي بدأته ، لأتخذه مبرراً لطرح فكرة الطلاق . ولم أنتظر زمناً طويلاً حتى جاء هذا النزاع . كنت قد عدت لتوي من الجامعة . أوصلت سناء إلى بيتها وجئت لأجد فاطمة تستقبلني بوجه تمكن منه الغضب .

– إذا عرف السبب . . .

أدركت من لهجتها العدائية أن ما تقوله يتصل بذلك الشيء الذي لا يحدث في الفراش . والذي لم نتبادل حوله كلمة واحدة حتى الآن . برغم أن وجوده

الثقيل يملأ فضاءات البيت ، ويتكدس فوق الكراسي وطاولة الطعام وسرير النوم . كنت أعرف أن لحظة مثل هذه سوف تأتي ، وأن فاطمة لن تصبر طويلاً على السكوت . قلت محاولاً أن أعرف إن كان هذا ما تعنيه :

- أي سبب تقصدين؟

وبدلاً من أن تكمل جملتها الناقصة ، قالت بلهجة أكثر انفعالاً :

- لا تدّع البراءة الكاذبة . فلقد عرفت كل شيء .

- إنني لا أدري عن أي شيء تتحدثين .

- لعلك تظنني عمياء ، بلهاء ، لا تسمع ولا ترى ولا تعرف ما يحدث في الدنيا ، وما يجري بينك وبين سليلة الحسب والنسب وبيوت الدعارة السرية .

ثم لأول مرة خلال هذه السنين التي عشناها معاً ، أفاجأ بفاطمة أخرى ، تخرج من خلف أقنعة المسكنة والمذلة والضعف . فاطمة جديدة لا أعرفها ، تتفجر غضباً وحقداً على المرأة التي اعتبرتها غريمة لها ، قائلة بأنها لن تسمح لامرأة من الشارع أن تهدم بيتها وتعبث بحياتها ، وإنها تعرف كيف تنتقم لنفسها ، وتريها كيف أن خطف الأزواج ليس سهلاً كما تظن . سوف تفضحها وتفضحني معها . كانت تتكلم بوجه احتقنت فيه الدماء وتحول بياضه إلى سواد . وصوت استعار حنجرة جديدة فبدا قوياً لاذعاً كفرقعة السياط . قائلة بأنه لم يكن يخطر على بالها أن أكافئها بمثل هذا الأسلوب بعد أن صبرت طويلاً على أمراضي ، وتحملت ضنك الحياة معي ، خادمة وممرضة ، تعاني وتتعذب من أجل السهر على راحتي ، وأنها لن تسكت على هذه الإهانة ، ولن تسمح لأحد أن يرمي بها كحطام الأشياء المستعملة .

تلبستها حالة من التشنج فصارت تكز على أسنانها ، وتكور قبضة يدها ، وتنظر بعينين جاحظتين إلى الفراغ الذي أمامها ، وصدرها ينتفض شهيقاً وزفيراً ، وهي تنعت سناء بألفاظ بشعة وتهددها بالسجن والقتل . كنت مستغرقاً في ذهولي ، مندهشاً لظهور هذه المرأة التي لم أرها من قبل ، أشاهدها كمن يشاهد في يده مسدس ماء ، يتحول ماؤه فجأة إلى بارود . كنت أرتعش وأنا أسمعها تنعت

سناء بذات النعوت التي استعملها الأستاذ شعبان ، ولكن بطريقة أكثر فحشاً ، قائلة بأن أمها ليست إلا مومساً التقطها والدها من بيوت الدعارة لأنه كان أكثر سقوطاً منها ، وما الابنة إلا سليلة هذه المخازي . أردت أن أفعل شيئاً لإسكاتها ، فتقدمت نحوها مهدداً ، وقبل أن أقول شيئاً ، تهاوت باكية فوق الكرسي . تركتها وذهبت إلى باب البيت . ضربته بعنف وخرجت .

كنت عاجزاً عن تفسير هذا التحول الغريب الذي طرأ عليها . كيف لم أستطع ، وخلال ثلاث سنوات ونصف ، عشتها معها ، أن أرى أي بصيص لهذه المرأة الأخرى التي ظهرت اليوم دفعة واحدة . كتلة من الهيجان والتنمر والغضب . أحسست وأنا أنظر إليها مأخوذاً أن هذه المرأة قادرة على ارتكاب أفظع جرائم القتل وأكثرها بشاعة ورعباً . من أي كهف من كهوف الظلام خرجت هذه المرأة التي تحول كل شيء في ملامحها إلى مخالب وأنياب وعقارب . لم يكن يعنيني كيف وصل إلى علمها خبر علاقتي بسناء ، فهي علاقة عمل علنية ، حتى لو فسرتها هذا التفسير ورأت فيها سبباً للداء الذي أصاب فراشنا . كما لم تكن تعنيني التهم التي رمتها بها ، فهي إشاعات قديمة وضعت لها صياغات جديدة بسبب الحقد والانتقام . ولم يكن غريباً أن ترى في هذه العلاقة شيئاً ينبئ بتقويض بيت الزوجية ، فهي فعلاً كذلك ، ولعلها عرفت بحدس المرأة هذه الحقيقة فاستنجدت بشخصيتها الأخرى التي كانت تخبئها في أكثر الكهوف سرية وعمقاً . ما صار يعنيني الآن هو أن فاطمة أصبحت مشكلة أكثر تعقيداً مما كنت أظن . ما حسبته أمراً سهلاً لن يقتضي سوى كلمة منعني الإشفاق من قولها ، بات ينبئ بأن صراعاً ضارياً سوف ينشب بيني وبينها ، ومسدس الماء لم يكن كله ماء ، كان هناك بارود خلف خدعة الماء . وبرغم أن الإشفاق انتهى الآن ، وتحول إلى استنفار لكل ما أملك من قدرة على المقاومة ، فإنني لم أعد إلى البيت إلا ليلاً . تغيبت كل هذه الساعات بأمل أن تكون قد أفرغت شحنات الغضب والبكاء ، وأخلدت إلى النوم ، فأتجنب الاصطدام بها ، وأنتظر الصباح لأفوز بحديث هادئ معها .

رجعت إلى البيت فوجدت أنها أعلنت حالة استنفار في صفوف العائلة .

امتلأ البيت أطفالاً ونساء ، وجلست في غرفة المكتب بين أخي وعديلي ، أستمع إلى صوت الحكمة يطالبني بالتعقل والابتعاد عن التهور ومصالحة فاطمة ، وإنهاء أي علاقة لي بالمرأة الأخرى . كان أخي هو الذي يتكلم في حين جلس محمود صامتاً . طمأنت أخي قائلاً بأن المسألة ليست كما تظن فاطمة . وأن ما يجمعني بسناء ليست إلا علاقة عمل يحدث مثلها بين العاملين في مكان واحد ، دون أن يثير ذلك حقد الأزواج أو الزوجات . فاجأني أخي عندما فتح مجموعة من الرسائل كان ممسكاً بها ، قائلاً بأنه يجب أن أنفض يدي من هذه العلاقة حتى لو كانت علاقة عمل ، وأنه اتفق مع فاطمة على أن أقطع صلتي بتلك المرأة مقابل أن تتنازل عن إرسال هذه الرسائل .

لا أدري متى وجدت فاطمة الوقت لكتابة هذه الرسائل التي يصل عددها إلى تسع أو عشر . كلها تظلم وشكوى ، ومطالبة بإنصافها من هذه المرأة التي اعتدت على حرمة بيتها ، وأرادت أن تسرق زوجها . إحداها إلى رئيس الجامعة تستنكر أن يحدث هذا في الحرم الجامعي ، وأخرى إلى شرطة المحافظة على الآداب تستعديها على سناء لمسلكها المشين ، وثالثة إلى سناء تهددها وتطالبها بأن تبتعد عن طريقي ، ورابعة وخامسة إلى قياديين سياسيين تطالبهم لا أدري بماذا ، لأنني لم أستطع أن أواصل القراءة أو أعرف لمن وجهت بقية الرسائل فلعلها وجهتها إلى مصلحة السجون أو المطافئ أو مكافحة الآفات الزراعية ، لأنها رسائل مكتوبة بحبر الجنون والهلوسة . بقيت لحظة أقلب النظر بين الرسائل وأحملق في الرجلين أسألهما عن رأيهما في هذا العبث والهذيان . ثم هائجاً اتجهت إلى الباب أريد أن أخرج إليها وأطلب تفسيراً منها لهذا المسلك الذي لا تسلكه إلا امرأة فقدت عقلها . وقف الرجلان يمنعانني من الخروج وأنا أدفعهما غاضباً قائلاً ، لايمكن أن أعيش مع امرأة تستعدي أجهزة الدولة ضدي وتستخدم أساليب التهديد لإرغامي على الحياة معها .

حاول أخي تهدئتي قائلاً بأنها امرأة مجروحة ، وهي لم تكتب هذه الرسائل إلا تنفيساً عن الغضب ، وإلا ما كانت احتفظت بها وأطلعتنا عليها . ثم مزق

الرسائل ورمى بها .

أفلح التجمع العائلي في إسكات العاصفة ، ولكنه لم يفلح في تصفية الخواطر ، فقد جلست صامتاً بعد أن ضمتنا غرفة الصالون ، رجالاً ونساءً في حين ظلت فاطمة تحمل منديلاً في يدها تجفف به عبراتها . وكان فألاً طيباً عندما حان موعد النوم ، واستبقت أختها لتنام معها . فهذه أول مرة نتواجد فيها معاً تحت سقف هذا البيت دون أن يجمعنا فراش واحد .

عندما لاقيت سناء لم أستطع أن أنفض عن وجهي وصوتي آثار ما حدث في الليلة السابقة . لاحظت سناء ما يعتريني من ضيق فأحجمت عن إخبارها بالسبب . افتعلت ضحكة واهية مدعياً أن ما يضايقني هو هذه الموجة من الحر التي داهمتنا منذ بدء الصباح برياحها الساخنة . اقترحت أن أذهب لإحضار مشروب بارد ، وقررت وأنا أناقش الأمور مع نفسي ، خلال مشوار الذهاب والرجوع من المقصف ، أن أمضي خطوة أخرى باتجاه توثيق علاقتي بسناء . لم أكن حتى الآن قد دخلت إلى بيتها رغم أنني أوصلها إلى هناك كل يوم . فأردت أن أتعرف اليوم على أسرتها ، وأن أجعل هذا التعارف يأتي عفوياً كأنه تم بالصدفة . انتهى الدوام وأخذتها في سيارتي إلى بيتها . اجتزنا طريقاً ترابياً يمضي بمحاذاة بستان تحاصره الأبنية وتلمع ثمار التين والرمان والبرقوق في أشجاره ، متوهجة تحت شمس الظهيرة . وعلى طرف البستان كان يقع البيت الذي تسكنه سناء وقد انتصبت في فنائه شجرة نخل واحدة ، مثقلة بعراجين البلح الذي لم ينضج بعد . ما أن وصلت حتى أطفأت محرك السيارة وأنا أتبادل معها حديثاً قصيراً عن برنامج العمل ليوم الغد ، ومستجيباً لقانون الصدفة ، الذي لم يكن إلا قانوناً من صنعي ، امتنع المحرك عن العمل عندما أردت تشغيله ، متأثراً بارتفاع درجة الحرارة . سألتها أن تدخل وتتركني أنتظر ، حتى تبرد حرارة المحرك . كنت أعرف أنها ستدعوني إلى الانتظار داخل البيت ، ولذلك فإنني لم أتردد لحظة واحدة عندما جاءت هذه الدعوة .

كان البيت شقة أرضية في بناية من طابقين ، تحيط بها حديقة صغيرة .

استقبلتني رائحة منعشة تشبه رائحة الحقول بعد هطول الأمطار . لم أعرف السبب إلا عندما اجتزت ممراً صغيراً إلى ردهة البيت الواسعة التي يستعملونها مكاناً للجلوس ، فوجدتها تمتلئ بأحواض تعرش فوقها النباتات . إحدى هذه النباتات كانت قد نمت حتى أصبحت شجرة صغيرة . جلست بجوار الشجرة ، أجيل بصري في الردهة التي ازدحمت ازدحاماً أنيقاً بالأثاث والنباتات ، الضوء يأتي من نافذة الأولومونيوم الأصفر ، التي تطل على جانب من الحديقة ، وفي الجانب المقابل للشباك كانت أسماك ملونة كثيرة تسبح حول نبتة ذات ساق طويلة ، داخل الأكوريوم الملاصق للحائط . بينما وقفت خزانة عريضة مليئة بالمجلدات وأجهزة التلفاز والڤيديو والمسجل ، تفصل بين الردهة وبين الرواق الذي يفضي إلى الغرف الأخرى . كانت ستائر القطيفة وكراسي الجلد والسجاد السميك الكثير النمنمات ، كلها ذات ألوان غامقة لا تتناسب مع قيظ هذه الظهيرة ، ولكن النباتات الكثيرة ، أضفت على البيت طراوة وانتعاشاً . أحسست بإلفة مع المكان ، ومددت يدي أتحسس أوراق الشجرة القريبة مني ، وكأني أريد أن أصافحها وأتعرف عليها . كانت أوراقها غزيرة ، داكنة الخضرة ، والتربة في حوضها مبللة سوداء . رأتني سناء مهتماً بها ، فقالت بأنها تسمى «البانيوم» ، وأن موطنها الأصلي إفريقيا الاستوائية ، ولكنها تتآلف بسرعة مع الأماكن التي تنتقل إليها ، عندما تجد من يعاملها معاملة حنونة ، وإلا فإنها تنطوي على نفسها وتظهر على أغصانها علامات الاكتئاب . قلت لها وأنا أرى عرفين من أعراف الشجرة يتسلقان الحائط :

- إنها سعيدة هنا ولذلك فهي ترسم إشارة النصر .

ابتسمت سناء وغابت داخل البيت . تنبهت وأنا أتتبع إشارة النصر التي ترسمها الشجرة ، إلى أن هناك صورة معلقة على الجدار في نهاية الإشارة . أدرت جسمي بكامله لكي أتفحصها ، فوجدتها صورة رجل يرتدي ملابس ضباط الشرطة ، له سحنة قاسية وشارب كثيف داكن السواد . تهيأ لي أنني رأيت صورة هذا الرجل من قبل . فتشت في ذاكرتي عن ضباط الشرطة الذين ترسخت

صورتهم في ذهني منذ المراحل الدراسية الأولى ، أيام الاشتباك مع أجهزة الأمن أثناء المظاهرات . أيكون هو عامر عبد الجبار رجل السلطة القوي ، وقبضتها الحديدية في مراحل الاضطرابات التي كانت تواجهها الحكومة في الخمسينات . إنه هو بهذه الندبة التي فوق جبينه . كانوا يسمونه «المطرقة» ، لقدرته على الفتك بالمشاغبين وأعداء الحكومة . كان زواجه مثار تعليقات الصحف الوطنية ، لأنه اقترن بامرأة عائدة من المهجر ، اكتشفت هذه الصحف بعد سنوات من زواجه بها ، أنها كانت تشتغل بالرقص ، في ملاهي تونس الليلية ، ونشرت صورة إعلان لأحد الملاهي يحمل صورتها ، إحراجاً للحكومة ومهاجمة لرمزها القوي عامر عبد الجبار ، خبا بعد ذلك نجمه ، وتحمل قطيعة أهله ، وتنحّى قبل سنوات من وفاته عن وظيفته ، وافتتح متجراً لبيع الحبوب بسوق الثلاثاء . أتكون سناء هي ثمرة ذلك الزواج العاصف بين رجل السلطة وامرأة الملاهي الليلية؟ إن جمالها النادر ، ينبئ بأنها بذرة صنعها حب عظيم . أدركت لماذا اتخذ منها الأستاذ شعبان هدفاً لمطارداته . إن أحداً لا يريد أن يغفر أو ينسى ، ولم أكن شخصياً لأتذكر هذه المعلومات إلا لأنني قرأتها أكثر من مرة عندما كانت الصحف تنشر وثائق العهد المباد التي تكشف فساده وتدين عناصره . ولكن من قال أن مسألة الرقص والملهى الليلي لم تكن سوى مكيدة دبرها خصوم هذا الرجل الذي كان يعيش في قلب الصراعات .

لم تمض سوى لحظات قصيرة حتى جاءت الأم . ترتدي قفطاناً طويلاً امتزج بياضه بدوائر زرقاء ، وتضع منديلاً فوق رأسها . امرأة ممتلئة الجسم إلى حد البدانة ، غادرها الشباب وإن لم تغادرها آثار ذلك الجمال الذي ألهب قلب رجل الشرطة القوي . ثمة شبه بين الأم وابنتها لم أستطع تحديده . فتشت وأنا أراها مقبلة نحوي عن راقصة الملاهي في ملامح وجهها ، فلم أجد سوى وجه يطفح بالطيبة والأمومة والانكسار . أصدرت لها منذ اللحظة الأولى شهادة براءة ، واعتبرت أن التجاعيد القليلة التي تحيط بمناطق الفم والعينين ، إنما تنتمي إلى جلال الأمهات . قالت بين عبارات الترحيب إن سناء أخبرتها عن العمل المشترك

الذي كلفتنا به الجامعة . كانت عبارة أهلاً وسهلاً التي تقولها بعد كل جملة ، تمنح حديثها إيقاعاً محبباً . اعتذرت لها عن هذه الزيارة المباغتة ، واضعاً اللوم كله على موجة الحر . أردت أن استأذن وأنصرف فاستبقتني لتناول القهوة ، التي جاءت بها سناء . جلست على الكرسي المحاذي لي ، وامتد غصن الشجرة يفصل بيني وبينها ويغطي ملامح وجهها ، عدا العينين . أدركت في تلك اللحظة أن العينين هما منطقة التشابه بينها وبين أمها ، خاصة استدارة الحاجبين وبهاء تلك المنطقة التي تقع تحتهما حيث غاصت الأهداب السوداء في ذلك الجزء بنقائه ودسامته .

لم أقل للأم أن العلاقة التي تربطني بابنتها ليست علاقة العمل ، وإنما علاقة أكثر نبلاً وجلالاً ، وأعمق اتصالاً بأسرار الطبيعة ، والنواميس الغامضة التي تنقل دورة الأفلاك ونبض النجوم إلى شرايين الدم . إن لها قلباً أحب ، وعانى مواجع العشق ، وأدرك ما يحدثه في الناس من تحولات . لاشك أنها سوف تتعاطف معي وتدرك نبل دوافعي عندما أزورها في يوم قريب طالباً يد ابنتها . وما هذه الزيارة الأولى إلا مناسبة لفتح باب الإلفة بيني وبين أهل هذا البيت من بشر ونبات وأسماك وملائكة .

كان جسمي يرشح عرقاً وأنا أقف أنتظر المصعد الذي تأخر عن المجيء . صعدت السلالم ووقفت بالطابق الثاني أستلقط أنفاسي . كنت قد غادرت بيت سناء واتجهت مباشرة إلى بيتي . لم أتوقف لحظة ، لأسأل نفسي إن كنت فعلاً أرغب في العودة إليه ، جئت بحكم العادة التي لا يصحبها وعي أو تفكير . وإلا فما هي الرابطة التي مازالت تربطني حتى الآن ، بهذا البيت؟ ولماذا أعود كل يوم إليه وكأن هذا العالم الفسيح ، يضيق عن توفير شبر من الأرض أقف عليه غير هذا المكان؟

لم يكن ما أحسست به ارتياحاً عميقاً فقط ، وإنما نشوة جعلتني أهبط السلالم راكضاً ، وأعود إلى سيارتي أنطلق بها عبر الطريق المحاذي للبحر . تركت الطريق يقودني حيث يشاء . لم يكن في ذهني مكان محدد يمكن أن أذهب إليه . لم

أشغل نفسي بالتفكير في شيء كهذا . كنت كمن باغته الزلزال داخل بيته الذي صار يتقوض فوق رأسه حجراً حجراً ، وغادر البيت هارباً دون أن يكون بحاجة إلى أن يسأل نفسه أين سيذهب . استسلمت لرغبة تجتاحني وتأمرني بأن ابتعد عن هذا البيت قدر ما أستطيع ، وأن أمزق الخيوط التي شدتني إليه كل هذه المدة .

منحت نفسي للطريق الذي أفرغته القيلولة من زحامه . تضرب وجهي أنسام قادمة من البحر ، تزداد قوتها مع ازدياد سرعة السيارة . عبرت فنادق ومصائف قبل أن أصل مركز المدينة ومع ذلك لم أتوقف . مازلت قريباً من البيت ويجب أن أبتعد أكثر وأكثر . وصلت إلى أقصى الطرف الغربي من المدينة . وجدت نفسي أجتاز منطقة ، قرب الشاطئ عامرة بالبشر والسيارات . حال الزحام بيني وبين الانطلاق . رأيت السيارات تدخل منتجعاً سياحياً حديث البناء ، فذهبت أتبعها ، وأوقفت سيارتي حيث أوقف الناس سياراتهم . ظنني موظف الاستقبال أريد تذكرة لقضاء اليوم ، ولكنني طلبت داراً للإقامة . أرسل معي عاملاً يريني الدار ، ويعينني في حمل الأمتعة . أعفيت العامل من نقل أمتعة لا أملكها ، وسرت خلفه أتأمل الموطن الجديد لإقامتي . كانت قرية الشاطئ السياحي ، تقع فوق مرتفع من الأرض يشرف على البحر . زرعت أرضها بالنجيل وامتلأت بأشجار الورد والنخيل وامتدت خراطيم الماء ترويها بإسراف فحافظت ، رغم القيظ ، على اخضرارها ونضارتها . أشار العامل إلى شرفة صغيرة فيها طاولة وأربعة كراس من البلاستيك ، قائلاً بأن هذا هو مدخل الغرفة . صعدت بضع درجات ، ووقفت في الشرفة أتأمل المشهد الذي حولها . كانت غرفتي هي الأخيرة في صف من الأبنية ذات الطابق الواحد والتي تطل على مساحة خضراء تفضي إلى البحر . وقريباً منها كانت تنتصب شجرة نخل ، يتسلق جذعها الطويل السخارس وأغصان اللبلاب . أخرج العامل قطعة قماش يمسح بها الغبار الذي يغطي الطاولة والكراسي ، وفتح باب الغرفة المقسومة بحاجز خشبي ، إلى صالون صغير وغرفة نوم يحتل السرير الزوجي كل مساحتها . كانت قطع الأثاث مفصلة تفصيلاً دقيقاً بحيث تلائم ضيق المكان . الصالون وغرفة النوم والمطبخ والحمام .

أحسست منذ اللحظة الأولى بارتياح لهذه الغرفة ، التي لم تكن غرفة وإنما شقة صغيرة ، ستكون منذ اليوم البيت الذي لا بيت لي سواه . ما أن ذهب العامل حتى تحررت من ملابسي . ملأت حوض الحمام بالماء الفاتر واستلقيت وسط الماء مغمض العينين . أردت أن أفرغ ذهني من كل شيء ، وأنسى كل شيء . أريد أن أستمتع بلحظة صغيرة يكون فيها رأسي فارغاً . مساحة بيضاء لا أثر فيها لكل ما يملأ الدنيا من صخب . أريده أن يكون مثل رأس طفل يستقبل الحياة هذه اللحظة . طردت من ذهني صورة فاطمة التي تنتظر الآن عودتي وفي يدها مجموعة من الرسائل . ما أن ترمي بها في الهواء حتى تتحول إلى خفافيش تهاجمني . لتذهب إلى الجحيم هي وخفافيشها . لقد انتهت فاطمة وخرجت من حياتي إلى يوم الدين .

فكرت في أغنية أغنيها لنفسي . أغنية لا معنى لها ، ولاتعرف لعبة التداعي واستحضار الذكريات . تتيح لي متعة الكسل الذهني الذي لا يرافقه أي جهد ، دونا ، دونا ، دونا . تنويع لحني جميل على الاسم المطلق للمرأة . لا ترافقه كلمات ولا ذكريات . دونّا ، دونّا ، دونّا . أحسست بجسمي خفيفاً ، يطفو فوق الماء . ومستسلماً لبهاء هذه اللحظة ، ودفء هذا الماء ، ورائحة الصابون المنعشة ، مضيت أدندن باللحن وأعبث بفقاقيع الصابون . صنعت من الرغوة ذقناً وشارباً مثل بابا نويل ، وضحكت وأنا أرى وجهي في المرآة التي يغطيها الغبش . استغربت كيف أن خلاص الروح وانعتاقها ، لم يكن يحتاج إلا إلى هذا القدر البسيط من الفعل الإنساني . ما أعظم سذاجتي عندما كنت أعاني وأتألم ، عاجزاً عن اتخاذ أي قرار . في حين أن الأمر لم يكن يحتاج إلا إلى مفتاح غرفة في الشاطئ السياحي وينتهي العناء . قد يكون المبلغ الذي يؤجرون به هذه الدار يعادل مرتبي كله ، ولكنه لا يساوي شيئاً بحسابات الربح والخسارة . واحتفالاً بهذا اليوم ذهبت لتناول الغداء بمطعم القرية . قلت في نفسي وهم يضعون أمامي طبق اللحوم المشوية :

– لا أفتقد الآن شيئاً سوى النبيذ .

كنت قد تآلفت مع الحياة بلا شراب . وتجنبت الانضمام إلى الحلقات التي يعقدها الشاربون في تكتم وخوف . أقنعت نفسي بأنه لا معنى للشراب إن لم يكن متعة وانطلاقاً وتحرراً من الخوف والكتمان . ولكنني الآن أشتاق إلى الشراب كطقس يكمل شروط الاحتفال . أردت أن أتمشى قليلاً على الشاطئ ولكن حرارة الشمس أعادتني مسرعاً إلى غرفتي . ارتميت فوق السرير لأرتاح . أحسست بخدر النوم فلم أقاومه . صحوت بعد إغفاءه قصيرة وطلبت شاياً . جلست أفكر فيما يجب أن أفعله الآن . اتصلت هاتفياً بمحمود . لم أخبره بشيء مما حدث ، مؤجلاً ذلك إلى حين مجيئه . تنبهت إلى أنني بهذه المكالمة ، أقفل دائرة من الدوائر التي تمضي عبرها حياتنا . كان محمود هو واسطتي في الزواج من هذه المرأة ، وها أنا اليوم اتصل به لكي يعينني على إبطال هذا الزواج . جاء محمود وما أن رآني جالساً في الشرفة حتى أبدى إعجابه بفكرة الانتقال لقضاء الصيف بهذا المنتجع الذي سيكون مكاناً مناسباً لعلاج التوتر الذي طرأ على العلاقة بيني وبين فاطمة . ثم مد بصره يبحث عنها داخل الغرفة . وقبل أن يمضي بعيداً مع هذا الوهم ، أخبرته بأنني لا أكتري هذه الغرفة إلا من أجل الابتعاد عن فاطمة .

– تركت لها البيت تفعل به ماتشاء ، أما أنا فهذا هو بيتي .

لم أعبأ باندهاشه ، ولم أدع له فرصة إكمال الحديث الذي جاء يعترض به على هذا القرار . قلت بلهجة حاسمة وأنا املأ له فنجاناً من إبريق الشاي :

– رفعت الأقلام وجفت الصحف ولا مجال للتراجع عن هذا القرار . كل ما أطلبه منك هو أن تخبرها بأنها حرة تفعل بحياتها ما تشاء ، وتترك لي حياتي أفعل بها ما أشاء . ولا تنس أن تحضر لي بعض الأغراض التي سأكتب لك قائمة بها .

– هل معنى ذلك أنه الطلاق .

– رحم الله زماناً كان فيه الرجل يكتفي بأن يقول لامرأته أنت طالق وينتهي ارتباطه بها . أما الآن فأنا بحاجة لأن أقدم منذ الغد طلباً رسميا إلى المحكمة بهذا الشأن .

- إنني لا أستطيع أن أقول لها شيئاً كهذا .

قلت له إن ما حدث كان يجب أن يحدث منذ وقت طويل مضى ، وأنه لا داعي للتكلف والكذب والتظاهر بالحياة الزوجية السعيدة التي لا وجود لها .

- ليس هناك في الدنيا حياة زوجية سعيدة . إنها عشرة وألفة . غضب ورضا ، توتر وانفراج ، ككل علاقة أخرى في الحياة . ولتعلم جيداً أن فاطمة لن تتركك .

- ماذا بإمكانها أن تفعل؟

- لا أدري . أشياء كثيرة . أولها أن تأتي لتقيم لك مناحة في هذا المكان .

- سأعتمد عليك في إقناعها بأنه لا جدوى من هذا الجنون .

قال قبل أن ينصرف :

- ما أشد جهلك بالنساء .

أخبرني عندما عاد يحمل لي حقيبة بها ملابس وكتب وأغراض أخرى مثل المذياع وأشرطة وجهاز التسجيل ، أنه لم يذكر لها شيئاً مما قلته له . اكتفى بأن دعاها لتقيم مع أختها بضعة أيام بحجة أنني انتدبت لعمل عاجل خارج المدينة اقتضته ظروف الامتحانات .

- ليتك أخبرتها بالحقيقة .

- أردت أن أمنحك وقتاً للمراجعة .

لم أقل له أن قانون الدوائر ، التي نتحرك مع حركتها ، أوصل هذه الدائرة إلى ختامها ، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة . تركت ذلك لتقوله الأيام القادمات .

بدأ يغمر الجامعة ، جو التوتر الذي يرافق موسم الامتحانات . كان الكتاب الذي نترجمه قد انتهى عندما قلت لسناء ، بعد أول يوم هجرت فيه البيت :

- ما الذي بإمكاننا أن نفعله بعد أن انتهى الكتاب؟

- المراجعة أيضاً تقتضي وقتاً .

- يجب أن نبحث بسرعة عن كتاب جديد .

- هل صرت شغوفاً بترجمة الكتب إلى هذا الحد؟

- ولماذا الترجمة؟ لماذا لانشترك ، أنت وأنا ، في تأليف كتاب يتألق بقوة الخلق

والإبداع؟

- هكذا في مرة واحدة . وكيف تريد أن نحقق هذا اللقاء المستحيل بين الصيدلة والأدب . هل نؤلف كتاباً عنوانه الشعر الحديث والمستحضرات الطبية لعلاج الحروق؟

- دعيني أشرح لك فكرة الكتاب . إنه يتعلق برجل وامرأة . بهما تبدأ الحياة الإنسانية ولا تنتهي . أي أننا سنضع أنفسنا في الجانب المتفائل الذي يقول بأن الحياة ستستمر برغم نبوءة نوستراداموس . وسنعتبر أنفسنا نحن الاثنين ممثلين للجنس البشري . وبهذا الوعي وهذا التمثل ، تحاولين التعبير عن مشاعر امرأة تنتمي إلى كل العصور . طموحها ، آمالها ، هواجسها ، مخاوفها ، نظرتها إلى التاريخ ، رؤيتها للمستقبل . وبمثل ذلك أكتب أنا تصوراتي ، من وجهة نظر الرجل . سوف نستعير أسلوب نوستراداموس في كتابة نبوءاته . فقرات قصيرة . أسلوب مليء بالتعقيد والغموض . يمنح الكتاب رهبة وخطورة ، ويعكس شيئاً من الغموض الذي يغلف الكون . وسيفتح هذا الغموض الذي يشبه الطلاسم شهية النقاد للاهتمام بالكتاب وشرحه وتفسيره . سنتناوب على كتابة الفقرات . وما إن ننتهي من هذا الكتاب حتى نكون قد وضعنا البشرية على طريق جديد .

- يا له من طموح عظيم . وسوف لن تحتاج إلا إلى أن تقفل عينيك كما كان يفعل نوستراداموس لكي يأتيك الإلهام .

- هذا ما ستفعلينه أنت . أما أنا فأحتاج إلى أن أفتح عيني وأنظر في وجه المرأة التي سأتلقى منها إلهامي .

- ما هذه الروح الجديدة التي تتكلم بها . كأنك لم تكن بالأمس مليئاً بالأحزان والهموم .

- لم يكن ذلك إلا بسبب الحر .

- لم يزدد الحر إلا ضراوة . فما الجديد الذي حدث؟

- سأقول لك سراً ، وأطلب منك أن تتكتمي عليه جداً . إن لك أمّاً رائعة . ما أن رأيتها حتى قلت في نفسي بأنني لن أجد حماة أفضل منها . ولهذا أريد أن

يبقى الموضوع سراً لكي لا يسبقني إليها رجل آخر .

- عدت إلى الهزل مرة أخرى .

- إنني أعني كل كلمة قلتها . وأبلغك أنني بدأت منذ الأمس ، وفور خروجي من بيتكم حياة جديدة . طويت صفحة مليئة بخربشات ركيكة غشيمة ، وفتحت صفحة بيضاء بلون الحليب .

- هل بدأت تؤلف الأحاجي؟

- هجرت البيت واكتريت بمفردي داراً بقرية الشاطئ السياحي ، انتقلت للإقامة بها .

رفعت نحوي وجهاً غادره الصفاء .

- هكذا دون سبب .

- لم أعد أطيق الحياة معها في بيت واحد . واعتبرت هذا ، سبباً كافياً للانفصال .

لم أكن قد نقلت لسناء شيئاً مما كان يدور بيني وبين فاطمة خلف أبواب شقتنا . كل ما قلته لها في وقت مضى ، هو أن زواجي كان خطأ منذ البداية ، وإنني عازم على تصحيح هذا الخطأ . رأيتها متحرجة من هذا الحديث فلم أعد إليه بعد ذلك . وبرغم أنه كان يشكل ضغطاً على ذهني وأعصابي منذ أول يوم قابلت فيه سناء ، إلا أنني تصرفت في حضورها وكأن هذا الزواج ليس له وجود . كان ذلك نوعاً من الخداع فرضته على نفسي ،لكي لا تفسد حقائق الواقع ، أوهام اللحظات العذبة . ولكن هذا الزواج كان يلقي بظله على علاقتنا ، ويهددها بالاختناق . إنه يسد أمامنا الآفاق ، ويملأ لقاءاتنا بذلك التساؤل الصامت عن مصير هذه العلاقة . كنت أخشى أن يأتي يوم قريب وألتفت فأجد أن سناء قد اختفت من حياتي .

لم أكن واثقاً من رد فعلها وأنا أنقل إليها خبر انفصالي عن فاطمة . أعرف أن الطلاق ليس بالضرورة مناسبة للابتهاج ، وأعرف أن سناء لن تقوم وتعانقني تهنئة بهذا القرار . ولذلك أحطت حديثي عن الطلاق بغلاف من الدعابة والحديث

العابث عن كتاب وهمي . تهويناً لما حدث ، وتخليصاً لها من حرج الموقف . كيف أستطيع أن أفهمها أن هذا الطلاق كان سيحدث حتى لو لم تقتحم هي حياتي كشهاب النور . رأيت أن الحرج مازال يغطي ملامحها فقررت أن ينتهي لقاؤنا عند هذا الحد . إن مقداراً من اللياقة يصبح واجباً في مثل هذه اللحظات . سوف لن ألتقي بها غداً ، فهو يوم جمعة ، وسيكون ذلك وقتاً كافياً لاستيعاب هذه التحولات .

وفي المساء جاء محمود يحمل مجموعة أخرى من الكتب ويقول أن فاطمة تشك في الحكاية التي رواها عن غيابي ، وتتهمه بالتواطؤ معي ، وتهدد بإثارة الأعاصير . قلت له :

- ما أكثر الرجال الذين يتمنون الزواج بامرأة مثلها ، ولها شقة تشرف على البحر مثل شقتها ، فلماذا الجزع؟

- حتى لو تركت لها الشقة فهي لن تتركك .

- أعرف أنها امرأة لم تخلق إلا للزواج وسنتعاون معاً في البحث عن زوج لها .

- فاطمة جوهرة لم تعرف قيمتها . وسوف تندم ذات يوم .

كانت غبشة المساء قد بدأت تذر رمادها فوق البحر ، ونحن نتمشي بمحاذاة الشاطئ ، بعد أن هدأ سعير النهار . عرفت ونحن نقترب من حوض السباحة ، ونرى المناضد التي كانت تصف حوله ، أن هذه المنطقة ستكون مكاناً لسهرة غنائية تقام هذه الليلة لسكان القرية ، احتفالاً بافتتاح موسم الصيف . لم يكن لدي ما أفعله بعد أن ذهب محمود . فاخترت طاولة بأحد الأطراف وجلست إليها . طلبت عشاء خفيفاً من الجبن والفاكهة ، ومنحت نفسي لرنات الأوتار وحناجر المطربين . التقيت أثناء الحفل بواحد من رفاق السكن واللعب في المدينة القديمة ، فأسعدني كثيراً أن أعثر عليه الآن . لم أكن قد عرفت شيئاً عنه أكثر من أنه سافر إلى الأزهر لاستكمال دراسته الدينية التي بدأها في جامع الباشا . ومضى زمن طويل قبل أن أعرف أن المغني والملحن المعروف أنور جلال هو ذاته جمعة أبو خطوة الذي انتظرت أن أراه أحد المراجع الدينية في البلاد . شاهدته

يتنقل بين الموائد ومنصة العرض ، وانتظرته حتى اقترب مني ، فناديته مستخدماً اسمه القديم . قال ضاحكاً بعد أن تفحصني وأدرك من أكون :

– كيف استطعت أن تتذكر هذا الاسم الذي ما عدت أنا شخصياً أذكره .

قلت وأنا أتأمل هذا الشاهد الحي من أيام الطفولة :

– ما أسعدكم يا أهل الفن . تختارون أسماءكم كما تشتهون ، في حين نبقى نحن سجناء أسماء لا فضل لنا في اختيارها .

– ولكنكم كثيراً ما ترفضون الاعتراف بأسمائنا الجديدة .

– إنني لا أعرف منك إلا جمعة القديم .

– ألم تصنع لنفسك أنت أيضاً اسماً جديداً ، وجعلت الناس يخاطبونك به هو «الدكتور»؟ .

– إنه مجرد عنوان يسرق الاسم القديم ولا يضع مكانه شيئاً .

رآني أجلس وحيداً ، فدعاني لكي انضم إلى مائدته .

– أريد أن أعرف أولاً ، كيف تأتى لك أن تتخرج بعد الدراسة الأزهرية محترفاً للغناء والموسيقى؟ .

– وهل تظن ذلك شيئاً غريباً . إنني لم أقم إلا بواجب الوفاء لمدرسة الفنانين العظماء من أمثال الشيخ سلامة والشيخ سيد والشيخ زكريا . كلهم بدؤوا بارتداء العمامة وانتهوا إلى صناعة الفن .

كان يتناوب على الجلوس معه عدد من الموسيقيين والمطربين ممن يشاركون في إحياء الحفل . قال لي إنه يتولى الإشراف على الحفلات الفنية التي تقيمها القرية أحياناً ، مقابل منحه داراً يقضي بها أيام الصيف .

تناول إبريقاً مليئاً بعصير البرتقال ، وسكب لي منه كأساً ، قائلاً :

– اشرب واحفظ السر .

لم أنتبه إلى ما كان يقصده بهذا القول ، فارتشفت جرعة كبيرة أرسلت في حلقي شواظاً من نار . اكتشفت أن عصير البرتقال ليس إلا غلافاً قشرياً للسائل الكحولي الذي ملؤوا به الأبريق .

- إن لم تكن تريده فسنأمر لك بكأس بريء .

في حين تمتلئ الدنيا بالكؤوس البريئة فإن كأساً خالياً من البراءة ، يصبح مطلباً عزيزاً في هذه المدينة . فكيف يريدني أن أرفضه . أشرت برأسي موافقاً ، راضياً .

- إذن اشرب ولا تخشى الرائحة إن كنت ستقود السيارة . إنها فودكا ولأ نها لا تترك رائحة قوية في الفم ، صارت أغلى المشروبات الكحولية في السوق السوداء .

أخبرته بأنني أقيم مثله في هذه القرية ، فضحك قائلاً :

- إنها فرصة إذن لكي نعيد إحياء دولتنا الوهمية .

كنا قد أنشأنا في حينا ذات مرة دولة وهمية يتناوب على رئاستها عدد من الأولاد ، وكان هو أكثرهم معاندة في التنازل عن رئاسته لمن يليه في الدور .

- سقى الله تلك الأيام . كنا نستكثر عليك البقاء زعيماً لدولتنا الوهمية يوماً واحداً إضافياً ، فانظر ما يفعله زعماء الدول الوهمية هذه الأيام .

جاءت مطربة جديدة من اكتشاف أنور جلال ، تقدم أغنية من ألحانه . تركنا الحديث وانصرفنا لمتابعة الغناء . أعقبها مذيع الحفلة ، الذي استهل حديثه بتقديم التحية للفنان أنور جلال باعتباره صاحب الفضل في تنظيم هذا الحفل . صفق له الجمهور فوقف يرد التحية بطريقة مسرحية . ثم رحب المذيع بالضيوف الكبار الذين يحضرون الحفل . رأيت أنور جلال منذ لحظات يهمس له باسمي ، فلم أفاجأ عندما عدني المذيع من كبار الضيوف .

انتهى الحفل فدعاني لإكمال السهرة في شقته . نظرت إلى الساعة فإذا بها تتجاوز الواحدة . هل ثمة سهر فوق هذا السهر . كانت شهيتي قد تفتحت لمزيد من الشراب . ولكنني لم أشأ أن أكون ضيفاً ثقيلاً . اعتذرت قائلاً بأن المدرسين من أمثالي عادة ما ينامون قبل الساعة العاشرة . لم يأبه الرجل بما قلت . شبك ذراعه بذراعي وسار بي إلى شقته ، في زحمة من أصحابه الفنانين . كان لشقته صالة واسعة تمتلئ بقطع الأثاث ، الصالون وطاولة الأكل وأرفف كثيرة عامرة بالأشرطة والأسطوانات وبعض آلات الموسيقى علاوة على أجهزة التلفاز

والفيديو . بدا واضحاً أن أهل القرية يكرمون الفن ويمنحون المشرف عليه داراً تشبه بيتاً للإقامة الدائمة . انصرف الفنانون الذين جاءوا لأخذ أغراضهم التي تركوها بالشقة ، وبقي ثلاثة رجال وثلاث نساء لإتمام السهرة . لا أعرف منهم سوى رشيد غانم ، الصحفي وصاحب البرامج الإذاعية ، الذي سبق أن رأيت صورته على شاشة التلفاز . ظننت في البداية أن هؤلاء النسوة هن زوجات الحاضرين . وتنبهت إلى أن إحداهن وهي التي تجلس بجوار صاحب الدار ، قد شاركت في الغناء أثناء الحفل . دارت الكؤوس فرأيتهن يشاركن في الشراب وأدركت أنهن لسن زوجات لأحد وإنما رفيقات لعب وسهر . بدأ الحديث بالتعليق على أغنيات الحفلة ، ثم تدريجياً وصل إلى المحطة التي توقف عندها ، ولم يغادرها حتى نهاية السهرة ، وهي النكت الجنسية . لأول مرة أحضر جلسة تضم رجالاً ونساء ، ويقال فيها هذا العدد الذي لا يحصى من النكات والتعليقات الفاحشة . لا أدري إن كنت قد أبديت ملاحظة تحمل اندهاشاً لما حدث من انفتاح اجتماعي لم أكن واعياً به ، إذ سمعت أحد الحاضرين يلقي بتعليقه وهو ينظر نحوي قائلاً :

– إن التقدم يحفر أنفاقه تحت الأرض يا دكتور خليل ، أراد من أراد وكره من كره .

قلت مكرراً قوله ، كما هي عادتي عندما ينتابني هذا الكسل العقلي الذي لا أستطيع معه التفكير في شيء جديد أضيفه :

– نعم ، نعم . إن التقدم يحفر أنفاقه تحت الأرض .

وها نحن نلتقي وسط هذا النفق الذي تضيئه ثلاث نساء . أدركت أنني الآن أعايش شيئاً من التاريخ السري للمجتمع . هذا التاريخ الذي لا نسمعه في الإذاعات ، ولا نقرؤه في الصحف ، ولا نشاهده يمشي في الطرقات أو يتجول في الأسواق . إنه تاريخ لا يظهر إلا في الجزء الأخير من الليل . وازددت يقيناً بأنني أشهد هذا التاريخ السري ، عندما بدأ الحاضرون يلحون على أنور جلال أن يغني لهم تلك الأغنية السرية التي لا يمكن أن تذيعها الإذاعات أو تلقي تحت أضواء المسارح لأنها لم تؤلف إلا لقاطني هذه الأنفاق التي يحفرها التقدم . تصف

الأغنية رجلاً وامرأة يمارسان الحب أثناء السباحة في مياه البحر . يفترشان الماء ويلتحفان الموج ويحيلان هدير البحر إلى شهقات شبق ولذة . ومزهواً بنفسه أخبرنا رشيد غانم بعد استماعنا إلى الأغنية ، أنه هو صاحب الفكرة التي استعان بكاتب أغنيات على صياغتها . وقال تعليقاً على هذا الإنجاز :

– ما هي إلا بذرة خصب صغيرة نزرعها في رحم العقم .

وأمسك الحاضرون بتعبير الرحم والبذرة الصغيرة التي يزرعها فيه رشيد غانم ، وجعلوهما موضوعاً لعدد آخر من النكت والتعليقات الجنسية .

وعندما التفت نحوي أحد الحاضرين متسائلاً :

– ألا تقول لنا نكتة يا دكتور خليل؟

أوقعني في حرج لم ينقذني منه إلا أنور جلال الذي قال :

– سوف نحتاج إلى بعض الوقت حتى نخرجه من أغلفته الجامعية .

ماذا لو عرفوا أنني كتبت أطروحة جامعية تتصل بالجنس . سأقع عندئذ في مأزق لن ينجيني منه إلا الهروب من هذه السهرة . أراد أحدهم أن يقول شيئاً ولكن صوت المؤذن تدفق من خلال النافذة مجلجلاً يدعو لصلاة الفجر .

نهضت واقفاً ، طالباً الإذن بالذهاب . أراد الرجل الذي بجواري أن يبقيني ، ولكن أنور جلال أحاط بذراعه ، خصر المطربة ، يسحبها معه إلى غرفة نومه . أنهى السهرة قائلاً :

– وأدرك شهرزاد الصباح .

أيقظني من نومي جرس ملحاح يأبى أن يتوقف . كان أخي عثمان قد جاء غاضباً لأنني أخفيت عنه ماحدث . لم تكن دوخة النوم والشراب قد تركت لي مزاجاً للنقاش . ولذلك قررت أن استعمل الورقة التي احتفظت بها في كم قميصي طوال هذا الوقت . قلت له إن المرأة عاقر ، لأنني فحصت نفسي لدى الأطباء ، وعرفت أنني لا أشكو مرضاً . وإن من حقي في هذا العمر أن أحظى بذرية كغيري من الرجال الأسوياء . كان هذا هو المنطق الوحيد الذي يمكن أن يفهمه ، ولذلك فهو لم يعد يناقشني في قرار الانفصال بقدر ما صار يطالبني أن

أتريث قليلاً لأتأكد من صحة عقمها . قلت له إنني عاشرتها ثلاث سنوات ونصف ، وهي فترة تكفي لإنجاب أكثر مما أريد من أطفال . ولن أحتاج لاختبار بعد هذا الاختبار . ثم أرسلته لمتابعة قضية الطلاق في المحكمة ، والدفع بهذه الحجة إذا عاندت فاطمة ورفضت الموافقة على الطلاق .

انتهت الامتحانات كما انتهت مراجعة الكتاب الذي سلمناه إلى إدارة الجامعة . لم يعد يهمني الآن البحث عن ذريعة جديدة للقائها . بات الطريق سانحاً لأن تنمو علاقتنا وتتطور باتجاه الهدف الذي رسمناه لها . سنلتقي منذ الآن لقاء رجل وامرأة يسعيان لبناء حياة مشتركة . هذا ما أقنعت به سناء . ولكن كل شيء يبقى معلقاً بتلك الورقة التي تأذن بإنهاء إجراءات الطلاق ، لن أستطيع أن أذهب إليها ، أو ألتقي بها ، إلا وأنا مسلح بتلك الورقة التي لا أدري متى تأتي .

- إمتى الزمان يسمح يا جميل .

يرن الوتر ، ويدور الكأس ، وتصنع الأغنية زمناً بديلاً للزمن الذي لا يجيء . صرت عضواً من أعضاء النادي الفاخر الذي يديره أنور جلال . أمنح نفسي كل ليلة لدوامة السهر الذي يستمر حتى الفجر . وعندما أتأخر قليلاً أجد أنهم قد أرسلوا ورائي ، قائلين عندما أحضر :

- لا أحد يستطيع أن يستغني عن الدكتور .

كان يتناوب على حضور السهرة بعض أصدقاء أنور جلال من أصحاب المراكز الإدارية ، أو من رجال الأعمال الذين أممت الدولة شركاتهم ، ولكنهم احتفظوا بقصورهم ومزارعهم ، كما احتفظوا بنشاط تجاري يقومون به من وراء القانون . مثل تمثيل الشركات الأجنبية التي يقدمون لها الخدمات دون أن تظهر أسماؤهم على الورق . وكان المال يجري بين أيديهم كما كان قبل التأميم . ولكل واحد منهم مصادره التي يأتي منها بشراب تعددت أنواعه ، من الفودكا الروسية إلى النبيذ الإسباني والويسكي الياباني . كنت أتردد أحياناً في المجيء إلى السهرة لأنني لم أكن أستطيع أن أنفق مثلهم ، ولم أكن أريد أن أبقى عالة عليهم . وكل ما كنت

أستطيع تقديمه هو جلب كيس من اللحوم بين الحين والآخر ، تتولى إحدى نساء الجلسة تقديمه مشوياً مع الشراب ، وهو دور غالباً ما تقوم به سعاد التي ترافق أنور جلال وتقيم معه في شقته ، فهي أكثر نساء السهرة ملاحة ، وأقربهن إلى الفن باعتبارها غنت منذ أيام أولى أغانيها . أما الأخريات فقد كن يأتين ويذهبن ، ولم يكن رواد السهرة يجدون حرجاً في التناوب على مصاحبتهن . كان متيسراً لي أن أحظى بليلة مع إحداهن ، بعد أن صرت شريكاً أصيلاً في ولائم الضحك واللعب والطرب . ولكن قلبي كان منذوراً لامرأة أخرى ، فعزفت عن مزاحمة الآخرين في نساء السهرة . ورأت إحدى هؤلاء النسوة أن عضويتي في هذا النادي ستبقى ناقصة ما لم أتم هذا الشرط ، فجاءت تساعدني على إنجاز الورقة الناقصة في ملف العضوية . كانت النتيجة مواجهة محرجة ، خرجت منها هارباً مهزوماً . حدث ذلك عندما جئت مبكراً إلى شقة أنور جلال . ظننت أنني سألقاه بمفرده لكي نتحدث عن ذكرياتنا ، قبل أن يغمرنا صخب الساهرين . كنت لأمر ما أحس أنه يعاني شعوراً بالوحدة ، وإنه ما أصر على بقائي معه إلا لأنه يراني أمثل شيئاً ينتمي إلى عصر البراءة القديمة التي ضاعت مع ضياع أزمنة الطفولة . كنت أدرك أن ما أراه لم يكن إلا القشرة ، وإنه خلف قشرة أنور جلال ، يختفي جمعة أبو خطوة الذي أريد أن أتواصل معه ، وأستحضر بهذا التواصل عالماً قديماً يختفي خلف دخان الزمان . كنت قد عرفت أن له زوجة وأطفالاً . لم أره يذهب إليهم ولم أستطع أثناء السهرة أن أسأله عنهم ، أو عن أهله الذين عرفتهم ، أو رفاق الطفولة الذين يذكرهم ، فجئت مبكراً لأراه .

لم أجد أنور جلال ، وإنما وجدت رفيقته سعاد تجلس بمفردها ، تشاهد شريطاً في جهاز الفيديو ، وتضع أمامها كأساً من الشراب . وما إن رأتني حتى أطفأت الجهاز قائلة :

– هذا ثالث فيلم أشاهده ومع ذلك فإن السأم يقتلني .

– هذا دليل الموهبة ، فالفن لا يسكن عادة إلا الأرواح القلقة . أين أنور جلال؟

– ذهب لتسجيل لحنه الجديد ، وسيعود متأخراً هذه الليلة ، ولكن السهرة

سوف تستمر كالعادة .

جلسنا صامتين . لم أجد ما أقوله سوى كلمات ثناء على أسلوب تصفيفها لشعرها ، الذي لم تتركه هذه المرة منكوشاً كعادتها . ثم أضفت بعض الثناء على البنطلون الذي كان يلتصق بجسمها . ضحكت باستهتار قائلة بأنها على استعداد لأن تخلعه الآن وتقدمه هدية لي ، طالما أنه أعجبني إلى هذا الحد . ثم اقتربت مني ورفعت ذراعاً عارياً ، أحاطت به عنقي قائلة بجرأة فاجأتني :

- ما رأيك لو قلت لك أن بنطلونك أيضا يعجبني .

كانت أنفاسها الممزوجة برائحة الخمر تلفح وجهي ، وأصابعها التي تتحسس البنطلون ، تصنع توتراً يهز بدني . وبصوت هامس كالفحيح قالت :

- لماذا لا تكن كريماً وتخلعه الآن من أجلي .

كنت مرتبكاً . لا أدري ماذا أقول أو أفعل . ومهما كانت امرأة عامة تبيع الهوى لزبائن البحر ، فهي تصاحب الرجل وتقيم في شقته . واصلت فحيحها المهلك وهي تلصق جسمها بجسمي وتمنح أصابعها حرية الانتقال فوق قماش البنطلون كما تشاء :

- ماذا؟ هل صعد مع جسمك تيار الكهرباء .

وبرغم تيار الكهرباء الذي يصعقني ، فإنني لم أشأ أن أخذل الرجل الذي استضافني وأكرم وفادتي . انتشلت جسمي من أحضانها واندفعت خارج الشقة . لم أعد ليلاً لحضور السهرة . هربت من مواجهة المرأة ، وخشيت أن يفضحني ارتباكي عندما ألتقي بها . نمت مبكراً ، وصحوت مبكراً لأذهب إلى السوق أشتري هدية لسناء وأمها . سأذهب هذه المرة إلى بيت سناء خاطباً . لم تكن ورقة الطلاق قد جاءت ، ولكن فاطمة أرسلت تطلب أن أتنازل لها عن ملكية الشقة . كان هذا هو شرطها الأخير . كنت أعرف أن قضيتها خاسرة دون التفريط في هذه الشقة ، ولكنني رغبة في الإسراع بإجراءات الطلاق ، أرسلت لها وثيقة التنازل وذهبت إلى مبنى المحاكم أستعجل الانتهاء من هذه القضية . كنت قد اتفقت مع سناء بأن زيارتي القادمة إلى بيتها ستكون من أجل هدف واحد هو أن نقدم

للمجتمع الرابطة التي يريدها والتي تتيح لنا أن نلتقي دون حرج أو عناء . طلبت منها أن تمهد لي الطريق إلى قلب أمها وتزكيني لديها فأنا أريد أن أكسبها أمّاً لي بمثل ما هي أمها . حمدت الله أنه لم يعد لديها أعمام يهمهم أمرها بعد أن قاطعوا والدها . أعفاني ذلك من الدخول في شبكة من التعقيدات والاعتبارات العائلية ، لا أحد يتنبأ بنتائجها . كان كل ما قالته الأم عندما وصلت إلى البيت أحمل صندوق الهدايا الذي يحتوي رداء حرير لها وفساتين لابنتها ، وأسألها أن تعتبرني ابنها وتضمني إلى عائلتها وترضى بي خطيباً لابنتها ، هو أنه لا رأي لها مع رأي سناء في اختيار الرجل الذي يشاركها حياتها ، وأكثرت من كلمات الترحيب التي أبهجتني . اتفقنا على الخطوبة التي سنبدأ نهيئ لحفل إعلانها ، ولم أجد حرجاً في أن أسأل الأم أن توافق على خروج ابنتها معي إلى الشاطئ . أبدت الأم تحفظاً على هذه الفكرة ، لأنها لا تريد أن تفتح باباً لكلام الناس ، ولكن سناء التي ضاقت بقضاء أيام الصيف داخل جدران البيت اقترحت أن نذهب بصحبة أخيها خالد ، توسلت لأمها كثيراً حتى وافقت بشرط أن تعود إلى البيت قبل غروب الشمس . سعيد بالنتيجة التي وصلت إليها ، وبالعلاقة التي تباركها الشمس حتى موعد غروبها ، أخذت سناء وخالد في سيارتي وانطلقت بهما إلى قرية الشاطئ السياحي . ومشتاقة إلى البحر الذي طال غيابها عنه ، أبدلت بسرعة ملابسها ، فأضاف لباس البحر إلى جمالها المصنوع من مادة الأحلام والأساطير ، طابعاً ايروسياً يقدح شرارات الغواية والفتنة . لم تشأ أن تذهب إلى حوض السباحة الذي سبقنا إليه أخوها ، والذي تزاحم حوله الناس الهاربون من الشاطئ الصخري ، وإنما ركضت باتجاه البحر ودخلت مباشرة إلى مياهه العميقة . بقيت أنا أسبح في المياه الآمنة التي لا تتجاوز مستوى العنق . ووجدت كرة طافية فوق الماء ، سهي عنها الولد الذي كان يلعب بها ، فتناولتها عابثاً ورميت بها إلى سناء . جاءت تركب موجة عالية لتتلقاها ، هربت الكرة فركبت موجة أخرى إليها . ذهبت أنا أيضاً أخوض الماء باتجاه الكرة ، حتى وصلنا إليها في وقت واحد . صرنا نتعارك حول من يفوز بها . والأمواج تتدافع من حولنا وترمي بنا

الواحد في حضن الآخر . غمرت جسمي نشوة الالتصاق بجسمها . أطلت معها العراك فلم أجد منها نفوراً ، ولم أسمع إلا رنين الضحكات . كلانا كان متواطئاً مع الآخر ، مستمتعاً بهذا الاشتباك اللذيذ الذي تمنحه براءة اللعب ، غطاء يمنع الحرج والخجل . ولكن الحرج جاء عندما استيقظت في ذهني أغنية أنور جلال عن ممارسة الحب فوق سرير البحر . أغمضت عيني أحارب الأغنية وأطردها من رأسي . فازت سناء بالكرة وذهبت بها بعيداً عني . ولكن جياد الرغبة في دمي ظلت تواصل صهيلها ، وأنا أرى سناء تدفع الماء بصدرها ، وأتابع نهديها يركضان فوق الماء . انتهى اللعب واستعاد الطفل الكرة . خرجت معها إلى الشاطئ وارتميت معها فوق الرمل . طرحت هي منديلاً وتمددت فوقه تمنح جسمها طعاماً للشمس . والرجال الذين يمرون بجوارنا يقفون لحظة يتطلعون إليها باندهاش ثم يمضون . كانت هي تسبل رموش عينيها ولا ترى أحداً . بينما كنت أدير نظري إليهم دون أن أحس بأي ضيق منهم ، يكفي أنني فزت بها دونهم ، ولم تبق لهم إلا هذه النظرات المصحوبة بالحسرة والألم .

كنت قد أخبرت محمود بعزمي على أن أذهب طالباً يدها ، فجاء منذ يومين يسحب معه أخي الذي تكلم بصوت السلطة العائلية ، واستعار حنجرة أب مات منذ خمسة أعوام ، قائلاً :

– لعلك غافل عن الدنيا ، ولكننا سمعنا عن الفتاة وأهلها ما يؤكد أنها زيجة لا تنفع لنا .

قلت ساخراً من منطقه :

– ولكنها تنفع لي .

– ألا تهمك سمعتك وسمعة العائلة؟

– ما الذي يضير العائلة عندما أتزوج أستاذة جامعية؟

– وهل يمحو الذهاب إلى الجامعة سمعة أم اشتغلت راقصة بالملاهي الليلية .

تعلمت منذ أمد مضى ، أن أضبط أعصابي في مواجهة المتحدثين بلسان المجتمع وطقوسه .

- دعك من أمها . هل وصلك أي شيء يمس سلوك سناء؟

- قل له يا دكتور محمود .

تدخل محمود قائلاً :

- إنه أدرى بالشائعات التي يروجونها عنها ، فلا دخان بلا نار .

- ليس هناك دخان ولا نار . إن هي إلا أقوال رجال موتورين ، أرادوا نيلها فلم يجدوا لذلك سبيلاً .

ضحك أخي هازئاً قبل أن يقول :

- ومن أدراك أنهم لم يجدوا إلى نيلها سبيلاً .

- إنك أكثر عقلاً ونبلاً من أن تقول كلاماً كهذا عنها .

- ألم تسأل نفسك لماذا ، وبرغم جمالها ، لم يتقدم أحد للزواج منها رغم اقترابها من سن الثلاثين .

- انتهى الزمان الذي يزوجون فيه البنات قبل سن البلوغ . ثم إنك لا تريد لرجل مثلي أن يبحث عن فتاة في نصف عمره يتزوجها . إن عمرها يناسبني .

تعمدت أن أتحدث بانفعال عن قضية السن ، رغبة في إهمال وتتفيه القضية الأساسية التي جاءا لزيارتي من أجلها . لا أدري إن كانا سيقاطعانني كما حدث لوالدها عندما تعرض لقطيعة أهله . سوف لن أشغل نفسي بأقوالهما . ولن أسمح لأحد في الدنيا أن يتدخل للتفريق بيني وبينها ، وها هي الآن تتمدد بجواري ، وقد أغمضت ، كالبهجة النائمة ، عينيها ، ونشرت فوق الرمل ذراعيها ، ووضعت رأسها فوق منديل يغطي مساحة صغيرة لا تتسع لغير الشعر الذي طوت حوله أطراف المنديل ، في حين منحت جسمها لنعومة الرمل وسخونته ، اكتشفت أن يدي تتحرك فوق الرمل سائرة إليها . سأمررها فوق مخمل ساقها العاري ، وسيطفيء ذلك حرقة هذه الأصابع التي تمد أعناقها عطشاً إليها . قمعت يدي وأرجعتها إلى مكانها . جلست أتأمل الجسد الذي ينفث في صمت سحره القاتل . تناثرت حبات الرمل فوق فخذيها ، وارتطمت ليونة الجسم بليونة الرمل تصنع مشهداً يحفل بالبذخ والثراء . مائدة من موائد الجنة ألقت بها الملائكة في

هذا المكان . كان لباس البحر الذي ترتديه ، داكن السواد ، فظهر التباين بينه وبين لون البشرة التي انعكست عليها أشعة الشمس وتوهج من حولها الرمل الأحمر ، موحياً بأفكار تنبت أشجار النار في القلب . تحول الرمل إلى سحابة حمراء منسوجة بخيوط اللوعة والأسى . من قال أنني حقاً فزت بهذا كله . إنني مازلت أراها حلماً ، وأمنية فوق مستوي التحقيق .

- إنني إنسان هالك لا محالة .

لا أدري إن كنت قد قلت هذه الكلمات بصوت عال وصل إلى مسامعها ، أو أن ما سمعته هو الآهة التي رافقت هذه الجملة ، فقد رفعت رأسها ، وبعينين يمتلآن بخدر النعاس ، نظرت نحوي تسألني إن كنت قد قلت لها شيئاً .

قلت بسرعة أداري بها خجلي :

- أخشى عليك حرارة الشمس .

لم يكن هذا الخوف مبرراً ، فقد بدأت الشمس انحدارها البطيء نحو البحر . وانتصبت سناء واقفة ، تنفض عن جسمها حبات الرمل . انتهى النهار ، وحان موعد عودتها إلى البيت . أوصلتها ورجعت إلى داري أقضي بها الليل أقرأ كتبي دون أن أفكر في الذهاب إلى سهرة أنور جلال . كنت أملك فائضاً من الفرح يجعلني زاهداً في أية متعة أخرى . إنني كمن تناول فاكهة نادرة في غير موسمها ، ولم يشأ أن يتناول شيئاً آخر يفسد مذاقها في فمه . كان أنور جلال قد أرسل في طلبي ، وأبلغت رسوله بأنني سأكون مشغولاً بتصحيح الامتحانات . قلت له ذلك لكي أمنح نفسي لهذه الساعات التي أقضيها بصحبة سناء ، فلا أنشغل بشيء آخر سواها .

أدخلت سناء لمسة أناقة وأنوثة إلى هذه الإقامة السياحية . وضعت نبتة خضراء بأحد أركان الصالون ، وجاءت بتمثال صغير لراقصة هندية من راقصات المعابد ، تحمل مظلة تحتها مصباح كهربائي ، وضعته في ركن آخر . ووضعت فوق كراسي الصالون وسائد صغيرة مزينة بأسماك حريرية من شغل أمها ، ووجدت ركناً لأرفف مصنوعة من سعف النخيل وضعت فوقها الكتب والمجلات وأشرطة

الأغاني التي تحبها . ملأت كل الفراغات وصنعت غلافاً دافئاً وحنوناً يغطي الجدران العارية ، بما في ذلك مرآة مزينة بإطار خشبي يحمل نقوشاً شعبية يتفاءل بها الناس ، مثل الأسماك والأهلة وأصابع اليد المفتوحة . وصارت تتعهد الدار برعايتها ، تسقي شجيرتها ، وتملأ الطبق الذي يتوسط الصالون بكل ما يتيحه الصيف من أنواع الفاكهة ، عنب وتين وبرقوق ومشمش وخوخ وشمام ، فاكتسبت الشقة طابعاً جديداً ونكهة جديدة . وانتزعنا لأنفسنا أرضاً فوق الجزء الرملي من الشاطئ ، جعلناها مكاناً لنا ، وغرسنا بها شمسية أبقيناها طوال الوقت هناك . نأخذ عندما نذهب إليها مسجلة ، وتُرمساً مليئاً بالقهوة ، ونستريح بين حصص السباحة في ظلها . وكانت سناء تضيف فتنة جديدة إلى فتنتها مع كل يوم يمر . ارتوت بشرتها برحيق الشمس فاكتست بلون خمري يصدر وهجاً ، ويتوغل بإحساساته الموجعة في شراييني ، فأحزن كل يوم لفراقها الذي ارتبط بمغيب الشمس ، وكأن بينها وبين الشمس اتفاقاً سرياً يجعل الشمس تسرع إلى مغيبها . أنظر بانكسار إليها وهي تختفي وراء البحر ، وأنتظر بقلق شروقها في اليوم التالي وكأن بي خوفاً أن تمتنع ذات يوم عن الشروق .

حان في نهاية الأسبوع موعد لحفل آخر تقيمه القرية لقاطنيها . سيكون هذه المرة سهرة مع الفنون الشعبية . أردت من سناء أن تحضر الحفل معي ، وطلبت منها أن تأخذ إذناً من أمها . عادت في اليوم التالي لتقول بأن أمها أيضاً سوف تحضر الحفل معنا . جاءت ليلة السهرة واجتمعنا نحن الأربعة حول مائدة في المنطقة المحاذية لحوض السباحة . كان الحفل مصحوباً بعشاء من السمك . جاءوا بالمواقد ووضعوا بقربها أحواضاً ، يحتوي كل منها على نوع من أنواع السمك . بعضه مازال حياً يتحرك في مياه الأحواض ، ونصبوا شبكة من شباك الصيادين علقوا بها أسماكاً أخرى من ذوات الأصداف ، بحيث يتولى الزبائن اختيار ما يريدونه منها ليطهى أو يشوى أو يقلى أمامهم . ومدوا فوق المكان أسلاكاً تتدلى منها المصابيح الملونة . كان جواً احتفالياً عامراً بالزخارف والألوان . امتلأ حوض السباحة بالماء فانعكست فوقه أضواء المصابيح تضيف ألواناً مضيئة تنبعث من

صفاء الحجر والماء . وارتدت سناء قفطاناً صيفياً له حزام يضغط على ضمور الخصر ، وردي اللون ، مزداناً بأزرار كبيرة بيضاء . وأرخت شعرها فوق كتفيها ، أسود ، ناعماً ، يلمع تحت الأضواء . رآني أنور جلال أجلس بصحبة العائلة بانتظار أن ينتهي الطهاة من إعداد طعامنا ، فجاء للتحية . دعوته أن يجلس قليلاً معنا ، وقدمته إلى سناء وأمها وأخيها ، فأبدوا جميعهم اهتماماً به ، وعبروا عن إعجابهم بألحانه وأغانيه وسألوه عن برنامج السهرة الفنية ، فأجاب باقتضاب :

- انتظروا مفاجأة هذه الليلة .

قال جملته الغامضة ، واستأذن عائداً للاهتمام بإعداد الحفل . وجاء الطعام فأسرفت في تناول جراد البحر ، الذي لم أكن ألقاه عندما أبحث عنه في الأسواق والمطاعم ، واعتبرتها ليلة استثنائية بكل المقاييس . لم تكن الفرقة التي جاءت لإحياء الحفل هي فرقة الفنون الشعبية التي توقعناها ، وإنما فرقة من فرق العيساوية ودراويش الزوايا والموالد . يرتدون الجلاليب الخضراء ، ولا يستعملون من آلات الموسيقى سوى الدفوف والصاجات . بدأوا بالتواشيح والتسابيح والمدائح والابتهالات الدينية ، وواصلوا ترديدها دون تنويع . وضعوا بجوارهم مجمرة صغيرة لتسخين الدفوف ، ثم أحرقوا بها بخوراً صار يتصاعد عبيره مختلطاً برائحة الأسماك ، يمنح المكان نكهة غريبة مدوخة . وبدا لي المشهد كأنه جزء من طقوس عبادة بدائية .

مضى الوقت بطيئاً وأعضاء الفرقة يتمايلون مع إيقاع الدفوف ، ويتطوحون شمالاً ويميناً برؤوس أثقلها الخدر . أحسست بالضجر وأنا أستمع إلى هذه النغمات التي تتواتر في رتابة وتكرار . بدأ النعاس يراودني ، ولم أجد صيغة أنقل بها إلى سناء وأسرتها ، اقتراحاً بأن ننصرف ، فالحفل مازال في بدايته والليل في أوله . بقيت محرجاً أقاوم النعاس وأنظر إلى ساعتي ، ولكن الإيقاع فجأة تحول إلى النقيض . انهمرت الأكف تضرب الدفوف بعنف وقوة . اختفت المدائح والابتهالات الممطوطة البطيئة التي لم تكن إلا مراوغة وتحايلاً على أعصابنا حتى تركن إلى سباتها ليمكن بعد ذلك مباغتتها بهذه العاصفة القوية من الإيقاعات

التي انهالت تضرب الذاكرة وتطرد النعاس وتصيب المراكز العصبية بحالة من التوتر والانفعال ، ومعها كانت ترتفع آهات ملتاعة تقول :

- الله حي ، الله حي .

خرج من بينهم رجل صنعوا من حوله نصف دائرة وصاروا يرقصون رقصاً سريعاً يتفق مع سرعة الإيقاع ، والرجل الذي انفصل عنهم تحول إلى كائن هستيري يقفز في الهواء ويطلق صرخات كالعواء وينطح الدف برأسه كالمجنون . تزحزحت الموائد تفسح مكاناً للمشاركين في حلقة الذكر من زبائن السهرة الذين أصابهم الرجل الراقص بالعدوى . كان الرجل قد خلع جبته وبقي في سروال أبيض فضفاض وقد تعرى نصفه الأعلي . اختفى الدف الذي كان في يده وحلت مكانه سكينة كبيرة تشبه سيفاً ، تلمع تحت ضوء المصابيح . الرغوة تغطي فمه والعرق ينزّلامعاً فوق جسمه العاري . أمسك السكينة بكلتا يديه وقفز في الهواء قفزة عالية ، ورشق السكينة بقوة في بطنه وهو يصرخ :

- حي .

تعالت الصرخات والشهقات ممن ظنوا أن الرجل يقدم مشهداً انتحارياً ، ولكنه واصل الرقص ، والسكينة مغروسة في بطنه . ثم انضم إليه رجال آخرون يقومون بمثل ما قام به . يصرخون يقفزون في الهواء ويرشقون السكاكين في بطونهم وخاصراتهم ، والعزف يتدفق بذات العنف والقوة والجو تغمره كهرباء تجعل أغلب الحاضرين يناسقون وراء الجنون الذي يضج به المكان ويشاركون أهل الفرقة الرقص والصراخ .

- الله حي .

ومسحوباً بقوة لم أستطع لها ردعاً وجدت نفسي أترك الكرسي وأنضم إلى الرقص مع المجاذيب ، تداهمني إيقاعات الدفوف بأمواجها العالية ، فأرتفع وأهبط مع ارتفاعها وهبوطها ، غارقاً في دوامة الهوس والدوار ، أرمي بجسمي شمالاً ويميناً وأقذف برأسي في الهواء هاتفاً مع الهاتفين :

- الله حي .

رأيت حوض السباحة مقلوباً ومعلقاً في السماء . تداخلت مصابيح الكهرباء مع رؤوس الرجال والنساء فرأيتهم جميعاً يتحولون إلى كرات مضيئة تطفو في الهواء . والقوة الغريبة التي تشدني وتطوف بي لا تترك لي سبيلاً للوقوف . لا أملك إلا أن أدور وأدور ، ومعي تدور الأرض والسماء والأبنية والبشر والموائد والأسماك والدفوف والأشجار السوداء . يد خفية تشدني وتأبى أن تتركني أعود إلى الجلوس في مكاني . تحولت الأشياء التي حولي إلى كتلة معجونة بالدخان ورائحة البخور والأسماك . أغمض عيني بأمل أن تتوقف كرة الأشياء المعجونة عن الدوران ، وأفتحهما لأتفادى الارتطام بالموائد أو السقوط في حوض السباحة ، فأجد أن الكرة ماتزال تدور وأنا أدور مشدوداً إليها . كنت أريد أن أستنجد بأحد الحاضرين كي يأتي لإنقاذي ، ولكن صوتي لا يسعفني وما عدت أملك سيطرة على نفسي . أحسست بأقدامي تتداعى ، وأنا أترنح أحاول أن أمنع نفسي من الارتطام بالأشياء التي حولي . شحبت الأضواء ، تلاشت الوجوه ، أطلقت صرخة رعب وأنا أرى كرة الأشياء المعجونة تضربني وترمي بي إلى الأرض . ركض نحوي الشيخ الصادق أبو الخيرات منزعجاً . كان يرتدي برنساً أخضر يغطي رأسه ويفيض على جسده ، في يده مسبحة الكهرمان وعلى لسانه كلمات المواساة . انحنى يرفعني من فوق الأرض ويقودني عبر طريق تفرشه الأعشاب إلى حانة واسعة تضج بالطرب والرقص وتمتلئ برجال أثملهم الشراب فصاروا يصفقون ويطلقون صيحات الإعجاب . استغربت وجود هذه الحانة في مدينة تمنع الخمور وتحظر فتح الحانات . وقف بي الشيخ وسط فرقة الراقصات اللاتي يرتدين حلل الرقص الشرقي التي تكشف عن سيقانهن وأفخاذهن . ومن حولهن بعض زبائن الحانة يشاركونهن الرقص ويطالبون الشيخ الصادق بالانضمام إليهم . تركني واقفاً وانبرى للرقص مظهراً براعة فائقة وإتقاناً لأساليب الرقص الحديث . جذب إليه إحدى الراقصات ، يشبك يده في يدها ويرقص معها . اكتشفت وأنا أراقب رقصها أنها ليست إلا سناء جاءت ترتدي هذه البذلة وتحترف هذه المهنة . حاولت أن أكلمها لأعرف سبب وجودها في هذا المكان . فأنكرتني ورفضت التعرف إلي .

أردت أن أصرخ في وجهها محتجاً غاضباً ، ولكن الشيخ الصادق أشار بأن أنخرط مثله في الرقص دون كلام . حاولت أن أرقص فتعثرت وانهرت فوق الأرض . جاء الراقصون يدقون بأقدامهم فوق جسمي . صرخت وضاع صراخي في ضجة الطبول والتصفيق وصيحات السكارى . وزاحفاً فوق الأرض وصلت إلى باب الحانة وخرجت هارباً . خرج ورائي زبائن الحانة وجرسوناتها وراقصاتها ، يطاردونني وأنا أعدو وسط أرض خلاء . لحقوا بي فصاروا يمزقونني ويتناهبون أطرافي ، وكلما أخذوا جزءاً من جسمي صرخت :

- أعيدوا لي يدي .
- أعيدوا لي ذراعي .
- أعيدوا لي قدمي .
- أعيدوا لي رأسي .

ولكن الأجزاء المنهوبة من جسدي لاتعود . كانوا يقذفون بها في الهواء فتظل طافية هناك لا تسقط ولا تختفي ولا أجد سبيلاً للحاق بها .

رأيت دخاناً أبيض يحيط بي ، كأنني ملقى في جوف سحابة . كانت أطرافي قد عادت إلى جسمي والتأمت ببعضها البعض . رأيت من خلال الدخان الذي صار يتبدد شيئاً فشيئاً ، مصباحاً معلقاً فوق رأسي . انتبهت إلى أن المصباح يتدلى من سقف ناصع البياض ، وأن امرأة بثياب بيضاء تقف مباشرة أمام وجهي ، تلتقط القطن من كيس الورق وتضعه فوق رأسي ، ثم تأخذ لفافة الشاش الأبيض تغطيه بها . حاولت أن أقبض على شتات هذه الصور والأفكار التي تأبى أن تنتظم في نسق مفهوم . كان رأسي قد امتلأ بضجيج الدفوف فبدا السكون في هذه الغرفة غريباً . لصبغة اليود رائحة ثقيلة تأكل الهواء النظيف الذي حولي . أتنفس بقوة ، فيوقظ الشهيق والزفير وجعاً في رأسي . أنتبه إلى خيط الدم الذي يلوث قميصي . ومفزوعاً أنظر إلى الوجوه التي أحاطت بي . رأيت سناء وأمها وأخاها ، وأنور جلال وأحد أعوانه ، يعلقون أبصارهم بي . حاولت أن أقف فمنعتني الممرضة ذات الملامح الصينية قائلة :

- ستذهب بعد قليل . انتظر لحظة واحدة .

قالتها بلغة إنجليزية فصيحة بدت لي غير متوافقة مع ضيق عينيها . تقدم أنور جلال يضع رأسه قريباً مني ، وعلى وجهه ابتسامة أزالت شيئاً من فزعي ، يقول لي هامساً بأنها مجرد كدمة بسيطة ، وأن ما حدث لي حدث لآخرين غيري وقعوا مغمياً عليهم أثناء حفلة الأذكار . ولكن كيف لم أرهم يزورون معي تلك الحانة ويقعون مثلي ضحية جمهور يطاردهم ويتخاطف أطرافهم ، يقذف بها في الهواء؟ ومتكئاً عليهم غادرت العيادة عائداً إلى غرفتي . ابتلعت حبتي دواء أعطتهما لي سناء فنمت نوماً عميقاً بلا كوابيس ولا أوجاع .

لم أفق حتى الضحى عندما جاء أنور جلال يوقظني . يطمئن على حالتي ويمضي . عرفت منه أنه أوصل سناء وأهلها إلى بيتهم بعد أن سهروا قليلاً بجواري حتى أخذني النوم . تركت السرير وحاولت أن أطرد التعب الذي أحس به ، بالماء البارد أرشه على وجهي وأطرافي . رأيت في المرآة أن العصابة التي تلف رأسي ملوثة بقطرات من الدم . ووجهي شاحب تغطيه كآبة المرض . كان مشهد الليلة الماضية مازال يملأ رأسي ، ومازلت لا أجد تفسيراً لهذا العطب الذي لحق بإرادتي فتعطلت عن العمل وأسلمتني إلى هذه القوة الغريبة القادمة من فرقة الأذكار وعوالمها السحرية . تأخذني وتدور بي في دوامتها ، عاجزاً على التحكم في أطرافي وكأنني في حالة انفلات من قوانين الجاذبية . كنت ساخطاً على نفسي . خائفاً من أن تكون الأمراض التي ابتليت بها في زمن مضى قد جاءت تطالب بأخذي إلى أرضها الموحشة . أفكر في سناء وفيما إذا كان هذا الحادث قد أفزعها وأفزع أهلها فصاروا لايطمئنون إلى سلامة عقلي . وقفت في الشرفة أتطلع إلى خيط الأفق الذي يربط السماء بالبحر . إلى الأبنية الغارقة في الصمت وضوء الشمس ، وتصورت الخواء الذي سيعم الكون لو أن حياتي خلت من سناء . سوف لن يحدث هذا . يجب أن أعمل بقوة لكي لا يحدث . إن الخطوبة التي اتفقنا عليها ولم نعلنها يجب أن نعلنها الآن . سأضع الخاتم الذي يحمل الحرف الأول من اسمها في إصبعي ، ليكون تحصيناً لي من المرض ، ورابطة تمنحني قدراً

من الأمان الذي أحتاجه قبل أن يأتي موعد الزفاف .

أكملت حلاقة وجهي ، وغسلته بماء الكولونيا توسلاً لتحقيق شيء من الانتعاش . أبدلت ملابسي وأخذت سيارتي وذهبت إلى بيت سناء . رأيت القلق في عينيها فطمأنتها إلى أنني تعافيت تماماً من آثار الليلة الماضية . وجلست معها في الصالون قبل أن تأتي أمها أخبرها بما جئت من أجله . إنها وحدها من سيطرد المرض من حياتي ويعيد أجزائي المبعثرة إلى بعضها البعض . لو فقدتها لتمكنت مني أمراض الروح ، ولجاء زبائن وجرسونات الحانات يطاردونني ويتخاطفون أطرافي . لم أخرج من بيتها حتى اتفقنا على إعلان الخطوبة فور الانتهاء من الإعداد لها . وفي نهاية الأسبوع أقمنا حفلاً صغيراً في بيتها ، وجلست في كرسي الفوتيل بجوارها ، أضع في إصبعها خاتم الخطوبة وتلبسني خاتمي . تجلت سناء في أبهى زينتها . الكحل في عينيها وقلادة الذهب فوق صدرها والثوب الموشاة حواشيه بخيوط فضية ، يصنع دائرة مشعة حولها . دعت إلى الحفل بعض صاحباتها ، ودعت الأم جيرانها ، واصطحبت معي أنور جلال الذي جاء بعوده وزميل من أصحابه المطربين يقومان بإحياء الحفل .

في اليوم التالي لإعلان الخطوبة أمسكت بيدها ألثمها ، ثم رفعت رأسي أسألها أن تمنح الإذن لخطيبها بأن يقبلها .

كانت قد ارتدت المايوه ، ووقفت وسط الصالون تعلق المنشفة على كتفها ، استعداداً للنزول إلى البحر . رأيتها أمامي تمثالاً من البهجة والأنوثة ، فأردت أن احتويها بين ذراعي ، أقبلها وأمرغ وجهي في بهاء شعرها ولكنني تهيبت أن أفعل ذلك قبل أن أستأذنها .

- ألا تصبر حتى يتم الزواج .

كنت في تلك اللحظة أتساءل كيف تستطيع المرأة التي تحب أن تقمع عواطفها بكل هذه القوة . هل تكذب علوم البيولوجيا التي تقول بأن الرغبة الجسدية لدى الذكر لا تختلف عن رغبة الأنثى . لماذا لا يحرقها الشوق لمثل هذا العناق كما يحرقني؟ ولماذا لا ترتعش رغبة كارتعاشي؟ ومن أين تأتي بهذه القوة ، للسيطرة

على انفعالاتها ، والامتناع عن الاستجابة لنداء الدم في عروقها؟ . رأتني مهموماً فاستسلمت قائلة :

- ولكن ليس أكثر من ذلك .

منحتني شفتيها . قبلتها لأول مرة منذ أن التقيت بها خارج مدينة الحلم . دخلت قصراً مسحوراً ، مبنياً فوق سحابة تطوف بين النجوم ، وشربت من خمرة لا تسكبها في كأس الجسد إلا آلهة العشق . تفجرت غريزتها الأنثوية وهي تمنحني شفتيها ، حارقتين لاذعتين مليئتين بشهوة الحياة وصبوتها . قابلت سناء الشوق الذي جئت أحمله لها بشوق أكثر سخونة ولهفة ، وبدا لي غريباً كيف كانت تتردد وتمتنع وهي تحمل في شفتيها كل هذا العنف .

وضعت يدي في يدها وركضنا إلى البحر نعانق موجة ضاحكة جاءت تركض نحونا .

- هل هذه أول قبلة تتبادلها سناء مع رجل؟

لا أدري لماذا سألت نفسي هذا السؤال فور انحسار الموجة ، وانتهاء السحر الذي أشاعته في بدني لحظة العناق . لقد دخلت معي سناء طقوس هذه القبلة بكل ما رافقها من قوة العاطفة وتوهجها . ولكن السؤال كان خالياً من كرم المشاعر وسخائها . سؤال بائس ، لا حاجة بي لأن أقوله الآن بعد أن وضعت في إصبعها خاتم الخطوبة ، تدشيناً لعصر جديد بدأناه منذ نهار الأمس .

تذكرت أن كلمة «حب» لم ترد أبداً في حديثها . أنا الذي أقول هذه الكلمة أحياناً ، بمثل ما فعلت منذ لحظات عندما عانقتها . في حين تتوارى هي خلف غلالة الخجل الذي يغطي ملامحها في لحظات البوح والمكاشفة ، تاركة الحديث عن الحب لتلك الإشارات الأنثوية الخفية التي أتلقاها كأنها رسالة مكتوبة بشفرة سرية لايستطيع تفسيرها إلا القلب .

وحاملاً لهفتي معي كنت أذهب كل صباح لإحضارها . انتهت التعليمات التي تقضي بأن يرافقها مندوب العائلة ، أو الأخرى التي تحدد ساعات الخروج والعودة . اتسع المدى ، يصنع زمناً جديداً طازجاً لا علاقة له بالزمن الذي

يستهلك نفسه خارجنا .

لم أكن قد دعوت أخي إلى حفلة الخطوبة ، كما أنني لم أبحث عنه بعدها لأخبره بها . قررت أن الرجل الوحيد الذي تعنيه هذه الخطوبة هو الشيخ الصادق أبو الخيرات ، فهو صاحب الفضل في اهتدائي إلى هذه المرأة . تأخرت كثيراً عن زيارته ، ولا أجد تفسيراً لذلك الحلم الذي قادني فيه إلى حانة الراقصين ، إلا أنه غاضب مني . أخذت سناء معي وذهبت إليه ، أتبرك به وأطلب منه الصفح . أفهمت سناء بأنني سأريها بيتنا القديم .'لا أب لي ولا أم ، أقدمها إليهما ، ولم تبق سوى تلك الأنقاض المعجونة بأنفاس الأهل الراحلين . وقفت بجوارها أجيل البصر في أطلال البيت . وسناء تغمرني بأسئلة كثيرة عن كيف كانت حياتي فيه ، وعن البشر الذين كانوا يسكنونه معي . بدأت أعيد بالكلمات بناء البيت المتهدم . أرجعت الخشب إلى شبابيكه وأبوابه ، ونقشت فوقها الزينات والزخارف ، رفعت الأنقاض وصنعت منها حيطاناً يكسوها الطلاء ، وغرفاً ملأتها بالمواقد والمراتب والصناديق والأكلمة وسجادات الصلاة . استوى الركام بيتاً كما كان منذ ثلاثين عاماً . استدعيت بعد ذلك الأب والأم والجيران يصنعون شبكة من العلاقات التي كانت قماطاً يمنحني الدفء والأمان . انتهت الكلمات وبقيت صامتاً للحظات قصيرة . عاد البيت أنقاضاً كما كان ، وقفز جرذ كبير الحجم من بين الحجارة ، فالتصقت بسناء ، أحتمي بها من هول المصير الذي يؤول إليه البشر وتؤول إليه الأشياء . وصامتاً سحبت سناء من يدها ، ودخلت بها إلى ضريح الشيخ الصادق . أخرجت من جيبي شمعة أضأتها له ، وقرأنا معا سورة الفاتحة . سألتني سناء عن صاحب الضريح ، فأخبرتها لأول مرة بتفاصيل رحلتي إلى مدينة «عقد المرجان» ، قائلاً بأن هذا الشيخ هو صاحب المعجزة التي نفذت بي إلى تلك المدينة حيث التقيت بها لقاء العشاق . لم أكن قد قلت لها شيئاً غير جملة عابرة تشير إلى هذا الحلم ، ولكنني هذه المرة أخبرتها بالقصة كلها ، منذ اللحظات التي زرت فيها هذا الشيخ فوجدته جالساً بانتظاري لكي يرسلني في رحلة علاج إلى تلك الأرض المباركة . وشرحت لها كيف التقيت بها عندما

كانت تشترك في لعبة الأقنعة بساحة المدينة وكيف ذهبت وراءها مسحوراً بجمالها . هجرت من أجلها منصب الأمير وقصره وذهبت لأقيم معها في مسكنها بين المزارع . ثم لقاءاتنا في استراحة الصيد ، وبراعتها في العزف على العود ، وغنائها لقصائد الشاعر ياقوت ، وعن ليالي الحب التي قضيناها مرة فوق شراشف الحرير ومرة فوق حشية القش ، ثم ظروف اختفائها وكيف ذهبت أبحث عنها داخل الغرفة السرية بالقصر ، حيث انتهى الحلم وغاصت تلك المدينة الأسطورية في أمواج الهواء الأصفر .

وباندهاش كانت سناء تتابع كلماتي . لم تصدق أن تلك المرأة كانت تشبهها إلى ذلك الحد . قلت لها إنها هي التي كانت معي ، كما أراها الآن أمامي وأسمع صوتها . سألتني عما إذا كنت أملك تفسيراً لهذا التماثل بينها وبين امرأة الحلم ، فقلت لها ، إن هي إلا حياة عشناها في تاريخ سابق لوجودنا ، وما علاقتنا اليوم إلا استئناف لتلك العلاقة القديمة ، التي لو فتشت عميقاً في نفسها لأدركت أنها عاشتها كما عشتها .

كانت تلك هي المرة الأولى التي أكاشف فيها إنساناً بأسرار تلك الرحلة . كنت قد أطبقت صدري على أحداثها ، ومنعت نفسي من ذكرها لكائن من كان ، مهما كان قريباً ، إلى أن جئت اليوم أكاشف بها سناء . إنها شريكتي في الحلم بمثل ما هي شريكتي في الحياة ، وما بوحي لها بهذه الأسرار إلا إسهاماً في تأسيس هذه الرابطة الجديدة التي تجمعنا . قالت تعليقاً على ما سمعت :

– ما أصعب أن يتكيف مع الواقع إنسان شاهد هذه الرؤيا .

قلت مسرعاً :

– وما حاجة هذا الإنسان إلى الحلم إذا كان يعيش واقعاً يساويه بهجة وجمالاً .

قلت لها فيما بعد :

– كان قد أصابني اليأس وأنا أبحث عنك ، فلماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

كنت أقولها مسفوعاً بذكرى المرارات القديمة ، أيام المراهقة والصبا ، وأطياف

نساء تنوس خلف الشبابيك ، يرحل إليها البصر حالماً ، عامراً بالأمنيات العذاب . كنت أتصور في تلك المرحلة من العمر أن امرأة ما ، خلف هذه الأبواب والشبابيك والحيطان ، امرأة ذات جمال أخاذ ، تحبني ، وتطل من شرفتها كل عشية تنتظر مجيئي ، تحمل في يدها وردة ، ما إن تراني حتى ترشقني بها . وكنت كلما نشر المساء ظلاله ، أضع في قلبي قيثارة ، تسيل أوتارها شوقاً ، أطوف بها الشوارع وأنا أعلق بصري بالشبابيك والشرفات أنتظر أن تشرق في وجهي ابتسامتها ، وترف ضفائر شعرها وهي تناديني وترشقني بوردتها . أسير في دروب المدينة ، أبحث عنها ، يوماً وراء يوم ، وعاماً وراء عام . ولكن الشرفات ظلت تحتفظ بصمتها وأسرارها ، والشبابيك مجرد كهوف تجتر أحزانها وظلامها ، والمدينة خبأت نساءها في جيوبها السرية وزرعت رجالاً عابسي الوجوه يملؤون الأرصفة والحوانيت . والحبيبة التي أقمت لها عرساً قبل أن أراها ظلت متلفعة بالوهم والصمت والأساطير . لقد حقق سدنة المجتمع العريق الذي يفصل بين الرجال والنساء ، انتقامهم على القلوب الخضراء . انطفأ جمر الشوق وغطاه الرماد ، وزحفت الصحراء تأكل ربيع القلب وتحرق أعشابه . وحزني على أعوام الصبا التي انقضت باهتة ، شاحبة ، كوجوه الموتى الذين يمشون في شوارع المدينة ، لا يعادله إلا حزني على تلك الصبية ذات الحسن والبهاء ، التي أحبتني وجلست توقد قنديلها وتحمل وردتها حتى جف زيت القنديل وتيبست أوراق الوردة . فأي حظ هذا الذي وضعك ذات صباح في طريقي ، تمسحين جراح القلب ، وتنفخين رماده ، وتجعلينه يزهر من جديد .

- لا تقل إنك لم تعرف الحب قبل اليوم إلا في الحلم .

قالتها ضاحكة ، وهي تنصت إلى صبوات القلب الظامئ ، في بدء النشوء والتخلق . هل أظلم الأيام التي عشتها في تلك المدينة التي تغسل قدميها أمواج بحر الشمال ، فأقول لسناء إنها لم تمنحني حباً . لعله حب من نوع آخر . ولكنها منحتني الحب الذي جئت أبحث عنه . لم يكن الحب هناك وروداً وضفائر تنهمر من الشرفات العالية ، وإنما كان طرقاً على الأبواب واقتحاماً لها . كان بحثاً عن

شريك للرقص في مدينة تشبه قاعة رقص كبيرة ، حيث لكل إنسان شريك يجب أن يبحث عنه تمشياً مع قوانين اللعبة . وبمثل ما يذهب الرجل إلى امرأة يراها تجلس في قاعة الرقص ليقول لها هل تسمحين بهذه الرقصة ، فهو أيضاً يذهب إلى امرأة تجلس دون شريك ليقول لها هل تسمحين بعلاقة حب . وبكل ما يختزنه القلب من عطش وشمس وصحراء ، ذهبت إلى تلك المدينة . أسرفت في الشراب كما أسرفت في السهر والانغماس في الأجواء التي يتيحها مجتمع الانفتاح والحرية الشخصية . تعاملت بقوانينهم وأحببت بأساليبهم ورقصت على ألحانهم واشتبكت في علاقات عاطفية ومغامرات جسدية وكأنني أنتمي إليهم . ولكنني في جزء من عقلي كنت أعرف أنني مثل قطرة الزيت في إناء الماء ، ستظل طافحة فوق السطح ، غير قادرة على أن تحقق الاندماج الذي تريده . كنت أعرف أنني في تلك المدينة مجرد عابر طريق يحمل رمحه . حجر يتدحرج فوق الأعشاب وظل يتسكع في حدائق الليل . وكنت أدرك أن الحب الذي عرفته هناك ، حب مكتوب بحبر يتبخر عندما تشرق عليه الشمس الساطعة . وعندما عدت من جديد إلى هذه المدينة لم أرفع بصري إلى الشرفات العالية أبحث عن حبيبة تنتظرني ، كنت قد جئت رافعاً الراية البيضاء ممتثلاً لأوامر سدنة المجتمع الأجلاء ، فسألتهم أن يمنحوني امرأة يختارونها لي بذوقهم وحكمتهم وتكون على مقاس قوانينهم ومساطرهم ، ويعقدون لي عليها ، لأفوز بالانسجام مع عالمهم . كنت واهماً وغشيماً عندما طلبت هذا السلام المستحيل معهم . نقطة الزيت ، ظلت طافية حتى وهي تعود إلى الخابية التي خرجت منها ، فقد تلوثت بمادة غريبة تمنعها من التطابق مع محتويات الخابية . ولم تستطع النقطة التائهة أن تخرج من التيه ، إلا عندما التقت بنقطة زيت طافية مثلها ، ومثلها تحتوي هذا العنصر الغريب المصنوع من مادة الأحلام ، لتحقق معها توافقها وتكاملها .

هل كنت متواطئاً مع نفسي ، ومع ما تحب أن تسمعه سناء مني ، عندما أهملت ذكر التفاصيل والأسماء ، وجمعت ليندا وساندرا في صورة واحدة لامرأة غريبة ، غامضة ، تجلس في صالة واسعة تنتظر من يقول لها «هل تسمحين

بالحب» . هل كان تمويهاً أن أمسح من هذه الصورة التي قدمتها لها كل الملامح والوجوه التي عرفتها ، فلا أبقي إلا على ملامح وجهها الذي رأيته في الحلم . ولكن ما الماضي إن لم يكن هذا الشيء الذي نختزنه تحت الجلد ، ونسافر به ممزوجاً بكريات الدم . وسواء ذكرت التفاصيل أو تغاضيت عنها ، فما كياني كله إلا تعبير عن تاريخي الشخصي . إن مادة الماضي هي التي صنعت الرجل الذي أحب سناء . إنني ألتقي بها وأنا أحمل تراثي الذي صنعته بيوت سكنتها ورجال ونساء عرفتهم ومدن سافرت إليها وكتب قرأتها وأغنيات سمعتها . ومجبولاً من كل تلك المرارات ، وحكايات الفشل والنجاح ولحظات الشوق والحنين ، والظمأ والارتواء ، والضحك والبكاء ، أرحل إليها . وبكل النقوش المرسومة فوق الذاكرة ، والحروق التي تركت ندوبها فوق القلب ، أحبها .

ولكن ماذا عن تجارب الماضي التي صنعت سناء؟ ضعي هذه الأصابع المنحوتة من مرمر الأحلام في يدي ، وأسندي رأسك على صدري ، وأخبريني بذكرياتك عن اللحظات التي أسهمت في تكوين رؤيتك الصافية للحياة .

- إن لك قلباً مثل القصور عامراً بالقصص والأسرار ، ولعل به غرفة سرية ستظل مقفلة على الدوام . أما قلبي فهو مثل أكواخ الفقراء ، فلا تنتظر أية مفاجآت .

كنا قد سبحنا كثيراً هذا الصباح وعدنا إلى الشمسية حيث تناولنا غداء من السندوتشات والفواكه ، واتكأنا فوق الرمل نشرب القهوة ونستمع إلى صوت البحر وحديث الذكريات .

لعلني كنت سأفعل مثل الفتاة التي حلمت بها ، أجلس كل مساء قرب النافذة ، أوقد قنديلي وأحمل وردة أرشق بها فتى وسيماً ، لولا أنني كنت أجلس في ظل ذلك الأب ، صارماً ، وقوياً ، ومحباً ، أوصد أبوابه في وجوه الآخرين وبقي لنا . حضوره الكثيف كان يسد كل الفراغات التي يمكن أن يتسلل منها عاشق المساء . كنت على أبواب الجامعة وكان أبي يريدني أن أدرس الطب . لم أحصل على درجات تؤهلني لذلك ، ولم أكن أملك حماساً مثل حماسه لدخول تلك

الكلية . لكن والدي أرغمني على أن أنتظر عاماً آخر لأعيد الامتحان وأحصل على الدرجات التي تريدها دراسة الطب . وعندما رحل قبل أن ينتهي العام ، قررت كنوع من المصالحة بين ما أراده لي وما أردته لنفسي ، أن أدخل كلية الصيدلة . ومنذ أن دخلت الجامعة وإلى أن تخرجت منها واشتغلت معيدة لأكثر من ثلاث سنوات ، لم يكن همي هو الحب . لعلي كنت سأبحث كغيري من فتيات الجامعة عمن أحبه وأرضاه زوجاً للمستقبل . ولكنني كنت مشغولة عن ذلك ، بدفع هذه الموجات المتلاحقة التي جاءت تركض نحوي من طالبي المواعيد ولحظات الاختلاء الغرامية . اكتشفت وأنا أختلط لأول مرة بمجتمعات الرجال في الجامعة أن كل من التقيت به أصبح عاشقاً يترصد لي في الأركان الخالية ويأتي هامساً يطلب موعداً . كنت أدفعهم جميعاً عني . وأتعامل بخوف وحذر مع كل الرجال الذين حولي . لم أكن أنتقل لأي مكان داخل الجامعة دون أن أصطحب إحدى الزميلات معي ، لكي لا يشجعهم وجودي المنفرد على الاقتراب مني . كنت أعرف أنه ليس جمالي وحده الذي يدفعهم لمحاصرتي ، إنه أيضاً كوني امرأة تحررت من سطوة الأهل والأب فلا سلطة لأحد عليها سوى سلطتها على نفسها ، ولذلك تصور بعض الرجال أنني هدف سهل للغواية . كنت أدرك خطورة المسؤولية وثقلها ، مدركة أن مجتمع الجامعة يفرح باصطياد هنة صغيرة يصنع منها قصة يتغذى بها عشاق الشائعات . وكانوا يصنعون الشائعة التي تموت فور ولادتها لأنني تعلمت كيف أفرض احترامي . وصل الأمر ذات مرة إلى تدبير مكيدة ضدي ، واستصدار قرار بطردي من الجامعة . كان ذلك في أول عام ألتحق فيه بكلية الصيدلة . كنت صغيرة وقليلة الخبرة فاشتركت بأغنية في الحفل الذي أقامته الكلية . انتهى الحفل وأصر المشاركون في إحيائه على أن نبقى قليلاً للسهر ، فبقيت معهم . وفي الصباح استدعينا جميعاً للتحقيق بحجة أن السهرة كانت سهرة سكر وعربدة . عرفت فيما بعد أن طالباً خبأ زجاجة خمر في جيبه ، ودون علمنا كان يخرج ليرتشف جرعات منها ويعود للسهر والغناء معنا . اكتشفوه سكران في آخر الليل وعرفوا أنه حضر سهرتنا فجاءوا بنا جميعاً للتحقيق . انتهى

التحقيق وبرؤوا الجميع ، ماعدا اثنين ، هما ذلك الطالب وأنا . كان قرار الفصل مفاجأة كبيرة لي ، كما كان صدمة لأمي التي خشيت أن أكون قد أسأت استخدام الثقة التي منحتها لي . لم أكن أدري ما الذي فعلته حتى أستحق ذلك العقاب ، ربما لأن ذلك الطالب الذي أصدروا قراراً بفصله والذي هجر بعد ذلك البلاد وذهب للحياة بالخارج ، كان فعلاً أكثر الطلاب قرباً من نفسي . كان زميلي في الفصل . وكان الوحيد الذي آنست إليه وصرت لا أتحرج من الجلوس معه في مقصف الجامعة ، لأنه لم يكن يأتي هامساً متلفتاً يسأل موعداً أو يتحدث عن عذابه وأرقه بعد أن رآني . كان يحدثني عن أمه التي تولت تربيته بعد وفاة أبيه ، وكان هذا التشابه في حالتنا يجعلنا نقترب من بعضنا البعض . لم أتوقف كثيراً لأفكر إن كانت مشاعري نحوه حباً أو لم تكن . تصرفت ببراءة وتلقائية فاعتبروا ذلك استهتاراً وخروجاً على الأدب . تأسفت له ، لكنني لم أبك أو أستسلم لليأس . دافعت عن نفسي حتى تأكد لإدارة الجامعة براءتي . كان الدرس قاسياً ، وكان المصير الذي تعرض له ذلك الطالب الوحيد الذي كان قريباً مني مصيراً فاجعاً . امتنعت بعد ذلك عن المشاركة في الأنشطة والحفلات وكرهت الاقتراب من هذه الحلقات التي يعقدها الطلاب ، وفرضت على نفسي عزلة صارمة ، فلا أختلط بأحد ولا أكلم أحداً خارج حدود الدرس والواجبات . واقتضى الأمر عدة سنوات حتى استعدت قدرتي على التواصل مع المجتمع والعودة إلى ارتياد المحاضرات العامة والمشاركة في الأنشطة والرحلات كالرحلة إلى مدينة قورينا . لعل الثمن كان كبيراً لأنني تنكرت لحق من حقوقي في أن أدع نفسي على سجيتها ، ولعلني عندما التقيت بك كنت أفكر في هذه العزلة التي عانيت منها طويلاً . هذه القسوة التي عاملت بها نفسي . لأمر ما أحسست وأنا ألتقي بك ذلك الصباح أنني ألتقي بإنسان مختلف . كنت قد صحوت مبكراً جداً لأبحث بين أحراش الجبل عن الأعشاب والنباتات الطبية قبل أن ننشغل ببرنامج الرحلة . ولم أكن أظن بأن أحداً قد سبقني إلى هناك حتى رأيتك جالساً فوق الصخر ، تنتظر شروق الشمس . اندهشت عندما رأيت إنساناً أكثر جنوناً مني ، يستيقظ هو

الآخر مبكراً ، ويترك دفء الفراش بحثاً عن نشوة الاقتراب من هذا الجلال الذي يصنعه لقاء الفجر بأشجار الجبل وكائنات الغابة . كنت قد رأيتك في مرة سابقة أثناء تلك المحاضرة ، عندما سألتك سؤالاً ، أجبتني عليه بانفعال واقتضاب ، وعرفت فيما بعد أنك تغيب عن التدريس لأنك تعاني من حالات الاكتئاب . كان مشهد الصباح الربيعي فوق الجبل الأخضر ، والذي يوحي للإنسان بأنه حقق سلامه مع الكون . هو الذي جعلني أكثر تحرراً وانطلاقاً ، ودفعني لأن أنسى تحفظاتي وأبقى في صحبتك بدل الالتحاق ببقية أعضاء الرحلة . لعل الذي ساقني إليك هو الفضول لمعرفة أسباب الأزمة النفسية التي عشتها . أعرف أنها مسألة طبيعية أن تعاني امرأة ما ، إحساسات الإحباط والمرارة في مجتمع يسميه أساتذة الجامعة مجتمعاً ذكورياً ، أبوياً ، تسلطياً ، إلى آخر القائمة . ولكن كيف يحدث ذلك لرجل من هؤلاء الأساتذة أنفسهم الذين هم في موقع القيادة من هذا المجتمع الذكوري الرجالي . لعلها سذاجة مني أن أتصور أن الرجال يجب أن يكونوا في مأمن من هذه العلل . وكنت قد هيأت نفسي للقاء رجل متوتر الأعصاب ، فجاءت اللحظات الأولى للقائنا تؤكد هذا الظن ، عندما رأيتك تقف مندهشاً ، جاحظ العينين ، تنظر في فزع نحوي ، بينما أمد لك يدي بالسلام فلا تراها . بقيت ساعات معك وازددت اقتراباً منك ورأيت دفء العواطف التي أحطتني بها وكأنك تعرفني منذ أمد بعيد ، فاستيقظت في ذهني كل المحاذير . اعتبرت أن ميلي إليك ، ضعف يجب أن أحاربه في نفسي ، وإن علاقتنا يجب أن تنتهي عند هذا الحد . حتى عندما جئت لأستعير منك البحث لم يكن ذلك إلا وفاء لوعد لا أحب أن أنقضه . إلا أن تحولاً طرأ على أفكاري ، عندما جئت غاضباً ، تستنكر ما قاله الأستاذ شعبان عني ، وتخبرني بما حدث من عراك بينك وبينه . كانت تلك العاطفة الساخنة ، التي تتفجر صدقاً ومحبة وألماً ، شيئاً جديداً لم أره في عيني أحد من قبل ، خارج الدائرة الصغيرة لأفراد عائلتي . قلت في خاطري إن هذا الرجل يحبني . إن اهتمامك بي يختلف عن اهتمام الآخرين الذين يركضون ورائي . لم يبق للحرب الدائرة في نفسي ضد كل عاطفة أو ميل

نحوك ما يبررها . ليقل الناس ما يريدون قوله . لن أكون غاضبة هذه المرة لأن هذا هو اختياري . إنني لن أظلم نفسي وأضع رتاجاً على قلبي إلى الأبد . لم أكن أبحث عن شيء أكثر من أن أعرف على وجه اليقين ، إن الرجل الذي أختاره ، إنما يحبني لذاتي وليس لمجرد البحث عن لعبة يتسلى بها . ولذلك لم يكن يهمني إن كنت عازباً أو متزوجاً . لا أريد لهذه العاطفة أن تكون مجرد وسيلة لاصطياد الزوج . أردت ولأول مرة منذ أن دخلت الجامعة ، أن أترك نفسي على سجيتها . أن أتحرر من خوفي وحذري . وأتصرف بتلقائية وبساطة ، وأترك لطبيعة الأنثى في نفسي أن تنطلق دون قمع الإرادة الواعية التي تشتغل خادمة لدى مجتمع الاختيارات المفروضة .

كنا قد تركنا الشمسية وأمضينا وقتاً نتمشى على الشاطئ ، وصلنا إلى نقطة في أقصي حدود القرية ، وجلسنا فوق تلة صنعتها صخور الشاطئ نرقب مشهد الغروب ونستقبل رذاذ الموج .

كانت سناء قد أنهت كلماتها بالمثل الإنجليزي الذي صنع منه شكسبير عنوان مسرحيته «كل ما انتهى إلى خير ، فهو خير» .

- ''All is well that ends well''

قلت لها إن الأشياء لم تكن لتنته إلى هذا الخير لولا تلك المرارات . وما هذا الحب إلا مكافأة على ضنك وعناء الأيام الماضيات . وقلت لها أيضاً ، وأنا أستعيد ذكرى غنائها الجميل عندما التقيت بها في زمن آخر :

- ولكنني أشعر بالأسف لأنك انقطعت عن الغناء .

- وأنا أيضاً ، فالغناء رغبة مكبوتة لا أمارسها إلا عندما أغني لنفسي .

- ألا تسمعيننا شيئاً الآن؟

- هنا؟

- نعم هنا .

التفتت سناء تمد بصرها باتجاه رجال ونساء يمرقون من بعيد . اطمأنت إلى أننا في مأمن من تطفلهم ، فاتخذت مظهر مطربي الحفلات . رفعت أصابعها لتدليك

الحنجرة وأصدرت همهمات لتسليكها ، ثم أحنت رأسها بأناقة ، تحية لحشود الجماهير المصنوعة من موج البحر ، قائلة :

– هيا ردد معي .

بدأت تغني وأنا أردد من ورائها المقطع الأول من الأغنية ، وأحاول أن أصنع إيقاعاً بالتصفيق الخافت المنتظم .

– قولوا لعين الشمس .

كانت الشمس تسحب أرديتها وتختفي خلف البحر ، تاركة المجال كله ، لشمس سناء ، تشرق الآن ، وتملأ القلب بلظى أنوارها .

ما أن مضت قليلاً في الغناء حتى توقفت عن الترديد والتصفيق ومنحت نفسي بكاملها لسحر الغناء القادم من بلاد الأسطورة . أتلقف بكل أنسجة الجسم وخلاياه ، عذوبة الصوت وبهجته . متمثلاً تلك العوامل التي قادني إليها الحلم ، يصحبة امرأة استعارت ملامح سناء وصوتها . ولكن لماذا تبدو الأشياء أكثر بهجة عندما نعثر على مرجعية لها في عالم الماضي . لماذا يكون للماضي هذه السطوة على الحاضر حتى في أكثر لحظاته توهجاً؟ إنني على يقين بأنني لم أكن لأحصل على هذه المتعة لو لم يكن هذا الغناء استحضاراً لدنيوات تختفي خلف ضباب الزمان .

كنت لا أريد أكثر من أن نبقى معاً . لدينا البحر والرمل والحب . لدينا السباحة ، وشيء من القراءة بعدها وقبلها ، حيث يأخذ كل منا كتاباً . وإذا ما عثر على شيء أعجبه ، توقف عنده ليقرأه للآخر ، ويكون موضوعاً للنقاش . ولكن سناء كانت تقترح فور أن تهدأ حدة القيظ أن نذهب في جولات إلى مركز المدينة . كان لها منطقها البسيط . فهي الآن ، وبصحبة رجل تربطها به أمام المجتمع علاقة شرعية ، تستطيع أن تذهب إلى كل الأماكن التي كان الذهاب إليها مغامرة ، بالنسبة لامرأة مثلها . لهذا فهي تريد أن نذهب ، كلما وجدنا وقتاً ، لنشاهد فيلماً أو معرضاً ، أو نتجول في الأسواق ونجلس في الحدائق والأماكن العامة . اقتنعت بمنطقها ، ووجدت أن الذهاب في صحبتها ، يجعل هذه المدينة

التي لم أكن أراها إلا موحشة كئيبة ، مثل مدينة النحاس وسكانها الممسوخين ، تكشف عن وجه أقل كآبة ووحشة .

وكلما انتهت حصة السباحة ودخلت سناء لأخذ حمام تزيل به ملوحة البحر ، كان فكري يحوم حول الجسد الذي يتعرى تحت الماء ، مثيراً ، وشهياً ، وعامراً باللذاذات ، كأنه لم يخلق إلا لممارسة الحب . يصنع دائرة من الجاذبية ، تخترق الجدران ، وتصل إلى جسدي ، فيهتز رغبة وشوقاً إليها . أقف بائساً خلف الباب المغلق أحارب الهواجس التي تثيرها الشهوات الترابية . لأنني أحب أن أرى سناء في ضوء يختلف عن غيرها من النساء . يكفي أنني أرتاد معها آفاق الفرح والمتعة كل نهار أضع يدي في يدها وأسير معها ، وكأنني أتجول في قصر صنعته قصائد الشعراء العاشقين . فلماذا التوجع والأسى إذا ظلت غرفة واحدة في القصر مقفلة ، لا أقوى على دخولها هي غرفة الجنس . ولكن شحاذ الرغبة الأعمى ، يبقى برغم ذلك كله ، واقفاً على الأبواب يستجدي حسنة لله ، رافضاً أن يستجيب لأي نصح أو تهديد . أقول أحياناً إن اشتباك العواطف والتحامها ، سوف يزداد تعزيزاً بلحظة يشتبك فيها الجسدان . يتحاوران ويتخاطبان بلغة هي أكثر بلاغة من كل الكلمات التي نستعيرها من القواميس . يتلاقيان ويحققان ما يحتاجانه من ارتواء . طقس ضروري لابد منه لتحقيق الاندماج ، واكتمال دورة الحب . ثم أعود لأعزي نفسي قائلاً بأن ما تصنعه بي سناء ، هو ذاته ما فعلته شهر زاد بشهريار ، عندما جاءت تحارب عنفه وصبواته وتحمل إليه عاطفة أكثر نقاء من مجرد الشهوة . فلماذا لا أرضى بهذا العطاء الجميل ، وأجعل من هذا الحب تصعيداً وتطهيراً لغريزة الجسد ، وأنتظر بصبواتي الجنسية موعد الزفاف ، بدل الانشغال بإرضاء شهوة سرابية ، لا سبيل إلى إرضائها ، لأنها كلما ارتوت ازدادت عطشاً . إنني على يقين بأن أي إلحاح على هذا الجانب سوف يغضبها ، ويثير في ذهنها الشبهات التي كانت تخشاها ، عندما كانت تطرد أولئك المتطفلين على موائد حبها . كنت أحاول استعجال ورقة الطلاق التي أصبحت في هذه الأيام إجراءً ضرورياً لكي يتم الزفاف وترضى المكاتب الشرعية بتسجيله . توليت

بنفسي مراجعة المحكمة بعد الجفاء الذي حدث بيني وبين أخي . صعدت في آخر مرة ذهبت إلى مبنى المحاكم ، سلماً حلزونياً يقود إلى الطابق الخامس ، ثم عبرت رواقاً طويلاً مظلماً كأنه نفق تحت الأرض . أخبرني الموظف الذي وصلت إليه لاهثاً ، إن الموضوع قد انتهى ولم تبق إلا بعض المسائل الإجرائية . سبق أن سمعت منه ذات الكلام منذ أسبوع مضى . اشتبكت في نقاش غاضب معه وأنا أحتج على هذه المماطلة التي لا معنى لها ، وكأن هذا البناء الذي يشبه البرج لم يبن إلا لكي يعرقل حياة الناس بدلاً من تسهيلها . جاء موظف آخر لفض النزاع ، واعداً بأن يتولى بنفسه إتمام الإجراءات ، فهو رجل يعرف مكانتي وله ابن التحق منذ عام مضى بقسم اللغة الإنجليزية يريد أن يوصيني به خيراً . تركته ساخطاً وقد تناهى إلى سمعي صوته وهو يهدئ من ثائرة زميله قائلاً :

– لعلك لا تعلم أن المسكين من ضحايا الأمراض النفسية .

جاء موعد ظهور نتائج الامتحانات ، فذهبت إلى الجامعة بصحبة سناء . كان الفناء يشهد زحاماً كبيراً يصنعه الطلاب الذين توافدوا لمعرفة النتيجة . مررنا بطالبة تنوح كأنها تودع ميتاً . وطالب يفلت من قبضة زملاء يهدئونه ليضرب رأسه بالحائط . وآخرون يصنعون حلقة ويصفقون لزميل يرقص فوق أعشاب الحديقة اليابسة . قلت لسناء :

– ها نحن نرى الفرح والحزن يتجاوران ويتعايشان جنباً إلى جنب في لحظة واحدة ، ومكان واحد .

– إنني أشعر بالأسى للطالبة التي تنتحب والطالب الذي يضرب رأسه بالحائط ، ظناً منهما إن هذه هي نهاية الدنيا .

– أما أنا فلا أشعر بالأسى إلا للولد الذي يرقص قافزاً في الهواء ، لا يعلم ما ينتظره خارج هذه الأسوار .

التقيت أثناء ذلك بالدكتور محمود الذي جاء مهنئاً بالخطوبة . صافحني وصافح سناء دون أن يذكر شيئاً عن الجفوة التي بيننا . اكتفى بأن وعد بزيارتي في الأيام القادمة ، وتركني لأحد أعضاء جمعية النشاط ، الذي جاء يقول بأنهم

يبحثون عني لأن لديهم نشاطاً يريدون القيام به . عرفت عندما ذهبت معه إلى مقر الجمعية ، إن أعضاء فريق الموسيقى صاروا يلتقون هنا مرة كل أسبوع ، استعداداً لحفل يبدؤون به السنة الدراسية . جلست معهم قليلاً أناقش برنامجهم ، والنفقات التي يحتاجون صرفها من صندوق الجمعية ، وانتهى اللقاء بأن أسندوا إلي مهمة البحث عن مطرب معروف ، يأتي من خارج الجامعة ، للمشاركة في إحياء الحفل .

قالت سناء ونحن نغادر الجامعة :

- لدي فكرة مدهشة .

- هاتها بسرعة ، فقد نفد رصيدي من الاندهاش وأنا ألتقي بامرأة تطلع من عالم الأحلام .

- ألم تسألني لماذا تركت الغناء؟

لم أجد مبرراً للسؤال . لم أرتح إليه . لعلها تفكر حقاً في العودة إلى الغناء تحت أضواء المسارح . رأتني صامتاً فأضافت :

- أردت أن أسألك أنت أيضاً لماذا تركت التمثيل .

كنت قد أخبرتها عن هذه الهواية القديمة التي مارستها عندما كنت طالباً . قلت دون اهتمام حقيقي بالسؤال :

- أنا أيضاً لم أترك هذه الهواية ، فحياتي مليئة مثل كل الناس بالتمثيل .

وضاحكة قالت سناء :

- أرجو ألا أكون ضحية لإحدى تمثيلياتك .

- تعرفين أنك أنت الشيء الوحيد الصادق في حياتي ، وما عداك فهو باطل . أين هي الفكرة المدهشة؟

- الفكرة هي أن نعود أنا وأنت لممارسة هواياتنا . نفاجئ الجامعة بتقديم عمل مسرحي غنائي ، تقوم أنت فيه بالتمثيل ، وأنا بالغناء . مارأيك؟

- مدهش .

- ولماذا الاندهاش؟

- كيف لا أندهش لما تسمينه فكرة مدهشة؟
- أنت تسخر من الفكرة .
- سيعتبرونه جنوناً .
- ليس هناك جنون أكثر من أن يبقى الإنسان متنكراً مدى العمر لموهبة حباه بها الله .

كنت أحسب أنها مجرد فكرة طارئة ، خطرت لها تلك اللحظة ، ثم تبخرت مع ما يمتصه الفضاء كل يوم من أفكار وأمنيات ، سيحتاج الإنسان إلى أعمار أخرى كي يلاحقها ويسعي إلى تحقيقها كلها . ولكن سناء ظلت مشغولة بهذه الفكرة ، وذهبت تبحث عن نص مسرحي يصلح للغناء والتمثيل . فهي ترى أن وجودنا معاً سيكون له معنى أكثر عمقاً ، عندما يتيح لنا فرصة اقتحام كل الآفاق التي يعجز الواحد منا عن اقتحامها بمفرده . فبمثل هذا الفعل الجريء ، المبدع ، تتأكد علاقتنا ، وتحقق حياتنا الجديدة المشتركة أكثر أهدافها نبلاً . إنها بالتأكيد فكرة مدهشة ، ولعلني أكثر شوقاً منها لاختبار مواهبي في التمثيل ومنح هذا الجانب المقموع فرصة التعبير عن نفسه . لقد سمعت ثناءً كثيراً على تمثيلي ولكن ذلك زمن تولي مع الأيام التي كنت خالياً فيها من هموم العمل وما يجره من مسؤوليات وصراعات . أما الآن فإن التمثيل والغناء ، ليس إلا تطفلاً على مهنة أخرى ، لن نجيدها كما يجيدها أهلها ، ولن يقابل تطفلنا إلا بالازدراء الذي لا أريده لنفسي ولا أريده لسناء . هكذا كنت أبرر لها الفزع الذي أصابني من الدخول في تجربة كهذه التجربة .

- طالما أنه اعتراض فني ، وليس اعتراضاً أخلاقياً ، فسأثبت لك أن المحترفين ، هم سبب انحراف هذه الفنون . وبإمكاننا أن نجعل الجامعة تلعب دوراً في تصحيح الانحراف .

رأتني صامتاً لا أتكلم فتساءلت :
- هل أنت خائف؟
- مِمَّ أخاف؟

- قل لي أنت مِمَّ تخاف . لعلك تفكر بأولئك الذين يستهزئون بكل فن وإبداع .

- إن هذا أدعى للتحدي .

- ليكن تحدياً ندخله معاً إذا شئت .

لم تمض سوى ثلاثة أيام حتى جاءت سناء بنص مسرحي مقتبس ، عن حياة رابعة العدوية ، عثرت عليه في كتاب مدرسي .

- غناء ديني ، وتصوير لحياة امرأة من أهل الله . مسرحية ترضي فضول أكثر العقول تزمتاً .

قلت وأنا أقلب صفحات الكراس :

- ولكنها قبل أن تظهر في ثياب المتصوفين سوف تقف على المسرح في ثياب الراقصات ، تغني لسكارى الحانات .

- مشهد صغير يمكن الاستغناء عنه ، وتعويضه بجملة في الحوار . وسوف تجد هنا دوراً يليق بإمكانيات ممثل خطير مثلك . إنه «بهاء» التاجر النبيل الذي أحبها وتقدم لإنقاذها ثم لجأت إلى التصوف بعد مقتله .

أردت أن أتجنب أي صدام معها ، فقلت بأنه مشروع كبير يحتاج إلى وقت وإعداد . أما الآن فإن هناك حفلاً سيقام قبل نهاية الصيف ، ومهمتي العاجلة هي أن أجد حلاً لهذه الورطة التي أوقعني فيها الطلاب . إذ من أين أجد لهم واحداً من طواويس الغناء ، ينسى زهو ألوانه ، ويرضى بالغناء وراء فرقة من العازفين الصغار . لا أحد يستطيع إنجاز هذه المهمة غير أنور جلال . مضت أيام لم أذهب إلى سهرته . ألتقي به أحياناً على الشاطئ ، وأعده بحضور السهرة ثم أخلف وعدي . فلا بأس من زيارة هذه الليلة إلى داره ، والاستمتاع بسهرته ، والاستعانة بنفوذه على تحقيق مايبتغيه الطلاب .

نشر أنور جلال ذراعيه مرحباً ومعانقاً . تراكضت نحوي كلمات اللوم والعتاب من أصحابه . أوقفهم قائلاً :

- لا تسرفوا في اللوم . للرجل عذره المقبول فابحثوا عن موضوع آخر .

- ألا يحق لنا أن نعرف؟

تساءل رشيد غانم . فرد عليه أنور جلال :

- ألا تتخلى لحظة واحدة عن فضولك الإذاعي؟

ضحك عبد القادر أمين ، رجل العلاقات العامة ، وهو يتناول قطعة جزر من طبق أمامه ، ويضعها في فم سعاد التي كورت شفتيها وصارت تراوغ بهما قطعة الجزر تقليداً لأفلام الجنس والإثارة . قال منتصراً لرجل الإذاعة :

- ولماذا تتعب نفسك بالسؤال عن سبب غياب الدكتور؟ ألم يقلها نابليون منذ عصور مضت ، «فتش عن المرأة»؟

- هل لابد أن نستعين عليك بنابليون لكي نعرف السبب؟ قل لنا إذن ، من هذه المرأة الموعودة بالجنة ، التي شغلتك عن الناس والدنيا؟

لابد أن بعضهم قد رآها معي . شاركتهم الضحكات ولم أقل شيئاً . أسرعت سعاد إلى المطبخ ، تحضر كأساً فارغاً استجابة لإشارة من أنور جلال ، الذي أخذ زجاجة الويسكي وسكب منها كمية كبيرة في الكأس . أضافت هي الثلج والماء وقدمته لي . نظرت نحوي طويلاً ثم انفجرت في عاصفة من الضحك .

- لماذا تضحكين؟

سألتها إحدى نساء الجلسة ، فرد عبد القادر أمين :

- أجمل ما في سهرتنا أن الضحك هنا لايحتاج إلى سبب أو مبرر .

قالت سعاد وهي ماتزال تضحك :

- إنه يعرف لماذا أضحك .

احترق وجهي خجلاً . لم تكن سعاد تجلس هذه الليلة في مكانها المعتاد على الأريكة بجوار أنور جلال . احتلت مكانها امرأة أخرى أراها لأول مرة . بينما جلست هي بجوار عبد القادر أمين ، مستجيبة لمداعباته الحسية . أيقنت أن تسامح العلاقات في هذه السهرة ، يحقق تفوقاً على أكثر المجتمعات تحرراً وانفتاحاً . ولابد أن سعاد أعجبها ما أحدثه كلامها من حرج صبغ وجهي بالاحمرار . فقالت وكأنها تشهد الآخرين على انتصارها :

- لا تخجل على هذا النحو ، فأنا لم أفضح لك سراً ، ولم أخبر أحداً بما حدث بيننا .

- يبدو أن حياتك تمتلئ بأسرار لانعرفها ، فما هي القصة؟

تكلمت هي :

- أخجلني منذ أيام بكثرة ثناثة على البنطلون الذي أرتديه ، فقررت أن أعطيه له . كنا بمفردنا في هذه الغرفة ، وما أن رآني أبدأ في خلع البنطلون ، حتى فر هارباً وهجر المجيء إلى السهرة .

- ها هو يأتي الآن نادماً ، يطلب منك الصفح والغفران والبنطلون .

ضحكوا بإسراف . رآني أنور جلال أمسح العرق على جبيني فضرب كأسه بكأسي مرحباً ، وسعى إلى تغيير الحديث مستأنفاً مع أصحابه النقاش الذي بدأ قبل حضوري عن هذا المستوي المتدنى لحركة فنية تراوح في مكانها وتأبى أن تكسر أطواق عزلتها وتحقق حضوراً فاعلاً على مستوى الفن العربي . قال رشيد غانم :

- لو رأيتم استمارات الإنتاج التي تصرفها الإذاعة كل يوم لأهل الغناء والموسيقى ، لاستغربتم أين تذهب هذه الأموال ، ولماذا لم تفلح في بناء فن يجتاز الحدود .

قال عبد القادر أمين مداهناً :

- ذلك لأن أرضنا قاحلة عقيم . دلني على ملحن واحد يملك موهبة أصيلة لاتعتمد على الاجترار وتقليد الآخرين عدا أنور جلال .

قال أنور جلال متجاوزاً هذا الإطراء :

- لنقل أن هناك خمسة أو ستة ملحنين أكثر موهبة وأصالة مني ، فهل يصنع هؤلاء فناً؟ إن عصفوراً واحداً لا يصنع ربيعاً ، ولا حتى مائة عصفور . إنه مجتمع كامل يتحرك حركة واحدة مثل عازفي الأوركسترا .

رأيت أن الحديث هذه المرة يأتي مخالفاً للتقاليد التي تنبذ المواضيع الجادة في هذه السهرة ، فساهمت في النقاش الذي يرسي تقليداً جديداً ، قائلاً :

- ولكنك تجد أحياناً فناناً واحداً يؤسس ذوقاً ويدشن عصراً جديداً للإبداع الفني .

- ولكن من هو هذا الفنان؟ ستقول لي إنه بيتهوفن أو موزار أو هايدن أو فاجنر أو شوبان ، وتنسى أنهم نتاج بيئة تقدس الموسيقى ، وشعوب تذهب إلى المعابد لسماعها . أما هنا فأنك لو تحولت إلى أبوللو رب الفنون ، وجئت تحمل قيثارتك الذهبية ، تعزف لهم ألحانك الإلهية ، لسخروا منك ، وذهبوا للاستماع إلى حليمة العرجاء التي تضرب طبلتها في الأعراس .

تكلم بمرارة . إنه فنان ناجح يحظى باعتراف المؤسسات الإعلامية التي تذيع إنتاجه وتنشر في صحافتها مقالات الثناء عليه ، كما يحظى بإعجاب الرجال النافذين الذين يهربون له الويسكي ويبسطون حمايتهم على هذه الشقة فلا تطالها أيدي العابثين بأسرار الناس وحرمات بيوتهم ، ولذلك فإن لشعوره بالإحباط ما يبرره ، قلت في نفسي .

حانت لحظة صمت أردت أن أتخذها مناسبة لإخباره بما جئت من أجله ، ولكنني رأيت أن هذه اللحظات العامرة بالأسى على مصير الفنان ، غير ملائمة لهذا الحديث . تدخلت سعاد لإنقاذ الجلسة مما يهدد صفاءها . لم تكن مرتاحة للنقاش ، فانتقلت بالحديث إلى موضوع أكثر إثارة ، وأعادت للتقاليد التي تنبذ المواضيع الثقيلة الجافة ، هيبتها واحترامها :

- هل عرفتم ما حدث اليوم . ضبطوا ولداً وفتاة يقبلان بعضهما خلف جدار المقهى ، فازدحم عليهما الناس وقادوهما إلى مركز الشرطة ، برغم أن الولد كان يقول إنها خطيبته .

- يا للعار والفضيحة ، كيف يقبل الرجل امرأة لم يتزوجها بعد .

قالها عبد القادر أمين ضاحكاً وهو يأخذ قبلة سريعة من سعاد . توالت التعليقات .

- القبلة عار حتى عندما يتبادلها الزوج مع زوجته .

- ها نحن نشهد بداية انهيار المجتمع وفساد أخلاقه .

- يجب أن نهجر هذه القرية التي وصل فيها الفساد إلى حد أن يقبل الولد خطيبته .

أدنت سعاد رأسها مني وسط موجة الضحك والتعليقات ، قائلة :

- لم تعد غاضباً مني .

- لم أغضب منك في أية لحظة من اللحظات .

- لنشرب إذن نخب صداقتنا .

حان موعد الطرب ، فأخذ أنور جلال عوده ، وغنى ونحن نردد معه الغناء :

- من غير حب الدنيا دي إيه

من غير حب نعيش على إيه

عندما انتهت السهرة وخرجت دون أن أجد فرصة لأفاتح أنور جلال بالموضوع الذي جئت الليلة من أجله ، كنت أحس بشيء من الغبطة لأنني سأجد مبرراً لتكرار الزيارة . وبعد أن انتهى المبرر في الليلة الثانية وأخذت من أنور جلال وعداً بالبحث عن مطرب يشارك في الحفل الجامعي ، لم أتوقف عن المجيء للسهرة . داومت على حضورها ليلة وراء الأخرى . جئت في البداية بدافع الإلحاح الذي ألقاه من أنور جلال أكثر مما جئت بدافع الرغبة في السهر والشراب . ثم شيئاً فشيئاً صار المجيء روتيناً يومياً لا أتخلى عنه . حاولت دون جدوى أن أضع حداً لهذا الانغماس في سهر قد يؤثر على علاقتي بسناء . أصبحت أتأخر في الذهاب إليها ، وأقضي معها النهار وأنا أتثاءب إعياءً من قلة النوم ، أو متألماً أشكو الصداع ، وأرى في هذا السهر خذلاناً للعلاقة المبهرة التي تربطني بها ، وظلماً لهذه الأنثى التي أشاعت في نفسي من البهجة مايغنيني عن مطاردة المتعة في سهرات آخر الليل . ثم أنني في هذه السهرة عضو زائد عن الحاجة . لا يقضي المصالح ولا يقدم الخدمات التي يقدما الآخرون . هنا لكل شيء ثمنه ، ولكل عضو من أعضاء السهرة وظيفة يقوم بها إحياء لها ومحافظة على استمرارها . أما أنا فلا خيل عندي أهديها ولا مال . أجلس متفرجاً وأستهلك الشراب والطعام دون أن أجد شيئاً أقدمه بالمقابل . رجل متطفل على عالم أكبر من إمكانياته ومهاراته ،

ومع ذلك أذهب . أقمع مشاعر النقمة على نفسي وأذهب . ما إن ينتهي النهار وأعود وحيداً إلى غرفتي بعد أن أوصلت سناء إلى بيتها ، حتى أجد نفسي مساقاً كالسائر في نومه إلى تلك الدار المدفونة مثل نبع الماء تحت جبل التقاليد بصخوره وأحراشه ، حيث يرتفع نداء الأوتار العاشقة وتشعشع في الرؤوس أبخرة الخمور الفاخرة ، وتسطع اللغة التي تحررت من العلب النظيفة التي نحفظها بها ، محلقة في الفضاء كعصافير غادرت أقفاصها ، كما تسقط التحفظات وأساليب التكلف والافتعال التي تحكم العلاقة بين النساء والرجال ، فيعودون إلى طبيعتهم الأولى ببراءتها وبدائيتها قبل أن تصنع لهم التقاليد أقنعة يتخاطبون بها . ثمة شيء تمتلكه تلك الشقة يرغمني على الذهاب إليها كل ليلة . إن هذه السهرة بكل مباذلها ، أو بسبب هذه المباذل ، تمثل في نهاية الأمر ، تحدياً لمجتمع التزمت والمحرمات وطقوس القيظ والصحراء والجفاف . احتمت بالبحر ، مؤكدة انتماءها إليه ، ورفعت راية العصيان ضد الصحراء . إنها سير في الطرقات الممنوعة ، وكسر لإشارات المرور وعلاماتها الحمراء ، وخروج على قوانين القبيلة وتعليماتها . صرخة احتجاج في وجه مؤسسات اجتماعية وسياسية ودينية ، تسعى كل يوم للاعتداء على الهامش الصغير الذي تبقى للإنسان بعد أن ترك لها كتاب العمر تملؤه بتعليماتها ووصاياها وتعبث به كما تشاء . أعفته من مهمة التفكير ، وقررت بالنيابة عنه صيغة للحاضر والمستقبل ، ثم لم تكتف بهذا كله ، فجاءت تفرض عليه متى يستيقظ ومتى ينام وماذا يشرب أو يأكل أو يلبس أو يكره أو يحب . ولهذا فإن قوة الجذب التي تمتلكها هذه الغرفة أكبر من تلك الاعتبارات التي تطالبني بالامتناع عن الذهاب إليها . ليكن عالماً أكبر مني ، ويحتاج إلى قدرات ومهارات لا أملكها ، فإنه برغم ذلك ، يتكشف كل يوم عن أسرار جديدة تجعلني أكثر فضولاً ورغبة في الاقتراب منه . إنني لأول مرة أخالط رجالاً يتمتعون بالسلطة والنفوذ ممن يرعون هذه السهرة ويضمنون لها الحماية والتموين مقابل زيارات متقطعة ومتباعدة . وما أن تعرفت إليهم ، حتى ازددت إعجاباً بهم واعترافاً بقدرتهم النادرة على تحقيق هذا التعايش الجميل بين الأقنعة والقناعات .

إنهم يقولون كلاماً تنشره الصحف والإذاعات ، يختلف تماماً عن قناعاتهم التي تفصح عنها جلسات السهر والشراب . ومع ذلك فهم يحملون تناقضاتهم فوق أكتافهم ويمضون في الحياة كأنهم شخصيات بيرانديللو التي تبحث عن مؤلف . يعملون سدنة لدى آلهة الأعراف والتقاليد والأخلاقيات ، ويؤسسون في ذات الوقت معبداً ديانته الكفر بهذه الآلهة . ولا يوازي ما يقدمونه من خدمات لضمان استمرار هذه الجلسة ، إلا تلك الخدمات التي يقدمها رشيد غانم وعبد القادر أمين . فرشيد هو رجل البرامج الإذاعية ، الخبير بما يدور خلف الكواليس ، وما يطبخ في مطابخ السياسة . تربى في الإعلام واشتغل به منذ أن كان صبياً يبيع الصحف حتى صار كاتب أحاديث وبرامج ، ومازال وهو فوق الأربعين محافظاً على تقاليد الإعلام العريقة ، إذا سمع مسؤولاً كبيراً ينوي زيارة المقابر ، امتلأت برامجه بتمجيد الموتى واستلهام العبرة من زيارتهم ، وإذا نبذ المسؤول تلك الزيارة أطلق رشيد غانم حملة ضارية ضد الذين يعبدون الموتى ويقدسون الجماجم والعظام . يعرف أخبار المكافآت والهبات والصفقات التي تعقد مع شركات الإنتاج ، وما وراءها من خلفيات وأسرار ، ويعرف أيضاً من هو الأكثر نفوذاً من أصحاب المراكز القيادية فوجب التقرب منه ، ومن هو الذي جاء بشأنه منشور إلى الإذاعة ، يطالب بحجب أخباره ، فوجب الابتعاد عنه . إنه العين التي ترى وتنقل إلى الآخرين ما تراه ، لا يتأثر بتبدل العهود أو تعاقب المسؤولين الكبار ، محافظاً على مواقعه وبرامجه ، قادراً على إرضاء كل مسؤول جديد . يرعى لأنور جلال مصالحه داخل الإذاعة ، ويروج في برامجه لألحانه وأغانيه ، ويقبض الثمن سهراً وشراباً . يتندر على عمله بالإذاعة قائلاً أن ما يقدمه من برامج ليس إلا استمراراً للمسيرة التي بدأها شيخ كفيف ، جاءوا به منذ أكثر من ثلاثين عاماً ليقرأ التراتيل في أول يوم لافتتاح الإذاعة . كان شيخاً مريضاً بالرشح والزكام ، تركوه في غرفة الإرسال التي تبث على الهواء مباشرة ، ووضعوا أصبعه على زر بجوار ناقل الصوت ، وأفهموه بأنه إذا أراد أن يسعل أو يتمخط فما عليه إلا أن يحرك الزر إلى أعلى ليتوقف الإرسال ، ثم يعيده كما كان ويواصل قراءة الترتيل ، ولكن

الشيخ الكفيف فهم العكس ، فصار يقفل ناقل الصوت إذا أراد التراتيل ، ولا يفتحه إلا عندما يتوقف للتمخط والسعال وإخراج البصاق الذي تجمع في حلقه . فصار المستمعون الذين يتحلقون حول أجهزة المذياع ، في أول يوم لمباشرة الإرسال الإذاعي ، لا يسمعون من إذاعتهم الوطنية إلا صوتاً يسعل ويتمخط ويبصق في وجوههم . وهكذا يقول رشيد غانم ، فإن ما يقدمونه من برامج سعالية ، بصاقية ، ليس إلا استمراراً لتلك البداية المباركة التي وضع أساسها شيخ من أهل التقوى والصلاح .

وبرغم أن عبد القادر أمين أصغر سناً من الآخرين . في الثلاثين من عمره أو يزيد بعام أو عامين ، إلا أنه تفوق على الجميع بشبكة العلاقات التي يملكها ويجيد استخدامها . يسمونه «صاحب التدابير» ، القادر على قضاء كل الحوائج ، ابتداءً من تجديد رخصة القيادة إلى تدبير تأشيرة الخروج وتجديد جوازات السفر وتحويل العملات ومن توفير السلع المفقودة في السوق إلى تدبير الأوراق الصحية التي تعفي صاحبها من الخدمة العسكرية . علاوة على القيام بمهمات صغيرة هينة ، تضمن لنجاح السهرة . إذا عز الشراب فهو الذي يقوم بتوفيره في دقائق ، وإذا احتاجت السهرة إلى مزيد من النساء أدار الهاتف فإذا بهن حاضرات . لا توجد إدارة أو شركة إلا وله صاحب يعمل بها ، يقضي له مصالحه . ليس مهماً أن يكون مسؤولاً كبيراً ، فالمهمة التي يقضيها لك حارس صغير بأحد المخازن قد لا يقضيها لك المسؤول الكبير ، وهؤلاء الصغار كما يقول أكثر نجاعة وأرخص ثمناً ، لأن لكل إنسان في عرف عبد القادر أمين ثمناً . وبرغم أنه يعمل موظفاً ، للعلاقات العامة بشركة مقاولات تتبع الدولة . إلا أن المال يجري بين يديه كما لو أنه صاحب تلك الشركة . ابتنى عن طريقها دارة بضواحي المدينة تحيط بها مزرعة ، ويكتري شقة كبيرة قريباً من شقة أنور جلال يأتي إليها بأسرته أثناء النهار ، ثم يعيدهم إلى بيتهم ليلاً لكي يتفرغ للسهر والشراب ومصاحبة النساء إلى شقته في آخر الليل . ولا أدري كيف يستطيع بعد ذلك أن يستيقظ ويذهب إلى عمله ثم يمضي لقضاء مصالحه ومصالح الآخرين . طاقة غريبة من النشاط والحيوية والقدرة على الحركة

والانطلاق في مختلف الاتجاهات ، وخلافاً للقاعدة التي تقول بأن ضابط العلاقات العامة يجب أن تكون له أسنان ناصعة البياض ، يستخدمها في الابتسام والحصول على القبول ، فإن أسنان عبد القادر أمين كانت متهدمة صفراء ، برغم وجهه المليء نضارة وشباباً .

- جادك الغيث إذا الغيث همى

يازمان الوصل بالأندلس

أندلس مفقود . معلق بين السماء والأرض . بين زمن ضائع وزمن لا يأتي . بين وصل لايتحقق إلا في الحلم ، وجفاء لا يأذن بالانتهاء . وأوتار العود تصنع سلماً إلى عالم هزم العالم الواقعي وانتصر عليه ، لا يقوى على صعوده إلا كائن أسطوري جاء إلى هذا الزمان يرتدي في قدميه نعالاً من الضوء .

قلت لأنور جلال عندما التقيت به نهاراً :

- يجب أن تعذرني إذا لم أستطع مواصلة السهر معكم .

كان يجلس في شرفة شقته يقرأ مجلة فنية ، ويشرب القهوة . وكان الوقت قبيل الظهر . كنت قد فكرت فيما يجب أن أقدمه لأكون جديراً بالانتماء إلى هذه المجموعة التي تسطع سهرتها ألقاً وتوهجاً وضحكاً بعد أن تنطفئ الأضواء وتهمد الأصوات في بقية أركان الدنيا . أيقنت أنه لا مكان لي بينهم ، ولا شيء في حوزتي أسهم به في إحياء سهرتهم ، ولا طريق أمامي سوى أن أستقيل .

فاجأته اللهجة الجادة التي تكلمت بها . أقفل المجلة ووضعها بجوار فنجان القهوة . ثم أطبق عينيه الصغيرتين وهو ينظر نحوي نظرة مركزة وكأنه يدرك أن ما يقوله لساني لا يتفق مع حقيقة ما يريده قلبي .

- هل حدث شيء يغضبك؟

- لم يحدث إلا ما يبهجني .

قررت بدلاً من التحجج بالعمل والتعب ، أن أكون صادقاً وأخبره بحقيقة المشاعر المتصارعة في نفسي :

- دعني أحدثك بصراحة . أعرف أن ثمن ما نستهلكه من شراب كل ليلة

يصل إلى مئات الدنانير . وأنا لا أستطيع أن آخذ دون أن أقدم شيئاً . لا أستطيع أن أستغل ما لقيته من كرم أكثر مما فعلت .

- ما بيني وبينك أكبر من هذه الاعتبارات التي لا معنى لها . لا أحد يدفع نقوداً ثمناً لهذا الشراب . إنه يأتي لأصحابه من خارج الحدود . وتصل إلينا قطرات منه ، فما الضرر إذا استعان الإنسان على الدنيا بكأس يحميه من الجنون . إنك تغضبني عندما تقول هذا الكلام .

رآني متردداً في التسليم بمنطقه فأضاف :

- سأكون أكثر غضباً إذا تركتنا الآن بعد أن أخبرتني بالسبب . ثم إنه لم تبق سوى بضعة أسابيع وينتهي الصيف ، فدعنا نترافق هذه المدة القصيرة ولا تقلب المسرة غماً .

مازلت لا أجد تفسيراً لهذا الإلحاح أكثر من أنه وفاء لعلاقة ربطتني به أثناء الطفولة وأراد أن يستحضر ما فيها من صفاء وبراءة في زمن فقد البراءة والصفاء . قلت ضاحكاً وأنا أرى الغضب يلون وجهه :

- مازلت سريع الغضب كما كنت أيام الطفولة .

- إنني لا أقوى على الغضب إلا من الأصدقاء القريبين من نفسي ، أما مع الآخرين فهو ترف لا أقدر عليه .

تأملته قليلاً . وجه حليق لم يفقد برغم الظلال وسامته وصفاء بشرته . أصاب الصلع الجزء الأمامي من رأسه ولكن ما تبقى لديه من شعر ظل غزيراً فاحم السواد . أطاله في سباسب تغطي العنق والأذنين ، وغطى بسباسب أخرى المنطقة العارية من الشعر في رأسه . خطر لي أن أسأله إذا ما كان سعيداً وراضياً عن الحياة التي اختارها لنفسه ، وعن أنور جلال الذي أزاح جمعة أبو خطوة واحتل مكانه . ولكنني بدلاً من ذلك سألته سؤالاً آخر يتعلق بما حسبته تناقضاً بين دراسة دينية امتدت زمناً طويلاً وبين هذه المهنة التي اختارها ونوع الحياة التي يعيشها ، فهل ذهبت كل تلك السنوات التي كرسها لدراسة الدين ، عبثاً .

- قضيت زمناً طويلاً في الدراسة الدينية ، أليس كذلك؟ .

- عشرون عاماً ، نصفها في جامع الباشا ، ونصفها الآخر في الأزهر الشريف .

- وهل ذهبت كل هذه السنين هباء دون أن تستفيد منها بشيء .

- كيف لم أستفد . يكفي أنني خرجت منها بفهم لهذه الحياة التي يقول عنها القرآن ﴿إنما الحياة الدنيا لهو ولعب﴾ .

- وهل هذا كل شيء؟

- وهل تظن أن ذلك شيء يسير ، أو أن الوصول إلى هذا الفهم كان أمراً سهلاً بالنسبة لإنسان مثلي واجه ميراثاً بحجم الجبال وطبقات من الصوان والقصدير التي أرادت أن تقمع الفنان في نفسه . إن اللهو واللعب مطلب عزيز المنال ، لا سبيل إليه إلا بالمعاناة والتعامل الصادق مع الحياة .

ها هو الرجل يطرح تناقضاً جديداً ، ويجعل اللهو والعب الذي جاء في الأثر الشريف باعتباره ذماً للدنيا واحتقاراً لها ، قضية كدح وصدق ومعاناة . إنني معجب بمهارته وهو يستنبط من دراسته للدين الحنيف نظرية في اللهو واللعب .

- وماذا عن الفن؟

- لا أفهم الفن إلا سبيلاً لخدمة وتعميق هذا المعنى الذي يربط الحياة باللهو واللعب .

قالها بمرح يمتزج فيه الجد بالهزل ، ولكن أكثر أغانيه صدقاً تؤكد أن ما يقوله ليس صحيحاً . رأيت أنها مناسبة لكي أعود إلى طرح السؤال الذي تحرجت منه في البداية .

- هل أنت سعيد حقاً بهذه الحياة؟ .

ضحك بإسراف لا أدري إن كان إعجاباً بالسؤال أم سخرية منه .

- هذه أسئلة نتركها لكم أساتذة الجامعات . أما نحن بسطاء الناس فإننا نمضي حيث تمضي بنا الحياة دون أن نقف لنسأل أنفسنا هذه الأسئلة الفلسفية المعقدة عن السعادة ومعناها .

لقد هرب من السؤال ، ولكن لأغانيه طابعاً حزيناً يفضح قشرة اللهو واللعب التي يحاول الاحتماء بها . إنه يسرف في تلحين أغاني المناسبات طلباً للرزق

والأمان ، حيث يتضاءل المستوى الفني وتغيب شخصيته الحقيقية . ولكنه يتبدى خلال أغانيه القليلة الأخرى ، صاحب موهبة وأصالة ، وقدرة على إبداع رؤية فنية خاصة به لا تقتات على التقليد والاجترار .

نهضت لكي أتركه مع مجلته وأعود إلى سناء ، إلا أنه استبقاني قائلاً :

– الآخرون رفاق كأس وألفة ، علاقة لها لون هذه الأيام . أما أنت فأنك شريك في الانتماء لتلك الجذور ، وشاهد على الحرب التي أعلنها عمك أبو خطوة ضد السماء .

كان والده يصنع الجرار والأطباق والقدور وغيرها من أوان فخارية ، ويعطيها لصبيان الحي يسرحون بها بين البيوت مقابل ملاليم يمنحها لهم من ثمن البيع . كنت أحد الذين شاركوا في بيع أوانيه قبل أن يعرف والدي فيمنعني خوف أن يلهيني هذا العمل عن دراستي . أما معركته الشهيرة ضد السماء فقد حدثت عندما كان يجفف أوانيه فوق السطوح . كان يوماً مشمساً من أيام الربيع ثم فجأة ودون إنذار وقبل أن يجد الرجل فرصة لإنقاذ أوانيه ، انهمرت الأمطار وأتلفت الجرار والصحون والأباريق التي لازالت لينة خضراء . خرج العم أبو خطوة فوق سطح البيت ، ومفجوعاً بما حدث لأوانيه ، وقف هناك تحت الأمطار يرفع يديه إلى السماء في تشنج وعصبية ، ويرفع عقيرته صائحاً ، يهدد ويتوعد ويحتج ضد غدر الأمطار وظلم كائنات السماء . صار الموضوع قصة يتندر بها أهل المدينة القديمة ، وعانى الرجل من جفاء الرجال الكبار الذين نبذوه واعتبروه مارقاً على الدين ، فتخلف لزمن طويل عن حضور صلاة الجماعة في المسجد لأنهم رفضوا أن يصلي معهم . ولا شك أنه ما أرسل ابنه بعد ذلك إلى الأزهر منفقاً شقاء العمر من مدخرات قليلة على إرساله ، إلا تكفيراً عن تلك الغضبة العنيفة التي ندم عليها فيما بعد . كان يريد لابنه أن يكون الرجل الذي لم يكنه . ولكن الابن بطريقة ما حقق لوالده حلمه . حقق له رغبته اللاواعية في الثورة على أولئك الرجال الذين نبذوه ومنعوه من الصلاة معهم في المسجد .

كيف لا أذكر عمي أبو خطوة ، قلت لابنه ، وقد كانت النقود التي أخذتها

منه ، ثمن أول قطعة شيكولاته أشتريها في حياتي .

بقيت مع أنور جلال أستحضر بصحبته عالمنا القديم . رأيته يتحدث بحب وحماس عن تلك الجزر التي يغمرها الماء ، فأدركت أن شجن أغانيه يأتي من حنينه إلى تلك الأيام التي لاتزال متوهجة في عروقه ، وأن تلك الجذور هي التي تغذي فنه الآن . بدا لي واضحاً ، أن الطفل المطموس تحت ركام لفافات التبغ وأقداح الشراب وموسيقى الأناشيد الرسمية ، لايستطيع أن يتنفس إلا عندما يدير وجهه بعيداً عن عالم هذه الأيام ، ويستقبل فضاء الذكرى .

انطلق الحديث في معارج أكثر حميمية وإلفة ، فسألته عن أسرته وأولاده . أخبرني بأنه يضع حداً فاصلاً بين حياته العائلية وحياة الفن ومتطلباته . ولذلك فهو يبقيهم بعيداً عن هذه الأجواء . قائلاً بأن له وجهاً آخر شديد المحافظة والتزمت ، ينبئ بأن دراسته الأزهرية لم تذهب كلها سدى . سألني عن سناء وعما إذا كنا قد حددنا موعداً للزفاف ، واعداً بأنه سيأتي بأشهر المطربين لإحيائه . أخبرته بأنني مازلت أنتظر ورقة تتلكأ في المحاكم لا أعرف سبيلاً للحصول عليها . ما إن تأتي حتى نكمل العرس . قال قبل أن نفترق :

– عدني بألا تتخلف عن السهرة ، وأعدك بأن يأتيك بها عبد القادر غداً .

وفي الليلة التالية جاء عبد القادر أمين بالورقة ، في يسر وسهولة جاء بها ودون حديث عن متاعب واجهها في الحصول عليها . لن أحتاج لأن أذهب بعد اليوم إلى ذلك البناء الذي يشبه قلعة من قلاع القرون الوسطي ، بكل ما يثيره من وحشة وانقباض ، ولن أعبر ذلك الرواق المظلم وأشتبك في نهايته مع موظف له ملامح تشبه شبكة العنكبوت . جاء الرجل بالورقة التي انتظرتها طويلاً ، واعتبرتها وثيقة تحرير من الرق . أخرجها من جيبه كما يخرج الساحر من كم قميصه سرباً من الحمام ، لينفتح الأفق ، زاهياً رحباً ، مليئاً باحتمالات الفرح ، وعامراً بأناشيد الانعتاق .

شاركت في وصلة الغناء الشعبي بشهية مفتوحة للمرح والطرب ، ورجعت إلى غرفتي أستعجل مجيء النهار كي أذهب إلى سناء لنباشر من فورنا الإعداد

للعرس ووضع قائمة بأسماء الضيوف . انتهى الانتظار الطويل . لن أحتاج بعد اليوم إلى أن أحارب فورة الدم في العروق كلما رأيتها ترتدي لباس البحر ، فما هي إلا بضعة أيام حتى أراها تتمدد كنهر من الضوء فوق فراشي . ليهنأ إذن شحاذ الرغبة ولينم سعيداً كأي شحاذ بات يدرك أن حلمه بامتلاك الجرة الذهبية سيتحقق بعد أيام .

جاء الصباح وذهبت مبكراً أنقل فرحتي إليها وإلى أمها التي كانت قلقة على مصير ابنتها عندما وافقت على خطوبتها لرجل لم يفك ارتباطه بزواجه الأول . صار من حقها أن تهنأ الآن . لن يكون زواجنا كغيره من مواثيق الزواج . سيكون نهراً يضاف إلى أنهار العالم . وسماءً أكثر بهاء ، نصنع بها سقفاً جديداً للدنيا . عانقت سناء أمام أمها دونما حرج . فسوف تصبح زوجتي بعد يوم أو يومين . ولكن الأم جاءت تتكلم بلغة أذهلتني ، وأخرجتني من دوائر الأحلام التي تبني خيامها فوق أرض الواقع ، إلى واقع أجرد لا يعرف الخيال والأحلام . إنها تتكلم بلسان المجتمع وحقائقه وتقاليده ، فالزواج في عرفها وعرف المجتمع ليس عاشقاً يأتي راكباً فرسه حتى يصل إلى خباء حبيبته فيردفها خلف ظهره ويمضي . إنه أكثر تعقيداً من ذلك . وهي لا تطلب مهراً لابنتها ولا تسأل عن الصداق والمقدم والمؤجل ولكنها تسأل عن أشياء لا يتحقق الزواج بدونها . تسأل عن بيت تعيش فيه ابنتها غير هذه الإقامة الفندقية ، وهي أيضاً لا تريد أن تزوج ابنتها في الخفاء وإنما تريد لها عرساً بمثل ما جرى به العرف في هذه المدينة وبكل ما يحتاجه من ألبسة وحلي واستعداد . ها هي الورقة التي جئت فرحاً أحملها في جيبي تكشف عن وجه آخر للقضية أكثر ثقلاً ومسؤولية . إنني أرفض التسليم السريع بمنطق الأم ، ولكنني في ذات الوقت أحس بحرج بالغ وأنا أعترف بعجزي عن تلبية الالتزامات الكثيرة التي يريدها العرس أو تدبير بيت وتأثيثه في وقت قصير . دافعت عن رغبتي في الإسراع بالزواج الذي أريده أن يكون زواجاً بسيطاً يتفق مع روح العصر ولا يحتاج لأكثر من مأذون وحفل صغير يحضره عدد من الضيوف ، أما تدبير البيت فهو مسألة تأتي مع الأيام . ولكن الأم تضع عينها على المجتمع وما

يقوله الناس ، فهي لا تستطيع أن توافق على تزويج ابنتها بطريقة سرية تثير الشبهات في أذهانهم . أما البيت فكيف أنكر عليها حقها في أن تطلب لابنتها بيتاً يأويها . وكانت سناء أيضاً مع فكرة الانتظار الذي يتيح لنا وقتاً للبحث عن بيت وتأثيثه . رضيت بالتنازل عن فكرة الزواج العصري السريع ، وذهبت في ذات الصباح إلى قسم الإسكان الجامعي ، أقدم طلباً وأضع اسمي في أسفل اللائحة ، في حين انكفأ شحاذ الرغبة يبكي في إحدى زوايا القلب . رأتني سناء مكتئباً وأنا أذهب بها إلى البحر ، فصارت تطمئنني قائلة بأنه ما أن نحصل على الشقة حتى تهون المشاكل الأخرى . ستضم مرتبها إلى مرتبي ومدخراتها إلى مدخراتي لنتمكن من مواجهة نفقات التأثيث ومصاريف العرس ، ولكن هذه الصورة المتفائلة للغد لم تستطع أن تزيل حالة الإحباط التي لازمتني طوال النهار . لماذا تصبح الأشياء أكثر تعقيداً بمجرد أن نضع حساباً للآخرين . إن شيئاً من هذا ما كان ليحدث لو لم تكن نفكر بالمجتمع ، وما جرى به العرف ، وما يقوله أبناء وبنات آوى من سكان البيوت التي تجاورنا . ولكنني أعود وأقول ، لمن يمكن أن تقام الأعراس العظيمة إن لم تقم لامرأة لها بهاء سناء وروعة عينيها وصفاء جيدها ، ولمن تصاغ الجوهرات الغالية وتصنع الثياب الفاخرة إن لم تكن من أجل هذه الأنثى التي تزدهي الدنيا بالنظر إليها . ألست آثماً في حقها ، عاجزاً عن الوفاء بالتزامات حبها؟ . فبأي حق أغضب لأنها سألتني توفير مسكن صغير أقيم فيه مع ابنتها؟ كيف أضع اللوم على الآخرين وأشتم الناس والمجتمع وأنسى نفسي؟ أنسى أنني إنسان بائس ، عاجز ، يتسول الحب كما يتسول السهر والشراب . يريد أن يأخذ دون أن يكون في مقدوره أن يقدم شيئاً .

جاء الليل وجلست مع الساهرين ، مسلماً نفسي للخدر اللذيذ الذي يسري في الجسم مع دورة الكأس . هل فكرت حقاً أن أستقيل من هذه الجلسة؟ كم يبدو سخيفاً ذلك التفكير وباعثاً على الضحك . من أين لي بلحظات أتمتع فيها برفقة هؤلاء الرجال الخارقين الذين حققوا تفوقاً يتفق مع الطفرة الاجتماعية التي جاء بها النفط . إنه موقف يحتوي على مفارقة طريفة . أسكن مع الميسورين في

جناح بمدينة سياحية ، واختلط بأهلها كأنني واحد منهم ثم أعجز عن تدبير شقة كبقية الناس ، بعد أن تخليت في لحظة ضعف عن شقة جاءت بالصدفة من إرث رجل ميت . لم أكن قد فكرت ماذا سأفعل بعد أن تنفذ المدخرات القليلة التي اعتمدت عليها في تأجير هذه الغرفة . استسلمت لإغراء الحياة السهلة ، ونسيت أنني رجل ينتمي لأدنى درجات السلم الاجتماعي ، لا مورد لي إلا مرتبي ، وأتعفف برغم ذلك عن قبول دخل إضافي يمنحه لي عبد القادر أمين الذي يريدني أن أترجم بعض الأوراق والرسائل لشركته ، أو يمنحه لي رشيد غانم الذي يطالبني بأن اترجم لبرنامجه فقرة أسبوعية مقتبسة من المجلات الأجنبية .

شربت بأكثر مما تعودت أن أشرب . تفتحت شهيتي للهو واللعب والحديث عن المفارقات الجميلة في الحياة . أليست مفارقة مذهلة أن تأتي الورقة التي انتظرتها طويلاً وأقمت لها عرساً قبل موعد العرس ، ثم بعد لحظات قصيرة تصبح مبعثاً لإحساس لا حد له بالتعاسة .

– املأ الكأس ، كما يقول عمر الخيام ، قبل أن يجف في كأس العمر رحيق الحياة .

– ما أحوجنا إلى خيام جديد يعيد للكأس اعتباره بعد أن صار على أيامنا مجرماً يطارده القانون .

منعت نفسي من الضحك وأنا أنتبه إلى أن الذي يقول هذا الكلام ، واحد ممن ينسبون أنفسهم إلى العهد الجديد ، ويدافعون في المنتديات عن أطروحات الصدق والنقاء التي تكره السهر بصحبة الخمر والنساء .

– نعم إن لكل عصر خيامه ، وأنا أرشح أنور جلال للقيام بهذه المهمة باعتباره يستمد من الشريعة السمحاء مبدأً يبيح اللهو واللعب .

رمقني أنور جلال بنظرة تنبئ عن عدم ارتياحه لما قلت . إنني أستخدم حديثاً قاله لي على انفراد ، في هذا اللغو الذي يصحب الشراب .

قال بلهجة تحذيرية :

– إنك تشرب بشراهة هذه الليلة ، وكأنك تريد خلافته .

نعم . ولماذا لا أشرب بشراهة . أليس هذا شراباً يأتي لأصحابه من وراء الحدود ، ولا أحد يدفع فيه نقوداً ، فما الضرر من أن يشرب الإنسان كأساً يحميه من الجنون . ثم يضيف إليه كأساً آخر يزيده جنوناً إذا أراد .

توافد على السهرة ضيوف كثيرون كما هي العادة في ليلة نهاية الأسبوع . استنفدوا الكراسي ، حتى صاروا يضعون النساء فوق حجورهم ، واستنفدوا الويسكي فانقلبوا إلى شرب الفودكا . امحت التناقضات بين الجالسين ، وانتظموا في مسبحة واحدة تشع برموز المجتمع المنهار من تجار ومقاولين ، وبناة المجتمع الجديد من أصحاب النفوذ والمراكز الإدارية .

كنت دائماً أتحاشى خلط الشراب ، ولكنها ليلة استثنائية . ومن طلب النشوة استهان بالمخاطر والمحاذير . كأن هارون الرشيد قد تنكر في ثوب عصري وجاءت به جولته الليلية في أحياء المدينة ، إلى سهرتنا . وما هذا الرجل الأسود البشرة إلا سيافه مسرور ، أما الرجل البدين الذي يتحدث بلسان ثقيل كأنه أعجمي لا يعرف اللغة ، فهو ليس إلا وزيره جعفر البرمكي . وأجاد هارون الرشيد التنكر حتى ضللني عن الاهتداء إليه . عرفت رفيقيه وعجزت عن اكتشافه . بقيت أتأمل الوجوه لكي أعرفه وأقوم بأداء واجب الولاء والطاعة قبل أن يأمر سيافه بدق أعناقنا إن لم نسرد له حكاية طريفة تبهجه . كنت أفكر في تلفيق حكاية تنجيني من السيف عندما رأيت رشيد غانم يتزلف للسياف مسرور ، يحسبه من كبار التجار الذين باعوا أملاكهم قبل التأميم وهرّبوا أموالهم إلى الخارج ، معبراً عن أسفه لهبوط سعر الدولار . في حين اختار عبد القادر أمين ، جعفر البرمكي يحسبه من رموز العهد الجديد ، فجاء يشيد ببرامج التقشف التي أعلنتها اللجنة الاقتصادية التي يشرف عليها . مؤيداً سياسة ربط الأحزمة وشدها على البطون . انتابتني نوبة من الضحك لم أستطع ردعها . رآني عبد القادر أنظر إليه فسألني عما يضحكني . لا أدري ما هي الأحزمة التي يمكن أن تربط جوفاً مثل جوفه ، يتسع لحمل المزارع والقصور والسيارات والفنادق السياحية والقوارب المليئة بالويسكي الذي يأتي مهرباً من سيراكوزا . لقد نسيت بسرعة الشيء الذي

أضحكني ، كما نسيت هارون الرشيد ورفيقيه . يجب أن أقول له شيئاً لكي لا يعتبرني مجنوناً .

– إن لي رأساً لا يحتمل اختلاط الشراب .

– وهل هذا هو سبب الضحك .

واصلت الضحك بشكل أكثر صخباً . إنهم يقيمون كرنفالاً للأقنعة ثم يطالبون بتفسير للضحك . قلت مدارياً :

– نعم . إنني أتصور حالة هذا الكأس المملوء بفودكا قادمة من موسكو ، ماذا تراه يقول عندما ينتقل إلى جوفي ويفاجأ بوجود أقداح الويسكي ، رمز الخمور الامبريالية وسيدها .

– لا تخشَ شيئاً . سيحدث بينهما صراع عظيم ، وسيكون مردوده هذه المرة لصالح النشوة التي تغمر الرأس بسرعة مذهلة ، وتجعل الإنسان يضحك دونما سبب .

تعددت الأسباب والضحك واحد . نعم . قلت في نفسي . هذا يحدث عندما يملك الإنسان معدة قادرة ، مثل هذه الشقة ، على تذويب كل المتناقضات .

– أخشى أن يرفض هذا الكأس البقاء هناك والاندماج مع منتجات الأعداء ، فيضطر إلى الرجوع .

لم يكن غثياناً ما أحسست به ، ولكن الرجل ظنني أعني ذلك فقال محذراً :

– يجب أن ترغمه على البقاء وإلا ضاعت السهرة ونحن ما زلنا في أولها .

وأضاف أحد الذين يتولون تمويل السهرة بالشراب :

– واجبنا أن نسعى للاستفادة من عناصر التفوق في مجتمعات الشرق والغرب ، بإرادة قوية ، قادرة على استخلاص أفضل النتائج منهما معاً .

إنه رجل يحتفظ بإرادته حرة ، وموقفه مستقلاً ، وبهذا الوعي يباشر مسؤولية المؤسسة المصرفية التي أسندها له المجتمع .

نعم ، نعم . هذا ما سأفعله الآن . مستخدماً إرادة القوة في إرغام هذا الكأس على البقاء والاندماج مع نقائضه . فمن ذا الذي يستطيع إفساد سهرة تقام فوق

أرض يغمرها الوفاق الدولي والوفاق المحلي ، وتنصب لها خيمة على تخوم مجتمع قديم ينهار ، ومجتمع جديد يولد في الخلاء ، وتمضي بمباركة الاثنين . شقت السهرة طريقها بيسر وسهولة إلى فضاءات اللهو واللعب والثمالة . عزف أنور جلال وغنت سعاد مقطعاً من أغنية «الأطلال» وسط تهليل وإعجاب الساهرين . قال أحد المقاولين القدامى غامزاً ، لزملاء السهرة ممن ينسبون أنفسهم إلى العهد الجديد :

- لا شيء يستحق التمجيد في هذا الزمان سوى الأطلال .

واصلت سعاد الغناء بصوت يجيد حفظ المقامات الموسيقية ولكنه يفتقر إلى العذوبة والصفاء :

- يا حبيباً زرت يوماً أيكه .

ظلت تعيد ترديد هذه الجملة حتى أفاق أحد الحاضرين إلى أنه لا يعرف معنى كلمة «أيكه» ، فقاطعها متسائلاً عما تعنيه . تلقف الآخرون الكلمة يعبثون بها ويحرفونها ويصنعون منها كلمة جنسية بذيئة . توقف العزف والغناء وتفرغ الجميع للضحك والتهريج وتركيب الفكاهات حول هذه الكلمة . وفي حين وضع أنور جلال عوده جانباً واستغرق في الضحك حتى دمعت عيناه ، فإن سعاد لم تكتم غيظها لهذه المقاطعة المهينة لغنائها ، دون أن يعبأ أحد بها وسط الضحك والضجيج . اختفت داخل الشقة ثم عادت وظلت واقفة . أفسحت لها مكاناً بجواري فجلست على حرف الكرسي لا تشارك في الضحك ولا الحديث . وبقي الرجل المصرفي يطالب بمعرفة معنى الكلمة حتى وجد من أخبره به .

- إذن فهي تقصد أن تقول يا حبيباً زرت يوماً بيته .

- هذا بالضبط ما تقصده .

أبدى الرجل اندهاشاً أكثر مما أبداه مثري موليير عندما اكتشف أن ما يقوله من كلام هو النثر . وبقي يردد الكلمة مستغرباً ، ضاحكاً ، معجباً بها ، حتى أيقنت بأنه سوف يستخدم نفوذه لإضافتها إلى قاموس المجتمع الجديد .

ولن نقرأ بعد اليوم كلاماً عن المساكن الشعبية ، ومشاريع الإسكان وأزمة

الإسكان ، وإنما كلام عن الأيكات الشعبية ومشاريع الأيكات وأزمة الأيكات . وما مشكلتي هذه الليلة أيها الرجل الذي يرتدي ألوان الجاه والنفوذ إلا العجز عن توفير أيكة أعيش بها مع امرأتي لكي لا تتقوض حياتي وتتحول إلى أطلال .

كنت ثملاً عندما وصلت السهرة إلى نهايتها . انصرف بعض الساهرين في حين بقي عدد كبير ممن أثملهم الشراب . ولأن الشقة لا تتسع لنومهم جميعاً فقد تولي عبد القادر أمين ترتيب الأمور ودعوة بعضهم للمبيت في شقته . كنت قد تجاوزت عتبة الباب عندما لحق بي قائلاً بأنه سيضطر إلى الاستعانة بشقتي في إيواء واحد أو اثنين من الضيوف . عبرت له عن حرجي ، لأنني لا أعرفهم معرفة تسمح برفع الكلفة إلى حد المبيت معهم في مكان واحد ، ولكن للسهر أحكامه فليختر لي من يشاء . تركني واقفاً في الشرفة ، ثم عاد وهو يسحب سعاد من يدها .

- ما رأيك في هذا الاختيار .

رآني مندهشاً فغمز بعينه وهو يضحك ويبسط ملامحه ويربت على كتفي كأنه اصطفاني لرحلة مثيرة إلى جزيرة أطلنطيس . لقد شربت من شرابهم وجلست معهم في سهراتهم التي تمتد إلى الصباح وكأنني واحد منهم ، دون أن أبدي استعداداً للدخول في لعبة تبادل النساء . لعله اعتبر ذلك خجلاً ، أو غشامة ، أو عجزاً عن التواصل معهن ، فجاء هذه الليلة يسهل لي ما كان صعباً ويختار لي من هذا الفائض عن حاجة الشقق الأخرى ، شريكاً يمكن رفع الكلفة معه والنوم بصحبته في غرفة واحدة . أو لعل سعاد هي صاحبة المبادرة ، وهي التي كلفته بهذا المسعى . وقفت متردداً ، متحرجاً من اصطحابها معي . كانت هي ماتزال واقفة بجوارنا تعلق على كتفها حقيبة جلدية عامرة بنقوش لا معنى لها . ماذا أستطيع أن أقول . أدى الرجل مهمته وعاد إلى ضيوفه وتدبير أماكن نومهم . في حين تحركت بصحبة سعاد باتجاه شقتي . ولكنني سأمتنع عن الاقتراب منها . لتشبك ذراعها بذراعي كما تشاء ، ولتلصق جسمها بجسمي وتحاول تطبيق نظريتها عن التيار الكهربائي الذي يصعد مع الجسم ، فكل ذلك لن

يجعلني أنقض هذا العهد . إنني ضحية تواطؤ بينها وبين رجل التدابير ، ولكنني سأقاوم الغواية حتى لو رفعت درجة التيار إلى حده الأقصى . إنها امرأة شهية . تملك جسداً فتياً وأسناناً تشع بياضاً برغم التبغ والشراب . تحب اللهو واللعب وترديد الأغنيات المرحة . أبدت انفعالاً صادقاً وهي تغني يا حبيباً زرت يوماً أيكه ، حتى أحسست بأنها تقصدني بكلامها ، فتعاطفت معها وتأسفت للإهمال الذي لاقاه غناؤها ، وعبرت لها عن إعجابي بصوتها وأدائها . ها هي تزور الآن أيكتي مكافأة لي على هذا الإعجاب ، وتحقيقاً للحدس الذي راودني عندما سمعتها تغني . ومع ذلك فسأمتنع عن الاتصال الجنسي بها . وإذا أرادت نقوداً فسأعطيها النقود دون أن أقبض الثمن متعة وجنساً . ليس زهداً وإنما حسابات ربح وخسارة . أجد فيها أنني الطرف الخاسر في هذه الصفقة . أعرف الشرخ الذي يحدثه اتصال كهذا ، بعلاقة الحب التي تتمحور حولها حياتي . ولن أكون غبياً ، فأبيع علاقة عمر مع سناء مقابل ليلة لذة مع سعاد . لن اعتبرها نزوة طارئة ، أو لحظة من لحظات العبث واللهو . ستذهب اللحظة أو النزوة وتبقى آثارها تلتصق بالجسد والوجدان . لن أذهب إلى سناء ، ملوثاً بخيانتها . لا لن أفعل ذلك . ها هي تأخذ حماماً . تغسل الجسد من أدرانه القديمة ، وتهيئ نفسها لعرس من الأعراس التي تقيمها كل ليلة . كم رجل تغذى من ثمار هذا الجسد . ولكنه جسد كموائد المعجزات ، التي تطعم كل الناس دون أن ينقص منها شيئاً . وها هو الماء يغسل آثار البصمات ويجعل البدن نقياً ، وجديداً ، مثل تفاحة ذهبية . لرشرشة الماء فوق جسمها إيقاع مثير ومهيج . لن أستسلم له ، مهما دق شحاذ الرغبة الأعمى عكازه بالأرض احتجاجاً . لن أستسلم له أو لها . سأذهب إلى السرير ، سأحاول استدعاء سلطان النوم كي يأتي لإنقاذي هذه الليلة . ولكن للنوم سلطاناً بالغ الغشامة والكبرياء . إنه لا يأتي عندما نستدعيه . هي التي تأتي وقد ارتدت قفطان نوم من الشيفون الأحمر ، لا يغطي شيئاً من تفاصيل الجسد الأنثوي ، وإنما يضيف إليه توهجاً واشتعالاً . نهدان لا غطاء لهما ولا حماية منهما ، وفخ شهي مفتوح ، سأناضل ضده هذه الليلة ، إنها ليلة المفارقات

العظيمة . وأهمها أنني سأختبر الآن رجولتي بالامتناع عن ممارسة الرجولة مع هذه الأنثى . سأعتبرها قطعة أثاث . وسادة . سجادة . شبحاً . دولاباً . أي شيء يستحيل التواصل معه . سأتظاهر بالنوم ، وسأرسل شخيراً عالياً ، مفزعاً ، يخيفها ويوقف هدير الدم في عروقها . ها هي تنضو القفطان عن جسمها ، وعارية تندس في فراشي . تغمرني بعطرها . تحتويني بذراعيها . تنثر أعضاءها فوق جسمي . ترمي شعرها فوق جسدي . تركض الجياد في دمي . لماذا يكون لجسم الأنثى عندما تخرج من الماء كل هذه العذوبة وهذه النضارة . هذا السحر وهذه الغواية . أنهمك في عناقها وتقبيلها . سأطفئ بالتقبيل والعناق هذه الحرائق . سأسكت صهيل هذه الجياد العنيدة الكافرة . سأحاول خداعها . تقديم رشوة لها . حتى تتوقف عن الصهيل . لن أتمادى أكثر من ذلك . ولكن كم مضى من الوقت لم أمارس الجنس . شهر . شهران . ثلاثة أشهر . ربما أكثر من ذلك . لا يهم . ليكن جسمي أرضاً عطشى ، ولتكن هذه المرأة غيثاً يهمي ، فسأمتنع عن الانتفاع بأمطارها . لتكن سحائب خير ، عامرة بالماء والبرق والرعد ، فسأتحول إلى أرض صخرية هذه الليلة لا تشرب الماء ولا تنبت الزرع . امرأة خبيرة بممارسة الحب ، تثبت لي في كل لحظة أنها ابنة مهنتها التي تحيل العملية الجنسية إلى صراع تخوضه بالأظافر والأسنان بمثل ما تستخدم النهدين والشفتين واللسان للفوز بما تريد ، تئن وتتوجع وتنتفض ارتعاشاً كأن تيارها الكهربائي ارتد يصعقها . وأنا أرفع راية التسليم أمامها ، وأمشي مغمض العينين شبقاً وشهوة ، يقودني شحاذ الرغبة الأعمى إلى فخها .

غمر الهدوء الدنيا فلم يبق إلا حفيف الأنفاس . بقيت مستلقياً بجوارها ، أدخن سيجارة من سجائرها ، وأراقب الدخان الذي يخرج من فمي وهو يسلك طريقاً متعرجاً حتى يلتقي بدخان السيجارة التي تدخنها . يشتبكان معاً ويصنعان شكلاً هلامياً ، سرعان ما يذوب في فضاء الغرفة . ولم أكن نادماً . لم أجد في نفسي أي أثر لمشاعر الخيبة والخذلان . إنني لم أرتكب إثماً . لم أقع ضحية لمؤامرة من أحد . بدليل أنني لا أحس الآن إلا بالنشوة والرضا . إنني لا

أنظر إلى ما حدث باعتباره غواية . أو خيانة للمرأة التي أحبها . إنه استجابة لعرض سخي من امرأة شهية مغرية . لا تشكل عبئاً ، ولا تطالب بعلاقة دائمة ، ولاتضع نفسها موضع المنافسة مع سناء . ما تسعى إليه هو اقتناص لحظة من لحظات النشوة تكتفي بها ، ثم تمضي مع الليل الذي منه تأتي وإليه تعود . إن استجابتي لها تمنحني علاجاً لمشاعر الإحباط التي أحسست بها عندما اكتشفت أن زمناً طويلاً سوف يمضي قبل أن ألتقي بسناء في غرفة نوم واحدة . فلماذا ألوم نفسي ، وألوم هذه المرأة التي جاءت لإرضاء جسد لم يجد في علاقة الحب التي تربطني بسناء سوى الإهمال .

وعندما جاء الصباح لم تتغير مشاعري . كنت مدركاً أني وصلت إلى تبرير مقنع لسلوكي . والجسد الذي وجد نفسه مقذوفاً في معركة الجنس ليلة البارحة لم يكن إلا جسدي ، ولكنه مارس إرادته بمعزل عن إرادتي . منفصلاً عن عواطفي . يؤدي وظيفة بيولوجية كان لابد أن يؤديها من أجل الحفاظ على حيويته وعافيته . عملية أشبه بعمليات فصد الدم . لا علاقة لها بالحب والعاطفة .

كنت أقود سيارتي ، ذاهباً إلى سناء عندما باغتني ذلك السؤال الذي صرت أقلبه في رأسي وأنا أحس بالفزع والارتباك . ماذا لو عرفت سناء بما حدث؟ إنه افتراض بعيد الاحتمال ، قلت في نفسي ، لأنها لا يمكن أن تعرف . لا يجب على الإطلاق أن تعرف سناء بما فعلته ليلة البارحة ، لأنني لا أقوى على تخيل النتيجة . ولكن ما هو ذلك الشيء الذي يبقى في نفوسنا بحيث تستطيع المرأة التي نحبها أن تهتدي إليه منذ اللحظات الأولى . لأن هذا ما أحسست به وأنا أصل إلى سناء وأجدها تنتظرني أمام عتبة البيت . فتحت لها باب السيارة ، فجلست بجواري وهي تنظر نحوي وكأنها تبحث عن شيء ناقص . وبشكل لا إرادي تفقدت ملامحي في مرآة السيارة . تبسمت .

لم تسرق المرأة أهدابي أو حواجبي أو سناً من أسناني . كان كل شيء في وجهي ثابتاً في مكانه . أسرفت في التعبير عن عواطف الحب لسناء ، واعتذاري لأنني تأخرت في المجيء إليها . كنت أريد أن أشغلها عن الموضوع الآخر . ولكنها

تعرف بغريزة الأنثى أنني ارتكبت إثماً في حقها . إذ من أين جاء هذا الشك الذي أراه في عينيها . لعله ليس شكاً . وإنما إحساس بالذنب باغتني وأنا ألتقي بها ، وجعلني أسقط مشاعري على مشاعرها ، وأتوهم أنها هي التي ترتاب في سلوكي . ظننت منذ لحظات أنني جئت مهيأً لها ، متصالحاً تمام المصالحة مع شحاذ الرغبة الأعمى الذي أوقعني في هذا الفخ . فلماذا أبدو الآن ضعيفاً ، غير قادر على النظر في عينيها . استعدت شيئاً من توازني عندما وصلنا وبدأنا نباشر استعدادنا للنزول إلى البحر . ولكن صوتها جاء فجأة يحمل نذر الهلاك ، عندما قالت :

- ما الذي حدث ليلة البارحة؟

ألقت سؤالها وهي تتفقد وجهي كأنها تقرأ كتاب الفضيحة منشوراً على جبيني . كانت اللهجة التي قالت بها السؤال لهجة ودودة وهادئة ، ولكن هذه البطانة من الود التي تشبه دهاء المحققين لم تمنع رعشة تشمل جسمي . هل لهذه المرأة بصيرة تخترق الحجب والمسافات وترى مثل زرقاء اليمامة ما لا يراه الآخرون . كنا قد اقتربنا من الشاطئ . وكان البحر هائجاً ، والموج يضرب الصخور ضرباً عنيفاً صاخباً ، والرذاذ يصل إلى وجهي ويملأ فمي بالملح . كدت أرتمي منهاراً تحت قدميها أطلب المغفرة . ولكنني تمالكت نفسي وابتلعت ريقاً ممزوجاً بأملاح البحر قبل أن أقول :

- ما الذي حدث؟

أعدت إليها السؤال متصنعاً الدهشة والبراءة ، مدركاً أنها سوف تكشفني وتفضح أسرار الليلة الماضية .

- يبدو واضحاً أنك أفرطت في الشراب .

كانت آثار ما استهلكته من خمور امتزجت فيها مهارة الشرق بمهارة الغرب ، مازالت معي ، تملأ عيني بالتعب ورأسي بالصداع . ولكن هل هذا كل شيء . أليس هناك شيء آخر تريدين أن أخبرك به . الحق أقول لك ، أنني أسرفت كثيراً جداً في الشراب . فعلت ذلك وأنا أحبك . وذهبت مع تلك المرأة إلى الفراش وأنا

أحبك . وعدت منها وأنا أحبك . لا شيء مني تبقى معها . ولا شيء منها تبقى معي . لأنني لا أنتمي لأحد إلا لك . ولا أعترف بمركز للكون إلا أنت . ولا محوراً تدور حوله الأرض غيرك . أنت المبتدأ والمنتهى بالنسبة لي ، فلماذا إذن تتأملينني بهذه النظرات الغريبة ، التي تبحث عن شيء مفقود . ما الذي تجدينه ناقصاً من أجزائي ، إنني أعود إليك كما تركتني بالأمس . جسداً ، وروحاً ، ومظهراً ، وجوهراً ، وشوقاً لا ينقص بل يزيد . أردت صادقاً أن أسألها عما تراه قد تبدل في عواطفي نحوها . ولكنني كنت عاجزاً عن الكلام . إحساس بالضآلة يداهمني . ما أنا إلا إنسان تافه ، تافه . يجب أن أعترف بذلك وأعلنه للدنيا . إنسان لا يعرف قيمة هذه المرأة . ليس جديراً بها ولا كفؤاً لها أو لحبها . وإلا كيف طاوعتني نفسي على فعل ما فعلت . هل كان ذلك حقاً مجرد إطفاء لحرقة الجسد . ولكن الجسد مازال يتحرق شوقاً لوصالها . ولن يحقق ارتواءه الحقيقي بعيداً عنها . تخوم هذه المرأة ، جسداً وروحاً ، هي تخوم العالم المشتهي ، الذي لا أعرف كيف أقترب منه ، أو أتعامل معه ، أو أحافظ عليه ، لأنني بعبارة واحدة ، لا أستحقه . أهنت نفسي عندما أهنتها ، وغدرت بمشاعري عندما غدرت بها ، ولا سبيل إلى التطهر والخلاص إلا بأن أخبرها بما حدث . أتوسل بالصدق والصراحة سبيلاً لمحو الإثم والإهانة . أجلس على كرسي الاعتراف كما يحدث في كنائس الروم وأسرد ما حدث بتفاصيله وظروفه ، كوسيلة ألتمس بها الصفح والغفران ، وأعيد بها النقاء لعاطفة لم أعرف كيف أحميها من التلوث . ومرة أخرى أجد نفسي عاجزاً على الارتفاع إلى شموخ هذا الموقف ونبله . كل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أنسى ما حدث . أنساه نهائياً . أرمي به في ركن مظلم من ذاكرتي بحيث يختفي تماماً من منطقة الوعي . كنت قلقاً . والموج الذي يضرب الصخر ويصفعني برذاذه ، انتقل بكل عنفه إلى صدري . لم ينقذني من مشاعري إلا دخول سناء إلى البحر . كانت الريح قد أطاحت بالشمسية المغروسة في الرمال ، فأعدتها إلى مكانها واتكأت تحتها . أردت أن أثنيها عن فكرة السباحة الآن ، وانتظار سكون العاصفة وهدوء البحر ، ولكنها نفضت رأسها ومضت مثل

مهرة جامحة ، تقذف بجسمها بين الأمواج . تركتني أمسك كتاباً وأتعارك مع الريح التي تضرب صفحاته ، وركضت كأنها موجة ، ترتمي في أحضان الموج وتلتحم به ، ترتفع مع ارتفاعه وتهبط مع هبوطه حتى تغيب تحت الماء وتذوب في امتداده الأزرق . طويت الكتاب وصرت أراقبها وهي تواجه هذه الكتلة الهائلة من الهيجان والشراسة ، جزعاً عليها ، ومعجباً في ذات الوقت بقدرتها على المجازفة وركوب الأخطار .

كان عدد السابحين قليلاً . ستة أو سبعة ، يعومون متجاورين قريباً من الشاطئ . وعلى مدى الأفق كانت هناك سفينة تقف في نقطة ما ، حيث تصطدم أشعة الشمس اصطداماً عمودياً بماء البحر ، وتصنع انعكاساً يتوهج ويجعل السفينة كتلة من الضياء وكأنها إحدى مراكب الشمس . وسناء تمضي بعيداً مع الموج ، ترحل مع المد ، وتتوغل في عمق البحر ، كأنها ابنة الشمس تسعى للحاق بسفينتها . رأيتها تغيب عن بصري ، فتركت الاتكاء تحت الشمسية ، ونهضت واقفاً لكي أستطيع أن أتابعها . وقفت على حافة الماء ، مسفوعاً برذاذ الموج ، ومملوءاً بإحساسات الخطر والفجيعة . صرخت بأعلى صوتي :

ضاع صوتي وسط هزيم الأمواج وضربات الريح .

- إنه الجنون .

ابتعدت سناء داخل البحر . نقطة تظهر وتختفي تحت ركام الموج . وصوتي يضيع مرة أخرى وسط الضجيج الذي يصنعه البحر . ما الذي تفعله هذه المرأة بنفسها . إنها تدخل منطقة لم أرها تصل إليها حتى أثناء هدوء البحر . لعل التيار الشديد هو الذي يدفع بها بعيداً ، وهي تحاول العودة فلا تستطيع . لعلها تصرخ الآن وتطلب النجدة فيضيع صوتها وسط الهدير . لابد أن أفعل شيئاً . الآن وقبل فوات الأوان . أريد أن أرى رجل إنقاذ أستنجد به . لماذا يختفون عندما نحتاج إليهم . سأذهب للبحث عنهم . إنها لاتزال نقطة بعيدة وسط هذا الزبد وأقواس الماء . ثم بدا وكأن النقطة توقفت في مكانها . لا ، بل هي تعود . ببطء شديد تقترب . تنفست بارتياح . لم تكن تواجه خطراً . وقفت أنتظرها وهي تشق الموج

باتجاه الشاطئ ركضت نحوها عندما اقتربت . قاومت عنف الأمواج وذهبت إليها . كنت أريد أن أشاركها جزءاً من طعم المغامرة . أن أحس بإحساسها . أن أقترب قليلاً من معاناتها وهي تصارع الموج حتى من هذا الموقع الآمن ، ومن هذه المياه الضحلة . وضعت يدي في يدها وعدنا سوية للارتماء بجوار الشمسية . اكتشفت أنني دخلت إلى الماء ممسكاً بالكتاب الذي كان معي . لم أتأسف عليه وأنا أراه منقوعاً في الماء وغير صالح للقراءة . فقد كان من كتب المقرر الذي أتولى تدريسه . ومنهكة أخذت المنشفة تمسح الماء عن وجهها وشعرها وجسمها . الصدر يرتفع وينخفض ، شهيقاً وزفيراً وإجهاداً ، ولكن الوجه يفيض إشعاعاً ، والعينان تشرقان بابتسامة مضيئة ، وكأنها لم تواجه صراعاً مهلكاً ، كأنها رأت أثناء دخولها إلى البحر ، مدناً سحرية ، مطمورة تحت الماء ، لم تكشف أسرارها لأحد سواها .

تأملتها وهي تسير أمامي في طريق عودتنا إلى الشقة . مبللة الشعر ، معفرة الزندين بذرات الرمل ، يتلألأ مرمر كتفيها تحت التماعات الشمس ، وتتسلق إحدى ساقيها عشبة من أعشاب البحر ، التصقت بسمانة الساق كالوشم الأخضر . أحسست مرة أخرى بضآلتي في مواجهة هذا الألق والشموخ . هذه القوة الملتهبة ، التي تخترق عنف المدي الأزرق ، وتتسلق جبال الموج ، وتعود موشومة الساق بإشارة النصر التي أهدتها لها آلهة البحر . إنني لا أجيد السباحة مثلها ، ولا تربطني علاقة حميمة بآلهة البحر مثل العلاقة التي تربطها بها ، وما كنت لأواجه بحراً شرساً حتى لو كنت أكثر خبرة بالعوم منها ، لأنني منذ البداية أحمل روحاً يسكنها الخمول ولا تبحث إلا عن الأمان . ولكن لماذا أقسو على نفسي إلى هذا الحد . لتكن ماهرة في السباحة ، واثقة من قدرتها على مغالبة الموج ، فلماذا يثيرني تفوقها ويملؤني إحساساً بالنقص . هل أخشي أن يكون ما فعلته استعراضاً متعمداً للقوة ، وتحدياً تقوم به امرأة المياه العميقة لرجل المياه الضحلة . هل يستفزني أن أراها وهي الأنثى تتفوق في رياضة عضلية ، لا أستطيع مجاراتها فيها ، ويغيظني ذلك بسبب شوفينية رجالية لا أستطيع أن أتحرر منها . لعل هذه الشوفينية هي التي جعلتني أزهو ليلة البارحة بامتلاكي لجسد

امرأة أخرى ، وأتخذ منه ميداناً لاختبار قدرتي على غواية النساء ، ناسياً أن المرأة لم تكن إلا امرأة عامة . لعلني فعلت ذلك بدافع التحدي لها ، ولكي أثبت للرجل الذي ينحدر من سلالات الفحول الذين يقسمون بذقونهم وشواربهم ، أنني مازلت سيد نفسي ، ولست مجرد عبد لهذه المرأة . كنت دائماً أشعر بالنقص أمامها ، وأرى نفسي ذرة تدور وتذوب في دائرة الضوء المحيط بها . إنها الجانب الأقوى ، والأكثر طغياناً ، وجمالاً ، وقوة جاذبة ، مسيطرة . وما فعلته لم يكن إلا إصراراً على تأكيد الذات التي تنمحي في حضورها . الآن وأنا أسير بمحاذاتها ، وأتخلف أحياناً عنها ، عاجزاً عن مجاراة خطوها الراكض . تسفعني الريح وتضرب رأسي الشمس . الآن وأنا أراها تخرج من هذه المغامرة بوجه يسطع بزهو الانتصار ، أستطيع أن أدرك بالضبط مبعث سلوكي ليلة البارحة . بل إنني أعرف على وجه اليقين أنني أنا الذي استخدمت كل مواهبي في استجداء الحب ، متوسلاً لسعاد أن تمنحني حسنة لله . أبديت اهتماماً خاصاً بها منذ بداية السهرة ، وبالغت في إظهار الإعجاب بغنائها ، وما إن وجدت فرصة لأدنيها مني ، حتى قفزت على الفرصة وأفسحت لها مكاناً لتجلس ملتصقة بي وأنا ملتصق بها أبثها كلمات الإعجاب والافتتان بجمالها . كنت طوال الوقت أسعى إليها تمهيداً لما انتهت به ليلتي معها . ولم يكن ما حدث ، تدبيراً منها أو من صاحبها كما أحببت أن أبرر لنفسي هذه الخطيئة . لابد أن شيئاً في سناء كان يستفز جانباً غامضاً في نفسي . جانباً ، ظل وبرغم دفقة الحب المضيئة التي جاءت تغسلني وتطهرني وتعيد خلقي إنساناً جديداً متحرراً من أمراضه المزمنة ، بعيداً عن منطقة الضوء ، متحصناً بصمته وظلامه ، مرتعباً من قوة هذا الحب . أعرف إلى أي مدى أحبها ، ولا أرى للحياة معنى بدونها ، ولا شك أن هذا هو بالضبط ما يستفز ذلك الجانب الغامض في نفسي الذي جاء يدفعني إلى استخدام هذه الحيلة الرخيصة التي لا تدل على القوة وإنما على الضعف واليأس ، أرد بها الاعتبار لكيان ينسحق ويتلاشى أمام طغيان هذا الحب . لم أجد شيئاً آخر أفاخر به وأسعى لتأكيد ذاتي الرجولية من خلاله إلا عضو الذكورة أرفعه في مواجهة

هذا الفيض الغامر السخي من حبها الذي داهم حياتي كسيول الفرح . ذلك العضو الذي كدت أفقده ، وأفقد حياتي بسببه أثناء الختان على يد حلاق غشيم ، هو الشيء الوحيد الذي لا تملكه سناء ، وبه وحده أعلن انتصاري وأرضي سلالة الفحول الذين ينتحبون في صدري . منعت جسمها عني ، فجئت أحارب تطهرها بتلويث امرأة أخرى ، ظناً مني أنني أقوم بتلويثها هي .

كنت ناقماً على نفسي ، مدركاً أنني لم أعرف كيف أحب هذه المرأة . وأن حبي لها جاء ناقصاً ، مريضاً ، لأن شيئاً في نفسي قد أصابه العطب ، وأضحى مشوهاً لا يقوى على الحب . ورياح القبلي بصهدها اللافح ، تأبى إلا أن تواصل العواء ، تكتح ترابها في صدري وترفض أن تتيح لي فرصة أن أحقق أدنى درجة من الانسجام مع الدنيا التي حولي .

انتهى النهار مبكراً . انتهى دون أن أنظر في عيني سناء لأعرف إن كانت قد صفحت عني . لم يعد يهمني أن أعرف كيف تنظر لي . ما يهمني الآن هو كيف أنظر أنا إلى نفسي . كان حرياً بهذا الحب أن يمنع عني أمراض الروح وانشطار الذات ، ولكن ماذا يمكن أن يفعل عازف الناي الماهر مع قصبة كثرت شقوقها وأصابها العطب . مهما سكب العازف من أنفاسه الحاذقة المضمخة بعبير الإلهام ، فلن تصدر عن الناي إلا أصوات ناشزة . أردت أن أعاقب نفسي هذه الليلة فامتنعت عن الذهاب إلى سهرة أنور جلال ، حارماً نفسي من قطرات خمر أمسح بها ماتركته رياح القبلي في رأسي من غبار . ولكي لا أتراجع عن هذا القرار هاتفت محموداً أذكره بموعد الزيارة وأتفق معه على لقاء هذه الليلة . جلست بشرفة المقهى أنتظر مجيئه . سكنت الريح وجاءت أنسام الليل ورائحة البحر تطرد قيظ النهار . وشرفة المقهى المطلة على الشاطئ تمتلئ برجال ونساء يشربون القهوة وعصير البرتقال ، ويصنعون بكلامهم كتلة هلامية من الضجر واللامعنى . سيأتي مصحوباً بأخي ، كما أخبرني . ليأت أخي إذا شاء ، فلم أكن البادئ بالقطيعة . ولكن ما الذي أريده منهما . إنني لم أطلب محموداً إلا تحصيناً لنفسي من غواية تلك الجلسة . ليتني اخترت للقائهما يوماً آخر . مزاجي مازال سيئاً . أحدق في

الظلام وأراقب على البعد أمواج البحر وهي ترتطم بصخور الشاطئ في عراك بدأ مع بداية الكون ولن ينتهي إلا بنهايته ، فأدرك كيف يصبح المكان وعاء للزمن اللانهائي ، وأسمع ألسنة الماء تقول كلاماً عن تفسخنا السريع في هذا الوعاء . أرى منارة تبرق في جوف البحر ، فيستيقظ في ذهني الحنين إلى عالم مجهول ، أبعد من هذا المدى الذي تحتكر اضطهاده وتعذيبه رياح القبلي . استغرقتنا كلمات التحية عند وصولهما ، وسألت أخي عن أطفاله فأجاب معاتباً :

- أما كان يجب أن تبدأ بالمصالحة وتأتي لزيارتي وزيارة الأسرة وأنت الأخ الأصغر .

ضحكت لما تثيره صفة الأخ الأصغر من تداعيات لا تتفق مع التناقضات التي يحملها رجل شاهد ما يحدث في الدنيا منذ ألف عام . سألني عن حالي ، فقلت متجاوزاً الحديث عن أسباب الجفوة :

- أبحث عن شقة أكتريها بعد أن جعلتماني أفقد شقتي .

وبسرعة التقط محمود الخيط ، ليصنع قيداً يكتفني به :

- إنها ماتزال موجودة ، ولن يحتاج الأمر إلا إلى إشارة منك ، حتى تعود لك الشقة والزوجة .

ضحكت هازئاً فواصل الحديث :

- لم تكن المسكينة تريد الشقة . كانت مجرد وسيلة ضغط من أجل أن تعود إليها .

- سأقبل شاكراً أن تعيدها لي .

- من حقها الآن أن تتوسل بها للحصول على زوج .

- زوج مقابل شقة مفروشة . لو نشرت بذلك إعلاناً . في صحيفة دولية لانهالت عليها الطلبات من كل عواصم العالم .

- ألست نادماً على التفريط بها؟

- الشقة؟

- لا ، فاطمة .

استغربت عندما رأيت أنني أحتاج إلى قوة تركيز شديدة حتى أستعيد شكل ملامحها . لقد انمحت صورتها من ذاكرتي . ولم أكن هازلاً عندما سألته مستفسراً :

- فاطمة؟ من فاطمة؟

حل بيننا الصمت . جلست متوجساً . خائفاً . متحفزاً للعراك لو ذكروا سناء بسوء . رأيتهما يتبادلان النظرات فازداد حذري . تحولت إلى كتلة من الأعصاب المشدودة . لن أطيق أن أسمع كلمة واحدة مما سمعته سابقاً منهما . رأيت أخي يهم بالكلام فتهيأت لإسكاته . ولكنه جاء يقول كلاماً مخالفاً لما توقعت . إنه يبدي أسفه لمعارضتي ، واحترامه لحقي في اختيار المرأة التي تكون شريكة حياتي . وهو لا يريدني أن أشقى بحثاً عن الشقة ، لأن بيته الكبير لن يضيق بعائلة صغيرة مثل عائلتي . شكرت له عطفه قائلاً :

- إن كنت تريد عوني فابحث معي عن شقة من بين المساكن التي توزعها الدولة على الفقراء .

تصورت للحظة أن هذه المباركة العائلية لزواجي من سناء ، سوف تبهجني ، ولكنني لم أشعر بأية بهجة . انزلقت كلماته على ذهني دون أن تترك أثراً . إنه لا يقولها عن اقتناع وإنما اعترافاً بالأمر الواقع . لم تكن معارضته تزيدني إلا عناداً ورغبة في التحدي . كانت جزءاً من الرياح التي أملأ بها أشرعتي مبحراً في رحلة مقدسة إلى جزيرة تسطع بالنور خلف بحر الظلمات . مازالت هناك رياح كثيرة في أشرعتي ، ولكنني سأفتقد عون أخي . كنت أريد أن أستعيد دور والدها وهو يقاوم الدنيا من أجل أمها ، ويصنع حباً استثنائياً يدخل ذاكرة التاريخ ويصير حديث الناس لأعوام طويلة . ولكن أخي يقطع الآن على حبنا فرصة أن يكون حباً عاصفاً ، متطرفاً ، إلى حد معاداة الأهل والمجتمع ، ويحيله إلى قصة حب عادية ، يحدث مثلها كل يوم بين أولاد وبنات المدارس . ضحكت من هذه المشاعر التي أثارتها في نفسي موافقة أخي . ولكي لا أكون ماسوشياً يتلذذ بالعذاب والمعاناة ، أعطيت مشاعري تلويناً آخر . إنني لا أبتهج لموافقة أخي لأن حبي لسناء ينتمي

إلى دائرة أكثر اتساعاً من هذه الدوائر المحدودة المقفلة ، التي نسير فيها بحكم العادة والتكرار والمألوف . إنه حب فوق هذه الاعتبارات التي تفرضها الحياة اليومية بروتينها وتفاهتها . وهو أكبر من هذه المعايير الصغيرة التي تعودنا أن نختبر بها أفكارنا ومشاعرنا ونقيس بها قضايانا الملتصقة باحتياجاتنا الأرضية . ورغبة في تغيير الموضوع سألت محموداً عن أخبار الجامعة . لم تكن تلك الأخبار حقاً تعنيني ، ولذلك ألقيت السؤال بإهمال . ألقيته وأنا أنظر إلى امرأة تجلس إلى طاولة قريبة تلعق الأيس كريم وتدغدغ مشاعري بحركة لسانها . تحدث محمود عن مظاهر الاستعداد للعام الجديد وعن المدرسين الذين صاروا يداومون على الحضور . ثم استخدم صوتاً أكثر خطورة وهو يقول :

- صارت الإدارة تبدي حزماً شديداً مع الأساتذة المتهاونين ، وعليك أن تحترس .

لا بد أن ما يشدني إلى محمود ويجعلني أحتفظ بصداقته منذ التحاقنا بالجامعة ، هو هذا التباين في نظرتنا للحياة . يكاد الرجل أن يكون نقيضاً لي . الحياة بالنسبة له خط مستقيم يقيسه بالمسطرة كل يوم ولا يحيد عنه شمالاً أو يميناً . المحافظة الصارمة على مواعيد الدوام . الحرص على تطبيق المنهج تطبيقاً حرفياً كما حددته لجان المناهج . الالتزام الكامل بالأوامر والتعليمات واللوائح ، رغم كثرتها وتناقضها إلى حد أن أحداً لم يعد يعبأ بها إلا محمود الذي يبدأ يومه بالوقوف أمام لوحة الإعلانات لكي لا يفوته أي منشور جديد . وهو لا يفعل ذلك تزلفاً أو طمعاً في منصب أو ترقية ، فقد ظل بعيداً عن المزايدات التي يعقدها الطامعون في المراكز . يفعل ذلك كله بصدق وبراءة ، ويمضي في الدنيا وهو يعلق في عنقه ناقوساً يدق كل لحظة لكي لا يحيد عن الواجب والنظام ، دون أن يبدي تذمراً لغياب الثناء والتقدير ودون أن يراجع موقفه وهو يسمع زميلاً لنا ممن ضربوا رقماً قياسياً في الفوز بالبعثات والمهمات إلى الخارج وما يتبعها من مزايا ومكافآت ، يفتخر أمامنا بأنه أحصى ساعات العمل الحقيقي التي قدمها إلى الجامعة خلال عشرين عاماً من خدمته أستاذاً بها ، فوجد مجموعها تسع ساعات

ونصف . وبمثل ما هو موظف في الجامعة فإن محموداً لا يرى نفسه في البيت إلا موظفاً على خانة زوج . لم أره يتحدث عن مغامرة أو سهرة نسي فيها نفسه . أو يشير حتى من باب المداعبة إلى امرأة أخرى يتمناها أو يشتهيها . يسعى لإرضاء زوجته بمثل ما يسعى لإرضاء رئيسه ، ويستثمر وقته الإضافي في الترجمة التجارية لتأمين مطالبها . يرتدي ابتسامته ويمضي سعيداً بانسجامه مع الدنيا . كأننا نعيش في كون خلا من المشاكل والهموم وتحولت فيه الفوضى إلى نظام صارم دقيق . إنني أحبه لأنه إنسان لا أستطيع أن أكونه ، ولعله احتفظ بصداقتي لأنه لايستطيع أن يكون طائراً يغرد خارج سربه كما أفعل أنا . نمشي في خطين متوازيين لايتصادمان ولا يلتقيان . كلانا محكوم بتكوينه . بجينات يحملها ، وأسلاف يرحلون في دمه ، وأضواء وظلال وأصوات وأطياف ، أحاطت به منذ ميلاده وصنعت عقله ومزاجه . قلت مداعباً ، أرد على تحذيره ، وأمد بصري إلى المنارة البعيدة التي تلمع وسط سواد البحر :

- متى يجعلون النفي إلى مالطا عقوبة ينزلونها بالأساتذة المهملين ، لكي أكون أول المنفيين .

ولكي لا أكون أستاذاً مهملاً يستحق عقوبة النفي إلى جزيرة لا يرتفع فيها الأذان ، فقد ذهبت مع مجيء الصباح إلى الجامعة . اصطحبت معي سناء وجلست بجوارها في قاعة المسرح الجامعي أرقب التمارين التي يجريها الطلاب استعداداً للحفل . توالت الفقرات الموسيقية والغنائية وجاء أصحابها يطلبون رأيي فلم أجد ما أقوله سوى كلمات التشجيع ، ولكن سناء ترى أخطاء لاأستطيع أن أراها ، وتلتقط النغمة النشاز فتهمس لي برأيها . سألتها أن تتولى بنفسها إبداء ملاحظاتها للطلاب بعد أن حاولت نقلها إليهم بطريقة محرفة . كان لها رأي في كل شيء تراه ، فالبرنامج يجب تغييره ، ومطرب الإذاعة ينبغي أن يكون آخر من نقوم بتقديمه ، وكلمات الخطابة التي تستهلك نصف الوقت لابد من إلغائها كلها ، وأخطاء العازفين جاءت من كونهم يختارون أغنيات ذات مقامات صعبة ومعقدة ، بدلاً من أغنيات سهلة وبسيطة يمكن حفظها . أحاط بها العازفون لكي تصحح

لهم أخطاءهم ، والمنشدون الذين تذكرهم بالأغاني التي لا يجيدون حفظها . كنت مندهشاً لهذه البراعة التي استولت بها على اهتمام الطلاب ، وهذا الفهم لميدان ، وإن كانت تحبه إلا أنه بعيد عن مجال تخصصها . لم أشعر بأي ضيق وأنا أرى نفسي مهملاً ، مهمشاً ، بعد أن تحول كل الاهتمام إليها . كانت قد صعدت إلى خشبة المسرح وبدأت تدندن موشحاً أندلسياً لكي تحفظه المجموعة الصوتية المكونة من أولا وبنات ، عندما وقفت لكي أذكرها بالوقت .

- يا هلالاً غاب عني واحتجب .

نسيت الوقت ، وعدت إلى الجلوس أتابع الغناء . إن سناء لا تبدي كل هذا الاهتمام وتحظى بكل هذا الإعجاب لمجرد فهمها للغناء ، وإنما لأنها تنتمي لهؤلاء البشر الذين أحبهم الله وحباهم بقبس من قدرته على الخلق والإبداع . أستطيع أن أدرك مدى الظلم الذي عانته عندما بقيت لسنوات طويلة مرغمة على أن تسجن مواهبها في قبو مصنوع من رخام التقاليد . إنها سعيدة الآن وهي تمنح موهبتها المشنوقة ، مجالاً تتنفس فيه ، من خلال هؤلاء الطلاب . سوف يكون انشغالها بهم ، وغناؤها معهم ، تصريفاً جميلاً لكل ما يمتلئ به صدرها من إيقاعات وأنغام . ولكن سناء لا تريد أن تكون مجرد مرضع ، تمنح حليب صدرها ، غذاءً فنياً لهؤلاء الصغار . ولا يرضيها إلا أن تخوض التجربة بنفسها ، وأن تعبر عن مواهبها تعبيراً لا يختفي خلف الأقنعة ولا ينيب عنه الآخرين . تريد أن تغني بحنجرتها لا بحناجر هؤلاء المنشدين . ولذلك فإنه ما أن عدنا إلى بيتها نتناول غداءً قبل الذهاب إلى البحر ، حتى أحضرت مسرحية «رابعة العدوية» تتفحص أوراقها . لم أعلق بشيء وأنا أراها تحمل قلماً وتضع خطوطاً تحت بعض الأسطر والكلمات . تركتها حتى ذهبنا إلى القرية وجلسنا في الصالون نناقش المسرحية . ما أكثر ما تغير الزمن منذ ذلك العام الذي شاركت سناء في إحياء حفلاته . بنات كثيرات صرن يشتركن في أنشطة الجامعة ويقمن بالغناء والتمثيل وتقديم مشاهد الرقص الجماعي ، وهي لن تكون أقل شجاعة منهن ولن تبقى متنكرة لهذه الرغبة مدى الحياة . رأتني أستقبل حماسها بصمت وبرود ، فأدركت

أنني لم أتنازل عن تحفظاتي . رأيت الكدر يغطي ملامحها فأيقنت أن هذا الإصرار على موقفها يتصل بشيء أكثر عمقاً من مجرد الرغبة في الغناء ، إنها ذات تبحث عن سبيل لتأكيد حضورها ، وأكثر من ذلك ، فهي ذات تحمل جراحاً قديمة تريد اليوم أن تنتقم لها . لست غافلاً عن دوافعها ، فأنا أعرف أنها واجهت ذات يوم مجتمعاً شرساً يرتدي نعالاً من فولاذ يسحق بها زهور الإبداع . وهي تريد أن تثبت بعد مرور تسعة أعوام أنها انتصرت على قدم الفولاذ وصانت زهرتها من السحق . ولابد أن تظهر اليوم أمام الناس بألوانها الحقيقية ، مزينة بجمالها ومواهبها . ما الذي أستطيع أن أقوله غير ذلك الكلام المكرر الذي لا معنى له عن مجتمع جامعي متزمت ، إذا قبل الغناء من طالبة فهو لا يقبله من أستاذة ، ومجتمع كبير أكثر تزمتاً ، إذا قبل برجل يشتغل بالغناء فهو مازال يفتقر إلى التقاليد الحضارية التي تفرض احترامه لامرأة تختار هذا المجال عملاً أو هواية . إنني خجول من نفسي ، لأنني أعرف أن هذا المنطق ليس إلا تسويغاً لأفكار الرجل الآخر في نفسي الذي يكره أن يرى امرأته تظهر للناس في ثياب المغنيات . والذي مازال يحمل تقاليد المدينة القديمة التي لم تكن تعرف الغناء إلا مهنة للنساء الساقطات اللاتي يأتين للأعراس برؤوس دوخها الخمر . إنني لا أريد أن أدخل في نزاع مع سناء ، ولا أحتمل فكرة أن تخرج غاضبة مني . سأتوسل بالقشرة الحضارية أن تأتي بأرديتها وتحمي علاقتنا من هذا المصير . وسأستعير من أنور جلال فلسفة اللهو واللعب التي يستمدها من الشريعة السمحاء ، كي تمنعني من هذا التزمت الأخلاقي . قلت لسناء مستسلماً لمنطقها :

– ما يغيظني هو أنك ستكونين معبودة الجماهير ، فلا يبقى لي إلا مكان صغير بينهم لعبادتك .

– هل وافقت؟

– طبعاً لكي أثبت للعالم أن وراء كل امرأة عظيمة رجلاً .

ابتسمت عيناها ، وزالت سحابة الكدر التي لونت وجهها ، وانتقلت إلى الحديث عن الوقت المناسب لتقديم المسرحية ، والتعديلات التي تحتاجها ،

والإمكانيات التي يجب توفيرها لكي يكون عملاً استعراضياً كبيراً . إنها جلسة تدشين لمغنية المستقبل . لا يهم . سأكون راضياً بالاسم الذي سيمنحه لي مجتمع الجامعة بعد غنائها في الحفلات العامة ، «زوج المغنية» ، سيبتهج الأستاذ شعبان في مكانه الذي ذهب إليه ، ولعله سيخرج هذه المرة من مخبئه ، ليطالبني بأن تغني له سناء في إحدى حفلاته الخاصة باعتباري متعهد حفلاتها . وقد تتمكن مني فلسفة اللهو واللعب ، مقتنعاً بأنها مستمدة حقاً من الدين والشريعة ، فأذهب معها ، أحمل لها شنطتها وأصبح عضواً في فرقتها ، وأتعلم العزف على الطبلة لأضبط لها الإيقاع وهي ترقص وتغني . سيكون ذلك مورد دخل يعادل كل ما يتقاضاه مدرسو الجامعة . ولعل الدولة تأذن بفتح الملاهي الليلة فأنشئ معها ملهى ليلياً نعيد به أمجاد أمها عندما كانت راقصة في بلاد المهجر . ستبتهج الأم وستجد مجالاً توظف فيه خبرتها بدلاً من البقاء عاطلة داخل البيت .

– أحبك حبين ، حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك .

أخذت الكراسة التي تحتوي سيرة رابعة العدوية أقلبها . ها هي سناء تريد إحياءها من جديد . بدأت هذه المرأة حياتها بالسوء وانتهت إلى الخير . بدأت جارية يلهو بها زبائن الحانات ثم انتهت امرأة صلاح وعبادة وتصوف . ولكن سناء تعيد سيرتها بالمقلوب . تبدأ بالخير وتنتهي إلى السوء . تبدأ امرأة مهنتها التعليم وتصبح امرأة للهو واللعب والغناء . وبهدوء أعصاب ، ودونما إبداء كلمة واحدة ، أخذت أمزق الكراس ، وأرمي بالقصاصات فوق الأرض . كنت أحس ببهجة غريبة وكأنني أمزق رقية سحرية مكتوبة بلغة الشياطين . وسناء مأخوذة بالمفاجأة ، تنظر نحوي بعينين يملؤهما الفزع .

– لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟

– لا أريد أن أسمع كلاماً حول هذا الموضوع بعد اليوم .

وبخطى سريعة متشنجة ، خرجت سناء وضربت وراءها الباب . بقيت جالساً دون حراك . شبكت أصابعي خلف رأسي ورفعته أنظر إلى السقف . كان السقف

مساحة جيرية بيضاء . ورأسي كان خاوياً . أضحى هو الآخر مساحة جيرية بيضاء ، تشبه شاشة في دار عرض سينمائي ، عندما ينقطع الشريط ، يغدو مربعاً أبيض وسط الظلام . أغمضت عيني . الشريط الذي انقطع فجأة ، يعود إلى العمل . المشاهد تنثال سريعة فوق المربع الأبيض . رأيت نفسي أرتدي دروع الحرب وأقود جيشاً أحاصر به أسوار طرواده ، مطالباً أهلها بإعادة هيلانا الجميلة . لجأت إلى الحيلة ودخلت مع جنودي إلى جوف الحصان الخزفي . كان جوف الحصان مظلماً ، كئيباً شديد الوحشة وكثير الرطوبة . سأنتقم من هوميروس الأعمى الذي وضعني في هذا المكان . ولكن هيلانا الغائبة وراء أسوار طروادة لابد أن تعود بالحرب أو بالخديعة . فتحت عيني . وقفت . ورابعة العدوية تتناثر أعضاؤها ويسيل دمها فوق البساط . يشتبك دمها بدمي صائحاً «كيف تحرق قلبي وهو يحتويك» . أنتبه إلى أنه سطر في قصاصة التقطتها من فوق الأرض . رميت بالقصاصة وتجولت ببصري في أرجاء الغرفة . خاوية ، كئيبة ، معتمة كجوف الحصان الطروادي . كيف احتملت الحياة في هذا المكان . السقف الواطئ . الجدران التي تحاصر بعضها بعضا . كل شيء بائس ، موحش ، يثير الحزن والبكاء . خرجت هارباً . راكضاً . أريد أن ألحق بسناء . ولكن لا أحد هناك . غابت هي الأخرى وراء أسوار طروادة . وأنا وحيد بلا جيش ولا سيف . إنها أول مرة يحدث فيها هذا الخصام . أول مرة نفترق دون تحية . دون وداع . دون اتفاق على لقاء . لماذا يفرغ الكون فجأة من الهواء . لماذا ترسم السحب البيضاء أشكالاً لحيوانات كبيرة ، مخيفة ، سوف تغزو بعد قليل هذه المدينة وتبدأ بالتهام الناس . يجب أن أذهب الآن إلى سناء . سأقبل الأرض تحت قدميها وأتوسل لها أن تمنع حيوانات السحب من قضم أطرافي وتمزيقها كما فعلت برابعة العدوية . ارتطمت فجأة بشاهد قبر من الرخام . كدت أسقط فوق الأرض . لماذا لا يجدون مكاناً آخر يدفنون فيه موتاهم غير هذا الطريق . لم يكن قبراً . كان حوضاً من أحواض الزهور التي تحف بالممر المؤدي إلى المقهى . سأنتظر الليل ، فهو وحده القادر على إخفاء هذا القبح الذي يتبدى عارياً تحت ضياء الشمس ، وسأسعى هذه الليلة إلى

الاستنجاد بذلك الكأس الذي يحمي الإنسان من الجنون . ذهبت إلى المقهى أنتظر الليل الذي أبطأ طويلاً في المجيء . كان المقهى خاوياً . إلا من زبون واحد يمضغ الصمت . انزويت في ركن منه أنصت لدبيب الفناء في عظامي . جاء العامل يحمل القهوة ، ولكن الرجل الذي يجلس إلى الطاولة البعيدة ، أخرج مقص الأظافر وبدأ يقص أظافره التي صارت تتناثر في فضاء المقهي . أخذت منديل الورق الذي يفرشونه تحت الفنجان ورميت فيه بجرعة القهوة التي ارتشفتها . وصلت أمعائي إلى حلقي ، ومددت يدي إلى خاصرتي ، أبحث عن سيفي الذي كنت أحمله في حروب طروادة . سأذهب إليه وأقطع عنقه لكي أكفيه عناء قص أظافره . لعنت الحكومات التي تمنع حمل السلاح والسيوف ، وخرجت أطوف بين شواهد القبور حتى يأذن الليل بالمجيء . ها هي جلسة اليوم تنعم بالهدوء والسلام . نجت من مداهمات هارون الرشيد بسيافه ووزيره ، فلم يحضرها إلا أعضاؤها الدائمون . وسعاد ، امرأة اللهو واللعب ، والبنطال الذي يخلع كرماً وشهامة ، لكل من أبدى إعجابه به ، تأتي وتجلس بجواري ، ملصقة جسمها بجسمي ، ناقلة إليه شحنتها الكهربائية اللذيذة . امرأة نزعت من فوق جسمها قشرة الكذب ، وأعلنت ولاءها لعناصر الطبيعة الأولى ، فجعلت من إرضاء الغرائز الحسية هدفاً وحيداً في الحياة وأعلنت بطلان كل الأهداف الأخرى . إنها لا تريد من رابعة العدوية إلا سيرتها الأولى لأنها أكثر صدقاً وعفوية من سيرتها الأخرى . فلماذا أدعي كذباً وزوراً أنني أعافها . إنها هي الأنثى الحقيقية ، وما هيلانا التي أشعلت الحروب ، أو أوفيليا التي احتمت بالجنون أو جولييت التي انتحرت ودفعت حبيبها إلى الانتحار ، أو شهرزاد التي أعادت ملكاً مجنوناً إلى عقله ، أو سناء التي جعلتني أركض بين تخوم الجنة والجحيم ، إلا صورة مزيفة عنها ، لأنها هي الأصل وما عداها باطل . لاتحمل هماً ولا حباً ولا خوفاً يضيف تلويناً على حقيقتها . لا تحمل شيئاً سوى جمرة بين فخذيها ، وشهية تتجدد كل يوم لرجل يأتي ويطفئ برحيق فحولته هذه الجمرة .

دارت الكأس ودار رأسي مع دورتها . ما الفناء وما الخلود ، ما الموت وما الحياة ،

ما السعادة وما الشقاء ، ما الحب وما الغريزة ، ما الوهم وما الحقيقة ، ما العقل وما الجنون ، ما الحركة وما السكون ، ما الليل وما النهار ، ما الصمت وما الكلام ، ما الضوء وما الظلام؟ ، ما هي جميعاً إلا خيوط ينسج بها عنكبوت الزمان شباكه التي يصطادنا بها الواحد بعد الآخر . كان أحد الجالسين يسرد وقائع مغامراته مع نساء السويد عندما أقام أسبوعاً هناك ورأى من حياتهم ما أقنعه بأن بلادهم هي الجنة . رد عليه زميل آخر :

- عزاؤنا أن جنتهم مؤقتة وجنتنا دائمة بإذن الله .

- نعم ، هذا ما قلته لهم . وقلت لهم أيضاً بألا يفرحوا كثيراً لأنه ما أن تنتهي هذه الدنيا حتى نتبادل المواقع ، يأتون هم إلى بلادنا ونذهب نحن إلى بلادهم .

قال الرجل الآخر بعد أن هدأت عاصفة الضحك :

- ولكن ماذا لو جاءوا بنسائهم معهم؟

- سنكون خسرنا الدنيا والآخرة .

هذه هي القضية . النساء . وهل هناك مسطرة أخرى نقيس بها الجنة والجحيم سوى النساء . لم يخطىء من أطلق اسم «الحورية» على سناء ، لأنه لا مرجع لدينا نهتدي به إليها غير فردوس يختفي خلف حجب السماء . ولكن لماذا ينسحب عن هذه السهرة سحرها القديم الذي كان يفتنني؟ . لماذا تبدو برغم شرابها ونسائها وغنائها وقهقهاتها مكاناً يبعث على الضجر . لماذا أراها مجردة من تلك المعاني التي أسبغتها عليها عندما اعتبرتها قلعة للتحدي في مجتمع الكبت العاطفي والقمع الجنسي والاعتداء الدائم على الهامش الشخصي للإنسان . لماذا تبدو الآن عنواناً للهزيمة والانكسار والهروب ، وأفراحها ليست إلا أردية تغطي الندوب والحروق التي تملأ النفوس . ولماذا ، برغم كأسها ورنين أوتارها ، لا أكاد أطيق أن أبقى لحظة واحدة في جوها المعتم .

- ليه يا بنفسج ، بتبهج ، وأنت زهر حزين .

بدأ أنور جلال يعدل أوتار العود استعداداً للغناء . وقفت أستأذن في الذهاب .

- ألا تحب الغناء القديم؟

كيف أقول له أن الأمر لا علاقة له بالغناء القديم أو الحديث ، ولا بعوده وأوتاره ، وإنما هو إحساس بالقرف والتفاهة يملأ نفسي ويفيض على الدنيا فلا أراها إلا تافهة ، مقرفة ، فلماذا؟ لماذا أيها البنفسج الحزين؟

– سأوصله إلى داره وأعود ، لأنه لا يقوى على المشي .

إنني أقوى على المشي يا عزيزتي الجميلة ، البريئة ، الفاضلة ، فلماذا تتعبين نفسك من أجلي . جاءت سعاد تسندني . توصلني إلى غرفة نومي وتدخل معي في سريري . بدأت تباشر لعبة الحب دون مشاركة مني . دون أن أبدي موافقة أو اعتراضاً . استعملتني كما تستعمل المرأة رجلاً من المطاط . انتهت لحظة الشبق ورعشتها دون أن أحس بأية متعة . تركتني لأنام وعادت لإكمال سهرتها . عندما أفقت ، قضيت النهار كله في لعبة غريبة ، هي إعادة الأجزاء الممزقة من المسرحية إلى بعضها البعض . كانت مهمة شاقة في البداية . أحضرت شريطاً لاصقاً ، وجلست فوق الأرض ألتقط الأوراق الممزقة وأعيد تركيبها . ما لبث أن صار هذا الترقيع تسلية تستغرقني ، وتجعلني أنسى الوقت الطويل الذي قضيته في جمع وترتيب ولصق هذه المزق حتى عادت كراساً واحداً ، قابلاً للقراءة . ولكنها عادت كراساً يشبه صفحات مخطوط من أوراق البردي . أحسست بالابتهاج وأنا أراه يكتسب جلال الوثائق القديمة . وقبل أن ينقضي النهار ، أخذت الكراس وذهبت إلى سناء .

فتحت سناء الباب . أشرق وجهها بتعبير مضيء أنساني تعاستي . ثم فجأة غاب الضوء وأظلمت ملامح الوجه . ودون أن تسمع كلمة واحدة مني أدارت ظهرها واختفت في قاع البيت . جلست وحيداً في الصالون الذي يضوع برائحة الحقول . مددت أصابعي أمررها فوق ساق الشجيرة التي تجاورني . كان لحاؤها مصقولاً لامعاً يمنح الشجيرة مسحة أنثوية . والسمكة الملونة في حوض الماء الزجاجي تفتح فمها وتداعب سمكة أخرى ، كثيرة الألوان مثلها . تتقافزان وسط الماء وتتحاوران بلغتهما الخفية ، غير عابئتين بسجنهما الزجاجي . ووسط هذه الإلفة التي تصنعها الأشجار والأسماك ، كنت تعيساً . بقيت جالساً أحاول أن

أجد بعض العزاء في إشراقة الوجه الذي استقبلتني به ، قبل أن تتذكر بأنني رجل لا يستحق أن تمنحه كل هذا الفيض من بهائها ورضاها . جاءت الأم تضع أمامي فنجان القهوة وتمضي لتترك لي فرصة الانفراد بسناء عندما تأتي . أقنعت الأم ابنتها بأن ما حدث يجب أن نعالجه بالتفاهم والنقاش لا بالصمت والهروب . مرت لحظات ثقيلة ، قبل أن تأتي سناء . اختارت كرسياً في مواجهتي وجلست صامتة . عرفت من احتقان وجهها وعينيها أنها كانت تبكي . جففت دموعها وجاءت . كان ما فعلته جريمة في حق هذا الوجه الذي أفسد جماله العبوس والبكاء . قدمت لها الكتاب الذي كان ميتاً وأعدت له الحياة . كان كرسيها بعيداً ، فتقدمت منها منحنياً ومددت يدي نحوها وكأنني أؤدي صلاة ، وأقدم قرباناً ينجيني من الهلاك . لم يكن في وسعها أن ترفض الإمساك بالكتاب . كان جسمي يتخذ وضعاً لا يسمح بمزيد من الإذلال . مدت يدها وألقت بالكتاب فوق الطاولة دون أن تنظر إليه .

– اشتغلت نهاراً كاملاً ألتقط القصاصات من فوق الأرض وأعيدها كتاباً مرة أخرى .

لم تقل شيئاً .

انتقلت إلى الجلوس بجوارها . أسفي لا حد له . قلت لها . تعاستي أيضاً لا حد لها . كان يوم الأمس ، يوماً طويلاً . مرهقاً . أتلف أعصابي ، وأفقدني القدرة على التمييز . إنها حالة تعتريني دائماً عند أول يوم أذهب فيه إلى الجامعة ، بعد انتهاء العطلة . ولكنني سأصلح كل شيء . أعدك بذلك . سأتولى إعداد المسرحية والبحث عن أمهر الملحنين والموسيقيين والممثلين . سيكون حدثاً فنياً مبهراً . ولكن هذا الكلام لا يرضي سناء . لأن ما أغضبها لم يكن موقفي المعارض من المسرحية . كانت على استعداد لأن تفهم دوافعي وتتنازل عن تقديمها .

– إذن ماذا؟

– أنا التي أسألك ماذا كان قصدك عندما وافقت في البداية وما أن رأيتني

سعيدة باتفاقنا حتى أخذت المسرحية ومزقتها .

- لم أفعل ذلك إلا لأنني . .

لم تتركني أكمل الجملة .

- لأنك كنت تريد إهانتي . عن عمد وإصرار . أردت إهانتي .

أفزعتني هذه النتيجة التي وصلت إليها ، أقسمت لها بأن شيئاً كهذا لم يخطر على بالي .

- لعلك لم تكن واعياً به ، وهذا أكثر خطورة ، لأنه يعبر عن شعور أعمق من الفكرة الطارئة .

- إنك تفسرين تصرفاتي تفسيراً خاطئاً .

- إنني لا أفسر . إنني أقول ما رأيت . كنت تمزق المسرحية وعيناك تبرقان بضوء غريب . لم يكن غضباً ، وإنما كان نشوة . كنت مبتهجاً وأنت تفعل ذلك .

لم أكن أملك وقتاً لأفتش في ذاكرتي عما إذا كنت حقاً أردت إهانتها ، أو أنني ابتهجت لهذه الإهانة . لعلني فعلت ذلك ، فأنا أعرف أن هناك كائناً يسكنني ما أن يجد لحظة تغفل فيها إرادتي حتى يخرج من مكمنه السري ، الذي تغطيه الطحالب والأعشاب الميتة ، لينتقم مني . سأعرف كيف أصفي حسابي معه بعد ذلك . أما الآن فلا شيء يشغلني إلا دفع هذه العاصفة التي تهدد بقفل النافذة الوحيدة التي يأتي منها الضوء .

- سناء ، أرجوك . هناك ضعف إنساني ، يجب أن نعمل له حساباً في علاقتنا ، لكي لا يفسد علينا حياتنا . لا أدعي أنني إنسان خال من الأخطاء ، وما حدث كان خطأ فعلته بدافع الحب ، لأنني لا أريد لأحد أن يقول كلمة سوء عنك . كيف أستطيع أن أثبت لك ذلك؟

- لا أدري . لم أعد واثقة من شيء .

- علاقتنا أكبر من هذه الأشياء الصغيرة .

- إذن ماهي ، في رأيك ، الأشياء الكبيرة؟

إنها تتكلم بلسان امرأة جريحة . لون المرارة في صوتها شيء جديد بالنسبة

لي . لن أتوقف كثيراً لأبحث عما إذا كانت هناك جوانب غامضة لم أهتد إليها في شخصيتها . فما أكثر الجوانب الغامضة التي لا أستطيع الاهتداء إليها في شخصيتي .

- أعاهدك بأنني لن أفعل شيئاً كهذا بعد اليوم .

قلتها بضعف ومسكنة . كنت فعلاً أرغب في إذلال نفسي أمامها . وسيكون انتقاماً عظيماً يستحقه ذلك الكائن الظلامي الذي يسكنني لو أنها تأتي الآن وتمزق وجهي بأظافرها كما مزقت كتابها ، ثمناً لعفوها عني .

حلت لحظة صمت مباركة .

رأيت خلالها سناء ترفع رأسها الذي كان طوال الوقت منكساً مثل راية تعلن الحداد . كست وجهها مسحة من الهدوء أعادت إليه البهاء . تفاءلت خيراً ، ولم أقل شيئاً أفسد به هذا الصمت الجميل .

وببطء شديد ، ودون أن يظهر على ملامحها أي انفعال ، مدت يدها إلى المسرحية المليئة بالأشرطة اللاصقة ، وصارت تقلب أوراقها . عاد الصفاء إلى سمائي وانتهت العاصفة .

قالت لي فيما بعد :

- ما أمهرك في ترميم الكتب الممزقة . ولكن ما حسبتها نسخة وحيدة في العالم متوافرة بأعداد لا تحصى في مخازن التعليم .

- كان عناء جمعها مجرد إشارة صغيرة أثبت بها ندمي .

كانت قد مرت ثلاثة أيام على تصالحنا . وكانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي تبادلناها حول المسرحية . لم أتوقف لأتفحص ما تركته تلك الخصومة من أثر على علاقتنا . كنت أفيض سعادة ، وحباً لسناء ، مبتهجاً بهذا الصفاء الذي أريده أن يستمر معنا ولذلك لن أقول «لا» رداً على أي شيء تقوله أو تريده . لا أريد إلا ما تريد ، ولا أقول إلا ما تقول ، ولا أحب إلا ما تحب ، ولاأكره إلا ما تكره ولا أذهب إلا إلى الأماكن التي تحب الذهاب إليها . وكأن سناء اتخذت قراراً مماثلاً لقراري ، فمنعتني من ترف أن أراها تتدلل وتبسط نفوذها على حياتي ، فهي لا

تطلب شيئاً ولا تبدي رأياً وتترك لي اتخاذ أي قرار . أسلمنا أنفسنا لروتين يومي لايتبدل باعتباره أكثر أماناً ، ويقدم لنا حلاً جاهزاً لقضاء الوقت دون المخاطرة بالحديث عن مبادرات جديدة أو اقتراح أماكن أخرى . وجاءت لحظة وقفنا فيها حائرين عندما وجدنا البحر غير ملائم للسباحة .

- ماذا تقترحين؟

- وأنت ماذا ترى؟

كلانا يريد أن يدع الآخر يبادر بالاقتراح . وقفنا صامتين تضربنا الرياح . ولم نجد إلا المقهى يتولى حل هذه المشكلة . كان قريباً فاتجهنا إليه دون كلام . وكان هذا أخطر ما أصاب علاقتنا . لقد بدأت تفقد تلقائيتها .

أردت بعد هذا الخلاف أن أكون أكثر وفاء لعلاقتي بها . عدت للنوم المبكر والقيام في الساعات الأولى من الصباح كي أذهب إليها . لم يبق على بدء الدراسة سوى أسبوعين أو أكثر قليلاً ، ومعنى ذلك أن الذهاب إلى الجامعة صار هو الآخر روتيناً يومياً . نقضي هناك ساعة أو ساعتين ثم نعود إلى البحر . بدأ الصيف يستسلم للوهن والإعياء ، وصارت السباحة تفقد بهجتها ، إن لم تصبح مستحيلة كما هو اليوم .

اخترنا ركناً يطل على جانب صخري من الشاطئ وجلسنا متقابلين . ومن خلف الزجاج كانت الأمواج تقفز فوق الصخور وتفيض على الشاطئ وتصنع دوياً عالياً . ولأمر ما أحسست بالإثم وكأنني مسؤول عن هذا التغيير الذي طرأ على الطقس ومنع سناء من مزاولة عشقها للسباحة . ورأيت أن الحديث حول المسرحية سيكون وسيلة ملائمة للتسرية عنها . فهي لم تتجنب هذا الحديث إلا لأن المسرحية كانت نقطة توتر في علاقتنا . سأثبت لها اليوم أنني أكثر حماساً منها لتقديم هذا العمل المسرحي الاستعراضي الذي سيكون إنجازاً فنياً يعيد للجامعة دورها الريادي المفقود في مجال الإبداع . سأقول ذلك بصدق وحب لأنني وطنت نفسي على أن أحب ما تحبه هي . وعندما ردت على هذا الكلام بأنها لم تعد ترغب في تقديم المسرحية . بقيت صامتاً أفكر فيما يمكن أن أقوله . تمنيت لو أنها

احتفظت بعفويتها وتلقائيتها وأصرت على موقفها الأول . سيكون شيئاً مثيراً للدهشة أن أدخل معركة من أجل إرغامها على تقديم المسرحية التي كنت أمزقها بكل ذلك العنف .

- ولكنك تعرفين أنني غيرت رأيي . سأكون سعيداً وأنا أراك تغنين قصائد رابعة العدوية .

- دعك من هذا الكلام . أنت لا تحب ذلك ولم أعد أنا أيضاً أراه مناسباً لي .

كنت أريد أن أقول لها بألا تشقى بالتفتيش عما أحب أو لا أحب . وألا ترغم نفسها على أي شيء لا تريده وترضاه ، وألا تفتش عن أي ضوء خارج ذاتها ، لأنها لو فعلت ذلك لأضاعتني أنا أيضاً . فلا ضوء أهتدي به إلا ضوؤها ، ولا راية أبحر تحتها إلا رايتها ، ولا شيء يستحق العناء في هذه الحياة إلا حبها . كنت أريد أن أقول لها أيضاً أن هناك كائناً يسكن الجانب المظلم من نفسي يجب أن أنتبه إليه وأبقى طوال الوقت على حذر من غدره وخيانته . أما هي فلا حاجة بها لمثل هذا الحذر . ولكن شيئاً لاح لي أرغمني على أن أمنحه كل انتباهي . كنت أستطيع من مكاني ، أن أرى سعاد تقف على بار المقهى تحمل في يدها كأساً من عصير البرتقال وتتبادل حديثاً مع أحد عماله . كان رجلاً متين البناء ، يرتدي السترة البيضاء ، وكنت أستطيع أن أرى أن له معها علاقة تسمح برفع الكلفة إلى حد المداعبة والملامسة . كان يملك ملامح غليظة توقظ الشهوة لدى امرأة مثلها ، حواجب كثيفة ، وشفاه غليظة ، وأنف غليظ ، ملامح زنجية في وجه رجل أبيض . وكانت هي ترتدي بنطالها الأزرق وقميصاً صيفياً بنصف كم ، يلتصق بجسمها ، في حين أبقت شعرها مهوّشاً يصنع كتلة سوداء من الفوضى فوق رأسها . أردت أن أدير لها ظهري فلم أستطع لأن معنى ذلك أن أديره لسناء أيضاً . إنني على يقين بأنها ما أن تراني أجلس مع امرأة أخرى حتى تركض نحوي لتقول أي كلام يحرجني . تصورت ما يمكن أن تقوله .

- هاي . كنت معذوراً فيما حدث إذن .

وسأجد نفسي مجبراً على القول :

- ما الذي حدث؟

سأقول ذلك بازدراء ، آملاً أن تبحث عن موضوع غير الذي ذهب إليه ظني .
ولن يكون كلامها مفاجأة لي عندما تقول :

- تلك الليلة . عندما استلقيت مثل الجثة فوق السرير وجعلتني وحدي أقوم بكل شيء . أوقظ حتى تلك القطعة الميتة .

نعم . هذا بالضبط ما سوف تقوله . ليس لأنها امرأة سوق ودعارة ، أو لأنها ستغار من هذه المرأة ، ولكن لأن ذلك يتيح لها أن تثأر لأنوثتها عندما أبديت كل ذلك البرود أمامها .

ولكي أدفع شراً كبيراً بشر أقل . استأذنت سناء في الغياب عنها لحظة صغيرة وذهبت إلى سعاد . أردت أن أتجه صوب الباب ثم أستدير نحوها وكأنني قادم من خارج المقهى ، ولكنها رأتني أقوم من مكاني ، فاتجهت مباشرة إليها .

- من تكون هذه المرأة؟

- خطيبتي .

- ظننت أنك متزوج مثل الآخرين . نصيحتى أن تتركها قبل فوات الأوان . فما فائدة أن يتزوج الواحد منكم امرأة ثم يهرب منها .

- لن أهرب منها .

- لاتبعني هذه البضاعة . رأيتك تهرب منها حتى في هذه المرحلة الوردية ، فما بالك عندما تنتقل إلى المرحلة الرمادية .

- إنها امرأة من طينة أخرى .

أطلقت ضحكة صاخبة قصيرة ، قبل أن تقول :

- إنني أتحدث عن طينتك أنت . فلا تخلط طينتك بطينتها . لم تقل لي أين وجدتها؟

- كنت أسبح في البحر ، عندما وجدت قارورة مغلقة ومختومة بخاتم النبي سليمان ، وما إن نزعت الغطاء حتى خرجت لي هذه المرأة وأمرتني بأن أتزوجها .

- إذن فهي عفريت .

- إنها عفريت يستحق الحب .

رأيت سناء تدير وجهها نحونا فاتجهت إلى عامل المقهى أشركه معنا في الحديث . أحسست بارتياح عندما انتقلت سعاد إلى موضوع آخر .

- مضى أكثر من أسبوع دون أن نراك .

- انتهت إجازة الصيف وعدت إلى العمل .

- وقعت أحداث أثناء غيابك .

- لعله خير .

- كل الخير ، فقد قمت بعمل جليل هو الانتحار .

هل حقاً حاولت الانتحار ، أم تراها تتكلم هازلة . رأتني أتفقدها بنظراتي ، فأضافت :

- هذه ليست أنا . إنه شبحي . العفريت الذي جاء يفسد على الرجال متعتهم بخيانة زوجاتهم وخطيباتهم .

ضحكت ثم توقفت فجأة عن الضحك .

- ابتلعت كميات كبيرة من الحبوب المنومة . وذهبت في غيبوبة جميلة أتمناها لكل إنسان عزيز ، ولكنهم أفسدوا موتي الجميل في الدقائق الأخيرة .

أدركت أنها تتكلم صادقة ، فسألتها بحرقة :

- لماذا؟

- هذا بالضبط ما قلته لهم . لماذا؟ لماذا أنقذتموني . لأن أسوأ مراحل الانتحار هي مرحلة الإنقاذ ، عندما يأتي الأطباء وغسيل المعدة والتحقيق عما إذا كان فعلاً إرادياً إلى آخر هذا العذاب .

- إنني أسألك جاداً لماذا الانتحار؟

- أوه . إنها ليست المرة الأولى ، فأنا أفعل ذلك مع نهاية كل صيف .

- حسبتك امرأة عاقلة .

- عاقلة إلى حد الجنون .

تحول خوفي منها إلى إشفاق عليها . كنت أريد أن أسألها عما إذا كانت قد

شاهدت الطيور السوداء تغطي سقف العالم كما حدث معي منذ زمن مضى . ولكنني بدلاً من ذلك عدت للإلحاح على معرفة السبب الذي يدفع امرأة مثلها إلى الانتحار .

– لا أذكر السبب الذي حاولت من أجله الانتحار لأول مرة ، لعله يتصل بقصة حب تافهة ، ولكن عندما نجوت وأقاموا لي الحفلات بمناسبة عودتي إلى الحياة ، صرت أداوم على الانتحار مرة كل عام . فقد أعجبتني الحيلة . أموت ثم أعود إلى الحياة لأجد حفلات التكريم .

إنها تقول ذلك هازلة . ولكنني أستطيع أن أستشف شيئاً صادقاً خلف هذا القناع الهزلي . ألا يكون هذا التهديد بالانتحار الذي تقوم به في أوقات تعرف أن هناك من سيأتي لإنقاذها ، هو سبيلها الوحيد للحصول على تعاطف إنساني حقيقي وسط مهرجان العواطف الرخيصة والسطحية . أبديت لها أسفي . لعلني ساهمت دون أن أدري في زيادة هذه الجرعة الثقيلة من العواطف السوقية التي أوصلتها إلى الرغبة في الموت . تأملتها وهي تمتص سيجارتها بشراهة ، باحثاً عن ذلك الشيء الذي تاه عني ، عندما كنت أراها تجلس متألقة وسط السهرة ، وقد أحكمت فوق وجهها قناع السعادة ، حتى ظننت أنه وجهها الحقيقي . سمعتني أتمتم بكلمات الأسف والأسى فضحكت ضحكتها العالية القصيرة قائلة :

– ولماذا تنسى الجوانب الإيجابية . الناس يعيشون عمراً واحداً ، أما أنا فقد عشت حتى الآن خمسة أعمار إضافية .

كان عامل المقهى قد ذهب يلبي نداء زبائنه . أشارت إلى حيث تجلس سناء .

– جميلة هذه المرأة . ألا تريد أن تقدمها لي . لا تخف . لن أقول لها شيئاً يغضبك . مجرد عفريت يريد أن يتعرف إلى عفريت مثله .

أشعلت لها السيجارة التي وضعتها بين شفتيها . مدت لي العلبة فأشعلت سيجارة أخرى لنفسي . أعدت لها الولاعة ، ووضعت يدي في يدها مودعاً .

– دعي هذا إلى يوم العرس عندما تأتين للغناء والاحتفال معنا .

قالت وهي تتجه إلى الباب :

- هل سنراك الليلة .
- لم تعد ظروف العمل تسمح بالسهر .
- هناك دائماً يوم العطلة ، سيكون الحفل كبيراً هذه المرة ، فلا تتخلف .

أطلت البقاء معها لأنني لم أشأ أن أعود إلى سناء قبل أن أراها تغادر المقهى . اكتشفت وأنا أعود إلى مقعدي بأن السيجارة ترتعش بين أصابعي . أشعلتها لأغطي بها حرجي ، فإذا بها تفضحني . أذهلني أن تحاول امرأة نذرت نفسها للمتعة والأوقات الطيبة ، تدمير حياتها بهذه البساطة ، وأيقظ حديثها الساخر خوفي من المرض الذي يهددني .

لم أستطع السيطرة على ارتعاشة يدي فأطفأت السيجارة وخبأت يدي تحت الطاولة . لا شك أنها لاحظت اضطرابي . صرت أستطيع أن أعرف حالتها النفسية من ظهور خط صغير بين حاجبيها . خط كأنه بقايا وشم قديم لا يظهر إلا في حالات الكدر والانفعال الشديد . لم تقل شيئاً . تركت الكلام لهذا الوشم . اكتفت بإلقاء نظرة على ساعتها ، ثم عادت لارتشاف الجرعة الأخيرة التي تبقت في فنجان قهوتها .

- إنها صديقة أنور جلال .

ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر هو هذا الارتباك الذي يجعل صوتي واهناً ضعيفاً ، مرتعشاً ، ويضفي على الموقف كله لون الخطيئة . انسحبت سناء إلى عالمها الخاص وتركتني . بقيت للحظات أفكر فيما يجب أن أقوله بعد هذه الجملة التي تنفي صداقتي لها . ولكن هذا لا يقدم تبريراً كافياً لانشغالي بها كل هذا الوقت . أردت أن أخبرها بما قالته سعاد عن محاولة انتحارها مما اقتضاني البقاء معها قليلاً من أجل المجاملة والمواساة . ولكن سناء كانت زاهدة في الاستماع لمزيد من الكلام عن هذه المرأة ، لأنها فجأة فتحت موضوعاً جديداً وسألتني عما إذا كنت قد فكرت في مكان أنتقل إليه وقد أوشك الصيف على الانتهاء . لعلها لم تقل هذا الكلام إلا رغبة في إنقاذي من حرج البحث عن تبرير لوقوفي مع تلك المرأة بعد أن رأت ارتجافي . أو لعل ظهور امرأة لها هذا المظهر الذي لا يوحي بالثقة

جعلها فجأة تنتبه إلى مايحتويه هذا المكان من وسائل الغواية لرجل يعيش بمفرده . هربت بنظراتي إلى صخرة كبيرة فاحمة السواد ، كثيرة النتوءات ، جاء الموج يعانقها ويطوف حولها ويرقص فوقها صانعاً أشجاراً من الماء . لعلني سأقضي ما تبقى من العمر أنتظر تلك الشقة اللعينة . إنني لا أبذل جهداً للبحث عنها ، وكأن مهمتي قد انتهت بمجرد أن وضعت اسمي في لائحة الباحثين عن سكن . لا أدري كيف تنظر سناء إلى هذا الفتور الذي أعالج به الموضوع وكأنني أنتظر أن تهبط الشقة من السماء . طمأنتها إلى أنني سأجد الشقة قبل وصول موسم البرد . جلسنا صامتين نرقب البحر . تساءلت وأنا أرقب الصخرة الكبيرة السوداء ، من أي بركان جاءت؟ وكم بليون سنة مرت عليها في هذا المكان؟ . وصامتين تركنا المقهى وانتقلنا إلى السيارة ، وفي عتمة السينما التي ذهبنا إليها ، وضعت يدي في يدها ، وجلسنا صامتين نشاهد الفيلم .

انقضى النهار دون أن يختفي ذلك الوشم الذي ظل ثابتاً بين عينيها يتحدى كل المشاهد الساخرة التي امتلأ بها الفيلم . هناك شيء لا أجد له وصفاً تسلل إلى علاقتنا . لعله إحساس لا تبرير له . ولكنه إحساس ممضٌ وجارح . إنني بطريقة لا أعيها ، ولا أملك سيطرة عليها ، أسبب شقاءً كبيراً لهذه المرأة التي أحبها . أصنع غرباناً وأطلقها في سماء علاقتنا ، ثم أهجع إلى فراشي مؤرقاً أحدق في الظلام والمجهول .

عندما جاء الصباح وذهبت أطوف مكاتب الإسكان الحكومي ، وأبحث في المقاهي عن السماسرة الذين يتاجرون سراً بالأبنية والعقارات ، كنت مدفوعاً بخوف حقيقي ، من أن يطرأ شيء يفسد علاقتي بسناء إذا تأخرت تدابير الزواج ، وبقينا نراوح في هذا المكان الذي يشبه المناطق العازلة بين حدود دولتين . تسكعت من مقهى إلى مقهى ، ووقفت مع المتزاحمين في طوابير تحرقها الشمس أمام مكاتب الإسكان . ولاهثاً أرشح عرقاً عدت إلى سناء ، أخبرها بنتائج هذه المشاوير . وعود كثيرة . أكاذيب كثيرة . وأكثر الكلمات صدقاً سمعتها من غفير طاعن في السن يقف أمام مكتب مدير الإسكان ، عندما سألني إن كنت أحمل

خطاب توصية من مسؤول كبير . ابتسم هذا الشيخ الذي يشبه في مظهره ولحيته الكاهن تيرزياس وقال كلمات رثاء لحالي عندما رآني لا أحظى بمباركة عرافة الإسكان في معبد دلفي . ومع ذلك عدت إلى سناء وأنا أحس بالبهجة لأنني أرهقت نفسي كل هذا الارهاق . كان يوماً قائظاً لا يصلح لشيء إلا للسباحة . وما أن ذهبنا إلى قرية الشاطئ السياحي حتى وجدناها تعج بأنواع من البشر لا عهد لنا بهم . يصنعون جواً احتفالياً ، كرنفالياً ، غريباً على هذه البيئة . كأننا أخطأنا الطريق وذهبنا إلى جزيرة تعيش على بيع شمسها وبحرها ورملها للسائحين . كان السبب هو وصول باخرة من بواخر النزهة لقضاء يوم بطرابلس . ثم جاءت سبع حافلات تحمل سياح الباخرة إلى هذه القرية لتناول وجبة الغداء بمطاعمها وقضاء بقية النهار بها . كانوا يزحمون الشاطئ ويصنعون حلقات الرقص والغناء داخل المقهي ويملؤون فضاء القرية صخباً ومرحاً .

قالت سناء وهي تفاجأ مثلي ، بهذا الخليط من اللغات والأجناس والأعمار والأثواب والقبعات :

– لم أكن أظن أن في الدنيا كل هذه الأنواع من القبعات .

وجدنا عدداً منهم يحتمي بشمسيتنا من قيظ الشمس ويحتل الأرض الصغيرة التي رفعنا فوقها رايتنا منذ بداية الصيف . أرادوا أن يتركوها لنا فأبقيناهم وجلسنا بجوارهم ، وما أن عرفوا أننا نفهم الإنجليزية حتى أمطرونا بأسئلتهم . إنهم يريدون قوارب يؤجرونها ، ويبحثون عن جمال يحلمون بركوبها ، ويرغبون في شراء أغطية رأس عربية لها عقالات بلون الذهب ، وكأن كل هذه القبعات لاتكفيهم . أما تلك المرأة العجوز التي لابد أن عمرها يقارب المائة عام والتي قفزت من البحر ترتعش وتضحك فقد خرجت الكلمات من بين طاقم أسنانها مليئة بالماء وهي تسأل عما إذا كانت آثار «بلبك» قريبة من هنا . ضحكنا عندما اكتشفنا بعد وقت طويل أنها آثار «بعلبك» وأن ذاكرتها لم تسعفها للتفريق بين طرابلس ليبيا وطرابلس لبنان . استولت على إعجابنا بفضولها وحيويتها فقررنا أن نتخذها صديقة لما تبقى من النهار . التقطنا معها الصور التذكارية واشتركنا في

حلقة اللعب التي أقامها أصحابها عندما رطب الجو وجاء رجل إسباني يحمل قيثارة وبدأ بعزف ألحان فكاهية تشبه أصوات الحيوانات ، ثم عزف لنا لحناً إسبانياً راقصاً وصار يرقص مع اللحن فانبرى المشاركون في الحلقة من رجال ونساء يرقصون مثله . كان مشهداً مضحكاً وهم يغوصون بأقدامهم في الرمال ويسقطون فوق الأرض ثم ينهضون ويعاودون الرقص . شملتنا دائرة البهجة التي غمرت المكان ، وانقضى يوم عامر بالضحك والصفاء ، أشرق فيه وجه سناء وزالت من فوقه الظلال .

كنت قد هجعت إلى سريري حاملاً معي مجلة رسوم ساخرة تركتها لي السيدة ذات الأسنان الصناعية ، عندما انبثق في ذهني خاطر يضيء جانباً من جوانب علاقتي بسناء . لقد جاء هؤلاء السياح يمنحوننا بيئة جديدة . يخرجوننا من عزلتنا ، ويصنعون حولنا دائرة واسعة من الفرح والتواصل الإنساني فنقضي يوماً عامراً بالمرح وخالياً من الكدر وتوتر الأعصاب . ولذلك فإن اختفاء فرص التواصل واللقاء بين نساء المجتمع ورجاله ، خارج الدوائر المحدودة الضيقة ، يجعل حبنا أشبه بنبتة غريبة تنمو وسط صحراء القيظ وجفاف العلاقات . حب محكوم عليه بالغربة ، لأنه يفتقر إلى البيئة القادرة على تحصينه بأقمطة الدفء والتواصل الحميم مع الآخرين . بيئة قاسية . بقدر ما تمنح هذا الحب مذاقاً لاذعاً ، حارقاً ، متوهجاً ، لأنه يشكل تحدياً لمألوفها وقفزاً فوق سياجاتها وانتهاكاً لمخزون كهوفها الخرافية ، فإنها تسعى بالمقابل إلى محاصرته بالعزلة والفراغ ، وخنقه بكل ما تملكه الصحراء من قحط وعنف . ولم يبق أمام الإنسان الذي يأمل في بناء علاقة حب تحميه من الخبال وسط هذا الخلاء إلا أن يحمل حبه فوق رأسه ، ويمشي خائفاً ، متوجساً ، مثل الراقص الذي يرقص وفوق رأسه عمود من الجرار .

لم تقل سناء شيئاً يفسر النظرات التي كانت تتأمل بها الشاطئ عندما عدنا إليه في اليوم التالي . ولكنني أعرف أن إحساسها لم يكن يختلف عن إحساسي . رحل سياح الأمس بأفراحهم وضحكاتهم وقبعاتهم الغريبة وأسئلتهم الساذجة الجميلة ، وتركوا وراءهم شاطئاً فارغاً مقبضاً . كنت أريد أن أقترح عليها الانتقال

بعيداً عن وحشة هذا المكان ، ولكن سناء التي قذفت بجسمها إلى البحر ، كانت تدرك أن الصيف قد لا يجود بنهار رائق مثل هذا النهار . قلت لها ونحن نجلس فوق صخرة داخل البحر ، أنحسرت من حولها المياه :

- سوف نفتقد هذا البحر .

أدرك وأنا أقول هذا الكلام أن البحر كان هو الصديق الذي جاء إلى غوثي ، في مواجهة الصحراء ، التي تجثم قريباً من هنا ، كحيوان خرافي ينفث أنفاسه اللاهبة . ولكن البحر متحرك والصحراء ثابتة ، والصيف لن يستطيع أن يبقى أبعد من دورته الطبيعية ، فماذا بإمكاني أن أفعل بعد أن يموت الصيف ويختفي البحر . لا أحد يملأ الفراغ الذي سيتركانه سوى سناء . سألتصق منذ الآن بها . ألامس شفافية جسمها . أتكئ برأسي على مخمل زندها . أمد ذراعي وأحتوي خصرها . مستمداً من حضورها الساطع سناءً يذيب خوفي ويحميني من غيلان الصحراء . الصخرة التي نجلس فوقها مليئة بالشقوق ، والشقوق مليئة بماء يتجدد ويصنع قرقرة تجرح الصمت . وأنا أدير ظهري إلى الشاطئ وأستقبل المدى . لا أريد أن أرى سوى البحر وسناء التي اتكأت بجواري تسكب جسمها فوق الماء والحجر . والبحر لوح من الزجاج الأزرق ، أملس ومصقول يعكس صفاء السماء ووهج الشمس . عشقي لهذه المرأة لا حد له ، فمن أي الشقوق تتسرب هذه الكآبة ، ولماذا تمتلئ أغاني الحب بالتوجع والأنين والشكوى ، ولماذا تبدو نهاية الصيف نذيراً بالفاجعة ، ولماذا ينطوي البحر على أسرار لا يفصح عنها إلا للغرقى؟

فوق النتوء الأسود الذي يحاصره الماء ، نجلس متلاصقين . وسفينة في مكان ما تضرب بوقها وتطلق عويلاً يمزق الفضاء ، يفزعني العويل فأزداد التصاقاً بسناء وأمد يدي لكي أعانقها . ولكن رجلاً يخرج فجأة من تحت الماء ، وينظر نحونا بعينين جاحظتين . أتراجع عن عناقها وأنا أتأمل منظر عينيه المفتوحتينس ن بهذا الاتساع الغريب ، فأكتشف أن في عنقه حبلاً لا مرئياً يشنقونه به . تواصل السفينة بكاءها ، وتعود سناء إلى السباحة ، ويختفي الرجل المشنوق تحت الماء ، وأبقى أنا فوق الصخرة الناتئة أحترق بوهج الشمس . أغطس في الماء قليلاً لأبلّل

جسمي ثم أعود إلى صخرتي أحتمي بها ، رافضاً أن أذهب إلى الشاطئ ، وكأن خطراً ينتظرني هناك . بقيت جالساً أتابع سناء وهي تضرب الماء بذراعيها وتدفعه بقدميها وتحرك رأسها شمالاً ويميناً وكأنها ترقص وسط الماء . تصنع رذاذاً مضيئاً حولها وتمضي ، بهجة تتلألأ فوق مفارش من القطيفة الزرقاء . ولكي لا أحسد البحر الذي أسلمت له جسمها يعانقه وينفذ إلى كل مناطقه ، تصورت أنني صرت ماء يتحد بالماء ويذوب فيه ، غمرتني أمواج النشوة وأنا أحس بأنني أحتويها وأحيط بها وأتدافع لاثماً كل جزء من جسمها . أدخل فمها وأحرق شفتيها وأغسل شعرها . إنها امرأة شهية إلى حد الألم . جميلة إلى حد البكاء . وهذه الرعشة التي تهزني ، ليست شبقاً ، وليست جنساً ، وإنما ثمالة وانصهار . اتحاد مع فيض النور المنبثق من جذور الماء . أحسست بسحر اللحظة ، يصنع خدراً ناعماً لذيذاً يسري مع الدم في عروقي ، فتساءلت كيف أستطيع وسط هذا المهرجان من الفتنة واللذة أن أكتئب . إنني إنسان يدمن إيذاء الذات . يترك لحظات السعادة تهرب منه ، دون أن يستمتع بها . يسهو عنها فلا يدركها وعيه إلا بعد أن يفوت أوانها ، ليستحضرها بحسرة فيما بعد ، نادماً لأنه لم يعرف قيمتها ولم ير جمالها . ولا أدري إذا كان هذا الخدر اللذيذ قد تمكن مني إلى حد الإغفاء . فقد رأيت شيخاً له هيئة الشيخ الصادق بلحيته البيضاء كزبد البحر ، ينبثق من مكان ما في الأفق ، يحمل عصا يضرب بها سطح البحر ، ويمشي بخطى سريعة فوق الماء . وقف حيث تسبح سناء ، يلامس زندها بعصاه ، فتنهض واقفة وتمشي معه فوق بساط البحر . رأيته يضع يده في يدها ، ويمضي بها ، حتى يغيبان خلف الأفق . أخذ الشيخ ابنته يعيدها إلى عالمها الأسطوري ، وأنا أتقلب فزعاً فوق سرير من مسامير الصخور السوداء . نهضت واقفاً ورأتني سناء أفتش عنها بنظراتي فلوحت لي بيدها واتجهت صوب الشاطئ . قلت لها ونحن نخرج من لباس البحر وندخل لباس أهل الأرض :

- رأيتك منذ قليل تمشين فوق الماء وتعودين امرأة تنتمي إلى الأحلام والأساطير ، فقولي لي ، بالله عليك ، من أنت؟

- إن لك خيالاً مدهشاً .

لا أدري إن كان لما رأيته دلالة ما ، ولكنني مازلت وبرغم هذا الصفاء الذي بيننا خائفاً من أن أفقدها ، مدركاً أن هذا الخوف ، مولود شيطاني ، ليس له أب ولا أم ، ولا يملك لمجيئه دافعاً أو تبريراً . ولذلك فهو يفزعني . وأقول محذراً نفسي ، بأنني لن أفقد سناء ، إلا بسبب خوفي من أن أفقدها . ومع اقتراب نهاية الصيف ازدادت حساسيتي نحوها ونحو العلاقة التي بيني وبينها . لم أعد أرى نفسي إلا ذلك الراقص الذي يحمل فوق رأسه جراراً لا تحصى ، ويمضي ناشراً ذراعيه في الهواء ، مشدود الأعصاب ، محتبس الأنفاس ، يحسب لكل حركة حسابها لكي يحفظ توازنه . وصرت كلما رأيت زميلاً في الجامعة يأتي لتحيتها ، أو الحديث معها ، أتوجس شراً ، وأخشى أن يكون شريكاً في مؤامرة يريد إبعادها عني . كنت أغضب ، ولأنني أحمل وعي راقص الجرار ، كنت أضبط أعصابي ، بمثل ما يفعل الراقص عندما يضيفون جرة أخرى إلى الجرار التي يحملها . وأعود ليلاً إلى غرفتي لأعنف نفسي ، لأنني بطريقة لا أعيها ، ولا أفهم دوافعها ، ولا أستطيع لها رداً ، أقضي نهاري أحفر هوة أعرف أن لا أحد غيري سيسقط فيها . صرت عصبياً ، فقد بدأت الزوابع التي تهب باستمرار تنبئ يقيناً ، بأن الصيف يلفظ آخر أنفاسه . بدأ سكان القرية يغادرونها . وجاء عامل من عمالها ، يوقظني من نومي ، يحمل بطاقة تركها لي أنور جلال ، تقول بأنه سوف يغادر القرية بعد أسبوع ويدعوني لحضور هذه السهرات الأخيرة . فصل يموت ، وفصل آخر يولد . وسوف أحتاج لعقلي كاملاً ، أواجه به هذه اللحظة القاسية التي يشتبك فيها موت الفصول وميلادها . هذه الريح التي تعارك الأبواب والشبابيك ، وهذه الأمواج التي تصفع الصخور ، وهذا الصباح الخريفي الذي يلوث الطرقات بأوراق الأشجار الساقطة ، وهذه القرية الخاوية التي سحب عنها الصيف رداءه البراق ، وأبقاها عارية من زينتها . كل هذه المشاهد الموحشة لن تأخذ مني سناء . سأذهب الآن إليها . سأبقى بجوارها ، أشبك ذراعي بذراعها ، وأستمد من سنائها شجاعة تعينني على عبور قنطرة الفصول . لم يكن ممكناً بعد الآن ، أن نمضي مع روتيننا

القـديم . صـار علينا أن تتلمس طريقنا نحـو التـوافق مع إيقـاع الفـصل الجـديد ، ونخـتـرع زمناً يخـصنـا ، تواجـه به خـواء الخريف ودورته الزمنيـة المعـادية للأشـجـار والأزهار والطيور . ليس هناك غير البيت مكاناً لقضاء أوقات الفراغ ، خاصة في هذا الجـو الذي ينذر بالعواصف الترابيـة . تناولنا طعـام الغـداء . شربنا القـهـوة واسـتـمعنا إلى أخيـهـا يعزف على الكمـان لحناً مـدرسيـاً وطالعنا الصحف التي اتشريناها هذا الصباح . ولكن كل ذلك لم يستغرق سوى ساعة واحدة . وجدت نفسي فـجأة أقف وأستأذن في الذهاب . كـانت الأم قـد أحضرت مـشـروباً بارداً وجلسـت تعـتـذر عن ضـربات المطارق التي تتناهي إلينا من الطابق الأعلى . فـالجيران يصلحون شـقـتهم ، وسينتـهي الإزعاج بانتهاء هذا اليوم . وقـفت قبل أن تنتهي من كلامها أستعد للانصراف . فعلت ذلك بطريقة عصبية جعلت سناء تسألني عما يضايقني . انتبهت إلى أنني أدير سلسلة مفاتيح السيارة بين أصابعي في تشنج ظاهر . أوقـفت دورة المفـاتيح وقلت بأنني يجب أن أذهب الآن ، لكي أتصل بالسماسرة الذين وعدوني بالبحث عن شقة . جلست أمام مقود السيارة ، ودوي المطارق يملأ رأسي ، والريح تكتح ترابها كأنها أرملة تنوح على زوجها الميت . لم أذهب إلى مركز المدينة أبحث عن السماسرة ، وإنما أقفلت عائداً إلى الشاطئ . أخذت كتاباً وجلست وحيداً في مقهى القرية . لأول مرة ، منذ أن عرفت سناء ، أترك صحبتها وأرفض دعوتها للبقاء ، وأرحل عنها لكي أنفرد بنفسي ، هارباً من جلسـة البيت ، ودوي المطارق ، وعزف الصبي ، وحـديث الأم عن غـلاء أسـعـار الخضار في فصل الخريف . انقطعت الحبال التي تصلني بمثل هذه الأجواء العائلية بطقوسـهـا وروتينهـا ، فلم أعـد قـادراً على التـآلف معـهـا . شيء محزن أن أشـعـر بالضجر وأنا أجلس قريباً من سناء ، معلقاً بصري بأهدابها ، محاطاً ببهاء صوتها وابتسـامتهـا ودوائر ضوئها وعطرها ، ولكـن ماذا أفعل وأنا لا أريد أن أرى سناء إلا كـائناً اسـتـثنائيـاً ، لا تنتـمي مـثل النسـاء الأخريات إلى عـائلة وأم وأخ وجيـران يضـربون السـقف بمطارقـهم ، وإنما تنتـمي إلى شسـاعـة البـحـر ونداء الـفـجـر وغناء النجوم وإلى كل شيء مـبهـر وجـمـيل له بهـاء وجـهـها وضـيـاء عينيـهـا . لم يكن

البحث عن الشقة إلا عذراً أستخدمته دون أن أعنيه ، لأنني ما أن غادرت البيت حتى وجدت نفسي أضيق بفكرة الذهاب إلى السماسرة والاستماع إلى أكاذيبهم ، وجئت مباشرة إلى هذا المكان الذي لا يأتون إليه . كان المقهى خالياً . ليس به زبون واحد . حتى العامل لم يكن موجوداً . وعندما أظلمت الدنيا وانهمر المطر بشكل فجائي ، بدا لي وكأن ذلك يحدث بإشارة مني . إنها أول أمطار الخريف ، جاءت تعزف نشيدها الجنائزي ، رثاء للصيف الذي مات . هطل المطر قوياً ، وجاء مدفوعاً بقوة الريح يضرب الزجاج ويحجب الرؤية . ولم أستغرب عندما رأيت رجلاً يقف وسط المطر ، لا يفصل بيني وبينه إلا الزجاج ، يسيل الماء فوق وجهه وشعره وهو ينظر نحوي ضاحكاً . إنه يحمل ملامحي ، ويستعير لون ضحكتي ، إلا أنه يضحك الآن بشكل أهوج ، جنوني . كدت أرميه بالكتاب الذي معي ، عارفاً أنني لا أرمي إلا نفسي ، ولا أرى إلاّ صورتي فوق الزجاج الذي تضربه الأمطار . ليتني أستطيع أن أبادله الحديث ، وأصل إلى اتفاق معه ، بحيث يأخذ أي شيء آخر يريده ويترك لي سناء ، فلا يتدخل لإفساد حياتي معها . كان صوت المطر قوياً ، وكان الزجاج حاجزاً يفصل بيني وبينه استبدلت صحبة سناء بصحبة هذا الرجل المشوه الذي يسكنني ، وما أن يهطل المطر حتى ينسل من جسدي ويقف شامتاً بتعاستي . ما فعلته اليوم مع سناء كان شيئاً ذميماً . ألم يكن ممكناً أن أستخدم أسلوباً أكثر لياقة ، وأقل تشنجاً عندما خرجت . هل كان سيكلفني جهداً كبيراً لو حاولت التآلف مع أسرتها وبقيت معهم ، أو اقترحت تغيير المكان والانتقال إلى مكان آخر . كل ذلك كان ممكناً ، فلماذا أترك الطرق الآمنة ، ولا أسلك إلا أكثرها عنتاً ، وعذاباً لي ولمن معي . ترى ماذا قالت الأم وأنا أقاطع كلامها وأمضي هارباً ، وماذا كان رأي سناء وهي تراني أتصرف بهذه الحماقة . هل يكفي أن أقول لنفسي بأنني لن أعود لمثل هذا السلوك فيتحقق قولي . إنني لا أعرف فالشخص الآخر الذي يتنفس تحت جلدي لا أمان له . ولكنني سأحاول .

توقف المطر عن الهطول ، بينما ظلت امرأة الريح تندب أهلها الموتى . رأيت

الصخرة البركانية الكبيرة ملقاة على الشاطئ يرقص فوقها الموج ، فتساءلت بيني وبين نفسي :

- متى كانت آخر مرة ضرب فيها الزلزال هذه المدينة .

رجعت مساء اليوم التالي إلى غرفتي وأنا أكثر رضا على نفسي . أمضيت يوماً جميلاً مع سناء . رجعت بها من الجامعة إلى البيت لأجد أنها أعدت لنا هذه المرة لعبة جديدة لتمضية الوقت . استعارت شريطاً يحتوي فيلماً لمحمد عبد الوهاب وقامت بعرضه على جهاز الفيديو . جاء الفيلم نسمة رخية ، تحمل عبير أزمنة أكثر صفاء وعذوبة .

- ما أحلاها عيشة الفلاح .

كانت أزمنة تعرف كيف تحتفي بالأوهام الجميلة . استقبلت الغناء والأحداث التي ترويها قصة الفيلم ، بنفسية تعشق الحنين إلى الماضي ، واستحضار عوالمه الذائبة في سيولة الزمن . لم يكن يعنيني أن أفتش عن الظروف التي كان يعيشها الفلاح في تلك الحقبة ، فقد بدا الفيلم ببساتينه وفلاحيه وحقوله ونواعيره وسواقيه منسجماً مع منطق الأغنية . تعاونت الصناعة اليابانية الحديثة ، وبساطة الأفلام العربية القديمة ، في إضفاء جو على جلستنا كان مفقوداً في اليوم السابق .

أتاح لنا الفيلم فرصة أن نتحاور حول تبدل الأزمنة وما تحدثه من تحول في القيم والمفاهيم ، وصولاً إلى حياتنا العصرية وما طرأ عليها من تعقيد . وفي حين كنت أميل إلى تمجيد الماضي ، وإضفاء طابع رومانسي على أحداثه ورموزه وسلوكياته ، كان حديث سناء هجاءً للماضي ، وانحيازاً للتقدم الذي حققه الإنسان في العقود الأخيرة . تألقت وهي تدافع عن أطروحتها . جلست متوثبة على حافة كرسيها . تكلمت بيديها وملامح وجهها وأهداب عينيها وارتعاشة قرطين بأذنيها ورفيف خصلة شعر فوق جبينها . أسرفت في استعمال صيغة استفهامية في أعقاب كل جملة تقولها ، لأجد نفسي متورطاً بالموافقة كلما سمعتها تقول «أليس كذلك»؟ ، ولكنني مدفوعاً بمتعة الاختلاف معها سرعان ما

أعود لمشاكستها ومحاولة الرد على أقوالها . وفي حين كنت أستعمل لغة عاطفية وجدانية لا تهتم بالبحث عن البراهين ، كانت هي تستخدم لغة علمية ، مليئة بالاستشهادات التي تأتي بها من مجال تخصصها ، عما وصل إليه معدل عمر الإنسان ، وما حققه الطب من معجزات وما عرفته الجراحة من تطور يشبه السحر ، ولكنه سحر العلم وليس سحر الخرافات . وتشير بإصبعها إلى ما تحتويه الغرفة من أجهزة حديثة ، لا نتصور أن الحياة يمكن أن تمضي بدونها ، في حين أن الأجيال التي سبقتنا لم تكن تحلم حتى بإمكانية وجودها ، وما هذا كله سوى البداية ، لأن الأيام القادمات ستكون أكثر إبهاراً وإعجازاً . بحماس دافعت سناء عن عالم اليوم ، وأعلنت انتماءها للغد الأبهى الذي سوف يأتي . وكان أكثر ما أسعدني هو هذا الاختلاف الذي نشأ بيننا . لم أستطع إلا التسليم بمنطقها ، ولكنني أردت أن أحتفظ بهذه الإثارة التي يصنعها تباين الآراء ، فقلت مبدياً تحفظاً أخيراً :

- اعذريني إن كنت لا أستطيع أن أثق بالمستقبل كل هذه الثقة ، لأنه في مكان ما من هذا المستقبل ، في مكان ما منه ، يكمن لنا الموت .

كانت جملة كئيبة . لكنها لم تطفئ حرارة الانفعال الذي يتدفق ساخناً في صدري . أنعشتني هذه المناقشة التي أعادت إلى علاقتنا تلقائيتها وحررت نفوسنا من مشاعر الخوف والحرج . إن العطب الذي رأيته يتسلل إلى علاقتنا لم يكن إلا وهماً . والطائر الذي يحوم في سمائنا لم يكن إلا نورساً جميلاً ظننته غراباً . وهذا الخوف من أن أفقد سناء لم يكن إلا وسواساً أشفاني منه صفاء هذه الجلسة . وحامل الجرار عليه أن يعود إلى الرقص متحرراً من حمله الثقيل ، ليقفز في الهواء ، ويرتمي وسط الماء ، ويرقص على أنغام عازف أسباني فوق الرمال ، فقد صار آمناً من كل خوف . وهذا الطقس البديع الذي استعار أنسام ربيع ما زال جنيناً ينتظر الولادة بعد ستة أشهر ، ليس إلا انعكاساً لصفاء الروح وبهجتها . كنت سعيداً سعادة تضيق بها الأسقف والجدران ، والأماكن المغلقة . غادرت غرفتي وخرجت أتجول ليلاً عبر طرقات القرية وحدائقها . أتأمل التماعات

الأضواء البعيدة فوق مياه الطرف القصي من الشاطئ ، وأرقب العتمة الزاهية التي تغطي سطح البحر وأستقبل أنسامه المحملة بشذا الأبد . يشملني إحساس بالزهو وحب لهذا الكون الفسيح ، العامر بجمال يكشف لي الآن أسراره ، ويسمعني أغانيه ، ويمنحني مفاتيحه . لأكن ذرة ضئيلة من ذرات هذا الكون ، فأنا فخور بانتمائي إليه وقدرتي على الانسجام مع إيقاعه وموسيقاه . كانت سناء قد خرجت تودعني أمام البيت ، رأيت المكان خالياً من الناس فطبعت على فمها قبلة سريعة وذهبت . طعم تلك القبلة ما زال لاصقاً بشفتي ، وتأثيرها مازال يشملني بسلامه المضيء . وحدائق القرية من حولي تضوع برائحة المطر الذي سقاها بالأمس . مررت قريباً من شقة أنور جلال ، وتناهى إلى سمعي صوت العزف على العود ، فطربت له . بدا لي وأنا أسمعه من بعيد مختلطاً برائحة الأشجار ويود البحر ، أكثر متعة وشفافية مما لو كنت أجلس بمحاذاته . وقفت أنصت إليه دون أن تراودني أدنى رغبة في الانضمام إلى السهرة . كنت مملوءاً بسعادتي الخاصة . متوافقاً مع حفيف أنفاس البحر ، وعبير الأرض ، والموسيقى التي تعزفها أشجار الليل ، وفضة الزبد الذي يصنعه الموج ، مأخوذاً بضوء نجمة بعيدة تتألق في وحدتها على حافة الأفق . اعتبرتها عاشقة مثلي ، فأنشأت معها تواصلاً حميماً . منتشياً بهذه اللحظة المبهجة ، التي تأتي وكأنها مقطوعة الصلة بما مضى أو بما سوف يأتي . لحظة تكتفي بذاتها ، وتزهو بامتلائها ، حتى تهيأ لي وكأن هذه اللحظة على عكس مثيلاتها من اللحظات الأخرى ، لن تموت وتتلاشى في الفضاء اللانهائي ، لأنها بمثل ما كافأتني بهذه النشوة ، فسأكافئها بأن أحملها دائماً معي .

قالت سناء ونحن نجلس في صالون بيتها :

- إنك جالس ولكن قدمك تمشي . فإلى أين وصلت؟

انتبهت إلى أنني فعلاً أضرب بقدمي الأرض وكأنني أمشي ، لا بد أنها وسيلة أعالج بها القلق . إحساس خادع بالمشي ، وتعبير عن رغبة لا واعية بمغادرة المكان . هذا ما انتبهت إليه سناء قبل انتباهي إليه وأدركت بشفافيتها ، وسر

التواصل الذي بيننا ما أردت أن أقوله قبل أن أقوله ، عندما اقترحت أن نترك البيت ونتجول قليلاً بالسيارة .

لماذا يأتي من حيث لا أدري هذا القلق المجاني الذي لا دافع له ولا سبب لانبثاقه . بجواري تجلس المرأة التي وعدتني بها الملائكة أثناء الحلم ، ومن حولي هذه الحفاوة التي تقابلني بها الأم وكأنني ابن غائب عاد إليها في أزمنة الحرب ، وأمامي فناجين القهوة ، وصحون الجاتوه ، وقريباً مني لعبة مسلية جاءت من اليابان تعرض الأفلام وتطرد الملل . فلماذا ، وسط هذه الضيافة الكريمة الحنونة ، يسوقني الفضول إلى البحث عن مكان آخر ، أعرف أنه لا وجود له ، وأنه لا مكان في هذه المدينة أفضل من هذه الجلسة الدافئة ، الآمنة ، المحصنة بعزلتها عن بذاءة العالم الخارجي . أخذنا السيارة ، وذهبنا نطوف بها شوارع طرابلس ، بحثاً عن لحظة اندماج معها ، ورغبة في تجديد الوشائج التي تربطنا بها . وكأننا نريد أن نختبر حكمة هذه الأقدار التي اختارتها لنا واختارتنا لها . ولكنها ظلت ، وبرغم صلة الدم التي تربطنا بها ، تمنحنا وجهاً مقفلاً لا يعد بأية مسرة . مغلفة بأزمتها . لم تعد قرية ولم تصبح مدينة بعد . لا هي شرقية ولا غربية . لا تنتمي إلى الماضي ولا تنتمي إلى العصر . معلقة بين البحر والصحراء ، وبين زمن مضى وزمن لا يأتي ، تعيش مأزقها التاريخي ، منذ أن تخلت عن طبيعتها القروية وفشلت في اكتساب طبيعة جديدة . انتهى الزمن القديم بأفراحه البدوية ، وحلقاته الشعبية التي تعقد في الأسواق وموالد الأولياء ، وخفلات ختانه وأعراسه ، وبيوته المتداخلة المندمجة في بعضها البعض ، وقد اكتظت بسكانها الذين يصنعون لكل مناسبة عيداً . وباغتها زمن جديد لم تكن مهيأة له ، أو راغبة في أساليب حياته العصرية ، فرفضت الانتماء إليه ، وظلت معلقة بين ماضيها وحاضرها ، لا تجد شيئاً تنتمي له أو ينتمي إليها ، تنظر بريبة وخوف إلى العالم الذي يحيط بها . أخذت من العصر الجديد ، شبكات الطرق الاسفلتية التي تحرقها الشمس ، وصناديق العمارات التي يسفعها الريح وتتكدس حولها الأتربة ، ويسكنها بشر خرجوا من خباء القبيلة ولا يعرفون التعامل مع جيرانهم الذين

جاءوا من قبيلة أخرى إلا بمنطق النظرات المذعورة التي تطل من وجه إنسان مشنوق . ثم ركام هائل من الحديد الذي يقذف به البحر على شواطئها كل يوم ، في شكل سيارات ومصاعد ومطابخ ومدافع وأسياخ تصنع منها منصات الخطابة . وما عدا ذلك فقد ظل هذا الجديد شيئاً لا تقوى على الاقتراب منه ، حتى لو أدركت أن بعضه ضروري لاستكمال شكلها الحضاري ، فإن قلبها البدوي يرتعب عندما يأتي ذكر الأندية والمسارح والملاهي والحانات والمكتبات وقاعات الرقص ومدن الألعاب ومراجيح الأطفال ودكاكين الورود وجمعيات الرفق بالأطفال والأشجار والطيور ومستشفيات القطط والكلاب ، كبديل لزهدها البدوي وأفراحها القروية القديمة التي انقرضت يوم أن خرج أهلها يحرقون الأشجار ويستبدلونها بأعمدة الاسمنت ، ثم قاموا بمسيرة جماعية لنحر جمالهم واستبدالها بحشرات حديدية يركبها الواحد منهم وكأنه نبي تخلف عن عصره وجاء يركب براقه كي يلحق بهذا العصر . أصطحب معي سناء في السيارة وأطوف بها الشوارع في دورة عبثية . أخرج من شارع ثم أجد نفسي أعود إليه باحثاً عن مكان يمتص هذا الفراغ ، ويقدم لرجل وامرأة لحظة ترويح قصيرة ، دون أن أهتدي إلى مكان واحد يمكن أن أذهب إليه برفقة سناء . المطاعم ليس وقتها ، والمقاهي اكتفت بمجتمعاتها الرجالية ، ودار السينما الوحيدة التي يذهب إليها النساء والرجال تعرض فيلماً هندياً بترجمته الركيكة وقصته المتكررة المليئة بالفواجع والدموع . أنفخ بوق السيارة قرفاً ، وتذمراً من حركة السير وبطئها . وإشارات المرور التي تناكفني وتضيء عينها الحمراء كلما اقتربت منها . أمد عنقي خارج النافذة أشتم سائقاً جاء من شارع جانبي ومرق بسرعة من أمامي ، فأدوس على فرامل السيارة بشكل فجائي يرعب سناء ويضرب رأسها بالزجاج . تضع يدها على جبينها تتحسس أثر الضربة ثم تضحك في لامبالاة . أنتبه إلى أنني استعملت عبارة بذيئة لم يسبق أن قلت مثلها في حضور سناء . أعتذر لها ملقياً اللوم على هؤلاء الرجال الذين صارت السيارات وسيلتهم الوحيدة للتنفيس عن لحظات الغضب والتوتر والكبت الجنسي والقهر الاجتماعي والاختيارات المفروضة وقبح الحياة في مدينة خاوية

مثل صدفة حيوان بحري ميت ، ملقاة فوق رؤوسهم على شاطئ البحر .

تقول سناء وهي تغطي بضحكتها حرج الموقف :

– يجب أن تكتب أطروحة حول هذا الموضوع .

– لن أكتب شيئاً يساعدهم . دعيهم في هذا البؤس فهو يليق بهم .

– ولكنك تقود السيارة بطريقة عصبية مثلهم .

– ألا يقولون ، من عاشر قوماً صار منهم . فما بالك وأنا فعلاً منهم .

– يا خيبة المسعى . كنت أظن أنني التقيت برجل استثنائي .

قادرة هي على استحضار الدعابة التي تذيب التوتر . إنني لست رجلاً استثنائياً فلماذا إذن هذا الاعتذار عن إبداء كلمة جنسية أمام امرأة ستكون بعد أيام زوجتي . لم أقل شيئاً . أدرت رأسي أنظر إليها باسماً . وجدت أن وجهها الذي صار أكثر تورداً بسبب ارتطامه بالزجاج ، يضيء الآن بنداءات عذبة ، ورأيت فمها بانفراجة الدهشة التي لم تفارقه بعد ، شهياً ، لذيذاً ، يشعل قناديل فتنته في صدري . انعطفت بالسيارة إلى الطريق الساحلي . وأوقفتها في ركن من أركانه ، أطلب لحظة أستلقط فيها أنفاسي . اخترت الوقوف بجوار تمثال الغزالة ، أستعيد بالنظر إليه دهشتي القديمة عندما رأيته لأول مرة . تغيرت معالم المدينة ، وتبدلت العهود ، وبقي هذا التمثال في مكانه ، محاطاً بست نخلات رافقته منذ بداية وجوده ، تدور حوله الأزمنة والسيارات ، وتمر بجواره مواكب الحكام الذين يأتون ويذهبون ، وهو ثابت ثبات حقائق الحياة ، يفيض بهاء وسحراً ويحكي قصة تتصل بحميمية الخلق وإبداع الحياة وتقبض على أكثر المعاني جوهرية في الطبيعة البشرية . امرأة عارية ، تحف بها نوافير الماء وهي تمسك غزالة هاربة . قصيدة من الحجر . ورخام يغسله الماء ويقول كلاماً صامتاً ، يبدأ ولا ينتهي . وتكوينات تتفجر بمعان حسية متمثلة في هذه المرأة التي أمسكت عنق الغزالة الشاردة بيد ، وأمسكت بيدها الأخرى جرة الماء ، فاستطال العنق ونفرت النهود وامتلأ التمثال بالدوائر الموحية . حوار مشحون بالدلالات بين هذه المرأة وهذه الغزالة وهذا الماء ، وسط حلقة من أشجار نخيل ترفع رؤوسها إلى السماء ،

متواطئة مع سيدة الرغبة . مشهد يغرس جذوره في الحلم ، وينتشر في خلايا الجسد ، نابضاً بإيقاعاته السرية ، حيث يتحول الجنس إلى صلاة ، والغزالة الشاردة ذات الرشاقة والبهاء إلى رمز للرغبة ، والمرأة التي جلست عارية فوق صحن الماء ، ونشرت ذراعيها ، ورفعت وجهها ونهديها ، ليست إلا رمزاً للأنثى الخالدة ، التي إليها تسافر القلوب العطشى ، الراغبة في الارتواء من جرارها .

قالت سناء وهي تراني أطيل النظر إلى التمثال :

– كأنك تشاهده لأول مرة . هل يقول لك شيئاً؟

– إنه يقول أشياء كثيرة . وأنت؟

– لا أرى سوى غربة هذه المرأة وغزالتها ، وسط ميدان يمتلئ بضجيج الشاحنات ودخانها .

تذكرت أن هذا الميدان لم يكن ميداناً عندما كنت طفلاً ، كان جنينة ورد عامرة بالطيور وأحواض الماء . نظرت بأسى إلى التمثال ، وإلى حدائق الطفولة الضائعة ، وانطلقت بنا السيارة ، عبر الطريق المحاذي للبحر ، حتى وصلنا قرية الشاطئ السياحي . وقفت أمام بابها أسأل سناء ، فيما إذا كانت توافق على قضاء بعض الوقت بها . هزت كتفيها دون مبالاة . كان الجو في تمام اعتداله . لم يكن برداً ولم يكن قيظاً . لم يكن ساكناً ولم يكن متحركاً . ولكن القرية السياحية ، لم تكن هي القرية التي عرفناها خلال الأشهر الماضية . اختفى البشر والضجيج ولم يبق سوى الصمت وضوء الشمس ، يغطيان أبنيتها البيضاء . وموقف السيارات أضحى متاهة هائلة من الفراغ والأسفلت . وحوض السباحة صار الآن حفرة زرقاء خالية من بهاء الماء ،شبكنا أيدينا ، وسرنا عبر الممر الحجري الذي يفصل بين أبنية القرية ورمال الشاطئ . إطلالة أخيرة على زمن يهرب من بين أصابعنا . وثمة قارب ملقى على رمال الشاطئ تغطيه النوارس . تطير حوله في الفضاء ، أو تمضي طافية فوق الماء ، ثم تعود إليه مرفرفة ، ومصفقة بأجنحتها الرمادية البيضاء . لم أكن قد شاهدت نوارس بهذه الكثرة عندما كان الشاطئ يزدحم بالمصطافين . قلت لسناء :

- ما رأيك أن نأخذ هذا القارب ونسافر .

رحلت بعينيها إلى القوس الذي تصنعه السماء وهي تنحني فوق البحر .

- إلى أين؟

- لم يكن سندباد ، ليكون السندباد الذي يبهرنا لو أنه سأل نفسه إلى أين سيسافر . سحر المغامرة يكمن في أن ننسى هذا السؤال .

- على أيامه لم تكن هناك تأشيرات وجوازات سفر وبوابات حدود ودوريات حراسة تحمل البنادق .

- إن لك ذاكرة جديرة بامرأة عربية لا تفكر إلا بالحواجز والحراسات . ألا تنسين كل هذا وتعتبرينه جزءاً من المغامرة؟

وضاحكة قالت :

- سأخذلك هذه المرة وأقول هيا بنا .

سوف نسحب هذا القارب . نتكىء فوقه متعانقين . ندير المحرك ليرقص القارب فوق ثبج البحر ، ويشق بنا غلالات الماء متجهاً إلى الشاطىء الآخر . ترافقنا نوارس الحب ، وتغني لنا جنيات البحر ، وترسل لنا جزيرة مجهولة لا تكشف نفسها إلا للعاشقين نداءها . تدعونا إلى عرس تقيمه لنا أشجارها ، ولكن من أين يأتي هذا الوهن الذي يمنعنا من تحقيق الأمنيات العذاب؟ . لماذا تنهار العزائم ، وتذوب الأحلام في أبخرة البحر ، ونرحل دون رحيل . وعلى مدى البصر ، كان البحر يتوهج بصفاء المرايا ، وكانت يدي التي تحتوي يدها ، مصدراً لعذوبة تسيل عبر أنسجة الجسم وخلاياه ، وتتركز في نقطة ما تحت أضلع الصدر . أدرت بصري إلى حيث أدارت هي وجهها . في مكان ما من أبنية القرية ثمة أناس ينقلون أمتعتهم .

- رحلوا جميعاً ولم تبق إلا أنت . سيطرودنك قريباً دونما ريب .

- أضحى الحصول على الشقة احتمالاً قابلاً للتحقيق في أية لحظة .

تركت أحلام السفر إلى الشاطىء الآخر ، والأعراس التي تقيمها الجزر المجهولة للمحبين ، وعدت أجابه حقائق الواقع بطعمها اللاذع . شرحت لها كيف أنني

توسلت بزميل يعرف زميلاً آخر يعرف قريباً لمسؤول الإسكان ، الذي وعد قريبه بأن يتدبر لي سكناً في الأيام القريبة . لم أسمع منها تعليقاً وكأنها لا تثق بصدق هذه الوعود التي ينقلها رجل ، يعرف رجلاً ، يعرف رجلاً آخر ، يعرف مسؤول الإسكان . ولكننا لن ننتظر إذناً من أرباب الإسكان حتى نقيم العرس ، فنحن في عرس ، قلت لها في خاطري ، منذ ألف سنة مضت .

كانت هي مشغولة بتأمل الدوائر التي يصنعها نورس يلاحق نورساً آخر . لعلهما ذكر وأنثى يلعبان تلك اللعبة التي بها وحدها نصنع الحياة ونحمي أنفسنا من الانقراض . كانت ترفع رأسها ، فتظهر التماعات الشمس فوق صفاء جيدها . جسد يرسل شراراته المحرقة .

بدأت أشعر بوهج الشمس يثقل رأسي ، فاقترحت عليها أن ننتقل إلى داري ، نشرب القهوة ، ونرتاح قليلاً من المشي في الشمس . وضعت السخان فوق النار ، ووقفت أراقبها وهي تعيد الأشياء المبعثرة إلى نظامها ، محاولاً دون جدوى أن أتحاشى النظر إلى انحناءات الجسد واستداراته ، وهي تتحرك تلتقط قميصاً أو منديلاً أو كتاباً رميته بإهمال فوق المقاعد ، كي تعيده إلى مكانه ، أو تمسح الغبار عن راقصة المعبد الهندي ، أو تأخذ إبريقاً تملؤه ماءً وتسقى به النبتة في حوضها .

– لعلك لم تأت بي هنا إلا لهذا السبب .

وقفت أمضغ ريقي وأنظر إلى سمانتي ساقيها . ترسلان من خلف الجوارب الشفافة ، دوائر مغناطيسية تمزق أنسجة القلب . سيكون إهانة لجمالك لو جئت بك فقط لترتيب داري . إهانة لن يغفرها لي الشاعر بندار الذي جاء يبارك عرسنا عندما استأنفنا لقاءنا بحديقة زيوس المفضلة . ولن تغفرها لي الربة ليبيا التي أرضعتك من حليب نهديها ، وقضت زمناً طويلاً تصب رحيق أزهار الليل في شعرك ، وتعصر نبيذ الفجر في شفتيك ونهديك ، وتصنع من فضة الندي ورغوة الصبح صفاء جيدك ونعومة أصابعك ، وتسكب حرقة الأغاني التي تنشدها الحقول في جسدك . تمنحك كل ما لديها ، فلا يبقى للآخرين إلا الخلاء وهبوب الصحراء . لقد باركت الربة ليبيا أيضاً عرسنا ، فإلى متى نؤجل هذا الزفاف؟ .

أستطيع أن أدرك في هذه اللحظات ، أن شيئاً سديمياً ، غامضاً ، كان يدفعني بإلحاح إلى أن أدعوها إلى مرافقتي والاختلاء بها في هذا المكان . جلسنا نشرب القهوة ونتحدث عن التحضير للعام الدراسي الجديد . كانت هي قد علقت سترتها الصيفية الزرقاء على كرسي بجوارها ، وبقيت بقميص مقصوص الأكمام تمتد أزراره فوق منبت النهدين . اتكأت بمحاذاتي على الأريكة ذات القماش الذي يغطيه وبر برتقالي اللون . وسال شعرها قريباً من وجهي يضوع بروائح يختزنها ، لها نكهة الخضاب الذي تستعمله العرائس . انحسرت تنورتها الزرقاء عن ساقين كجدولين من عسل الجنون ، وبدت في وضعها المتكئ الانسيابي وبشرتها التي أنضجتها ثلاثة أشهر من الرمل والشمس وملوحة البحر ، تشع بجاذبية أنثوية لها لسعة الجمر . كنت متوتراً . تحت أجفاني أختزن حرارة الشمس ، وفي رأسي فرقة أذكار تضرب دفوفها وصاجاتها الصاخبة . أسقط نظراتي في فنجان القهوة ، مدارياً رعشتي ، متحاشياً النظر في عينيها لكي لا تفضحني نظراتي . أحارب رغبة تتملكني وتقذف بي مثل البراكين ، في أودية النار . قمت فأسدلت الستارة البيضاء فوق النافذة المفتوحة . لعل لهذا الإحساس علاقة بشعاع الشمس الذي يتكسر على المرآة ، ويرسل وهجاً قاسياً يجرح العينين .

صرت أقول كلاماً عن الجامعة بينما فكري شارد ، يقول كلاماً آخر عن العشق والانسحاق والجنون . أضع رأسي في الأرض ولكن الجزء الذي انحسرت عنه تنورتها فوق الركبة ، يضيء بألوان تستقطب نظري فيتجمد فوقها . قلت لها ، إنني بطبيعتي لست معلماً ، لأنني لا أملك ذلك الحس الذي يملكه معلمون يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة في الحياة ، بل إنني أستهتر بأصحاب الرسالات الذين جاءوا بعد عصر انتهى فيه التواصل بين الأرض والسماء . وكأنما أحرقتها النظرات التي اختارت مربعاً صغيراً من جسمها تستقر فوقه ، مدت أصابعها تشد طرف التنورة فوقه . واصلت الحديث وأنا أراقب تلك المعركة الدائرة .بين أصابع لها لون البلح الناضج عندما يلمع صافياً في عراجينه ، وبين القماش الأزرق الذي يرفض أن يغطي سطوع تلك المنطقة فوق ركبتها ، قائلاً بأنه رغم نفوري من التدريس

فإنني لا أتصور لنفسي مهنة أخرى غير هذه المهنة . لا أطيق أن أكون موظفاً مربوطاً بساعات الدوام الرسمي أو تاجراً أو مقاولاً أو سمسار عقارات أو علاقات ، ولا أملك موهبة تجعلني أنتمي إلى عالم أنور جلال بلهوه ولعبه وأضوائه ، ولأنني لم أولد من الوارثين المحظوظين الذين يتمتعون ببطالة تستمر مدى العمر ، لم أجد إلا التعليم ملاذاً أهرب إليه . كلاماً كنت أقوله لأخفي به كلاماً آخر ، أجد حرجاً في البوح به . عن هذا المخزون من الوجد والمواجع والضنا الذي يعصف بأشجار الروح ويضربها بسياط البرق والريح . عن العراك الذي ينشب بين الماء والنار وبين البحر والصحراء وبين عتمة الأنفاق وضوء النهار . عن عنف الفصول التي تدور حولنا في رقصة وحشية كأفراد قبيلة بدائية يدورون في الغابة حول فريستهم . عن الغناء الحارق اللافح الذي يغنيه طائر أطبق الفخ على أحد جناحيه وبقي الجناح الآخر يرف ويرتعش مهستراً محموماً طالباً النجاة . عن علامات أراها تلمع في أفق يشتعل بألوان مبهرة ، تخترق صلابة الجدران وكثافة الحجر وتضيء العتمة والسديم . عن حدث غامض ، مثير ، كصرخة الاستغاثة ، أترقب وقوعه ، وأمضى مشدوداً إليه بقوة لا أستطيع لها دفعاً . عن شرارات يضرمها في دمي حضورها العسلي وعن زهرة لها تويج من نار تحرق صدري منذ أول يوم رأيتها فيه ، تحمل زهرتها الحمراء ذات الساق الطويلة والرائحة المسكرة وتقف فوق جبل تغطيه أنوار فجر جديد .

لم أعد أقوى على رفع الفنجان بيدي المرتعشة فتخليت عنه . يجب أن أستفيد من هذه الخلوة التي لن يتيحها لنا الصيف مرة أخرى ، وأقول لها شيئاً عن فعل الحب الذي يصبح في حالتنا طقساً ضرورياً يحقق به الحب زينته واكتماله . إننا نخطئ عندما ننظر إلى الجنس معزولاً عن أشواق القلب أو نقيسه بمقاييس بيئة تقتات بخرافات ما قبل التاريخ ، بدل أن نقيسه بقوة الإبداع التي صنع بها الفنان تمثال الغزالة والمرأة العارية ، وجعل الجنس عبادة حرم الله منها الملائكة وأهداها لكائنات الأرض . إنها أيضاً تملك جسداً يتفجر بقوة الحياة وشهوتها ، فلماذا هذا الولاء الأعمى لعقلية تقمع الجسد وتحارب شوقه لأن يحيا . أضعنا وقتاً ثميناً ،

وحان يا سناء العمر وبهجته ، أن نوقف نزيف الزمن ونطفئ غلتنا من فاكهة الجسد ونبيذه . حان أن نقيم عرسنا بأنفسنا دون حاجة إلى انتظار سدنة هذا المجتمع وحراس أوثانه حتى يأتوا ويقيموه لنا . أردت أن أقول لها كل هذا الكلام ، عندما تركت سناء العبث بالوسادة المرقشة بالأسماك الحريرية ، وقالت شيئاً أفزعني وزاد من حرقة الدم تحت أجفاني . اقترحت فجأة أن نغادر هذه الغرفة بعد أن أكملنا قهوتنا . رفعت إليها بصري مستغرباً كيف لم تعرف حتى الآن سبب مجيئنا إلى هنا . اكتشفت وأنا أنظر إليها ، أن هناك بقعة صغيرة تتوهج احمراراً فوق جبينها ، تبقت من أثر اصطدام رأسها بالزجاج . تلمست البقعة بأصابع مرتعشة ، أبدي دهشتي واعتذاري . كان عملاً وحشياً عندما قدت السيارة بتلك الطريقة البدائية ، بدل أن أجعلها أرجوحة لبهاء هذه المرأة . رأيتها تستجيب لتوددي وتقترب مني حتى يلامس شعرها وجهي . أدركت أنها فهمت قصدي ، وسمعت ما كنت أقوله لها من كلام في سري . طوقت جسمها وقبلت تلك المنطقة المتوردة بين حاجبيها ثم غمرت وجهها كله بالقبلات . الشفتين والعينين والوجنتين . قبلت الشعر والعنق والصدر . قبلت اليدين ظهراً وكفاً ، والأصابع ذات النعومة والصفاء واحداً واحداً . وصرت هابطاً وصاعداً ألثم الذراع العاري الذي يسيل برحيق اللذة . كان قلبي يخفق كطائر ينبجس من عنقه الدم . وكان الدم يتدفق بعنف عبر شرايين الجسم وخلاياه ، فيجعله يرتجف كدراويش حلقات الزار . أنفاسي تتواثب لاهثة ، متقدة ، ملتهبة ، كأنها تعبير عن المواقد الكبيرة التي تشتعل داخل الصدر ، وفرقة الأذكار تواصل شطحاتها الصوفية المجنونة ، وضرب دفوفها وصاجاتها الصاخبة . لقد ظل حبنا ناقصاً عندما أرضى العاطفة وأهمل الجسد ، كمن يقفز فوق الأرض بساق واحدة في حين ظلت ساقه الأخرى موضوعة في الجبس . سأحرر الساق الأخرى ، وأحطم عنها الجبس . هنا في هذه الغرفة التي تقع بأقصى أطراف الأرض . ووسط هذه القرية الخالية ، المهجورة من سكانها ، بعد أن داهمها الطوفان الذي اجتاح الدنيا . لقد انحسر الطوفان الآن . لم يبق بشر فوق الأرض إلا أنت وأنا . وعلينا أن نصنع حياة

جديدة . نبني عالماً جديداً ، ونعيد لهذه الأرض الخصوبة والعمران . سنواجه الحياة بعد الطوفان معاً . مندمجين . متحدين . متداخلين . تكونين لباسي وأكون لباسك . تدخلين جسدي وأدخل جسدك . نتحد دماً ولحماً وعظماً وعصباً وشوقاً وضوءاً وطيناً . يدي تصبح الآن يدك . ذراعك تصبح الآن ذراعي . ساقك هي الآن ساقي . تندمج الأطراف وترقص الدماء وهي تعانق بعضها بعضاً . تختلط الأنفاس والرؤى والهواجس والأحلام والرغبات والذكريات التي صارت تسكن بيتاً واحداً ، هو هذا الجسد الذي لم يعد ملكاً لك أو ملكاً لي ، وإنما جسد نتقاسمه نحن الاثنان . معاً سنقهر الكآبة التي يصنعها رحيل الفصول . الفراغ الذي يتركه موت البحر . الفزع الذي تصيبنا به صحراء المدن التي تزهو ببؤسها وتشنق في كل صبح أطفالها . سنقهر الخوف والعجز والمرض . سنعبث بقوانين الزمن وأوامر ملك الموت ، ونطرد شيخوخة القلب وخواء الروح وأحزان الجسد . سترافقنا نوارس الفرح ونحن نرحل إلى الشاطئ الآخر الذي يليق بحبنا . إلى الجزيرة المجهولة ، المطمورة تحت الماء ، التي لا تكشف أسرارها إلا للعاشقين ، ولا تقيم أعراسها إلا لمن أضنته مواجع الهوى والصبابة حتى أشرف على الهلاك أو الجنون .

- أحبك ، أحبك ، أحبك .

أقولها بلوعة وحرقة واشتهاء ورعب . أقولها بمثل ما لم أقل أي شيء آخر في حياتي أكثر صدقاً وألماً ومعاناة . أقولها تعبيراً عن جذبة الروح ، ورقصة الجسد الذبيح ، وفورة الدماء التي تقيم أعراسها وتطلق بواريدها في رأسي وفي صدري . أقولها وأنا أعرف أنها عاجزة عن نقل هذا الدفق ، وهذا الفيض ، وهذه العواصف التي يصنعها اهتياج المشاعر وثورة العناصر التي تعلن الآن قيامتها . أحبها وأحس بحبها سكيناً لا مرئياً يغوص في جسدي . دمعة لا تفارق عيني . عشباً يشتعل تحت جلدي . دماً يتدفق حارقاً تحت أجفاني . ثوباً من الجمر أرتديه ويرتديني . فراشة تحملني فوق لهيب ألوانها ، وترفعني حتى ألامس زرقة السماء وأسمع زغاريد الملائكة وأطوف بين النجوم أسوقها كقطعان من غزالات الضوء والبهجة

أمامي ، وتهبط بي إلى عالم سفلي مليء بغيلان الظلام وشياطين الجنون ، وغناء الأفاعي التي ترقص نحوي وتتسلق جسدي . فأحس بحبها يؤلمني ويبهجني . يسعدني ويشقيني . يهلكني وينجيني . يميتني ثم يحييني . أحبها ، ولا أريد شيئاً من الدنيا إلا أن تنغلق علينا هذه الغرفة وتنسد منافذها بالحجارة والأسمنت والحديد ، ونبقى مقيمين بداخلها مدى العمر . ولسوف يصنع حبنا ملائكة يحملون موائد من السماء يخترقون بها السقف ، فنبقى في هذه الغرفة نأكل خبز الملائكة ، ونشرب نبيذهم ، حتى نشيخ ونثوى ، ونتحول إلى غبار فضي ، ثم نبعث معاً زهرة تنمو فوق قمة جبل ، أو نورساً يطير عبر المدى والبحر ، أو موجة تتحد بالأوقيانوس العظيم ، ترقص مع إيقاعه وتذوب في لازورده .

- أحبك ، أحبك ، أحبك .

غبار فضي أمامي ، غبار فضي خلفي . غصة تخنق حلقي ، . وجسدي الذي لم يعد جسدي ، ينفلت من قبضة الإرادة الواعية ، ويركب جواداً أسطورياً . يركض به ، ويلاحق غمامة تطوف السماء لكي يروي منها عطشه . غير عابئ بما سوف يأتي . مسكون بجنون الأيام التي قضاها باكياً ، مستجدياً حسنة لله ، أمام بابها المغلق . يطرق شبابيك الليل ، ويناشد أشباح الظلام . وينسج أحلامه من وحشة الطرقات ، فوق أرصفة مدينة تقتل العصافير وتخنق الأشجار وتحيل حدائق الورد إلى بيوت للشاحنات . محترقاً يتصاعدمنه اللهب والدخان . يعاني انسحاقه ونزيفه ، وتمزق أنسجته وشرايينه تحت وطأة الرغبات المحبطة ، وأغنيات الحب المشنوقة ، وأشواك اللوعة والأسى ، التي ظلت تجرحه وتدميه منذ أعوام الصبا . يحمل ميراثاً من الاضطهاد والحرمان عمره ألف عام . ويمضي صانعاً ميراثه الجديد . لا ينصت إلا لعزف الدماء في عروقه . ولا يرقص إلا على نزيف أوتاره . يركض ، ويركض ، ويركض .

- أحبك ، أحبك ، أحبك .

من أين يتفجر هذا الإحساس الجارح ، المتوهج ، المؤلم ، الرائع ، القبيح ، الجميل . ممزقاً كالبرق كثافة السجف السوداء ، مذيباً أبخرة تحجرت كالرخام تحت

الصدر . لا يأخذني في دوامة الاهتياج والاشتعال حتى أنسى نفسي إلى هذا الحد ، فلا أنتبه إلى فرقة الأذكار التي تركت دفوفها وصاجاتها ، وأمسكت خناجرها ، وجاءت لنحري قرباناً لإلهها الوثني الدموي الذي تعبده سراً . إلى الغابة التي تتحرك بأشجارها زاحفة نحوي . جبل الجليد الذي يصطدم الآن بأشرعتي . البواشق والعقبان والنسور التي جاءت تنهش الآن جسدي وتأخذ قطعاً من لحمي تطير بها . ما كنت لأنتبه ، وسط دوامة الشبق والهذيان والجنون ، إلى رعب ما حدث ، لو لم يرتطم رأسي بصلابة الأرض وأنا أسقط من أريكة الوبر البرتقالي ، متدحرجاً فوق البساط ، وقد تشنجت أطرافي تعتصر سناء الباكية الدامية ، التي تقاومني وتدفعني عنها دون جدوى . الآن فقط أستطيع أن أسمع صرخاتها ، وأرى الرعب الساكن في عينيها ، فأتركها تتحرر من قبضتي . تنهض وتعيد التنورة بسرعة وارتعاش إلى مكانها ، تغطي بها عري فخذيها . تضع قدميها في الحذاء ، وتخطف سترتها تغطي بها عري صدرها الذي تمزق عنه القميص . تعدو هاربة وخيط من بكائها يهرب منها ويعود ليلتف حول عنقي .

سكون مفجع يخنق الكون .

اختفى الصوت والضوء والهواء . واختفت سناء . لم يبق إلا وبر الأريكة يتناثر حولي ويغطي فمي وأهدابي كبقايا الإعصار الأصفر . أنهض مترنحاً مخنوقاً ، أتعثر في سراويلي وأحدق في الفراغ . يظهر أمامي رجل له ملامح لا أعرفها . زائغ البصر ، منفوش الشعر ، مقطوع القميص ، تغطي وجهه العتمة والجراح ونتف الوبر الأصفر ، كأنه قادم من أودية الغيلان . أراه فتنتابني حالة من الفزع والجنون . أدرك من فوري أن هذا هو الرجل الذي طاردني في كل مكان أذهب إليه . أندفع صارخاً في وجهه بأقذع الشتائم واللعنات . أقذفه بالأحذية والفناجين والمنافض والكراسي . يتحطم زجاج المرآة وتطير قطعة منه تصيبني تحت العين . أتجول في الشقة أهشم كل شيء تقع عليه يدي . الأكواب والصحون والأباريق . المذياع والمسجل والمرايا وزجاج النوافذ . أقذف فوق الأرض بالأشرطة وأمزق الكتب . أقلب السرير والدواليب والكراسي . أنتبه إلى أن راقصة المعبد الهندي التي تهشم

مصباحها ترقص الآن على أنغام الموسيقى التي تنبثق من تحت قدميها . أرتمي بجوارها وهي ملقاة فوق الأرض . إنها تختار وقتاً مناسباً للرقص والعزف . أنظر إليها مأخوذاً برقصها الدائري ، ومنتشياً برائحة الدم الذي يسيل لزجاً على وجهي . يجب أن أفصده دماً . لن أتحرر من هذا المسخ الذي يسكن جسدي ويستعيد روحي إلا بفصده دماً . بالبحث عن شفرة أو سكينة أمزق بها شرايين المعصم حتى أتحرر منه . سأموت وسيموت هو أيضاً معي . سيندلق دماً أسود متخثراً فوق الأبسطة والشراشف وحشو الوسائد المتناثر فوق الأرض . ليس لحياتي الآن أية قيمة وسيكون لموتي قيمة عظيمة عندما أجعله سبيلاً للانتقام منه . أستطيع أن أتذكر الآن ، أنني كنت واقفاً في زاوية من هذه الغرفة ، عندما انسل هو من جسدي ، وذهب يغتصب امرأتي ، وأبقاني عاجزاً عن فعل أي شيء لإنقاذها منه . مكتفاً بسلاسل لا أراها . غادرتني القدرة على الحركة والكلام وغمرتني حالة كابوسية لا أقوى معها على الصراخ أو الاحتجاج أو الدفاع عن المرأة التي كان يصارعها وكأنه يريد قتلها . كنت أرقبه بغضب وعجز واشمئزاز وهو يمارس طقوسه الهمجية معها . يلوي عنقها ويثني ذراعها ويجثم فوقها يمزق عن صدرها القميص وحاملات النهود ليبدأ وليمته الوحشية . طالعاً من ظلام القلب . من تلك الأرض السوداء العامرة بالأشباح والمستنقعات والطحالب والسحالي والثعابين ذات الأجراس . كائن متوحش ، شره وشرس وعدواني . مستخدماً أنيابه وبراثنه في تدمير الشيء الوحيد المبهج ، المضيء في حياتي . يجب أن أفصده دماً . وبمثل ما دمر حياتي يجب أن أدمره ، الآن وفي هذه اللحظة . ولكن أشباحاً تقف بعتبة الباب تسألني بارتياب عن سبب الصراخ والضجيج .

قلت للرجل الذي يرتدي ملابس عمال المقهى :

- سأدفع ثمن فناجينك التي تحطمت ، فعد إلى زبائنك ، لأن ما حدث لا يهم أحداً غيري .

أردت أن أقفل في وجوههم الباب ، ولكن رجلاً أكثر أناقة وامتلاءً ، يرتدي بذلة وربطة عنق ، دفع الباب وتقدم دون استئذان يتفقد الشقة . كنت أرغب في

أن أرمي به خارجها ، ولكن الوهن والإعياء جعلاني زاهداً في عراك لا أقوى عليه . بدأ الرجل يباشر مهمة التفتيش بحثاً عن آثار الجريمة ، تفقد المطبخ والحمام . رفع أكوام البطاطين والشراشف . دس رأسه تحت الكراسي والدواليب المقلوبة ، وعندما لم يجد الجثة التي يبحث عنها ، سألني :

- أين ذهب الشخص الآخر؟

إذن فإن ما ظننته سراً أتعذب به وحدي أصبح شيئاً معروفاً لدى الآخرين . لعلك ظننت أنه مات . إن الشخص الآخر هنا . ينتشر في دمي ، ويختبئ في صدري ، ويطفئ كل نجمة تظهر في سقف النفق الأسود الذي أسير فيه . ولكن كيف عرفتموه وكشفتم سري .

- عن أي شخص تتكلم؟

- الشخص الذي تعاركت معه ، والذي أحدث هذه الجروح في وجهك وصدرك .

قلت هارباً من الإجابة :

- هل هو تحقيق؟

- إنني أمارس مهمتي كمسؤول عن الأمن .

- حسناً . لم يكن هناك شخص آخر . تعاركت مع نفسي .

تفحصني الرجل الأمني بنظرة طويلة ثم انفجر ضاحكاً . كتفاه يهتزان ، وجسمه يترجرج ، وهو يواصل ضحكته الصاخبة التي أضفت على مناخ الكارثة لوناً سيريالياً مدهشاً . وبكل ما يدور في رأسي من عواصف سوداء ، وما تثيره أزرار قميصها المتناثرة فوق الأرض من رغبة في البكاء ، وجدت نفسي أصاب بنوبة من الضحك . اندفعت أنا أيضاً أضحك مثله وكأنني اكتشف الآن أن هناك شيئاً في الدنيا نسميه الضحك ، ونعتبره نقيضاً للحزن والبكاء ، هو ما يمكن أن أعالج به هذه المرارة التي يفيض بها حلقي ، وحالة الاشمئزاز التي تصيبني بها جرثومة الفساد الناغلة في دمي . ضحكت ضحكاً أكثر صخباً من رجل الأمن . ثم فجأة تحولت ضحكاتي إلى نحيب . انتقلت من النقيض إلى النقيض ، وخرجت من

طقس الضحك ودخلت طقس البكاء، وكلاهما حارق، لافح، فاجع. أنكفىء فوق الأريكة المقلوبة وأنتحب. انتهيت من البكاء فوجدت الرجل جالساً أمام باب الغرفة ينتظرني. خرجت إليه أعتذر عما حدث، قائلاً بأنني فقدت هذا اليوم إنساناً عزيزاً ولم أعرف طريقة أعبر بها عن فجيعتي إلا بهذا المأتم الكربلائي الذي رآه. مبدياً له استعدادي لأن أدفع ثمن ممتلكات القرية التي تهشمت. أخذ بطاقة الهوية تحسباً لأي طارئ ينقض روايتي. وأعطاني مهلة أسبوع للبحث عن مكان أنتقل إليه. وعندما ذهب ووجدت نفسي أجلس وحيداً في الشرفة، لم أسرع إلى الحمام بحثاً عن شفرة حلاقة أقطع بها شرايين معصمي، فقد انتهى ذلك الزلزال الذي كان يدفعني لأن أعاقب نفسي وأضع حداً لحياتي. تحول إلى شعور بالاحتقار. احتقار لنفسي وللنوع الإنساني الذي أنتسب إليه، وأرى أن هذا الاحتقار شعور يليق بي. سأتعايش معه، وأقتنع به، وأمضي في الحياة مستسلماً لهذا التشويه الروحي الذي لا صلاح له. كنت في منطقة من وعيي أعلم أن شيئاً كهذا سوف يحدث. وعلى مدى العلاقة التي ربطتني بسناء كنت أدرك إدراكاً جازماً أن علاقتنا ستنتهي إلى مصير مثل هذا المصير. لقد رأيت ما حدث وتنبأت به زمناً قبل وقوعه. وكنت بشكل ما مهيأً له. فلماذا التوجع والنحيب وأنا أعرف منذ البداية أنني لن أكون كاسباً أبداً. وأنني إنسان منذور للعجز والتشويه ومحكوم عليه بأن يبقى خاسراً عبر كل مراحل العمر وتعاقب الفصول. لقد سقطت الجرار. تهشمت وانتهى الرقص، وسوف لن أجد شريطاً لاصقاً يعيدها إلى طبيعتها الأولى.

العتمة تزحف على البحر. وفيض من الريق المر يملأ حلقي. شجرة النخيل التي تتسلق جذعها السخارس وأغصان اللبلاب ويرتمي عليها ضوء المصباح، تبدو الآن عامرة بحشرات لا تحصى تسبح في دائرة الضوء.

لم تكن سناء إلا وهماً. طيفاً صنعته من أبخرة الحلم. ورغبة ترقد تحت أهداب العين تهيأت لي في صورة امرأة. مجرد أمنية عذبة راودتني ذات ليلة صيف، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، الذي يملك ذاكرة سحرية مليئة

بالأساطير والحضارات الميتة وعرائس البحر الوهمية ، وجزر الأحلام الكاذبة . امرأة رأيتها في مرايا النوم ، وصنعت منها حبيبة تضيء بجمال عينيها ظلمة النفق الذي لا نهاية له .

لم تكن هناك امرأة اسمها سناء ، رافقتني إلى شقتي هذا المساء . كان ذلك مجرد خدعة لمعالجة الحنين المرضي إلى أزمنة الحلم . مجرد سراب تراءى لي في مدينة الصحراء وقيظ الشمس ورياح القبلى .

بهذه القناعة سوف أواجه فصل الخريف الذي يكره الأوهام ، ويحب الحقائق ، ويعري الطبيعة من مظهرها الكاذب .

وبهذه القناعة سوف أقوم لأغتسل وأزيل الدم الذي مازال يسيل طازجاً فوق وجهي . سأرتدي للدنيا قميصاً جديداً ، وسأذهب لألتقي بالمرح والغناء في آخر سهرات الصيف التي يقيمها أنور جلال . سأستفيد من فلسفته في اللهو واللعب ، وسأعتبرها خلاصة دراسة في الدين والشريعة وكتب السماء . سأجتهد في أن أكون حوارياً مخلصاً من حوارييه ، وجندياً من جنود دولته الليلية ، التي لا ترفع أعلامها إلا عندما يغمر الظلام أعلام الدول الأخرى . سأتبعه وهو يحفر أنفاقه السرية تحت الأرض ، وسأتعلم منه كيف يصنع الإنسان لنفسه اسماً جديداً وشخصية جديدة ، يحقق بهما الانسجام مع قوانين هذا الزمان .

سأحتمي بمظلة عبد القادر أمين . الرجل الذي يخبئ في جيوبه القصور والمزارع والنساء الجميلات والأكاذيب المدهشة ، وسأصبح عضواً في الشبكة التي يدير بها الكون . ها هو يتلقاني بابتسامة تكشف عن أسنانه السوداء الجميلة التي تضيئها سن ذهبية في قاع الفم ، لا تظهر إلا إذا ابتسم مثل هذه الابتسامة العريضة التي تنبئ بالرضا والقبول ، واختياري مترجماً وحيداً للرسائل التي يتبادلها مع آلهة الأولمب بعد أن هجرت جبالها وصارت تتكلم الإنجليزية وتدير الشركات المتعددة الجنسية من أبراجها العالية في هونج كونج .

سأكتب الحلقات الإذاعية لرشيد غانم ، تمجيداً للتشويه الجميل وأكداس القبح المبهجة التي تملأ المدينة ، وتأكيداً للتراث الذي أرساه شيخ جليل ، عرف أن

الإذاعة ليست إلا مكاناً لتسريح الأنف والحلق . ها هو أيضاً يوافق على أن أعينه ببعض السعال ، ويتطوع مشكوراً بأن يعيرني قناعاً من أقنعته الساحرة ، أواجه به السياف مسروراً كلما جاء يداهم جلستنا .

سأشرب هذه الليلة كثيراً . سأشرب حتى الثمالة . سأسعي لأن أكون مهرج السهرة ومضحك أوليائها الكبار ، ثمناً لما أتقاضاه من طعام وشراب . ما هي حكاية ذلك المزارع الذي جاء من قرية يجفف أهلها الفائض عن حاجتهم من فواكه الموسم ، نعم ، تذكرت لقد مر صدفة بشواطئ هذه القرية ، فأدهشه أن يرى النساء يرقدن شبه عاريات تحت الشمس ، وتأسف لأن لرجال المدينة فائضاً من النساء يجففونه بينما يعاني هو ورجال قريته جوعاً إليهن . يضحكون . ولكنني سأحكي نكتاً جنسية أكثر إثارة عن الرجال الذين يضاجعون الجنيات . لون جديد يستغربون كيف اهتديت إليه ، فأقول لهم بأنني أمارس الآن تخصصي كرجل كتب أطروحته عن الجنس ، ويريد توظيف خبرته العلمية في خدمة هذه السهرة . أحكي لهم طرفاً من الحكايات التي أعرفها ثم أستعير مكر شهرزاد وأسكت عن بقيتها ، فيتلهفون لسماعها في سهرات قادمة ، مدركين أنني الرجل الوحيد في هذه المدينة الذي يستطيع أن يعطي للنكت الجنسية غطاءً أكاديمياً . سأهتدي إلى كل مهاراتي التي لم أكن أعرف قيمتها ، وسأستثمر هذا العطب الذي يشوهني ، سأستدعيه ليكون جاهزاً على الدوام ، وقادراً على تأكيد انتمائي لهذا الزمان .

سألتقي هناك بسعاد . المرأة التي تلجأ إلى الانتحار مرة كل عام . والتي تتمتع الآن بعمرها الإضافي الخامس . والتي تؤمن بصعقة الكهرباء الناجمة عن احتكاك الأجساد . امرأة لا يخيفها الاغتصاب . لأنها أدركت منذ البداية أن الاغتصاب هو شريعة الحياة . وارتضت أن تقضي أعمارها الإضافية غاصبة ومغتصبة . لا يضيرها أن تنتمي إلى هذا الفائض من النساء ، الذي يجففه رجال المدينة تحت الشمس ، ليكون صالحاً لكل الفصول . ها هي تعود إلى شقتي ، وتشهد آثار الحريق الذي اشتعل بها ، فأخبرها بأنني أحرقت كل مراكبي القديمة ،

وافتعلت خصاماً مع امرأة الحلم التي لا وجود لها ، لكي لا تفسد علاقتي بك ، لأنك أنت الأصل ، وهي الصورة . أنت الحقيقة وهي الأكذوبة ، فانطرحي فوق سريري مائدة من الفاكهة المجففة .

سأنهض مبكراً وأذهب إلى الجامعة . سأكون قد غسلت أسناني وحلقت وجهي ، ووضعت فوقه كميات كبيرة من ماء الكولونيا ، تخفي رائحة الدم وآثار الجروح ، وارتديت بذلة ذات ألوان زاهية تمنح الناس انطباعاً جديداً عني . سأدير وجهي معرضاً عن رؤية المناطق التي ينكسر فوقها ضوء الشمس ، لكي لا أرى سراباً له شكل امرأة ، أوهمت نفسي أنني أحبها . وسأغادر الجامعة سعيداً لأنني لن أعود إليها ، بعد أن سمعت الخبر الذي عشت أنتظره منذ أن بدأت العمل بالجامعة . لقد ألغوا تدريس اللغة الإنجليزية وأقفلوا قسمها . أطربني الخبر الذي جاء يحقق نبوءتي عندما اعتبرته قسماً زائداً عن الجامعة ، يعلم لغة إضافية لا أحد يريدها . انتهت علاقتي بهذه الحاجة التي لم أشعر بأي انتماء إليها . وسأعود مواطناً يطفو على سطح الدنيا كما تطفو فوق الماء الطحالب الجميلة المدهشة ، وأعشاب البحر ذات العفونة الساحرة ، وسأنضم إلى المبدعين الحقيقيين من أبناء هذا المجتمع الذين حققوا معجزة البقاء عاطلين ويتقاضون رواتب من خزينة الدولة .

سأمضى في الطرقات متحرراً من الهموم والمسؤوليات وأمراض الاغتراب التي يصيبني بها النهوض للعمل كل صباح ، بعد أن صرت ودون فضل أبي وأمي ؛ أعيش حياة الأغنياء بالوراثة . متصالحاً مع صناديق الأسمنت ، وطرقات الأسفلت ، وأكداس القمامة المبهجة ، وأرتال الشاحنات التي تلون الأفق بدخانها الجميل . متواصلاً مع الرجل الآخر الذي كان خصامي معه سبب ابتلائي بالعلل وانشطار الذات . نابذاً مدن الحلم والأسطورة التي لا تظهر إلا في أزمنة المرض والاكتئاب . أرتدي ابتسامة لا تغيب . وأخترق الشوارع ماشياً دون أن أحس بأنني أعوم في كوب من الماء ، لأنني لا أحمل ذاكرة ولا تاريخاً . لا وهماً ولا حلماً ولا عشقاً كاذباً . لا أنتمي لأحد إلا لظلي . ولا أعترف إلا بأقنعتي . ولا

أزهو بشيء إلا بهذا العطب الجميل الذي أصبح وساماً يتلألأ في ضوء الليل .

زمن مضى ، وزمن آخر لا يأتي ، ولن يأتي .

وبين الزمن الهارب إلى الوراء ، والزمن الهارب إلى الأمام ، زمن ثالث هو زماني ، الذي سأكون فخوراً بالانتماء إليه . فخ جميل بين زمانين . حفرة تغطيها شبكة مدفونة تحت الأتربة والحجارة والطحالب والحشرات والحشائش والديدان ، لا يراها إلا من أضاء قلبه عطب كغلس الظلام .

زمن مضى ، وزمن آخر لن يأتي .

وبينهما حفرة ، لا تلمع في سقفها النجوم الكاذبة ، ولاتنبت في أرضها زهرة الغواية التي لها تويج من نار ، ولا تزورها نوارس البحر ذات الأجنحة الموحشة . سأعرف طريقي إليها بفضل هداية الرجل الآخر الذي صار صاحبي ومرشدي في رحلة العمر . سأسقط في الحفرة التي كنت تائهاً عنها ، أنشد الحماية والأمان وأعلن انتمائي لهذا الزمان .

سأسقط سقوطاً جميلاً ، يليق بإنسان يعتنق فلسفة اللهو واللعب . سأسقط وأنا أضحك وأغني ، وأرقص معانقاً ظلي .

زمن ثالث هو زماني

زمن السقوط والفخاخ والأقنعة والطحالب .

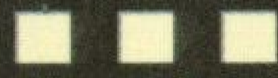
زمن الرعب الجميل ، الجميل ، الجميل .

الثلاثيّة الروائيّة

سأهبك مدينة أخرى
هذه تخوم مملكتي
نفق تضيئه امرأة واحدة

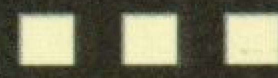
(هذا عمل كبير وفاتن وشاعري .)

د. علي الراعي / المصوّر



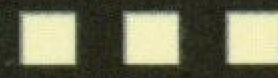
(هي رواية فاتنة ، شائقة إلى حدّ كبير ، تكشف عن كاتب مقتدر مسيطر على أدواته ، خبير بفنّه .)

خيري شلبي / الإذاعة المصريّة



(من رحم القصة القصيرة خرج الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه ،ليبدع عملاً روائيّاً كبيراً وفذّاً ، يقدّم به إضافةً جديدة لإنجازات الرواية العربيّة الحديثة ، فهذه الثلاثيّة الروائيّة هي كتاب الحياة ، وجماع الحكمة المقطّرة .)

أحمد محمّد عطيّة / الموقف الأدبيّ



(إحدى شوامخ الأعمال الأدبيّة .)

المستعرب : لي رونغ جيان / أدب ونقد



(رواية الفقيه علامة للبحث عن طريق آخر لفهم أزمة الذات ، ولتحقيق هويّة وطنيّة عربيّة للكتابة الروائيّة .)

د. سيّد البحراوي / الثقافة العربيّة



(تحفة حديثة تجدّد ألف ليلة وليلة .)

محمّد علي فرحات / الحياة





المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١